الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية
Faculté des sciences humaines et de la civilisation islamique
جامعة وهران
Université d'Oran

أطروحة مقدمة لنيل شـــهادة الدكتوراه

في التاريـــخ والحضارة الإسلامية موسومة بـــ:

البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني

ودورها الثقـافي و السيـاسي

(925 – 1246هـ / 1520 – 1830م)

تقديم الطالبة:

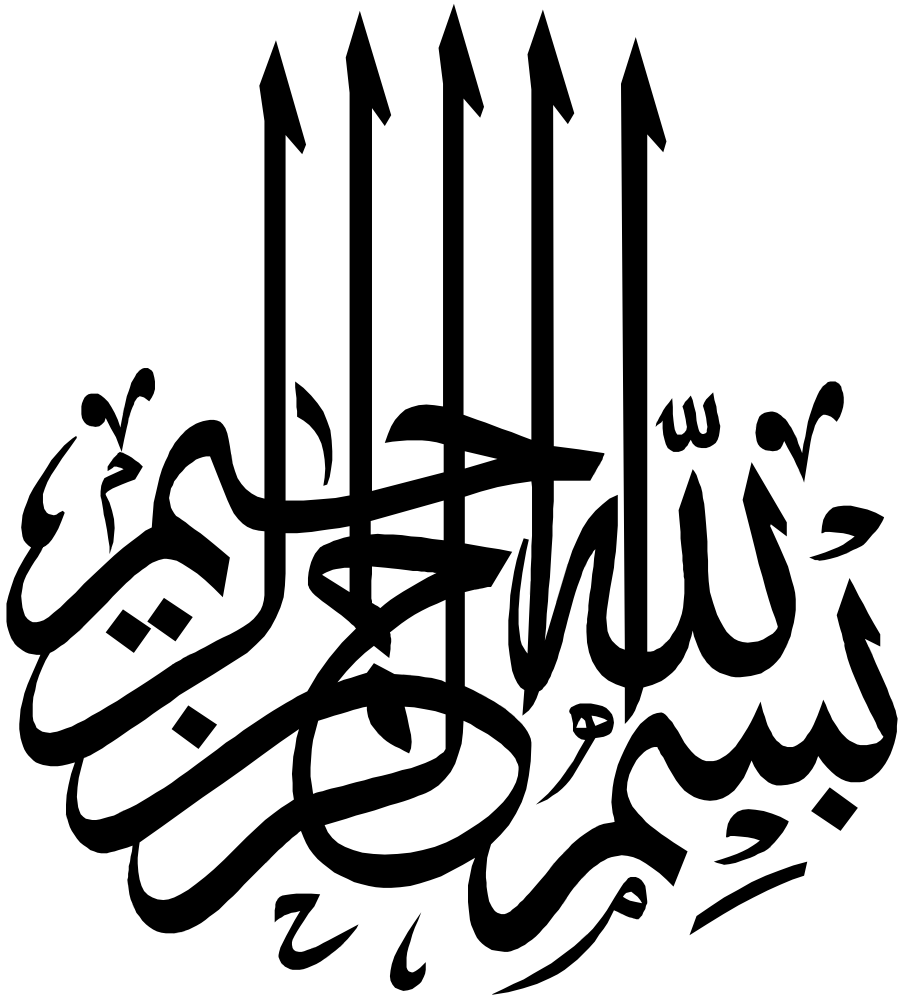
فوزية لزغم

بإشراف الأستاذ الدكتور:

محمد بن معـــمَّر

أعضاء لجنة المناقشة	الرتـــبة	الجامعة الأصلية	الصفة
عبد المجيد بن نعمية	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	رئيسا
محمد بن معمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	مشرفا ومقررا
محمد بوركبة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة وهران	عضوا مناقشا
محمد بوشنافي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
عتو بلبراوات	أستاذ محاضر (أ)	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
نصر الدين بن داود	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1434- 1435هـــ/ الموافق ل: 2014/2013م.



إهـــــــــــــداء

أهدي ثمرة جهدي على تواضعه لكل من كانوا خير مُعين لي في إعداد

هذا البحث:

إلى أمي الغالية وأبي العزيز – حفظهما الله ورعاهما–

إلى أخويَّ وأخواتي.

إلى كل أسرة مخبر المخطوطات «شمال إفريقيا » بالحضارة الإسلامية

وإلى كل زملائي وزمـــــيلاتي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة ابن خلـــدون تيارت، وأخص بالذكر: الأستاذ رمضاني حسين.

وإلى كل مـــن ساهم في إعداد هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة.

شـــكـــــر وامـــتـــــنـــان

الحمد لله على الذي لا يُخيِّب من استدعى نِعمه، ولا يخيب من استجدى كرمه.

إنَّه لمن دواعي الأمانة والوفاء أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من دعمني في إعـــداد هذا البحث: مبتدئة بأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد بن معمر؛ الذي كـــان لي نعم المعين في إعداد هذا البحث، فله مني جزيل الشكر والامتنان على ما أفـــادني بـــه من ملاحظات قيمة، ونصائح سديدة.

وهذا العمل مدين بالشكر والامتنان لكوكبة من الأساتذة الذين كان لهم الفضل في إخراجه إلى النور بعد الله سبحانه وتعالى، وأخص بالذكر: أستاذي الأستاذ الدكتور عبد المجيـــد بن نعمية؛ الذي ما نلبث أن نهرع إليه نطلب رأيه ونصحه، فلا يبخل علينا بشيء منه، فله مني خالص الشكر على ما أفادني به من ملاحظات قيمة أعانتني كـــثيرا في البحث.

وهذا العمل مدين أيضا بالشكر الجزيل للدكتور أحمد الحمدي؛ علـــى توجيهاتـــه ونصائحه قيمة، والوقت الثمين الذي خصني به.

والشكر موصول لزملائي الأساتذة الذين زودوني ببعض الوثائق الضرورية لهـــذا البحث: أستاذي الدكتور أحمد بحري، وزميل المشوار الدراسي الدكتور محمد العباسي، والدكتور محمد بوشنافي، والدكتور سعدي شخوم، والدكتور شرف عبد الحق.

كما أتوجه بالشكر الخالص إلى لجنة المناقشة الموقرة على تفضلها بقـــراءة هـــذه الأطروحة ومناقشتها وأخص بالذكر: الدكتور محمد بوركبة، والدكتور بن داود نصر الدين، والدكتور عتو بلبروات.

كما أشكر كل من ساهم في إعداد هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة، والله لا يضّيع أجـــر من أحسن عملا.

قائمة الاختصارات

✍- المختصرات باللغة العربية	✍- المختصرات باللغة الفرنسية
- تح: تحقيق - تر: ترجمة - تع: تعليق - تق: تقديم - ج: جزء - دخ: دينار خميسي - رد: درهم - س: سنة - س. م. ش: سجلات المحاكم الشرعية - ص: الصفحة - ط: طبعة - ع: عدد - ع: علبة - ق: ورقة - ق أ: قرش إشبيلي - مج: مجلد - مخ: مخطوط - م: ميلادي - هـ: هجري	-Ibid: المرجع نفسه - N: الرقم - Op .cit : المرجع السابق - P: الصفحة - R. A: المجلة الإفريقية - T : Tome.

– ها: هامش	

مقدمة

عرف المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية كغيره من المجتمعات الإنسانية ظـــاهرة البيوتات، وهي أسر متنفذة تمكنت من البروز في مجال واحد أو في عدة مجالات، ولهذا يمكن تصنيفها حسب مجال بروزها إلى بيوتات سياسية أو دينية أو علمية...إلخ، وأكثر أصـــناف البيوتات وجودا بالجزائر العثمانية هي البيوتات الدينية والعلمية، ورغم امتزاج العلم بالـــدين في تلك الفترة، إلا أن البيوتات التي أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء الذين تصدوا للتدريس والتأليف والإفتاء والقضاء...إلخ، هي التي توصف بأنها بيوتات علمية، أما البيوتات التي اشتهرت بخدمة التصوف بإعطاء العهد وتلقين الأوراد، و لم يشتهر مـــن أبناؤهـــا مـــن تصدى للتدريس أو التأليف...إلخ فتوصف بأنها بيوتات دينية أو بيوتات مرابطين، وبمـــا أن كليهما خدم الدين، فإن البيوتات العلمية اصطبغت أيضا بالصبغة الدينية، أمـــا البيوتـــات الدينية التي لم يخدم أبناؤها العلم بالشكل التي ذكرناه فلا توصف بأنها علمية.

وبما أن العلوم التجريبية كالطب والصيدلة والهندسة وغيرها لم تحـــض بالاهتمـــام في الجزائر آنذاك، فلا يمكننا الحديث عن بيوتات علمية في هذا المجال، فالبيوتات العلمية كلـــها مختصة في العلوم الشرعية والأدب والعلوم النقلية بصفة عامة.

إنَّ ما تمتلكه البيوتات العلمية من إمكانيات ماديـــة ومـــؤهلات معنويـــة، مكنـــها من أداء دور مهم في مجالات عدة، وخاصة في المجال الديني والثقافي والسياسي.

فأما مساهمتها في الجانب السياسي، فقد اعتمد العثمانيون على سياسة تقوم على اتخـــاذ وسائط يعتمدون عليها في حكمهم للبلاد من بين الأطراف الفاعلة في المجتمـــع، وبمـــا أنَّ البيوتات العلمية الكبرى هي الأكثر نفوذا وتأثيرا فيه إلى جانب البيوتات الدينة، فقد لجأت إليها وعملت على كسبها لتستفيد من نفوذها في حكم المجتمع، فأدت هذه البيوتـــات دورا سياسيا بالغ الأهمية.

وتعد البيوتات العلمية – وهي موضوع دراستنا– المحرك الأساســـي لعجلـــة الحيـــاة الفكرية والثقافية بالجزائر خلال العهد العثماني، وذلك لحرص الأسر العلمية علـــى تعلـــيم

أبنائها، فهي التي أمدت المجتمع بالعلماء المدرسين والفقهاء النجباء والقضاة والشعراء والأدباء لأجيال. أما التأثير الكبير لأعيان البيوتات العلمية في المجال الفكري فهو من خلال تكفـــل زاوياها ومدارسها بالتعليم بمختلف مستوياته.

إن ارتباط البيوتات بالمجالات الحيوية في الجزائر العثمانية، يدفعنا إلى التساؤل عن بدايـــة علاقتها مع السلطة الزمنية الجديدة، فعند التحاق الجزائر بالعثمانيين كان بهـــا عـــدد مـــن البيوتات العلمية، بعضها بيوتات عريقة جدا، إذ استمر فيها العلم والجاه لأجيـــال في ظـــل الزيانيين والحفصيين، فكيف تعامل العثمانيون مع تلك البيوتات؟ وهـــل اســـتمرت تلـــك البيوتات في ظل العثمانيين أم لا؟

كما شهد العهد العثماني نشأة بيوتات علمية كثيرة بالمدن والأرياف، فما هي العوامل التي ساهمت في نشأة واستمرارية تلك البيوتات، أهي عوامل داخلية أي من داخل الأسرة ذاتهـــا، أهي عوامل خارجية أي من خارج الأسرة؟

– هل كان الجو العلمي والثقافي والسياسي السائد في الجزائر يساعد على بروز البيوتات العلمية؟ ثم كيف تأثرت تلك البيوتات بهذا الجو، وكيف أثرت فيه بدورها؟

ثم كيف كانت علاقة هذه البيوتات بالسلطة الحاكمة، وماهي الوسائل التي لجأت إليها السلطة من أجل كسب هذه البيوتات إلى جانبها؟ ثم ما هي الأدوار السياسية التي أنيطت بهذه البيوتات؟

هل كان العلم كافيا لوحده لبروز أي بيت علمي، أم كان لا بد من عوامل أخرى لذلك؟ وما هي الوسائل التي لجأت إليها البيوتات من أجل المحافظة على خصوصياتها وتألقها؟ وأخيرا هل كان العلماء الذين ينتمون إلى بيوتات علمية يحضون بشهرة وحظوة أكبر، من غيرهم من العلماء الذين لا ينتمون إلى بيوتات علمية، أم أن الأمر متروك للكفاءة والفرصة؟

ومن أجل الإجابة على هذه الأسئلة تم اختيار موضوع: « **البيوتات والأسـر العلميـة بالجزائر خلال العهد العثماني، ودورها الثقافي والسياسي (1520– 1830)**»"، فأما المجال الجغرافي للبحث فهو محدد بالجزائر العثمانية؛ أي المناطق التي شملها الوجود الفعلي للسـلطة العثمانية. وأما المجال الزمني للبحث فهو منذ الالتحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1520م إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م.

إنَّ هدف هذه الدراسة ليس هو حصر البيوتات والأسر العلمية بقدر ما هو تحديـد أسباب نشأتها واستمراريتها، ودورها في مختلف مجالات الحياة، والاهتمام بدراسة الظـروف والأوضاع المختلفة التي تحيط بها كالحياة العلمية، بل حتى السياسية، لما فيها من تأثير مباشر على ظهورها وتطورها، وفي اختفاءها.

أمَّا الأسباب التي حملتني على اختيار هذا الموضوع فهي كثيرة يتقدمها أهمية موضـوع البيوتات في حد ذاته، لما لها من تأثير على مختلف مناح الحياة آنذاك، إلى جانب عدم وجود دراسة أكاديمية – في حدود علمي– حول هذا الموضوع، وحتى الدراسات غير الأكاديميـة فلا توجد دراسة مستقلة هذا الموضوع، و لم يشار إلى البيوتات إلا عرضا.

وقبل أن يخرج البحث بالصورة التي هو عليها، اعترضتنا صـعـوبات جمَّـة أهمها:

– قلة المادة العلمية: حتى أننا لم نتمكن من تناول بيوتات بايليك التيطري لعدم وجـود مادة علمية كافية حولها. وبالنسبة لبيوتات دار السلطان وبايليك الشـرق والغـرب فـإن المصادر المتوفرة – على قلتها– تترجم لأبرز علماء البيت، في الوقت الذي لا نجد فيـه إلا إشارات واردة عرضا في بطون المصادر حول بقية علماء البيت، فكان علينا تتبع أخبارهم في ثنايا المصادر.

وأمام قلة المادة العلمية يطرح مشكل تشابه الأسماء في الأسرة الواحدة، ويطرح إشكال آخر وهو تغير أسماء بعض العائلات، فهناك أسر تغير اسمها بعد ظهور شخصية ذات نفـوذ

قوي، فقد يحمل البيت اسمه، فقلة المادة العلمية قد تحرمنا من معرفة أن هذه أسرة هي امتداد لأسرة سابقة.

كما أن تحديد الأسر العلمية في حد ذاته لا يخلو من صعوبة لنفس السبب، وهو قلة المصادر التي تناولت الحياة الثقافية، فلما تتوفر المصادر قد يشار إلى العالم أنه من بيت علمي بعبارة " هو من بيت علم"، أو "هو من أسرة ذات علم وصلاح"، ولكن لما تغيب هذه المصادر، ولا توجد تراجم تحدد صلة القرابة التي تجمع بين العلماء الذين يحملون نفس اسم الشهرة قد يوقع الباحث في إحراج في نسب بعض العلماء لأسر معينة، سيما مع الأسماء ذات الانتشار الواسع.

وما زاد في صعوبة المهمة اتساع المجال الجغرافي للبحث، فهو يشمل كل الجزائر العثمانية، ولمدة تزيد عن الثلاثة قرون، فقد كان علينا ترجمة علماء كل بيت وأسرة علمية واحدا واحدا، إذ معرفة هؤلاء العلماء ومستواهم العلمي ومساهمتهم في المجال الثقافي هي التي تمكننا في النهاية من أن نحكم على هذا البيت أو تلك الأسرة بأنها علمية.

ليس هذا فحسب، بل كان علينا الوقوف على مساهمة البيوتات وتأثيرها وتأثرها في مختلف مناح الحياة الاجتماعية، الثقافية، والسياسية...إلخ. ولكل مجال مصادره وآليات البحث فيه.

أمّا المنهج المتَّبع فهو المنهج السردي التحليلي، فقد ناقشت كل ما رأيت أنَّه يستحق المناقشة والتحليل، محاولة من وراء ذلك كله التوصل إلى استنتاجات وأفكار جديدة.

– وبالنسبة للبيوتات التي وجدت خلال العهد الوسيط، واستمرت خلال العهد العثماني، فقد كان من الممكن أن نترجم لها في فصل خاص إلا أن ذلك كان قد يحدث انقطاعا في التعريف بالبيت، ولهذا عرفنا بها في صدد التعريف بالبيت.

وأما العلماء الذين عاشوا في أواخر العهد العثماني وبداية فترة الاحتلال، فإن هـــؤلاء العلماء تلقوا تكوينهم العلمي خلال العهد العثماني وعاشوا خلال القرن التاسع عشر، ولهذا عرفنا بالبارزين منهم فقط كالأمير عبد القادر، أبو حامد المشرفي لأن ما أنتجوه خلال هذا القرن إنما هو نتاج التكوين الذي تلقوه خلال الفترة الأولى من حياتهم.

– وقد اعتمدنا في إنجاز هذا البحث على مصادر متنوعة منها المخطوطـــة والمطبوعـــة، وأكثر المصادر المخطوطة إفادة للموضوع:

– " وثائق تخص أسرة الكتروسي بمكتبة جمعية الظهرة – بمازونة":

وعددها الوثائق التي حصلنا عليها 14 وثيقة، وهي غير مرقمة، وتعتبر هذه الوثائق المصدر الوحيد للتعريف بهذه الأسرة. وأغلبها عبارة عن ظهائر من البشوات وبايات الغرب، وبعض رجال الدولة إلى علماء بيت الكتروسي بخصوص تعيينهم في مناصب الفتوى والقضاء والخطابة والإمامة، ووهناك وثائق خاصة فقط بمنح امتيازات لعلماء هذه الأسرة. ورسالتان موجهتان إلى بعض الموظفين المسؤولين عن سير المدينة بخصوص حل خلاف بين المدرسين داخل أحد مساجد مازونة، وكان أولاد المهدي الكتروسي طرفا في هذا الخلاف، ووثيقة واحدة هي استجازة لأحد علماء الأسرة. فقد مكنتنا هذه الوثائق من معرفة علماء بيت الكتروسي، ووظائفهم وامتيازاتهم، وأمور أخرى تخص هذه الأسرة.

– و"سجلات المحاكم الشرعية" بالأرشيف الوطني ببير خادم، وهي عبارة عن عقود الأوقاف والبيع والشراء وغيرها من العقود، وبعضها عبارة عن محاضر للمجلس العلمي المنعقد بالجامع الأعظم، ولهذا فهي تتضمن إشارات كثيرة لعلماء ينحدرون من بيوتات علمية، خاصة المفتين والقضاة والعدول الواردة أسمائهم في تلك العقود.

– « نوازل الفكون» لمحمد بن عبد الكريم الفكون وتتجاوز عدد صفحاتها 588 صفحة، وهي تضم عدد كبير من النوازل التي كتبها علماء بعضهم كانوا مفتين رسميين وبعضهم لم يكونوا موظفين رسميين، وإنما أفتوا بصفتهم كبار العلماء، وأغلب النوازل تخص علماء من

مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني، وفيها نوازل لعلماء من مدينة الجزائر، ومصر، وتونس، كما نجد في المخطوط بعض النوازل التي تعود إلى الفترة الوسيطية.

وهذه النوازل مرتبة على حسب موضوعاتها بهذا الشكل مثلا:" من مسائل النكاح والطلاق والخلع والعدة والنفقات"، " ومن مسائل البيوع والصرف والشفعة والقسمة والاستحقاق"، :" ومن مسائل الشركة والوديعة والعارية و... والصلح والغصب " إلخ.

ولهذه النوازل أهمية كبيرة بالنسبة لموضوعنا من حيث بعض الموضوعات التي تناولتها، والعلماء الذين أصدروا هذه الفتاوى.

- «ثبت أحمد البوني » للشيخ أحمد بن قاسم البوني، وهو يضم حوالي 63 صفحة، وهو عبارة على إجازة كتبها الشيخ البوني لابنه أحمد زوق وقرنه فيها بأحد أصدقائه، ونظرا لطولها اعتبرت ثبتا لا إجازة، وقد تطرق فيها مؤلفها لمشايخه من الجزائر، وتونس ومصر وغيرها، وفيه ذكر مؤلفاته.

وقد تمكننا هذا المخطوط من الترجمة لمؤلفه، وللتعريف بعلماء أسرة البوني ونشاطاتهم الثقافية، وعلاقة علماء البيت الواحد ببعضهم البعض. فهذا الثبت في حد ذاته تجسيد لرغبة العلماء في التحصيل العلمي لأبنائهم.

- «ثبت مصطفى العنابي » لمصطفى بن العنابي، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط- المملكة المغربية، ويتناول فيه مؤلفه مروياته عن شيخه محمد شقرون المقري التلمساني، أحد علماء بيت المقري الشهير، وهو تقريبا المصدر الوحيد للتعريف بهذا العالم. وهنا تكمن أهمية هذا المخطوط بالنسبة لموضوعنا.

- « ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة » لأبي حامد محمد بن علي المشرفي، وعدد صفحاته حوالي 40 صفحة، ويعتبر هذا المخطوط أهم مصدر اعتمدنا عليه في التعريف ببيوتات إقليم الراشدية ذات النسب الشريف، بحيث خصص المشرفي حيزا مهما في هذا المخطوط للتعريف ببيت المشارف، وبما أن المشارف لم

يكونوا بيتا واحدا، فقد عدد المؤلف بيوته بيتا بيتا، وذكر علماء كل بيت، كما تطرق إلى التعريف ببيوتات أخرى من الراشدية، مثل بيت سيدي عبد القادر بن المختار، بيت دح بن زرفة وغيرها، ثم تطرق للتعريف بالشيخ محمد بن علي المجاجي، ورغم أنه خصص له فصلا كاملا إلا أن معلوماته حوله قليلة.

- "تقييد في النسب المشرفي" لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط. ومؤلفه هو من علماء بيت المشارف المتأخرين، انتقل صغيرا إلى المغرب الأقصى مع أسرته بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، والمخطوط مهم جدا فيما يتعلق بنسب المشارف، والمؤلف يتطرق لبعض علماء المشارف، والأهم من كل هذا فالكتاب نموذج عن تمسك البيوتات بأنسابها الشريفة وطريقة دفاعها عنها.

كما اعتمدت على عدد من المصادر المطبوعة وأهمها:

- « تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلماءها » لابن المفتي حسين بن رجب شاوش: لم يعرف اسم مؤلف هذا الكتاب، ولكنه اشتهر بابن المفتي لكون أبيه حسين بن رجب كان مفتيا للحنفية، ورغم ضياع النسخة الأصلية من هذا الكتاب إلا أن الأستاذ فارس كعوان أعاد تجميع نصوصه التي نشرت في عدد من الكتب والمجلات: فقسم مترجم عن النص الذي نشره دلفان في المجلة الأسيوية 1922، وقسم مأخوذ من النص الذي نشره نور الدين عبد القادر في كتابه "صفحات في تاريخ مدينة الجزائر"، وديفلوكس في المجلة الإفريقية، وهكذا تم إحياء هذا الكتاب مرة أخرى. وهو أهم مصدر يتناول علماء مدينة الجزائر في العهد العثماني، بحيث ترجم للعلماء الذين تولوا منصب الإفتاء المالكي والحنفي منذ القرن الحادي عشر الهجري، إلى سنة 1166ه/1753م، تاريخ الانتهاء من تأليف هذا الكتاب.

- « نزهة الأنظار في فضل علم التواريخ والأخبار » للشيخ الحسين بن محمد الورثيلاني، وتعرف "بالرحلة الورثلانية": وهي رحلة حجازية، وهي أيضا المصدر الأساسي للتعريف

بمؤلفها وبأسرته، وهو يرسم لنا صورة عن مختلف جوانب الحياة ببلاد زواوة، كما أنه خصص صفحات كثيرة للتعريف بالعديد من الأسر العلمية ببلاد زواوة.

- « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » للشيخ عبد الكريم الفكون المتوفى، انتهى الفكون من تأليفه سنة 1045هـ، وبلغت عدد تراجمه 75 ترجمة لعلماء قسنطينة ونواحيها، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، اشتمل الكتاب على أربعة أصناف من التراجم لكل صنف فصل خاص به. الأول للعلماء والصلحاء المقتدى بهم، والثاني لمدعي العلم والمتشبهين بالعلماء، والثالث لمدعى الولاية والدين من الدجاجلة والمبتدعة، أمَّا الفصل الختامي فقد خصصه لذكر بعض الأصحاب والأحباب.

وهو مصدر مهم جدا للحياة الفكرية وللبيوتات القسنطينة، رغم أنه وضع للنصح العام كما يقول مؤلفه. فهو يترجم علماء مدينة قسنطينة، ولا يغفل عن ذكر صلة القرابة التي تجمع بين علماء الذين يترجم لهم.

- «الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة » للشيخ أحمد بن قاسم البوني، الكتاب نظمي، وهو مقسم إلى فصول كل فصل فيه منظومة خاصة، تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه خصص العديد من الفصول للتعريف بأسرته أجداده ووالده وأبناؤه، إلا أن لجوئه للنظم حرمنا كثيرا من فوائده، فهو يشير إلى هؤلاء العلماء دون التوسع في الترجمة لهم.

- « فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته » لمحمد أبي راس الناصري المعسكري: يكتسي الكتاب أهمية كبرى إذ يسلط الأضواء على حياة صاحبه وآثاره، ويعطينا صورة عن التعليم في مازونة ومعسكر اللتين درس بهما المؤلف، يعرف العديد من العلماء بمازونة وبمعسكر، وحتى بمدينة الجزائر.

وبالنسبة لأسرته فقد ذكر المشتغلين بالعلم من أسلافه واحدا واحدا، ونلاحظ حرصه الشديد على وصف أسلافه بصفة العلم، مع أنهم لم يكونوا من كبار العلماء.

– « أشعار جزائرية » للأديب أحمد بن عمَّار: الكتاب هو اختيارات لابن عمار من ديوان الشاعر، ومفتي الحنفية الشهير الشيخ محمد بن محمد بن محمد ابن علي. أمَّا الديوان الأصلي فقد جمع فيه صاحبه إنتاج أبرز شعراء الجزائر خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين، منهم: جده الأعلى والأدنى ووالده، ومحمد القوجيلي، وأحمد المانجلاتي، ومحمد بن راس العين، وأحمد بن عمّار، ومحمد ابن ميمون، وأضاف إليها بعض قصائده. وكان هدف ابن علي من هذا الديوان عرض نماذج من الأشعار لأبرز الشعراء خلال القرنين المذكورين، وهو يذكر مع كل قطعة مناسبتها، و لم يكن غرضه الترجمة لأصحاب القصائد.

– وهكذا فإن أغلب مصادرنا كتبت بأقلام علماء ينتمون إلى تلك البيوتات، وهذا النوع من الكتابة هو سيف ذو حدين إذ يوفر لنا مادة علمية مستفيضة أحيانا إلا أنها لا تخلوا في بعض الأحيان من الذاتية والمبالغة، لأنه يترجم لأسرته.

كما أن الكتابة حول المعاصرين والأقران مع ما توفره لنا من مادة علمية مهمة فهي الأخرى لا تخلو من ذاتية، لأن تخضع لعلاقة المؤلف مع العلماء المترجم لهم.

أمّا المراجع المعتمدة في البحث فهي كثيرة ومتنوعة من أهممها: مؤلفات الدكتور أبو القاسم سعد الله –رحمه الله–، ويتصدر القائمة « تاريخ الجزائر الثقافي »: اعتمدت بالخصوص على الجزأين الأول والثاني المخصصين للعهد العثماني (1500– 1830م). فقد تناول المؤلف كل ماله علاقة بالحياة الفكرية والأدبية والثقافية في العهد المذكور، كالتعليم والتأليف، والتصوف والعلوم، والفنون والمكتبات. وكان يختار في كل ميدان أكثر العلماء شهرة فيه ويترجم لهم تبعا له، فإن اشتهر عالم بالتدريس أُدرِج في فصل التعليم، وإن اشتهر بالتصوف أو بالتأليف في علم معين أدرج ضمنه وهكذا.

وممَّا زاد في أهمية هذا الكتاب اعتماد المؤلف على مصادر مخطوطة متنوعة مشتتة عبر مكتبات العالم. فهو يحلل ويناقش المعلومات التي يوردها، يجتهد في توضيح الملابسات.

ومع أن مؤلفه لم يخصص للبيوتات عنونا مستقلا إلا أنه عرف بعدد من العلماء الذين ينتمون إلى بيوتات علمية وتطرق لإنتاجهم الفكري، كما تطرق لعلاقة العلماء ببعضهم وبالسلطة الحاكمة.

ومن مؤلفاته المُعوّل عليها أيضا:« شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون داعية السلفية »، و« المفتي الجزائري: ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي (1775- 1850م) ». فالكتابان مخصصان لشخصيتين من أبرز علماء الجزائر العثمانية. الأول ينتمي لبيت الفكون القسنطيني والثاني ينتمي لبيت ابن العنابي. فقد أحاط في كل منهما الشخصية المدروسة من كل الجوانب، فتناول محيطها الفكري والسياسي، واهتم بالخصوص بمؤلفات العالم وآرائه. وبالجملة فقد استغل كل ما يقع بين يديه من مصادر حولها، خاصة المخطوطة. وكان في كل ذلك محللا ناقدا.

وقد قسمنا البحث إلى مدخل وبابين، المـــدخـــــــل بعنوان: « البيـــوتـــات: دلالاتها وخصـــائصها» تناولنا فيه مفهوم البيوتات اللغوي والاصطلاحي، ثم حاولنا رصد آراء المؤرخين في الحد الأدنى من الأعلام في الأسرة حتى تعتبر بيتا، ثم تطرقنا إلى طريقة تعامل الدول الإسلامية الأولى مع البيوتات، وتناولنا أيضا كيفية تعامل علماء الجـــزائر العثمانـــية مع مصطلح البيوتات، حتى نعرف ما إذا استخدموه بمفهومه صحيح، كما كان الأمر في العصور الإسلامية أم لا؟ وحاولنا أن نقف عند طريقة تعامل الدراسات الحديثة الخاصة بالعهد العثماني مع مصطلح البيوتات والأسر العلمية، والبيوتات العلمية والبيوتات الدينية، لما لهذا من تأثير على بحثنا.

أما الباب الأول فقد عنوناه ب:" **التعريف بالبيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني**"، ويضم ثلاثة فصول.

الفصل الأول خاص بالتعريف بالبيـــوتات والأسر العـــلمـــية بدار السلطان"، والفصل الثاني خاص بالتعريف بالبيـــوتات والأسر العـــلمـــية ببايليك الشرق، والفصل الثالث خاص بالتعريف بالبيـــوتات والأسر العـــلمـــية ببايليك الغرب.

وهذه الفصول مخصصة للتعريف بعلماء البيوتات فقط، بحيث تناولنا في كل بيت نسبه، ومكانته، وإذا كان موجودا منذ العهد الحفصي والزياني عرفناه بعلمائه في تلك الفترة تعريفا موجزا، ثم نترجم لعلماء البيت المراد التعريف به واحدا واحدا.

وبالنسبة للبيوتات الكبرى، والتي أنجبت عددا كبيرا من العلماء، خصصنا لكل منها مبحثا مستقلا، أما البيوتات والأسر التي تأتي في الدرجة الثانية، فجمعنا عدد من البيوتات والأسر في مبحث واحد حسب المنطقة التي تنتمي إليها.

ويضم الفصل الأول الخاص بالبيـــوتات والأسر العـــلمـــية بدار السلطان ستة مباحث، المبـــحث الأول خاص ببيـــــــت قـــــدورة، والثاني خاص ببيـــت ابـــن العـــــــنابـــــــي، أما المبحـــث الثالث فخصصناه لبيـــــــــت ابـــــن عـــــلـــــي، وهذه البيوتات الثلاثة هي أكبر البيوتات العلمية بمدينة الجزائر، فقد أنجبت العديد من العلماء والفقهاء ممن تولوا الإفتاء والقضاء بمدينة الجزائر. أما المبحـــث الرابع فخصصناه لبيـــــت أبهلول المجاجي بالقرب من تنس، وهي آخر منطقة تصل إليها حدود دار السلطان. وهذا البيت هو من البيوتات العلمية الكبرى أنجب العديد من العلماء أشهرهم الشيخ محمد بن علي المجاجي.

أما المبـــحث الخامس فخصصناه للتعريف بعدد من البيوتات والأسر العلمية يجمعها الأصل الأندلسي وأبرزها: أسرة ابن عبد اللطيف، وأسرة ابن نيغرو، وأسرة ابن مبارك القلعي، في حين خصصنا المبحث السادس للتعريف بعدد من البيوتات والأسر العلمية ذات الأصول المحلية والعثمانية، وأبرزها بيت المانجلاتي.

أما الفصل الثاني فهو مخصص للتعريف بالبيـــوتات والأسر العـــلمـــية ببايليك الشرق، ويضم ستة مباحث، ونظرا لكثرة البيوتات العلمية بقسنطينة فقد خصصنا لها ثلاثة مباحث الأولى، الأول خاص بالتعريف ببيـــــت الفـــــكـــــــون بقسنطينة، والثاني خاص للتعريف بثلاثة بيوتات علمية بقسنطينة منذ العهد الحفصي: وهي بيت ابن باديس وبيت الغربي وبيت الكماد، وتشترك هذه البيوتات في كونها بيوتات عريقة، كانت تتمتع بمكانة مرموقة جدا في ظل الحفصيين، إلا أن مكانتها تراجعت قليلا في ظل العثمانيين. في حين خصصنا المبـــحث الثالث للتعريف ببيوتات وأسر علمية متفرقة بقسنطينة وهي: أسرة ابن نعمون، والمسبح، والعطار، وأسرة ابن جلول وأسرة ابن عبد المؤمن.

ونظرا أهمية بيت ابن ساسي البوني وعدد العلماء الذين أنجبهم، فقد أفردت له المبحـــث الرابع، أما المبحـــث الخامس فخصصناه للبيوتات والأسر العلمية ببلاد زواوة، وأهم هذه البيوتات بيت الورثيلاني، وأسرة ابن مصباح، كما تطرقنا للتعريف ببيت بنو سيد الناس، وبيت ابن القاضي الغبريني، وقد وجد هذان البيتان من العهد الحفصي وأنجبا في ظله عدد من العلماء البارزين، أما خلال العهد الذي ندرسه، فلم نعرف إلا اثنان منهما في النصف الأول من القرن 16م، وقد عرفنا بهما لأن عدم معرفتنا بعلمائهم لا يعني بضرورة أنهم لم ينجبوا علماء خلال الفترة العثمانية إذ أن قلة المادة العلمية كثيرا ما حالت بيننا وبين التعريف بالعديد من البيوتات.

أما المبحـــث السادس فهو خاص بالتعريف بالبيوتات والأسر العلمية بإقليم الزيبان، وأبرز بيوتاته على الإطلاق بيت سيدي ناجي بالخنقة، كما تناولنا بالتعريف أسر علمية أخرى ببسكرة أسرة ابن رمضان، والأسرة الحافظية، وأسرة ابن عزوز.

والفصل الثالث فهو مخصص للبيـــوتات والأسر العلمية ببايليك الغرب، وهو يضم ستة مباحث، الثلاثة الأولى خاصة بالتعريف بالبيوتات بإقليم الراشدية، فالمبـــــحث الأول خاص بالتعريف ببيت المشـــــــــارف بإقليم الراشدية، وبما أن هذا البيت يضم عدد

من البيوتات فقد عرفنا علماء كل بيت على حدا، وخصصنا المبـــحث الثاني: للتعريف ببيت أولاد عبد القادر بن المختار بإقليم الراشدية، الذي جمع بين العلم والتصوف، وعرفنا في المبـــحث الثالث: بيـــــــــــوتات وأسر علمية متفرقة بمدينة معسكر وضواحيها، وأهمها بيت دح بن زرفة، وبيت أولاد أحمد بن علي بوشنتوف، وأسرة ابن سحنون الراشدي.

أما المبحث الرابع: فهو خاص بالتعريف بالبيوتات العلمية بمدينة تلمسان، التي تتميز بخاصية عن باقي بيوتات بايليك الغرب، وهي أن جل بيوتاتها نشأت خلال العهد الزياني، وهي: بيـــــت المقَّـــــــــــــــــري، بيت العقباني، وبيت ابن زاغو، ويجدر التنبيه إلى أننا لم نعد نسمع بعلماء هذه البيوتات الثلاثة بتلمسان منذ القرن 11ه/ 17م، أما بيت ابن الحاج المناوي اليبدري فقد نشأ على ما يبدو في أواخر العهد الزياني وأنجب العديد من العلماء في العهد العثماني، وقد كان تمتع بمكانة بارزة بالمدينة عند الاحتلال الفرنسي.

وقد خصصنا المبحث الخامس: للتعريف بالبيوتات والأسر العلمية بمازونة، وأهم هذه البيوتات بيت الكتروسي وبيت ابن الشارف المازوني. وقد ختمنا هذا الفصل بمبحث سادس خصصناه للتعريف بالبيوتات والأسر العلمية بمستغانم وقلعة بني راشد. وأهمها أسرة ابن حواء التي عاشت بمستغانم وبإقليم الراشدية أيضا، وأسرة الخروبي بقلعة بني راشد.

أما الباب الثاني فعنوناه ب:" **الدور الثقافي والسياسي للبيوتات والأسر العلمية ومكانتها الاجتماعية**"، وهو الآخر يضم ثلاثة فصول.

وقد ورد الفصل الأول بعنوان:" الدور الثقافي للبيـــوتات والأسر العلمية"، وهو يضم أربعة مباحث، تناولنا في المبحث الأول: زوايـــــا ومـــــدارس البـــــــيوتـــــات العـــــلمـــــية، تطرقنا فيه إلى الدور الفعال الذي قامت به البيوتات العلمية الكبرى من خلال الزوايا والمدراس التي أنشأتها، وأهمها زاوية آل آبهلول المجاجي بثغر تنس، زاوية –

مدرسة خنقة سيدي ناجي، زاوية بيت عبد القادر بن المختار القيطنة، مدرسة بيت ابن الشارف بمازونة.

وخصصنا المبحث الثاني: للأساليب التي لجأت إليها البيوتات من أجل محافظة البيـــوتات العلمية على خصوصيتها الثقافية، من خلال حرصها على تعليم الأبناء، وإشادة أبناء البيوتات العلمية بأسلافهم، توارث الوظائف في البيوتات والأسر العلمية، كما تناولت في هذا المبحث مكتبات البيوتات العلمية، التي كان يتوارثها الأبناء عن الآباء ويضيفون إليها كتبا جديدة وهكذا يزيد عدد كتبها.

أما المبحث الثالث: فعنوناه ب:" البيوتات والأسر العلمية والوظائف"، وحاولنا أن نقف على أبرز الوظائف التي كانت البيوتات تسعى لتوليها، وبالتالي الوظائف التي حدث تنافس بين العلماء من أجلها، وأهم هذه الوظائف هي: الإفتاء والقضاء، ولتوضيح الصورة أكثر أوردنا جدولا بيننا فيه بعض البيوتات والأسر التي توارثت القضاء والإفتاء، وخطة العدالة والتوثيق. وأدرجنا في هذا المبحث تحفظ بعض البيوتات من وظيفتي القضاء والإفتاء والوظائف المرتبطة بها، وإن كان ذلك قليل في العهد المدروس.كما تطرقنا إلى وظائف أخرى ارتبطت بها العديد من البيوتات والأسر العلمية كالخطابة والإمامة ونقابة الأشراف.

أما المبحث الرابع: فخصصناه للبيوتات العلمية وإمارة ركب الحج الجزائري، وأردنا من خلاله أن نعرف ما إذا كلفت البيوتات بإمارة الركب، وتناولنا فيه طريقة تعيين أميـــر ركـــب الحج الجزائري، ومهامه، والشروط التي يجب توفرها فيه، وركزنا على البيوتات التي تداولت على إمارة ركب الحج الجزائري.

أما الفصل الثاني من هذا الباب فخصصناه للدور السياسي للبيوتات والأسر العلمية، وهو يضم أربعة مباحث، تناولنا في المبـــــحـــــث الأول: علاقة العلماء والبيوتات العلمية بالسلطة الحاكمة، تطرقنا فيه لأسباب التقارب بين العلماء والعثمانيين، وأهمها عامل الجهاد،

ثم تناولنا الوسائل التي اعتمد عليها العثمانيون في التقرب من البيوتات العلمية والدينية، وتطرقنا أيضا لأسباب القطيعة بين السلطة والعلماء في أواخر العهد العثماني.

وخصصنا المبحث الثاني لعلاقة بيت ابن القاضي وآل المقراني ببلاد زواوة بالسلطة، إن هذان البيتان يختلفان عن كل البيوتات العلمية التي تطرقنا لها، لبروزها كأسر محلية حاكمة أكثر من كونهما بيوتات دينية وعلمية. أن بيت ابن القاضي بيت علمي محض أنجب عدد كبير من العلماء خلال العهد الحفصي، وتمكن خلال العهد العثماني من تأسيس إمارة عرفت بمملكة كوكو، ولهذا تناولنا علاقته مع السلطة.

أما آل المقراني فمنشؤه سياسي ثم تحول إلى بيت ديني، وهو يكتسي أهمية كبيرة بالمنطقة، ولهذا تناولنا علاقته مع السلطة، ورغم أنه ليس بيت علمي محض إلا أن بعض الوثائق تصف بعض رجاله بالفقهاء.

وخصصنا المبحث الثالث: الدور السياسي لبيت الفكون بقسنطينة، منذ تدخل عبد الكريم الفكون الجد في دخول العثمانيين إلى مدينة قسنطينة، إلى الدور السياسي لمحمد الفكون بقسنطينة في عهد الحاج أحمد باي.

أما المبحث الرابع: فتناولنا فيه الدور السياسي لعدد من بيوتات العلمية في المهام السياسية الخارجية، وكوسطاء لدى بعض القبائل المتردة، وعرجنا على موقف البيوتات من ثورات الطرق الصوفية في أواخر العهد العثماني، ومشاركة البيوتات العلمية في الجهاد في ظل العثمانيين، وختمنا هذا الفصل بدور البيوتات في مواجهة الاحتلال الفرنسي.

وختمنا هذا الباب بالمكانة الاجتماعية للبيوتات والأسر العلمية، وهو يضم خمسة مباحث، تناولنا في المبـــــحـــــث الأول: علاقات البيـــــوتات العلمية ببعضها وبالمجتمع، وأهم مسألة ركزنا عليها هي التنافس بين البيوتات العلمية، وحاولنا أن نقف عند أسباب التنافس بينها ونتائجه، وأوردنا نماذج عن التنافس بين البيوتات العلمية بمدينة

الجزائر ومدينة قسنطينة إذ أن التنافس كان يكثر بالحواضر، حيث تتوفر المناصب، أما في الأرياف فلا يكاد يذكر التنافس بين البيوتات.

وقد خصصنا المبحث الثاني للبيـــــوتات العلـــــمية والأنساب العربية وخاصة النسب الشريف، ذلك أن البيوتات كانت ترتكز على الأنساب الرفيعة لتحقق تألقها الاجتماعي، فتطرقنا إلى مسائل كثيرة من جملتها كيفية إثبات النسب الشريف، ظاهرة ادعاء النسب الشريف، الطعن في الأنساب.

أما المبـــــــحث الـــــــثالث: فخصصناه للحديث عن مصاهرات البيوتات والأسر العلمية، ذلك أن المصاهرة هي إحدى الوسائل التي تعتمد عليها البيوتات من أجل أن تدعم نفوذها. وحاولنا أن نعرف ما إذا كانت هناك استراتيجية لدى البيوتات للمصاهرة، وما هي الفئات التي كانت البيوتات تسعى لمصاهرتها.

وخصصنا المبـــــحث الرابع للامتيازات المادية والمعنوية التي منحتها السلطة للبيوتات والأسر العلمية من أجل كسبها إلى جانبها، وضربنا بعض الأمثلة عن امتيازت منحت لبيوتات كبرى، وختمنا هذا الفصل بمبحث الخامس تناولنا فيه الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية.

وأنهينا البحث بخاتمة؛ وهي عبارة عن تلخيص لبعض النتائج المُتوَّصل إليها في الفصول السابقة. والله الموفق.

المدخـــل

البيـوتـات: دلالاتها وخصـائصها

أولا: البيـــوتـــات دلالاتها وخصائصها في تراث العصور الإسلامية الأولى

ثانيا: مصطلـــح البيـــوتات ودلالتـــه في تراث الجزائر العثمانية

لمصطلح البيوتات دلالات محددة في تراثنا العربي الإسلامي، فلم تكن الأسرة تنعت بالبيت إلا إذا اكتسبت جملة من الخصائص، أهلتها لتؤدي أدوارا بارزة في مناح الحياة المختلفة، ولهذا علينا ضبط مفهوم البيوتات وخصائصها قبل أن نخوض في ثنايا هذه الدراسة.

أولا- البيـــوتـــات: دلالاتها وخصائصها في تراث العصور الإسلامية الأولى:

(1)- مفهوم البيوتات:

أ – التعريف اللغوي:

بيت مفرد جمعه " بيوت" وأبيات، وجمع جمعه بيوتات وأبياوات[1]، والبيت هو السكن الذي يأوي إليه الإنسان، سواء كان من الشَّعْر أو غيره، وقد يعني البيت عيال الرجل[2]، ويقصد به أيضا المرأة، فإذا قيل لأي رجل هل لك بيت؟ فالقصد بهذا السؤال المرأة [3].

ويتفق اللغويين في أن من معاني البيت الشرف[4]، ومن أوضح التعاريف في هذا الشأن ما ذهب إليه ابن منظور: من أن العرب تقول فلان بيت قومه أي شريفهم، ويقال بيت العرب أي شرفها، والبيت من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة، كأن يُقال بيت تميم في بني حنظلة أي شرفها[5].

ب- التعريف الاصطلاحي:

إنَّ التعاريف اللغوية التي تذهب إلى أن الشرف من معاني البيت تقترب من المعنى الاصطلاحي، وأقربها ما ذهب إليه الزمخشري من أنَّنَا إذا قُلنا أنَّ هذا الشخص أو ذاك من أهل البيوتات، نقصد به أنه من بيت كريم[6].

---

[1]- المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية. مصر: مكتبة الشروق العربية، (ط4)، 2004. ص: 78.

[2]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ضبط: يوسف البقاعي. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2005. ص: 137.

[3]- الزمخشري، أساس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. ص: 34.

[4]- يتفق في هذا التعريف مع عدد من اللغويين، ومنهم « الفيروز أبادي، المصدر السابق، ص: 137 » الذي يذهب إلى أن البيت يرد في معنى الشرف والشريف. وفي « المعجم الوسيط. ص: 78 » أنه يغلب استعمال مصطلح بيوتات على بيوت الشرف.

[5]- جمال الدين محمد بن منظور، لســـان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون. القاهرة: دار المعارف. (مادة بيت). ج1، ص: 393.

[6]- الزمخشري، المصدر السابق، ص: 34.

وأكثر التعاريف دقة في تعريف البيوتات ما ذهب إليه ابن خلدون من أنَّ:" معنى البيت أن يَعُدَّ الرجل في آبائه أشرافا مذكورين، تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تَجِلَّة في أهل جلدته، لما وقَرَ في نفوسهم من تجِلَّة سَلَفِه وشَرَفِهم بخلالهم"[1]، ولهذا التعريف ما يُعاضده في قوله-ﷺ-" إنَّما الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ"[2] [3] إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد[4]. ومن خلال هذه التعاريف يتبين أن هناك علاقة تلازم بين: مصطلح البيت، والشرف والحسب.

أمَّا في القرآن الكريم فلم يرد مصطلح البيوتات بصيغة الجمع، ولكن ورد مفرده، فقد ورد في عدة آيات في القرآن الكريم، منها قول الله عز وجل :﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[5] [6].

وقد ورد في القرآن الكريم مصطلح « آل » بمعنى البيوت الكبيرة، منها قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [7]. وفي تفسير هذه الآية الكريمة أنّ لله تعالى من عباده أصفياء يصطفيهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كملة الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأنَّ الفضل والخير تسلسل في ذراريهم.

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 2003. ص: 137.

[2]- البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تح: مصطفى البغا. بيروت: دار ابن كثير، 1987. ج3، ص: 1237. حديث رقم: 3202.

[3]- رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3هـ إلى نهاية القرن 9هـ. رسالة ماجستير في: تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، بإشراف: نجيب بن خيرة. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. قسم التاريخ، 2007- 2008. ص: 24.

[4]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 140.

[5]- سورة الأحزاب، الآية (33).

[6]- من الآية (29) من سورة الأحزاب إلى الآية (34) كلها خاصة بزوجات النبي -ﷺ-، ولهذا ود في بعض التفاسير أنَّ المقصود بأهل البيت في الآية أزواج النبي -ﷺ- خاصة. ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط9)، 1998م. ص: 105.

[7]- سورة آل عمران، الآيات: (33- 34).

وفي تفسير الآيات التي تليها[1] " فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى- عليهما السلام- وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة"[2]. وانطلاقا من هذا التفسير فإنَّ مصطلح آل في القرآن الكريم مرادف لمصطلح بيت.

- وبالاستناد على التعاريف السابقة يتبين أنَّ البيوتات هي أسر متنفذة تمكنت من البروز في مجال واحد أو في عدة مجالات، كما يتبين أنّ المراد بالبيوتات البيوت والأسر التي حازت المجد والتعظيم، ولن يَتَأَتَّى لها ذلك إلا بالعلم والولاية، والثروة، والجود، والشجاعة، ونحو مثل هذه الأوصاف، وعليه فإنَّ كل بيت أسرة ولكن العكس غير صحيح، أي ليست كل أسرة بيت. ولنؤكد ذلك نورد نموذجين عن استعمال مصطلح بيت من تراثنا العربي الإسلامي:

يُحكى أنه لما نزل سعد بن أبي وقاس الحيرة، قيل له ها هنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحُرَقَة بنت النعمان بن المنذر[3]، وكانت من بني لخم وهي من أجَّل قبائل العرب، فأرسل إليها سعد، ودار بينهما حوار، مما ورد فيه " قالت: يا سعد إنه لم يكن أهل بيـــــت خير إلاَّ والدهر يعقبهم غيره، حتى يأتي أمر الله على الفريقين" [4].

وورد بالمعنى الذي أقريناه آنفا في العديد من المصادر، فهذا ابن حيان يستعمل مصطلح البيت للدلالة على الأسر الكبيرة، من ذلك ما قاله بشأن بيت بني خلدون:" وبيت بني خلدون

إلى الآن في إشبيلية نهاية في النباهة، و لم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية "[5].

---

[1]- سورة آل عمران، الآيات: (34- 36).

[2]- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص: 105.

[3]- هي الحرقة بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس من بني لخم بالحيرة، كانت شاعرة بارزة. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين). بيروت: دار العلم للملايين، (ط 15)،2002. ج2، ص: 173.

[4]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، تح: إدريس بوهليلة. الرباط: دار أبي الرقراق للطباعة والنشر- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (ط1)، 2005. ج1، ص: 226.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون (1352-1401)، عارضها بأصولها: محمد بن تاويت الطنيجي. أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع،(ط1)، 2003. ص: 53.

وفي الخطاب الذي وجه ابن الخطيب ليحي ابن خلدون نعت بيته ب « الآل»، ومما ورد فيه يصف براعته بقوله: «... إنّ البيان يا آل خلدون سكن مثواكم دار الخلود، وقدح زنداً غير صلود، واستأثر في محابركم السيالة وقضيب رماحكم الميادة والميالة ... » [1].

(2)- عدد أعلام البيت:

إنَّ الشرف والحسب الأساسيان في نشأة أي بيت من البيوتات، ووجوده عارض من العوارض التي قد تطرأ على أية الأسرة، كما أنَّ الأسرة معرضة لفقد هذان المكسبان، ولا يمكن لأي بيت من البيوتات أن يشذ عن هذه السنة الكونية، ولم يتصل شرف إنسان على وجه الأرض منذ بدء الخليقة إلا رسول الله -ﷺ- لحكمة، وهذا ما نص عليه ابن خلدون في قوله :" إنَّ كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل مُحْدَث، ثم إنَّ نهايته أربعة آباء"[2].

وإذا كان منشأ كل بيت نبـــــيه، يبدأ بشخصية واحدة، ذات تأثير واسع ومكانة مرموقة ورَّثها في عقبه المتناسل، فما هو الحد الأدنى للأعلام في البيت حتى يعتبر بيتا بالمعنى المتعارف عليه، فبالعدد تتحقق الاستمرارية في البيت لمدة من الزمن؟ أما الحد الأقصى فلا يشكل أي عقبة مهما زاد العدد.

هناك اختلاف بين ثلاث شخصيات أو أربع، ويمثل ابن خلدون أشهر الآراء، وهو يذهب إلى أنّ البيت يبلغ الغاية من المجد والسؤدد بعد أربعة آباء، وله ما يستدل به، وهو قوله -ﷺ- :" إنما الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ"، وللعدد أربعة ما يعاضده في القرآن الكريم في قول الله تعالى في حكاية عن سارة زوجة نبي الله إبراهيم - عليه السلام- لما بشرتها الملائكة بإسحاق ويعقوب عليهما السلام:﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِيْنَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمُ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيْدٌ مَّجِيْدٌ﴾[3].

---

[1]- محمد عبد الله عنان، لســـــان الدين بن الخطيب. حياته وتراثه الفكـــري. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1968، ص. 148.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ص: 140.

[3]- سورة الهود، الآية (73).

يتكون هذا البيت من أربعة أعلام هم: إبراهيم – عليه السلام– وزوجته سارة، وابنهما إسحاق وحفيدهما يعقوب عليهما السلام.

وفي الرواية التي أوردها الأصبهاني نقلا عن ابن الكلبي ما يستأنس به، ومفادها أن كسرى سأل النعمان قائلا:" هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة؟"، ولما أجابه النعمان بنعم، سأله بأي شيء؟ فقال النعمان:" من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل ذلك بكمال الرابع، والبيت من قبيلته فيه "[1].

ويمكن اعتبار الرقم ثلاثة هو الحد الأدنى للبيت لكي يعد من البيوتات، ولهذا الرأي ما يدعمه ويقويه في القرآن الكريم، فقد ورد في تفسير قول الله عز وجل في قصة لوط عليه السلام:﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيْهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2]، يمثل هذا البيت ثلاثة أعلام هم: سيدنا لوط – عليه السلام– وابنتيه[3].

أما نهاية البيت واختفائه وتلاشيه فهي قاعدة لا يشذ عنها أي بيت حسب ابن خلدون، الذي اعتبر أن " نهايته أربعة آباء"، هم: بَانٍ، ومُباشر له، ومُقلد، وهَادم. فباني المجد عالم بما عاناه في بنائه محافظ على الخلال والصفات التي هي أسباب وجوده وبقائه، وابنه من بعده مباشر لأبيه، ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر على طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها، وتوهم أن ذلك البُنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف، وإنَّما هو أمر واجب لآبائه منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس، فلا يتواضع للناس فينصرفون عنه[4]. وهذا في الملك، وفي بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع.

---

[1]– الأصفهاني، الأغاني، تح: سمير جابر. بيروت: دار الفكر، (ط2)، ج19، ص– ص: 196– 200؛ رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط. رسالة ماجستير. ص:16.

[2]– سورة الذاريات، الآية (36).

[3]– بيت لوط عليه السلام إلا امرأته. ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص: 752.

[4]– ابن خلدون، المقدمة، ص: 140.

واعتبار الأربعة هو الغالب في أحوال تلك البيوتات، وإلا فقد يندثر البيت حسب ابن خلدون من دون الأربعة وينهدم، كأن يتلاشى في العقب الثالث، وقد يصل مجده إلى العقب الخامس والسادس، وأكثر، لكن أمرهم آيل إلى النقصان ثم الانحطاط ثم التلاشي[1].

(3)- البيوتات والسلطة الحاكمة:

إنَّ وجود البيوتات ظاهرة تعرفها مختلف المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا، وفي المجتمعات القبلية كانت قوة القبيلة تنبع من قوة البيوتات المكونة لها ، وإذا تجاوز أحد البيوتات ذروة المجد والسؤدد، وأصبح هو السلطة ذاتها، نُزِعت منه صفة البيت وتحول إلى ملك[2].

إنّ توظيف السلطة للبيوتات يختلف حسب مجالها سياسية، دينية، علمية، وقد كانت السلطة السياسية تتحالف مع البيوتات لضمان استقرار الملك، ومن أجل تحقيق هذه الغاية تسمح بتوريث بعض الوظائف في الدولة كالوزارة والحجابة وقيادة الجيش، وحتى القضاء والكتابة وغيرها من الوظائف، وهكذا تساهم الدولة بشكل مباشر في نشأة البيوتات أو في استمراريتها، مدفوعة إلى ذلك بحاجتها للموظفين الإداريين لتسيير شؤونها المختلفة، ومما شجعها على ذلك ما تمتع به أبناء البيوتات من ثقافة عالية، لحرص أهل البيوتات على تلقي أبناءهم المعارف والفنون المختلفة كالأدب والشعر وغيره، بالإضافة إلى ما يكتسبه أبناءهم من الجو الذي نشأوا فيه من لباقة، وإقدام وفروسية، وما تعلموه من آبائهم من مبادئ الوظائف التي كانوا يشغلونها هم، وينقلون إليهم تجاربهم في الممارسة السياسية.

وهناك استحسان كبير من طرف عدد من العارفين بشؤون السياسة والحكم لاستعمال أبناء البيوتات في جهاز الدولة، ومن الآثار الدالة على ذلك على سبيل المثال ما ورد في وصية علي ابن أبي طالب-رضي الله عنه- لمالك بن الأشتر النخعي لما ولاَّه مصر وأعمالها سنة 37ه/657م قوله:" ثم ألحق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق

---

[1]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص: 140.

[2]- رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط. رسالة ماجستير.ص:23.

الحسنة، أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جُمَّاع الكرم، وشعب العرف، ثم تفقد أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما". ولما سأل عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- إياس بن معاوية عن القُرَّاء ليوليهم نصحه بأن يُولي من أهل البيوتات في قوله لعمر:" عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهم، ويرجعون لأعراقهم فوَلِّهم"[1].

كما كان بعض العارفين بشؤون السياسة ينصح ممثلي السلطة بالاهتمام بأهل البيوتات، والتقرب منهم والإحسان إليهم، ورعاية أحوالهم الاجتماعية والمادية، فقد قيد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون مصر سنة 206هـ/821م " كتابا جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك"، مما ورد فيه قوله:"... وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مساً "[2].

إنّ العلاقة الحسنة مع السلطة تكسب البيوتات على اختلاف مجالاتها حظوة، كما أن ما يتمتع به البيت من جاه ونفوذ يجعل السلطة تتقرب إليه سعيا لكسبه إلى جانبها، وتعد الثروة والجاه والنفوذ من أهم المكتسبات التي تتحقق للبيوتات بعلاقتها مع السلطة.

(4)- البيوتات، الرياسة والجاه (جدلية التأثير والتأثر):

تعد الثروة والجاه والنفوذ من أهم ما يميز البيوتات عن غيرها من الأسر، ويمكن التساؤل أيهما صنع الآخر؟ أو أيهما سابق على الآخر؟ فهل الثروة والجاه والنفوذ كان سببا في تألق البيت، أم أنَّ ظهور البيت وبروزه كان سببا في حصوله على الثروة والجاه والنفوذ؟ ثم كيف كانت البيوتات تسعى لتحافظ على جاهها وتفوقها في المجتمع؟

استفادت البيوتات من جاهها ووجاهتها في مختلف مناحي الحياة، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر احتكار المناصب الرفيعة سياسية كانت أو علمية أو دينية. إنَّ ما تتمتع به

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، الذخائر والبصائر، تح: وداد القاضي. بيروت: دار صادر، (ط1)، 1984. ج1، ص: 69؛ رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية، ص: 18.

[2]- للاطلاع على نص الوصية كاملا ينظر: أبو الحسن علي ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه: محمد يوسف الدقاق. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 1987. ج5، ص: 457- 465.

البيوتات من وجاهة في مجتمعها منها ما هو مكتسب ذاتي، ومنها ما نتيجة مباشرة لتلك المكتسبات من مال ورجال، وخصال، وفضائل ونحو ذلك، ولعل أصدق تعبير على ما ذكر هو دعاء قيس بن سعد بن عبادة التالي: « اللهم أرزقني حمدا ومجدا، فإنه لا حمد إلاّ بفعال، ولا مجد إلا بمال»[1].

وبقاء الوجاهة والشرف محصورين في فئة قليلة ومحدودة له ما يبرره، لأن كل خصلة، وكل فضيلة، وكل صنعة إنما تكسب قيمتها من قلتها وتفقدها بكثرتها، ومنها العلم والمعرفة، وغيرها من الفضائل فهي " قليلة في هذا العالم لشرفها في أنفسها واتصالها بعالمها"، ووجود البيوتات مهمة في المجتمع، فإذا كثرت فيه دلت على خيريته وحيويته، ورقيه حسا ومعنى.

واشتهار البيت بالعلم والشرف يُساهم في كسبه للثروة، وقد أشار أبو حامد المشرفي إلى ذلك في سياق حديثه عن أحد البيوتات بقوله:" لا زالت الوجاهة في عقبهم والجاه تخضع لهم الرؤوس، وتعنوا لهم الحياة، إذ بيت العلم والشرف تأوي إليه الثروة الصلف"[2].

كانت البيوتات بمختلف أصنافها حريصة على المحافظة على تفوقها وعراقتها، ومن المسالك التي سلكتها لتحقيق هذه الغاية هي ربط شبكة متينة من العلاقات، وفي مقدمتها علاقات المصاهرة، فقد كانت حريصة كل الحرص على مصاهرة البيوتات العريقة مثلها، وأبلغ تعبير على ذلك ما ورد في وصية غيلان بن سلمة– هو من أهل القرن الهجري الأول – لابنه بمصاهرة أهل البيوتات بقوله:" يا بني قد أحسنتُ خدمة أموالِكم، وأَمْجَدُت أمهاتكم، فلن تزالوا بخير ما غَدَوْتُم من كريم وغدا منكم، فعليكم ببيوتات العرب فإنها معارج الكرم"[3].

ومن أجل أن تبقى دائرة الوجاهة والسؤدد في نطاق ضيق تحتكره بيوتات محدودة حتى لا تنافسها العامة ومن في حكمهم، ومن أجل ألا تفقد الوجاهة والسلطة معناها حين تصبح

---

[1]– رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص: 20.

[2]– قال ذلك في سياق حديثه عن بيت أهلول المجاجي. ينظر: أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة». مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم:3326. ص: 35.

[3]– رفيق خليفي، المرجع السابق، ص: 18، 19.

مشاعا للجميع، عملت أغلب البيوتات على منع مصاهرة غيرها ممن هو أقل شأنا منها، ولذا طرحت مسألة تكافؤ النسب في الفقه الإسلامي.

ثانيا– مصطلح البيوتات ودلالته في تراث الجزائر العثمانية:

(1)– مصطلح البيوتات في مصنفات علماء الجزائر العثمانية:

أ– مصطلح البيت:

استعمل عدد من علماء الجزائر العثمانية مصطلح البيوتات أو البيتات في مصنفاتهم، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الكريم الفكون[1]، وهو أحد العلماء الذين أتقنوا علوم اللغة العربية، من ذلك قوله في كتابه " منشور الهداية" متحدثا عن بيت ابن نعمون:" وهم دار عافية، ومن بيـــــتات قسنطينة وشهرتهم في أسلافهم، بنسل سيدي نعمون"[2]. كما استعمل المصطلح نفسه مشيرا إلى بيت ابن باديس في ترجمة:" القاضي الخطيب أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس"، بقوله:" وهو من بيتات قسنطينة وأشرفها... وخَلَفُ سلفٍ صالحين علماء، حازوا قصب السبق في الدراية، والمعرفة والولاية، ناهيك بهم من دار صلاح وعلم "[3]، وفي ترجمة حميدة مسبح ذكر بأنه:" من ذوي بيتاتها..." [4] أي بيتات قسنطينة.

وَوُصِفَتْ أسرة الفكون بالبيت، على لسان عدد من علماء العصر الحديث، من ذلك إشادة الشيخ أحمد المقري في رسالة للشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد ببـــيـــــت

---

[1] – هو عبد الكريم بن محمد الفكون المتوفى سنة 1073ه، ينظر ترجمته في الفصل: الثاني من الباب الأول.

[2]– عبد الكريم بن محمد الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله. بيروت: دار الغرب الإسلامـــي، (ط1)، 1987. ص: 80.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 57.

[4]– الفكون، المصدر نفسه، ص: 47.

الفكون:" هو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أنَّ بيتـــــــــــــــه شهير الجلالة، بيـــــــــــــت بـــــــني لفكون، هضاب العلم والوقار والسكون"[1]

ونسجل في هذا الصدد إهمال مُصنفين آخرين استعمال هذا المصطلح، فهذا الشيخ محمد أبو راس الناصري[2] يتطرق في كتابه " فتح الاله" إلى عدد من العلماء الذين ينتمون إلى أسر علمية، إلا أنه لم يصف أسرهم بالبيت إلا عندما تطرق لكاتب محمد باي بن عثمان بوهران محمد بن حسن ووصفه ب:" لسان الدولة... الذي عظم الله مكانته ورفعته... وقربه في بساط الملك تقريبا... وأعطاه لواء القلم الأعلى، فوجب على من دونه من أولي صنعته أن يتبعه... العالم الفقيه الحبر النزيه ... ذو البلاغة والجزالة واللسن، السيد محمد بن حسن، من بيت علم وصيانة، ونزاهة وأمانة ... ومنصب كريم، وحسب حميم ... وكان رحمه الله ذا يد في النحو واللغة وسائر العلوم... لا سيما الأدب" [3].

أمَّا أبا حامد المشرفي في كتابه " ياقوتة النسب الوهاجة" فوصف عدد من الأسر العلمية بالبيوتات، منها بيـــــت دح بـــن زرفـــــــة الذي قال عنهم:" وبيوت العلم فيهم مشهورة"[4]، وبيـــــــت الحـــــــمـــــــر: يوصف" هذا البيت في المشارف" بأنه " مشهور ببيت العلم والعمل"[5]، أما عن أولاد السيد بو جلال: فإن هذا البيت من "بيوت العلم في المشارف"[6]، ومن شرفاء الشهرة أولاد سيدي محمد بن يحي مقري الجن: الفرع

---

[1]- الفكون، المصدر نفسه، ص: 231.

[2] - ينظر ترجمته في الفصل الثالث من الباب الأول.

[3] - محمد أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته أو حياة أبي راس الذاتية، تح: محمد بن عبد الكريم. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990. ص: 100.

[4]- أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة »، مخ، ص: 22.

[5]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 21.

[6]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 21.

الثاني " بيـــــتهم بيت ثروة وعلم وجاه"[1]. وفيما يخص بيت الشيخ عبد القادر المشرفي يذهب صاحب "ياقوتة النسب" أنَّ أشهر بيوت المشارف الشيخ المشرفي[2].

ب- مصطلح الـــــــدار:

نسجل على صعيد آخر استعمال بعض العلماء مصطلح الدار للدلالة على الأسر المتنفذة، وقد رأينا في نص سابق للشيخ عبد الكريم الفكون أنه قرن في بعض الأحيان بين وصفه لهذا النوع من الأسر بالبيت والدار في كتابه " منشور الهداية " من ذلك قوله عن بيت ابن نعمون:" وهم دار عافية، ومن بيتات قسنطينة" [3].

أمَّا الورثيلاني فقد عرف عدد من الأسر العلمية في رحلته، إلا أنه لم ينعتها بالبيت أو الدار رغم أنها أسر علمية معروفة كما هو في هذا النص:" ومنهم أولاد تبونداوث فضلاء نجباء فقهاء مفتون، وفيهم البركة إذ العلم كله بركة، وقد سمعنا أنهم من بجاية... وأنهم قضاة من العهد الأول إلى الآن" [4]، " ومنهم أولاد أبي جمعة فهم فضلاء صلحاء محل العلم وأهله، فقهاء أئمة خطباء"[5]، إلا أنه خص أسرة ابن الساسي البوني بوصفها بالـــــدار كما في هذا النص:" ودارهم دار الولاية من أعالي أسلافهم إلى الآن"[6].

واستعمل أبو حامد المشرفي مصطلح الدار في مواضع محددة من كتابه "ياقوتة النسب"، من ذلك وصفه لأسرة عبد القادر المشرفي أهم بيت من بيوتات المشارف بالدار، قارنا إياها بالرياسة، وقد يدل هذا أنّ مصطلح الدار لديه، أهم من مصطلح البيت التي وصف به عدد من بيوتات الراشدية، سيَّما وأنها من البيوتات التي حازت الرياسة، ويقول صاحب " القول الأعم" في صدد حديثه عن بيوتات المشارف:" و لم تتعد الـــــــريـــــــاسة فيما علمناه

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 24.

[2]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 21.

[3]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. ص: 80.

[4]- الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أو الرحلة الورتلانية. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (ط1)، 2008.

[5]- الورتلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 55.

[6]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 347.

دار الشيخ المشرفي وأولاده، فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك، وكانت لهم ولاية في خطط الشريعة أيام الأتراك وأيام ابن عمنا الأمير وغيرهم من أبناء عمهم ... بهم لا ظهور لهم معهم"[1].

ويجدر التنبيه إلى إنَّ انتماء العالم إلى أحد البيوتات العلمية المعروفة يزيد من مكانته وتقديره بين العامة والخاصة، ولهذا يركز المترجمون على الإشارة إلى ذلك عندما يتعلق الأمر بمشايخهم، أو ممن تجمعهم بهم روابط قوية، من ذلك وصف محمد بن زاكور الفاسي[2] لشيخه أبو عبد الله محمد بن سعيد قدورة ب:" وارث الشرف القديم والحديث، تفرع من شجرة علم "[3]، ومما مدح به أبي راس أحد علماء أسرة دح بـــن زرفة الشيخ عبد القادر بن السنوسي ":... وسلفه في العلم قديم" [4].

(2)- دلالات مصطلحي البيوتات والأسر العلمية في الدراسات الحديثة:

البيوتات العلمية هي البيوتات التي اشتهر أبناؤها بالعلم إلى جانب توفرها على الشروط المذكورة من قبل وهي: النفوذ والجاه والثروة. وبما أن البيوتات لم تكن على نفس الدرجة من الاشتهار بالعلم، فقد قسمها بعض الباحثين إلى صنفين: البيوتات الكبرى والبيوتات الصغرى، كنصر الدين بن داود الذي اعتبر أنَّ البيوتات الكبرى هي: البيوتات التي أنجبت ثلاثة علماء

---

[1]- الطيب بن المختار المختاري الغريسي، كتاب القول الأعم في بيان أنساب الحشم، ضمن كتاب مجموع النسب والحسب والتاريخ والأدب في أربعة كتب للهاشمي بن بكار. تلمسان: المطبعة الخلدونية، (ط1)، 1961م. ص، ص: 332، 333.

[2] - أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي (ت 1120هـ/1708م): له نظم كثير في أنواع من العلم منها: حاشيته علـى الخزرجية، وديوان شعر. ينظر: القادري محمد بن محمد الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح: محمد حجـــي- أحمد توفيق، الرباط: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (ط1)، 1986. ج3، ص: 203؛ البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. طهران (خيابان بوذر جمهوري): مكتبة الإسلامية والجعفري تبريـــزي. 1947. هديـــة العارفين، ج2، ص: 310.

[3] - محمد بن زاكور، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، تقديم: عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، 1967. ص، ص: 37، 38.

[4]- محمد أبو راس، فتح الاله، ص: 68.

فأكثر، اشتهروا بإنتاجهم العلمي، وكانت لهم نشاطات مختلفة بارزة في شتى الميادين، فكانت بيوتهم أكثر شهرة[1].

في حين اعتبر أنَّ البيوتات الصغرى: هي تلك البيوتات التي كان إنجابها للعلماء الذين اشتهروا محدودا ما بين عالمين أو ثلاثة، ومن هنا كانت مساهمتهم دون البيوتات الكبرى، وإنتاجها العلمي لم يكن في مستوى البيوتات الكبرى[2].

ونسجل في هذا الصدد اكتفاء دارسين آخرين باستعمال مصطلح « الأسر العلمية » ويقصد بها تلك الأسر التي تسلسل فيها العلم مدة معتبرة من الزمن، وورَّثَـــــــه فيها الآباء والأجداد للأبناء والأحفاد، بحيث تعدد علماؤها وتسلسلوا..."، وقد شرط العلامة محمد المختار السوسي في كتابه "سوس العالمة" في الأسرة كي تعتبر علمية " أن يتوالى فيها العلم في ثلاثة أجيال على الأقل، أو جيلين إن تعدد فيها العلماء فتجاوزا الأربعة"[3].

وبناء على هذا التعريف: فإن كل أسرة أنجبت عدد من العلماء توصف بأنها أسرة علمية، ويشترط في ذلك تسلسلهم عبر عدة أجيال.

وبالجمع بين كل هذه التعريفات نستطيع القول بأنّ البيوتات العلمية هي تلك الأسر التي جمعت بين العلم والنفوذ والثروة، وهي عناصر لا يمكن أن يتجرد منها أي بيت من البيوتات، بينما اختصت الأسر العلمية بالعلم، وحتى وإن لم تخل من ثروة أو نفوذ فإن مكتسباتها تلك لم تبلغ بها إلى درجة الرياسة.

- ويمكن تصنيف البيوتات حسب دورها ومجال بروزها إلى أصناف عدة: سياسية، ودينية (صوفية)، وعلمية، وقد تجمع بعض البيوتات بين صفتين أو أكثر حتى يصعب تصنيفها في جهة من الجهات.

---

[1]- نصر الدين بن داود، «بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـــ- 13م إلى القرن 10هـــ- 16م ». أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، بإشراف: أ. د: محمد بن معمر. جامعة أبو بكر بن قايد- تلمسان. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. قسم التاريخ وعلم الآثار.2009-2010. ص: 56.

[2]- نصر الدين بن داود، المرجع نفسه، ص: 113

[3]- الأسر العلمية في سوس، إنجاز مجموعة البحث في الأدب العربي السوسي، تنسيق: المهدي السـعيدي، كليـة الآداب والعلـوم الإنسانية، أكادير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، أعمال ندوة، (ط1)، 2003. ص: 22.

(3)- دلالات مصطلحي البيوتات العلمية والدينية في الدراسات الحديثة:

حتى نضبط مفهوم الأسر والبيوتات العلمية بشكل دقيق علينا أولا أن نحدد الفئة التي كانت تنعت بالعلماء خلال العهد العثماني. يحدد أندريه ريموند (André Raymond) مفهوم العلماء في كتابه " المدن العربية الكبرى في العصر العثماني " في النص التالي:" نعتقد أنه لا يجب استخدام كلمة علماء بمعناها الفني أي "رجال دين"، أو "رجال قانون"، ولكن بالمفهوم الواسع للغاية لمجموعة يندرج فيها بطبيعة الحال أعضاء محاكم العدالة، والمؤسسات الدينية والتعليمية (الجوامع، المدارس، مدارس التعليم العالي)، والذين يمثلون النواة الصلبة لهذه المجموعة، بالإضافة أيضا إلى طلبة الجوامع -المدارس الكبيرة والمدارس- والعاملين في مؤسسات العبادة والتعليم، والمسؤولين عن الجماعات الصوفية، وطوائف الأشراف (سلالة النبي(ﷺ))، وبذلك فإننا نحدد مجموعة إنسانية واسعة للغاية، وهي فضفاضة بعض الشيء"[1].

إنَّ ما ذهب إليه أندريه ريموند من أنَّ العلماء خلال العهد العثماني كانوا يكونون مجموعة متسعة للغاية لا يختلف كثيرا عند أبو القاسم سعد الله الذي قسَّم العلماء في الجزائر خلال العهد العثماني إلى عدة أصناف:

العلماء الموظفون: وهم على صنفين أصحاب الوظائف العلمية والدينية، وأصحاب الوظائف الإدارية المحضة، وذلك ما أشار إليه في قوله:" العلماء فئة احتكرت مجلات معينة في المجتمع، وهي الإفتاء، والقضاء والتعليم، والإمامة والخطابة"[2].

كما كان لقب العالم يطلق أيضا -حسب نفس المؤلف- على فئات الأخرى في المجتمع، وذكر منهم كتاب الإنشاء أو الخوجات[3]: الذين كانوا يكتبون للبشوات والبايات، ويسجلون محاضر جلسات الديوان، والمفاوضات والمعاهدات مع الدول الأخرى[4]، ورغم أنّ

---

[1]- أندريه ريموند، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر: لطيف فرج. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع،(ط1)، 1991. ص، ص: 62، 63.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. بيـــروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1998. ج1، ص: 389.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص: 397.

[4]- كانوا يلازمون البشوات والبايات في حلهم وترحالهم ويسجلون أخبارهم وأعمالهم.

هذا النوع يدخل فيما نسميه اليوم بالإدارة إلا أنهم يندرجون ضمن فئة العلماء حسب ذلك العصر.

والفئتين المتبقيتين اللتين كان يطلق عليهما لقب العالم: المثقفون الأحرار، والمرابطون". فأما المثقفون الأحرار فهم من فئة العلماء، ولكنهم غير الموظفين، وكان هؤلاء أكثر كفاءة من زملائهم في الغالب، وهناك المرابطون[1].

وبالجمع بين تعريف أبو القاسم سعد الله وريموند للعلماء خلال العهد المدروس نجد أنه يندرج ضمن هذه الفئة: الموظفون الرسميون: وهم القضاة والمفتين، والأئمة، الخطباء... إلخ، بالإضافة إلى القائمين بشؤون المساجد، خدام الأضرحة، والخوجات. كما تضم فئة العلماء الفقهاء المستقلين الذين سماهم أبو القاسم سعد الله المثقفون الأحرار، والمرابطون ورجال الزوايا والمتصوفة، وسلالة النبي -ﷺ-.

والواقع أنه ليس من اليسير التمييز بين العلم والدين خلال العهد العثماني، ففي ثقافة ذلك العصر كاد أن يكون للعلم والدين مدلول واحد[2]. كما أن الطابع الغالب في ذلك العصر هو الطابع الديني، وكانت الحياة الفكرية صوفية ودينية في آن واحد، فلم يُفصل بين العلم والدين لأن كلاهما يكمل الآخر، فالعالم الحق هو العالم في دينه قبل أن يكون عالما عارفا بأمور دنياه.

وممَّا يصعب من مهمة الفصل بين العلم والدين هو اعتبار التصوف جزء من ممارسة العلم، لذلك كان العلماء الفقهاء يأخذون العهد والأذكار عن شيوخ الطرق الصوفية، ويتباهون بذلك ، فلم يكن هناك فاصل بين الفقيه والصوفي، حيث انضم الفقهاء إلى الطرق الصوفية، ودرس الصوفي الفقه، ودرس الفقيه التصوف[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 397.

[2]- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830) مقاربة اجتماعية اقتصادية. الجزائر: منشورات ANEP، 2007. ص: 353.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 467.

إنّ من أهم المعضلات التي تواجه الباحث في الحياة الثقافية خلال العهد العثماني هو صعوبة الفصل بين العلم والدين، فيجد الباحث نفسه أمام خيارين أحدهما يفرض عليه التعامل مع العالم بالمفهوم الواسع للكلمة، كما كان معمول به في العهد المدروس، أما الخيار الثاني فهو تناوله بعيدا عن أفكار العهد العثماني، والتعامل مع العالم بمقاييس أكثر دقة وحصره في فئات معينة، والاختيار الأخير هو الذي تفرضه علينا طبيعة البحث، وهو لا يخلو من صعوبات سنبينها في حينها.

وبناء عليه فإنَّ الموظفين الرسميين على اختلاف درجاتهم، والفقهاء المستقلين يعتبرون علماء، ولكن ليس من الدقة اعتبار كل الأشراف وكل المتصوفة والمرابطون من فئة، بحيث لم يكن كل هؤلاء على نفس الدرجة من العلم، فمنهم الراسخون في العلم المتضلعين فيه، وهؤلاء إلى الفقهاء أقرب منهم إلى المتصوفة، ومنهم المتوسطون في العلم، ومنهم الخاملون [1].

إنَّ صعوبة الفصل بين العلم والدين، انعكس على موضوعنا بشكل مباشر، بحيث تصعب علينا مهمة الفصل بين البيوتات العلمية والبيوتات الدينية. ومن خلال التمعن في البيوتات الدينية الصوفية نجدها نوعان أحدها : اقتصرت على خدمة الدين، فعمل رجالها على نشر الأذكار والأوراد الطريقة الصوفية التي ينتمون إليها، والاعتقاد في المرابط وتقديس الأولياء مثل أسرة التجاني، وأولاد سيد الشيخ، في حين جمعت أسرا أخرى بين خدمتها للدين الممثل في التصوف وخدمتها للعلم، أي علم الظاهر، العلوم الشرعية واللغة وغيرها، مثل أسرة عبد القادر بن المختار جد الأمير، وأسرة الورثيلاني، أسرة ابن ساسي البونية وغيرها. فأما الصنف الأول فتصنف ضمن البيوتات الدينية، وأما الصنف الثاني فتصنف ضمن البيوتات العلمية.

والملاحظ أنه ما يزيد الأمر صعوبة في الفصل بين البيوتات الدينية والعلمية، أننا نجد أن بعض البيوتات كان القلة القليلة من أبناءها فقط علماء بالمعنى الذي ذكرناه، بينما يغلب التصوف على بقية أبناءها، فكانوا مرابطين أكثر منهم علماء، مثل بيت الشريف الزهار، ابن

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص: 462.

مبارك القلعي. كما أن انطلاقة بعض البيوتات الدينية كانت علمية بحيث يكون أوائلها علماء، ثم يختفي ممثلي الأوائل للبيت، ويكتفي الأعقاب بحفظ تراث الأجداد، ويقتصرون على خدمة الدين والطريقة الصوفية ويخبو الدور العلمي تدريجيا ويضعف ثم يتلاشى كلية، فلا هي علمية بمعنى الكلمة، ولا هي بعيدة كل البعد عن العلم.

وقد كان أبناء البيوتات الدينية يُدعون ب« الْمَرَابْطِينْ »، وكانوا في قمة الهرم الاجتماعي خاصة بالريف، ولهذا كانوا يشرفون على الكثير من القضايا بمناطقهم، فتسابقت القبائل على اتخاذ «مْرَابْطْ» لتدعيم مركزها، وجلب المنفعة لها ببركته التي جُعلت وراثية في أسرته المرابطية، فأدى هذا إلى كثرة المرابطين الذين كانوا من الأشراف أو من مُدَّعي الشرف.

ومن الأمور التي اهتم بها بعض المرابطين، هو الإشراف على الزوايا، وكثيرا ما يكون ذلك متوارثا في أسرهم، فكانت بعض الزوايا مقر للصلاة والضيافة، وكانت زوايا أخرى مقصدا للطلبة. وهكذا كان المرابط يعمل على رعاية التعليم، والقيام بدور المؤذن والإمام، إلى جانب الفصل في الخصومات بين الناس، والإصلاح بين القبائل. كما كان له حتى دور التكوين الحربي، وفي اختيار شيخ القبيلة، وقد يكون شيخ القبيلة نفسه مرابطا.

أما منهجنا في هذا البحث، فالأسر والبيوتات التي يغلب عليها الجانب العلمي هي التي سميناها علمية، وهي التي برز فيها رجال علم، درَّسوا وألَّفوا، أو تولوا مناصب علمية أو دينية. أما الأسر والبيوتات الدينية فهي التي لم يبرز فيها العلماء بالمعنى الذي ذكرناه من قبل، وهي التي اشتهرت بخدمة التصوف خاصة، فاشتهر أبناؤها بإعطاء العهد وأوراد الطريقة التي يمثلونها، ولم يشتهروا بالتأليف غير تأليف كراريس الأذكار والأوراد مثل آل سيد الشيخ، حتى وإن كانت انطلاقة تلك الأسرة أو ذاك البيت علمية، كما هو الحال بالنسبة لبيت الولي الصالح عبد الرحمن الثعالبي، فرغم مكانة جدهم إلا أننا لم نستطع الوقوف على علماء هذه الأسرة، وقد تداول أحفاده على وكالة ضريح جدهم بمدينة الجزائر، والمكانة التي تمتعوا بها لدى السلطة والمجتمع هي مكانة دينية لا لخدمتهم العلم.

الباب الأول

التعريف بالبيوتات والأسر العلمية

بالجزائر خلال العهد العثماني

الفصل الأول: البيـــوتات والأسر العـــلمـــية بدار السلطان

الفصل الثاني: البيوتات والأسر العـــلمـــية بباياليك الشرق

الفصل الثالث: البيـــوتات والأسر العلمية بباياليك الغرب

الفصل الأول

البيـوتات والأسر العـلمـية بدار السلطان

المبـــحث الأول: بيـــــت قـــدورة

المبـحث الثاني: بيـــت ابـــن العنابـــي

المبحـث الثالث: بيـــت ابـــن عـــــلـــــي

المبحـث الرابع: بيـــــت أبهلول المجاجي بالقرب من تنس

المبـحث الخامس: بيوتات وأسر علمية متفرقة ذات أصول أندلسية

المبحث السادس: بيوتات وأسر علمية متفرقة ذات أصول المحلية والعثمانية

تضم دار السلطان إداريا مدينة الجزائر عاصمة الأيالة والمناطق المحيطة بها[1]، ومنذ اتخاذ مدينة الجزائر عاصمة سياسية وعسكرية من طرف العثمانيين، أصبحت مركز ثقل البلاد كلها، وذلك ما ساهم في بروزها كأكبر الحواضر الثقافية بالجزائر آنذاك، وهذا بشهادة الرَّحالة المغاربة[2] كعبد الرحمن الجامعي الذين شبّهها بمدينة فاس- التي كانت من العواصم الثقافية الكبرى في العالم الإسلامي آنذاك- بقوله:" أمَّا مدينة الجزائر فأوَّل بلد لقيت بها مثل من فارقته من أدباء بلدي، وبها تذكرت بعض ما كان نسيه خلدي"، وبأنَّها:" لا تخلو من قراء نجباء، وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس معمورة"[3].

وأهم المؤسسات الثقافية بها الجامع الأعظم[4]- الذي يُعد أقدم وأكبر الجوامع بها يومئذ[5]- وقد حظي برِّعاية واهتمام كبيرين من طرف جُل الولاة العثمانيين؛ وازدادت أهميته حتى غطى نشاطه التعليمي-وحتى الديني والاجتماعي والسياسي- على أنشطة الجوامع الأخرى، بما فيها الجوامع التي شيدها العثمانيون أنفسهم[6]. ويكاد هو ومدرسته العليا

---

[1]- خضعت الجزائر منذ ولاية حسن بن خير الدين باشا الثانية (1557-1567م) إلى تقسيم إداري، يتمثل فيما يلي: مدينة الجزائر والمناطق المحيطة بها، وتعرف بدار السلطان ويتولاها الباشا مباشرة، وبايليك الشرق مركز إدارته قسنطينة، بايليك التيطري فمركز إدارته المدية، أما بايليك الغرب فكانت مركز إدارته مازونة ثم معسكر ثم وهران بعد فتحها الأول والثاني. ينظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492م- 1792م). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط2)، 1976. ص- ص:331- 334.

[2] -زارها علي التمقروتي صاحب" النفحة المسكية في السفارة التركية " سنة 999هـ/ 1590م، وقال بأنّها كانت تسَّمى اسطنبول الصغرى، وبأنّ الكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقية. ينظر: مولاي بلحمليسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979. ص- ص: 57- 59.

[3]- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر. قسنطينة: مطبعة البعث، 1965. ص- ص: 197- 199.

[4]- كتب تاريخ بناءه في مئذنته وأن أمير المسلمين أبو تاشفين المرابطي هو الذي أنشأه. وتقدر مساحته بحوالي 2000م^2 . ومن بين ملحقاته غرفا للإمام وباقي موظفي المسجد. وبالجهة الشمالية الشرقية مصلى لإقامة صلاة الجنائز. اتخذ هذا المسجد مقرا للمجلس العلمي المخول للنظر في القضايا الكبرى، ينظر: مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية. الجزائر: شركة دار الأمة، للطباعة والنشر والتوزيع، 2010. ص، ص: 49، 50.

- Devoulx Albert, " Les Edifices Religieux de l'ancien Alger ". Alger : O. P.U. in **R. A**, N° :10, Année : 1866, p- p: 221-226.

[5] - Venture de paradis, Alger au 18 eme siècle. Alger : Imprimeur- libraire, 1898. p : 157.

[6]- عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر. تونس: منشورات المجلة التاريخية المغربية، 1980، عدد خاص (05- نوفمبر)، ص: 10.

يُشكلان نواة لجامعة في الجزائر[1]، حيث بلغ عدد المدرسين به تسعة عشر أستاذا خلال القرن الثاني عشر (18م)[2].

وقد كانت حلقات الدروس العليا تعقد بعدد من مساجد مدينة الجزائر المالكية والحنفية، كما وجدت بها ثلاث مدارس، وُصِفت بأنَّها تؤدي تعليما من المستوى العالي؛ وهي: مدرسة الأندلسيين، ومدرسة شيخ البلاد، والمدرسة القشاشية. وقد جاء في وقفية لهذه المدرسة- الزاوية أنَّ لها أستاذا مكلفا بتدريس الشريعة الإسلامية والتوحيد، بالإضافة إلى عشرة أساتذة لتدريس مختلف العلوم الأخرى[3].

أما زاوية- مدرسة شيـــــخ البلاد فقد تم إنشاؤها سنة 1201هـــ/1786م، بأمر من الباشا محمد عثمان، الذي جعل من بين موظفيها الأساسيين مُدَّرِسا، و لم يشترط فيه أن يكون حنفيا على الرغم من أنَّها حنفية المذهب[4]. أمَّا مدرسة الأندلسيين فقد تأسست من طرف الأندلسيين سنة 1049هـــ/1639م، وهي مدرسة عليا أنشئت لدراسة العلوم وتعليم القرآن الكريم[5].

إنَّ ذلك القدر اليسير من الاهتمام الذي حظيت به مدينة الجزائر بعد اتخاذها عاصمة للبلاد، وتوفرها على عدد من المؤسسات التعليمية العليا، بالإضافة إلى الوظائف الدينية الرفيعة كالقضاء والإفتاء، جعلها محط أنظار الطلبة والعلماء من مختلف أنحاء الأيالة، فقلما نجد عالما

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج1، ص: 283 .

[2] – Devoulx ;"Les Edifices Religieux ",in **R. A**, N° : 10, Année : 1866,p : 381.

[3] – أنشئ جامع القشاش قبل العهد العثماني، ولكن لا ندر ما إذا أنشئت المدرسة معه، والظاهر أنها متصلة بالزاوية التي تحمل نفس الاسم، والتي يبدو أنها أحدثت بعد الجامع، ذلك أن أوقاف الجامع وأوقاف الزاوية ليست واحدة، كما أن الوكيل ليـــس واحدا. ينظر: أبو القاســـم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص، ص: 281، 282.

[4]– حنفية المذهب، وهي تحتوي على مسجد، و5 غرف لإقامة الطلبة والمشتـــغلين بالعلوم، وقد أوقف عليها الباشا عدة أوقاف، ووضع للمدرس بها مرتـــبا من الأوقاف، وخصص للطلبة أيضا رواتبا. ينظر:

Devoulx ,Op-cit , N° : 12, Année : 1868. P-p:280-286.

[5]– Albert Devoulx , Notices sur les corporations religieuses d'Alger, Alger : typographie Adolphe Jourdan ,1912, p:74; Les Edifices Religieux, **R.A**,N° : 12, Année : 1868,p: 279.

جزائريا لم يدرس آنذاك على علمائها، وبهذا تحولت من مجرد مدينة ساحلية في العهود السابقة إلى عاصمة سياسية وحاضرة ثقافية، وبرزت بها العديد من البيوتات والأسر العلمية، نذكر منها: بيت قدورة، وبيت ابن العنابي، وبيت ابن علي ...إلخ ، بالإضافة إلى بيت المجاجي بمجاجة القربية من تنس، وساهمت كلها في دفع عجلة الحركة الفكرية والعلمية بها إلى الأمام.

– المبحث الأول: بيـــــــــت قـــــــــدورة:

يعد بيت قدورة أكثر البيوتات العلمية شهرة بالجزائر العثمانية، وقد حاز من النفوذ ما مكنها من تولي خطة الإفتاء المالكي بمدينة الجزائر أكثر من قرن بدون انقطاع، رغم المنافسة الحادة التي كانت بين رجال العلم حول المناصب العلمية والدينية الرفيعة ومنها الإفتاء.

يتفق المؤرخون[1] على أنّ أسرة قدورة تونسية الأصل، وهي تنتمي إلى " قدورة قرية قرب جربة "[2]، ويؤكد الإفراني ذلك في سياق ترجمته لسعيد قدورة بقوله:" الجزائري الدار، التونسي النجار"[3]. لم يكن السيد إبراهيم عبد الرحمن التونسي والد سعيد قدورة عالما، بحيث عمل" خبازا قرب زاوية سيدي الأكحل قرب باب عزون"[4]. وهذا يعني أنّ الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة هو مؤسس هذا البيت العلمي، وصانع مجده العلمي، وقد رسخ مكانته منذ توليه منصب الإفتاء المالكي بالجامع الأعظم أهم الجوامع المالكية بالجزائر، وبقائه به مدة طويلة جدا قل أن يمكثها عالم في منصب كهذا، وهي تتجاوز الثلاثة عقود، وهذا يدل على الشخصية القوية والملكة العلمية الفذة التي تمتع بها واضع النواة الأولى لهذا البيت.

---

[1] – محمد بن الحاج الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تح: عبد المجيد الخيالي. الدار البيضـــاء: مركـــز التراث الثقافي المغربي. (ط 1)، 2004. ص: 220؛ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، نقـــلا موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق: محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي (ط1)، 1996. ج4، ص: 1466.

[2] – ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها. تح: فارس كعوان. العلمة (الجزائر): بيت الحكمة للنشر والتوزيع، (ط1)، 2009. ص: 94.

[3] – محمد بن الحاج الإفراني، « صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر». مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1741. ورقة: 93و.

[4] – ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 95.

وقد كان الناس" يستبشرون بهذه العائلة، وكانوا يعتقدون بل حتى يتيقنون أنّ البركة تلتصق حتى بالأبناء في سن الحداثة"[1]، وقد أنجب هذا البيت عدد من العلماء تولوا وظائف علمية مهمة في المدينة.

(أولا)– علماء بيت قدورة:

(1)– الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن (ت1066هـ/1655م):

نشأ الشيخ سعيد قدورة بمدينة الجزائر، ولكن الاختلاف حاصل في مكان ولادته، ويذكر ابن المفتي روايتين متناقضتين الأولى مفادها أنّ شيخه مصطفى العنابي أخبره بأن:" سيدي سعيد ولد بِقَدُورة، وأن والده أحضره للجزائر"، ثم يعرفه ب:" سيدي سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن قدورة التونسي النجار، الجزائري المولد والدار "[2].

تلقى الشيخ سعيد قدورة العلم على مشيخة مدينة الجزائر، وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن بلقاسم بن إسماعيل المطماطي[3]، الذي كان مفتيا بالجامع الأعظم. وكغيره من الطلبة النجباء المتعطشين للاستزادة من العلم قام قدورة بعدة رحلات علمية كان لها فضل كبير في توسيع مداركه العلمية، فالتحق بزاوية تنس للتتلمذ على الأخوين محمد وعلي ابني أهلول أصحاب زاوية مجاجة، والذين وصفهما قدورة في أوراق كتبها بيده بأنهما:" كانا شديدي الاعتناء بالعلم وفنونه ..."، فدرس بها بين سنتي 1005ه/ 1596 و1009ه/1600م، ثم تاقت نفسه إلى الرحلة مرة أخرى، فشد رحاله نحو الغرب، فتوجه أولا إلى تلمسان سنة 1012هـ/1603م، وكانت شهرة سعيد المقري قد بلغت القاصي والداني، فتتلمذ عليه[4].

---

[1] – ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 107.

[2]– ابن المفتي، المصدر نفسه، ص، ص: 95، 96.

[3]– ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 95؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. دار الطباعة النشر والتوزيع. ص: 309.

[4] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص– ص: 358– 361.

ومن تلمسان سافر سعيد قدورة إلى المغرب الأقصى؛ وتجول في أرجاءه فزار صحراء فجيج وتافيلالت وسجلماسة، بني عباس التي كان بها في سنة 1015هـ/ 1606م وأقام يُدرِّس بها[1]. وقادته هذه الرحلة أيضا إلى فاس التي أخذ على علمائها[2]، و لم يعد إلى مدينة الجزائر إلا حوالي سنة 1019هـ/1610م.

تولى سعيد بن إبراهيم بمدينة الجزائر " إمامة مسجد البلاط، ثم خطابة جامع سيدي رمضان"، ثم الإفتاء المالكي، بعد" عزل سيدي أحمد زروق بن عمار سنة 1028هـ/1618م [3]"، وظل سعيد قدورة يتناوب الفتوى المالكية مع الشيخ أحمد زروق " وتكرر عزل وتولية كلاهما مرارا... ومضى الأمر هكذا حتى مات سيدي أحمد زروق بن عمار" [4]. أمَّا سبب توليه لهذا المنصب فيذكر ابن المفتي أنهم ولوه به:" لأنه ممن اتفق أهل البلد على حبه"[5].

وإلى جانب وظيفة الفتوى المالكية، كان قدورة خطيبا ومدرسا بالجامع الأعظم، بالإضافة إلى كونه وكيل أوقافه، وهي الوظائف التي كانت تجمع للمفتي المالكي، وبذلك يكون قد وصل إلى قمة السلم الوظيفي، وهو في مقتبل العمر[6]، وقد كان الباشا هو من يعين في هذه الوظائف. ونظرا لاتساع أشغال سعيد قدورة " كان له أربع خلفوات ينوبون عنه

---

[1]- أحمد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: أحمد الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1955. ج6، ص: 30؛ محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. المغرب: مطبعة فضالة – منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1979. ج2، ص: 627.

[2] – نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 279.

- Devoulx, " Les Edifices Religieux de l'ancien Alger ", **R**. **A**. N° : 10, Année : 1866, p: 287.

[3] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 97.

[4] – ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 96؛ يذهب أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 361) إلى أنه كان يتناوب مع ابن عمار إلى أن عزل هذا في 1028ه، ومن ثم انفرد سعيد قدورة بالفتوى.

[5] –ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 96.

[6] – أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ج1، ص، ص: 361، 362.

بالتداول إن تأخر عن الخطبة أو صلاة الظهر أو العصر على العادة التي سنها أسلافه... وأرزاقهم من عنده لا من الأوقاف"[1] لأنه كان صاحب ثروة.

وسعيد قدورة مدين بمكانته وشهرته لطول عهده بالفتوى والتدريس في أهم جوامع الجزائر، وقد انشغل بهاتين الوظيفتين، وبالمهام المختلفة التي كان على المفتي أن يقوم بها، فلم يترك الكثير من المؤلفات. بحيث كثر تلاميذه وقلت تآليفه، والتآليف المنسوبة إليه لا تخرج عن كونها إملاءات كان يمليها على طلابه، فهي مختصرة وموضحة لبعض المسائل، وموضوعاتها لا تخرج عن المواد المدروسة عندئذ، ولا سيما الحديث والفقه والنحو والمنطق[2]. نذكر منها: حواش على صغرى السنوسي[3]، وشرح على جوهرة التوحيد للقاني في العقيدة، وشرح على السلم المرونق في المنطق لعبد الرحمن الأخضري[4]، وهو الكتاب الذي اشتهر به كثيرا. وقد كان سعيد قدورة شاعرا وراجزا، وله أراجيز في موضوعات متعددة ولا سيما في نظم المسائل العلمية[5].

تخرج على سعيد قدورة عدد كبير من العلماء من أشهرهم: ابنه محمد قدورة، والشيخ محمد بن عبد الكريم الجزائري[6]، والشيخ أبو حفص عمر المانجلاتي [7]، الشيخ يحي الشاوي المليانى[8]، والشيخ عيسى الثعالبي[1]. ونظرا لشهرته شُدَّت إليه الرحال من مناطق بعيدة

---

[1] – Devoulx , Op-Cit, p: 288.

[2] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 368.

[3] – محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي (ت 895هـ): من أشهر المؤلفين في علم الكلام، واشتهرت تصانيفه فيه وهي: الكبرى المسماة بعقيدة التوحيد، والعقيدة الوسطى، والصغرى، وعقيدة المختصر أصغر من الصغرى، والمقدمات المبينة لعقيدته الصغرى. ووضع لكل من هذه العقائد الخمس شروحا؛ وله تآليف أخرى في علوم أخرى في مقدمتها القراءات القرآنية. ينظر: ابن مريم المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية. سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع. (ط1)، 2011. ص- ص: 374- 387.

[4] – الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 220؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية. ص: 309؛ نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 1971. ص: 259.

[5] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 369.

[6] – محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج3، ص: 23.

[7] – محمد بن زاكور، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، ص:11.

[8] – أبو زكريا يحي بن محمد بن محمد النايلي الشاوي المليانى (ت 1096ه): له عدة مؤلفات منها: حاشية على شرح أم البراهين. ينظر ترجمته: مخلوف، شجرة النور، ص، ص: 316، 317؛ محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. القاهرة:

كإقليم توات[2]، فأخذ عنه بمدينة الجزائر الشيخ عبد الكريم بن محمد التمنطيطي[3]، وهو من مشاهير علماء القرن الحادي عشر، وابنه العلامة الشيخ البكري بن عبد الكريم[4] مؤسس الطريقة البكرية بتمنطيط[5] [6]. كما أخذ عنه بعض علماء المغرب الأقصى[7]، من أشهرهم الشيخ محمد بن سليمان الروداني، الذي يعد قدورة " أجل مشايخه "[8]، وقد خلَّد الروداني أسانيد شيخه سعيد قدورة في ثبته " صلة الخلف بموصول السلف" [9].

وصف الإفراني سعيد قدورة بأنه كان :" عالما متفننا زاهدا ورعا، موصوفا بالصلاح"[10]. وبلغت مكانته عند البشوات أنهم كانوا يقفون له إجلالا ويقبلون يده. كما كانوا يعتقدون فيه البركات، فلم يكن في نظرهم موظفا عاديا. وكان عند العامة على الأقل في منزلة المتصوف المرابط. والعامة تتبع الرأي العام الذي كان منعقدا على أن قدورة من

دار الكتاب الإسلامي. ج4، ص: 486؛ خير الدين الزركلي، الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، (ط 15)، 2002. ج8، ص: 169.

[1] – عيسى بن محمد بن محمد الجعفري الثعالبي نزيل الحرمين الشريفين (ت 1080ه): له تآليف منها: مقاليد الأسانيد وكتر الرواة. ينظر ترجمته: المحبي، المصدر السابق، ج3، ص، ص: 240،241؛ مخلوف، المرجع السابق، ص، ص:311، 312؛ الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص: 108.

[2] – إقليم واسع يقع في الجنوب الغربي للجزائر، وأشهر واحاته وقصوره إقليم تيمي وتمنطيط. خضع هذا الإقليم صوريا للمغرب منذ حملة السلطان السعدي المنصور الذهبي عليه سنة 990هـ، إلا أن حكامه كانوا يختارون من بين أعيان الإقليم. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب، ج2، ص: 631؛ أحمد الناصري، كتاب الاستقصا. ج5، ص، ص: 98، 99.

[3] – بكري البكري، " تمنطيط رمز تاريخ وعنوان حضارة "، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، السنة الأولى، ع: 1، سنة 1993. ص: 67؛ فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر: 1977. ص: 94.

[4] – البكري بن محمد بن أبي محمد التمنطيطي (ت 1133هـ): درس بتوات والمغرب والجزائر ومصر. تولى منصب قاضي الجماعة التواتية. ينظر: فرج محمود فرج، المرجع السابق، مواضع متفرقة مثلا الصفحات: 94، 112.

[5] – تقع تمنطيط في إقليم توات، وهي التي غلب عليها اسم توات عند الإطلاق، وكانت عاصمة هذا الإقليم خلال القرن 17م، ثم انتقلت إلى أدرار أكبر مقاطعة بإقليم تيمي. ينظر: فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص:85.

[6] – فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص: 89.

[7] – كالشيخ محمد بن عبد الرحمن الصيني التازي (ت 1115هـ) ، كما أخذ عنه الفقيه محمد الهشتوكي. ينظر: محمد القادري، نشر المثاني، ج3، ص: 146؛ محمد الإفراني، صفوة من انتشر. ص: 220.

[8] – محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي (ت 1094هـ): درس بالمغرب ومصر واستوطن الحجاز. له عدة تآليف منها فهرسته "صلة الخلف". ينظر: المحبي، خلاصة الأثر، ج4، ص:204– 207؛ مخلوف، شجرة النور، ص: 316.

[9] – محمد بن سليمان الروداني، صلة الخلف بموصول السلف، تح: محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988. مواضع متفرقة مثلا: الصفحات: 21– 23، 31، 453.

[10] – محمد بن الحاج الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. ص: 220.

العلماء الصالحين، وبلغ من تقدير البشوات وأهل الديوان له أنهم كانوا يقدمونه على المفتي الحنفي شيخ الإسلام، الذي كان يمثل المذهب الحنفي. وكانت لقدورة الدالة على زميله الحنفي في المجلس العلمي، الذي كان ينعقد برئاسة قدورة في الجامع الكبير[1].

كان سعيد قدورة يتواصل مع معاصريه من العلماء، وبعضهم ينحدر من بيوتات علمية عريقة، من ذلك تواصله مع الشيخ أحمد المقري لما حل الجزائر سنة 1027ه/1617م، في أثناء رحلته إلى المشرق، وقد أشار إليه في هذا النص:" كتب إلي مفتي الجزائر، وعالمها، وإمامها، وخطيبها الأخ في الله سيدي سعيد الشهير بقدورة حفظه الله، تلميذ مولاي العم رحمه الله ملغزا في القوس"[2]. وكان تبادل الألغاز يتم نثرا أو شعرا، وهو نوع من أنواع التسلية العلمية والأدبية التي لجأ إليها العلماء تنشيطا للفكر.

كما تبادل الرسائل والفتاوى مع الشيخ عبد الكريم الفكون، ولهذا نجد بعض فتاويه في"نوازل الفكون" التي قيدها محمد بن عبد الكريم الفكون، وأشير إليه في أحد النصوص :"رسوم وسؤال وصلت من محروسة الجزائر إلى الوالد تغمده الله برحمته، والجواب عليها شيخ الإسلام وقدوة الأنام سيدي سعيد بن إبراهيم عرف قدورة" [3].

توفي سعيد قدورة سنة 1066هـ/1655م [4]، وقد أثر في جيله بل في الأجيال اللاحقة تأثيرا لم يبلغه إلا القليل من العلماء[5].

(2) – الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد قدورة (ت1107هـ/ 1695م)[6]:

ولد الشيخ محمد بن سعيد بمدينة الجزائر سنة 1034ه/1624م، ودرس على شيوخها وعلى رأسهم والده، وتولى منصب الإفتاء المالكي، والخطابة بالجامع الأعظم خَلَفًا له[1]، ذلك

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 363، 364.

[2]- أحمد المقري ، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر. سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع- منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا- جامعة وهران- (ط1)، 2004. ص: 73.

[3]- محمد الفكون، « نوازل الفكون » (مخطوط)، نسخة مصورة مأخوذة من الأستاذ بوخلوة حسين. ص: 99.

[4]- مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها، ص: 98.

[5]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 367.

[6] - ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 101.

ما أكده ابن المفتي بقوله:" ولما تعاظمت حرمة سيدي سعيد، وكثرت أشغاله قدم ابنه سيدي محمد العالم الفقيه القدير المفسر المحدث... وكلفه أبوه مع صغر سنه بالفتوى، والخطابة والتدريس لفضله ونبهاهته"[2]. ولمَّا توفي والده عين رسميا في منصب الفتوى[3]، فكانت مدته فيه نحو الأربعين سنة[4].

كان والده قد بدأ في تدريبه على هذه المهمة، وعلى تولي الوظائف الرسمية منذ صغره، ولم يكد يوافيه الأجل حتى كان محمد هو المرشح الأول للإفتاء في الجامع الكبير. ورغم شهرته وقوة عارضته في علوم الدين إلا أنَّ بعض معاصريه ظلوا يعتقدون أنه مدين بما وصل إليه من مجد وشهرة وجاه لوالده[5]. ومنهم حتى البعض الذين يعترفون له بالتبحر بالعلم كمحمد بن زاكور الفاسي الذي درس عليه ووصفه بأوصاف كبار العلماء[6].

يعد الشيخ محمد قدورة من كبار العلماء في وقته[7]، وكان هو الآخر من أشهر المدرسين بالجامع الأعظم، فتخرج عليه عدد كبير من العلماء. ومن بين أشهر تلامذته: أخاه أحمد، والشيخ محمد بن أحمد القسنطيني[8] المعروف بابن الكماد[9]، ومحمد بن زاكور الفاسي [10]. توفي عام 1107ه/ 1695م[11]، وهو الآخر لم يترك تآليف.

---

[1]- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 164.

Devoulx , " Les Edifices Religieux ",in **R**. **A** , N° :10, Année : 1866, p, p: 289, 290.

[2]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 98.

[3]- ورد ذكره في عدة وثائق منها وثيقة بها سؤال، وأجوبة حول وقف- الجواب الأول لمفتي الحنفية: حسين بن رجب، والجواب الثاني لمحمد بن سعيد قدورة، في أوائل شهر محرم 1107هـ. ينظر: س. م. ش، ع: 55، و: 63.

[4] - ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 99.

[5]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 365.

[6]- ابن زاكور، نشر أزاهر البستان، ص: 38.

[7]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:259.

[8]- محمد مخلوف، شجرة النور، ص: 329 .

[9] - ينظر ترجمته في بيت الكماد في الفصل الثاني من هذا الباب.

[10]- حضر ابن زاكور بعضا من مجالس محمد قدورة ثم سأله الإجازة، فأجازه إجازة مطلقة عامة، في أوائل رجب 1094ه. ينظر: ابن زاكور، المصدر السابق، ص: 38؛ فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية. الجزائر: دار سنجاق الدين. 2011. ص: 214.

[11] - ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 99.

(3)– أبو العباس أحمد بن سعيد قدورة: (ت 1118هـ/ 1706م):

لا شك في أنَّ أحمد قدورة درس على مشيخة مدينة الجزائر وفي مقدمتهم والده سعيد، وأخاه محمد، وقد توجه لأخيه محمد باستدعاء نظمي يطلب فيه الإجازة منها هذه الأبيات، التي نستدل بها أيضا على أنه كان يحسن نظم الشعر كوالده[1]:

قطب الزّمان ونخبة الف–ضلاء وسلالة النجباء والعلماء

شيخ الجزائر حبرها وخطـــيبها وإمامها حقا بغير مراء

...تلميذكم ومحبكم بل عبدكم طلب الإجازة منكم بوفاء

بجميع ما تـــرووه عن والد أو غيره من سائر العـــلماء

ورغم أنَّ أحد معاصريه المعجبين بوالده بتعبير أبو القاسم سعد الله، وهو ابن المفتي يصفه بقوله:" كان سيدي أحمد بن سيدي سعيد كريم الشمائل، نبيها بالدرس، له باع في النحو، وأصول العقيدة، ويملك صبرا كبيرا للإجابة على عجل، وكفاية على كل المسائل، وكان أديبا نجيبا، وخطيبا فصيحا "[2]، إلا أن أبو القاسم سعد الله يذهب إلى أنه " لم يكن في درجة أبيه ولا أخيه العلمية "[3]، ولا شك في أنه وصل إلى هذا الحكم من الخلال الأصداء التي نجدها للعلماء المتميزين من كثرة التلامذة والمؤلفات أو واحدا منهما على الأقل، وهذا ما لم يحصل مع أحمد قدورة.

توَّلى أحمد قدورة الإفتاء بالجامع الأعظم سنة 1107هـ/1695م خلفا لأخيه محمد، واستمر[4] في هذه الوظيفة إلى مقتله عام 1118م/1706م[5]. عاصر أحمد قدورة في منصبه

---

[1] – محمد قدورة، « جليس الزائر وأنيس السائر»، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2600. ورقة: 28 و؛ فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية. ص:90.

[2] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[3]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 366.

[4]– أشارت إليه عدد من الوثائق من ذلك وثيقة مؤرخة بشوال 1109ه (س. م. ش. ع: 48/ 1– و: 51)، وأخرى بأواخر شعبان عام 1110ه(س. م. ش،ع: 55– و: 23)، وفي كلاهما مسائل خاصة بالوقف أجاب عنها أحمد بن سعيد بصفته مفتيا للمالكية، وحسين بن رجب بصفته مفتيا للحنفية. كما بصفته مفتيا للمالكية للمجلس العلمي المنعقد بالجامع الأعظم لإرسال الصدقات للحرمين الشريفين في عام 1118هـ، (س. م. ش، ع: 82، و: 1).

[5] – نور الدين عبد القادر، المرجع نفسه، ص: 194 ؛ تقييد ابن المفتي، ص: 99.

للفتيا عدد من الدايات منهم الداي حسين خوجة، وقد كان هذا الداي يوليه محبة كبيرة[1]، إلا أنَّ خلفه الداي محمد بكداش خوجة[2] كان بخلاف ذلك، وهو الذي حكم عليه بالإعدام بمجرد اعتلاءه منصب داي الجزائر، ويشير صاحب "تحفة الزائر" إلى هذا الحادث في النص الموالي:" ولما تولى محمد بكداش... سنة 1118ه، قبض على الأخوين العالمين السيد أحمد والسيد علال ولدي العلامة المؤلف الشهير الشيخ سعيد قدورة، وكان الأول مفتيا للمالكية، والثاني قاضيا لهم، فقتلهما في محبسهما خنقا "[3].

يبدو أنَّ الحقد الذي كان يكنه بكداش لأحمد وقريبه كان كبيرا، إذ لم يراع في ذلك أي شيء حتى أنه تركهما في حبس مليء بالدنس حتى كادا يختنقان، وقتل الاثنان في شهر ذي الحجة سنة 1118هـ/ 1706م[4].

إنّ الشهرة والمكانة التي تمتع بها بيت قدورة لم يحولا دون اغتيال عالمين من نفس البيت في آن واحد، وفي أوج شهرة ونفوذ بيتهم، ويكتف الدارسون بالإشارة إلى أسباب هذه النكبة بوصفها بالمؤامرات السياسية[5]، ويعبر عنها آخرون قائلين أنه اغتيل لاشتغاله بالسياسة، وبالاستناد إلى تقييدات ابن المفتي سنحاول الأمر، بحيث كان محمد بكتاش في عهد الداي حسين خوجة متوليا خطة " دفتر دار الجيش"، وقد حيكت ضده دسائس من

Devoulx , " Les Edifices Religieux, **R**. **A**, N° :10, Année : 1866, p-p: 290- 294.

[1] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 105.

[2]– هو محمد بن أبي الحسين نور الدين علي بن محمد، قيل أنه عربي الأصل. جاء صغير السن إلى الجزائر سنة 1086هـ، ودخل الجندية كعادة الشبان الأتراك، وظل يترقى في المناصب إلى أن أصبح دفتر دار الحكومة وكاتبها العام سنة 1117هـ، ثم تولى دايا على الجزائر بين سنتي 1118ه- 1122ه / 1707م -1710م. ومن أهم الانجازات التي تحققت في عهده فتح وهران. ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994. ج3، 207؛

De Gonzalez Joachim, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. Alger : Imprimerie Victor Pezé. 1887. P-p :45-49.

[3]– محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. الإسكندرية: المطبعة التجارية عرزوزي وجاويش، 1903. ج1، ص: 70.

[4]– يذكر ابن المفتي أن أحمد ظل في الفتوى من عام 1107 إلى 1118هـ ونجده في ص: 106 يذكر إعدامه سنة 1128هـ، وهذا خطأ وقع فيه سهوا. والمحقق لم ينبه عليه بل أضاف له التاريخ الميلادي هو 1715م. ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 99.

[5]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 366؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 259.

طرف بعض الوشاة، واتهم رفقة اثنان آخران بتهم، زجهم من أجلها الداي حسين خوجة في السجن، ثم نفاهم إلى طرابلس، وهناك عزموا على أحد الأمرين إما " الموت أو الوصول إلى الإمارة "، وفعلا عادوا إلى الجزائر، ونجحوا عن طريق المؤامرات في تنصيب محمد بكتاش وتنحية حسين خوجة، و" زعموا أنّ "سيدي" أحمد بن سيدي سعيد لم يكن يجهل ما وقع للثلاثة ونفيهم، ويحتمل أن يكون ذلك سبب المحبة الكبيرة التي يوليها إياه حسين خوجة، وبرأي بعض الناس كان هؤلاء الوشاة السبب فيما وقع"[1].

لم تنته بعد رواية ابن المفتي إذ يضيف قائلا:" أما أنا فإني أعلم أنه توجد عداوة بينهم[2]، وبين سيدي أحمد، ومن بين هؤلاء المتعادين يوجد شيخي مصطفى العنابي، وأخوه سيدي حسين، وانشغل شيخي كثيرا به واهتم بمنافعه، وكان من عادته أن يستعلم بدقة عن الوقائع التي يمكنها أن تنال من احترامه"[3].

وابن المفتي يلمح إلى أن سبب قتله يعود إلى العداوة التي يكنها له جماعة بما فيهم بعض العلماء الأحناف، ولا ننسى أن الداي حسين خوجة الذي نفى بكداش وأصدقاءه كان أحد رجال العلم، كما كان الداي محمد بكتاش هو الآخر من رجال العلم الأحناف، وقد أهله ذلك ليشغل منصب دفتر دار.

وعليه فإن قتل أحمد قدورة وقريبه لم يكن سببه سياسي محض، ويتعلق الأمر بتنافس غير شريف بين حملة القلم في تلك الفترة. ومما يدعم رأينا هو ما أشار إليه ابن المفتي في النص السابق، بالإضافة إلى طريقة معاملة بكداش للداي حسين خوجة لما حصل على منصب الدولاتلي (الداي)، بحيث لم يقم بقتله واكتفى بإرساله إلى بجاية، وعاش بها موقرا [4]، إلى أن مات بعد أربعة أشهر لمرض أصابه. ألم يكن حَرِّيٌ به قتل الداي حسين الذي نفاه لا قتل من شك بكونه حرضه، حسب اعتقادهم وهو أحمد قدورة وقريبه.

---

[1] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 105.

[2] – لم يبين من يقصدهم ب "هم"، ويفهم من سياق النص أن المقصود جماعة منهم عدد من العلماء، أو جماعة تتألف من العلماء.

[3] – ابن المفتي، المصدر السابق، ص، ص: 105- 106.

[4] – أخذ الداي حسين ببجاية من طرف بعض قبائل زواوة الذين كانوا يوقرونه لأنه لم يكن يحب القتل، وكان يوقر الشرع.

(4)– علال بن سعيد بن إبراهيم قدورة (ت 1118ه/1706م):

كان الشيخ علال يشغل منصب قاضي المالكية في سنة 1118ه[1]، وهي السنة التي أعدم فيها مع أخاه (أو خاله) المفتي أحمد قدورة بالتهمة نفسها. و لم تأت المصادر على ذكره إلا عرضا لما تناولت حادثة مقتل المفتي أحمد قدورة، ويكتفي ابن المفتي بوصفه "بسيدي "، وهي الصفة التي كان يطلقها على العلماء[2].

أما صلة القرابة التي تجمعه ببيت قدورة، ففيها اختلاف بين كونه ابن سعيد قدورة، وبين أنه ابن ابنته، فلما نرجع إلى نص ابن المفتي الذي نشره ألبير دوفو في المجلة الإفريقية[3] يذكر أن علال هو ابن أخت أحمد قدورة[4]، أي حفيد سعيد قدورة، في حين يشير إليه صاحب " تحفة الزائر" على أنه ابن سعيد قدورة[5].

ونجد في سجلات المحاكم الشرعية، وثيقة وهي عبارة عن وقف أهلي يعود إلى سنة 1117ه/1705م، ورد في نهايته هذا النص:"... شهد عليه بذلك، وهو في الحالة الجائزة شرعا، وعرفه بتقريب السيد علال بن سيدي سعيد، وذلك بتاريخ أوائل صفر الخير عام سبعة عشر ومائة وألف"[6]، فسيدي سعيد هو على الأرجح هو سعيد قدورة.

(5)– إبراهيم بن سعيد بن إبراهيم قدورة (كان حيا سنة 1077هـ/1066م) [7]:

---

[1] – محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر،ج1، ص: 70؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 259.

[2] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[3] – لما نرجع إلى نص ابن المفتي الذي جمعه وحققه فارس كعوان، نجد أنه واكتفى بوصفه ب"سيدي علال"، ويجدر التنبيه إلى أن محقق التقييدات يقع في تناقض بين المتن والهامش، في العنوان الذي أضافه إلى المتن يذكر أن علال ابن أخت أحمد قدورة، أي أنه حفيد سعيد قدورة، ويعرفه في الهامش على أنه ابن سعيد قدورة. ينظر: ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[4]– Devoulx ," Les Edifices Religieux. In **R.A**, N° :10, Année : 1866, p: 293.

[5] – محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ج1، ص: 70.

[6] – س. م. ش. ع: 9، و: 41.

[7] – عيسى الثعالبي، « إجازة عيسى الثعالبي لإبراهيم بن سعيد بن إبراهيم قدورة »، مخطوطة ضمن مجموع رقم: 390، رقم الميكرو فيلم: 003. من الصفحة 230– إلى الصفحة 234.

لم نجد أية إشارة إلى الشيخ إبراهيم هذا في أي من المصادر التي تعرضت لعلماء الجزائر، ولم نعرف به إلا من خلال الإجازة التي كتبها له تلميذ والده الشيخ عيسى الثعالبي الجزائري نزيل مكة في سنة 1077ه/ 1666م.

إنَّ من أهم المصادر التي استندنا عليها في التعريف بهذا البيت هو تقييدات ابن المفتي[1]، الذي كان من أشد المعجبين والمدافعين عن هذا البيت، ومع ذلك لم يترجم لإبراهيم هذا، ألم يفعل ذلك لأنه لم يتول منصب الإفتاء الذي ترجم لرجاله، كما أنه لم يترجم للشيخ علال أحد أفراد هذا البيت، مع أنه تولى منصبا رفيعا وهو قضاء المالكية.

ثم لماذا لم يعين مترجمنا في منصب الإفتاء، فهل توفي قبل وفاة أخاه محمد فلم يعرض عليه منصب الفتوى، أم أنه كان متوليا لوظائف أخرى، هل هاجر من مدينة الجزائر؟ نظرا لانعدام معلومات مؤسسة نكتفي بالتساؤلات حول الحقيقة التي تقف خلف سكوت المصادر عن هذه الشخصية رغم أنه من رجال العلم، وشهرة بيته كفيلة أيضا بأن تمهد له طريق الظهور.

والإجازة التي كتبها الشيخ عيسى الثعالبي لإبراهيم بن سعيد قدورة مطولة، ورد فيها بعد الديباجة:" سألني لذلك (الإجازة) من زكا في هذا المعنى زرعه، وكرم أصله وفرعه... وبرز في مدارك الأنظار ثاقب فهمه ... ورصع تاج حسبه بواسطة عقود الجمان نخبة أعيان الفضلاء، وخلاصة أفراد النبلاء... الفاضل المفرد والألمعي الأوحد الشيخ إبراهيم ابن شيخ الإسلام، وأوحد الأئمة الأعلام، والغني بشهرة فضائله عن تعريف الأقلام شيخنا سعيد بن إبراهيم الجزائري- بلغه الله الأمل، وجمع بين شرفي العلم والعمل- أن أجيز له ما ثبت لي روايته... وذلك بعد أن تجاذبنا أطراف المذاكرة، وأجرينا في ميدان البحث جياد المحاورة "، إلى أن يقول:" قد أجزت للأخ الفاضل، نخبة الأكابر الأفاضل: الشيخ إبراهيم المذكور أن يروي عني جميع ما تجوز لي روايته ... إجازة تامة مطلقة عامة "[2].

---

[1]- اعتمد على تقييدات ابن المفتي كل من تعرض لعلماء الجزائر في تلك الفترة نور الدين عبد القادر، ألبير دوفو، قونزاليز وغيرهم.

[2]- تقع الإجازة في 5 صفحات. ينظر: « إجازة عيسى الثعالبي لإبراهيم بن سعيد قدورة »، مخ ، ص- ص : 230-234.

والإجازة مؤرخة ب" أواخر ذي الحجة الحرام من عام سبعة وسبعين بعد الألف من الهجرة النبوية ". أما مكانها فهو على الأرجح مكة المكرمة، لأن الثعالبي كان مستقرا بها، وقد أضاف عبارة "المكي" إلى اسمه في هذه الإجازة. ويرجح أن إبراهيم بن سعيد قدورة أخذ على الثعالبي بمكة في أثناء ذهابه للحج لأنها مكتوبة في أواخر ذي الحجة.

(6)– الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد:

حفيد الشيخ سعيد قدورة، ويذكره كل من ألبير دوفو وقونزاليز بالاسم الذي أثبتناه، مما يدل على أنه ابن أحمد قدورة، بينما يذكر ابن المفتي أنه ابن خالة عبد الرحمن المرتضى[1]، وهذا الأخير هو ابن ابنة سعيد قدورة، فيدل كلامه أنه هو الآخر ابن ابنة سعيد قدورة، ومن الحسن الحظ أننا عثرنا على محضر للمجلس العلمي الذي حضره الحاج سعيد باعتباره مفتيا للمالكية، وأشير إليه باسم سعيد بن أحمد بن سعيد[2].

يذهب ابن المفتي إلى أنه تولى منصب الإفتاء المالكي بعد عزل قريبه عبد الرحمن المرتضى في عام 1122ه/1710م، واحتفظ بوظيفته لأكثر من سبع سنوات متواصلة[3]، أي إلى حوالي عام 1129ه/1716م. وهذا يختلف عمّا أورده كل من ألبير دوفو وقونزليز، إذ يذكر الأول منهما استنادا على بعض الوثائق أنه وردت الإشارة إلى الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد كمفتي للمالكية مرتين الأولى في ربيع الأول 1122ه/1710م[4]، والإشارة الثانية إليه في رجب 1124ه/1712م[5]. وقد حصلنا على وثيقة وهي محضر لمجلس علمي منعقد سنة 1124هـ، وقد حضره سعيد بن أحمد بن سعيد باعتباره مفتيا للمالكية أيضا[6].

---

[1] – يذكره ابن المفتي بالحاج سعيد فقط، ولا ينعته بسيدي التي نعت بها غيره من العلماء.

[2]– س. م. ش، ع: 55، و: 29.

[3] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 108.

[4]– ينظر أيضا: نور الدين عبد القادر، ص: 183؛ محمد بوشنافي، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني(10-13ه/ 16-19م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في: التاريخ الحديث والمعاصر. بإشراف: بوعلام بلقاسمي. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ. (2007- 2008). ص:115.

[5]– Devoulx , Les Edifices Religieux , in **R. A** , N° :10, Année : 1866, p: 294.

[6]– س. م. ش، ع: 55، و: 29.

أما في قائمة مفتي المالكية بمدينة الجزائر، والتي أوردها قونزاليز، فيرد فيها أنه عين مرتين، الأولى سنة 1122ه، وابتداء من سنة 1124ه نجد مفتيا آخر، ثم نجده مرة أخرى سنة 1125ه، ثم نجد مفتيا جديدا سنة 1127ه[1]. أي أنه عين مرتين وعزل مرتين.

ورغم إعجاب ابن المفتي بالشيخ سعيد قدورة إلا أنه يصف سميه وحفيده الحاج سعيد بأنَّه :"كان أبلد مخلوقات الله تعالى"، وهو يراه غير مؤهل لتولي منصب الفتوى، ويعترض على توليه لهذا المنصب بقوله:" وصل إلى هذه الخطة بكره ونفور"، " وجاءت توليته بسبب أن أهل المدينة كانوا يُجلون آباءه وأسلافه ويستبشرون بهذه العائلة... وكانوا يعتقدون بل حتى يتيقنون أنّ البركة تلتصق حتى بالأبناء في سن الحداثة، وكثير من محاوراتنا معهم في هذا المعنى، وهو:" أن المدينة ما لم يتولّ فيها مُفت ينتسب لذرية سيدي سعيد فإنه سينهال عليها وابل من البؤس كغلاء الأسعار والزلزلة والصاعقة وأشياء أخرى"[2].

(7)- الحاج أحمد بن سعيد بن سعيد:

ووردت الإشارة إلى هذه الشخصية مرتين في الوثائق كمفتي للمالكية، الأولى في بداية شهر ربيع الثاني 1125ه/1713م، والثانية في شهر رمضان 1126ه/1714م[3]. ولا يستبعد أن المفتي المقصود هو نفسه الحاج سعيد بن أحمد المترجم له قبله.

(8)- عبد الرحمن بن أحمد المرتضى:

هو حفيد الشيخ سعيد قدورة ابن ابنته، وينتمي من جهة والده إلى أسرة المرتضى، وهي من الأسر الشريفة الشهيرة بمدينة الجزائر، ولهذا شغل والده خطة نقيب الأشراف[4]. وتذهب عائشة غطاس إلى أنَّ أسرة المرتضى[5] من الأسر العلمية التي توارثت القضاء المالكي بمدينة الجزائر[1].

---

[1]-De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. p:59.

[2]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 107.

[3]- Devoulx ," Les Edifices Religieux . in **R**. **A**, N° :10, Année : 1866, p: 295.

[4]- ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 106.

[5]- ترجمنا له مع أخواله بيت قدورة لأننا لم نترجم لأسرة المرتضى إذ لم نحصل على مادة علمية كافية حولها، وتذكر عائشة غطاس أن

تصدى عبد الرحمن المرتضى للتدريس فكان مدرسا ناجحا [2]، وقد شغل لفترة من الزمن "خطة نقيب الأشراف التي تولاها والده قبله". ويصفه ابن المفتي بأنَّه كان "حاذقا في علم الكلام، وفي علم الحديث"[3]، ولكن عندما يتعلق الأمر بوظيفة كالفتيا يكون لابن المفتي رأي آخر فيقول:" كان سيدي عبد الرحمن المرتضى تعوزه الفطنة... وهو لا مدخل له في هذه المنقبة الجليلة، والخطة الرفيعة" [4].

وُلي الشيخ عبد الرحمن المرتضى الفتوى بعد مقتله خاله الشيخ أحمد قدورة سنة 1118ه/1107م، وقد ذكر ابن المفتي أنه دُعي :" لخطتي الفتوى، والخطابة بالجامع الكبير، وذلك في أيام الدولاتلي بكتاش خوجة، ثم عزل زمن الدولاتلي دالي إبراهيم"[5]، أي أنه احتفظ بوظيفته منذ إلى أن قتل الداي محمد بكتاش سنة 1122ه/1710م، وتولى دالي مكانه الداي إبراهيم. ورواية ابن المفتي تتوافق مع ما ذهب ألبير دوفو انطلاقا من الوثائق[6]، بحيث وجد أنَّ أول إشارة إلى المرتضى كمفتي في نهاية حجة 1118ه/ 1107م، وآخر إشارة إليه في شهر محرم من عام 1122ه/1710م[7].

ويجدر التنبيه إلى أن المعلومات التي يوردها ألبير دوفو في غاية الأهمية لاعتماده على رواية ابن المفتي، وعلى وثائق سجلات المحاكم الشرعية لأنه كان أمينا للأرشيف بالجزائر في عهد الاحتلال. وهو يذكر أنّ عبد الرحمن المرتضى وجد في منصب الإفتاء من خلال إشارة

الأخبار شحيحة جدا حول هذه الأسرة، وملاحظاتها في غاية الأهمية لأنها قضت عقود من الزمن في البحث في سجلات المحاكم الشرعية. ينظر: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، ص: 374.

[1]- عائشة غطاس، المرجع نفسه، ص: 86.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 370.

[3] - ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[4]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 108.

[5]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 60.

[6]- وتتوافق أيضا مع التواريخ الواردة في القائمة التي ذكرها قونزاليز. ينظر: (Essai chronologique . p: 59.)

[7]- Devoulx ," Les Edifices Religieux .in **R**. **A**, N° :10, Année : 1866, p: 294.

وحيدة في عقد يحمل تاريخ منتصف رجب 1124ه/ 1712م. وذكر أيضا بأن تقييد ابن المفتي لا يشير إلى هذا الظهور الجديد[1].

أما في قائمة مفتي مدينة الجزائر التي أوردها قونزاليز فنجد مفتي يحمل اسم عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد على أنه تولى سنة 1124ه/1712م [2]. ويبدو أنه هو نفسه المرتضى، ويتعلق الأمر بخطأ في تسجيل الاسم فقط.

تولى عبد الرحمن المرتضى وظيفة الفتوى مرة أخرى، وأول إشارة إليه أواخر جمادى الأولى 1128ه/1716م، وآخر إشارة إليه في بداية الحجة 1134ه/ 1722م[3]، وهناك اختلاف بين رواية ابن المفتي المعاصر لعبد الرحمن المرتضى، ودوفو الذي يعتمد على الأرشيف، وهذا يجعل مهمة الترجيح بينهما صعبة.

وبالنسبة إلى رواية ابن المفتي فإنه بعد عزل المرتضى للمرة الثانية ولي ابن خالته الحاج سعيد، وبقي في المنصب أكثر من سبع سنين، وبعد عزله عين العالم الحاج مهدي بن الحاج صالح وبعد خمسة أشهر، نزلت صاعقة على المنارة فاستغل هذه الحالة رجل يدعى يوسف بن الكرتيلو، وصفه ابن المفتي بالوضيع قليل التقوى، و" قصد الدولاتلي أُزُنْ علي باشا، وقال له :" إنّ أهل المدينة يقولون لك أن المدينة لن تهنأ مع مُفْت ليس من أبناء سيدي سعيد"[4].

وبسب هذا المسعى عزل الحاج المهدي وأعيد عبد الرحمن المرتضى لخطة الفتوى مرة أخرى، وقد " تسبب في عزل عالم نابغة ضليع في أربعة علوم يكفيه واحدها وهي: النحو، والأصول، والبيان، وعلم الحديث". وكان المرتضى " تعوزه الفطنة"، " وهو لا مدخل له في هذه المنقبة الجليلة، والخطة الرفيعة، وبقي خمس سنين ونيفا، وتوفي رحمه الله، لعشر بقين من انقضاء شهر شوال سنة 1128هـ/ 1715م"[5].

1- Devoulx, Ibid, p: 295.

2- De Gonzalez, Essai chronologique. p : 59.

3- Devoulx , Op.cit. p: 296.

4 - ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 108.

5 - ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 108.

إنّ تاريخ الوفاة الذي ذكره ابن المفتي فيه نظر لرواية ألبير دوفو من جهة، ولأننا وجدناه يجيب على مسألة في وقف أهلي باعتباره مفتيا للمالكية في أوائل محرم سنة 1134ه/ 1722م[1]. ويذكر ألبير دوفو أنه أشير إلى ذكره في بعض الوثائق، إشارة وحيدة وجدت في عقد مؤرخ بشهر شعبان سنة 1135ه/ 1723م[2].

ثم يختفي ذكر الشيخ عبد الرحمن المرتضى من الوثائق، وبعد أكثر من واحد وأربعين سنة توجد إشارة أخرى له، بحيث وجدت إشارة وحيدة إليه في عقد في بداية رجب 1176ه/ 1763م[3]، وإشارة أخرى له في جمادى الثانية 1180ه/ 1766م[4]. هذا حسب الوثائق التي اطلع عليها ألبير دوفو.

فهل يعقل أن يكون حيا خلال كل هذه المدة ولا يعين ثم يعين مرة أخرى، ثم لنرجع إلى عمره، والذي لا نعرفه إلا من خلال عقد زواجه على السيدة رقية بنت المقري سنة 1087هـ/1676م، ولنفترض أن هذا زواجه الأول، ولنأخذ أدنى حد لسن الزواج في تلك الفترة، ونعتبر أنه كان سنة أثناء العقد 16 سنة، ونضيف لها سنة تعيينه للفتوى سنة 1180ه، فيكون عمره 96سنة، فهل يعقل أن يعين في منصب مهم يتطلب جهدا كبيرا من صاحبه وهو طاعن في السن؟ وهذا يدعو إلى احتمال وجود شخصية أخرى من نفس البيت تحمل الاسم نفسه.

ومن الوثائق التي نعتمد عليها في التعريف بهذه الشخصية هو عقد زواجه من رقية بنت الشيخ أبي عبد الله محمد المقري سنة السنة المذكورة أعلاهـ، ومما ورد فيه بعد تقديم حول سنة النكاح:" فانتدب لهذا الداعي... الفقيه النبيه، الفاضل النزيه، أبو زيد السيد عبد الرحمن

---

[1] – س. م. ش. ع: 50، و: 04.

[2]– Devoulx ," Les Edifices Religieux .in **R**. **A**, N° :10, Année : 1866, p: 296.

[3]– نفس التعيينات يشير إليها نور الدين عبد القار، صفحات، ص: 183، 184. لأنه يعتمد على دراسة ألبير دوفو.

[4]– Devoulx , Op.cit. p:375.

ابن المرحوم المنغمس في رحمة القيوم أبي العباس السيد أحمد الشريف المرتضى..."[1]. وقد حضر عقد النكاح خاله الشيخ محمد قدورة مفتي المالكية في ذلك التاريخ، وقد أشير إليه بهذه العبارة ": وذلك كله بحضرة خال الزوج المذكور، وحاجره قبل..."[2]. وبما أن خاله محمد قدورة كان وصيا عليه فلا بد أنَّ قيام هذه المصاهرة كانت بمبادرة من بيت قدورة.

ويعد عبد الرحمن المرتضى أو سميه الذي عين في الفتوى سنة 1180ه آخر عالم نعرفه من بيت قدورة، ولا ندر إذا ما وجد علماء آخرين لهذا البيت لقلة المادة العلمية، فأهم مصادرنا وهو تقييد ابن المفتي أنهاه مؤلفه سنة 1166هـ /1753م [3]. وخلال الفترة الممتدة من أول تعيين للشيخ سعيد قدورة في منصب الإفتاء عام 1028ه/1618م إلى عام 1127ه/1715م، لم يول في منصب المفتي المالكي إلا أبناء هذا البيت، فخلال السنة المذكورة ولي أول مفتي من خارج هذا البيت، وهو المهدي بن صالح[4] فلم لم يمكث في المنصب سوى خمسة أشهر، إذ أعيدت الفتوى لبيت قدورة بعد نزول صاعقة ادعى بعضهم أن ما حصل كان بسبب عدم تولية أحد من بيت قدورة للفتوى.

وهكذا فإنّ مكانة بيت قدورة العلمية تحولت إلى مكانة دينية، بحيث كان أهالي المدينة ينظرون إليهم كمرابطين يعتقدون فيهم البركة لا كعلماء عاديين. وتدريجيا أصبح أحفاد سعيد قدورة من أبناءه وبناته يتناوبون الفتيا مع غيرهم، إلى أن تلاشى ذكر هذا البيت بصورة نهائية. وبيت قدورة من البيوتات التي ظهرت وتلاشت خلال العهد العثماني، وهذه ظاهرة تستحق منا وقفة متأنية جادة للبحث في أسبابها. ويبدو أن ذلك عائد إلى عوامل خارجية أي من خارج البيت ذاته فقد بدأ يختف، وهو في ذروة مجده، ومنذ اغتيال أحمد قدورة لم نعد نسمع بعلماء كبار من هذا البيت.

---

[1]- عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال أو رحلة ابن حمادوش، تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للفنون المطبعية، 1983. ص: 239. كتب العقد من طرف الشيخ محمد بن عبد المؤمن.

[2]- رحلة ابن حمادوش، ص: 240.

[3] - ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 113.

[4]- Devoulx ;Les Edifices Religieux ,in **R**. **A**, N° :10, Année : 1866, p:295.

(ثانيا)– بيت قدورة وإدارة الجامع الكبير بمدينة الجزائر:

كان الجامع الكبير بالمدينة مخصص للمذهب المالكي، هو مقر المفتي العام، وقد صاحب هذه الوظيفة يشرف على النشاطات المختلفة للجامع إلى جانب قيامه بوظيفة الإفتاء، بحيث كان المفتي يتولى الإشراف على أوقاف الجامع الكبير، كما يتولى به الخطابة والإمامة، إلى جانب التدريس[1]. ونظرا لكثرة انشغالات المفتي، كان بعض المفتين ينيب غيره في الإمامة، وأحيانا حتى في الخطابة.

وقد كان هذا الجامع مقرا للمجلس العلمي الذي ينظر في القضايا المستعصية، وهو يضم عدد من الشخصيات يتقدمها المفتيان الحنفي والمالكي، والقاضيان الحنفي والمالكي [2].

كان به إمامان للصلوات الخمس، بينما كان المفتي المالكي يصلي بالناس الظهر والجمعة والعيدين. أما باقي الموظفين فهم كالتالي: منهم: 19 مدرسا، 8 حزابين، أو قراء القرآن، 18 مؤذن. 3 وكلاء: أحدهم كان يقوم بإدارة أحباس الجامع، وقد كان يشتغل تحت أوامر المفتي. والثاني يشرف على أحباس المؤذنين، والثالث كان يشرف على أحباس الحزابين. وكان هذان الوكيلان مستقلان عن الأول. وقد كانت مداخيل المسجد كبيرة، رغم أن نسبة مهمة منها كانت تذهب إلى مختلف المصاريف[3].

ورغم مكانة بيت قدورة بمدينة الجزائر، بالإضافة ثروته فإنهم لم يؤسسوا زاوية أو مدرسة خاصة بهم، وارتبط تاريخ هذا البيت بالجامع الكبير، الذي تولوا فيه الإفتاء والتدريس والخطابة، وأشرفوا على نشاطاته الدينية والعلمية. وقد استطاع سعيد قدورة أن ينفق على الجامع، وأن يوفر أموالا من أوقافه اشترى بها كتبا لمكتبة الجامع. كما شيد مدرسة لفقراء الطلبة والغرباء منهم[4]. بالإضافة إلى تأسيسه سنة 1039هـ/1629م لزاوية قرب الجامع أصبحت تعرف فيما بعد باسم زاوية الجامع الكبير. وهي تتكون من مسجد صغير دون

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص:393.

[2]– مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، ص: 49.

[3]– مصطفى بن حموش، المرجع نفسه، ص: 50، 51.

[4]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 363.

مئذنة، ومدرسة، ومبنى سكني من طابقين، وعدة غرف يأوي الفقهاء المعوزين، وبعض الغرف لإقامة خادمي الزاوية.

كما اشترى المفتي سعيد قدورة حانوتا وحبسه على الزاوية، ويفيد عقد وقفية حرر سنة 1052هـ/1642م لهذا التحبيس أن نفس المفتي شهد على نفسه أنه بنى بأموال الجامع الكبير الفائضة أحباسا أخرى تعود لنفس الجامع، ومنها علوي لسكن الإمام، ومسجد صغير، ومدرستان، وحانوت، وغيرها، وقد بلغت تكاليف هذا المشروع 15000 دينارا جزائريا خمسينية[1].

- أما مكتبة الجامع الأعظم في أيام ولاية بيت قدورة الإفتاء، فأدوا فيها دور إيجابي، ثم سلبي للغاية حسبما سجله ابن المفتي. فأما الدور الإيجابي فيمثله سعيد قدورة، الذي أحسن تسيير أموال وقف الجامع الأعظم فاستطاع أن ينفق على الجامع وأن يوفر أموالا ينجز بها عدة أمور، ومنها أنه اشترى بها كتبا لمكتبة الجامع[2].

وأثناء إحدى الحملات الأوربية على مدينة الجزائر، أخرجت الكتب من الجامع فاستغرقت عملية نقلها ثلاثة أيام، وقدرت باثنتي عشرة حملة جمال، ثم لم يبق منها إلا ثلاثمائة فقط، وذلك بعد أن تولى الشيخ أحمد قدورة الإفتاء المالكي[3]. وذلك كله حسب حسين بن رجب المعروف بابن المفتي، وهذا هو نصه:"وبعد عزل سيدي أحمد بن سيدي سعيد من خطتي الفتوى والخطابة، في أيام دولة أهشي مصطفى طلب منه خلفه... إرجاع الكتب التي كانت بالجامع العظم بحضور...مصطفى العنابي والحاج المهدي بن صالح" " وكان هناك اثنا عشر غرارة مملوءة بها... وكانت ما يزيد على مائة سفر ثم توزعت بعد ذلك وردوا بعضها، فالحاج سعيد كان مفرطا في الإهمال، فسمح أيام توليه الفتوى لعدد من الناس بالاستيلاء على الكثير من الكتب، ولما توفي سيدي محمد بن ميمون وكيل سيدي جامع وصديق هذا

---

[1]- مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها، ص: 53.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 363.

[3]- مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص: 50.

المفتي، وجدَ سيدي عمّار عنده ... أكثر من أربعين سفرا"[1]. وعدَّ ابن المفتي أناس آخرين أخذوا من كتب الجامع الأعظم ثم باعوها. ومنهم:" أبناء ابنة سيدي سعيد قد سرقوا كمًّا كبيرا من هذه الأسفار"[2].

- أما دور علماء بيت قدورة في التدريس بالجامع الكبير فهو دور إيجابي للغاية، بحيث كانت هذه الأسرة أسرة علم، وتدريس أثرت في أجيال المتعلمين من الجزائريين، فقد كان سعيد قدورة من كبار المدرسين في عصره، وكان ابناه محمد وأحمد مثله غير معروفين بالتأليف ولكن بالدرس، ولا سيما محمد الذي شهد له معاصروه بفصاحة اللسان وغزارة العلم. وكذلك بالنسبة لعبد الرحمن المرتضى الذي كانت أسرة قدورة أخواله، فقد كان هو الآخر مدرسا ناجحا. وكثر التلاميذ الذين تخرجوا على هذه الأسرة، ولا سيما على الوالد والابن الأكبر، وكثرة الزائرين لهم والآخذين عنهم والمستجيزين منهم في الجزائر وغيرها[3].

واشتهرت هذه الأسرة برواية الحديث الذي كان ثاني علم يعتنى به في تلك الفترة بعد القرآن الكريم، فكان أعضاء أسرة معروفين بحفظ الأسانيد ورواية الأخبار والأنساب. وقد اشتهر محمد بذلك على الخصوص [4].

- المبحث الثاني: بيـــــــــت ابن العـــــنابـــــي الحنفي

يعد بيت ابن العنابي من مشاهير البيوتات العلمية بالجزائر، وذلك ما وصفه به محمد بيرم الرابع[5] في تقريظه لكتاب "شرح الدر المختار" لمحمد بن لعنابي في قوله:" أخينا أبي عبد الله

---

[1]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 100.

[2]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 100.

[3] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 370.

[4] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص: 370.

[5] - محمد بن محمد بن محمد بن محمد، المعـــروف ببيرم الرابع (ت 1278هـــ/ 1861م): حمل نفس اسم و لقب أبيه وجديه قبله، وهو يـــروي عن أبيه وغيره. تولـــى خطة التدريس، ثم الإفتاء ثم رئاسة الفتوى الحنفية سنة 1259هـــ/ 1843م، بالإضافة إلـــى توليه نقابة الأشراف، وإمامـــة عدة جوامع، وإدارة العـــديد من المدارس، كما كان مستشارا للأمير محمد باي (1855- 1859م). من أشهر مؤلفاته: التراجم المهمة للخطباء والأئمـــة. ينظر: الكتاني، فهرس الفهـــارس، ج1، ص، ص: 242، 243؛ أحمـــد عبد الســـلام، المؤرخون التونسيون، ص: 602؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص: 686.

سيدي محمد بن محمود... من بيت علم دعائمه أعز وأطول، وأساسه أحكم وأكمل "[1].

انتقل أسلاف هذه الأسرة إلى الجزائر من استانبول. والظاهر أنها استقرت أولا بعنابة، ثم انتقلت إلى مدينة الجزائر مركز السلطة، وتوفر الوظائف الدينية[2]. تولى عدد من أفراد هذا البيت الفتوى والقضاء الحنفية بمدينة الجزائر، وكانت قريبة من مقاليد السلطة، وذوي النفوذ في البلاد[3].

وقد استطعنا أن نرصد خمسة علماء من هذا البيت، اعتلى أربعة منهم مناصب دينية وعلمية رفيعة، ولحسن حظنا فإن محمود بن محمد العنابي كفانا عناء البحث عن صلة القرابة التي تجمع بينهم، من خلال سنده في الفقه في هذا النص:" أمَّا سندي في الفقه فإني تلقيته عن والدي (محمود)، وهو عن والده محمد بن حسين، وهو عن والده حسين بن محمد ..." [4].

بالنسبة للشيخ مصطفى بن رمضان العنابي الذي ذكره ابن المفتي على أنه أخي حسين، بقوله:" شيخي مصطفى العنابي وأخوه سيدي حسين "[5]، إلا أنَّ الأول هو مصطفى بن رمضان والثاني حسين بن محمد، فقد بيَّنَ محمد بن محمود صلة القرابة التي تجمعه بجده محمد بن حسين قاضي الجزائر (ت1203ه) بقوله:" عمه ابن أم أبيه الشيخ مصطفى بن رمضان العنابي الحنفي المتوفي سنة ثلاثين ومائة وألف". وهذا يؤكد أنهما إخوة من الأم، أي أنّ مصطفى بن رمضان العنابي الحنفي عم محمد بن حسين القاضي" ابن أم أبيه " [6].

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي: رائد التجديد الإسلام (1775– 1850). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977. ص: 126.

[2] – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: دار الغرب الإسلامي (ط1)، 1990، ج3، ص: 198.

[3] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي. ص: 59.

[4] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 117.

[5] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 105– 106.

[6] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 115.

(1)– مصطفى بن رمضان العنابي (ت 1130ه/ 1718م):

كان الشيخ مصطفى العنابي من العلماء البارزين في وقته، وهو من أصل تركي أو تركماني، ويؤكد ذلك وصف الشيخ محمد الطيب الفاسي[1] في إجازته له بقوله:" أجزت الفقيه المصطفى التركماني"[2]. ولد بمدينة عنابة ونشأ وتعلم بها[3]، عرف بالعنابي.

ويبدو أنه انتقل إلى مدينة الجزائر قبل سنة 1075ه/1664م[4]. ولا شك في أنه فضل الاستقرار بها لأنها مركز السلطة والجاه والحظوة، سيما وأنه حنفي المذهب. وقد افتتح كتابه " الروض البهيج" بقوله :" يقول عبيد الله مصطفى بن رمضان الحنفي البوني، العنابي المنشأ، الجزائري الدار"، إلى أن يقول:" وبعد فإني لما انتقلت من بلدي بلد العناب دار القرابة والأحباب... وأول أرض مس جلدي ترابها... واستوطنت الجزائر المعجبة لكل زائر ..."[5].

واصل مصطفى العنابي تحصيله العلمي بمدينة الجزائر، فدرس على علمائها، ولازم شيخه "أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد شقرون بن أحمد المقري التلمساني" أكثر من اثنتي عشرة سنة، وأخذ عنه عدد من الفنون، وقد أكد كل ذلك في ثبته، بقوله بأنه أخذ عنه" جميع البخاري وشمائل[6]... والتوحيد والمنطق والأصول وعلم التصوف وغير ذلك، ولازمته مدة مديدة تزيد على اثني عشر سنة"[7]، ثم طلب منه الإجازة، فأجازه سنة 1087هـ/ 1676م.

---

[1] – أبو عبد الله محمد الطيب بن محمد بن عبد القادر الفاسي (ت 1113هـ/ 1701م): ينحدر من أسرة علمية. له تآليف منها: شرح مقدمة جده في الأصول، فهرسة والده في رفع الأسانيد. ينظر: مخلوف، شجرة النور، ص: 329.

[2] – رسائل في التراث والثقافة (مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي 1902– 1992م). دراسة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010. ص: 175.

[3]– نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 245، 246.

[4]– بعملية حسابية، حيث أجازه شيخه محمد المقري سنة 1087ه بعد أن لازمه 12سنة.

[5] – مصطفى العنابي، " الروض البهيج بالنظر في أمور العزوبة والتزويج"، مخطوط، مجلد 8– رقمه بالوزارة: 642. ورقة: 1.

[6] – شمائل الترميذي في الحديث للحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى المعروف بالترميذي (297هـ): مؤلف الجامع الصحيح في الحديث أحد الكتب الستة. ينظر: أبو العباس أحمد ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1977. ج4 ، ص: 278.

[7]– مصطفى العنابي، « ثبت مصطفى العنابي »، مخطوط بالخزانة الحسنية الرباط– المملكة المغربية. تحت رقم: 11447. ورقة: 1.

تولى مصطفى العنابي وظيفة القضاء[1]، والإفتاء الحنفيين بمدينة الجزائر[2]، وقد ذُكِرَ في الاتفاق الذي أبرم بين جماعة الحمايمية في محرم عام سنة 1111ه/1700م، وأشير إليه بهذه العبارة:" تم اتفاق أصحاب الحمامات بالجزائر المحمية بمحضر العلامة الفهامة سيدنا مصطفى العنابي بن رمضان". وقد حضره بصفته مفتيا، وما يؤكد ذلك الإشارة إليه بعد ذلك بهذه العبارة :" اتفقنا مع جماعة بني ميزاب المتولين كراء الحمامات ببلد الجزائر تحت أشراف المفتي"[3].

كان الشيخ مصطفى العنابي من علماء وقته، وقد عُرف بعلوم الفقه وبالتأليف فيها، فحظي عند حكامها فولوه الوظائف ومنها وظيفة التدريس[4]، فدرس عليه الكثير من العلماء منهم: ابن المفتي صاحب التقاييد الذي ينعته بشيخي، وأحمد زروق بن محي الدين بن عبد اللطيف[5]، وكان " رمضان بن مصطفى العنابي" أحد العلماء الذي أخذ عنهم العالم التونسي أحمد بن مصطفى برناز التونسي (ت1138ه/ 1726م) حين قدم إلى مدينة الجزائر[6].

إنّ المناصب الرفيعة التي كان يتولاها أتاحت فرص لقاء العلماء الوافدين إلى الجزائر كالشيخ محمد الطيب الفاسي الذي جاء إلى مدينة الجزائر في مهمة سياسية[7] سنة

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983. ص: 90.

[2] – عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 163؛ المهدي البوعبدلي، في مقدمة تحقيقه لكتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي. قسنطينة: مطبعة البعث– منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية،(سلسلة التراث 1)، 1973. ص: 75، هامش: 2.

[3]– عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107–1117ه/1695–1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2006. ص– ص: 90 –92.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. ص: 90.

[5]– ابن المفتي، تقاييد بن المفتي، ص: 113.

[6] – حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري. ليبيا– تونس: الدار العربية للكتاب. 1975. ص: 231؛ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط2)، 1994. ج1، ص: 93. كانت رحلة برناز إلى مدينة الجزائر قبل 1107ه، لأنه أخذ أيضا عن محمد قدورة المتوفي في السنة المذكورة.

[7] – اختاره السلطان المولى إسماعيل ليرأس الوفد المغربي إثر واقعة المشارع، بين الجيشين الجزائري، والمغربي عند وادي ملوية في رمضان سنة 1103هـ/ 1691م، هزم فيها الجيش المغربي، وأرفقه بالأمير عبد الملك ابن السلطان مولاي إسماعيل، والكاتب الوزير محمد الغساني (ت1119هـ) صاحب الرحلة المعروفة " برحلة الوزير في افتكاك الأسير". ينظر: الناصري، الاستقصاء. ج7، ص: 79.

1103هـ/ 1691م، فتباحث معه في مسائل علمية واستجازه فأجازه، ووصفه في هذا النص:" ولّما دخلت مدينة الجزائر كان ممَّا أتحفني الله بلقائه من أعلامها الفقيه النَّبيه... العلامة الدراكة، المشارك النحرير أبو الخير مصطفى بن رمضان الحنفي الشهير بالعنابي" [1].

أصبحت أسرة ابن العنابي من الأسر المحظية في مدينة الجزائر خلال القرن 18م، فتولى اثنان منها الفتوى على مذهب الإمام أبي حنيفة، أحدهما: الحسين العنابي، وثانيهما حفيده محمد العنابي. وبهذا كان للأسرة تأثير أيضا في السياسة، وبحكم ذلك طمع فيها الطامعون، واستنجد بها المظلومون، كالشيخ أحمد بن قاسم البوني، الذي وجه إلى صديقه مصطفى العنابي في سنة 1106هـ/1694م مقامة بعنوان: "إعلام الأحبار بعجائب الوقائع والأخبار"، يستنجد به من الأزمة التي حلت به وبصديقه المفتي نتيجة وشاية بعض الخصوم بهما إلى الباشا، فعزل الباشا المفتي وأساء لابن البوني[2]. وهذا يؤكد مكانة مترجمنا بمدينة الجزائر.

توفي الشيخ مصطفى بن رمضان[3] العنابي الحنفي في 1130ه/ 1718م[4]، وخلف بعض المؤلفات: منها: أرجوزة في الفرائض في الفقه الحنفي[5]، وكتاب آخر عبر عنه أبو القاسم سعد الله أحسن تعبير حينما وصفه بأنه:" كتاب غريب الاسم والموضوع"[6]، وهو " كتاب الروض البهيج بالنظر إلى أمور العزوبية والتزويج"، الذي يذكر سبب تأليفه بقوله:" وبعد فإني لما انتقلت من بلدي بلد العناب... واستوطنت الجزائر المعجبة لكل زائر ... فلما أعجبتني بحسنها الرايق وجمالها الفائق تزوجت بها عرس كي يحصل لي بها الأنس، فإذا الأمر

---

[1] – رسائل في التراث والثقافة، ص: 175. وينظر أيضا: المهدي البوعبدلي في مقدمة تحقيقه للثغر الجماني لابن سحنون، ص: 75.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. ص– ص: 91– 96.

[3] – ذكر نور الدين عبد القادر (صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 186) ضمن مفاتي الحنفية مفتي اسمه **حسين بن مصطفى بن رمضان** سنة 1069ه ولكن لا نعلم ما هي العلاقة التي تربطه بمترجمنا أم أن الأمر يتعلق بتشابه أسماء.

[4] – ذلك ما ذكره محمد بن محمود في إحدى إجازاته. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي ، ص: 115، وقد ذكر المهدي البوعبدلي بأنه توفي بالجزائر حوالي سنة 1135هـ، الثغر الجماني، ص: 75، هامش: 2.

[5]– أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 15، 16؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 245.

[6]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 16.

صار لي بالعكس، وبُدِّلت بعد السرور بالنحس، ألَّفت بعد الطلاق هذه الأوراق جعلتها تذكرة لنفسي ولمن هو مثلي من أبناء جنسي، وجعلتها مشتملة على بابين الباب الأول: في حكم النكاح، والباب الثاني: في التحذير منه" [1]. فهذا الكتاب يجسد فشل تجربته في زواجه.

(2)- حسين بن محمد العنابي (ت 1150 هـ/1737م):

حسين بن محمد العنابي الحنفي، هو الجد الأعلى لمحمود بن محمد العنابي[2]، وقد ذكره في سنده في الفقه الذي تلقاه عن والده محمود بقوله:" وهو عن والده محمد بن حسين، وهو عن والده حسين بن محمد، وهو عن الشيخ محمد بن المهدي الجزائري عن شيخه شاهين ..." [3]. وهو المؤسس لبيت العنابي إلى جانب أخيه مصطفى المترجم له من قبل.

سكن هو الآخر مدينة الجزائر وتولى الفتوى الحنفية[4] عدة مرات، وهي أعلى وظيفة دينية وعلمية في تلك الفترة، ذلك أنَّ " المفتي الحنفي في الجزائر العثمانية هو شيخ الإسلام الذي لا يفوته في المترلة والاعتبار سوى الداي أو رئيس الدولة "[5].

ويذكر معاصره ابن المفتي أنه تولى الفتوى في المرة الأولى لمدة ثلاث سنين إلى أن عزله بكتاش خوجة، ثم ولي ثانية ومكث شهرين ثم عزل، وبعد سنتين ولي للمرة الثالثة (ثلَّث) وبعد عشرين شهرا عزل[6]. ثم ولي للمرة الرابعة، وتوفي في21 جمادى الثانية سنة 1150ه/ 1737م[7]، فكانت مدته في الفتوى هذه المرة الأخير ثلاث سنين وثلاثة أشهر[8].

---

[1] - مصطفى بن رمضان العنابي، " الروض البهيج بالنظر في أمور العزوبة والتزويج"، مخطوط. ورقة: 1.

[2]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 374.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 117.

[4]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 244.

[5] - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 117.

[6]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص، ص: 90،91.

[7] -H' sen Derdour , Annaba (25 siècles de la vie quotidienne et de luttes). Alger : Imprime sur les presses du Complexe Graphique de Reghaia, 1983. tome:2 , p, p :107,108.

[8]- ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 92.

إنَّ ما ذكره ابن المفتي لا يختلف عما ذكره ألبير دوفو، من حيث عدد المرات التي تولى فيها الفتوى وهي أربعة، ولكن هناك اختلاف في المدة التي كان يقضيها في كل مرة في وظيفته، ويجدر التنبيه إلى أنّ ما يورد ألبير دوفو في غاية الأهمية، ففي كل مفتي يذكر الإشارة الواردة إلى المفتي في الوثائق. وبالنسبة لمترجمنا تشير هذه الوثائق إلى أنّ حسين بن محمد العنابي تناوب في الفتوى مع محمد بن مصطفى المعروف بابن المستي، بحيث يرد ذكره في الوثائق في ذي الحجة عام 1118ه/1707م، والإشارة الثانية: في مطلع محرم 1122ه/1710م، ولا يرد أي اسم لمفتي آخر خلال هاتين السنتين مما يرجح توليه للمنصب لسنتين، ثم تذكر الوثائق ابن المستي، ويبدو أنه أعيد لمنصبه في السنة نفسها بحيث ترد إشارة وحيدة له إليه في الوثائق في شعبان 1122ه/1710م، ثم يعاد ابن المستي[1]، ثم يرد ذكر حسين العنابي مرتين الأولى في ربيع الثاني 1125ه/1713م، والإشارة الثانية في رمضان 1127ه/1715م، مما قد يدل على توليه للمنصب خلال هذه المدة، ثم ذكر مرة أخرى في الوثائق مرتين الأولى في منتصف ربيع الثاني 1148ه/1735م، والثانية في ربيع الثاني 1150ه /1737م[2].

إنَّ تولي حسين العنابي لوظيفة الفتوى كان يلحقها بالضرورة توليه في وظائف أخرى تابعة لها، وهي: الخطابة والتدريس في الجامع الجديد، وقد أكد ذلك ابن المفتي لما تطرق لخلفه في الفتوى قائلا بأنه تولى مكانه " في وظائفه مفتيا وخطيبا ومدرسا بالجامع الجديد"؛ أي أنَّ ابن العنابي كان بكل هذه الوظائف[3].

---

[1] – Devoulx , "Les Edifices Religieux ",in **R**. **A** , N° : 11, Année : 1867, p: 389.

[2] – Devoulx , Ibid. p, p: 389, 390.

[3] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 92.

كان حسين العنابي فيما يبدو واسع المعرفة بعلوم الشريعة، وله تفسير القرآن الكريم[1] ينقل عنه حفيده محمود بن محمد العنابي في كتاباته وفتاويه، ويشير إليه بهذه العبارة:" قال مولانا الجد الأكبر حسين بن محمد – رحمه الله– في تفسيره "[2].

(3)– الشيخ محمد بن حسين بن محمد (ت 1203هـ/1788م):

هو ابن حسين بن محمد المترجم له قبله، وهو الجد الأدنى لابن العنابي المشهور. نشأ وتعلم بمدينة الجزائر[3] على علماءها، كما أخذ " على عمه ابن أم أبيه الشيخ مصطفى بن رمضان العنابي الحنفي..."، وساهم بدوره في نشر العلم بها، فأخذ عنه بعض أبناء أسرته، كابنه محمود الذي روى عنه صحيح البخاري، وكذلك حفيده محمد بن محمود، الذي أكد قراءته عليه في قوله:" وقد سمعت أنا عليه – رحمه الله– قطعة من أول كتاب فضائل القرآن[4]".

وُلي الشيخ محمد بن حسين قضاء الحنفية بمدينة الجزائر، وهو منصب بالغ الأهمية في عصره، وهذا المنصب كفيل من أن يجعل لصاحبه جاها كبيرا، كما يجعله في واجهة الأحداث والمجتمع[5]. رحل محمد بن حسين إلى المشرق فتوفي بمصر[6]. وقد أشار إليه حفيده محمد بن محمود، في أحد إجازاته بقوله:" محمد بن حسين قاضي الجزائر المتوفى سنة ثلاث ومائتين (1203ه) "[7].

(4)– الشيخ محمود بن محمد بن حسين بن محمد (ت 1236هـ/ 1820م):

هو والد ابن العنابي المفتي المشهور، ومما لاشك فيه أنه أخذ العلم بمدينة الجزائر على علماءها، وبالنسبة لنشاطه العلمي لا نعرف عنه إلا ما ذكره ابنه محمد من أنه قرأ عليه

---

[1]– نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 244.

[2] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 13، 14.

[3] – نويهض، المرجع السابق، ص: 244، 245.

[4] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 115.

[5] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 18.

[6] – نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 244، 245.

[7] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 115.

صحيح البخاري[1] بقوله :"وقعت لي رواية صحيح البخاري من طرق عديدة لكن طريق سماعي وقراءتي إنما على والدي المرحوم أبي الثناء محمود بن محمد " [2].

وبالنسبة للوظائف الدينية العليا كالقضاء والفتيا فيغلب على الظن أنه لم يعين في أي منها، فلم يذكر اسمه في وثائق المحاكم الشرعية المتوفرة، ولو عين في منصب رفيع كهذا لما تردد ابنه في الإشارة إلى ذلك، " توفي في منصرفه من الحج ببحر سويس سنة 1236ه"/1820م[3]، ودفن بساحله"[4].

(5)– محمد بن محمود نزيل الإسكندرية (ت1267ه/ 1850م):

أ– تعليمه: هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين بن محمد بن عيسى الأزميتلي[5]، الجزائري الحنفي الشهير بابن العنابي، ولد بمدينة الجزائر سنة 1189ه/1775م[6]، ونشأ ودرس وتثقف بها بثقافة عصره، وتتلمذ على علماءها ومنهم والده وجده[7]. قرأ على والده محمود بن محمد القرآن الكريم، ومختلف العلوم المتداولة في ذلك العصر، وأجازه في كثير من كتب الحديث[8]. وقد ذكر في ثبته سنده للإمام صحيح البخاري فقال:"... وقعت لي رواية صحيح البخاري بسماعه مرارا على والدي[9]، وهو كذلك على والده محمد بن حسين ح، وسمعت أنا قطعة من أول كتاب "فضائل القرآن" على جدي المذكور، ووقعت لي منه إجازة

---

[1] – الجامع الصحيح للمحدث أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن، المعروف البخاري (194 – 256 هـ). ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص– ص: 188– 190 .

[2] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 115.

[3] – أورد أبو القاسم سعد الله نص الإجازة التي أجاز بها ابن العنابي لبيرم التونسي، وفيها ذكر أن والده توفي سنة 1234ه، ولما نقل منها بعض الفقرات أورد فيها أنه توفي سنة 1236ه. ينظر: المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 19، ص: 115. وهذا يدل على أن هناك خطأ مطبعي.

[4]– عابد فكرات، الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر مخطوط "إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن" لابن العنابي الجزائري الحنفي نموذجا. ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 09، سنة 2012. ص: 28.

[5]– عابد فكرات، المرجع نفسه، ص: 28.

[6] – ذكر تاريخ مولده في إجازته لمحمد بيرم الرابع. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 118.

[7] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 115.

[8]– عابد فكرات، الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر مخطوط "إمعان البيان"، ص: 29.

[9] – يقول ابن العنابي في إحدى إجازاته :" وقعت لي رواية صحيح البخاري من طرق عديدة لكن طريق سماعي وقراءتي إنما على والدي المرحوم أبي الثناء محمود بن محمد". ينظر: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي ، ص: 115.

تامة، وهو –رحمه الله– تلقاه سماعا وإجازة من عمه أخ أبيه لأمه الشيخ مصطفى بن رمضان العنابي"[1].

وأشهر أساتذة ابن العنابي هو شيخه علي بن الأمين[2]، روى عنه صحيح البخاري بسند عال[3] إلى مؤلفه؛ وروى عنه أيضا " ثبت الجوهري"، وقد تأثر ابن العنابي بأستاذه حتى قلّـــــده في منح الإجازات[4] لكُلّ من أدرك حياته، فقد قال متحدثا عن شيخه في إحدى إجازاته :" وقد أجاز جميع من أدرك حياته، وقد اقتديت أنا به في ذلك، فأجزت بكل ما أجازني به مشايخي جميع من أدرك حياتي"[5]، فهذه « إجازة عامة للعموم » الهدف منها نشر السند، الذي هو من خصائص الأمة الإسلامية.

كان ابن العنابي من كبار العلماء في وقته، وإنجازاته الفكرية والسياسية في الجزائر والإسكندرية تتفق مع الأوصاف التي أطلقها عليه بعض معاصريه، ومنهم عبد الحميد بيك (ت1280هـ/ 1863م) الذي وصفه بأنه كان:" إماما فاضلا، عارفا بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها... وعالما في باقي المنقول والمعقول، والسياسات العمومية، والخصوصية الخارجية والداخلية "[6]. ورغم أن ابن العنابي من المجددين، إلا أنه لم ينسلخ

---

[1] – عابد فكرات، قراءة في مخطوطات " ثبت ابن العنابي الجزائري". ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 7، سنة 2010. ص: 158.

[2] – علي بن عبد القادر بن عبد الرحمن بن علي بن الأمين الجزائري (ت 1236هـ/ 1820م): درس على علماء الجزائر والمغرب ومصر التي أقام بها حوالي ثمانية عشر سنة. تولى الإفتاء المالكي ست مرات في الفترة الممتدة من سنة: 1206 إلى سنة 1235ه.من مؤلفاته: رسالة في " أما بعد ". وله ثبت ضمنه مروياته وشيوخه. ينظر: عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة. ص، ص: 150، 151؛ الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 785؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 24.
Devoulx ;" Les Edifices Religieux, in **R. A**, N° :10, Année : 1866, p, p: 376, 377.

[3] – **الإسناد العالي**: في الاصطلاح هو الحديث الذي قلَّ عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يرد به ذلك الحديث بعدد أكثر، فهو الذي علا بمعنى ارتفع للقرب منه عليه الصلاة والسلام. ينظر: السيوطي، ألفية السيوطي في علم الحديث، شرح: أحمد بن محمد شاكر. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. ص– ص: 191– 200.

[4] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص:116، 118.

[5] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 38.

[6] – عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، تقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2000. ص: 190.

في طريقة تفكيره عن روح عصره، إذ هو من العلماء المتمسكين بالطرق الصوفية، وهي سمة العصر، فهو شاذلي الطريقة[1].

ب- وظائفه الرسمية:

تمتع الشيخ محمد بن محمود العنابي بمكانة مرموقة لدى العامة والخاصة، وتولى مناصب رفيعة، إلى جانب تكليفه بمهام سياسية مختلفة. بالنسبة للوظائف الرسمية فقد افتتحها بالقضاء، بحيث تولى قضاء الحنفية في الجزائر سنة 1208ه/1793م، "وهو ابن ثمانية عشر سنة، فأقام فيه سنتين، وعزل نفسه منه لأمر مخالف للشرع، ألزمه بفعله والي الجزائر"[2]، والوالي في تلك الفترة هو الداي حسن باشا[3]، ثم ولي القضاء ثانية في سنة 1210ه/1795م فأقام به ثلاث سنين[4]، ثم ولي الإفتاء حسب عبد الحميد بيك.

إنّ ما ذهب عبد الحميد بيك من أن ابن العنابي تولى الإفتاء بمدينة الجزائر في سنة 1213ه/1798م، واستمر في هذه الوظيفة إلى سنة 1236ه/1820م[5]، يتعارض مع أخبار واردة في مصادر أخرى، بحيث نجده متوليا لوظيفة القضاء الحنفي في عهد الداي أحمد باشا[6]، ونص الذي أورده الزهار في مذكراته ينسب إليه مهمتين كبيرتين عندئذ، الأولى وظيفة القضاء والثانية الكتابة إلى باي تونس:" ثم إنّ الأمير أمر الفقيه محمد بن العنابي قاضي الحنفية أن يكتب كتابا إلى حمودة باشا، فكتب كتابا، وبعثوا به "[7]. وهذا يدل على المكانة التي تمتع بها ابن العنابي لدى رجال الدولة، وهذا الداي بالخصوص، إذ كلفه بهذه المهمة رغم وجود كتاب الرسميين، والمعروف أن مهمة الكتابة ليست من مهام القاضي.

---

[1] - إحدى إجازتيه لمحمد بيرم الرابع إجازة صوفية "مشافهة" بالأحزاب الشاذلية. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 38.

[2] - عبد الحميد بيك، المصدر السابق، ص: 187.

[3] - تولى حسين باشا بين سنتي 1205- 1212ه/ 1790- 1797م. ينظر: أحمد الزَّهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (1754- 1830م)، تح: أحمد توفيق المدني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط2)، 1980. ص- ص: 61- 71.

[4] - عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 187.

[5] - عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 187.

[6] - تولى أحمد باشا بين سنتي: 1220- 1223ه/ 1805- 1808م. ينظر: أحمد الزَّهار، المصدر السابق، ص:96.

[7] - أحمد الزَّهار، المصدر السابق، ص: 97.

وهذا وقد حضر ابن العنابي في مجلس علمي سنة 1226ه/1811م باعتباره مفتيا للحنفية[1]، وفي "دفتر التشريفات" و"مذكرات الزهار" خبر مفاده أنه :"في 24 جمادى 1232ه (1817م) ذهب سيدي محمد بن العنابي القاضي الحنفي في سفارة لدى السلطان "[2]، بحيث كلفه الداي عمر باشا[3] بهذه السفارة من أجل طلب المساعدة العسكرية لتجديد الجيش والأسطول البحري بعد القصف الإنجليزي لمدينة الجزائر، والذي أدى إلى تحطيم معظم الأسطول الجزائري في شهر أوت 1816م/ شوال1231ه، والمعروفة بحملة اللورد اكسماوث (Exmouth)، وهذا هو نص الزهار:" كتب الأمير للسلطان مولاي سليمان أيضا، وعين السيد الحاج محمد العنابي قاضي السادات الحنفية رسولا" [4]، وقد أحسن السلطان استقباله، وكانت هذه المهمة ناجحة، بحيث قدم السلطان المولى سليمان مساعدة للجزائر[5]، وهذا يدل على أنه كان عالما دبلوماسيا ناجحا.

ووجد اسمه هكذا " محمد بن محمود" في عهد الداي عمر باشا (1230- 1232ه/ 1814- 1816م) ضمن قائمة وزراء وأعيان الباشا المذكور، متقلدا " وظيفة نقيب أشراف مكة والمدينة" واضعا أمام ذلك ختمه الذي يحمل تاريخه[6].

ومما يؤكد أن ابن العنابي كان لا يزال متوليا لقضاء الحنفية بالجزائر في السنة 1232هـ/ 1817م، أن ختمه الذي ذيل به بعض الوثائق كان عبارة:« منتظر لطف الودود عبده محمد بن محمود سنة 1232هـ [7]» . تتحدث عنه الوثائق على أنه تحدث عنه

---

[1]- Devoulx Albert, Tachrifat, (Recueil de notes historiques sur L'administration de l'ancienne régence d'Alger). Alger : Imprimerie du gouvernement, 1852. p : 77.

[2]- Devoulx , Ibid. p : 78.

[3]- تولى الداي عمر باشا خلال الفترة الممتدة من 1230- 1232ه/ 1814- 1816م. ينظر: مذكرات الزهار، ص:117-130.

[4] - أحمد الزَّهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ص: 127.

[5] - " أعطاه مركبين من نوع كربيط، وبلاندرة وأعطاه أموالا وأمره بتسليمها للمجاهدين". ينظر: الزهار، المصدر نفسه، ص: 127.

[6] - أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 26.

[7] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 118.

قاضي للأحناف أيام الداي علي خوجة[1]، ومطلع عهد الداي حسين باشا[2]، الذي ولي سنة 1233ه/1818م، وعين قاضي جديد للحنفية سنة 1235ه/ 1820م[3].

وهذه الإشارات تدل على أمرين، إما أن ابن العنابي كان يجمع بين وظيفتي القضاء والإفتاء الحنفي في آن واحد، أو أنه كان يتناوب بينهما إلى أن انفرد بالإفتاء، بحيث عين مفتيا للحنفية خلال سنتي: 1817م- 1818م/ 1232- 1233ه، وظل في منصبه إلى سنة 1236ه/ 1820م، وذُكر محمد بن محمود في قائمة مفاتي الحنفية سنة 1234ه/1818م، ثم وجد مفتي حنفي جديد، ثم ورد اسم محمد بن محمود مرة أخرى في السنة نفسها[4]. مما يدل على أنه عزل أو اعتزل لفترة، ثم رجع لوظيفته كمفتي حنفي.

وقد اطلع دوفو على وثائق ورد اسم ابن العنابي كمفتي للحنفية، الإشارة الأولى في نهاية محرم 1234ه/1818م، والإشارة الثانية له جمادى الثانية 1235ه/1820م[5].وظل ابن العنابي في وظيفته كمفتي للحنفية في سنة 1236ه، وفي هذه السنة سافر لأداء فريضة الحج[6].

وإلى جانب الإفتاء الحنفي كان محمد بن العنابي يتولى الخطابة، بحيث جرت العادة أنه كل من يتولى خطة الفتوى يكون خطيبا بالجامع الجديد[7]، ولا شك في أنه انتصب للتدريس في الجزائر شأن كبار العلماء، سيما بالجامع الجديد الحنفي.

---

[1]- تولى الداي علي خوجة باشا خلال الفترة الممتدة من 1232- 1233ه/ 1817- 1818م. ينظر: مذكرات الزهار، ص- ص: 131- 139.

[2]- تولى الداي حسين باشا خلال الفترة الممتدة من: 1233- 1246ه/ 1817- 1830م. ينظر: الزهار، المصدر السابق، ص: 141 وما بعدها.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 28.

[4]- De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. p : 57.

[5] - Devoulx , "Les Edifices Religieux, in **R**. **A**, N° : 11, Année : 1867, p: 392.

[6] - عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 187، 188.

[7]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 88.

رحل ابن العنابي إلى المشرق حاجا سنة 1236ه، هو ووالده مع محمد أفندي أخي حسين باشا والي الجزائر. وفي الطريق حصل بين محمود والد محمد بن العنابي، وبين محمد أفندي مشاحنة مما اضطر ابن العنابي إلى البقاء بالإسكندرية رفقة والده، وخلال إقامته بمصر والتي امتدت إلى تسع سنين، تردد إلى الحرمين الشريفين فحج ثلاث مرات. وتصدر لتدريس الحديث والفقه في الأزهر، والتف حوله تلاميذ وعلماء، وكانت حلقة درسه موئل العلماء على اختلاف مستوياتهم، فكان يفيد ويستفيد. وفي سنة 1245ه/1829م أرسل إليه الداي حسين يطلبه إلى الجزائر، ولما قدم ابن العنابي إلى الجزائر عزل الداي حسين المفتي القائم وولاه مفتيا للحنفية، وبقي تلك السنة مفتيا، إلى أن وقعت الجزائر تحت الاحتلال 1246ه/1830م[1]. فكان له دور في مقاومة المحتل.

– وخلال الأشهر الأولى للاحتلال انتقل ابن العنابي إلى الإسكندرية[2]، فولاه محمد علي باشا إفتاء الحنفية، واشتهر مدة إقامته بمصر بالفتوى[3]. ووردت عليه الفتاوى من مصر ومن خارجها. واستمر في منصبه إلى سنة 1266ه/1849م، حيث عزله عباس باشا والي مصر، وهو حفيد محمد علي باشا. أما سبب عزله فيعود إلى كتابه " صيانة الرياسة في القضاء والسياسة"؛ الذي ألفه بطلب من محمد علي باشا، الذي أراد القضاء على الفوضى الناجمة عن اختلاف الفتاوى بين المذاهب، بحيث صار أصحاب الدعاوى يستفون المفتين، وإذا ظهر الحق بيد من تكون معه الفتوى يستفتي المدعى عليه بفتوى أخرى على اختلاف أقوال المذاهب، وتعاد رؤية الدعوى مرة أخرى، وكثر ارتشاء المفتين، فأراد محمد علي أن ينهي هذه الفوضى بكتاب يُجمع فيه ما رجح من أقوال المذاهب الأربعة، ويوفق مع الأقوال قوانين السياسة، وتصير كل الأحكام عليه، ويبطل الاستفتاء من بقية المذاهب[4].

---

[1] – عبد الحميد بيك، المصدر السابق، ص: 188؛ رسائل في التراث والثقافة، تح سعد الله. ص: 63.

[2] – تذهب بعض الروايات إلى أنه نفي إلى مصر، بينما يذهب معاصره عبد الحميد بيك، (أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 189) إلى أنه هو من اختار الذهاب إلى مصر.

[3] – أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 64.

[4] – عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 189.

ولما ولي عباس باشا 1265ه، سعى إليه المفتين والمشايخ في إبطال هذا الكتاب، وأقنعوه بعدم جواز هذا الفعل، ووصل بهم الأمر إلى وصف ابن العنابي بأنه " رجل خارجي زنديق"، أما السبب الحقيقي لهذه الهجمة على مترجمنا فهو انقطاع ما كانوا يسترزقون منه من تحرير الفتاوى على اختلاف المذاهب[1].

– أمَّا صلة ابن العنابي بتونس فهي قوية، تعززت من خلال نزوله بها أثناء تردده على المشرق، وتكشف الوثائق أنه كان بها في أواخر سنة 1244ه/1828م وظل بها فترة من الزمن، ثم غادرها عائدا إلى الجزائر سنة 1245هـ/ 1829م، وقد أقام بها معززا مكرما، محاطا علمائها، الذين أشادوا به واستجازوه، ونوهوا بعلمه ومدحوه بالنثر والشعر، ويبدو أن كان معروفا لديهم من قبل، كما أكرمه باي تونس عندئذ، وأحاطه بالتبجيل والتعظيم. وقد أضافت هذه الوثائق أنه كان جديرا بذلك الاعتبار والحظوة فقد جاء في وثيقة "فتلقاه أمير الوقت بمزيد من الإجلال، وهو بذلك حري، إذ مقامه في العلم كبير"[2].

ج– مؤلفاته: ترك ابن العنابي عددا من المؤلفات في فنون شتى، تدل على موسوعيته العلمية، ومن أهم وأشهر مؤلفاته كتابه " السعي المحمود في نظام الجنود"، وكتاب "شرح الدر المختار" في الفقه الحنفي، وصل فيه إلى ثلثيه ولم يتمه[3]، و" إمعان البيان في مسألة الإجارة على قراءة القرآن" [4]، وكتاب" العزيز في علم التجويد". ومن تآليفه شرح على فرائض المجمع، ومنها رسالة في أداء زكاة الفطر على المذاهب الأربعة[5]، والثبت المعروف ب" ثبت الجزائري"[6]، أو" ثبت العنابي" [7] وغيرها من المؤلفات.

---

[1] – عبد الحميد بيك، المصدر السابق، ص: 190.

[2] – اطلع أبو القاسم سعد الله على مخطوط تحت رقم: 529، بالمكتبة الوطنية بتونس، المفتي الجزائري، ص، ص:29، 30.

[3] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص، ص: 43، 126.

[4] – عابد فكرات، الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر مخطوط "إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن". ص: 38.

[5] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، ص: 40، 41.

[6] – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص: 245.

[7] – هناك ثلاثة مخطوطات لثبت العنابي، (ولا تقصد النسخ) تختلف كل واحدة عن الأخرى.

كان ابن العنابي مكثرا في الفتاوى، حتى اشتهر بذلك، و" الظاهرة العامة في تآليف ابن العنابي هي أنها تآليف صغيرة الحجم، وأنها تتناول مسائل دينية شائكة في شكل رأي معلل ومدعم بالشواهد والأمثال، أوفي شكل شرح لكتاب قائم من قبل"[1]. وتآليفه تعبر عن قوة عارضته في العلم، وتؤكد أنه من كبار العلماء الموسوعيين المحققين[2]. كما كان ابن العنابي ينظم الشعر[3]، فترك بعض الأراجيز، والأشعار التي أورد بعضها في تقاريظه.

د- مساهمته في التجديد:

ابن العنابي من أوائل المجددين، ودعاة الإصلاح الاجتماعي والسياسي في العالم الإسلامي[4]، ولم يبالغ أبو القاسم سعد الله حينما اعتبره رائد التجديد الإسلامي. عاصر أحداثا كانت فيها الدولة العثمانية تعاني من اضطرابات على المستوى الداخلي، وتواجه الخطر الخارجي من ناحية أخرى، فرأى أن الحل يكمن في تجديد هذه الدولة وعودتها إلى ما كانت عليه من القوة والرهبة، أو يكون مصيرها مصير الدول الأخرى التي انقرضت، فانتصر لتحديث الجند باعتباره أساس الدولة، ووقف إلى جان التيار التجديدي في مختلف الميادين، وليس الميدان العسكري وحده[5].

وقد تجسدت أفكاره التجديدية في أهم وأشهر مؤلفاته المعنون ب" السعي المحمود في نظام الجنود"، الذي ألفه أثناء لإقامته بالقاهرة في سنة 1242ه/1826م[6]. ألفه لحث المسلمين على ترتيب وتنظيم وتحديث الجيش المسلم، ومما جاء فيه:" إنَّ الأوربيين نظموا جنودهم ليضروا بالإسلام وأهله، وأمام هذا الخطر الداهم، أصبح من المحتم على المسلمين أن يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم". ويعقد مقارنة بين الأوربيين والمسلمين:" وإنهم

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص - ص:39-42.

[2]- عابد فكرات، المرجع السابق، ص: 33.

[3] - لا يستبعد أبو القاسم سعد الله أن يكون لابن العنابي ديوان شعر، على ما هي عليه عادة علماء وقته. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:41.

[4]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 245.

[5]- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 86.

[6] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 55، 56.

إذا أعدوا لنا صواعق البارود، فأعددنا لهم القسى والمنجنيق... أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات، أو شمروا لنا الثياب فأعددنا للقائهم الثياب المحررة والأكمام المطولة، والعمائم المكبرة...". وطريقته تقوم على طرح فكرة ثم يحشد لها من الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية ما تصير معه مقنعة في نظره للمتزمتين والمترددين من قضية التجديد وتقليد الأجانب والتعلم منهم[1].

ويبدو أنه كان يتمتع بجرأة كبيرة، وكتابه من أوائل الكتب التي طرحت مفهوم التجديد على مستوى الدولة الإسلامية، ونادى بعدم الانغلاق أمام الحضارات المعاصرة، ودعا إلى تحديث الجيش، واتباع العدل والشورى، وتوفير المال، والتمسك بالأخلاق الكريمة، باعتبار كل ذلك أساسا لقوة وكرامة الأمة الإسلامية[2].

– المبحث الثالث: بيت ابن علي الحنفي

يعتبر القرن الحادي عشر (17م) عصر ازدهار اقتصادي في الجزائر، ولذلك أطلق على عاصمتها مدينة الجزائر عندئذ "إسطنبول الصغرى "، فقصدها المسلمون مشرقا ومغربا طالبين الرزق والحظوة، كما قصدها غير المسلمين وحديثي العهد بالإسلام للغرض نفسه.

وبالنسبة لبيت ابن علي الذي نحن بصدد التعريف به، فأصله من الأعلاج أو المهتدين، ودليل ذلك ما أورده حسين بن رجب المعروف بابن المفتي في تقييداته، بحيث أورد اسم أحد علماء هذا البيت هكذا :" سيدي محمد بن علي بن سيدي المهدي بن سيدي رمضان بن يوسف العلج"[3]. فيوسف العلج إذن كان مسيحي ثم اعتنق الإسلام في القرن السادس عشر، واستقر بالجزائر، فكان لعقبه شأن كبير بها، وقد كان أبناء العلوج يعتبرون كراغلة مثل أبناء الأتراك[4].

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص- ص: 64- 66.

[2] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 89.

[3] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 92.

[4] – المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة، الأسعار والمداخيل). الجزائر: دار القصبة للنشر. 2009. ج1، ص: 285.

كان ابن المفتي يطلق كلمة «سيدي» على كبار علماء زمانه، فكان ابن يوسف العلج (رمضان) وحفيده (المهدي) من العلماء الذين وصفهم ابن المفتي بسيدي، والمعلوم أنّ كثير من الأعلاج حملوا من الخصال الشخصية والكفاءة ما مكنهم من الوصول إلى أعلى مناصب الدولة، وكان ذلك من الأمور العادية الشائعة كثيرا في تلك الفترة، لكن الوصول بعد جيل واحد أو جيلين إلى أعلى درجات التبحر في العلوم الدينية واكتساب منصب " مفتي الإسلام " بفضلها، فهذه مأثرة جديرة بالاعتبار كمظهر من مظاهر الاندماج التام في المجتمع الإسلامي لذلك العهد"[1].

حظيت هذه الأسرة في الجزائر بمكانة علمية واجتماعية مهمة، واندمجت في المجتمع الجزائري حتى أصبحت من أكثر الأسر دفاعا عن القيم العربية، ويظهر ذلك في مدح جد (أو والد) ابن علي للسادة العلوية، وفي تفوق ابن علي في البيان العربي، والاعتزاز به، والدفاع عنه ضد المتطفلين عليه، وهو الذي نقل شعرا للقوجيلي في غير الفصحاء من المثقفين[2].

كما أن ابن علي الحفيد هو الذي أمر باعتباره مفتيا بترجمة كتاب "غزوات عروج وخير الدين" إلى اللغة العربية من أصلها التركي، فقد ورد في ختام هذا المخطوط ما يلي: " هذه الغزوات أصلها مكتوبة على اللسان التركي فعبرها (ترجمها) بعض خوجات الترك لمفتي الحنفية بالجزائر بلسان العرب، لأن المفتي المذكور لا يحسن القراءات، الشاعر المفلق الشيخ سيدي محمد بن علي القلقلي الجزائري "[3].

أسرة ابن علي أسرة علمية عريقة في الجزائر العثمانية، تمكننا من رصد أربعة من علماءها وهم: الجد الأعلى "سيدي رمضان"، الجد الأدنى محمد المهدي، ومحمد بن علي الأب، والابن

---

[1]- المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص: 285؛ أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية لأحمد بن عمَّار. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988. ص: 21.

[2] – أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 19.

[3]- مؤلف مجهول، « الخبر عن قدوم عروج رائس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين بعده وأخبارهما وغزوهما البحرية ». مخطوط تحت رقم:1622، المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر ورقة: 58و، (وهي آخر ورقة في المخطوط).

الشاعر محمد بن محمد بن علي. تولى بعض هؤلاء وظائف دينية رفيعة سيما الفتوى والقضاء على المذهب الحنفي.

(1)- رمضان بن يوسف العلج:

ليس لدينا ترجمة لسيدي رمضان إلا ما ذكره عنه حفيده ابن علي في ديوانه من أنه كان يقرض الشعر. وهو من العلماء لأن ابن المفتي يشير إليه « بسيدي رمضان». ويبدو أنه زاهدا في المناصب رافضا لها، بحيث لا نعرف أنه تول أيا من المناصب، كما أنه تعرض لابنه محمد المهدي وهجره لأجل توليه خطة الفتوى، فبــرّ بوالده به ابنه، وخلع نفسه[1].

تحدث ابن علي في ديوانه عن جده الأعلى رمضان، وجده الأدنى محمد المهدي، وعن والده ونسب إلى جميعهم قول الشعر، وجاء بنصوص منه في ديوانه[2]، فهذه إذن أسرة شاعرة الجد والابن والحفيد[3]. ويذهب أبو القاسم سعد الله إلى أنَّ شعر جد ووالد ابن علي مقبول.

(2)- الشيخ محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلج (ت 1072هـ/1661م)[4].

هو الجّد الأدنى لابن علي الشاعر المشهور، أشار إليه الجامعي في صدد الحديث عن حفيده المذكور، ووصفه ب:" علامة أوانه، وشيخ الإسلام في زمانه أبي عبد الله سيدي محمد المهدي الجزائري "[5].كان مفتيا للحنفية بمدينة الجزائر سنة 1045هـ/1635م[6]، ويظهر أنَّه ظل بها إلى سنة 1069هـ/1658م[7].كان محمد بن رمضان يتداول هذه

---

[1] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي. ص، ص: 86، 87.

[2] – صحح ابن عمار فيما نسبه ابن علي إلى جده الأعلى من الشعر، ولكنه ترك ما نسبه إلى جده الأدنى وأبيه بدون تعليق. ينظر: أبو القاسم سعد الله، في دراسته لأشعار جزائرية، ص: 21، 22.

[3] – أبو القاسم سعد، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 301.

[4] -De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. p : 13.

[5] – عبد الرحمن الجامعي، فتح مدينة وهران، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوطين، لحساني مختار. جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003. ص، ص: 132، 133.

[6] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج2، ص: 300.

[7] – ابن عمار، أشعار جزائرية، ص: 22؛ أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تح: خير الدين شترة. بوسعادة: دار كردادة للنشر والتوزيع، (ط1)، 2012. ج2، ص: 406؛ المهدي البوعبدلي وسعيدوني ناصر الدين، الجزائر في التاريخ. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984. ج4، ص: 219.

الوظيفة مع الشيخ محمود بن قرمان (ت 1066هـ/1655م)، تارة هذا وتارة هذا، ثم اعتزل محمد المهدي بن رمضان وتركها لأبناء قرمان، وعاش منفصلا عن الفتوى أعوام بعد وفاة ابن قرمان. أما سبب تخلي محمد المهدي عن الفتوى فيشير إليه ابن المفتي بقوله :" لأنه تعرض له أبوه وهجره لأجل الولاية، فبـــرّ بوالده، وخلع نفسه وسلمها لابن قرمان قبل موته"[1].

وفي ديوان ابن علي مختارات من شعر محمد المهدي، نظمها في مناسبات عدة، من ذلك أنَّه بعث إلى علماء القسطنطينية يشكو لهم من أمر ألَّم به[2]، وله قصيدة يمدح فيها السادة العلوية، وقصيدة أخرى يمدح بها شيخه علي بن عبد الواحد الأنصاري (ت1057ه/ 1647م)[3]. وأما مستوى هذه القصائد فهو جيد، وذلك ما عبر عنه أبو القاسم سعد الله في قوله:" وتدل القصائد التي اطلعنا عليها لمحمد المهدي جد ابن علي أنّض له باعا قويا في الشعر "[4].

وقد أخذ الشيخ محمد المهدي عن علماء مدينة الجزائر في عصره، وفي مقدمتهم الشيخ علي الأنصاري، الذي مدحه بعدة قصائد. ورغم أنَّ القصيدة التي سنورد بعض أبياتها غير تامة في ديوان " أشعار جزائرية"، فإنَّه يبدو أن ناظمها يستجيز بها الأنصاري، ومع ذلك يغلب عليها الطابع الغزلي، بحيث تأثر معظم الشعراء الجزائريين في تلك الفترة بالشعر الأندلسي، فكانوا لا يدخلون إلى الأغراض الشعرية المختلفة إلا من خلال الغزل. وهذه بعض أبياتها [5]:

فيا رّبة الحُسْن الذي ملك النُهى عسى عطفةَ يحيا بها المُتنـــشـــــــق

---

[1]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي. ص، ص: 86، 87.

[2] – يبدو أنَّه انتقل إلى أزمير من خلال رسالة بعث له بها محمد بن راس العين؛ وهو من علماء مدينة الجزائر. ينظر: ابن عمار، أشعار جزائرية ، ص، ص: 22.

[3] – ينظر هذه القصائد في ديوان أشعار جزائرية لابن عمار، مواضع متفرقة.

[4] – تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 301.

[5] – أشعار جزائرية، ص: 113.

عِديني بوصلٍ وامْطلي بنجَازه فوعدٌ جميل منك لا شك يصْدُق
وإن لم أكن أهلاً لِما أنا آملُ فحُبي شفيع بالوسائل أسْبقُ
فيا قلبي المُضّنى رُويدك فاتئِد فمَلبُوسُ ذاك الشوق لا يتخُرق
أأخشى اندراسا للعُلى وزعيمها علي بن عبد الواحد المتصّدق

(3)– محمد بن محمد المهدي[1]:

هو والد ابن علي الشاعر المعروف، نشأ بمدينة الجزائر وتعلم بها، وقد كان شاعرا، ولكننا لا نعرف الوظائف التي تولاها، ولا تاريخ حياته بالضبط. وفي " أشعار جزائرية" قصيدة يمدحه بها محمد السعيد الشباح، ويُشير في مدحه إلى أنه كان عالما قطبا، ولكنه لا يشير إلى أنه قاضيا أو مفتيا[2]. ووصفه قونزاليز (De Gonzalez) اعتمادا على نص عربي، ب:" الولي الصالح، العلامة النحوي، العروضي..." ثم أضاف قائلا:" كان ممن جمع بين العلم والصلاح، له رحلة إلى المشرق وأجازه أكابر علمائها"[3].

من مؤلفاته: "مجمع الأنهر" في فروع الفقه الحنفي[4]. أمَّا تاريخ وفاته فهو غير معروف على وجه الدقة، فهذا قونزاليز[5] يذكره بأنَّه توفي حوالي سنة 1093ه/1682م، في حين يذكر صاحب " معجم أعلام الجزائر" أنه توفي سنة 1128ه/ 1716م[6].

(4)– أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد المهدي (ت 1169هـ/1755م):

أ– اسمه وتعلمه:

يعد الشيخ ابن علي من أشهر العلماء بمدينة الجزائر في وقته، ورغم ذلك فإنَّ نواجه التباسا كبيرا في اسمه، بحيث يشير إليه معاصره ابن المفتي ب:" سيدي محمد بن علي بن سيدي

---

[1] – ذكر عادل نويهض، باسم " محمد بن علي بن محمد المهدي القلغلي". ينظر: معجم أعلام الجزائر، ص: 241.

[2] – أشعار جزائرية، ص: 115.

[3] – De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. p : 17.

[4] – شرح فيه كتاب "ملتقى الأبحر" لإبراهيم بن محمد الحلبي (ت956ه/1536م).ينظر: نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 241.

[5] –De Gonzalez, Op.cit. p : 17.

[6] – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 241.

محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلج[1]، في حين يشير إليه صديقه ابن عمار ب:" شيخنا الأديب البارع...أبا عبد الله محمد بن محمد الشهير بابن علي..." [2]، وهو نفس الاسم الذي يذكره به الأديب عبد الرحمن الجامعي الفاسي[3] في هذا النص:" أبو عبد الله سيدي محمد ابن العالم الناسك ابن عبد الله سيدي عبد الله محمد المعروف بابن علي ابن ذي المقام العلي... أبي عبد الله سيدي محمد المهدي الجزائري "[4].

فمن الطبيعي إذن أن تختلف الدراسات الحديثة في اسمه، فيذكره عادل نويهض ب:" محمد بن محمد بن علي بن محمد المهدي القلغلي"[5]، أما أبو القاسم سعد الله فيذكره ب:" محمد بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلج[6]. وما يزيد في الالتباس، تأكيد أبو القاسم سعد الله في الصفحة نفسها أن جده هو محمد المهدي المعاصر لسعيد قدورة.

ولد ابن علي بمدينة الجزائر في حوالي سنة 1090هـ/1679م، ونشأ وتعلم بها على والده وأسرته، كما تتلمذ في مدارس ومساجد الجزائر[7]. وقد كان من كبار العلماء الفضلاء في وقته، وذلك بشهادة ابن المفتي في قوله:" يعقد على فضله الإجماع..."[8].

ب- وظائفه:

تولى ابن علي الفتوى الحنفية سنة 1150ه/1737م[9]، ولا شك أنه قد تولى عدة وظائف قبل هذا التاريخ[1]، وفي تقييدات ابن المفتي النص الموالي:" تولى سيدي محمد بن علي

---

[1] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 92.

[2] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. الجزائر: مطبعة فونتانا، 1902. ص: 40؛ الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج: 2، ص: 406.

[3] – ذكره الجامعي مرة بنفس الاسم الذي ذكره به ابن عمار، مؤكدا أن شهرته ابن علي. ينظر: ابن عمار، نحلة اللبيب، ص: 82.

[4] – الجامعي، فتح مدينة وهران، ضمن كتاب:" تاريخ تحرير مدينة وهران " لحساني مختار. ص، ص: 132، 133.

[5] – نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص: 241.

[6] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج2، ص: 300.

[7] – أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 22.

[8] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 92.

[9]–De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. p :55.

بن سيدي المهدي بن سيدي رمضان بن يوسف العلج... مكان المرحوم (حسين العنابي) في وظائفه مفتيا، وخطيبا، ومدرسا بالجامع الجديد – أطال الله بقاءه ونفع به المسلمين– وهذه مدة ستة ستين ونيف"[2]. يفهم من العبارة الأخيرة أنَّ ابن علي كان لا يزال في وظائفه السالفة الذكر عندما انتهى ابن المفتي من التقييدات سنة 1166ه/1753م[3]. كما وصفه ابن عمار في عام 1166هـ ب:" أستاذنا شيخ الإسلام أبو عبد الله بن علي..." [4]، وشيخ الإسلام هو اللقب الذي يطلق على المفتي الحنفي في الجزائر كما كان في إسطنبول عندئذ.

ويبدو أنه استمر في هذا المنصب إلى سنة 1169ه/1755م، إذ نجد اسما لمفتي جديد في السنة المذكورة ضمن قائمة المفتين الأحناف، دون وجود من توسط بينه وبين ابن علي[5]، الذي هو تاريخ وفاته على ما يظهر. وقد طال عهده في الفتوى وهي ظاهرة قليلا ما تتكرر في العهد العثماني، للتقلبات التي حدثت فيه[6].

كان المفتي الحنفي يحمل لقب شيخ الإسلام، وكان يتمتع بمكانة هامة في الدولة، فالمنصب لم يكن وظيفة دينية بل كان أيضا وظيفة سياسية كبيرة، ولهذا كان المفتي الحنفي يتردد على الباشا في قصره، ويحضر جلسات الديوان، وله الكلمة العليا في المجلس الشرعي الأعلى، المعروف بالمجلس العلمي، كما كان المفتي الحنفي يقوم بمهمة التدريس بالجامع الجديد الحنفي، بل هو أكبر مُدرسيه، إلى جانب وظيفة الإفتاء والخطابة[7].

وقد تحدث ابن عمار عن شيخه وصديقه ابن علي في كتابه " نحلة اللبيب"، ورغم ما تضمنه حديثه عنه من عبارات الولاء والمدح فإنه يعطينا صورة عامة عن شخص ابن علي فهو

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 23.

[2] – ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 92.

[3] – ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 113.

[4] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ص: 231.

[5] -De Gonzalez, Essai chronologique. p : 55.

[6] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 301.

[7] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج2، ص، ص: 272، 273، 303.

موصوف بالحفظ الغزير، ورواية الحديث النبوي، والمهارة في التفسير، وتأويل الآيات، بالإضافة إلى اشتهاره بجودة الشعر والنثر، والفصاحة في الخطابة[1].

ج- ابن علي ونظم الشعر:

ابن علي من الشعراء المرموقين، وقد استمد ملكة نظم الشعر من أسرته. ويتفق معاصروه على مقدرته العالية على النظم، إذ يصف ابن المفتي شعره بقوله:" وله نظم يروق على الأسماع"[2]. ويصفه صديقه ابن عمار بقوله:" هذا الإمام هو خاتمة الشعراء العظام لهذا الصقع، ليس لغليل الأدب بعده نقع... وشعره كثير، وهو على كثرته يفوق الدر النظيم، والزهر النثير، ونثره على جودته قليل..." [3].

وكان ابن علي بحكم شاعريته يجتمع بالأدباء ويرتاح إليهم[4]، وارتبط بصلات قوية بعلماء المغرب الذين زاروا الجزائر في عهده كالشيخ الأديب عبد الرحمن الجامعي الفاسي، والشيخ أحمد الورززي[5]، وله شعرا في كليهما[6]. فأما الجامعي فقد ورد إلى الجزائر بعد الفتح الأول لوهران سنة 1119ه[7]، اجتمع بابن علي وأعجب به[8]، وذكره في رحلته وسمَّاه:" الأديب الماهر... أديب العلماء، وعالم الأدباء...الإمام الخطيب بن الإمام الخطيب بن الإمام الخطيب ذي القدر العلي، أبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن علي"[9]. وأما

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج2، 304.

[2] – ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 92.

[3] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب، ص: 40.

[4] – كان يزور بيت ابن ميمون وهو أديب وشاعر مثله، كما كانت له مجالس أنس وعلم ومطارحات مع ابن عمار. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 304.

[5] – أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الورززي الدرعي التطواني (ت 1179هـ/ 1765م): ينحدر من بيت علمي. درس بالمغرب والمشرق، وله فهرس جمع فيه مروياته. ينظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، نشر باعتناء: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط2)، 1982. ج2، ص، ص: 1110- 1112.

[6] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص، ص: 272، 273.

[7] – قدم الجامعي إلى الجزائر بعد الفتح الأول لوهران بل بعد سنة 1119هـ، ومكث بها مدة زار أثناءها عدد من مدنها، واجتمع بأعلامها آنذاك، وشارك الجزائريين فرحتهم بهذا الفتح بشرحه أرجوزة المفتي محمد الحلفاوي التي تسجل أحداث الفتح، ونال الجامعي حظوة لدى محمد بكداش باشا. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 443.

[8] – نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص، ص: 197، 198.

[9] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب، ص: 82.

الورززي فقد اجتمع به أثناء زيارته لمدينة الجزائر في منتصف القرن الثاني عشر (ق18م) [1]، وقال فيه قصيدة بارعة طالبا منه الإجازة[2].

لقد أجاد ابن علي اللغة العربية شعرا ونثرا، وقد شكا من كون البعض لا يعرف مكانتها، ولا مكانة الشعر فيها على الخصوص. وقد نظم كثيرا من الشعر في أغراض مختلفة[3]، وقد قال ابن عمار عنه أن:" أيدي الناس ممتلئة من شعره"[4].

إنَّ ثقافة ابن علي وابن عمار تثير الدهشة – على حد تعبير أبو القاسم سعد الله– لأنهما عاشا في وقت كان فيه الأدب والشعر بضاعة غير رائجة[5]، ولا شك في أن ما كان يدفع الأدباء في ذلك العهد على الإبداع تلك المجالس التي كانوا يعقدونها فيما بينهم بعيدا عن بلاطات الحكم، التي لا يتذوق أصحابها الأدب، لأنهم ببساطة لا يعرفون من اللغة العربية ما يمكنهم من ذلك.

وبالنسبة لمترجمنا فقد كانت بينه وبين بعض أدباء عصره مجالس أدبية، ومن هؤلاء الشيخ الأديب أحمد بن عمار الذي جمعته به صداقة متينة أفصح عنها هذا الأخير في رحلته "نحلة اللبيب" بقوله:" وكثيرا ما كنت ارتاح إليه – رحمه الله تعالى– كما يرتاح لي، ويا طال ما كان يفرغ من سجال آدابه عليَّ، ومضت لي معه مجالس كقطع الرياض..." [6]. وقد أكثر ابن عمار من مدح شيخه وصديقه، من الأبيات التي مدحه بها مبينا شأوه في العلم[7]:

العـــالم العلم الذي أحـــيا لـــنا ما قد أمات الدهـــر من نعمانه

.. راوي حديث المصطفى ابن علي ال معدود في ذا العصـــر من أعيانه

---

[1] – ورد الشيخ الورززي مرتين إلى مدينة الجزائر، الأولى في سنة 1159هـ /1746م، والثانية في سنة 1162هـ/ 1748م، نزل في رحلته الأولى بمدرسة الجامع الكبير، وألقى بعض الدروس في الجامع المذكور. ينظر: ابن حمادوش، الرحلة. ص: 258.

[2] – مطلع هذه القصيدة:« خَلِيْلِي عَـــادَ الأُنْسُ وَالعَـــوْدُ أَحْمَـــد * فَقَدْ زَارَنَا شَيْخُ المَشَـــايِخِ أَحْـــمَد». ينظر: ابن عمار، أشعار جزائرية، ص: 84.

[3] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص، ص: 304، 305.

[4] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب، ص: 60.

[5] – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 303.

[6] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب، ص: 40.

[7] – ابن عمار، أشعار جزائرية، ص: 43.؛ أحمد بن عمار، نحلة اللبيب، ص: 47.

ومفسر الذكر الحكيم ومظهر الت أويل والممنوح فهم بيانه

وقال فيه أيضا[1]:

فالعلم أنت اليوم خائض بحره والشعر أنت اليوم رب عنانه

فاهنأ بما خولته من عزة ودع الغبي مكابدا لهوانه

وقال ابن عمار فيه أيضا[2]:

قد كان باب النظم قبلك مغلقا ففتحته يا فاتح الأبواب

ونشرته من بعد طي بساطه ورددته من بعد طول ذهاب

ولابن علي قصائد في أغراض مختلفة الغزل، المدح، الوصف...إلخ، و" له ديوان أشعار"[3]، يشتمل على قصائد بليغة في المدائح النبوية[4]. وإذا عرفنا أنّ ثقافة العصر الذي ندرسه دينية محضة، أمكننا التساؤل عن كيفية تعامل شاعرنا مع الغزل الذي كان للفقهاء وهو واحد منهم رأي فيه.

ومن خلال قصائده الواردة في ديوان " أشعار جزائرية" نلمح التمزق الذي كان يعانيه ابن علي في شعره بين مكانة عائلته الاجتماعية والدينية، ووظيفته هو كمفتي، وخطيب ومدرس، بل وناسك ورع وبين طموحاته الشعرية[5]، عبر هو بنفسه عن ذلك أحسن تعبير حين قال [6]:

لولا وحقك خطة قلدتها زهرت بها في الخافقين شموعي

ومنابر فيها رقيت إلى العلى وقد استدار بها كثيف جموع

لنحوت منحى العامري صبابة ولكان من حرق الجوى مشفوعي

---

[1] – بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 45.

[2] – ا بن عمار، المصدر نفسه، ص: 47.

[3] – أحمد بن عمار، نحلة اللبيب، ص: 40.

[4] – ابن عمار، أشعار جزائرية، ص: 197؛ البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص: 328؛ نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 194.

[5] – أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 20.

[6] – ابن عمار، نحلة اللبيب، ص: 77؛ أشعار جزائرية، ص: 91، 92.

لقد أطلق ابن علي العنان لقلمه لينظم الكثير من القصائد الغزلية رغم مكانته الدينية، إلا أنه كان يدرك جيدا أن ثقافة العصر الدينية، تحد من طموحه في هذا المجال، وأن بيت ابن علي يستمد مكانته من هذا المعنى، أي لخدمته للدين بالدرجة الأولى. كما كان ابن علي يدرك أن سمعته هو قائمة على الفتوى والمنبر، حيث يقف كل جمعة خطيبا، وهو يعظ ويرشد أو حلقة الدرس حيث يلتف حوله الطلبة والعلماء. ولولا هذه القيود الثلاثة -حسب أبو القاسم سعد الله- لغدا في الشعر والحب كمجنون ليلى (العامري)، ولكن ابن علي يعرف أيضا أنَّ شموعه قد توقدت، وسمعته قد ارتفعت بسبب هذه الوظائف، وليس بنظمه الشعر[1].

إنَّ معظم شعر ابن علي في الغزل قاله قبل توليه الفتوى، أما أغلب شعره المتأخر فهو في الوصف والتذكر، وتباريح قديمة، وبعضه في المنشآت والرثاء والمساجلة والمدح[2]. وتشهد بعض أشعاره أنه تاب عن نظمه الغزل في السنوات الأخيرة من حياته، كما تاب معظم الشعراء، ودعا الله أن يغفر له هذا الانجراف نحو اللذات، منها[3]:

إلهي أطعت النفس والغيَّ والصبا وقد حجبتني عن رضاك ذنوب

فإن كان ذنبي أزعج القلب خوفه فحسن رجائي فيك كيف يخيب

وينسب إليه الجامعي شعرا في شرحه على منظومة الحلفاوي التلمساني في الفتح الأول لوهران الذي وقع سنة 1119هـ، والتي أشاد فيها بالداي القائم عندئذ وهو محمد بكداش باشا. وهي القصيدة التي يصفها أبو القاسم سعد الله « بالعصماء »، والجامعي نفسه عبر عن إعجابه بهذه القصيدة بقوله:" قصيدة فريدة حسناء... نظمها أديب مصره، وفريد عصره، الأديب النابغ... أبو عبد الله سيدي محمد ابن العالم الناسك ابن عبد الله سيدي عبد الله محمد المعروف بابن علي... أجاد فيها في مدح سيدنا وأبدع ... وضمن ختامها صريح عذره

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 303.

[2] – أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 24.

[3] –ابن عمار، نحلة الحبيب، ص: 130؛ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 308.

الموجب بتأخره مع تقدم غيره "[1]. ويقول في هذه القصيدة معتذرا عن تأخره في التهنئة بالفتح بينما الشعراء الآخرون عجلوا بها[2]:

إنـــي وإن أحـــجمت أول مرة على خوض هذا البحر والغير عائم
فمـــا هي إلا هيـــبة الملك قلما على مثلـــها في الناس يقدم قادم
وعهدي بحور الشعر عني أذودها زمانا وفكري موجـــــه متلاطم

يبدو أن مترجمنا قد نبغ مبكرا في الشعر، إذ كان في العقد الثالث من عمره عند نظمه لهذه

القصيدة، التي فاقت في جودتها كل القصائد الأخرى التي قيلت في الفتح، هذا من حيث مستوى القصيدة. أمَّا من حيث المضمون فقد عبَّر ابن علي من خلالها القصيدة عن رأيه بوضح في حكام الجزائر السابقين، فاتهمهم بالتهاون في الجهاد، وبالفساد السياسي وأخذ الرشوة، وحب المال، والانقياد إلى اللذائذ والكسل. ولا يصدع بهذا الموقف السياسي الصريح إلا صاحب شجاعة فائقة ومكانة مرموقة، وهذه بعض أبياتها – وهو يشير بالضمير إلى مدينة وهران–[3]:

كل رئيـــس يُـــرتجـــى لخـــطوبهـــــا تشاغل في لـــذاتـــــه وهـــو نائـــم
ورُبَّ أميـــر أزمـــع السير نحوهـــــــا فيرجـــــع لما كاثرته الـــدراهـــــم

رضوا بالرشى في الدين حين تخلفوا وقد رسخت في الأرض تلك الأراقم

كما لجأ ابن علي للشعر للدفاع عن نفسه، بحيث كثر ناقدوه الذين طعنوا في فضله ودعوه ب"سفيه الرأي"، فرد عليهم مؤكدا بأنَّه كالنجم لن ينالوه بسوء، وبأنهم أجلاف لا يفقهون[4]:

---

[1] – الجامعي، فتح مدينة وهران، ضمن كتاب:" تاريخ تحرير مدينة وهران " لحساني مختار. ص، ص: 132، 133.

[2] – أشعار جزائرية، ص: 90.

[3] – أشعار جزائرية، ص: 22، 23.

[4] – ابن عمار، نحلة اللبيب، ص: 43.

وإذا نسوا فضلي فكم من فاضل قبلي سقوه السم في كيسانه

نصبوا حبائل مكرهم وتعرضوا بسهامهم للنجم في كيوانه

...أجلاف هذا العصر حقا لو رأوا حسان ما جنحوا إلى إحسانه

إن أنكروا فضلي لخبث طباعهم فالدُّرُ ليس يعز في أوطانه

أما وفاته فليس هناك تاريخ معروف لها، ولعله توفي سنة 1169هـ/1755م، وهي السنة التي وُجد فيها مفتي جديد[1]. وضريحه يُعرف بسيدي بن علي[2].

– المبحث الرابع: بيت أبهلول المجاجي بالقرب من تنس:

(أولا)– نسبه ومكانته: بيت أبهلول من البيوتات العلمية الشهيرة بالجزائر خلال العصر الحديث[3]، يعرف أبناء هذا البيت بالبهاليل، ويطلق على الواحد منهم: فلان أبهلول أو آبهلول، وفي أحيان قليلة: فلان البهلولي أو البهلول. وقد ضبط محمد الأعرج الغريسي، اسم هذا البيت نقلا عن صاحب الفتح، كما يلي:" أَبُهْلول بفتح الهمزة، وضم الباء، وسكون الهاء" [4]. كما أضيفت لهم نسبة المجاجي لاستقرارهم بمجاجة القريبة من تنس، وبفضل نشاط هذا البيت استحقت مجاجة لأن توصف ب:" مجاجة دار علم وعمل"[5] .

ويعد الشيخ محمد بن علي أبهلول المؤسس الحقيقي لهذا البيت، وصانع مجده العلمي، وإن سبقه بعض أسلافه في هذا المجال، ولهذا قال المشرفي بشأنهم:" وهذا الولي الصالح جدد شرف أصوله بالعلم والعمل، والتقوى والسخاء" إلى أن قال:" وكانت أسلافه... تُقْري

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، 302.

[2]– نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 164.

[3]– لذلك قال محمد مخلوف متحدثا عن محمد بن علي أبهلول:" وبيته معروف بالنباهة". ينظر: شجرة النور الزكية. ص: 294.

[4]– محمد الأعرج الغريسي السليماني، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب للعلامة سيدي عيسى بن موسى التيجيني الغريسي، ضمن كتاب مجموع النسب للهاشمي بن بكار. تلمسان: المطبعة الخلدونية، (ط1)، 1961م. ص: 391.

[5]– أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة »، مخ، ص: 35.

الضيوف، وفي الجهاد تعمل بالسيوف، وتشبع الجائع، وتحفظ الودائع، وتفرج عن المكروب..."[1].

هذا ما تيسر لنا جمعه من معلومات حول أسلافه، فالمصادر بشأنهم ضنينة إلا إشارات قليلة عن والده السيد علي، ويستمر إجحاف المادة التاريخية مع عقبه على الرغم من شهرة هذا البيت، ولا يُستثنى من ذلك حتى مؤسسه وأبرز أبناءه الشيخ محمد بن علي الذي لا نعرف عنه إلا معلومات قليلة جُلها مُستقاة من كتاب "ياقوتة النسب" للمشرفي الذي ردد ما ورد فيه جل، بل كل من تطرق لهذا البيت أو لبعض أبناءه.

إنَّ تصفح كتاب «ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة » يؤكد أن معلومات مؤلفه عن محمد بن علي قليلة جدا لا تكف لإعطاء صورة متكاملة عن هذه الشخصية، فالكتاب مقسم إلى أربعة أقسام أحدها مخصص ل:« التعريف بالقطب الواضح ... سيدي محمد بن علي المجاجي»[2]، يقع هذا القسم في أقل من ثمان صفحات[3]، تتضمن « الحكايات الدالة على تعظيم أهل البيت والأحاديث المؤلفة في حبهم»، كما أطال المشرفي في الحديث في هذا القسم عن الشرف والحسب والنسب ومكارم الأخلاق، وهذا ما يدل على أن معلوماته عن هذا الولي قليلة. وفي كل الأحوال فإنّ إدراج اسم محمد المجاجي في عنوان الكتاب يدل على تلك المكانة التي تمتع بها هو وأسرته على امتداد قرون عدة.

لقد توفرت في بيت أبهلول كل الشروط التي تجعله يظفر بالجاه والرياسة، فالشرف، والعلم، والزهد، ثم خدمة زاويتهم للعلم والتصوف والجهاد، كل هذه العوامل ما اجتمعت

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، مخ. ص: 30.

[2]- فوزية لزغم، قراءة في مخطوط " ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة " لأبي حامد محمد العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 7، سنة 2010. ص، ص: 202، 203.

[3]- المشرفي، المصدر السابق، مخ. ص – ص: 28 - 35.

في بيت إلا رفعته ومكنته من تبوأ مكانة مرموقة لدى الخاصة والعامة، فأما مكانة بيت أبهلول لدى السلطة الحاكمة فيؤكدها المشرفي بقوله:" ولهم حرمة وتعظيم عند ملوك الأتراك "[1].

وأما مكانتهم لدى أهل منطقة مجاجة خصوصا، والجزائريين عموما، فنلمسها في عدد من المصنفات نذكر منها "ياقوتة النسب" المشار إليها سابقا، و"رحلة المجاجي"، ومن خلال الإمعان في هذه الرحلة تبرز مكانة أبناء بيت أبهلول في ركب الحج، ومن خلالها يتجلى ذلك التقدير الذي يكنه ناظمها–وهو أحد أبناء مجاجة– لبيت أبهلول، وقد صرح بحبه لهم في قوله[2]:

ولا يلذ لقلمي غير حديثهم ويكثر نظـــمي فيهـــــــما بسهولة

وربي عليم بالمحـــبة فيهم إلى أن ينقضي العمر مني بسرعة

وقد احتفظ بيت أبهلول بالوجاهة لقرون عدة، وخلال القرن الثالث عشر الهجري (ق19م) أكدها المشرفي في النص الموالي:" لا زالت الوجاهة في عقبهم والجاه، تخضع لهم الرؤوس، وتعنوا لهم الحياة، إذ بيت العلم والشرف تأوي إليه الثروة الصلف"[3]، والشيء نفسه يؤكده محمد الأعرج الغريسي في سياق ترجمته لأبي الحسن علي الأب بقوله:" وعقبه بها (مجاجة) لهذا العهد، بيت علم، وثروة عريضة، وجاه ورياسة "[4].

لاشك في أن نيل بيت أبهلول لتلك المكانة يعود إلى انتسابه للأشراف، ولشهرته أبناءه بالصلاح والتقوى، إلى جانب العلم الذي تزين به عدد منهم، كما كان للدور الذي تقدمه زاويتهم في التصوف والجهاد أبلغ الأثر في رفع مكانتهم، وباعتبار منطقة تنس ثغر، فقد كان لهذه الزاوية نشاطا مهما كرباط للجهاد.

---

[1]– أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 31.

[2]– عبد الرحمن بن محمد المجاجي، « رحلة المجاجي ». مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1564. 8ظ، 9ظ؛ آل سيد الشيخ سعاد، رحلة المجاجي (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، بإشراف: أ.د عبد المجيد بن نعمية، جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. قسم: الحضارة الإسلامية. (2007– 2008). ص: 176.

[3]– أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 35.

[4]– محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 392.

وينتسب أسلاف هذا البيت إلى شرفاء الأندلس، وهم حسنيون، إلا أنَّ النسابة يختلفون بشأن انتماءهم إلى بني حمود، أو إلى شرفاء غرناطة. قال الإمام محمد بن أحمد المغراوي في كتابه " تمييز الأنساب" – والهاء تعود على محمد بن علي المجاجي–:" نسبه الطيني –رضي الله عنه– من شرفاء الأندلس بني حمود الحسني... "و" شرفاء الأندلس جلهم حسنيون، وهم بنو حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس الحسني ". وينهي صاحب الرأي الثاني نسب محمد بن علي إلى داوود بن إدريس :" قال الجعفري هو من شرفاء غرناطة بني عدي بن عبد الرحمن بن داوود بن عمرو بن محمد ... بن داوود بن إدريس بن إدريس الحسني"[1].

وقد رجح أبو حامد المشرفي الرأي الثاني[2] الذي يذهب إلى أنهم من شرفاء غرناطة[3]، وكانوا ملوكا بها، وهو موافق لصاحب "سمط اللئال في معرفة الآل"، حيث عرف بسيدي محمد بن علي المجاجي، وقال كانت أسلافه تُشم منهم رائحة الملك "[4].

ورغم اشتهار بيت أبهلول بالنسب الشريف بل هو مدين بقسط مهم من شهرته ومكانته بالانتساب إلى الأشراف إلا أنَّ هناك من ينف ذلك، فهذا محمد الأعرج الغريسي يورد نصا يثير الانتباه في سياق حديثه عن أبي الحسن أبهلول ناقلا ما ذكره صاحب " الفتح":" أبو الحسن علي أبهلول... الوطاسي نسبا المجاجي... وبنو وطاس من خلفاء بني مرين ... وأصلهم من بقايا دولة الملثمين من صنهاجة "[5]، ثم أحال إلى "ياقوتة النسب"، ثم قال – والهاء تعود على المشرفي–:" فإن كان غرضه النسب الفاطمي فقد علمت ما فيه، وإن كان

---

[1]– أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة »، مخ. ص، ص: 30، 31.

[2]– نقل القاضي حشلاف (عبد الله بن محمد بن الشارف) ما ورد في "ياقوتة النسب" بشأن نسبهم:" قال الجعفري هو من شرفاء غرناطة بني عدي ... وقال أحمد بن محمد المغراوي هو من شرفاء الأندلس من بني حمود وهذا موافق لصاحب سمط اللئال".ينظر: كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. تونس: المطبعة التونسية، 1929. ص: 90.

[3]– ينهي عبد المنعم القاسمي نسبهم إلى شرفاء غرناطة "بنو حمود". ينظر: أعلام التصوف في الجزائر. ص:232.

[4]– أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 31.

[5]– محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 391.

غرضه الشرف بالمعنى اللغوي فوجهه ظاهر "[1]. وقول كهذا كان الأجدر بصاحبه أن يبين مصادره، ويحلله ويناقشه من كل الزوايا.

أمّا عن تاريخ انتقال أوائل بيت المجاجي إلى الجزائر فلم يحددها المشرفي بدقة، مُكتفيا بالإشارة إلى انتقال بعض فروع أشراف الأندلس إلى الثغور المغربية إثر تهجير المسلمين منها، فلجأ بعضهم إلى الجزائر " وملئت منهم الثغور حال نزولهم بها"[2].

احتفظ بيت أبهلول بالوجاهة لقرون عدة، وذلك ما أكده المشرفي في القرن الثالث عشر الهجري (ق19م) بقوله:" لا زالت الوجاهة في عقبهم والجاه، تخضع لهم الرؤوس، وتعنوا لهم الحياة، إذ بيت العلم والشرف تأوي إليه الثروة الصلف"[3]، والشيء نفسه يؤكده محمد الأعرج الغريسي -والهاء تعود على أبي الحسن علي الأب- بقوله:" وعقبه بها (مجاجة) لهذا العهد، بيت علم، وثروة عريضة، وجاه ورياسة "[4].

(ثانيا) – علماء بيت أبهلول:

ذكر عدد من علماء وأعيان بيت أبهلول في المنظومة المسماة " طرز الدباجة المجعولة في محاسن مجاجة "، ولهذا رأينا إيراد بعض أبياتها [5]:

قطب العوالم مولانا الهمام **علي** وهل لشمس الضحى في الصحو من طلب

لا سيما **دوحتاه** المقتدى بهما في سائر الأرض من جار ومن جنب

بحر الهدى والندى والعلم قاطبة **أبو علي** عالي القدر والنسب

...خليفة الأب والأخ الذي جمعت علياهما فيه من فضل ومن نسب

---

[1]- محمد الأعرج الغريسي، المرجع نفسه، ص: 391، 392.

[2]- رغم ترجيح المشرفي الرأي القائل بأنهم من شرفاء الأندلس إلا أنه يتحدث عن بنو حمود أيضا، من ذلك قوله :" وامتدت فروع بني حمود في الساحل الوهراني والمستغانمي والرزيوي والتنسي والشرشالي ..". ينظر: ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 30.

[3]- أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 35.

[4]- محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب للعلامة سيدي عيسى بن موسى التيجيني الغريسي، ضمن كتاب مجموع النسب للهاشمي بن بكار. تلمسان: المطبعة الخلدونية، (ط1)، 1961م. ص: 392.

[5]- عبد الله بن محمد حشلاف، كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. ص، ص: 90، 91.

... والعالم العامل الأربا من الاربا **محمد بن علي** أعجب العجب

...الكاتب المصقع الشهم الخطيب له تعنو إذا قال زهر الشعر والخطب

(1)– علي بن أحمد آبهلول:

هو:" سيدي علي بن أحمد بن عبد الله بن يدر بن سعيد"، ووالده هو الولي الصالح أحمد بن عبد الله صاحب المقام المعروف غرب مدينة شلف، والذي أثنى عليه كل من عبد الرحمن الفاسي، وأبو راس الناصري[1].

السيد علي أبهلول طريقة شاذلي الطريقة[2]، وهو من رجال العلم، ارتحل إلى قبيلة مجاجة، واشتغل بقراءة العلم والعمل به، حتى بلغ الرتبة العليا–حسب تعبير صاحب " المرآة الجلية"– [3]. وأشار إليه المشرفي في سياق ترجمته لابنه محمد بقوله:" وأسلافه الكرام –رضي الله عنهم– لهم درجة عالية في العلم، ولذلك توسل بهم... العلامة ... سيدي عبد الله بن حوا الرقيق... فقال"[4] :

وبذوي العلوم والعناية والرقي في معارج الولاية

سيدنا **علي البهلول** ووارثيه الجلة الفحول

يبدو أنَّ السيد علي عاش بمجاجة خلال القرن العاشر الهجري، لأنَّ ابنه محمد وهو أكبر أبنائه ولد سنة945ه/ 1538م، وظل بها إلى وفاته[5]. وقد أشار إليه عيسى بن موسى التجيني الغريسي في منظومته المسماة " بغية الطالب" بقوله :" أبو الحسن البهلول حاوي

---

[1]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. بوسعادة (ولاية المسيلة، الجزائر): دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، (ط1)، 2006. ص، ص: 232، 233.

[2]– أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ امحمد بن شاعة. ينظر: محمد الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 392.

[3]– الجيلالي بن عبد الحكيم اليحياوي العطافي، كتاب المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدي يحي بن صفية، وفي التعريف بمشاهير العلماء ورجال المعاهد الصوفية، دار الطبع؟ (ط1)، 1953. ص: 199.

[4]– أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 35.

[5]– محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 392.

الرغائب[1]"، ووصفه شارحها بقوله:" أبو الحسن ابهلول... العارف بالله الدال عليه... شيخ في الشريعة والحقيقة "[2].

ويذهب عبد المنعم القاسمي إلى أنّه انتقل إلى مجاجة وبنى زاويته بها، فأصبحت هذه الزاوية تستقبل طلبة العلم والمجاهدين، كما كان يستقبل الأندلسيين الفارين بدينهم وأرواحهم من الإسبان، فكان يكرمهم ويساعدهم على الاستقرار، كما ساعد عروج وخير الدين في محاربة الإسبان[3].

خلف السيد علي بهلول سبعة أولاد[4]، ولكن لم يعرف منهم إلا اثنان هما: "سيدي" محمد بن علي، و"سيدي" أبو علي، ورثا مقامه وعلا قدرهما[5].

ومن المراجع المعاصرة التي تطرقت لبيت أبهلول كتاب " الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة "، ورغم صلة القرابة التي تجمع مؤلفه علي بن أحمد بنعشيط المجاجي إلا أن معلوماته غير دقيقة بما فيه الكفاية، وبالاعتماد عليه فإنّ كل من الشيخين محمد وأبا علي ابني الشيخ علي أنجبا ولدين، إذ خلف الشيخ أبو علي بن علي ولدين هما: محمد وأحمد، في حين خلف شقيقه الشيخ محمد بن علي ولدين هما: عبد الرحمن وعلي، وخلف السيد عبد الرحمن بن محمد بن علي أبهلول ولدين هما: السيد الجيلالي، والسيد علي بو حسون، أما شقيقه عليا فلم يخلف [6].

(2)- أبو عبد الله محمد بن علي أبهلول (ت1008ه/ 1599م):

---

[1]- وردت الإشارة إليه في البيت رقم: 34. ينظر: محمد الأعرج الغريسي، المصدر نفسه، ص: 390.

[2]- محمد الأعرج الغريسي، المصدر نفسه، ص: 391.

[3]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:233.

[4]- عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص:233.

[5]- الجيلالي بن عبد الحكيم اليحياوي العطافي، كتاب المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدي يحي بن صفية. ص: 199.

[6]- الحاج علي بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة. بومرداس (الجزائر): مطبعة ميهوبي، أولاد موسى، 2004. ص: 23.

ولد الشيخ محمد بن علي أبهلول سنة 945ه/1538م، وهو أكبر أبناء علي أبهلول[1]، وقد جمع بين العلم والتصوف[2]، ووصف في الجانب الأول بأنه:" كان إماما هماما، عالما عاملا... تشد إليه الرحال في المسائل العلمية "[3].

بلغت زاوية مجاجة في حياته أوج شهرتها العلمية، فقصده الكثير من العلماء وطلبة العلم حتى من مدينة الجزائر التي كانت تشق طريقا لتصبح بعد سنوات قليلة أهم الحواضر العلمية بالجزائر إلى جانب قسنطينة. وأبزر تلامذته من مدينة الجزائر مفتيها المستقبلي سعيد قدورة، الذي قال في أوراق له متحدثا عن ابني علي آبهلول محمد وأبو علي كانا " شديدي الاعتناء بالعلم وفنونه كالتفسير[4] والحديث، والأصول والمنطق والبيان، بعد الفقه والتوحيد وغيرهما "[5].

تخرج على العلامة محمد بن علي بزاويته تلامذة كثر نذكر منهم: الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر المجاجي، شارح مختصر ابن أبي جمرة في الحديث، وعلي بن أحمد الشريف، وعبد الرحمن بن علي بن عثمان المشهور بدحو بن زرفة، وهما من معسكر، مكثا بزاويته إلى أن تمهرا في كل علم، وأخذا الطريقة الشاذلية ثم عادا إلى معسكر[6]. ومن أكثر تلامذته شهرة: الشيخ سعيد قدورة، والشيخ علي بن مبارك القليعي[7].

ظل محمد بن علي معتكفا على التدريس بالزاوية إلى اغتياله، وقد تركت نهايته المأساوية أثرا عميقا في نفس طلبته، فرثاه أحدهم وهو الشيخ أحمد المانجلاتي[8]، بقصيدة تعد من أشهر المراثي بالجزائر العثمانية. وهذه بعض أبياتها[1]:

---

[1]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:233؛ الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 284، 285.

[2]- لا نعرف عن تكوينه العلمي الكثير فقد اكتفى مثلا محمد مخلوف بقوله بأنه:" أخذ عن أعلام". ينظر: شجرة النور الزكية. ص: 294.

[3]- أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 32.

[4]- آخر درس ألقاه قبل اغتياله كان في التفسير. ينظر: الجيلالي العطافي، كتاب المرآة الجلية، ص: 201.

[5] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 359.

[6]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص، ص:232، 342.

[7] - الحاج علي بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة. ص: 20.

[8] - أشعار جزائرية، هامش: 6، ص، ص: 133، 134. وينظر أيضا: ترجمة أحمد المنجلاتي في هذا الفصل.

فقدنا إماما ما له في خصاله نظير ولا في عصره من معادل

على علم الأعلام غرة عصره حزنت وما حزني عليه بزائل

...إلا بأبي شيخ الشيوخ محمدا سليل ابهلول أجَّل البهاليل

...فما جئته في الدرس إلا وجدته من العلماء العاملين الأوائل

ومَنْ لفنون العلم نحوا ومنطقا وفقها وتوحيدا وفتوى لسائل

وبالإضافة إلى بث العلم " كانت زاوية الشيخ سيدي محمد بن علي معدة لإقراء الضيفان، ولمن يجاهد في سبيل الله "، كما كان الشيخ محمد بن علي المجاجي يواسي الفقراء والأيتام، وفي مرثية تلميذه المذكورة[2]:

... فمن للأسارى والأرامل في الظما ومن للبرايا يوم صولة صائل

كانت زاويتهم بمجاجة رباطا للجهاد، وقد أورد المشرفي شهادة لأحد المجاهدين الذين عاصروا محمد بن علي وزاروه في زاويته:" قال الشيخ أبو الحسن الشريف خرجنا إلى ثغر تنس بنية الجهاد، فلقينا الشيخ سيدي محمد بن علي فأنزلنا بزاويته يعني مجاجة، وقد أصابنا الجوع، وكنا نحوا من ثلاث عشرة مئة (1300) نقاتل الكفار"، قصده هذا العدد الكبير من المجاهدين لأجل الزيارة، فقدم لهم الطعام[3].

كما كان الناس يلجؤون إلى محمد بن علي في فتاويهم حتى رجال الإفتاء الرسميون، من ذلك استفتاه من طرف مفتي مدينة الجزائر الشيخ محمد المطماطي[4] نظما عن حكم الشرع في العبيد المسلمين، فأجابه نظما أيضا[5]. بل أنّ اغتياله كان من أجل إحدى فتاويه، بحيث استفتي في مسألة من طرف أحد رجال قبيلة النوائل، كان بعض العلماء أحلوها لخوفهم

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، مخ. ص: 34؛ علي بنعشيط، المرجع السابق، ص: 20.

[2]- أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص، ص: 32- 34.

[3]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، مخ. ص: 32، 33.

[4]- المطماطي (ت 1019ه): تولى وظيفة الفتوى والإمامة في الجامع الكبير، وكان مدرسا بنفس الجامع ومن أشهر تلامذته الشيخ سعيد قدورة. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 360، 361.

[5]- ذهب إلى عدم الجواز، من ذلك قوله:" إذ لا يسوغ لنا بالرق ملكهم* والقلب منهم بالإيمان ممتزج" .ينظر: تعريف الخلف، القسم 2، ص: 434، 435؛ عبد الله حشلاف، كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. ص: 89. .

من السائل الظالم فأجاب مترجمنا بحرمتها، فأمر هذا السائل مَنْ قتله[1]، ولذلك نجد في مرثية تلميذه المشهورة[2]:

...أحقا قتلت الألمعي تعمدا على قول حق لا على قول باطل

أمَّا الرواية التي أوردها ابن عشيط، هي أنه اغتيل بتدبير من باي مازونة[3] الذي كان يتخوف منه للمكانة التي كان يتمتع بها في المنطقة، فأرسل إليه من يستفتيه في مسألة، غير أن جواب الشيخ محمد بن علي كان بعدم الجواز، فبعث إليه شبابا على أنهم طلاب علم، ودخلوا عليه ليلا الليل فذبحوه وفروا، وتذهب هذه الرواية ذاتها إلى أن الداي أخذ بثأر الشيخ فقتل الباي، ومنفذي العملية[4].

تبدو هذه الرواية ضعيفة من جوانب عدة، منها انفراد ابن عشيط بها، وحادثة اغتيال لشخصية بمكانة وشهرة محمد بن علي، وبتدبير من أحد كبار رجال الدولة يدعوان إلى أن تكون هذه الرواية متداولة بين الناس، سيما وأن ابن علي حظي بترجمة في بعض المصادر[5]، والتي لم تشر لهذه الرواية مثل: "ياقوتة النسب الوهاجة".

كان للشيخ محمد بن علي حضور صوفي قوي خلال العهد المدروس، ولهذا وصفه صاحب "ياقوتة النسب" بأنه:" كسى علم التصوف طلاوة وبهجة، وأهل زمانه معترفون له بالتفرد "، كما" كان للناس فيه اعتقاد عظيم"، حتى أنهم كانوا " يقولون له سفيان

---

[1]- المسألة هي أن أحدهم مات والده عن امرأة كان قد تزوجها، وتوفي قبل الدخول بها، فأفتاه الشيخ بعدم حلية زواجه بها. ينظر: الجيلالي العطافي، المرآة الجلية، ص: 200؛ بنعشيط، الأحرف الوهاجة. ص: 21.

[2]- أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 34.

[3] - تقع مازونة بغرب مجاجة بحوالي 60كلم.

[4]- نقل ابن عشيط (الأحرف الوهاجة، ص: 21) هذه الرواية عن الحاج الطيب بن حراث مفتش التربية والتكوين في أيامه. وعنه نقلها بعض الباحثين منهم: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:342، 343.

[5] - بعض أخباره في :" تمييز الأنساب" لمحمد بن أحمد المغراوي، وفي كتاب "كعبة الطائفين" لابن الصائم.

العابدين"[1]. ويصفه ذات المصدر بأنه كان زاهدا عابدا، وبأنه اشتهر بالصلاح والتقوى، وكانت كراماته أوضح من شمس الضحى، "وكانت له بركة عظيمة ودعوة مستجابة "[2].

ولا شك أن الاعتقاد بهذا الشكل مبالغ فيه، وهو ليس مقصور على العوام فقط بل حتى العلماء، حتى أن أبا حامد المشرفي وصفه ب:" كعبة الزوار"، ونقل قول الشيخ أبو الحسن الشريف ونصه:" قبره مشهور مزار لقضاء الحوائج حول النخلة وفي روضتها، حول قبره أربعون من الأبدال، فمن وقف عند ضريحه وتوسل إلى الله به، وبالأربعين نال جميع ما طلبه، فهو كالترياق في سرعة الاستجابة، ومن ثم تشد الرحال لزيارته ... "[3].

تعدَّت شهرة محمد بن علي في مجال التصوف حدود الجزائر، ويتأكد ذلك من خلال ما ذهب إليه ابن أبي محلي[4] بقوله:" ما في وقتنا هذا من يقتدى به إلا أربعة "، وذكر منهم محمد بن علي أبهلول[5]. ولا شك أن ابن أبي محلى تعرف على ابن علي عن طريق تلميذه سعيد قدورة.

وقد كان انتسابه للأشراف من عوامل التي ساهمت في الرفع من مكانته عند العامة، إلا أن ذلك لم يكن كافيا ليحتل المكانة المرموقة لولا ما عرف به علم وأخلاق رفيعة، وفي ذلك يقول المشرفي:" أما القطب المذكور... وإن كان نسب الشرف واضح في أصوله وأسلافه، فقد زاده حسبه شرفا على شرف، إذ لا يكمل للإنسان الشرف الحقيقي إلا بالحسب أي الصلاح، ولا يحصل له السؤدد والشرف"[6].

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، مخ. ص، ص: 32، 33.

[2]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، مخ. ص: 32.

[3]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، مخ. ص: 33.

[4] - ذكر ذلك في كتابه "منجنيق الصخور"، وأبو العباس بن أبي محلي (1022هـ/ 1613م): أديب فقيه وصوفي، ثار على السعديين واستولى على سجلماسة والمناطق المجاورة لها. من مؤلفاته:" الأصليت الخريت في قطع حلقوم العفريت النفريت "، و" سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارقة الجماعة " أدرج فيه أجوبة لبعض العلماء له بشأن شيخ فجيج عبد القادر السماحي. ومن بينها جواب سعيد قدورة. القادري، نشر المثاني، ج1، ص: 113؛ محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب، ج1، ص: 33.

[5] - الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 284، 285.

[6]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 28.

أما التأليف فيبدو أنه لم يكن من المكثرين فيه، شأن أغلب العلماء المنشغلين بالتدريس، وقد اكتفى المشرفي بالإشارة إلى إنتاجه الفكري بقوله:" هذب النقول ونقحها "، وبأنَّ " له الباع العريض في علم الشعر والقريض"[1]. ومن قصائده تلك التي يشكوا فيها إلى الله – عزَّ وجل- من أهل وقته، مُفوضا أمره إليه في المُبغضين له والحاسدين، ومطلعها :" أفوض أمري للذي فطر السما "[2].

توفي الشيخ محمد بن علي[3] في جمادى الأولى سنة 1008ه/1599م[4]، وقد خلف ولدان هما: أبا الحسن علي، وعبد الرحمن، وهذا الأخير هو والد أبو الحسن علي (أبو حسون)، وأخيه عبد القادر الجيلالي المذكورين في رحلة المجاجي سنة 1063ه، ولعل ما يؤكد إنجابه ولدين من الذكور لا غير ما ورد في مرثية تلميذه المشهورة[5]:

أعزي بنيه والسرى **أبا علي**[6] على قدر ماض مـــــن الله نازل

فيا **ولديه** سلما الأمرا واصبرا عليه وكفا عن دموع الهـــــواطل

(3)– الشيخ أبو علي بن السيد علي أبهلول:

هو أخ الشيخ محمد أبهلول، عرفه الحفناوي ب" الشيخ الفقيه وارث علم أخيه سيدي محمد بن علي"[7]، أمَّا صاحب "سلسلة الأصول" فوصفه ب:" الولي الصالح"، بأنه كان من:" العلماء العاملين والصلحاء الكاملين، فبلغ الغاية في علم المعقول والمنقول[8].

لا نعرف إلا القليل من أخبار الشيخ أبا علي ابن بهلول[1]، منها أنه رحـــــــل إلى المشرق حاجا عام 993هـــ/1585م، رفقة الشيخ محمد بن أبي القاسم المطماطي[2]. وأنه

---

[1]– أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 32.

[2]– وصفها المشرفي بأنها:" طنانة سالمة من عيوب الشعر". وبأنها " احتوت على أمثال وحكم". ينظر: المصدر السابق، مخ. ص: 32.

[3]– تذكر بعض الكتابات أنه وفاته كانت سنة 1002هـــ. (الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، ص: 429؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 286).

[4]– الجيلالي العطافي، كتاب المرآة الجلية، ص: 201؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 359.

[5]– أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، مخ. ص، ص:34، 35.

[6]– علي المقصود هنا هو أخاه أبا علي وليس ابنه علي.

[7]– تعريف الخلف، القسم: 2، ص:33.

[8]– عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي حشلاف، كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. ص: 87.

تولى التدريس بزاوية مجاجة بعد مقتل أخاه محمد سنة 1008ه[3]. من مؤلفاته: حاشية جد مختصرة على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي[4].

وفي إجازة الشيخ إبراهيم اللقاني المصري[5] لذرية علي بهلول سنة 1029ه/1619م إشارة إلى عالم من هذا البيت اسمه عبد الرحمن بن علي البهلول، وقد وصفه اللقاني بالعلم والتقوى في هذا النص:" ولمن يشرف بعلومه المجالس... الخاشع الناسك... أبو سعيد عبد الرحمن بن سيدي علي البهلول... أجزته وأجزت أخاه أبا الحسن علي بن سيدي أبهلول"[6].

وحسب هذا النص فإن عبد الرحمن هذا وأخاه أبا الحسن علي أبناء علي بهلول الأب، مع العلم أن أخ محمد بن علي اسمه أبا علي وليس علي، وما يزيد الأمر تعقيدا أنّ اللقاني لم يسجل اسم والد الأخ الثاني مكتفيا بإيراد اسمه هكذا " أبا الحسن علي بن سيدي أبهلول "، والأمر الثاني الذي يُربكنا أكثر هو أن ابني محمد بن علي أبهلول – اللذين سنترجم لهما فيما بعد– يحملان نفس هذين الاسمين تقريبا، بل أنّ الفترة الزمنية هي نفسها، وقد كانت الصلة بين الأخوين قوية جدا، كما سنرى فيما بعد.

وبما أن المصادر لا تشير لوجود أخ لمحمد وأبا علي ابنا الشيخ علي بهذا الاسم، فإن الاحتمال الأقرب إلى الصواب هو عدم دقة اللقاني في تسجيل اسم عبد الرحمن المجاز له، فكتب « عبد الرحمن بن علي» بدلا من « عبد الرحمن بن محمد بن علي». ويبدو أنه لم يكن دقيقا أيضا في تسجيل اسم أخاه الوارد معه في الإجازة فكتب « أبا الحسن علي بن سيدي

---

[1] – يذهب أبو القاسم سعد الله إلى أنه توفي بعد 1019هـ بسنين. (تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 361)، وإن كنا نعتقد ذلك سهو منه لوجود شخصيتين تتشابه أسماؤهما نوعا ما: أبا الحسن علي بن محمد بن علي وعمه أبا علي بن علي.

[2] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص– ص: 358– 361.

[3] – الحاج علي هني بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص: 23.

[4] –عبد الله حشلاف، كتاب سلسلة الأصول. ص: 87؛ الحفناوي، تعريف الخلف، القسم: 2، ص:33.

[5] – إبراهيم بن حسن اللقاني المصري (ت 1041هـ): عرف بتبحره في علم الحديث.من مؤلفاته: نصيحة الإخوان في شرب الدخان، وحاشية على مختصر خليل. ينظر ترجمته في: مخلوف، شجرة النور، ص: 291؛ المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص– ص: 6– 9؛ الزركلي، الأعلام، ج1، ص: 28.

[6] – إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، « إتحاف ذرية سيدي علي البهلول بأسانيد جوامع أحاديث الرسول ». مخ، مخطوطات الأزهر الشريف بمصر، مصطلح الحديث – رقم: 330612. ص، ص: 6/ 3ظ.

أبهلول»، ونحن نعلم أنَّ أخ محمد بن علي اسمه **أبو علي**، وأما ابنه فاسمه أبو الحسن علي، إذن المقصودان في الإجازة هما ابنا الشيخ محمد بن علي أبهلول.

(4)– أبو الحسن علي بن الشيخ محمد بن علي أبهلول:

و لم يحظ أبو الحسن علي بترجمة خاصة في مصادر تلك الفترة، فلم نعرف عنه إلا بعض الأخبار الواردة عرضا في بعض المصادر، فعرفنا مثلا أنه كان ينظم الشعر كوالده وأخاه عبد الرحمن، وقد ذكره المقري في رحلته بقوله:" قدم علينا حضرة تلمسان الفقيه سيدي علي بن محمد بن علي أبهلول في حدود 1010ه، وذهب معنا في جملة من العلماء والأعيان من أشياخنا وأصحابنا إلى المدرسة الشهيرة الصيت بالمغرب المعروفة بمدرسة أولاد الإمام "[1].

ونجد بعض أخبار أبو الحسن علي وأخاه عبد الرحمن ابني محمد بن علي في كتاب "منشور الهداية " فهما من أحباب الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد، وله معهما أخوة صادقة، ومراسلات كثيرة، وقد زار أبو الحسن علي الشيخ الفكون في قسنطينة مرتين على الأقل، ونزل عنده بداره[2].

ولا شك في أنه لم يبلغ من العلم والولاية مرتبة والده، وقد وُصف الشيخ أبو الحسن علي البهلولي من طرف الفكون بأنه كان:" فطناً لقناً، صاحب شعر كثير، وفصاحة وفهم، وله إنشاءات شعر كثير"، ولما توفي رثاه الفكون بأبيات ضمنها كتاب التعزية، بعث بها إلى أخيه عبد الرحمن[3].

ومن الأخبار الواردة بشأنه في " منشور الهداية " بأنه كان له اعتقاد في أبي العباس أحمد بن عبد الله القائم بالغرب[4]، "ولهم فيه دعوة أنه فاطمي"، حتى أن أبا الحسن علي كتب تقييدا أكد فيه على أنه هو الفاطمي، وأرسل بهذا الكتاب إلى الفكون بعد وفاة هذا القائم،

---

[1]– المقري، رحلة المقري، ص: 140.

[2]– المرة الأولى حين سافر إلى الحجاز، والمرة الثانية أتاه حين أتى مشيعا لأخيه السيد عبد الرحمن، وفي هذه المرة مكث عند الفكون أياما بعد انصراف أخيه إلى الحج. ينظر: منشور الهداية، ص: 225.

[3]– الفكون، المصدر نفسه، ص، ص: 225، 226.

[4]– يعني بالقائم الثائر على السلطة في غرب الجزائر، و لم نتمكن من إيجاد معلومات أخرى عن هذا الثائر.

وكان أبو الحسن ومن حوله " يظنون أنه لم يمت وأنه غُيِّبَ إلى وقته المعلوم فيخرج"، وكل ما قيل عنه يعتبره الفكون أنه من الخرافات التي لا يليق سماعها[1]. وموقف مترجمنا من هذا القائم فيه غرابة.

أما فيما يخص تاريخ وفاة أبو الحسن علي فإننا لم نتمكن من تحديدها بدقة، وكل ما نستطيع تأكيده أنه كان حيا سنة 1029ه/1916م، وهو تاريخ إجازة إبراهيم اللقاني له ولكل ذرية علي أبهلول[2].

(5)– أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن علي آبهلول:

عُرف عبد الرحمن أبهلول بنظم الشعر كأبيه وأخيه، وقد كانت له مراسلات كثيرة مع الشيخ عبد الكريم الفكون، الذي أشار إلى قصيدتين من قصائده، إحداها في الرد على أهل البدع[3]. كما كانت له مراسلات مع أحمد المقري الذي ذكره في رحلته في هذا النص:" كتب إلي بفاس الفقيه سيدي عبد الرحمن ابن الشيخ الشهير سيدي محمد بن علي آبهلول... بعد افتتاح أواسط ربيع النبوي سنة 1026ه/1617م[4]"، وتضم رسالته إلى المقري قصيدة طويلة من نظمه[5].

رحل الشيخ عبد الرحمن إلى المشرق حاجا سنة 1029ه/1619م، واتصل ببعض علماء مصر، ومنهم الشيخ إبراهيم اللقاني المالكي المصري الذي أجاز له ولأخيه علي، ولكل ذرية السيد علي البهلول ثم عمم الإجازة للجزائريين، وكتب في ذلك ثبتا[6] عنونه ب« إتحاف ذرية سيدي علي البهلول بأسانيد جوامع أحاديث الرسول»[7]، ومما ورد في مقدمته:" وقد

---

[1]– الفكون، منشور الهداية، ص: 226.

[2] – إبراهيم اللقاني، « إتحاف ذرية سيدي علي البهلول بأسانيد جوامع أحاديث الرسول ». مخ. ص، ص: 1ظ/ 2و.

[3]– كان الفكون ينوي شرح هذه القصيدة، لكنه لم يفعل بسبب وفاة ناظمها. ينظر: الفكون، منشور الهداية، ص: 226.

[4]– أحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، ص: 213.

[5]– أورد المقري قسما منها في رحلته، كما أورد جوابه له نظما ونثرا. ينظر: رحلة المقري، ص: 214– 216.

[6] – **الثبت أو الفهرس**: هو الكتاب الذي يترجم فيه مؤلفه لمشايخه، ويتطرق فيه إلى مروياته عنهم وعن غيرهم من العلماء.

[7] – يذكره الكتاني بالعنوان التالي:" تحفة ذرية علي أبهلول بأسانيد جوامع أحاديث الرسول ". ينظر: فهرس الفهارس، ج1، ص: 284، 285.

ورد علينا بالديار المصرية في عام تسعة وعشرين من بعد الألف من يُشَّرِفُ بعلومه المجالس... الخاشع الناسك العازل السالك أبو سعيد عبد الرحمن بن سيدي علي البهلول – نفعنا الله ببركاته وأعاد علي وعلى ذريتي من صالح دعواته– فالتمس مني الإجازة بما لي وعلي روايته من الحديث "[1]، إلى أن قال:" أجزته وأجزت أخاه أبا الحسن علي بن سيدي أبهلول – نفعنا الله بهم أدام الله النفع بهما– ولأولادهما ونسلهما وعقبهما – أدام الله النفع بهما وأدام في ديار المغرب المشي على منوالهما– جميع ما يجوز لي وعني روايته من مقروء ومسموع، ومجاز ومناولة ومكاتبة، ووجاهة ومراسلة وأصول وفروع، ومعقول ومنقول... "[2].

وعلى الرغم من استعمال المجيز للمثنى في إجازته لهما، إلا أنَّ الغالب على الظن أنهما لم يرحلا معا للحج في تلك السنة، إذ لو كانا معا لأشار اللقاني لورودهما معا إليه، ولعلها الحجة التي أشار إليها الفكون من أن عليا قدم إليه مشيعا أخاه عبد الرحمن إلى الحج فواصل أخاه طريقه للحجاز بينما بقي هو في قسنطينة، وقضى بها بضعة أيام، نزل فيها ضيفا على الفكون.

عمَّم اللقاني إجازته لذرية آبهلول ولكل الجزائريين، وختم ثبته الذي ضمنه شيوخه وأسانيده بقوله:" وقد أجزت لمن ذكر ولأولادهم، ولأهل قطرهم، ولأولاد سيدنا ومولانا العارف بالله تعالي سيدي علي بن مبارك القليعي، وللشيخ سعيد خطيب الجزائر، وللشيخ سحنون[3] رفيق سيدي علي أبهلول، جميع ما مر التنبيه عليه، وجميع ما تجوز لي وعني روايته من مقروء، ومسموع، ومجاز، ومكاتبة، ووجاهة، ومراسلة ..." [4]. يشترك الأشخاص المذكورون في الإجازة بانتسابهم إلى زاوية المجاجي، فالسيد سعيد قدورة، والسيد علي بن مبارك القليعي من تلامذتها، أمَّا علي بهلول، فهو أحد أبناء بيت أبهلول.

---

[1] – إبراهيم اللقاني، « إتحاف ذرية سيدي علي البهلول بأسانيد جوامع أحاديث الرسول »، مخ، ص، ص: 1ظ/ 2و.

[2] – إبراهيم اللقاني، المصدر نفسه، ص، ص: 3ظ، 4و.

[3] – الظاهر أنه هو: سحنون بن عثمان بن سليمان بن أحمد بن أبي بكر المداوي الونشريسي: (القرن 11هـ) تفقه بمليانة وبمدينة الجزائر، وقبره مشهور بني وعزان بنواحي الونشريس. له شرح على السراج منظومة عبد الرحمن الأخضري في الفلك. ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 156؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 74.

[4] – إبراهيم اللقاني، المصدر السابق، ص: 13 و .

لا شك في أن الرحلة التي قادت بعض علماء وطلبة زاوية مجاجة إلى المشرق رحلة حجازية، استجاز أحدهم لنفسه ولرفقائه، ويبدو أن بعض رفقاءه المذكورين في الإجازة لم يكونوا كلهم معه في الرحلة، ولكنهم من خريجي زاوية مجاجة، ذلك أن العالم حتى إن انهى دراسته على شيوخه فلا تنقطع صلته بهم. ولذلك فإننا نرجح أنّ عبد الرحمن البهلول هو الذي كان في الرحلة فاستجاز اللقاني لنفسه ولأخيه ولبعض رفقائه من طلبة زاوية مجاجة، وأحد المذكورين في الإجازة هو سعيد قدورة الذي كان لا يزال حديث عهد بمنصب الفتوى الذي تولاه سنة 1028ه، فمن المستبعد أن يتغيب على وظيفته لأكثر من عام كامل، وهي المدة التي تستغرقها رحلة الحج.

توفي الأخوان علي وعبد الرحمن ابنا محمد بن علي في فترة متقاربة[1] بين سنتي 1029ه/1619م، و1045ه/1635م، ذلك أنهما كانا على قيد الحياة سنة 1029ه، وهي السنة التي أجازهما فيها اللقاني، وقد ذكر الفكون وفاتهما في " منشور الهداية" الذي انتهى من تأليفه سنة 1045ه.

وتدلنا المصادر المتوفرة على اثنين من أبناء عبد الرحمن بن محمد هما: أبا الحسن علي المعروف بأبي حسون، وشقيقه عبد القادر الجيلاني.

(6)– أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (ت1076ه/1665م)[2]:

هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن علي أبهلول، المعروف بعلي أبو حسون. إنّ إجحاف المادة التاريخية يقف حائلا أمامنا لاستكمال الصورة حول دور بيت أبهلول المجاجي، فرغم مكانة أبو حسون علي وشقيقه الشيخ الجيلالي عبد القادر في الزاوية إلا أننا لم نتمكن من التوصل إلا للنزر القليل من أخبارهما استنادا إلى الرحلة الحجازية التي نظمها عبد

---

[1]– توفي عبد الرحمن بعد مدة يسيرة من وفاة أخاه، ذلك ما أشار إليه الفكون بقوله:" ولم يمكث أخوه أبو زيد عبد الرحمن إلا قليلا حتى لحقه ". ينظر: منشور الهداية، ص: 225.

[2]– De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. P: 13.

الرحمن بن محمد المجاجي سنة 1063هـ/ 1652م[1]. بحيث كان أبو حسون وشقيقه عبد القادر من العلماء المرافقين للركب، فأثنى عليهما صاحب الرحلة كثيرا، وأشار في مناسبات عدة إلى أنَّهما ذوو صيت في القبيلة، وأشاد بأخلاقهما العالية، وبكرمهما، وبتقديمهما العون المادي لكل من قصدهم ببلدهم، أو أثناء رحلة الحج من الحجاج.

فأما أبو الحسن علي، فقد خصه المجاجي في رحلته المذكورة بسبعة عشر بيتا، ويبدو أنه كان خلال هذا التاريخ شابا في مقتبل العمر، لوصف صاحب الرحلة له ب" الفتى"، وقد عدد خصاله كالجود والعلم والحلم، ومما ورد بشأنه في الرحلة[2]:

وفي ركبنا من الأفاضيل جملة من العلماء العاملين الأجلة
أبو الحسن علي إذ قلَّ مثله فيما قد مضى والآتي من كل جهة
نعم ونعم فحبذا به من **فتى** جميع الخصال قد حواها رفيعة
فجود وعلم ثم حلم وزانه مع هذه السخاء في المال جملة

وذكره مرة أخرى بقوله[3]:

أبو الحسن أبو الجميع كبيرهم هو المتولي للأمور العظيمة

واستنادا إلى الوصف الذي قدمه صاحب الرحلة عن أبي حسون علي نستطيع القول بأنّه من أهل العلم، وهو على الأرجح متولي أمر زاوية أسرته، لأن مكانته في قافلة الحج المنطلقة من مجاجة وضواحيها مكتسبة من مكانته في الزاوية التي يدير شؤونها. ويذكر قونزاليز استنادا إلى مخطوط عربي أنه توفي سنة 1076ه/1665م، وهو يصفه بذي المناقب والفنون [4].

(7)- عبد القادر الجيلاني بن عبد الرحمن بن محمد بن علي:

---

[1] - رحلة حجازية، نظمية، مقيدة في اتجاه العودة، يبدؤها المؤلف بوصف البقاع المقدسة، ويختمها بوطنه الأصلي مجاجة.

[2]- المجاجي، رحلة المجاجي، تح: آل سيد الشيخ سعاد، ص، ص: 173، 174.

[3]- المجاجي، المصدر نفسه، ص: 177.

[4]- De Gonzalez, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. P: 13.

هو شقيق أبو الحسن علي، خصه صاحب الرحلة بثمانية أبيات مدحه فيها، ووصفه ب«العالم التقي»، وذكر قدره في علم التصوف، وهذه الخصال ورثها عن أسلافه. كان ضمن ركب الحج المشار إليه، وقد زار رفقة علماء الركب الجزائري أشهر مساجد مصر، والتقوا فيها "بكل من له في طريق العلم والخير شهرة "، وفي مقدمتها الجامع الأزهر[1]. وحصل الشيخ الجيلالي عبد القادر على عدة إجازات علمية بمصر، وببيت الله الحرام، وبالمدينة المنورة، وأشار إلى ذلك صاحب الرحلة بقوله – والهاء تعود على شقيقه أبو الحسن علي-[2]:

والجيلالي عبد القادر العالم التقي أخوه شقيق حافظ للرواية
وقد جمع الإله فيه خصال من تقدم من أبيه والعم جملة
فمنَّ عليه الله بالعلم والتقى وزاده مع دين جود ورفعة
أجازه كل عالم في طريقه بمصر وبيت الله ثم المدينة
قد استخبروه في العلوم جميعها فألفوه فيها حافظا ذا بصيرة

(ثالثا)– متأخرو بيت أبهلول المجاجي[3]:

إنَّ الانقطاع الحاصل في معلوماتنا حول علماء هذا البيت لا يعني بالضرورة عدم وجود فقهاء ممن ينتمون لهذا البيت، ولكن يعزى عدم معرفتنا بهم لجور الكتابة التاريخية التي أصبحت سمة هذا العهد. ومن أبناء هذا البيت خلال القرن الثالث عشر الهجري (ق19م) السيد هني وابنه السيد محمد[4]، وقد أشار إليهما المشرفي بقوله:" مأوى الغادي والرائح

---

[1] – من بين العلماء الذين اتصلوا بهم في القاهرة والإسكندرية، وأخذوا عنهم بعض المسائل: العلامة علي الأجهوري، وشيخ القراء بمصر أبي سلطان، والعلامة أبو العباس المرسي. ينظر: عبد الرحمن المجاجي، « رحلة المجاجي»، مخ، ص، ص: 3 ظ، 4 و.

[2] – عبد الرحمن المجاجي، المصدر نفسه. ص: 17 و.

[3]– أشارت عدد من الكتابات إلى بعض من أهل العلم من متأخرو بيت أبهول المعاصرة مثل: " سلسلة الأصول" للقاضي حشلاف، و"الأحرف الوهاجة" لعلي بنعشيط المجاجي... إلخ.

[4]– بما أن المشرفي خصص قسما من كتابه " ياقوتة النسب " للتعريف بالشيخ محمد بن علي أهدى نسخة منه للسيد هني المجاجي، ومرفوقة بقصيدة تتكون من 16 بيتا، وأشار إلى ذلك بقوله:" وقد بعثنا هذه النسخة لابن القطب الواضح... السيد هني ابن السائح، وأنشدنا صحبتها هذه القصيدة فيه وفي ولده السيد محمد القاضي، فلعل بحر **الأشراف** يلتقي باليمين، وبكلتا اليدين، ويطالع

سيدي هني بن السايح ونجله البار الناسك... الفقيه القاضي السيد محمد بن هني"[1]. ومن خلال أوصاف المشرفي يبدو أن الابن من العلماء، أما والده فوصفه له لا يدل على تحليه بالعلم، إلا أنهم احتفظوا بمكانتهم لهذا العهد لقول المشرفي:" لا زالت الوجاهة في عقبهم والجاه تخضع لهم الرؤوس، وتعنوا لهم الحياة؛ إذ بيت العلم والشرف تأوي إليه الثروة الصلف"[2].

– المبحث الخامس: البيوتات والأسر العلمية الأندلسية الأصل بمدينة الجزائر:

عرفت الجزائر كغيرها من بلدان المغرب العربي الإسلامي هجرة أندلسية واسعة بدأت منذ الفترة الوسيطية، وتضاعف عددها بعد سقوط مملكة غرناطة عام898ه/1492م، وذلك بالموازاة مع الحرب الصليبية الشرسة التي اعتاد بعض الكتاب تسميها ب"حركة الاسترداد المسيحي" (Reconquista). وقد كان حظ مدينة الجزائر والمناطق القريبة منها ضعيف نسبيا من الهجرات التي كانت خلال الفترة الوسيطية، بالمقارن مع الأعداد الكبيرة من المهاجرين الذين نزلوا مدينتي بجاية وتلمسان، اللتين كانتا أهم المراكز الحضارية في المنطقة إلى جانب مدينة قسنطينة.

وإثر استقرار العثمانيين بمدينة الجزائر خلال القرنين السادس عشر، واتخاذها عاصمة للأيالة الناشئة، ولعبها دورا أساسيا في دحض الإسبان، أصبحت هذه المدينة بل المنطقة برمتها وجهة للكثير من الأندلسيين الذين استقروا بها. ولعبوا دورا مهما في تنشيط الحياة الاقتصادية بالجزائر نظرا لاشتغالهم بالتجارة، والغزو البحري، والنشاطات الحرفية[3]. بالإضافة إلى

فيها أنساب الجدين، ويُجيز كاتبها، ومؤلفها إجازة النبي الأمين التي هي أفضل من العسجد واللُجين، والدر الثمين". ينظر: أبو حامد المشرفي،« ياقوتة النسب الوهاجة » مخ، ص: 37، 38.

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص، ص: 37، 38.

[2]- المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة » مخ، ص: 35 ؛ فوزية لزغم، قراءة في مخطوط " ياقوتة النسب الوهاجة، ص: 208.

[3]- من أجل الاطلاع على دور الأندلسيين في الجانب الاقتصادي بالجزائر ينظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2003؛ ولنفس المؤلف، الأندلسيون

مساهمتهم تنشيط الحياة الثقافية بها، ومن أهم إنجازات الأندلسيين في المجال الثقافي هو تأسيسهم لزاوية لتعليم علوم القرآن الكريم ودراسة مختلف العلوم سنة 1033ه/1623م. ساهمت هذه الزاوية أو «مدرسة عليا » في تخريج الكثير من الطلبة عرفت ب" زاوية الأندلسيين" [1]، وكان لها وقف يغطي حاجتها. ويتوقع أبو القاسم سعد الله أن التعليم بهذه المدرسة كان على مستوى عال لأن الأندلسيين عرفوا بإجادة التدريس وحسن التربية، ومراعاة التطور العقلي للتلاميذ[2].

وقد برزت بدار السلطان العديد من الأسر الأندلسية المتنفذة، كان لبعضها دور مهم في دفع عجلة الحركة الفكرية بها إلى الأمام. والميزة التي تشترك فيها البيوتات والأسر التي تعود أصولها إلى الأندلس هو تفاديها الاشتغال بالسياسية، بأي شكل من الأشكال، مع أن البيوتات العلمية بهذه المنطقة، وهي مقر السلطة المركزية لم يكن لها دور سياسي ذي بال.

(أولا)– أسرة ابن عبد اللطيف:

يميل أبو القاسم سعد الله إلى احتمال أن تكون أسرة ابن عبد اللطيف أندلسية الأصل[3]، غير أننا لم نتمكن من تحصيل مادة علمية كافية من أجل تقديم صورة متكاملة حول دورها العلمي، شأن العديد من الأسر العلمية في العهد المدروس، ولعل أهم أثر نستند عليه للتأريخ لهذه الأسرة هو ما مدحهم به أحمد بن عمار نظما ونثرا، ونعتهم ب« آل ابن عبد اللطيف»، ووصف قصرهم، وأشار إلى دورهم العسكري والسياسي في الجزائر.

ومن العبارات الواردة في القصيدة التي مدحهم بها ابن عمار – والهاء تعود على الجزائر– :"كانا بها والملك يحميه رأيهم "، وذهب به الأمر إلى تشبيه الداي محمد باشا[4] المعروف

(الموريسكيون (بمقاطعة الجزائر) دار السلطان (أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر". ضمن حوليات جامعة الجزائر، ع:7 ، 1993.

[1] – مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها ، ص: 76.

[2] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص: 282.

[3]– أبو القاسم سعد الله، في تعليق له في هامش: 2، في كتاب أشعار جزائرية، ص: 61.

[4]– تولى الداي محمد باشا المعروف بالمجاهد في سنة 1179ه/1765م، وظل في منصبه حوالي 24 سنة، أي إلى وفاته سنة 1205ه/ 1790م . ينظر: أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 24 وما بعدها .

بالمجاهد بهارون الرشيد في بغداد، و« آل ابن عبد اللطيف» بالبرامكة. ومن قصيدته هذه الأبيات[1]:

وهم أسسوا للملك أشمخ قبة وساسوه تدبيرا به بدأ الدّبر

... وإن سعرت نار الوغى فسيوفهم سيول على تلك الكتائب تنهمر

... لقد مهدوا صعب البلاد وسهدوا عيون العدا واستوقفوهم على خطر

وفيما يخص الأوصاف العسكرية التي أصبغها أحمد بن عمار على أسرة ابن عبد اللطيف في قصائده، لا نشك في كونه يبالغ كثيرا – شأن الشعراء – لأن مصادر الفترة العثمانية لم تكشف عن قائد عسكري قوي بهذا الاسم[2]، ونفس الشيء يُقال عن مبالغته في دورهم السياسي، لأن مقاليد الحكم كانت بيد فئة الأتراك العثمانيين، وهم لم يسمحوا للسكان المحليين بمشاركتهم في ذلك، فكيف يكون بعد ذلك لأسرة ابن عبد اللطيف الأندلسية دور فيه؟

ومن النصوص النثرية التي وصف فيها ابن عمار قصر ابن عبد اللطيف قوله:" والزهر من سماء القوارير تسكب علينا، وتصب في لمة من الأعيان تهابهم القلوب، وتجلهم الأعيان ما تتلمح منهم إلا بدر محفل... فناهيك من ليلة قطعناها بالمسامرة ما أقصرها بعمر وأطولها في الفخر بباع..." [3].

أنجبت أسرة ابن عبد اللطيف عدد من أهل العلم، أشار ابن عمار إلى بعضهم في قصائده.

(1)– أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف:

أشار إليه ابن عمار في أحد النصوص النثرية بقوله:" ولما افتر ثغر الزمان بعد عبوسه باسما... استدعانا الوزير الكاتب ... الحائز من ذخائر المجد التليد والطريف... مولانا أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف إلى صنيع ما اصطنعه كسرى أنو شروان... فاحتللنا قصرا،

[1]– أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 61.

[2]– أبو القاسم سعد الله، في تعليق له في أشعار جزائرية لابن عمار، ص:61، هامش: 2.

[3]– أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 58.

وما أدراك من قصر... تعبث محاسنه بالزهراء والزاهرة..." [1]. ووصفه عدة مرات بالوزير في قصائده من ذلك قوله[2]:

ففخرا وزير العصر أحمد إنما حويت الذي لم يحــوه مَلِك غَبَـــــر

جمعت النجوم النيرات بمجلس طلعت به يا واحد العصر كالقمر

ورغم أن ابن عمار ينسب لأحمد بن عبد اللطيف الوزارة[3] فيصفه بالوزير وأحيانا أخرى ب" الوزير الكاتب" فلم يُعرف عنه " أنه تولى وظيفا ساميا بهذا المستوى"[4]، والظاهر أنه كان كاتبا من كبار الكتاب في الدولة. ويبدو أنَّ غبطة ابن عمار بالمجالس التي كان يعقدها أحمدبن عبد اللطيف لرجال العلم والأدب في قصره هي التي دفعته لوصفه بما وصفه، كما هو واضح في الأبيات السابقة.

ولا شك أنَّ المأدبة التي وصفها ابن عمار نثرا وشعرا في قصر آل عبد اللطيف، هي مناسبة التقى فيها العلماء والرؤساء،" وتجاوب فيها الشعر والسياسة "، غير أنّ ذلك النوع من المناسبات لم يكن إلا كلمح البصر، لأن الهوة كان شاسعة بين رجال الدولة، وبين العلماء والأدباء، ذلك أن لغة التخاطب والاهتمام لم تكن واحدة[5].

إنَّ إقدام مترجمنا على هذه الخطوة الفريدة من نوعها في عصره[6]، وهي جمع العلماء والأدباء والأعيان في قصره يدل على أنه كان من رجال العلم والأدب، وهي الشروط التي يجب توفرها في كاتب الإمارة أو الباش كاتب، الذي كان له حضور دائم وقوي في "دار

---

[1]- أحمد بن عمار، المصدر نفسه، ص: 57.

[2]- أحمد بن عمار، المصدر نفسه، ص: 63.

[3]- لم يكن في الجزائر العثمانية وظيفة بلقب وزير إلا أن هناك وظائف سامية كان أصحابها بمثابة وزراء. والوزراء الثلاثة الأوائل هم: الخزناجي: هو بمثابة وزير المالية في عصرنا الحالي، آغا العرب أو آغا المحلة: وهو القائد الأعلى لكل فرق الدولة الفرسان والمشاة، وخوجة الخيل: وهو بمثابة وزير الفلاحة في أيامنا. ينظر: عائشة غطاس، "الإدارة المركزية" ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م. 2007. ص- ص: 114-119.

[4]- أبو القاسم سعد الله، في تعليق له في أشعار جزائرية، ص: 62. هامش 2.

[5]- أبو القاسم سعد الله، من مقدمة التحقيق أشعار جزائرية، ص: 19، 20.

[6]- لا يُتوَّقع أن تكون هذه المجالس كالمجالس التي كانت تعقد في العصور الإسلامية الأولى.

الإمارة "، وندرك ذلك جيدا بقراءة مذكرات الزهار. وقد ساهمت هذه المجالس الأدبية بشكل كبير في تنشيط الحركة الأدبية في الجزائر في تلك الفترة التي لم يكن للأدباء ما يدفعهم إلى الإنتاج إلا حب الإبداع.

(2)– الشيخ أحمد زروق بن السيد محي الدين بن عبد اللطيف[1] (القرن 12ه):

عاش خلال القرن الثاني عشر بمدينة الجزائر ودرس على مشيختها، فكان شريك ابن المفتي " في مجلس سيدي مصطفى العنابي، ومجلس سيدي عمار، ومجلس سيدي محمد بن نيقرو"[2]، هو ابن عم صاحب القصر الذي وصفه ابن عمار سابقا[3]، وهو أيضا " ابن أخت العالم سيدي الحاج المهدي بن الحاج صالح"[4]، الذي تولى قضاء المالكية، ثم الإفتاء المالكي عام 1127ه[5].

تولى أحمد الزروق الفتوى المالكية في شهر ذي الحجة سنة 1152ه[6]/1739م[7]. وكان لا يزال متوليا للفتوى حين أنهى ابن المفتي تقييداته عام 1166ه/ 1753م[8]، وهو آخر من ترجم له، وختم ترجمته بقوله:" وهو المتولي اليوم". والظاهر أنه ظل في الفتوى إلى

---

[1]– هناك عالم آخر من عنابة معاصر لأحمد الزروق، ويحمل الاسم نفسه، وهو من شيوخ السيد محمد مرتضى الزبيدي نزيل مصر (ت1205ه)، ذكره في " النفح المسكي"، وأشار إليه عبد الحي الكتاني في النص التالي:" المحدث أحمد بن عبد اللطيف الحسني الشهير بزورق المستوطن بعنابة، ومفتيها إجازة كتابة من بلده سنة 1179ه. ينظر: فهرس الفهارس. ج1، ص:238.

[2]– ابن المفتي ، تقاييد ابن المفتي، ص: 113.

[3]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 228.

[4]– ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 113.

[5]– نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر. ص: 183.

[6]– في قائمة مفاتي المالكية التي أعدها نور الدين عبد القادر أنه تولى سنة 1153هـ. ينظر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر. ص: 183.

[7]– Devoulx , "Les Edifices Religieux.in **R** .**A**, N° : 10, Année : 1866, p:375.

[8]– ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 113.

سنة 1169ه/1755م[1]. وتولى التدريس والخطابة إلى جانب الفتوى[2]. ويشير إليه ابن عمار في هذه الأبيات[3]:

خصوصا سري الوقت زروقزا الذي به ذرت الأرزاق وانسكب المطر

إمام دار الهدى مفتي الأنام وشيخهم فتى الرأي والتدبير والعلم والنظر

وقد ذكر الشيخ أحمد الزروق وشقيقه الشيخ عبد الرحمن في إحدى الوقفيات المؤرخة بأواخر رجب 1153ه/1470م، بحيث وقف إبراهيم باشا بحيرة (بستان)، وبئر الزرجونة على أربعة طلبة يقرأون الحزب بعد صلاة العصر داخل الجامع الأعظم ... وحدد لكل منهم المبلغ الذي يأخذه من كرائها كل شهر، "وما فضل من كرائها يصرفه الإمام في مصالح المسجد الجامع المذكور... وأذن الأمير المذكور – أيده الله ونصره لإمام الجامع المذكور– وهو الشيخ الإمام، العالم العلامة الهمام، مفتي الإسلام، وقدوة الأنام، السيد أحمد زروق ابن المرحوم المنعم السيد محي الدين بن عبد اللطيف أن يحوز البحيرة المذكورة له، ولمن عداه من الحزابين، ومن يقوم مقامه، فامتثل أمره، وقبل منه ذلك وحازه عنه حوزا تاما كما يجب على لسان شقيقه[4] المعظم الأجل الزكي الأفضل العالم العلامة الأكمل السيد عبد الرحمن... أواخر رجب 1153هـ"[5].

كما ذكره عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته، وقد كان يحضر سرد صحيح البخاري في الجامع الأعظم، الذي هو إمامه ومفتيه وخطيبه، رفقة أخيه عبد الرحمن، في شهر شعبان 1157ه/1744م[6].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، في تعليق له في رحلة ابن حمادوش. هامش: 4، ص: 122.

[2]– هناك فتوى وافق عليها مفتي الحنفية محمد بن محمد الشهير بابن علي، ومفتي المالكية الشيخ أحمد زروق ابن عبد اللطيف، وقاضي الحنفية محمود بن أحمد القاضي. تاريخها غير واضح. ينظر: س. م. ش، ع: 55، و: 31.

[3]– أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 62.

[4]– لم أتمكن من معرفة المقصود بهذه العبارة، فهل كان عبد الرحمن هذا قاضيا للمالكية في هذا التاريخ أم كان كاتبا في المحكمة المالكية.

[5]– س. م. ش، ع: 55، و: 20.

[6]– كان الزروق يقرأ بعض المواضع من صحيح البخاري، ولما كان يرى أيضا القارئ لا يحسن القراءة يأخذ منه صحيح البخاري ويقرأ هو، وكان أخاه عبد الرحمن يفعل الشيء نفسه، وكان يتناوب مع بعض القراء في سرد في شهر شعبان ورمضان. ينظر: رحلة ابن حمادوش. ص، ص: 122، 123.

(3)– عبد الرحمن بن عبد اللطيف (القرن 12ه):

هو شقيق المفتي أحمد الزروق، ورد ذكره في الوثيقة التي تعرضنا لها من قبل في هذا النص :"...على لسان شقيقه المعظم الأجل الزكي الأفضل العالم العلامة الأكمل السيد عبد الرحمن... أواخر رجب 1153هـ/1470م"[1]. وقد عرفنا أنه كان يسرد صحيح البخاري، والشيخ يشرح، وربما كان الشيخ الذي أشار إليه ابن حمادوش هو أخاه الزروق. ويشير إليه ابن عمار في قصيدته التي وصف قصر ابن عبد اللطيف، يصفه بأنه كان كاتبا في هذه الأبيات[2]:

كما فضحت درٌّ القلائد صفحة وشتها بنان **الكاتب السرّ** أن نثر

أبي زيد المطبوع أبلـــغ كاتب تصدَّر للترسيل أو شاعر شـــعر

(4)– محمد بن عبد اللطيف (القرن 12ه):

وجد اسم محمد ابن عبد اللطيف في مصحف قديم، بحيث قام بتحبيس هذا المصحف في عام 1156ه/1743م[3]. وقد ذكره ابن عمار في قصائده التي مدح بها أسرة ابن عبد اللطيف[4] فذكر بأنه عالم خطيب، وبأنَّه تصدى لرواية الحديث النبوي الشريف، ومن الأبيات التي ذكره فيها[5]:

كما بهرت آداب بـــارع عصرنا وأبلغ من حاك القـــريض ومن نثر

محمدنا راوي حـــديث محمـــد وناظم ذاك العقد من بعد ما انتشر

... خطيب يفوق ابن الخطيب بلاغة ويحتبس البصرى من وعظه الحصر

---

[1]– س. م. ش، ع: 55، و: 20.

[2]– أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 62.

[3]– أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 164.

[4]– علق أبو القاسم سعد الله محقق ديوان "أشعار جزائرية " في الهامش (ها2، ص: 62؟) على هذه القصيدة بقوله:" بعد الوصف العام للسهرة خصَّ **محمد بن عبد اللطيف** بالمدح، ولا ندر إن كان ابن عمار يتحدث عن (محمد) أو (أحمد)، ذلك أن مدحه له بالخطابة، والوعظ، وقرض الشعر، وصوغ النثر ينطبق أكثر على المفتي محمد بن عبد اللطيف لا على أحمد الذي قال عنه أنه كان وزيرا.

[5]– أحمد بن عمار، المصدر السابق، ص: 60.

فناهيك من روض تناثر طبعه بزهر من الآداب والشعر والسِّير

...كجود بني عبد اللطيف إذا همى فما أن يقاس بالجداول والنهر

... بدور ليوث بهجة ومهابة رياض حياض نفحة وندا اهمر

(5)- محمود بن عبد اللطيف:

كان محمود بن عبد اللطيف متوليا للقضاء، ويشبهه ابن عمار بالإمام أبي حنيفة النعمان في قوة العلم، ومن الأبيات التي ذكره فيها[1]:

كمحمودهم قاضي القضاة أبي الثنا توطىّ على متن القضاء له المقر

...فقيه إذا ما الخصم حاول فصله تراءى له النعمان في الورد والصدر

(ثانيا)- أسرة ابن نيكرو[2]:

أسرة ابن نيكرو من الأسر المتنفذة خلال العهد المدروس[3]، وهي أندلسية الأصل[4]، كان لها حضور مهم في مدينة الجزائر، ولهذا تكرر ذكرها في العقود ووثائق المحاكم الشرعية. اقترن اسمها بأحد المساجد الواقعة قرب باب الواد، الذي أصبح يعرف بمسجد ابن النيقرو، بعد أن كان يعرف بمسجد ستي أو ستنا مريم [5]، نسبة لامرأة محسنة أعادت بناءه لقدمه من مالها الخاص في أواخر القرن الحادي عشر الهجري [6].

اشتهر مسجد ستي مريم بمسجد بن النيقرو نسبة إلى أسرة ابن نيقرو التي كانت تقوم بإدارة شؤونه منذ ما يقرب من قرنين، ويُروى عن آخر وكلاء المسجد وهو السيد مصطفى

---

[1]- أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص، ص: 62، 63.

[2]- كتبت في الوثائق بحرف الغين (ابن نيغرو)، وبالكاف (ابن نيكرو)، وبالقاف (ابن نيقرو).

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص: 240.

[4] - Devoulx, "Les Edifices Religieux ".in **R**. **A**, N° :10, Année : 1866, p: 286.

[5] - يوجد مسجد ابن نيغرو تحت القبة الكبيرة لباب الوادي، وهو مسجد صغير، دون مئذنة. ويرجح ديفولكس بكل تحفظ إمكانية بناء هذا المسجد أو اتخاذه هذا الاسم بعد سنة 1092هـ/1681م لكونه لا يذكر بهذا الاسم قبل هذا التاريخ، غير أنه يذكر في دراسته عن تاريخ جزائر بني مزغنة أنه يعود في الأصل إلى الحقبة البربرية، وأنه كان هناك إمام بها يدعى سيدي بركات البارودي، حوالي 766م هـ/1364م، والذي كان المسجد يعرف باسمه. ينظر: ابن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها، ص، ص: 25، 26.

[6]- ابن المفتي، تقاييد ابن المفتي، ص: 95.

بن نيقرو أنَّ السيدة مريم كانت امرأة صالحة وغنية من أسلافه، فسَبَّلت جزء من أموالها لبناء المسجد، أو إعادة بنائه، وقد عينت أحد أجداده ليكون المشرف على المسجد، واشترطت أن تكون الوكالة بعده لأحفاده[1]. أنجبت هذه الأسرة عدد من علماء منهم:

(1)- إبراهيم بن نيكرو:

ورد ذكر هذا الفقيه عرضا في وثيقة مؤرخة في صفر 1098ه/1686م، والنص كما هو:" مسجد ستي مريومة، الذي يؤم فيه الآن الفقيه الأجل السيد إبراهيم بن نيكرو" [2]، وفي ولاية الداي أهشي مصطفى[3] حضر إبراهيم بن نيقرو، وابنه محمد مجلسا انعقد بحضرة الداي المذكور، وعدد من العلماء اثر النزاع بين بين المفتيين الحنفي النيار، والمالكي أحمد قدورة في مسألة اختلفا فيها [4].

(2)- محمد بن إبراهيم بن أحمد[5] بن موسى النيقرو (ت1152ه/1739م):

وصفه تلميذه ابن المفتي ب:" العالم الفقيه، النحوي الأصولي، البياني المنطقي، المُتَكَلِّمي الحَيسوبي، الفرائضي المحدث سيدي محمد بن سيدي إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو، الأندلسي الأصل، الجزائري الولادة والمنشأ والقبر"[6]، درَسَ على علماء مدينة الجزائر، وفي مقدمتهم والده إبراهيم ابن النيقرو[7].

كان محمد بن نيقرو ينوب في الخطبة في بعض الأحيان إمام جامع القشاش، وفي أحيان أخرى ينوب عن خطيب الجامع الأعظم، ولما تولى الإفتاء المالكي في شهر ذي القعدة سنة 1150ه/ 1737م ترك كل نيابة، وتفرغ لمهامه الجديدة، إذ كان يجمع بين الفتوى

---

[1] - مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر، ص، ص: 25، 26.

[2] - س. م. ش. ع: 55، و: 40.

[3] - تولى الداي أهشي مصطفى في الفترة الممتدة: (1112- 1116ه/ 1700- 1704م). ينظر: تقييدات ابن المفتي، ص: 58.

[4] - ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 102.

[5] - ورد ذكر محمد بن إبراهيم بن أحمد في إحدى الوثائق. ينظر: س. م. ش. ع: 134/ 135. و: 52.

[6] - ابن المفتي، تقاييد ابن المفتي، ص: 110.

[7] - فارس كعوان، في مقدمة تحقيقه لتقاييد ابن المفتي، ص: 14.

والخطابة والتدريس بالجامع الأعظم، ورواية الحديث بزاوية الأندلس وقت الزوال في الأشهر الثلاث: رجب وشعبان ورمضان[1].

تصدى محمد بن النيقرو للتدريس بمدينة الجزائر، فكان ابن المفتي صاحب التقييد أحد طلابه، وقد عاصر ثلة من رجال العلم والأدب بمدينة الجزائر، فكان يشاركهم في مجالس العلم والأنس التي كانوا يعقدونها[2].

ونظرا للمهام المختلفة التي كان يكلف بها المفتي المالكي، كان له نائب يقوم بالخطبة بدلا عنه في بعض الفترات، إلا أن محمد بن نيقرو قرر أن يتولى الخطبة بنفسه[3] وقدم وَلَدَيه للخطبة فغضب من ذلك خليفته في الجامع سيدي محمد بن هدى، مع أنه بقي يتقاضى صلته، وكثر تنازعهما. ورغم تأذي ابن النيقرو بسبب إقدامه على هذه الخطوة فلم يتراجع عن قراراه في تقديم ولديه للخطبة، ومما زاد في متاعبه استعانة خليفته ابن هدى عليه بمن له صلة برجال الدولة، وحرض عليه العامة فتجاسروا عليه وطلبوا سماع الخطبة من نائبه، واستمرت مضايقتهم له إلى أن توفي في شهر ذي الحجة سنة 1152ه/ 1739م[4].

(**3**)– خلف محمد بن إبراهيم النيقرو أولادا ذكورا وإناثا، وأكبر أبنائه من الذكور **سي أحمد** الذي ذكره ابن المفتي في هذا النص:" هو الآن بمسجد ستنا مريم، ويسرد الحديث بزاوية الأندلس"[5].

(**4**)–" وولده الثاني **محمد** فقيه نجيب تولى مكان أبيه بالتدريس بجامع ميزومورطو بباب عزون"[6].

---

[1]– ابن المفتي، المصدر السابق، ص– ص: 110-112.

[2]– من هؤلاء: الشاعر محمد بن علي الحنفي، وأحمد بن عمار، ومحمد بن ميمون، وعبد الرزاق ابن حمادوش. ينظر: سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1999. ص:398.

[3]– تولى الخطبة بنفسه حسب العادة التي جرى عليها العمل من السادات الأولين مثل "سيدي" سعيد قدورة وابنه محمد. ينظر: ابن المفتي، تقاييد ابن المفتي، ص: 111.

[4]– ابن المفتي، المصدر نفسه، ص، ص:111، 112.

[5]– ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 112.

[6]– ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 112.

(5)- محمد بن إبراهيم بن علي النيكرو:

إنّ اسم صاحب هذه الشخصية واسم والده يتشابه مع اسم العالم محمد بن إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو (ت 1739م/ 1152ه) المترجم له قبله، وفي غياب المادة الوثائقية نكتف بالتساؤل إن كان الأمر يتعلق بشخصية واحدة، ولربما نكون أمام شخصية أخرى تنحدر من فرع آخر للأسرة نفسها.

إن احتمال أن يكون الافتراض الأول صحيح ضعيف نوعا ما، لأن ذلك يعني أن هناك خطأ في إحدى الروايتين في تسجيل الاسم. وقد نقل الاسم من الإجازة التي كتبها لتلميذه، ولا يمكن لأي كان أن يخطئ في تقييد اسمه، كما أن الاسم الثاني منقول من تقييد ابن المفتي، وهو تلميذه، ومعاصره وابن مدينته، وهو الآخر نستبعد أن يخطئ في كتابة الاسم.

وعليه فإن احتمال أن يكون الشيخ محمد بن إبراهيم بن علي، والشيخ محمد بن إبراهيم بن أحمد بن موسى شخصان ينحدران من الأسرة نفسها، وكلاهما عاش خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، والنصف الأول من القرن الثاني عشر الهجريين.

وبالنسبة لمحمد بن إبراهيم بن علي النيكرو، نعرف أنه تصدى للتدريس، وأجاز الشيخ محمد بن أحمد بن عمر المانجلاتي الشريف إجازة عامة، مما ورد فيها:" وبعد فيقول العبد الفقير لرحمة ربه محمد بن إبراهيم بن علي النيكرو، وبه شهر، ابن أحمد بن أحمد... قد سمع مني الشاب الأكمل الفقيه الزكي الصالح محمد بن أحمد بن القاضي الأكمل سيدي عمر المانجلاتي الشريف... علوما من معقول ومنقول... وطلب مني الإجازة لسايره وجميع مروياتي للكتب المسطورة في الفهرسة فأذنت له أن يروي عني جميع ما أحمله وما تجوز لي روايته..." [1].

وللأسف فإن تاريخ الإجازة غير مسجل بها.

[1]- أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 173.

(6)– الشيخ علي بن النيكرو:

لم تتوفر لنا إلا القليل من المعلومات عن هذه الشخصية، منها أنه كان كاتبا بدار الإمارة، كما كان يتمتع بمكانة رفيعة لدى الداي علي باشا[1]، الذي أرفقه في مهمة سياسية في آخر سنة 1232ه/1816م، وقد أراد الداي المذكور أن يعقد الصلح بينه وبين تونس فبعث إليها " الحاج يوسف من كبراء المماليك، وبعث معه العالم العلامة الشيخ علي بن النيكرو الباش كاتب... "[2]. إلا أن الصلح لم يتم إلا عام 1235ه/1820م، إذ " بعث مولانا السلطان محمود خان إلى أمير الجزائر وأمير تونس بأن يرسل كل منهما رجلا من الوجاق لكي يحضر عنده لينظر في أمر الجميع" [3]، وهكذا تم بتدخل من السلطان العثماني.

ووظيفة الباش كاتب، هي من المناصب الرفيعة في الدولة، وصاحبها هو الكاتب الأول ضمن هيئة الكتاب، وهو رئيس الكتاب، المكلف بالمحافظة على سجل محاسبات الدولة الرئيسي المشتمل على ما تحتويه سجلات الكتاب الثلاثة الآخرين، الذين هم تحت تصرفه. ويشترط فيه أن يكون عالما بالحسابات، ومسائل الفقه، ونظرا لأهميته ومكانته الثقافية كان يلقب بلقب أفندي. ويبدو أنه في أواخر العهد العثماني كثيرا ما كان يعين في هذا المنصب وجهاء وأعيان الجزائر، من حضر وكراغلة[4].

يبدو أنَّ الشيخ علي لم يعد في منصبه ك" باش كاتب" بدار الإمارة، بعد بضع سنوات من هذه المهمة، بحيث قُرِنَ اسمه بعبارة "**كان**" في محضر لمجلس علمي، وذلك يؤكد تنحيه من المنصب في أثناء كتابتها:" ادعى المكرم الأجل السيد الحاج محمد التاجر ابن الفقيه السيد علي كاتب دار الإمارة العلية **كان**[5] ابن السيد... **بن نيكرو** به شهر في حق والده

---

[1]– تولى الداي علي باشا بين سنتي 1232– 1233ه/ 1816– 1817م.ينظر: مذكرات أحمد الزهار، ص: 131– 139.

[2]– أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 138.

[3]– أحمد الزهار، المصدر نفسه، ص: 146.

[4]– سعيدوني، ورقات جزائرية، ص، ص: 176، 177.

[5]– تعني (كان) الواردة في الوثائق، أنه كان في منصب كذا، و لم يعد فيه وقت كتابة الوثيقة.

المذكور..."[1]. وقد عقد هذا المجلس العلمي لما كان الشيخ علي المانجلاتي مفتيا للمالكية، أي بين سنتي : 1241 إلى 1243ه.

– هناك عدد من الأسر العلمية التي لم تذكر المصادر إلا عدد قليل من أبناءها العلماء، ولهذا السبب لم نتوسع في التعريف بها، منها

(ثالثا)– أسرة ابن عمار، وهي أندلسية الأصل، اشتهر اثنان من أبناءها:

(1)– الشيخ عمار بن عبد الرحمن (ت 1144ه/1731م):

ترجم له ابن المفتي بقوله:" شيخنا سيدي عمار بن عبد الرحمن عمار (التلمساني) المستغانمي الأصل والولادة، الجزائري المنشأ والدار"، تولى الشيخ عمّار الفتوى المالكية، والخطابة بالجامع الأعظم[2].

تصاهر الشيخ عمّار مع أسرة علمية كانت تسكن مدينة الجزائر، عميدها مدفون بجبل أبي زريعة حسبما ذكر ذلك ديفولكس، وهي أسرة غنية نبيلة[3]. فزوجته ابنة سيدي هدى، وأخاها هو صهره "سيدي" محمد بن سيدي هدى[4] الذي كان نائبا للشيخ عمَّار في الخطبة، ثم تولى النيابة لمحمد بن نيغرو. وقد كان محمد بن هدى من رواة الحديث[5].

والشيخ عمار هو والد أحمد الأديب المشهور، إذ ورد ذكره في محضر لأحد المجالس العلمية المنعقد في سنة1181هـ/1767م، والذي حضره ابنه أحمد بن عمار بصفته مفتي المالكية ما يلي:" الإمام أبو العباس السيد الحاج أحمد مفتي السادة المالكية في **التاريخ** – صانه

---

[1] – س. م. ش. ع: 119/ 120، و: 20.

[2]– ابن المفتي، تقاييد ابن المفتي، ص: 108، 109.

[3]– أبو القاسم سعدالله، رسائل في التراث والثقافة، ص، ص:93، 166.

[4]– ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 109.

[5]– أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص:93.

الله ورعاه- ابن المرحوم المنغمس في رحمة الحي القيوم العالم العلامة سيدي عمار مفتي السادة المالكية **كان**..."[1].

(2)- أحمد بن عمَّار (ت بعد 1205هـ/1790م):

يعد العلامة الأديب أحمد بن عمَّار المتوفى بعد سنة 1205هـ/1790م [2]، من نَوابغ الأدباء بعصره، وُصف في أحد محاضر المجلس العلمي، التي حضرها بصفته مفتيا للمالكية ب:" الإمام العالم العلامة... النحرير الفهامة الخطيب الواعظ الهمام صدر المجالس ومحيي المدارس ... الإمام أبو العباس السيد الحاج أحمد ..."[3].

أمَّا الوظائف التي تولاها ابن عمّار فأهمها وظيفة الفتوى على المذهب المالكي، التي تولاها سنة 1180هـ/ 1766م، ثم عزل، وأعيد لمنصبه في السنة نفسها، وهذه المرة احتفظ بمنصبه إلى سنة 1184هـ/ 1770م [4].

كما تصّدى ابن عمَّار للتدريس بمدينة الجزائر، وخاصة بالجامع الأعظم، فتخرج عليه ثلة من العلماء[5]. ترك ابن عمَّار عدة مؤلفات[6] أشهرها :" لواء النصر في فضلاء العصر"، والرحلة المعنونة ب" نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"[7]. وبرع ابن عمار في الأدب

---

[1]- س. م. ش، ع: 55، و: 34.

[2] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 229 ؛ تجارب في الأدب والرحلة. ص، ص:67، 68.

[3]- س. م. ش، ع: 55، و: 34.

[4]- س. م. ش، ع: 55، و: 10؛

Devoulx ;"Les Edifices Religieux, in **R**. **A**, N° : 10, Année : 1866, p, p: 375, 376.

[5] - محمد أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 92.

[6] - أبو القاسم سعد الله، إجازة ابن عمار الجزائري إلى محمد خليل المرادي الشامي، ضمن مجلة الثقافة، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، السنة الثامنة، ع: 45، جوان- جويلية 1978. ص: 48.

[7] - الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 89، 90؛ الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص، ص: 121، 122؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج2، ص: 225؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 31.

فكان كما قال أبو القاسم سعد الله " نسيج وحده في عصره"[1]، وله قصائد موشحات ومولديات.

(رابعا)– بيت ابن مبارك القلعي:

ينسب هذا البيت "لسيدي" مبارك الأندلسي الذي استقر بالقليعة، وقد كان لهذا البيت حضور ديني وصوفي كبير أكثر من الحضور العلمي، رغم أنه من البيوتات التي تولت الإفتاء المالكي بمدينة الجزائر[2]. وقد تمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، ولهذا تقربت منه السلطة لتستفيد من نفوذها الروحي.

(1)– الشيخ علي بن مبارك القلعي (ت 1040ه/ 1631م)[3]:

هو مؤسس بيت ابن مبارك، وقد جمع الشيخ بين العلم والصلاح[4]، ووصف ب:" الولي العارف، ذو الكرامات والمعارف"، ولما توفي دفن بمدينة القليعة، وضريحه مشهور بها، وهو وجهة للزوار[5].

(2)– محـــي الـــديـــــن بن "سيدي" علي بن مبارك (ت1058ه/ 1648م)[6]:

يعرفه نور الدين عبد القادر بأنه "رجل عالم صالح"[7]، غير أن اسمه ورد في بعض الوثائق خاليا من التحلية العلمية، ومنها :"... بعد أن استقر على ملك المكرم الأجل السيد محي الدين نجل الولي الصالح سيدي علي بن مبارك..." [8].

(3)– محمد بن أحمد بن سيدي مبارك (ت 1150ه/1737م):

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. ص، ص: 62، 63؛ أبو القاسم سعد الله، إجازة ابن عمار إلى محمـــد خليـــل المرادي. ص: 48 .

[2]– غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 353.

[3] –Gonzalez, Essai chronologique, p : 7.

[4]– نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 190.

[5] –Gonzalez, Essai chronologique, p : 7.

[6] –Gonzalez, Ibid. p : 11.

[7]– نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص: 191.

[8]– وثيقة خاصة ببيع أو إثبات ملكية حوش خارج القليعة. ينظر: س. م. ش، ع: 83، و: 1. وتضم هذه العلبة عقود بيع وشـــراء حوش وغيره لأولاد ابن مبارك.

وصفه معاصره ابن المفتي بقوله:" فقيه نحوي، متكلم، مُعَّبر، وَجِيه"[1]، ورغم أنّ العلاقة بينهما لم تكن على ما يرام في بعض الأحيان إلا أنه يصفه أيضا بأنه:" كان كثير النباهة والدماثة ". تولى ابن مبارك الإفتاء المالكي في 18 صفر 1144ه/1731م، ف" أصلح الخطة لوفور ذكاء عقله"، وقام بأمور الجامع أحسن قيام[2]. ظل ابن مبارك في الفتوى لمدة ست سنوات متواصلة. ولا شك في أنه تولى الإمامة الخطابة والتدريس في الجامع الأعظم كغيره من مفتي المالكية.

ومن العائلات الأندلسية المتنفذة، التي ساهمت في تنشيط الحركة الثقافية بمدينة الجزائر، عدد من العائلات التي تولت نظارة مؤسسة الحرمين الشريفين: عائلة كلاطو[3]، عائلة ابن فاضيل[4]، وابن المرابط، وعائلة ابن المقفولجي، وابن المجوز، وبوضربة. بالإضافة إلى عائلة بن عمر، وهي من العائلات الأندلسية المتنفذة، وهي الأخرى توارثت النظر على أوقاف الحرمين الشريفين[5].

---

[1]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 109.

[2]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 110.

[3]- عائلة كلاطو: من العائلات المتنفذة، احتكرت ثلاثة مجالات هي: الحدادة، العطارة والخياطة. ينظر: مهدية طيبي، نموذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17- 18م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية ووثائق الأرشيف الوطني الجزائري. ضمن مجلة الدراسات التاريخية، الصادرة عن قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر (2). ع: 14، سنة: 2012م، ص: 192.

[4] - تولى 7 من عائلة ابن فاضيل منصب وكيل أوقاف الحرمين الشريفين، أولهم محمد بن فاضل الأندلسي عام 1655م. وهي من العائلات التي كانت لها مكانة مهمة بمدينة الجزائر، وهذا لتكرر ذكرها في عقود: البيع، الشراء، الوقف. ونجد أحد أبناءها أحد الأمناء الذين حضروا اجتماع الحرف شوال عام 1112ه/ 1700م. ينظر: الشويهد، قانون أسواق، ص :128، 129؛ مهدية طيبي، المرجع السابق، ص: 191.

[5]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 77، 78؛ ولنفس المؤلفة، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص: 249.

– المبحث السادس: البيوتات والأسر العلمية ذات الأصول المحلية والعثمانية:

(أولا)– أسرة المانجلاتي:

إننا لا نأمن من العثرات في عد أبناء هذه الأسرة لشح المادة التاريخية، ولأن جل من ينتمي إلى قبيلة ببني منجلات ببلاد زواوة يعرف بالمانجلاتي[1]. وقد تولت " القضاء والإفتاء المالكي بمدينة الجزائر[2]. ويجدر التنبيه إلى أنَّ هناك مسجد بمدينة الجزائر عرف باسم إمامه وخطيبه المنجلاتي، وأحيانا بنجلاتي[3]. وقد أحصينا أربعة علماء وأدباء كل منهم يُعرف بالمانجلاتي، إلا أننا لم نتمكن من إيجاد رابط القرابة التي تجمع بين بعضهم.

(1)– أحمد المانجلاتي (القرن 11ه/17م):

هناك اثنان من هذه الأسرة يحملان اسم أحمد، وكلاهما شاعر، أحدهما عاش خلال القرن الحادي عشر للهجرة(17م)، وهو معاصر لسعيد قدورة، والثاني عاش خلال القرن الثاني عشر، وهو معاصر لأحمد بن عمار وابن علي.

وبالنسبة للشيخ أحمد المانجلاتي الذي عاش خلال القرن الحادي عشر فإننا لا نعرف الكثير من أخباره، وأهم ما نعرفه عنه أنه كان ينظم الشعر[4]، ومن قصائده تلك القصيدة التي نظمها في شيخه محمد بن علي المجاجي بعد مقتله سنة 1008هـ، ولا شك في أنَّ النهاية المأساوية لحياة أستاذه تركت أثرا عميقا في نفسه فرثاه بقصيدة، تعد من أشهر المراثي بالجزائر

---

[1]– اشتهر عدد من العلماء ممن يعرفون بالمنجلاتي من أهل بجاية خلال الفترة الوسيطة، إلا أننا لا نجازف بنسبتهم إلى الأسرة التي نترجم لها. نذكر منهم يعقوب بن يوسف الزواوي المانجلاتي (ت690ه)، وابنه محمد بن يعقوب (ت730هـ) وكلاهما من كبار العلماء. ينظر ترجمهما: الغبريني، عنوان الدراية؛ التنبكتي، نيل الابتهاج؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص:319.

[2]– غطاس، الحرف والحرفيون، مواضع متفرقة: الصفحات:77، 353، 373.

[3] – عرف مسجد مصطفى باشا بعدة أسماء في الوثائق الشرعية، بحيث كان يعرف باسم مسجد الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله الذي كان إمامه، وبعد ذلك عرف باسم مسجد باب السوق نسبة إلى موقعه عند مدخل السوق الكبير، ثم باسم مصطفى باشا الذي قام بترميمه، ثم سمي باسم إمامه المنجلاتي. ينظر: ابن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها. ص: 97.

[4] – أشعار جزائرية، ص: 133، 134.

العثمانية، رغم أنها من الشعر المتوسط في ذلك الوقت[1]. غير أن أغلب المؤرخين والدارسين ينسبونها إلى الشيخ سعيد قدورة[2]، ومن خلال أحد الأبيات نعرف أن المانجلاتي كان يتردد على الشيخ القتيل طلبا للعلم بزاويته بمجاجة بضواحي تنس. وهو قوله[3]:

لمنزله كانت تشد رحالنا فمن راكب يسعى إليه وراجل

وتنسب لمترجمنا قصيدة سياسية نظمها للتعريف بالمفتي سعيد قدورة لدى مفتي استانبول أسعد أفاندي[4]، ونعرف من ظروف هذه القصيدة أنَّ حكام الجزائر قد أبعدوا المفتي المالكي سعيد قدورة إلى استانبول لأسباب نجهلها حتى الآن. فخشي أصدقاءه من عاقبة هذا النفي، فنظم أحدهم وهو أحمد المانجلاتي هذه قصيدة، عرّف فيها مفتي إسطنبول بمقام الشيخ قدورة في الجزائر، وبأن ما اتهم به مجرد تلفيق من حاسديه. ولم يكن المانجلاتي من المرافقين لقدورة، ولكنه أرسل قصيدته مع أحد المرافقين له[5].

(2)- الشيخ أبو حفص عمر المانجلاتي (ت 1104هـ/ 1693م)[6]:

ذكر الشيخ عمر المانجلاتي في إجازته لابن زاكور اسمه هكذا: "عمر بن محمد بن عبد الرحمن[7] بن يوسف الجزائري الدار والمنشأ، المانجلاتي نسبا "[1]. وبهذا يؤكد نسبته إلى قبيلة

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 359، وإن كان المشرفي (ياقوتة النسب، مخ. ص: 33) يصفها متحدثا عن ناظمها بقوله:" فقال وأجاد في المقال".

[2] – هذه القصيدة منسوبة إلى سعيد قدورة خطأ، من طرف الكثير من المؤرخين، منهم المشرفي، وقد نقل عنه جل الدارسين ذلك كالحفناوي (تعريف الخلف، ج2، ص: 429)، ومنهم أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 359) الذي تراجع عن رأيه بعد أن اطلع على نسخة تونس من القصيدة نفسها منسوبة إلى أحمد المانجلاتي، وتأكد أن قدورة لم يعالج الشعر على هذا النحو من القوة فنسبها من جديد إلى المانجلاتي. ينظر: أبو القاسم سعد الله، في تعليق له في أشعار جزائرية لابن عمار، هامش: 1، ص: 31.

[3] – أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة، مخ. ص: 34؛ علي بنعشيط، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة. ص: 20.

[4] – ينظر هذه القصيدة في أشعار جزائرية. ص، ص: 134، 135.

[5] – لا ندر ماذا حدث لقدورة في استانبول، وكل ما نعلمه أنه رجع إلى الجزائر، وبقي بها مفتيا إلى وفاته سنة 1066هـ. ينظر: أبو القاسم سعد الله في دراسته (مقدمة تحقيق) أشعار جزائرية. ص: 18.

[6] – ترجم له الحفناوي نقلا عن نشر أزاهر البستان في كتابه تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، ص – ص: 294- 298.

[7] – أشار إليه الشيخ ابن زاكور باسم أبي حفص عمر بن محمد بن عبد المؤمن المانجلاتي. ينظر: محمد بن زاكور، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان. ص: 3.

منجلات البربرية ببلاد زواوة. ويعرفه عادل نويهض في معجمه كما يلي:" فقيه كبير، مشارك في كثير من العلوم من أهل بجاية، انتقل منها بعد سقوطها إلى مدينة الجزائر، فكان من كبار علمائها، رحل إلى المغرب وأُخِذ عنه"[2].

ويستوقفنا في هذا التعريف هو ما ذهب إليه نويهض من أن المترجم له انتقل من بجاية بعد سقوطها إلى مدينة الجزائر، نحن نعرف أن بجاية سقطت بيد الاسبان في سنة 1510م، فلعله يقصد أن أسرته، أو أحد أسلافه، سافر إلى مدينة الجزائر بعد سقوط بجاية.

وإذا كان تاريخ وفاة الشيخ عمر المانجلاتي معلوم لدينا وهو سنة 1104هـ/ 1693م[3]، فإن تاريخ مولده غير معروف بشكل دقيق، ولكنه قد يكون في العقد الثاني من القرن الحادي عشر الهجري من خلال ما ورد على لسان ابن زاكور سنة 1094هـ:" على أنه دنا من أرذل العمر واقترب، وبات من ورد الثمانين على قرب"[4].

إنَّ المادة العلمية المتوفرة لحد الآن حول هذه الشخصية لا تسعفنا في تحديد الصلة التي تجمعه بالشيخ أحمد المانجلاتي المترجم له سابقا، ولكن يغلب على الظن أنهما ينتميان إلى الأسرة نفسها، وهناك إشارات وردت في وصف ابن زاكور لشيخه المنجلاتي تدل على أنه من أسرة اشتهرت بالعلم، بحيث وصفه ب:" العلم الأشهر، والحبر الأكبر، حائز الشرفين العرضي والذاتي... هو بقية السلف، وبركة الخلف..."[5]، ويجدر التنبيه إلى أنَّ ابن زاكور لم يذكر ذلك في ترجمته للشيخ محمد بن عبد المؤمن بينما وصف الشيخ محمد قدورة بن الشيخ سعيد قدورة ب:" وارث الشرف القديم والحديث، تفرع من شجرة علم "[6].

---

[1] – ابن زاكور، المصدر نفسه، ص: 13.

[2] – نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص:318.

[3] – غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 373.

[4] – محمد بن زاكور، المصدر السابق، ص: 4.

[5] – ابن زاكور، نشر أزاهر البستان. ص، ص: 3، 4.

[6] – محمد بن زاكور، المصدر نفسه. ص: 37، 38.

أخذ الشيخ أبو حفص عمر المانجلاتي على علماء مدينة الجزائر، ولازم أكثر علماءها شُهرة وهما الشيخان: عبد الواحد الأنصاري وأبو عثمان سعيد قدورة، وقد لازم الأخير منهما مدة طويلة أخذ فيها عليه عدد من الفنون منها: الحديث، الفقه والنحو[1]. ولما ورد الشيخ الأنصاري إلى الجزائر أخذ عنه، وذلك ما ذكره هو بنفسه في إجازته لابن زاكور:" وكنت أخذت قبل قدومه بلدنا عن غيره من المشايخ من أعظمهم وأولاهم شيخ الإسلام سيدي سعيد بن إبراهيم الجزائري إمام الجامع الأعظم..." [2]. ويعد الشيخ أبو حفص عمر المانجلاتي من بين أكثر تلامذة الشيخ الأنصاري ملازمة له في الجزائر حيث لازمه " أربع عشرة سنة نهارا وليلا في غالب الأوقات " فأخذ عنه جملة من الفنون[3].

اشتهر الشيخ عمر المانجلاتي بتوليه وظيفة القضاء المالكي بمدينة الجزائر، وهي من المناصب الدينية المهمة آنذاك، كما تصدى للتدريس، ومن المتون التي كان يُدرسها لطلبته: "جمع الجوامع" للسبكي[4]، الذي كانت قراءته له تستغرق حوالي أربعة أشهر، وكانت قراءة جمع الجوامع تتم بإحضار شراحه كالمحلى[5]، وولي الدين العراقي، والكوراني، وحواشي مع بعض شراح مختصر ابن الحاجب [6].

---

[1] – ابن زاكور، المصدر نفسه. ص:11.

[2] – ابن زاكور، المصدر نفسه. ص: 11.

[3] – ابن زاكور، المصدر نفسه. ص، ص: 10، 11.

[4] – جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي المصري (ت 771هـ / 1370م): من مؤلفاته أيضا " رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، وطبقات الفقهاء الشافعية. ابن حجر، الدرر الكامنة،

ج2، ص- ص: 425- 428؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص: 283.

[5]- شرح جمع الجوامع للسبكي في الأصول لجلال الدين محمد بن أحمد بن محمد (ت 864هـ): اشتهر بالمحلى نسبة إلى المحلى ضواحي مصر. ينظر: أحمد بن القاضي، درة الحجال، ج2، ص، ص: 243، 244؛ السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص: 371.

[6] – محمد بن زاكور ، نشر أزاهر البستان، ص: 10.

ويعد الشيخ الأديب محمد بن زاكور الفاسي من أشهر تلامذة عمر المانجلاتي؛ فقد قرأ عليه في عام 1094ه/1682م ثم تقدم ابن زاكور لشيخه بقصيدة يستجيزه بها، فأجازه برواية ما رواه عن أشياخه، وكتب له بذلك[1]. ومما ورد في استجازة ابن زاكور[2]:

حبر الجزائر والدنـــيا برمتـــها من عالج العلم حتى ذاع وانتشرا

... بقية السلف الماضي ونخـــبته لكن محاسنه أزرت بمـــن غـــبرا

قاضي القضاة الذي لا شيء يعدله في عدله إذ فشا في الناس واشتهرا

وقد كان الشيخ عمر المنجلاتي يملك بستانا بفحص مدينة الجزائر، وذلك ما تشير إليه أحد الوثائق التاريخية:" ومما خلفته الهالكة عزيزة ... جميع الجنة الكاينة بفحص عين الأزرق خارج باب عزون أحد أبواب محروسة الجزائر، والمجاورة لجنة الفقيه الأجل العالم الأشمل أبو حفص السيد عمر القاضي كـــــان بمحروسة الجزائر المذكورة معها في رسم ملكيتها..." . ونص خطاب القاضي:" صح ما فيه ... الحاج محمد بن الشيخ محمد القاضي انتهت مقابلتها بأصلها المنقولة منه 1101هـــ/1689م[3]. ونستفيد من هذه الوثيقة أنه في تاريخ 1101هـــ لم يكن متوليا للقضاء لأنه وصف فيها بالقاضي كان.

(3)- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر المنجلاتي:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن القاضي سيدي عمر المانجلاتي، سجل مترجمنا اسمه في إحدى الإجازات هكذا:" وبعد فيقول عبيد الله الفقير الحقير محمد بن أحمد بن عمر المانجلاتي الشريف..." [4]. ثم ذكر إجازة شيخه عبد الرحمن بن حسن الجزائري المنشأ والدار له، ومما ورد بها:" الحمد الله؛ يقول عبيد الله سبحانه عبد الرحمن بن حسن بن حسين بن علي الحنفي: أجزت الشـــــاب المعظم أبي عبد الله محمد المكرم أحمد بن الشيخ البركة سيدي

---

[1] - محمد بن زاكور ، المصدر نفسه، ص - ص: 9- 13.

[2] - محمد بن زاكور ، المصدر نفسه، ص - ص: 5- 8.

[3] - س. م. ش. ع: 82، و: 26.

[4] - أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، تح سعد الله، ص: 172.

عمر المانجلاتي كل ما أجيز لي من مقروء ومسموع، وما تحملته من مشايخنا بأنواع التحمل كلها من علم الظاهر والباطن. وكتب الفقير المذكور أوائل شعبان سنة ثلاثة وأربعين وألف (1043هـ)" [1].

إنَّ المعلومات الواردة أعلاه مستقاة من أوراق كتبها مترجمنا بيده، وفيها ما يربك الباحث أولها إضافته لصفة « الشريف» إلى اسمه، ونحن نعلم أن قبيلة منجلات بربرية. وتاريخ الإجازة يدل كد أنه عاش خلال القرن الحادي عشر الهجري، وأنه معاصر لعمر المنجلاتي قاضي المالكية المترجم له قبله، وهذا التاريخ أيضا يربكنا كثيرا.

وقد وصف مترجمنا بما يدل على انتمائه للعلم في هذه الأسطر[2]:" انتهى ما رقمه من خط الشيخ الماهر، لابس حُلى العلم كابر عن كابر، مولانا أبي عبد الله سيدي محمد بن السيد أحمد المانجلاتي. نقلها من خط الشيخ الفاضل والعالم الكامل مولانا وعمدتنا إلى ربنا أبي عبد الله سيدي محمد المدعو بالنيكرو..." [3].

ولدينا إجازة أخرى للشيخ محمد المنجلاتي كتبها له شيخه ابن نيغرو ورد فيها بعد الديباجة :" وبعد فيقول العبد الفقير لرحمة ربه محمد بن إبراهيم بن علي النيكرو، وبه شهر، ابن أحمد بن أحمد... قد سمع مني الشـــاب الأكمل الفقيه الزكي الصالح محمد بن أحمد بن القـــاضي الأكمل سيدي عمر المانجلاتي الشريف ... علوما من معقول ومنقول ... وطلب مني الإجازة لسايره وجميع مروياتي للكتب المسطورة في الفهرسة فأذنت له أن يروي عني..." ثم أجازه" [4].

وقد وصف محمد المانجلاتي في الإجازتين بالشاب، وتضيف الإجازة الثانية بأنه: « بن أحمد بن القاضي الأكمل سيدي عمر المانجلاتي الشريف ». يغلب على الظن أن هناك خطأ

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 173.

[2]- مجموعة إجازات تعود إلى القرن 11هـ، وهو يضم 11 ورقة، وبما أن المجموع غير كامل في (رسائل في التراث والثقافة) وجد به بعض الغموض.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 174.

[4]- أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 174.

في تسجيل تاريخ الإجازة هو سنة 1043ه، لأن جده القاضي أبو حفص عمر توفى سنة 1104ه. كما أن أستاذه ومجيزه محمد بن نيغرو عاش خلال القرنين الحادي والثاني عشر الهجريين وكان حيا سنة 1118ه، ووالده إبراهيم بن نيغرو أيضا.

وإذا افترضنا أن تاريخ الإجازة صحيح، وقد وصف فيها محمد المنجلاتي بالشاب عام 1043ه. وإذا افترضنا أنه كان في العقد الثاني من عمره في سنة 1043ه، كأقل تقدير لحصوله على الإجازة، وعرفنا في الوقت نفسه أنّ عمر القاضي المالكي المعروف مولود في حوالي سنة 1016ه[1]. فيكون سن الجد 27 سنة، بينما يكون حفيده شابا حاصلا على الإجازة وهذا محال.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المراجع تترجم لعالم يحمل الاسم نفسه وهو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر المانجلاتي، وتذكر أنه كان حيا سنة 1247ه/ 1831م[2]، وسوف نترجم له فيما بعد.

(4)- الشيخ أحمد المنجلاتي (القرن 12ه/ 18م):

عاش الشيخ أحمد المنجلاتي خلال القرن الثاني عشر الهجري، وكان معاصرا لأحمد عمار الذي أشاد به في رحلته الحجازية المسماة :"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، وأورد نماذج من موشحاته وأشعاره المديحية[3]، ووصفه بقوله:" وهذا الرجل الصالح من عشاق الشمائل

المحمدية"[4]. واعتبره من المجلين في المديح النبوي، كما اعتبره ثالث اثنين في هذا الميدان، وهما البوصيري وابن الفارض. والنص الذي ذكره فيه ابن عمار هو :"والشعر القريض عندنا في هذا الغرض ما أنزره، وأقله في هذا العصر والذي قبله، ومجلي هذه الحلبة ومقدم الجماعة...

---

[1]- من خلال ما ورد على لسان ابن زاكور سنة 1094هـ:" على أنه دنا من أرذل العمر واقترب، وبات من ورد الثمانين على قرب". نشر أزاهر البستان، ص: 4.

[2]- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون. ص: 373.

[3]- من ذلك قصائده الموشحة. ينظر: أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص - ص: 28- 31.

[4] - أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. ص: 35.

وإمام الصناعة... عاشق الجناب المحمدي، ومادحه بلا معارض، ومثلث طريقتي البوصيري وابن الفارض الشيخ أبو العباس سيدي أحمد المانجلاتي"[1].

وقد كان لأحمد المانجلاتي "ديوان قصائد مولدية"[2]، ساهم بموشحاته في إثراء الجو الثقافي الاحتفالي بمناسبة المولد النبوي الشريف، وقد جرت عادة أهل الجزائر أنه إذا دخل شهر ربيع الأول انبرى أدباؤها، وشعرائها ينشؤون مولديات، وقصائد موشحة في مدحه -ﷺ- ومن قصائد أحمد المنجلاتي قوله يتشوق إلى أرض الحجاز، وزيارة الحبيب -ﷺ- ويمدحه، ويذكر مولده الشريف، مطلعها [3]:

الركب نحو الحبيب قد سارا يود شوقا إليه لو طارا

(5)- الشيخ علي بن محمد المانجلاتي:

تولى الفتوى المالكية في أواخر العهد العثماني، وبالتحديد في سنة 1239ه/1823م[4]، أي في ولاية الداي حسين، واستمر فيها لسنوات عدة[5]، ولهذا يتردد اسمه في الكثير من الوثائق العائدة إلى تلك الفترة، سيما محاضر المجلس العلمي التي حضرها بصفته مفتيا للمالكية، من ذلك مجلس علمي منعقد سنة 1241هـ/ 1825م[6]، وآخر في أوائل جمادى الثانية 1242هـ/1826م[7]، ووجد في بعض محاضر المجلس العلمي المنعقد في شوال 1243هـ/1827م[8].

---

[1] - أحمد بن عمار، المصدر نفسه، ص: 27.

[2] - أحمد بن عمار، المصدر نفسه، ص: 35.

[3]- ابن عمار، المصدر نفسه، ص: ص - ص: 31- 35.

[4] - نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 184.

[5]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 373؛ ينظر أيضا: س. م. ش. ع: 37/ 1 و: 44.

[6]- حضر علي بن محمد المانجلاتي هذا المجلس بصفته مفتيا للمالكية، إلى جانب قاضي المالكية، ومفتي الحنفية: أحمد بن إبراهيم بن أحمد، وقاضي الحنفية: السيد الحاج مفتاح الدين أفاندي. ينظر: س. م. ش. ع: 89، و: 45.

[7]- كان معاصرا ل: مفتي الحنفية محمد بن عبد الرحمن، ولقاضي الحنفية أبو عبد الله السيد محمد، ولقاضي المالكية السيد مصطفى بن السيد محمد. ينظر: س. م. ش. ع:55، و: 28.

[8] - مفتي الحنفية: الحاج أحمد بن الحاج عمر، مفتي المالكية: السيد علي بن السيد محمد المانجلاتي، قاضي الحنفية: أبو العباس السيد أحمد أفاندي بن ملا محمد. قاضي المالكية: السيد مصطفى. ينظر: س. م. ش. ع:89، و:33.

تصدى علي المنجلاتي للتدريس بمدينة الجزائر فأخذ عليه طلبتها وعلماؤها، ومن تلامذته من العلماء: محمد بن موسى المالكي الجزائري[1]، الشيخ مصطفى بن محمد بن عبد الرحمن المشتهر بالكبابطي المالكي الجزائري[2] وغيرهم.

(6)– أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر المانجلاتي:

سبق وترجمنا لشخصية تحمل الاسم نفسه، كان حيا سنة 1247ه/ 1831م، ورد في تعريفه أنه :" أديب لغوي، فقيه أصولي مشارك في عدة علوم، من أهل مدينة الجزائر، وبها نشأ وتعلم، وأصله من مدينة بجاية. له تصانيف"[3].

(7)– شخصيات علمية أخرى من أسرة المنجلاتي:

لقد تردد اسم المنجلاتي في عدد من الوثائق، من ذلك ما ورد في إحدى وثائق المحاكم الشرعية متعلقة بوقف في ربيع الأول عام 1109ه/1697م شهد عليها شاهدان أحدهما يدعى محمد بن عمر المنجلاتي[4]. ويرجح أنَّ هذان الشاهدان هما العدلان بالمحكمة، فيكون محمد المنجلاتي عدلا بالمحكمة، وهذا أمر غير مستبعد.

ومن الشخصيات التي لجأ إليها ابن المفتي من أجل كتابة تقييداته شخص اسماه ب:" ابن سيدي محمد بن عمر القاضي ابن المانقلاتي"، وهو من الذين يصفهم ابن المفتي ب" إخواننا الأصدقاء... والذين لهم خبرة بأحوال المتقدمين"[5].

– ونجد في إحدى الوثائق التاريخية، وهي عبارة عن محضر اجتماع عقد بالجامع الأعظم لإرسال الصدقات للحرمين الشريفين عام 1118هـ/1706م، وقد أرفق هذا المحضر بجدول به قائمة بأسماء بعض المستفيدين من الصدقات المبعوثة إلى الحرمين الشريفين، ومن

---

[1] – أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 193.

[2]– عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص، ص: 193، 212.

[3] – نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص:318؛ عائشة غطاس، الحرف والحرفيون. ص: 373.

[4] – س. م. ش. ع: 50، و: 58.

[5]– تقييدات ابن المفتي، ص: 101.

هؤلاء: أحمد بن الشيخ قاسم المانجلاتي[1]، وهذا كل ما استطعنا معرفته عن هذه الشخصية. ويبدو أنه من رجال العلم الجزائريين المقيمين بالحرمين الشريفين، ولذلك خصص له مبلغ من مال الصدقات الموجهة إلى فقراء البقاع المقدسة.

(ثانيا)– بيت الشريف الزهار:

بيت الشريف الزهار من بيوتات المرابطين، وهو بيت ديني بالدرجة الأولى، إذ لم ينجب علماء أعلام، كما لم يعرف أن من أبنائه من تولى مناصب علمية رفيعة، أو اشتهر كمدرس لامع، إلا أنها لم تخل من رجال العلم، والمشتغلين به حسب ثقافة ذلك العصر. تولى عدد منهم الإمامة، ومنهم من تولى نقابة الأشراف، ومنهم من ترك مؤلفات ذات قيمة كبيرة، ونعني بذلك أحمد الزهار صاحب المذكرات، الذي يبدو من خلال مذكراته صاحب ثقافة حسنة.

(1)– محمد الشريف الزهّار (ت 948هـ/ 1542م)[2]:

يعد الولي الصالح السيد: محمد بن أحمد بن عبد الله، المعروف بمحمد الشريف الزهّار، مؤسس هذا البيت، الذي يدين بالقسط الأكبر من مكانته وشهرته إلى انتمائه للأشراف [3]، ينتهي نسب الشيخ محمد إلى إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية[4]. وهو من أشهر تلامذة الشيخ الولي أحمد بن يوسف المليانى دفين مدينة مليانة. وضريحه معروف بسند الجبل بمدينة الجزائر[5].

(2)– السيد أحمد بن محمد الشريف الزهار (القرن 12ه/ 18م):

---

[1]– انعقد هذا الاجتماع بحضرة الشيخين الفقيهين المفتيين بالبلد المذكور ساعتئذ وهما: محمد بن مصطفى، وأحمد بن سعيد. ينظر: س. م. ش. ع: 82، و: 1.

[2]– تشير الكتابة الموجودة عند مدخل الضريح إلى سنة وفاته صاحبه. ينظر: ابن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها. ص: 132.

[3]– أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف. ج2، ص:464.

[4]– أحمد توفيق المدني، مقدمة تحقيقه لمذكرات الزهار، ص: 9.

[5]– نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 190.

يبدو أنه من رجال العلم، وذلك من خلال الأوصاف التي وصف بها في إحدى الوثائق التاريخية، المؤرخة بأواخر رجب سنة 1153هـ/1740م:"... المعظم الأجل الزكي الأفضل الخير الأعمل العالم الأشمل السيد أحمد الشريف ابن السيد محمد الشريف الزهار..." [1].

(3)- الحاج أحمد بن الحاج علي الزهار (ت 1289هـ/ 1872م):

ولد الحاج أحمد بن الحاج علي النقيب بمدينة الجزائر سنة 1196هـ/1781م، درس بالجزائر على يد كبار العلماء، وتولى نقابة الأشراف بعد وفاة والده، وظل على رأسها حتى الاحتلال الفرنسي، وكان في حوالي خمسين سنة من عمره عند الاحتلال الفرنسي، فساهم مدافعة المحتل، ولهذا أبعد من الجزائر سنة 1832م، فارتحل إلى تونس وفيها أخذ العلم على يد إبراهيم الرياحي، ثم عاد إلى الجزائر لينضم إلى الحاج أحمد باي بقسنطينة ويتولى الكتابة[2]، ثم يلتحق بالأمير عبد القادر ويتولى كتابة سره، وبعد انتهاء المقاومة انتقل إلى المغرب الأقصى فكان به سنة 1259هـ/1843م، ثم رجع إلى مدينة الجزائر وتسلم من جديد نقابة الأشراف، واشتغل بالتجارة في دكان استأجره، واعتكف على التأليف، إلى وفاته سنة 1289هـ/ 1872م[3].

خلف أحمد الشريف الزهار مؤلفات في التاريخ، منها القسم المنشور تحت عنوان "مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر"، وهو يتناول تاريخ الجزائر ابتداء من سنة 1168هـ/ 1754م. ويعتقد محققه أحمد توفيق المدني أن له قسما آخرا مفقود، خصصه للبيلربيات والبشوات الذين تداولوا على حكم الجزائر إلى سنة 1168هـ/1754م، وهي التي يبدأ منها الجزء المتوفر، لأنه في كتابه المتوفر يقول: " كما تقدم في أول الكتاب"[4] عن وقائع وولاة ليسوا في المذكرات.

---

[1]- س. م. ش، ع: 55، و: 20.

[2]- أحمد توفيق المدني، مقدمة تحقيقه لمذكرات الزهار، ص: 9.

[3]- أحمد توفيق المدني، مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص: 10.

[4]- أحمد شريف الزهار، مذكرات الزهار، ص: 178.

ولهذا الكتاب حسب أحمد توفيق المدني يقينا قسم آخر مفقود يتعلق بحوادث الاحتلال، ثم حوادث المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر في الغرب والحاج أحمد باي في الشرق، وأخيرا ذكر عوائد أهل مدينة الجزائر، وذكر علماء القطر وأدباءه وشعرائه، وهذا ما أشار إليه في آخر القسم المتوفر[1].

(ثالثا)– أسرة القوجيلي أو ابن أقوجيل[2]:

أَقُـــوجيل بفتح الهمزة وضم القاف المعقودة[3]، أسرة حنفية، ارتبط اسمها بمسجد الشماعين[4]، وهو مسجد صغير، أطلق عليه خلال القرن الثاني عشر الهجري اسم مسجد القجيلي من خلال وثيقة مؤرخة بسنة 1196هـ/1781م. وقد يعود ذلك إلى اسم الإمام الذي كان يقيم فيه والذي يذكر باسم ابن قجيل. ولا مجال للشك في أن حمله لاسم إمامه يدل على طول إمامته به.

وتضم أحباس هذا المسجد عشرة حوانيت، وكان آخر وكيل أشرف عليها هو السيد الطيب بن محمد بن أكجيل الذي يعود نسبه إلى أول إمام أشرف على المسجد في القرن الحادي عشر هجري[5]. فهل هذا الإمام هو محمد أقوجيل المتوفى سنة 1080هـ؟

(1)– الشيخ محمد بن علي القوجيلي (ت 1080هـ/ 1669م)[6]

تولى قضاء الحنفية بمدينة الجزائر[7]، وقد كانت له مشاركة في الحياة السياسية في عصره، فقد ترأس في سنة 1065ه/1654م وفد جزائري يضم عدد من العلماء والأعيان لمقابلة السلطان في أمر يهم المصلحة المشتركة، وخصوصا الأوضاع الداخلية المتأزمة في الجزائر

---

[1]– أحمد توفيق المدني، مقدمة تحقيقه لمذكرات الزهار، ص: 13.

[2] – يذكر أن أقجيل كلمة بربرية تعني اليتيم. ينظر: ابن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها. ص: 33.

[3] – نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 193.

[4] – يقع مسجد الشماعين على شارع باب الواد. عرف بعدة تسميات ومن خلال الوثائق الشرعية نجد أنه في سنة 1036هـ/ 1626م كان يطلق عليه مسجد الدياسين. ينظر: مصطفى بن حموش، المرجع السابق، ص: 33، ها:1.

[5] – مصطفى بن حموش، المرجع نفسه، ص: 33.

[6] – نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 193؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر ، ص: 111.

[7]– أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص– ص: 204، 205.

في عهد يوسف باشا[1]. وقد التمست البعثة من السلطان إعطاء موافقته على تعيين يوسف باشا حاكما على الجزائر[2].

كان القوجيلي محدثا وشاعر من أبرز الشعراء الجزائريين خلال القرن الحادي عشر الهجري، وله شعر في أغراض مختلفة كالمدح والغزل والرثاء والوصف. ومن بين أروع قصائده تلك التي نظمها في شيخه الشيخ عبد الواحد الأنصاري[3]، وقصيدته التي تقدم بها إلى مفتي الدولة العثمانية وشيخ الإسلام، أثناء زيارته لإسطنبول والتي أشرنا إليها من قبل.

روى القوجيلي عن الشيخ سعيد قدورة، وحصل على إجازته، وهي مفيدة جدا تذكر العلماء الذين حضروا مجلسه الذي أجاز فيه القوجيلي[4]. ولما توفي ترك بعض التآليف منها: "عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع"، وهو منظومة في مخرجي أحاديث الجامع الصحيح للبخاري[5].

(رابعا)– أسرة ابن قرواش[6]:

من أبناء هذه الأسرة محمد بن قرواش، وهو أحد الأربعة الذين كانوا ينوبون عن سعيد قدورة في الخطابة في الجامع الأعظم [7]. وقد ارتبطت هذه الأسرة بمسجد "سيدي" عبد الرحمن الثعالبي، هو مسجد صغير، مجاور لدار تسمى دار عبد الرحمن الثعالبي؛ مما يوحي أنه أخذ هذا الاسم لذلك السبب. وآخر وكلائه هو الحاج حسين بن قرواش. وقد احتفظت عائلته بهذه الوظيفة مدة قرنين أو ثلاثة[8].

---

[1]– تولى يوسف باشا عدة مرات بين سنتي: 1044– 1064ه، وقد تقرب من العلماء، وتواصل معهم مثل: علي الأنصاري، عيسى الثعالبي، يحي الشاوي، عبد الكريم الفكون، محمد البوني... إلخ.

[2]– أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 17.

[3]– أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص، ص: 122، 123.

[4]– أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، تح سعد الله، ص: 159.

[5] – عمر كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص: 500.

[6]– تكتب في الوثائق جراوش أو قراوش، وهناك من يكتبها كرواش.

[7] – Devoulx , Les Edifices Religieux, in **R.A** ,N° : 10, Année : 1866. p: 287.

ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 97.

[8] – مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، ص: 55.

(خامسا)– عائلة البرادعي:

أشار إليها منور مروش في النص التالي:" عائلة البرادعي كانت من بيوت العلم توارث أبناؤها مناصب عليا في الإفتاء والقضاء إلخ لعدة قرون "[1]، إلا أن المصادر التي اطلعنا عليها لا تسعفنا في التعريف بها.

كانت هذه بعض البيوتات والأسر التي أشارت مصادرنا إلى بعض علمائها، ولا شك أن هناك أسرا علمية أخرى جنت عليها الكتابة التاريخية، وقد أشار منور مروش إلى عدد من العائلات الكبرى – حسب تعبيره– منها :" عائلات الفهري، وابن الصخري، وبن واضح، وقرواش، وغيرها من أحفاد الثعالبي، والزهار الشريف إلخ"، والتي احتفظت " بطابعها العلمي، وباحتكار المناصب الدينية، وتملك عقارات غنية حبست عليها وتزايدت من جيل إلى جيل"[2].

– من خلال ما سبق يتبين: أن البيوتات الكبرى بدار السلطان هي: بيت قدورة، بيت ابن العنابي، وبيت ابن علي، وهي أهم بيوتات مدينة الجزائر آنذاك، لاشتهار عدد من علمائها يفوق أربعة في كل بيت، بالإضافة إلى احتكارها للوظائف الدينية العليا سيما القضاء والإفتاء لمدة طويلة من الزمن.

كما يتبين أن ما رفع هذه البيوتات هو: تحلي أبناءها بالعلم، بل إنّ منهم من اتصف بالعلم الغزير، فكان من العلماء الأعلام، بالإضافة إلى توليهم المناصب العليا. ونشير في هذا الصدد إلى أن هذه البيوتات لم تعتمد على النسب الشريف في بلوغ ما بلغته، وإنما اعتمدت على نباهة أبناءها، وعلى علاقتها الحسنة مع السلطة.

ومن خلال هذا الفصل يتبين أيضا أن بيت أبهلول المجاجي، هو أشهر البيوتات العلمية خارج مدينة الجزائر، وقد اصطبغ بالصبغة الدينية، أي أنّه بيت مرابطين، وقد أنجب العديد من العلماء ورجال العلم، إلا أنه يختلف عن بيوتات العلم بمدينة الجزائر لأن للريف

---

[1]– المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص: 347.

[2]– المنور مروش، المرجع نفسه. ج1، ص: 288.

خصوصيته، إذ لا تتوفر فيه المناصب الدينية والعلمية، ولكن أبناء بيت المجاجي قاموا بأدوار ثقافية واجتماعية مهمة للغاية من خلال زاويتهم.

ونجد أيضا أن أصول بيوتات مدينة الجزائر مختلفة، فمنهم من تنتمي إلى السكان الأصليين للمدينة، ومنهم الأندلسيين وعثمانيين (أتراك، أعلاج)...إلخ، وذلك يعود أصلا إلى التغير الجذري، الذي عرفته التركيبة الاجتماعية المنطقة مع الوجود العثماني، وكل هؤلاء ساهموا في تنشيط الحياة الثقافية بالجزائر خلال العهد المدروس.

الفصل الثاني

البيـوتات والأسر العلمية ببايليك الشرق

المبـحث الأول: بيـــت الفـــكـــون بقسنطينة

المبـحث الثاني: بيوتات علمية عريقة بقسنطينة منذ العهد الحفصي

المبـحث الثالث: بيوتات وأسر علمية متفرقة بقسنطينة

المبحـث الرابع: بيت ابن ساسي البوني بمدينة عنابة

المبحـث الخامس: البيوتات والأسر العلمية ببلاد زواوة

المبحـث السادس: البيوتات والأسر العلمية بإقليم الزيبان

كانت مدينة قسنطينة وبجاية وكذا عنابة بمثابة عواصم إقليمية بالقسم الشرقي من المغرب الأوسط التابع للدولة الحفصية[1]، إلا أن مقاطعتي قسنطينة وبجاية كانتا تتمتعان باستقلال ذاتي في تسيير شؤونهما، ولم يكن للسلطة المركزية في تونس إلا السيادة الاسمية عليهما[2].

هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الثقافية فكانت قسنطينة وبجاية أهم الحواضر العلمية بشرق المغرب الأوسط، وقد برز بها خلال تلك الفترة عدد كبير من البيوتات والأسر العلمية. كتب برنشفيك في هذا الموضوع قائلا :" ظهر اتجاه جديد أبرز مما كان في الماضي يتمثل في تكوين عائلات مشهورة من العلماء، إذ برزت في كل مدينة من المدن الثقافية الكبرى بعض السلالات من الفقهاء" [3]. واحتفظت مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني بمكانتها كعاصمة لأكبر إقليم في الجزائر وأغناه ثقافة وتحضرا[4].

وتميزت هذه المدينة طوال العهدين الحفصي والعثماني بظهور طبقة من الحضر أو البلدية، التي كان لها تأثير مباشر على الأوضاع الداخلية بالمدينة، واستطاعت العديد من عائلاتها أن تُحصل ثروات كبيرة، سيما العائلات القريبة من السلطة، أو تلك التي تشتغل بالتجارة[5]،كما حصلت تلك البيوتات على الجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة.

وقد دأبت البيوتات القسنطينة الكبرى على التنافس فيما بينها، حول النفوذ والامتيازات في المدينة منذ العهد الحفصي، والحادثة التي أوردها ابن قنفذ – وهو أحد أبناء

---

[1]– تأسست الدولة الحفصية في المغرب الأدنى في حدود سنة 625ه/ 1227م علي يد أبي زكريا يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص، وامتد نفوذها شرقا إلى طرابلس، أما حدودها الغربية فظلت متغيرة تبعا لحروبها مع بني عبد الواد، واتسعت في بعض الأحيان إلى مدينة الجزائر، وانتهى حكم الحفصيين للمنطقة على يد العثمانيين سنة 981هـ/1574م. ينظر: ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص، ص: 32، 33؛ روبير برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من نهاية القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، تر: حماد الساحلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988. ج1، ص– ص: 48– 51.

[2]– يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، تر: سامية سعيد عمار، تقديم: محفوظ قداش. الجزائر: دار النشر دحلب. طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. 2009. ص– ص: 30– 33.

[3] – روبار برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص: 331.

[4] – أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية للفكون، ص: 8.

[5]– تحتل مدينة قسنطينة موقعا استراتيجيا إذ تقع على طريق المواصلات الكبرى الرابطة بين إفريقية وبقية أنحاء بلاد المغرب. ينظر: برنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص: 419.

بيوتات قسنطينة- في كتابه " الفارسية " كاف لتأكيد تلك المنافسة، ومفادها أن الأمير الحفصي أبا زكريا [1] في آخر القرن السابع الهجري (13م) مرض مرة بقسنطينة، وبعد شفائه قدم إليه وفد من أهل بجاية للتهنئة، يرأسهم الفقيه أبو العباس الغبريني، ووفد من أهل قسنطينة برئاسة الفقيه ابن الديم، فدخل وفد بجاية وتلاه وفد قسنطينة، إلا أنَّ الوفد البجائي دخل بِوَقارٍ مع قاضيه ورئيسه، في حين دخل القسنطينيون وهم يتزاحمون مع قاضيهم كأنه واحد منهم، وكل واحد يريد أن يكون الموالي للسلطان في جلوسه، فعلَّق قاضي بجاية على ذلك قائلا لقاضي قسنطينة :"رأيت أدب أهل بلدنا معي، وأنت لا وقار لك مع أهل بلدك"، فرّد عليه هذا الأخير مبينا سبب تلك المزاحمة بقوله:" إنَّ فقهائكم مُحْدَثُون ببلدكم، وهؤلاء كل بيـــت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتهم في بلدهم وقِدَم نعمتهم"[2]. وجواب ابن الديم يؤكد ترفع البيوتاتعن بعضها بمكانتها في المدينة بأصالتها وجاهها.

كان مجتمع مدينة قسنطينة مجتمعا حضريا متماسكا، وكانت تلعب فيه العائلات الكبيرة، ولا سيما الدينية، دورا فعالا ونافذا. فهي التي تنظم العلاقات العامة، وهي التي تعين أو تبارك مشيخة المدينة، وتسهر على الأمن داخل المدينة، وتنشط الحياة الاقتصادية وتتحرك في الأزمات بطريقة جماعية منسقة...إلخ[3].

وكانت معظم العائلات في قسنطينة تعيش على التجارة والزراعة والعلم، لأن قيمة العائلة كانت في تراثها العلمي وتنشئة أبنائها عليه من حفظ القرآن الكريم إلى تولية القضاء، والفتوى والتدريس، ومن اعتناق المذاهب الصوفية إلى بناء الزوايا، وهكذا كان التراث العلمي لكل عائلة مما تعتز به وتفاخر بأنه طريقها إلى المجد والشهرة والنفوذ، وكانت التجارة هي عصب الحياة

---

[1] – حكم الأمير أبو زكريا بن الأمير أبي إسحاق بجاية وقسنطينة منذ سنة 683هـ، وكان يقسم السنة بينها، " وكان يفضل أهل قسنطينة على غيرهم، ولا يفضل عليهم إلا بعد التلطف لهم". ينظر: ابن قنفذ القسنطيني. الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: الشاذلي النيفر وعبد الحميد التركي. تونس: 1968. ص: 148.

[2] – ابن قنفذ القسنطيني، المصدر نفسه، ص، ص: 148، 149.

[3] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون- داعية السلفية. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1986. ص: 22.

فمعظم العائلات كانت تتعاطى التجارة بطريقة أو بأخرى[1].

وهكذا فرغم سلبيات المنافسة بين البيوتات القسنطينية، إلا أنها وفرت للمجتمع عدد كبير من رجال العلم من الفقهاء والأدباء، الذين اعتمد عليهم الحفصيون في الجهاز الإداري للدولة ككتاب ووزراء، وقضاة وخطباء...إلخ، واعتمد عليهم العثمانيين في الوظائف الدينية والعلمية على وجه الخصوص. وتتميز مدينة قسنطينة باحتفاظ العديد من بيوتاتها خلال العهد العثماني بأمجادها العلمية التي عرفت بها خلال العهد الحفصي، كبيت الفكون، وبيت ابن باديس، وبيت الكماد... إلخ.

وقد اشتهرت خلال العهد المدروس عدد من العائلات التي احتكرت الوظائف الإدارية والثقافية والتجارية بالمدينة مثل أسرة الفكون، وعبد المؤمن وابن باديس وابن جلول وابن عبد الجليل، واكتسبت هذه العائلات مع الزمن ملامح برجوازية محلية ناشئة[2].

أما مدينة بجاية فقد فقدت زعامتها السياسية ورصيدها الثقافي خلال الفترة الحديثة[3]، وتغير وضعها جذريا منذ تعرضها للاحتلال الإسباني في جانفي 1510م، وبقاءه بها حوالي 45 سنة، ورغم الطرد النهائي للإسبان، فإن المدينة لم تسترجع مكانتها السياسية والحضارية والثقافية طيلة العهد العثماني، ولما فر سكانها إلى المناطق المجاورة لها واستقروا بها أنشأوا بها العديد من الزوايا، التي أشرفت عليها البيوتات والأسر العلمية والدينية.

وعليه فإن وجود البيوتات والأسر العلمية ببايليك الشرق لا يقتصر على المراكز العمرانية الكبرى، بل نجد الكثير منها بالمناطق الريفية كبلاد زواوة، وخنقة سيدي ناجي وغيرها.

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون (القرن 11هـ/ 17م). ضمن أعمال ملتقى الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي. زغوان (تونس): منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات. 1988. ص: 389.

[2] – ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية. (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني). بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2000. ص، ص: 252، 253.

[3] – روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي. ج2، ص: 331.

- المبحث الأول: بيت الفـــــكون بقسنطينة

(أولا)- نسبه ومكانته:

بيت الفَكُّون بفتح الفاء، وضم الكاف المشددة[1]، وعرف في أواخر العهد العثماني ببيت ابن الفكون، وأحيانا بأخرى ببيت سيدي الشيخ، وهو من البيوتات العربية العريقة، إذ ينسب إلى قبيلة تميم العربية، والغريب أنَّ صاحب " منشور الهداية" لم يذكر هذه النسبة مع اسم أجداده وآبائه حين ترجم لهم[2].

وقد تعرض الشيخ عبد القادر بن محمد الراشدي[3] في أحد مؤلفاته " لكثير من عائلات قسنطينة وقبائلها وبيان الشريف منهم والعربي والبربري"[4]. ولعل هذا الكتاب هو كتابه المعنون ب" عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس"، وفيه توضيح لبعض أنساب عائلات قسنطينة الشهيرة، منها أسرة الفكون، حيث قال:" أولاد الفكون من فكونة قرية بأوراس أيضا، ولم يتحر لي نسبهم كمن قبلهم "[5]. وهكذا يصرح الراشدي بأنَّ أسرة الفكون ليست تميمية كما تدعي، ويتساءل أبو القاسم سعد الله عن مدى صحة دعوى الراشدي، وعن سبب إثارته الموضوع أصلا[6].

يعد بيت الفكون من البيوتات العريقة بقسنطينة، فالأجداد الأوائل لهذا البيت الذين قد يعودون إلى القرن الخامس الهجري (القرن11م)، مدفونون بقسنطينة[7]، وفي ترجمة الغبريني لأحد أسلاف هذا البيت الشيخ الشاعر أبو علي حسن بن علي المعروف بابن الفكون الذي

---

[1]- الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 251.

[2]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص- ص: 37- 39.

[3]- عبد القادر بن محمد الراشدي القسنطيني (ت 1194ه/1780م): هو من كبار الفقهاء في قسنطينة، تولى الفتوى والقضاء بقسنطينة مرارا، واتهم بالتجسيم من طرف بعض معاصريه. من مؤلفاته: رسالة في تحريم الدخان، وكتاب في عائلات قسنطينة. ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص- ص: 220- 222؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 145، 146.

[4]- الحفناوي، المرجع السابق، ص: 220.

[5]- عبد الله الحمادي، في مقدمة تحقيقه لكتاب " تحفة الإخوان في تحريم الدخان" لعبد القادر الراشدي. بيروت: دار الغـــرب الإســـلامي، (ط1)، 1997. ص: 35.

[6]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 38.

[7]- أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية للفكون، ص، ص: 7، 8.

عاش خلال القرنين السادس والسابع الهجريين أنّ " أصله من قسنطينة من ذوي بيـــــوتاتها، ومن كريم أروماتها "[1]، يؤكد هذا النص أن نشأة هذا البيت واشتهار أبناءه بالنباهة سابق بكثير على الفترة التي عاش فيها جدهم هذا.

كان بيت الفكون من البيوتات العلمية الشهيرة بقسنطينة في ظل الحفصيين، وخلال العهد العثماني تبوأ المكانة الأولى من البيوتات العريقة بقسنطينة لطول عهده بالجاه والمجد والعلم، وتعززت مترلته في ظل العثمانيين لتحالفه معهم منذ بداية وجودهم بالجزائر، فأصبحت أسرة الفكون في خدمة الدين والدولة. وحظيت بامتيازات اقتصادية ومعنوية لا حصر لها. وقد كانت من أغنى الأسر في قسنطينة تملك العقارات والأراضي، وكانت لها زاوية خاصة تطعم الفقراء وتنشر العلم، وتستقبل الضيوف من الجزائر وخارجها[2].

وظل أبناؤه خلال هذا العهد يتوارثون وظائف إمامة وخطابة الجامع الكبير، وإمارة ركب الحج ولقب شيخ الإسلام أبا عن جد، وابنا عن أب إلى احتلال قسنطينة من قبل الفرنسيين، وبالضبط سنة 1838م حين ألغت السلطات الفرنسية ذلك[3].

وجعل العثمانيون وظيفة شيخ الإسلام في قسنطينة في بيت الفكون، وذلك للدور السياسي الذي لعبه هذا البيت في الانتصار للعثمانيين من جهة، ولأهمية مدينة قسنطينة من جهة أخرى[4]. ولمشيخة الإسلام امتيازات كثيرة، وجميعها أعطيت لبيت الفكون، وعلى رأسهم عبد الكريم الفكون الحفيد[5].

وهكذا حظي بيت الفكون بالمترلة الرفيعة في ظل الحفصيين والعثمانيين، وهي الميزة التي انفرد بها هذا البيت عن غيره من بيوتات الجزائر، إذ قلما نجد بيتا حظي بهذا المجد كل هذه

---

[1]- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، (ط2)، 1979. ص: 334.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:520.

[3]- سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص، ص: 52، 55.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 394.

[5]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص: 521.

المدة الطويلة، ومعاصروهم يؤكدون على منزلتهم في مناسبات مختلفة، فهذا الشيخ أحمد المقري يشيد بهذا البيت في رسالة لأحد أشهر أبناءه، وهو الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد بقوله:" هو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أنَّ بيته شهير الجلالة، بيت بني لفكون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف..." [1].كما أشاد بهذا البيت محمد السوسي في قصيدته التي مدح فيها عبد الكريم الفكون الحفيد في قوله[2]:

ألاعـــج إلى البطحا[3] ترى البرق على دار علـــم بالعلوم تنضنض يومض

... فدار عت قدرا ومجـــدا وغيرها إلى قدرها علوا عيونا تغمـــض

(ثانيا)– علماء بيت الفكون خلال العهد الحفصي:

أنجب بيت الفكون عددا من العلماء خلال الفترة الوسيطة، وأشهر ذكرا الشيخ أبو علي حسن بن علي بن عمر الفكون (كان حيا 602ه/1205م)، وهو أيضا شاعر المغرب الأوسط في وقته، ذكره برنشفيك بقوله:" في عهد أبي زكريا برز الشاعر أبو الحسن بن الفكون الذي ينتمي إلى عائلة ماجدة من قسنطينة "[4]، وقد وصفه الغبريني بأنه من:" الأدباء الذين تُستظْرَف أخبارهم وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر"، وبأنه:" من الفضلاء النبهاء، وكان مرفعالمقدار، وله من الحظوة والاعتبار". أما ديوانه فهو " موجود بين أيدي الناس

[1]– محمد الفكون، « نوازل الفكون»، مخ، ص، ص: 509، 510؛ عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 231.

[2]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام: عبد الكريم الفكون– داعية السلفية، ص– ص: 216– 220.

[3]– البطحاء بقسنطينة هو الحي الذي كان به بيت الشيخ الفكون، ودار ابن نعمون وغيرهم، وكانت البطحاء مركزية الموقع إذ يفتح الجامع الكبير أبوابه عليها، وهي مفترق طرق بين الشط والرصيف وسوق التجار، ومختلف الفنادق والمقاهي. ينظر: فاطمة الزهراء قشي، معالم قسنطينة وأعلامها، ضمن إنسانيات، الصادرة عن مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (crask) بوهران. ع: 19– 20، جانفي– جوان: 2003. ص: 17.

[4] – روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص: 426.

ومحبوب بينهم"[1]. وللشيخ أبو علي حسن الفكون رحلة مشهورة[2] نظمها في رحلته من قسنطينة إلى مراكش [3].

وقد ذكر صاحب" منشور الهداية " اثنان من أجداده المتقدمين وهما: عبد الرحمن الفكون، ومحمد شقرون بن حليمة، فأما الأول منهما فهو مدفون بزاوية الفكون القديمة التي تنازلوا عنها لأصهارهم عائلة ابن نعمون، وقد وصفه ب:" الجد العبد الفقير إلى الله "[4]، ويريد بذلك أنه من الصالحين.

وأما الثاني منهما فهو محمد شقرون بن حليمة، وهو جد الشيخ عبد الكريم الفكون الجد، وهو دفين رحبة قسنطينة المسماة بآكدال، "وهو من الصلحاء"[5]، ويعود إليه الفضل في بناء مدرسة الأسرة التي دفن فيها الشيخ عبد الكريم الفكون الجد كما هو مبين في هذا النص:" وهي (أي المدرسة) في الأصل محدثة البناء لجده سيدي محمد شقرون دفين رحبة البلد، وكان من الصلحاء وممن عمَّر " [6].

(ثالثا)– علمـــاء بيت الفـــكون خلال العهد العثماني:

تشير المصادر إلى كوكبة من العلماء والمشتغلين بالعلم من بيت الفكون خلال العهد العثماني، وهم:

(1)– الشيخ أبو زكريا يحي بن محمد الفكون (ت941هـ/1534م):

عاش أبو زكريا يحي بن محمد الفكون بمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي، وبداية الوجود العثماني، ودرس على مشيختها، ومنهم الشيخ العواد التونسي قاضي الجماعة

---

[1]– الغبريني، عنوان الدراية، ص– ص: 334– 336.

[2]– هذه الرحلة مشهورة جدا سيما وأن صاحبها مدح الخليفة بن عبد المؤمن. وقد انتقد العبدري، بعض الكلمات الواردة بها؛ ولهذا خصص أحمد البوني مبحثا من كتابه "التعريف ببونة " ليرد انتقاده. ينظر: أبو عبد الله محمد العبدري، الرحلة المغربية. تق: سعد بوفلاقة. عناية: منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007. ص– ص: 62– 67.

[3]– ينظر هذه المنظومة. أحمد بن قاسم البوني، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تح: سعد بوفلاقة. عناية: منشورات مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، (ط1)، 2007. ص– ص: 148، 150.

[4]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 88.

[5]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 50.

[6]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 51.

بقسنطينة. ويذهب حفيده صاحب "منشور الهداية" إلى أن جده هذا "تصدّر للإفتاء في زمن مشيخة أكابر..."، وهو الذي قال في ترجمته له بأنه كان:" من العلماء المتقنين"، وممن له اليد الطولى في الفقهيات. من مؤلفات الشيخ يحي الفكون حاشية على المدونة [1]. وقد ظل أحفاده خاصة وعلماء قسنطينة عموما يعتمدون على هذه الحاشية في فتاويهم، ولهذا تكررت الإشارة إليها في "نوازل الفكون" حين استدلال العلماء بما ورد فيها، كقول بعضهم:" قال يحي الفكون في تعلقته على المدونة ..." [2]. وهذا يؤكد أهميتها، وسعة إطلاع مؤلفها.

انتقل الشيخ أبو زكريا يحي الفكون إلى تونس، فصاهر بها الشيخ حسين الزنديوي (ت945ه/1538م)، فاستخلفه هذا الأخير في إمامة جامعها الأعظم جامع الزيتونة، ثم استقل بالإمامة، وتزوج بها حفيدة الشيخ الُبرزلي، وتوفي مجاهدا في وقعة تونس الكائنة في عام أحد وأربعين قتيلا"[3] في هجوم للنصارى على تونس.

(2)- الشيخ قاسم بن يحي بن محمد الفكون (ت965هـ/1557م).

قاسم بن يحي بن محمد الفكون، وَلَدُ يحي الفكون المترجم له قبله، وأخو الشيخ عبد الكريم الفكون الجد المترجم له بعده، درس بمدينة قسنطينة، ومن أشهر مشايخه بها الشيخ الوزان، كما أخذ على علماء تونس، وكان قد " تولى إمامة جامع البلاط بتونس حين انتـــقل والده إليها به" [4].

عاد الشيخ قاسم إلى قسنطينة مسقط رأسه وأخذ يبث بها العلم، فكان بعض أعيان العلماء يحضرون مجلسه كالشيخ يحي بن سليمان الأوراسي، والشيخ الوزان[5]. وقد أشاد به صاحب "منشور الهداية" في هذا النص:" كان العم قاسم ممن فاق عصره في علم المعقول،

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 41، 42.

[2]- تم الاعتماد عليها كثيرا في النوازل. محمد الفكون، نوازل الفكون، مخ، مواضع متفرقة ينظر مثلا ، ص، ص: 97، 130.

[3]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص، ص: 42، 43.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 43.

[5]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 54.

وممن تصدى للتفسير زمن مشيخة عصره، ناهيك بهم مشيخة فيهم الشيخ الوزان، وحضره وأثنى عليه"[1].

تولى مترجمنا القضاء بقسنطينة[2] سنة 948هـ/1541هـ، وتذكر الأخبار أن هذه الوظيفة عرضت أولا على الشيخ عمر الوزان من طرف باشا الجزائر حسن آغا – الذي رد حملة شرلكان– إلا أنه اعتذر للباشا عن توليها، فقبل اعتذاره، وعين قاسم الفكون بدلا عنه[3].

وقد تولى وظيفة القضاء على الرغم من عدم استحبابها من طرف العلماء، ومنهم أخاه الشيخ عبد الكريم الفكون، حتى أنه رفض أن يدفن بجانبه، فعندما قربت وفاته سئل عن الموضع أي اختاره للدفن " فعُرض عليه الموضع الذي به أخوه سيدي قاسم فقال:" إن سيدي يعني أخوه المذكور – سامحه الله– كان قاضيا، ولا أحب الدفن هناك" [4].

ويبدو أنه لم يكن من المكثرين من التأليف، فلم يُذكر له إلا " تقييده بعض كراريس على توضيح ابن هشام"[5]، كما نجد العديد من فتاويه في " نوازل الفكون"[6]. وهو الآخر من العلماء الذين تركوا بصماتهم في الحياة العلمية بالمدينة، حيث كانت آرائه الفقهية محل احترام من قبل العلماء الذين استدلوا بها في فتاويهم. وممن استدل بآرائه الشيخ يحي المحجوب، وقد وصفه في إحدى فتاويه ب:" شيخنا العلامة سيدي قاسم الفكون رحمه الله ..." [7].

(3)– الشيخ أبو محمد عبد الكريم الفكون (الجد) (ت 988هـ/1580م):

[1] – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص، ص: 43، 44.

[2] – عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 43.

[3] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون. ص:15.

[4] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 50.

[5] – عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص، ص: 43، 44.

[6] – محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ، ص: 60.

[7] – محمد الفكون، المصدر نفسه، ص: 61.

يعد الشيخ عبد الكريم بن يحي الفكون من أبرز علماء قسنطينة في عصره، وقد جمع بين العلم والتصوف[1]، ولهذا وصفه حفيده في "منشور الهداية" بالصالح، وذكر بعض كراماته. درس على مشيخة قسنطينة، وعلى رأسهم الشيخ عمر الوزان. تولى الشيخ عبد الكريم الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم، الواقع بالبطحاء في زمن شيخه الوزان، ويقال أن شيخه هذا هو من ألزمه بها بعد امتناعه[2]، وهو أول من تولى هذه الوظائف من بيت الفكون في العهد العثماني بعد سنة 975ه/1567م، أي سنة خلع البيعة من قبل حضر قسنطينة[3].

ويصفه حفيده صاحب " منشور الهداية" بغزارة العلم، وبأنه:" كان خطيبا بليغا، أحدث خطبا على غير أسلوب المتقدمين غالبها الأحاديث النبوية لغزارة حفظه، وكثرة اطلاعه عليها"، وذهب إلى أنه "ممن يرجع إلى قوله في النوازل والأحكام"[4]، وقد قيد حفيده عددا من فتاويه في نوازله[5].

كرَّس مترجمنا الكثير من وقته للإقراء والتدريس، فكان يدرس علوما مختلفة: الفقه والرسالة والمختصر، كما كانت له دراية بعلم البيان، فكان يقرئ الشرح المطول لسعد الدين التفتزاني، وهو كتاب في البلاغة. تخرج عليه أجيال من علماء قسنطينة نذكر منهم سليمان القشي[6]. وقد كانت له زاوية خاصة تعلم العلم، وتطعم الفقراء، والمساكين وعابري السبيل[7].

تمتع الشيخ عبد الكريم الفكون الجد بمكانة مرموقة في قسنطينة، ولهذا تدخل في حل الفتنة التي حدثت بالمدينة سنة 975هـ/1567م[8]، وممَّا يدل على مكانته أيضا موقفه

---

[1] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. بوسعادة: دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، (ط1)، 2006. ص:213.

[2] – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 48.

[3] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 49.

[4] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص، ص: 47- 49.

[5] – محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ. مواضع متعددة ينظر مثلا: ص: 17، 40، 42.

[6] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص، ص: 48، 60.

[7] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:214.

[8] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 48؛ وينظر أيضا المبحث المعنون ب:" الدور السياسي لبيت الفكون".

الثابت من قضية المختاري اليهودي، الذي أسلم والتحق بشرطة الباي، وتشاجر يوما مع بعض الناس ف" تعاطى فيها جناب سيدنا محمد -ﷺ-" فسجن، واستفتي في أمره أهل الشورى، فلما أفتى الشيخ عبد الكريم الفكون بوجوب قتله، تعصب الشرطة لصاحبهم، وهددوا باعتزال الوظيفة في حال قتله، فعقد الباي مجلسا بالجامع العظم للنظر في المسألة بحضور أكابر الدولة، والقاضي والعلماء، وقال الكل بعدم قتله إلا عبد الكريم الفكون، فلما رأوه مصرا على رأيه، طلبوا منه تقييده، فأجابهم إلى ذلك، فكتبه ثم قام وقرأه عليهم، فتأثروا بما سمعوه منه، "وحكم القاضي بفتواه"[1]. وهكذا تمسك الفكون بفتواه رغم صعوبة الموقف، ثم انصياع الحاضرين لرأيه، كل هذا يدل على مكانة عبد الكريم الفكون وقوة شخصيته.

توفي عبد الكريم الفكون في شهر رجب سنة 988هـ/1580م[2]، ودفن بمدرسة الأسرة.

(4)- الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفكون (ت1045هـ/ 1632م):

هو والد عبد الكريم الفكون صاحب "منشور الهداية"، لا شك في أنه تعلم بقسنطينة على علماء أجلة، وفي مقدمتهم والده عبد الكريم المترجم له قبله، وتولى هو الآخر الخطبة والإمامة بالجامع الأعظم بعد والده، كما تصدى للتدريس[3]، "وكان فقيها صوفيا، وربما يرجع إليه في المسائل والإفتاء"، وقد قُيدت عدد من فتاويه في "نوازل الفكون"[4].

توفي " بعد رجوعه من الحج والزيارة في أواخر محرم الحرام من عام خمسة وأربعون وألف (1045ه)"، ودفن "بالمويلح[5] قلعة ما بين مكة والمدينة ومصر"[6]. وقد أصبح قبره من المزارت التي يتَبرك بها الحجاج في طريقهم إلى الحرمين الشريفين، وكان العياشي أحد

---

[1] – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص:64- 66؛ أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 16.

[2] – عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 51.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص:521.

[4] – محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ، مواضع متفرقة منها : ص، ص: 27، 39، 75.

[5] – قرية المويلح هي إحدى الفلسطينية.

[6] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص:52؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:323.

الحجاج الذين زاروه، وذلك ما أشار إليه بقوله:" قبر سيدي محمد والد الشيخ عبد الكريم الفكوني القسمطيني، وعليه بناء، وقد زرناه وتبركنا به"[1].

(5)– أبو محمد عبد الكريم بن محمد الفكون (الحفيد) (ت 1073هـ/ 1662م):

يُعَّد الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن يحي الفكون من أشهر علماء قسنطينة بل الجزائر خلال العهد المدروس، وهو أيضا " أحد كبار رجالات الطريقة الشاذلية بالجزائر"[2]. وفي عهده بلغ بيت الفكون قمة مجده الديني والدنيوي[3].

ورث مترجمنا المجد والعلم من قبل أمه وأبيه في آن واحد، بحيث كان بيت الفكون قد خطى خطوات مهمة في طريق المجد، كما كان جده لأمه " الإمام الفقيه الشريف الحسني الشيخ محمد بن قاسم" أحد العلماء البارزين في المدينة، وهو من الأشراف، ولهذا كان يشغل وظيفة مزوار الشرفاء بقسنطينة [4]، وله عدة فتاوى في "نوازل الفكون" [5].

ولد عبد الكريم الفكون بقسنطينة سنة 988ه/ 1580م[6]، وأخذ العلم بمسقط رأسه على والده، وعلى أبي زكريا يحي بن سليمان الأوراسي، ومحمد التواتي المغربي وغيرهم[7]. وقد أكثر معاصريه ومترجميه من الثناء عليه، نكتفي بما وصفه به الأفراني بأنه :" من العلماء المنتفعين بعلمهم"[8].

---

[1] – عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية للبقاع الحجازية أو ماء الموائد، تح: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 2011. ج1، ص، ص: 215، 216.

[2] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:214.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:520.

[4] – عبد الكريم بن محمد الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ص:49.

[5] – محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ، ص: 60.

[6] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 51.

[7] – عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، مواضع متفرقة؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص:522.

[8] – الإفراني، صفوة من انتشر. ص:251.

أسندت إليه الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم خلفًا لوالده الشيخ محمد عام 1045هـ/ 1635م، ثم عُهد إليه بإمارة ركب الحج[1] فظل يتولاها إلى وفاته. أمّا التدريس فتصدى له منذ صغره بإذن من والده، فكان مدرسا ناجحا في وقته[2]. وجلس للتعليم بزاوية أسرته، وبالجامع الكبير بقسنطينة، وكان يستقبل الطلبة من مدينة قسنطينة، ومن عنابة وزواوة، ومليانة ومدينة الجزائر، وما حولها غربا، وكذلك من نواحي الزيبان وغيرها[3]. فتخرج عليه عدد كبير من طلبة العلم، في علوم مختلفة كعلم الكلام (عقائد الشيخ السنوسي) والحديث الشريف وابن الحاجب، ونظرا لاشتهاره بنبوغه في علم النحو الذي أخذه منذ صغره على الشيخ التواتي المغربي (ت1031هـ/1621م)،كثر إقبال الطلبة عليه لدراسة هذا العلم وتوابعه عليه، فكان يُدّرسهم فيه ألفية ابن مالك في النحو بشرحها للمرادي، وبشرح المكودي عليها [4]. ومن أشهر تلامذة الشيخ الفكون، وأبعدهم صيتا الشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي، والشيخ يحي الشاوي المليانى[5].

ولَّما كان الفكون من علماء السنة المتصوفة فهو شاذلي زروقي، فقد كان بعض الطلبة يأخذون عنه علم التصوف (علم الباطن) كما يأخذون عنه العلم الشرعي (علم الظاهر) كتلميذه الشيخ عيسى الثعالبي الذي عرض عليه " الوظيفة الزروقية"، و"حزب البحر" لأبي الحسن الشاذلي، وكلاهما عمل يضم مبادئ الطريقتين الأصلية الشاذلية، والفرعية الزروقية، ولقّن الفكون تلميذه الثعالبي الذكر وهو كلمة الإخلاص، وألبسه الخرقة الصوفية[6].

---

[1]-Ernest mercier, " Constantine au 17e siècle,(élévation de la famille el fagoun) ". Extrait du recueil des notice et Mémoire de la société archéologique de Constantine . volume : XIX, Année : 1878. Constantine : Typographie L. Arnolet AD Braham. 1879. p : 17.

[2] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص:523.

[3] – أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لكتاب منشور الهداية للفكون، ص: 11.

[4] – الفكون، منشور الهداية، مواضع متفرقة مثلا الصفحات: 93، 94، 95، 114، 174.

[5] – تتلمذ عليه عيسى الثعالبي ويحي الشاوي بعد سنة 1045هـ/ 1635م لأنّه لم يذكرهما في "منشور الهداية " من جملة تلامذته. وقد ترك الثعالبي مروياته عن شيخه الفكون مسجلة في ثبته المسمى" كنز الرواة ". ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص- ص: 91- 93؛ محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 311.

[6] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 91؛ فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص: 108.

ويبدو أنه كان متشددا في منح الإجازات الصوفية – على الأقل في أواخر حياته–، فلما طلب منه العياشي إجازته في الطريقة الزروقية، و" الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته"، في سنة 1064هـ/1653م، اكتفى بإجابته بقوله:" إنّي أقول لك كما قال الإمام الشاذلي–رضي الله عنه– لك ما لنا من الخدمة، وعليك ما علينا من الرحمة "[1]، وقد يفسر موقفه هذا بما ألزم نفسه به في تلك الفترة، بحيث أصبح حسب العياشي في" غاية الانقباض، والانزواء عن الخلق، ومجانبة أهل الرسوم، بعدما كان يقتدى به فيها، وله في كثير منها تآليف شهد له فيها بالتقدم أهل عصره، فألقى الله في قلبه ترك ذلك، والعكوف على حضرته بالقلب والقالب، والتردد إلى الحرمين الشريفين مع كبر السن، وكان يقول إذا ذكر له شيء من هذه العلوم، قرأها لله وتركتها لله " [2].

ورغم انشغال مترجمنا بالتدريس والوظائف إلا أنه ساهم مساهمة فعالة في حركة التأليف، فخلف العديد من المصنفات[3] في مجالات مختلفة في القراءات القرآنية، والصرف، والتراجم، وغيرها. وعوّل على قلمه في تقويم اعوجاج مجتمعه، بحيث عرف الفكون بثورته على البدع والانحرافات في عصره، وعلى تجاوزات بعض مدعي العلم والتصوف، وتجلت ثورته تلك في كتابيه :"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"[4]، و"محدد السنان في نحور إخوان الدخان" [5].

ويعد مؤلفه الأول" منشور الهداية" من أبرز مؤلفاته، ونظرا لما يحتويه هذا الكتاب من نقد لبعض المعاصرين له فقد جلب إليه نقمة البعض[6]. فأما سبب تأليفه للكتاب الثاني فأشار إليه بقوله:" فقد دهمت بلية (التدخين) وقعت في البلاد، وسرى سمها في الحاضر والباد... وتوارثته عن سفلتها الأشرار، وتدرع لارتكابها بأكابر الأغمار، لما توهموا الإباحة إنها لا

---

[1] – أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص، ص: 498.

[2] – أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص، ص: 498.

[3] – خصص أبو القاسم سعد الله، حيزا مهما لمؤلفات الفكون في كتابه: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 145- 186.

[4] – نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 254.

[5] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:522.

[6] – أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية، ص: 14.

تعمى الأبصار، ولم يزل في قلبي منها نكد، وأشهر الإنكار على الأب والولد..." [1]. وهو يجزم بتحريم التدخين بالأدلة العقلية والنقلية[2]. كما يورد آراء غيره من العلماء في هذه المسألة، وفي هذا الكتاب ينتقد

بعض التصرفات التي تصدر من الحضر بمدينته[3].

ومن مؤلفاته في علم الصرف "فتح اللطيف"، الذي ألفه سنة 1048ه/1638م[4]، وشرح أرجوزة المكودي[5]، الذي وصفه الأفراني بأنه:" في غاية الإتقان معنى وإعرابا[6]، كما وصفه العياشي بعد اطلاعه عليه بقوله:" وهو مجلد أجاد فيه غاية الإجادة، وأحسن كل الإحسان، وأعطى النقل والبحث فيه حقهما، ولم يهمل شيئا مما يقتضيه حق المشروح... وأجاد كما هو شأنه في تأليفه"[7].

ومن تآليفه :"سربال الردة" في القراءات[8]، وديوانه في مدح النبي -ﷺ- المرتب على حروف المعجم"، الذي انتهى من تأليفه سنة 1031ه/1621م[9]. و" فتح العلام في أشكل وانبهم عن الأفهام "[10]، و" الدرر في شرح مختصر الشيخ صالح أبي زيد عبد الرحمن بن صغير"[11]. وله أيضا "فتح المولى في شرح شواهد الشريف ابن يعلى"[12] على الأجرومية،

---

[1]- عبد الكريم الفكون، " محدد السنان في نحور إخوان الدخان " الجزائر: مكتبة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. تحت رقم: 707. (مسجد البرواقية). ص: 1.

[2]- الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 252؛ العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 504.

[3]- عبد الكريم الفكون، محدد السنان في نحور إخوان الدخان. مخ: ص- ص: 56- 59.

[4] - أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية، ص: 14.

[5]- عبد الرحمن بن صالح المكودي (ت807هـ): أحد أعلام النحاة بفاس. له نظم في التصريف وشرح على مقدمة ابن آجروم وغيرها. ينظر: أحمد بن القاضي، جدوة المقتبس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1974. ج2، ص: 403.

[6]- الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 251.

[7]- العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص، ص: 498، 499.

[8]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون: داعية السلفية. ص: 58.

[9]- العياشي، المصدر السابق، ج2، ص، ص: 499، 504.

[10] - محمد الفكون، نوازل الفكون، مخ، ص: 532.

[11]- عبد الكريم الفكون، محدد السنان في نحور إخوان الدخان. مخ. ص: 7.

[12] - محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ). ص: 523.

وشرح الجمل للمجرادي[1]، وكتاب في حوادث فقراء الوقت، وغير ذلك[2]. ونجد العديد من فتاويه في مخطوط "نوازل الفكون" الذي قيده ابنه محمد[3].

تواصل الشيخ عبد الكريم الفكون مع الكثير من معاصريه من العلماء سيما أبناء البيوتات العلمية، حيث كان يتراسل مع الشيخ أحمد المقري[4]، وتبادل الرسائل الإخوانية والفتاوى مع الشيخ سعيد قدورة[5]، وارتبط بعلاقة جيدة مع أبناء محمد بن علي المجاجي، وزار بونة واتصل بعلمائها ومنهم بيت ساسي البوني[6].

توفي الشيخ عبد الكريم الفكون في ذي الحجة سنة 1073هـ/ أوت 1662م[7]، عن عمر يناهز الخمس وثمانين سنة.

(6)- محمد بن عبد الكريم الفكون (ت 1114ه/1702م[8]):

لقد كفانا عبد الكريم الفكون بكتابه " منشور الهداية" مؤنة البحث عن تراجم علماء بيته خلال القرن العاشر، والنصف الأول من القرن الحادي عشر الهجريين، بل وعلماء قسنطينة في تلك الفترة، لأنه انتهى من تأليفه بين سنتي:1045 و1048هـ[9] غير أنَّ الأمر يختلف بالنسبة لما تبقى من العهد العثماني إذ لم نتمكن من تكوين صورة متكاملة عن أغلب علماء هذا البيت، ومنهم ابنه محمد بن عبد الكريم الفكون.

---

[1]- لامية الجمل لمحمد بن محمد بن محمد بن عمران الفزازي السلاوي، المعروف بالمجرادي: (ت 778هـ/1376م). ينظر: رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص: 684.

[2]- الإفراني، المصدر السابق ، ص: 252.

[3]- محمد الفكون، نوازل الفكون، مخ. مواضع متفرقة مثلا ص: 12.

[4] - نجد بعض الرسائل المتبادلة بينهما في منشور الهداية وفي نوازل الفكون (مخ)، ص: 510- 515.

[5] - محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ). ص: 99، 100.

[6]- أحمد البوني، الدرة المصونة، ص:147.

[7] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:216؛ مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 310.

[8] - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 55. نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 255.

[9] - أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية، ص: 14.

لاشك في أنه تتلمذ على والده وعلى بقية علماء قسنطينة في عهده، ثم خلف والده في إمامة الجامع الأعظم، وفي كل ما لهذه الوظيفة من امتيازات[1]. ولدينا وثيقة تثبيت محمد الفكون على وظائف أبيه عام 1074هـ/1663م من طرف إسماعيل باشا، ومما ورد فيها:" إنّ حامله المعظم الفقيه ... أبي عبد الله محمد بن المرحوم إلخ الشيخ البركة سيدي عبد الكريم الفكون ... أنعمنا عليه، وجددنا له حكم الأوامر التي بيده لإخواننا الباشوات المتقدمين قبلنا بأن يكون في موضع والده المرحوم المذكور إماما مرضيا وثقة محضيا (كذا) وخطيبا بالجامع الأعظم يصلي فيه بالناس الصلوات الخمس مواظبا (كذا) لها ومحافظا عليها وملازما لها في أوقاتها، ويخطب فيه الجمع والأعياد، ويكون جميع تصرف أحباس الجامع المذكور من على داخل البلد المذكور وخارجها على يديه يصرفها في ضروريات الجامع المذكور في زيت واستصباح وحصر..." [2].

كما خلفه في إمارة ركب الحج، بحيث خرج لأول مرة بالركب سنة 1074هـ، وقد لقيه الشيخ سالم العياشي في طرابلس في السنة المذكورة، ووصفه ب:" الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد..."، " وهو أمير ركب الجزائر وقسنطينة، وتلك النواحي على نهج أبيه، وعادته في ذلك محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة والحلم والوقار ... ولم يطلع أميرا إلا في هذه السنة، وقبل ذلك إنما كان يطلع بالركب والده-رضي الله عنه- فلما توفي قام ولده هذا مقامه في ذلك"[3].

ولدينا وثيقة التجديد لمحمد الفكون بأن يكون أميرا للركب في سنة 1075هـ، ومما ورد فيها :" إنَّ حامله المعظم الفقيه إلخ أمير ركب المسلمين، ورقاس رسول رب العالمين السيد... الحاج المبرور البركة الشيخ محمد بن المرحوم السيد الحاج عبد الكريم الفكون إلخ جددنا له بأن يكون أميرا مرضيا وثقة محضيا (كذا) وأمينا زكيا على ركب المسلمين ..." [4].

---

[1] – سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون. ص: 55.

[2]– Ernest mercier, " Constantine au 17e siècle, élévation de la famille el fagoun ", p :21.

[3] – العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 498.

[4]– Ernest mercier, Op.cit. p, p :26, 27.

وقد يطرح التساؤل كيف أنه خرج بالركب سنة 1074هـ وجدد له سنة 1075هـ، ذلك أن أمير الركب كان عليه بعد العودة من الحج أن يدخل مدينة الجزائر التي خرج منها بالركب، وهناك يتم استقباله من طرف الباشا وفق مراسيم معينة، ويعين أميرا للركب لموسم آخر.

ويظهر أنَّه طال في وظيفته كأمير للركب لأكثر من أربعين سنة[1]، ورغم أن الشيخ أحمد البوني جالسه ووصفه ب:" الشيخ البركة العالم العلم العلامة ..." [2]، إلا أنه يبدو أنّ قوته المعنوية، وتأثيره العلمي لم يكن في درجة أبيه إذ لا يعرف له تأليفا، ولم تذكر المصادر السياسية مواقف كالتي كانت لأبيه[3].

وهو الآخر تواصل مع العلماء المعاصرين له، ومنهم الشيخ أحمد بن ساسي البوني، الذي ذكره في كتابه "الدرة المصونة "[4] في الفصل المخصص ل" من دخل بونة من فضلاء قسنطينة"، وهذه بعض الأبيات التي ذكره فيها- والهاء تعود على المترجم له-[5]:

وبـــيـــنـــنا وبينه قـــرابه أربى على الأقران في النجابة

وعنده الكتب بالآلاف والمجد تالد بلا خلاف

أمير أركاب إلى الرسول سيدنا محـــمد ذي السّـــؤل

ورغم أننا لا نعرف له تأليفا إلا أنه كان حريصا على حفظ مآثر أسلافه، فاشتهر بكثرة كتبه التي ورثها عنهم، والتي عدَّها بعضهم كأحمد البوني بالآلاف، ومنها نسخه أو جمعه لفتاوى والده وغيره من العلماء المعروفة ب" نوزل الفكون". وتضم هذه النوازل فتاوى لعدد

---

[1] – سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون. ص: 55، 56، وهو نفسه الشيخ الذي وصفه أحمد برنار في " الشهب المحرقة".

[2]– أحمد البوني، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، ص، ص: 146، 147.

[3] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون. ص: 56.

[4]– من أبناء أسرة الفكون الذين أشار إليهم البوني في القصيدة المشار إليها السيد لطيف الفكون، وابنه المنور بقوله: « بســـــــــيدي لطيف الفكون* وصنـــــوه المنـــــور المصـــــون ».ينظر: أحمد البوني، الدرة المصونة، ص، ص: 97.

[5]– أحمد البوني، المصدر نفسه، ص، ص: 96، 97.

كبير من علماء مدينة قسنطينة ومدينة الجزائر[1]، وتلمسان[2]، تونس[3] ومصر[4] ممن عاشوا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، كما تضم فتاوى كعلماء القرن التاسع الهجري.

وينبغي التنبيه إلى أن هذا المخطوط على ضخامة حجمه[5] فإنه لا يضم أية نازلة لجامع النوازل أو مقيدها الشيخ محمد الفكون، مع أنَّ قراءها توحي بأنه هو مقيدها، إذ يبين صلة القرابة التي تجمعه بصاحب النازلة التي يوردها، كأن يقول:" قال الوالد – رحمه الله ورضي عنه–" [6]. فهل قام هو بجمع وتقييد هذه النوازل، أم أن والده الشيخ عبد الكريم هو الذي قام بذلك، إذ يمكن أن يكتب نسخة أخرى عنها، فلا يضف إليها نوازل جديدة، ولكنه يتصرف في عبارات التقديم لأصحاب النوازل، لتتناسب مع صلة قرابته بهم.

(7)– بدر الدين بن محمد الفكون:

خلف الشيخ بدر الدين بن محمد بن عبد الكريم الفكون والده محمد سنة 1114هـ/ 1702م في كل وظائفه، ولكن لا يُعرَف له أثر علمي ولا سياسي[7]. ولما دخل الورثيلاني قسنطينة قافلا من الحج في سنة 1181هـ/1767م التقى بأهل العلم والصلاح والفضل وغيرهم، وزار بيت الفكون وذكر بدر الدين أو ابنه في هذا النص:" وَلَدُ المحب الشيخ الفاضل الكامل سيدي بدر الدين ابن سيدي عبد الكريم الفكون أمير الركب الحجازي، فإني ذهبت إلى داره واجتمعت معه هناك" [8]، وقد كان هذا الرجل زعيم الأسرة في وقته، بحيث كان يتوقع أن يترل الورثيلاني بداره :" فقال لي وإنما لم أخرج إليك لأني ظننت أن تنـــزل بداري،

---

[1] – منها فتاوى سعيد قدورة، وأحمد بن داوود بن عمار وغيرهما . ينظر: محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ).

[2] – مثلا نوازل أحمد بن يحي الونشريسي، ينظر: محمد الفكون، المصدر نفسه، ص: 15.

[3] – منها فتاوى عيسي الغبريني الذي عاش بتونس، خلال القرن 9ه، ومحمد بن أبو الحسن الزلديوي، أبو عبد الله بن عظـــوم القـــيرواني. ينظر: محمد الفكون، المصدر نفسه، ص، ص: 70، 73، 104.

[4] – مثلا نوازل: سالم السنهوري، محمد الخرشي، علي الأجهوري. ينظر: محمد الفكون، المصدر نفسه، ص– ص: 57– 59.

[5] – تحتوي النسخة المخطوطة التي اعتمدت عليها على 588 صفحة.

[6] – محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ). ص: 12.

[7] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون. ص: 56.

[8] – الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص: 79.

فقلت: لو قدمت بأهلي لنزلت عندك، نعم أشفقت عليك لكثرة الخلق معي". فمن يقصد الورثيلاني فهل يقصد الشيخ بدر الدين، أم ابنه؟

(8)– السيد عبد الرحمن بن بدر الدين الفكون:

كان السيد عبد الرحمن بن الشيخ الفكون شيخا للبلد[1] في الفترة التي كان فيها صالح باي[2] على رأس بايليك الشرق. وورد ذكره في "سجل صالح باي للأوقاف" في عدة عقود معاوضة مع صالح باي بصفته وكيلا للزاوية الشرقية التي بها ضريح الشيخ عبد الكريم الفكون، أحد هذه العقود يعود إلى أواخر جمادى الأولى عام 1196هـ/1781م[3]، وآخر يعود إلى سنة 1202هـ/1787م ومما ورد فيه:" سيدنا صالح باي– أعزه الله تعالى– عقد معاوضة مع الفاضل الأجل الفقيه الأمثل السيد عبد الرحمن بن الشيخ البركة سيدي بدر الدين الفقون"[4].

كما كان السيد عبد الرحمن ناظرا على أوقاف الحرمين الشريفين بقسنطينة، وذلك ما يوضحه عقد معاوضة يعود إلى أواخر صفر من عام 1202هـ/1787م بين صالح باي وبعض وكلاء الأوقاف أحدهم هو عبد الرحمن بن بدر الدين الفكون، ويختص به الجزء الأول من العقد ووُصِفَ فيه ب:" الفاضل الأجل الفقيه الأمثل السيد عبد الرحمن بن الشيخ البركة سيدي بدر الدين الفقون – رحمه الله تعالى– الناظر على جانب الضعفاء والفقراء "[5].

لقد لعب عبد الرحمن الفكون دورا في الأحداث التي وقعت في قسنطينة في عهد صالح باي، وبالضبط سنة 1208هـ/1793م، وعبد الرحمن هذا هو الذي تقول الأخبار عنه أنه

---

[1]– فاطمة الزهراء قشي، مقدمة تحقيقها لكتاب سجل صالح باي للأوقاف (1185هـ– 1207هـ/1771م– 1792م). قسنطينة: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2009. ص، 11.

[2] – صالح بن مصطفى الزميرلي تولى بايا على بايليك الشرق لمدة واحد وعشرين سنة منذ سنة 1185ه/ 1771م إلى سنة 1207هـ/ 1792م، وتميز بالإقدام والمثابرة في مشاريعه السياسية والعمرانية وربما انفرد باهتمامه في التنظيم الإداري للمؤسسات. ينظر: محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة، تح: يحي بوعزيز. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009. ص – ص: 62– 65.

[3] – سجل صالح باي للأوقاف. ص، ص: 50.

[4]– المصدر نفسه، ص: 64.

[5]– المصدر نفسه، ص: 61.

سحب حمايته عن صالح باي، بجذب برنسه عنه بعد أن اتهمته السلطة المركزية بمحاولة التمرد والاستقلال، وحكمت عليه بالموت، فكان سحب البرنس عنه إيذانا بالموافقة على تنفيذ الحكم فيه[1].

(9)- الشيخ محمد الفكون:

آخر كبار فقهاء آل الفكون عند احتلال قسنطينة الشيخ محمد الفكون، الذي كان له علاقة طيبة مع الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة[2]، وتذكره الوثائق باسم سيدي الشيخ أو الشيخ الفكون. وفي الرسالة الموجهة للشيخ محمد الفكون من طرف الباشا على إثر ثورة ابن الأحرش يصفه ب:" العالم الأشهر، الخير الأنور، مأوى القليلين، وملجأ الضعفاء والمساكين، العارف بجميع العلوم، سيدي الشيخ بن الفكون"[3].

ولدينا ظهير موجه من أحمد باي في أواخر محرم 1242ه/ 1826م إلى الشيخ محمد الفكون يجدد له فيه لمحمد الفكون ليكون أميرا للركب، ويخصه فيه بعدة امتيازات معنوية ومادية، ثم يذكر أنه استحق ذلك :" لكونه إماما مرضيا وخطيبا مرشدا وواعظا محظيا بالجامع الأعظم الكائن بالبطحاء المشهورة بجده"، :" وأنه هو الناظر على الجامع المذكور، ومرافقه كالزاوية الكائنة براس الخرازين وجميع أوقافها والحزب المشهور بحزب بن حسين وأوقافه كلها بيده، وهو المستخلص لغلة أوقاف ما ذكر، ويصرفه على يده في مهمات الجامع المذكور، والزاوية ويصلح ما يحتاج إلى صلاحه ويكمل ما يخصه من الفرش والماء والزيت.. "[4]

وكان بيت الفكون في أيامه لا يزال محتفظا بمكانته محط رحال العلماء العابرين بالمدينة، بحيث نزل عندهم الشيخ أبي راس لما دخل قسنطينة، وذلك ما ذكره في النص الموالي:" ولما دخلت قسنطينة نزلت على محط رحال الأفاضل، ومنبع الفضائل والفواضل، عالم تلك الدرة

---

[1] – سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 56.

[2] – عين الحاج أحمد باي بن محمد الشريف على رأس البايليك في سنة 1241هـ/1826م، وظل يقاوم المحتل الفرنسي إلى أن تمكنوا من احتلال قسنطينة في سنة 1253م/1837م. ينظر: العنتري، فريدة منسية، ص: 90.

[3] – العنتري، المصدر نفسه، ص: 72.

[4] – Mercier, Constantine au 17e siècle, (élévation de la famille el fagoun), p, p:33, 34.

وعاملها، وصالحها وناصحها... وذروة شرفها، وبركة سلفها، وأنجب خلفها... العلامة الشيخ سيدي محمد بن الشيوخ أولي النهى والرسوخ..."[1].

ونظرا لمكانته كشيخ للبلد وخطيب للجامع الأعظم، فقد كان أول الشخصيات المذكورة في العقد الموقع بين الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة، والمؤرخ بأواخر جمادى الأولى عام 1246هـ/ نوفمبر 1830م :" هذا ظهير كريم وخطاب واضح ... قد صدر ذلك، وانبرم عندما هنالك من جانب أمير البلد المعظم... السيد الحاج أحمد باي... والعلم الجليل الخطيب الأصيل أبي عبد الله محمد شيخ البلد "[2]، ثم تسجل في العقد أسماء باقي العلماء، ويتقدمهم أصحاب الوظائف الدينية الكبرى: مفتي الحنفية، ومفتي المالكية، وقاضي المالكية، وناظر الأوقاف، وغيرهم من الأعيان.

وتجدر الملاحظة إلى أن "شيخ البلد " هي الوظيفة الإدارية، وقد كان صاحبها بمثابة رئيس البلدية في عصرنا الحالي[3]، ولهذا فإنّ المقصود بشيخ البلد " شيخ الإسلام"، وهو لقب شرفي منح لعلماء بيت الفكون من قبل العثمانيين.

ولدينا رسالة موجهة من طرف محمد بن عبد الكريم الفكون إلى الداي حسين ردا على رسالته، وهي تفيض بالولاء والاحترام للباشا، وتنم عن حنكة صاحبها، بحيث خاطبه بما يحب الحكام من الولاء والثناء، غير أنها لا تحمل تاريخا. ومن خلال الرسالة تتبين مكانة محمد الفكون، وفيها يؤكد أنه في سن متقدم بقوله:" على أني مع كبر سني مشغول بخويصة نفسي... لا أخرج من مضربي إلا لصلاة، أو مذاكرة علم "[4].

---

[1] – أبو راس الناصر، فتح الاله، ص: 98.

[2] – العنتري، فريدة منسية، ص: 137.

[3] – لمزيد التعرف على مهام شيخ البلد وصلاحياته ينظر: عائشة غطاس، النظم الإدارية المركزية، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ص: 123، 124.

[4] – جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500– 1830). الجزائر: دار الرائد للكتاب. 2010. ص، ص: 343، 344 ؛ ينظر أيضا المبحث الخاص بالدور السياسي لأسرة الفكون.

(10)– السيد حسين الفكون:

عاش السيد حسين الفكون خلال القرن 12ه/ 18م، وقد كان عدلا بالمحكمة[1]، رغم أنَّ أسلاف هذا البيت كانوا يتحفظون من الوظائف القضائية وما يتعلق بها.

– المبحث الثاني: بيوتات علمية عريقة بقسنطينة منذ العهد الحفصي

خصصنا هذا المبحث للتعريف بعلماء ثلاثة من البيوتات القسنطينة العريقة وهي: بيت ابن باديس، وبيت الكماد وبيت ابن الغربي، وهو امتداد لبيت ابن قنفد، وتشترك هذه البيوتات مع بيت الفكون في كونها من بيوتات العلمية البارزة خلال العهدين الحفصي والعثماني، إلا أنّ بيت الفكون ينفرد عنها خلال العهد المدروس بتبوئه المكانة الأولى خلال العهد المدروس.

(أولا)– بيت ابن باديس:

وصف هذا البيت من قبل صاحب "منشور الهداية" بأنه:" دار علم وصلاح"[2]. وهو أيضا أحد البيوتات الحضرية المشهورة بقسنطينة بالعلم والثراء، إلى جانب الجاه الاجتماعي والروحي خلال العهد الحفصي. واستمر بيت ابن باديس خلال العهد المدروس كأبرز البيوتات العلمية بقسنطينة، وهذا ما كان العلماء يشيرون إليه كلما ذكروا أحدهم.

وقد ذكر الفكون في ترجمة أحد علماء بيت ابن باديس ما يدل على عراقة بيته بقوله:" القاضي الخطيب أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس، وهو من بيتات قسنطينة وأشرفها... وخَلَفُ سلفٍ صالحين علماء حازوا قصب السبق في الدراية والمعرفة والولاية، ناهيك بهم من دار صلاح وعلم..."[3]. أما أحمد المقري فذكر في رحلته متحدثا عن أحد علماء هذا البيت :"وسألني سلالة الأخيار ذو البيت الشهير في الأقطار، سيدي الشيخ محمد بن باديس القسمطيني"[4].

---

[1]– فاطمة قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2007. ص: 52.

[2]– الفكون، منشور الهداية، ص: 210.

[3]– الفكون، المصدر نفسه، ص: 57.

[4]– أحمد المقري، رحلة المقري، ص: 103.

وأول حضور سجلته المصادر لأفراد هذا البيت هو ما ذكره العبدري في رحلته حين دخل قسنطينة في سنة 688هـ/ 1289م، والتقى بها بالشيخ أبي علي حسن بن القاسم بن باديس.

(أ)- علماء بيت ابن باديس خلال العهد الحفصي:

(1)- أبو علي حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني (القرن 7ه):

وصفه العبدري بقوله :" وهو شيخ من أهل العلم يذكر فقها ومسائل"، ومما يستوقفنا قول العبدري بشأن هذا العالم:"ولم أر بها من ينتمي إلى طلب، ولا من له في فن من فنون المعارف أرب، سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس" إلى أن قال:" وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتة "[1]، ولا يمكن أن يُفسر ما ذهب إليه العبدري إلا بشهرة ابن باديس العلمية، والتي غطت على معاصريه في قسنطينة.

(2)- أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني (ت787ه[2]/1385م):

ذكرت كتب التراجم عالم آخر من البيت الباديسي عاش خلال القرن 8هـ/14م، وهو يحمل نفس الاسم والكنية التي حملها الشيخ أبو علي الذي عاش خلال القرن 7هـ/13م، ولولا الفارق الزمني بينهما لما تيسر التفريق بينهما.

ومما يزيل اللبس نهائيا إشارة ابن قنفد في " الوفيات" إلى عالم آخر من أعلام هذا البيت، وهو حسن بن خلف الله ابن حسن ابن أبي القاسم ابن باديس؛ والذي أرَّخ وفاته بسنة 784هـ، قال أنّه ابن عم وابن خالة الشخصية التي نحن بصدد ترجمتها؛ والتي حملت نفس اسم وكنية شخصية القرن 7هـ/13م، مع العلم أن الاثنين كانا متعاصرين. وعليه فإن ذلك

---

[1]- أبو عبد الله محمد العبدري، الرحلة المغربية، ص: 59؛ أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه: طلاب من كلية الدعوة، بإشراف: عبد الحميد عبد الله الهرامة. طرابلس (ليبيا): منشورات كلية الدعوة الإسلامية. (ط1)، 1989. ص: 155؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 27.

[2]- أبو الحسن أحمد بن قنفد، الوفيات، تح: عادل نويهض. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، (ط4)، 1983. ص: 377؛ التنبكتي، المصدر السابق ، ص: 160؛ نويهض، المرجع السابق، ص : 27.

يقتضي أن يكون نسب مترجمنا بهذا الشكل: حسن ابن أبي القاسم بن الحسن ابن أبي القاسم بن باديس، أي أنّ الأول هو الجد والثاني هو الحفيد.

وصفه ابن الخطيب القسنطيني بقوله :" شيخنا الفقيه القاضي[1] الشهير المحدث أبو علي[2]"[3]. ولي قضاء الجماعة بتونس حاضرة الحفصين لبضعة سنين [4]. إنَّ ارتقاءه لهذا المنصب يدل على تلك المكانة والشهرة التي كان يحظى بها ابن باديس في أوساط المملكة في عصره، وإذا عرفنا أن قاضي الجماعة كان الممثل لأعلى سلطة دينية في كامل البلاد، وبأنه كان يعتبر من أبرز رجال الدولة[5]، أدركنا المكانة التي تمتع بها ابن باديس وبيته في تلك الفترة.

(3)– أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم (ت 784ه/1382م):

هو أبو علي حسن بن خلف الله بن حسن بن أبي القاسم بن ميمون بن باديس، وهو ابن عم وابن خالة أبو علي حسن المترجم له قبله، ولي الخطابة والقضاء بقسنطينة [6].

إنَّ تولى اثنان من البيت الباديسي القضاء في قسنطينة مما يوحي بأن الأسرة الباديسية كانت تستأثر بخطة القضاء في قسنطينة خلال القرن الثامن الهجري، وقد استمروا على تولي الوظائف خلال العهد العثماني، من ذلك ما ذكره الفكون :" ويقال إنه اجتمع فيهم أربعون كلهم صاحب منصب، حازوا المناصب الشرعية ببلدهم والمخزنية"[7]. ويقصد بذلك مناصب

---

[1]– من مؤلفاته: تقاييد منها شرح مختصر ابن فارس في السيرة، شرح لكتاب أوجز السير لخير البشر لأحمد القزويني، والنفحات القدسية.ينظر: نيل الابتهاج، ص: 160؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 27.

[2]– ذكر عبد المنعم القاسمي أنه من مشايخ الطريقة القادرية، وصاحب زاوية. ينظر: أعلام التصوف في الجزائر، ص: 137.

[3]– أبو الحسن بن قنفد، الوفيات، ص: 377.

[4]– أبو عبد الله محمد الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تح: محمد ماضور. تونس: المكتبة العتيقة، (ط2)، 1966. ص – ص: 108– 110.

[5]– برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي.ج2، ص– ص: 114– 120.

[6]– أبو الحسن أحمد بن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير. تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور. الرباط 1965. ص، ص : 93،92؛ ابن قنفد، الوفيات، ص: 376 ؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 160؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 27، 28.

[7]– الفكون، منشور الهداية، ص: 57.

العلم والسياسة. وقد تداول فقهاء آل باديس خلال العهد العثماني على الإمامة والخطابة بأحد جوامع الخطبة، وهو الجامع الواقع بحي القصبة أحد الأحياء الرئيسية بقسنطينة[1].

(ب)– علماء بيت ابن باديس خلال العهد العثماني:

(1)– بركات بن أحمد بن باديس (القرن 10ه):

تشير مصادر تلك الفترة إلى اثنان من علماء هذا البيت كلاهما يحمل اسم بركات بن باديس، وقد كنا نعتقد أنهما شخص واحد لولا "نوازل الفكون" التي عرفنا من خلالها أن أحدهما هو:" الفقيه الصالح سيدي بركات بن أحمد الباديسي "[2]، الذي عاش خلال القرن 10ه، وربما عاش أيضا بداية القرن 11ه، لمعاصرته لعدد من علماء تلك الفترة، كالمفتي يحي بن محجوبة، ويحي الأوراسي، ومحمد الفكون والد صاحب منشور الهداية.

وهو من العلماء الذين تصدوا للإفتاء، إذ نجد في "نوازل الفكون" عدد من نوازله[3]، ولكن لا ندر إن كان مفتيا رسميا معين من قبل السلطة، أو أنه كان يفتي الناس بصفته أحد كبار علماء تلك الفترة.

(2)– أبو العباس أحمد حميدة بن باديس (ت969هـ/1561م):

ولي الشيخ " أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس" القضاء والخطابة[4] بجامع القصبة أحد الجوامع الكبرى بقسنطينة، وصفه صاحب "منشور الهداية" بأنه :" ممن له الرياسة والقضاء والإمامة بجامع قصبتها "[5]، وعدد من فتاويه مقيدة في "نوازل الفكون"[6].

---

[1]– فاطمة الزهراء قشي، معالم قسنطينة وأعلامها، ص: 15.

[2] – محمد الفكون، نوازل الفكون، مخ، ص: 499.

[3] – محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ). مواضع متفرقة مثلا الصفحات: 128، 180، 200، 499.

[4]– نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 27.

[5]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 57.

[6] – ذكر في إحداها :" وأجاب الإمام الخطيب المفتي السيد حميد بن باديس ...". سؤال حول شهادة الفقهاء على بعضهم (ص: 487.). وله جواب آخر وفيه نعت ب:" احميده بن باديس". (ص: 148). محمد الفكون، نوازل الفكون.

(3)– أبو زكريا يحي بن حميدة باديس:

"الفقيه أبو زكريا يحي بن الفقيه القاضي أبي العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس"، المترجم له قبله، درس على مشايخ قسنطينة في عصره كالشيخ محمد بن حسن، وعبد الكريم الفكون الجد، وكثيرا ما كان هذا الأخير يستخلفه في الصلاة والخطابة. تولى الشيخ يحي بن باديس وظائف عدة بقسنطينة، ومنها نيابة قضاء العجم، كما تولى الخطابة بجامع القصبة. وكان صديقا لجد الفكون لأمه المزوار، وتعرضا في يوم واحد لفتنة بقسنطينة وأشرفا على الهلاك من فتنة العسكر[1].

(4)– أبو عبد الله محمد بن يحي بن باديس (القرن 11ه):

هو ابن أبي زكريا يحي بن باديس المترجم له قبله، وهو من أصحاب الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد، قرأ معه على الشيخ التواتي، ولما رحل هذا الأخير قرأ على الفكون، " وهو من موثقي البلدة وممن يشار إليه"[2]. وقد شغل منصب الإمامة والخطابة، ووصف في "نوازل الفكون" ب:" الإمام العالم الخطيب السيد محمد بن باديس "[3].

وكان من المجدين بالبحث، وحين سافر لأداء فريضة الحج لقي أبو العباس أحمد المقري وحج معه تلك السنة[4]. وتذاكر معه في بعض المسائل العلمية منها أنه له قدم سؤالا منظوما في شرف الأم، فأجابه أحمد المقري نظما أيضا[5].

(5)– أبو العباس حميدة بن يحي بن باديس (القرن 11ه):

أبو العباس المدعو حميدة بن باديس، هو أخ محمد بن باديس المترجم له قبله، وهو الآخر من أصحاب الفكون وأحبابه قبل أن تتغير العلاقة بينهما، "كان أديبا أريبا "، وكان في ابتداء

---

[1]– عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص، ص:68، 69.

[2]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 209.

[3] – محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ، ص: 585.

[4]– عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 227– 228..

[5] – محمد الفكون، المصدر السابق، ص: 585، 586؛ المقري، رحلة المقري، ص: 103، 104.

أمره مخالطا للأمراء كاتبا بين أيديهم" بقسنطينة، وربما كتب بين يدي بعض أمراء قاعدة الجزائر[1]. تولى خطابة جامع القصبة بقسنطينة كأسلافه، وبعد زمن يسير ترقى للإفتاء فصار يفتي مع أبي عبد الله محمد بن نعمون، ثم استقل بالإفتاء[2].

لقد حدثت بينه وبين الشيخ أبو عبد الله محمد بن نعمون منافسة شديدة حول منصب الفتوى، ذلك أن ابن نعمون كان متوليا لهذه الوظيفة، وشاركه فيها من غير ترأس جماعة منهم أبو العباس بن باديس، و"وقعت بينهم مؤاخاة ومحالفة إلا أن دواعي الواشين فرقت بينهم، "فعزل أبو عبد الله المذكور من خطة الفتيا بعد سجنه هنيهة ورفعت يده واستقل أبو العباس وحده... ثم إن أبا عبد الله لم يزل باحثا على رده ورد أولاده، فيما يقال، وحريصا على أخذ الثأر من أبي العباس المذكور" [3]، سانده جماعة ووشوا بابن باديس لدى السلطة المركزية بمدينة الجزائر، وكتبوا سجلات ووصفوه بأمور لا يحل الوصف بها، فذهب ابن باديس إلى مدينة الجزائر، وقد أغرمه والي مدينة قسنطينة " مالا أرهقه فيه وسجنه قليلا" [4].

لا ندر ماهي التهمة الموجهة إليه، على كل نحن نعلم من خلال "منشور الهداية" أنه قد شاع عن حميدة بن باديس تعاطي الرشاوي، فكان عبد الكريم الفكون ينهاه، عن ذلك فينكر.

(6)– بركات بن عبد الرحمن بن باديس (كان حيا سنة 1107ه/1695م[5]):

الشيخ بركات بن عبد الرحمن بن باديس"[6] من أبرز الشخصيات العلمية في عصره، عاش خلال القرن الحادي عشر الهجري (17م) ولكنه أدرك أيضا القرن الثاني عشر (18م). أخذ عن مشايخ عصره وفي مقدمتهم الشيخ عبد الكريم الفكون[7]، وأخذ عنه الكثير من

---

[1]– عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 210.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 211.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 83.

[4]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 84.

[5]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 269.

[6]– تذكره المصادر التي ورد فيها عرضا باسم بركات بن باديس "رحلة ابن حمادوش"، و"ذيل بشائر أهل الإيمان"، و" ثبت البوني".

[7]– عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 126.

العلماء وطلبة العلم كالشيخ يحي الشاوي[1]، والشيخ أحمد بن قاسم البوني، الذي ينعته في ثبته ب:"شيخنا بركات بن باديس رحمه الله..." [2]، إلا أنه لم يذكر مروياته عنه في ثبته.

وقد ارتبط الشيخ بركات بعلاقة متينة ببيت البوني في عنابة، سيما قاسم البوني، وذلك ما أشار إليه أحمد البوني بن هذا الأخير متحدثا عن والده:" وقد ألف رضي الله تعالى عنه كتابه في الوعظ المسمى ب"النور الوضاح الهادي إلى الفلاح"، سأله عنه الإمام العلامة القدوة البركة الفهامة شيخنا سيدي بركات بن باديس القسنطيني فقد كانت بيني وبينه محبة شديدة وعقيدة أكيدة ومراسلات وقصائد وفتاوى"[3].

كما أخذ عنه بعض رجال العلم الوافدين إلى قسنطينة، ومنهم الشيخ أحمد بن مصطفى برناز التونسي (ت1138ه/1725م) ، ويصفه حسين خوجة ب" الشيخ المفتي بركات بن باديس"[4]، إلا أننا لا نعرف إن كان متوليا لوظيفة الإفتاء، موظفا رسميا أو لا.

ترك مترجمنا بعض التآليف، منها تأليف بعنوان :" مفتاح البشارة في فضائل الزيارة"[5]، ومن تآليفه في اللغة والنحو: كتاب قيد الشوارد في شرح الشواهد، شرح لامية الطغراني، شرح على متن الخزرجية، وشرح على ألفية ابن مالك. وكان ينظم الشعر أيضا ومن قصائده: قصيدة في التصوف "شفاء الأسقام والتوسل ببدر التمام"، وقصيدة "بضاعة الفقير في البسملة والصلاة على البشير"[6].

---

[1]- عرج يحي الشاوي في طريقه إلى الحج سنة 1074ه/1663م على مدينة قسنطينة فانتهز الشيخ بركات الفرصة ورفع إليه سؤالا منظوما حول أكل لحوم الحيوانات المصطادة بالبندقية. ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994.ج3، ص: 174.

[2]- أحمد البوني، « ثبت أحمد البوني». مخطوط في مكتبة العائلة العثمانية بزاوية طولقة. ص، ص: 37، 42.

[3]- أحمد البوني، المصدر نفسه، ص، ص:8، 9.

[4]- حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتـــوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب. ص: 231.

[5]- أبو القاسم سعد الله في تعليق له في رحلة ابن حمادوش، ها: 3، ص: 131.

[6]- عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 127.

(8)– السيد علي النوري بن السيد محمد بن باديس (القرن 12ه/ 18م):

إن المصادر الخاصة بتاريخ قسنطينة خلال القرن الثامن عشر قليلة، ولهذا لم نتمكن من معرفة علماء بيت ابن باديس خلاله، والممثل الوحيد لهذا البيت في وثائق الزواج في القرن 18م الواردة في سجلات المحاكم الشرعية بقسنطينة هو:" العدل الرضي السيد علي النوري بن السيد محمد بن باديس" وهذا يؤكد الحجم الصغير لأفراد الأسرة في كل جيل[1]. وهو من رجال العلم، إذ لم تكن تسند وظيفة العدالة إلى للفقهاء.

(ثانيا)– بيت ابـــــن الغـــــربـــي:

(أ)– نسب بيت ابن الغربي ابن قنفد فيما بعد:

بيت ابن الغربي من البيوتات العريقة بقسنطينة، أما فيما يخص أصله فيورد الفكون روايتان في كتابه "منشور الهداية" الأولى :" أنهم من بلد ميلة[2]"[3]، ثم ينسبهم مرة أخرى إلى الشيخ أبي العباس أحمد الخطيب، وذلك سياق في ترجمته للشيخ أبي الحسن الغربي (القرن 10ه) الذي تولى الإفتاء في قسنطينة غير أنه لم يكن يمتلك المؤهلات الكافية لذلك المنصب حسب الفكون:" وأخبرني جمع كثير ممن يقتدى بقوله أنه لا باع له في العلم إلا أن شهرة أسلافه أورثته المنصب المذكور، وينسبون إلى الشيخ أبي العباس أحمد الخطيب"[4].

ورغم عدم وضوح من يقصده الفكون بأبي العباس الخطيب إلا أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يرجح أن المقصود هو أحمد الخطيب المعروف بابن قنفد المتوفى سنة 810هـ

---

[1]– فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2007. ص: 115.

[2]– تبعد بأربعة فراسخ عن قسنطينة، وب32 ميلا عنها. مرمول كربخال، إفريقيا. تر: محمد حجي وآخرون. الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع. 1989. ج3، ص: 13، 14.

[3]– الفكون، منشور الهداية، ص: 40.

[4]– الفكون، منشور الهداية، ص: 56.

صاحب الوفيات[1]، لأنه ليس في قسنطينة عالم مشهور ذو صيت ونفوذ بهذا الاسم غير من ذكر. وشهرته ببيت بابن قنفد قديمة ولا يُعرَف لها سبب[2].

(ب)– علماء بيت ابن قنفد في ظل الحفصيين:

اشتغل أبناء بيت ابن قنفد خلال العهد الحفصي بالإمامة والخطابة، وقد استطعنا أن نعرف أربعة من علماءه وهم:

(1)– حسن بن علي بن ميمون بن قنفد، القسنطيني: (ت 664ه/ 1265م)

كان الفقيه حسن بن علي من أعيان قسنطينة، وهو جد والد ابن قنفد صاحب كتاب "الوفيات"، ذكره في كتابه وأثنى عليه[3].

(2)– علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفد (ت733ه/1333م):

هو جد صاحب كتاب " الوفيات"، والد والده، ولي الخطابة بجامع القصبة بقسنطينة[4] مدة تقرب من ستين سنة، كما ولي القضاء بالمدينة نفسها [5].

(3)– حسن بن علي بن حسن(ت 750ه/1349م):

هو حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفد، وهو والد صاحب كتاب "الوفيات"، فقيه، محدث، تولى هو الآخر الخطابة[6]، واشتغل بالتدريس، وذلك ما ذكره ابنه في "أنس الفقير":" ومازال والدي... مشغولا بطلب العلم وتدريسه ببلده مقتديا بسمته بطريقة أبيه وجده حتى لقي الله تعالى"[7].

(4)– أحمد بن حسن بن علي (ت 810ه/1407م):

---

[1]– أبو القاسم سعد الله في تعليق له في كتاب منشور الهداية، ص: 56، هامش: 3.

[2]– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 268.

[3]– أبو الحسن أحمد بن قنفد، الوفيات، ص : 270.

[4]– أبو العباس بن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص: 149.

[5]– ابن قنفد، الوفيات، ص:345؛ بن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، ص: 48؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 270.

[6]– ابن قنفد، الوفيات، ص: 355، 356؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 270.

[7]– أبو العباس بن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، ص: 47.

هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون الشهير بابن الخطيب، وبابن قنفد، وسبب شهرته بابن الخطيب تولي كل من جده ووالده الخطابة لمدة طويلة [1]. وهو الآخر تقلد خطة الخطابة في جامع القصبة بقسنطينة كأسلافه، كما تولى القضاء والفتيا[2]. وعكف على نشر العلم بالتدريس والتأليف إلى أن توفي، ومن تلامذته العلامة ابن مرزوق الحفيد[3].

كان ابن قنفد من العلماء البارزين، وكان متصلا اتصالا وثيقا بفرع الدولة الحفصية المنتصب في قسنطينة، وتمتع بحظوة كبيرة لديهم، ولَّما نقرأ مراسيم الاستقبال الرسمية في البلاط الحفصي بتونس، ونظام التقدم المعمول به ندرك تلك الحظوة، ومنها استقبال السلطان أبي بكر لابنه الأمير أبي عبد الله والي قسنطينة سنة 734ه/ 1334م، ومن كان" معه من وجوه من صحبه"، بحيث دخل المزوار القائد أولا، ثم دخل الفقهاء الثلاثة " القاضي والشيخ ابن القنفد والفقيه الطبيب"، ثم الكاتب، ثم بقية القواد والخواص ووجوه الفرسان"[4].

ألَّف مترجمنا في فنون شتى حتى وصفه برنشفيك بأنه:" المؤلف الذي كتب في جميع المواضيع"[5]، وهي تختلف في مواضيعها المدروسة: منها: الفارسية في مبـــادئ الدولة الحفصية"، "الوفيات" [6].

(ج)– علماء بيت ابن الغربي– ابن قنفد سابقا– خلال العهد العثماني:

أنجب هذا البيت علماء آخرين خلال العهد العثماني، وقد استطعنا أن نعرف عددت منهم، وهم:

(1)– محمد بن محمد الخطيب الغربي:

---

[1]– أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، ص: 109، 110؛ الكتاني، فهرس الفهارس، ص، ص: 973، 974.

[2] – الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 123؛ روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي. ج2، ص: 414.

[3]– نيل الابتهاج، ص: 109؛ نويهض، المرجع السابق، ص : 268.

[4] – روبار برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص: 38.

[5] – روبار برنشفيك، المرجع نفسه، ج2، ص: 355.

[6]– بلغت مؤلفاته 27 مؤلفا حسبما ذكره هو بنفسه في كتابه "الوفيات"، وعدَّها بعضهم 34 مؤلفا. ينظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 109 ؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 123. ابن مريم، البستان، ص:466؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص، ص : 268، 269.

هو محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربي الميلي القسنطيني، كما في كتابه :" الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة عمر بن الخطاب"[1]، وهو الذي ترجم له عبد الكريم الفكون في "منشور الهداية" وسماه بأبي العباس أحمد الغربي، مع أنه كان مطلعا على كتابه الافتتاح، ولذلك قال بأنه شرح:" رسالة سيدنا عمر بن الخطاب فشرحها بشرح لم يسبق إلى مثله في وصفه ضمّنه جملة من الأحكام التي قل أن توجد في مثله، وجملة من التاريخ... وكل ذلك منبئ على تبحره في العلم "[2].

عُرِّف الشيخ العالم محمد الغربي بتبحره في العلم، وله أساتذة كثيرون "من مشاهير العلماء العاملين" كما هو في فهرسته، تولى قضاء الجماعة بقسنطينة، وبعد انتقاله إلى تونس في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان[3]، تولى القضاء هناك أيضا، وكان يحضر المجلس العلمي الذي كان يعقده السلطان، وفيه تدور محاورات بين العلماء في فنون الشريعة والمواعظ والأدب[4].

ولا شك في هو القاضي الذي أصدر حكما بإبطال شهادة عدول قسنطينة على بعضهم

في سنة 946ه/1539م، وذلك لتحاسدهم عملا بفتوى الشيخ عمر الوزان، ومما ورد في تلك النازلة –والهاء تعود على العدول–:" وبعد أن تقرر ذلك من حالهم، وانتهى بينهم أشهد الآن الشيخ الفقيه الإمام الخطيب القاضي، وبالقلم الحكمي والمداد الأخضر عاقدا شهادته محـــمد بن محمد الخطـــيب الغربي قاضي الجماعة بالمدينة المشار إليها حين التاريخ...

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 132.

[2]– الفكون، منشور الهداية، ص: 40.

[3]– حكم السلطان أبو عمرو عثمان بن أبي عبد الله محمد بن أبي فارس عبد العزيز بين سنتي 839ه و894ه/ 1435– 1488م. ينظر: أبو عبد الله محمد الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الطاهر بن محمد المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1984. ص: 121 وما بعدها.

[4]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 133.

أن سجل على عدول قسنطينة بالمدينة المذكورة ألا يشهد بعضهم على بعض في شيء مما ذكر ولا تجوز شهادتهم فيه على بعضهم بعضا بوجه"[1].

وترك محمد الغربي العديد من المؤلفات منها: رسالة الافتتاح المشار إليها، وله أيضا حاشية على " المقترح" وأخرى على الإرشاد[2] وغيرها[3].

(2)- أبو الفضل بن محمد الغربي:

هو ابن محمد الغربي المترجم له قبله، والذي يسميه الفكون بأحمد الغربي، عاش خلال القرن العاشر الهجري. كان من فقهاء قسنطينة المبرزين، ولذلك يذكر الفكون أنه كان "من أهل الشورى والتصدير". تولى القضاء ولذلك وصفه ب:" قاضي الجماعة"، تعرض في آخر عمره لخبل سجن بسببه[4].

وفي "نوازل الفكون" أنه لما كان الشيخ أبي الفضل الغربي متوليا للقضاء بقسنطينة، وعاين تحاسد بعض العلماء عمل بما أفتى به عمر الوزان من إبطال شهادة بعضهم على بعض[5]، وقد أصدر هذا الحكم سنة 1005ه/1596م. وهنا نشير إلى أننا نجد في النوازل نفسها أنَّ القاضي الذي أبطل شهادة العدول على بعضهم عملا بفتوى الوزان هو محمد بن محمد الخطيب، وكلاهما تولى القضاء، فهل أعاد أبو الفضل إصدار ذلك الحكم مرة أخرى أم أن هناك التباس ما؟

(3)- أبو الحسن بن أبي الفضل الغربي:

هو أبو الحسن بن أبي الفضل بن أحمد الغربي المترجم له قبله، الفقيه المفتي، تصدر الإفتاء بمدينة قسنطينة أيام عبد الكريم الجد (ت 988ه) ودرَّس بها، وتصدى للتفسير، وكان الغالب

---

[1]- محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ)، ص، ص:475، 476.

[2]- كتاب مقترح الطلاب في الجدل والمناظرة لأبي المظفر محمد بن محمد بن سعيد البروي (ت 568هـ)، أما كتاب الإرشاد فهو لأبي المعالي عبد الملك المعروف بإمام الحرمين الجويني (ت 478هـ).

[3]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص، ص: 40، 41.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 56.

[5] - محمد الفكون، « نوازل الفكون » (مخ). ص، ص: 481، 482.

عليه فن الحساب. وهو الذي يقول الفكون بشأنه :" أخبرني جمع كثير ممن يقتدى بقوله أنه لا باع له في العلم إلا أن شهرة أسلافه أورثته المنصب المذكور"[1] أي الفتيا.

(4)– أبو عبد الله محمد القسنطيني الشهير بابن قنفد (ت 1015ه/ 1606م):

هناك رحلة تحمل عنوان "إدريسية النسب[2] في القرى والأمصار وبلاد العرب"[3] منسوبة لأحد رجال العلم بمدينة قسنطينة يحمل اسم أبو عبد الله محمد القسنطيني الشهير بابن قنفد، ومن خلال اسمه والمدينة التي ينتمي إليها فيرجح أن يكون أحد أبناء البيت الذي نترجم له. رحل محمد بن قنفد هذا إلى المشرق وأقام مدة بدمشق، ألف خلالها رحلته المشار إليها وفرغ منها سنة 1001ه/1592م، وهي خاصة بسياحته بالمغرب لزيارة الأولياء والصالحين[4].

(5)– حميدة بن حسن الغربي (ت 1030ه/1620م):

هو أبو العباس أحمد المدعو أحميدة بن حسن (أبو الحسن) بن أبي الفضل بن أحمد الغربي. تولى النيابة عن القضاة العجم[5]، وكان في منصبه هذا سنة 1005ه/1596م[6]. ثم تولى الفتوى زمن أبي زكريا ابن محجوبة وعند وفاة هذا الأخير استقل برياستها بالتصدير[7].

وبما أنَّ أغلب أخباره منقولة عن "منشور الهداية" نشير إلى أن علاقته مع عبد الكريم الفكون كانت في أول زمانه حسنة، ثم تغيرت العلاقة بينهما، وهو الذي يذهب إلى أنه كان يخدم الولاة ويواليهم، ويعطيهم الرشا، وأنه كان أمي الخطاب والكتابة، غير عارف بالهجاء،

---

[1]– الفكون، منشور الهداية، ص: 56.

[2]– هناك من يورد عنوان هذه الرحلة هكذا " إدريسية الأمصار والقرى وبلاد العرب". ينظر: محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لكتاب أنس الفقير لابن قنفد، ص: ك، هامش: 2.

[3]– توجد مخطوطة منه نسخة بالرباط والثانية بالقاهرة. ينظر: نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 270.

[4]– محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لكتاب أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفد، ص: ك، ها: 2 ؛ نويهض، السابق، ص : 270.

[5]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 77.

[6]– ورد ذكره في إحدى الوثائق المؤرخة في تلك السنة ووصف ب:" حميدة الغربي نائب القاضي"، وقد كان نائبا للقاضي أبي الفضل الغربي. ينظر: محمد الفكون، « نوازل الفكون » (مخ). ص: 481، 482.

[7]– عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 77.

وكان البعض عند صدور فتواه يقولون أن منقولة من محمد الفكون الوالد أو ابنه عبد الكريم المؤلف لشدة تعلقه بهم. ويذهب أيضا إلى أنه امتحن من الولاة كثيرا وسجن وأغرم المال المرات. ولا يذكر سببا مباشرا لذلك إلا أنه يذكر أنه تصرف في حبس مسجد أبي مصباح عبد الهادي[1]، وبأنه سافر إلى مدينة الجزائر:" وكان سفره إليها بدعوى من ولاتها لما عرض لهم به مع أهل بلده من أمور" [2]. وقد قامت العامة شاكين به لدار الإمارة، وبعد مدة من هذا الحادث توفي وحضر والد محمد الفكون وفاته[3]. توفي في شوال 1030هـ / 1620م[4].

(6)- عمار الغربي (ت1251ه/ 1835م):

سنورد ترجمة هذا العالم رغم أننا لا نستطيع أن نجزم أنه من بيت الغربي، لأن هذا الاسم منتشر بكثرة[5]. كان الشيخ أبو راشد عمار المعروف بالغربي أديبا، وشاعرا مجيدا، له الباع الطويل في المعقول والمنقول، ولي الفتوى المالكية، والخطابة بجامع سيدي علي بن مخلوف، والتدريس بمدرسة سيدي الكتاني، ثم ولي الخطابة بجامع القصبة. ألف حاشية على الشيخ الشربتجي شارح المختصر. توفي سنة 1251ه/ 1835م[6].

(ثالثا)- بيت الكماد:

يعد بيت بني الكماد من البيوتات العريقة بقسنطينة، وهو عربي «خزرجي أنصاري»[7]، وهو أيضا شهير بالشرف[8]. ولذلك كان أحد أبناءه وهو محمد بن أحمد الكماد يضيف

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 77.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 97.

[3]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص، ص: 75، 76.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 78.

[5]- فاطمة قشي، فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2007. ص: 51.

[6]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص: 285.

[7]- أشير إلى أحدهم في "نوازل الفكون" هكذا:" أبي حفص عمر الخزرجي الأنصاري الكماد شهر الوزان". ينظر: محمد الفكون، نوازل الفكون مخ، ص: 476.

[8]- يذكر الأفراني في ترجمته لمحمد الكماد بأن :" أهل بيته ينتسبون للشرف". ينظر: صفوة من انتشر، ص: 359.

إلى اسمه نسبة الحسني[1]. اشتهر بيت الكماد بالعلم خلال العهدين الحفصي والعثماني، تولى عدد من أبناءه وظائف مهمة في الدولة الحفصية كنظارة الأشغال والكتابة بالحاضرة تونس، وبمدينة قسنطينة، وكلا الوظيفتين من الوظائف الرفيعة في الدولة. أما خلال العهد العثماني فتولوا القضاء والتدريس والإفتاء بقسنطينة.

(أ)– علماء بيت الكماد في ظل الحفصيين:

(1)– إبراهيم بن عبد الكريم بن الكماد (القرن 8ه/ 14م):

هو من أعيان قسنطينة وكتابها، ولي الكتابة[2] للسلطان أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي[3] أحد كبار السلاطين الحفصيين، ولما ورد هذا السلطان إلى تونس من قسنطينة ليتولى الحكم بها سنة 772ه/1370م كان برفقته بعض أصحابه، و" من خواصه الواصلين معه أربعة" منهم " الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن أبي محمد عبد الكريم بن كماد من كبار قسنطينة"[4]، ونفس الرواية أوردها ابن قنفد وزاد عليه بوصف ابن الكماد ب:" الكاتب العاقل"[5]. والنص كما هو:" وقرَّب من خدامه الواصلين معه إلى الحضرة أربعة" وذكر منهم:" :" الكاتب العاقل أبا إسحاق إبراهيم ابن الفقيه الحظي المشرف المشكور أبي محمد عبد الكريم بن الكماد من وجوه بلدنا "[6].

وبالاستناد إلى روايتي الزركشي وابن قنفد فإن ابن كماد هذا ووالده من أعيان قسنطينة، ومن كبرائها، وأنّ والده عبد الكريم من فقهاء البلد، كما أن وصف والده ب" الحظي" تدل على مكانته من رجال الدولة.

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 427.

[2]– ذكر ليون الإفريقي بالترتيب كبار رجال الدولة العشرة التابعين للبلاط ملك تونس ومنهم الكاتب الذي يحتل المرتبة الخامسة. وليس بالضرورة أن يحتل نفس الترتيب في البلاط المحلي في بجاية وقسنطينة ولكن يدل على أهمية هذا المنصب. ينظر: برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص: 53.

[3]– ولد السلطان أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي بقسنطينة سنة 729ه، وتولى الحكم سنة 772هـ وظل به إلى وفاته سنة 796ه). ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 107.

[4]– الزركشي، المصدر نفسه، ص: 107.

[5]– ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص: 178 ؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 368.

[6]– ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص، ص: 177، 178.

(2)– الكاتب أحمد بن الكماد (القرن 8ه/ 14م):

تشير مصادر تلك الفترة إلى أن أحمد بن الكماد كان كاتبا للحفصيين بقسنطينة، وبأنه لعب دورا في الأحداث الواقعة بها، فلما تولى السلطان أبي فارس عبد العزيز بن السلطان أحمد عرش الدولة الحفصية سنة 796ه/1374م عين على قسنطينة أخاه الأمير أبا يحي أبي بكر، وكان على بونة ابن عمه الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي يحي زكريا.

فأما الأمير أبي يحي في قسنطينة فقد " اقتصر على راحته، فظهرت كلمة العرب، وفتحوا باب الطمع والطلب، وزين لهم الكاتب أحمد بن الكماد كل نوع من أنواع الفساد، ثم توجه أحمد بن الكماد مع بعض الأعراب إلى صاحب بونة الأمير أبي عبد الله بن المولى أبي يحي زكريا، وحضه على المبادرة إلى ملك قسنطينة"، فأخذ الأمير أبا عبد الله برأيهم واتجه لقسنطينة سنة 796ه، وحاصرها لأكثر من ثلاثة أشهر، إلا أن السلطان أبي فارس تغلب عليه سنة 797ه. ففر الأمير أبا عبد الله إلى فاس مُسْتَصرخا، بينما قام أبا بكر أمير قسنطينة بخلع نفسه[1]. أما أحمد بن الكماد الكاتب المدبر لهذه المؤامرة فلم تخبرنا المصادر التي أوردت هذا الخبر بأي شيء عن مصيره بعد إحباطها، فهل تراه قتل في تلك الحروب.

(3)– أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الكماد (القرن 9ه):

ذكره أبو عبد الله محمد الزركشي مرتين الأولى في أحداث عام 857ه/1453م، قائلا قدم إلى الحاضرة تونس" الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الكماد ناظرا في الأشغال بالحضرة "[2]، وذكره مرة أخرى في أحداث عام 868ه/1463م، بحيث عزل الناظر في بيت الحساب" وقدم الفقيه محمد بن الكماد بها وبدار الأشغال... "[3]. ويعد هذا المنصب

---

[1]– ابن قنفد، المصدر نفسه، ص، ص: 190، 191؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 18.

[2]– الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 148.

[3]– الزركشي، المصدر نفسه، ص: 154.

من المناصب الكبرى في الدولة، بحيث كان الناظر في الأشغال هو رئيس إدارة المالية[1]، وهو بمثابة وزير المالية [2].

(ب)– علماء بيت الكماد خلال العهد العثماني:

أنجب بيت الكماد خلال العهد العثماني عدد من العلماء ذاع صيت بعضهم في الآفاق ونعني بذلك: الشيخ أبي حفص عمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان، والشيخ محمد بن أحمد الذي هاجر إلى فاس وذاع بها صيته خلال القرن 12ه/ 18م.

(1)– الشيخ عمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان (ت965هـ/ 1557م)[3]:

هو أبو حفص عمر بن محمد الخزرجي الأنصاري الكماد المعروف بالوزان[4]، غير أن عبد الكريم الفكون وهو ابن مدينة قسنطينة يسجل اسمه في "منشور الهداية" بهذه الصورة" أبي حفص عمر الوزان"[5]، وفي صدد ترجمته لمحمد الكماد يذكر بأنه له بالوزان "نسبة قرابة كما يقال"[6]. أما في "نوازل الفكون" فلا نجد اسم الوزان إلا مقرونا بنسبته لبيت الكماد[7]، فينعته ب:" أبي حفص عمر الخزرجي الأنصاري الكماد شهر الوزان"[8]. وفي موضع آخر :" أجاب الشيخ الإمام المفتي سيدي محمد الخزرجي شهر الكماد رحمه الله ..." [9].

يعد أبو حفص عمر الوزان أبرز علماء قسنطينة في عصره، ليس كرجل علم فحسب بل اعتبره معاصروه أحد المتصوفة الكبار، ولذلك أورد الفكون بعض كراماته في كتابه "منشور الهداية" الذي افتتحه به ووصفه ب:" شيخ الزمان وياقوتة العصر والأوان، العالم

---

[1]– كان يطلق على المصالح المالية العمومية للدولة عبارة الأشغال أو الشؤون، أو أعمال أو وظائف دون أي وصف آخر. ومنذ عهد أبي فارس لم يعد صاحبها الرئيس الأعلى لإدارة المالية، ودعي بالمنفذ. ينظر: برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص:67.

[2]– روبار برنشفيك، المرجع نفسه،ج2، ص:56.

[3]– ذكر الفكون، (منشور الهداية، ص: 37) أنه توفي 965ه بينما ذكر التنبكتي (نيل الابتهاج، ص:307) أنه توفي سنة 960ه.

[4]– يرد اسمه في نيل الابتهاج للتنبكتي، ص:307 هكذا :" عمر بن محمد الكمادي الأنصاري القسنطيني".

[5]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 35.

[6]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 44.

[7]– نفس الشيء حدث للمؤرخ أبو القاسم سعد الله ففي تعليق له في منشور الهداية (ص: 44، ها: 3) قال بأن :" عائلة الكماد قريبة من عائلة الوزان. وفي حين ينسبه في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي" (ج1، ص، ص: 379، 427) إلى أسرة الكماد دون تردد.

[8] – محمد الفكون، نوازل الفكون مخ، ص: 476.

[9] – محمد الفكون، المصدر نفسه، ص: 163.

العارف بالله الرباني أبي حفص عمر الوزان... كان بحرا لا يجارى في العلوم فقهـا وأصـولا ونحوا وحديثا، وله في طريق القوم اليد الطولى" [1]، أي في التصوف. كما وصفه المنجـور بقوله:" كان هذا الرجل آية الله يبهر بها العقول في تحقيق المعقول والمنقول"[2].

لا شك في أنه كان مجانبا لمخالطة رجال السلطة، رافضا للوظائف الرسمية، بحيث اعتذر لحسن آغا باشا الجزائر عن قبول وظيفة القضاء حين عرضت عليـه، وكـان ذلـك سـنة 948ه/1541م، ويمكن أن نتساءل إن كان رفض الوزان لوظيفة القضاء إيمانه بخطورتها كما كان الأمر عند علماء السلف، أو هو تعبير عن موقف سياسي برفضه للسـلطة العثمانيـة. ويصبح السبب الثاني غير مستبعد متى عرفنا أن بيت الكماد خدم السلطة الحفصية بقسنطينة لمدة طويلة، وأن الوزان نفسه ألف كتابا للرد على المرابط عرفة القيرواني الذي ثـار علـى الحفصيين سماه " الرد على الشابية"[3].

كرَّس الوزان وقته للتدريس بمساجد قسنطينة لاسيما مسجد السيدة حفصة[4]، فكانت تشد إليه الرحال لطلبا للعلم [5]، وكثر المتخرجون عليه، وأثر في جيله بل في الأجيال اللاحقة تأثيرا كبيرا من خلال طلبته، كما فعل سعيد قدورة، ولهذا قال ارنست مارسي (Ernest mercier) بأنَّ قسنطينة حافظت على شهرتها كمركز معرفي خلال القرن العاشر الهجري (16م)، وبأن الوزان هيمن على هذه المدرسة التي تركت إرثا معرفيا لا تزال تُلمس آثاره[6]. وأخذ عنه أجلاء علماء عصره منهم: عبد الكريم الفكون الجد، ويحي بن سليمان الأوراسي، وقريبه محمد الكماد[7].

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 35.

[2]- أحمد المنجور، فهرست أحمد المنجور، تح: محمد حجي. الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976. ص، ص: 31، 32.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 382.

[4]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 257.

[5]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 380.

[6] -Ernest mercier, Histoire de Constantine, p : 208.

[7]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 383.

ومع أنه لم يكن مفتيا رسميا إلا أن فتاويه كانت محل اعتبار كبير لدى معاصريه، وبعضها مقيد في "نوازل الفكون". من مؤلفاته:" البضاعة المزجاة"، " الرد على الشبوبية" ختمه بالتصوف، حاشية على شرح صغرى السنوسي[1].

(2)– الشيخ محمد الكماد (الأب):

سبق وأن أشرنا إلى أن إحدى الصعوبات الرئيسية للبحث في موضوع الأسر وهو تكرر الاسم نفسه في الأسرة، وهذه المرة يحمل الشيخ محمد الكماد (الأب) وولديه الاسم نفسه، وكلهم اشتغلوا في مجال القضاء، ولهذا يصعب علينا أحيانا التفريق بينهم لقلة المادة العلمية.

وفي "منشور الهداية" خبر مفاده أنّ :" عسكر الجزائر (هدم) دار أولاد الكماد حين نزولهم على بلد قسنطينة بسبب شكاية وقعت بأبي عبد الله المذكور من أهل البلد[2]. ومحمد الكماد هذا إما الأب أو ابنه الذي نترجم له بعده. وفيما يخص سبب الهدم فإننا لا نعلم سببا قد يجعل العثمانيين يقدمون على ما فعلوه بدار أولاد الكماد أخطر من رفضهم للوجود العثماني بمدينتهم، وهذا أمر غير مستبعد من بيت خدم الحفصيين لمدة طويلة، وحظي لديهم بالتقدير وبالمناصب الرفيعة.

(3)– أبو عبد الله محمد الكماد بن محمد الكماد (القرن 10ه):

ورد اسمه في "نوازل الفكون" حين قيدت إحدى فتاويه:" سئل الإمام العالم العلامة سيدي أبو عبد الله بن الشيخ محمد الكماد..."[3]. كان معاصرا للشيخ قاسم الفكون (ت 965ه/ 1557م). لا ندر صلة القرابة التي تجمعه بالوزان غير أن كليهما من بيت الكماد، يذهب الفكون إلى أنه" من تلامذة الوزان، وله به نسبة قرابة كما يقال"[4]. ومما ذكره في ترجمته :"

---

[1]– التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 308؛ محمد مخلوف، شجرة النور، 283؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص : 342. عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 257.

[2]– الفكون، منشور الهداية، ص، ص:77، 78.

[3] – محمد الفكون، نوازل الفكون مخ، ص: 483.

[4]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 44.

وممن سمعنا به ورأينا بعض فتاويه، قاضي الجماعة في قسنطينة في ابتداء أمره، ثم في آخره تنوب على قضاة العجم، وكان فصيحا خطيبا "[1].

ويجدر التنبيه إلى أنه لاوجود لرتبة قاضي الجماعة في النظام القضائي العثماني، إلا أن الفكون يستعملها للدلالة على القاضي الرئيسي للمدينة. وقد ذكر الكماد في "منشور الهداية" في سياق ترجمة أبو زكريا يحي بن محمد بن محجوبة الذي حاز الفتوى في عصره إذ :" تولى القضاء ونازع فيه القاضي الكماد المذكور، وظهر عليه في آخر عمره"[2]. وقد كانت فتاوى محمد الكماد محل اعتبار لدى معاصريه[3]، لهذا قيد الفكون بعضها في نوازله[4].

(4)– أبو عبد الله محمد بن محمد الكماد:

أخ محمد الكماد المترجم له قبله، وبما أن نص الفكون في "منشور الهداية" غير واضح بما فيه الكفاية، لتكرر نفس الاسم والوظيفة نورده كما هو:" ذكرتني هذه الحكاية[5] فيما حبس عليه الشيخ الصالح (سيدي عبد الهادي) مع أولاد الكماد وهو أبو عبد الله المذكور وأخوه أبو عبد الله محمد، وكان هو أيضا نائبا عن قضاة العجم بعد والده القاضي الفقيه المذكور، وكان من عدول البلد وممن له الخطة التوثيقية، وكان أخوه أبو عبد الله المذكور ناظرا على مسجد الشيخ الصالح سيدي عبد الهادي واستغرق في قبض وجيبة رباعه وأدخل بعضها في مصالحه وغفل عن إصلاح مسجده..." [6]. أي أن محمد الكماد هذا كان يستغل أحباس مسجد سيدي عبد الهادي لصالحه.

---

[1]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 44.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 63.

[3]– كما أننا نجد الشيخ يحي المحجوب يجيب عن مسألة ويستدل بالأحكام القضائية الصادرة عن بعض قضاة قسنطينة، ومنهم محمد الكماد. ينظر: محمد الفكون، نوازل الفكون (مخ)، ص: 61.

[4] – محمد الفكون، نوازل الفكون مخ. ص: 483.

[5]– يتعلق الأمر برؤية رآها أحدهم، وهي أن الولي سيدي عبد الهادي صاحب المسجد يقول عن ناظر أوقافه بأن بيته سيهدم كما هدموا داره، ونفس الرؤية رأوها عندما أخذ ناظر الوقف محمد الكماد يستغل أوقافه.

[6]– الفكون، منشور الهداية، ص، ص:77، 78.

(5)– الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القسنطيني (ت 1116هـ/ 1704م):

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد القسنطيني الشريف الحسني المعروف بابن الكماد [1] كان "إماما نظارا حافظا للفروع والأصول"[2]. أخذ العلم عن مشايخ قسنطينة، ثم سافر إلى بلاد زواوة وأخذ عن أبي عبد الله محمد المقري، وأخذ بمدينة الجزائر عن الشيخ محمد بن عبد المؤمن[3]، والشيخ محمد بن سعيد قدورة [4].

وقد اختار محمد الكماد الهجرة إلى فاس على الدخول في المنافسات على المناصب، رغم أنَّ انتماءه إلى أسرة شهيرة بالعلم والشرف كاف لإصاله إلى أرقى المناصب الدينية والعلمية بها[5]. وقد كان له صيت كبير جدا بفاس، وظل بها إلى وفاته.

ورغم أنه "ارتحل لفاس برسم القراءة على مشايخها"، إلا أنه تصدر للإقراء منذ دخوله إليها فدرس "جمع الجوامع" للسبكي فأبدع في إقرائه، ورأى الطلبة من حفظه ما لم يكونوا يعهدوه، فكثر الازدحام عليه"[6]، وكانت له ملكة في علم الكلام والمنطق، والحفظ التام في علم الحديث والفقه وغيرها من العلوم، ولهذا " أذعن له الكافة من علماء فاس"[7]. والجدير بالذكر أنه زاحم علماء فاس بتكوينه العلمي الجزائري فقط، وفيه دلالة على متانة التعليم الذي كان يؤديه بعض العلماء الجزائريين حينئذ.

وقد شغل كرسي البخاري بجامع القرويين[8]، بالإضافة إلى تدريسه علوم مختلفة منها: التفسير والأصول، والفقه والبيان والمنطق، فتخرج عليه عدد كبير من علماء المغرب، وممَّن

---

[1]– القادري، نشر المثاني، ج3، ص: 155؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 274.

[2]– الإفراني، صفوة من انتشر. ص: 359.

[3]– محمد بن محمد بن محمد بن عبد المؤمن الحسني (ت1101هـ): قاضي المالكية بمدينة الجزائر. ينظر: نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 194.

[4]– محمد مخلوف، شجرة النور، ص: 329 .

[5]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 427.

[6]– الإفراني، المصدر السابق، ص: 360.

[7]– القادري، نشر المثاني، ج 3، ص: 155.

[8]– محمد بن عزوز، كرسي الحديث بظهر حصة العين بجامع القرويين بمدينة فاس. الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي– بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 2003. ص: 43.

أخذ عنه العديد من العلوم: الشيخ عبد الرحمان الجامعي، والشيخ محمد بن عبد السلام بناني الفاسي[1] وهو الذي ترجم له في فهرسه[2]، الموجود في رحلة ابن حمادوش، والشيخ محمد المسناوي الدلائي (ت1136ه/1723م)[3].

كانت له حظوة كبيرة عند ملوك فاس، وذلك ما يؤكده الإفراني في النص التالي:" وتوجهت عيون أرباب الدولة إليه، فارتفعت مرتبته وأجريت له المرتبات العالية، وشمله درور إحسان السلطان –نصره الله– فمن دونه"[4]. وبلغ من الحظوة عندهم حتى نظم فيه أحدهم، وهو تلميذه العالم النحوي محمد بن المولى إسماعيل (ت 1116هـ/1704م) قصيدة يمدحه فيها أيام

خلافته بسوس الأقصى منها[5]:

فمن مبلغ عني رسالة شيقٍ إلى عالم الأعلام صدر الأكابر

...إلى شيخنا أسمى السمي محمد أحملها هوج الرياح العواطر

ونظرا لانشغاله بالتدريس فلم يترك تآليف، وفي ذلك يقول معاصره القادري صاحب "نشر المثاني" :" له أجوبة حسنة في نوازل كثيرة دالة على مهارته واتساع ملكته... ولملازمته التدريس لم يتفق له التصنيف، وإلا فهو أحق به "[6]. وقد كان الكماد ينظم الشعر من ذلك تبادله قصائد المدح والثناء مع تلميذه العالم القادري صاحب "نشر المثاني"[7].

---

[1]– أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن حمدون الفاسي (ت 1163هـ/ 1749م): من مؤلفاته: شرح لامية الزقاق، وشرح الاكتفاء للكلاعي، واختصار شرح الشهاب على الشفا. القادري، نشر المثاني، ج4، ص:81؛ الكتاني، زهر الآس، ج1، ص، ص: 151، 152؛ مخلوف، شجرة النور، ص: 353.

[2]– هذا الفهرس موجود في رحلة ابن حمادوش (لسان المقال)، تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1983. ص: 41، 44 وما بعدها.

[3]– محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط2)، 1994. ج 2، ص: 10؛ محمد القادري، المصدر السابق، ج3، ص: 267.

[4]– الإفراني، صفوة من انتشر. ص: 360.

[5]– ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج4، ص: 78.

[6]– القادري، نشر المثاني، ج3، ص: 155؛ محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، ترجمة رقم: 435. ج2، ص: 35؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 274.

[7] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص، ص: 271، 272.

(6)– علماء آخرين من بيت الكماد: ومن الشخصيات العلمية المنسوبة لهذا البيت في أواخر القرن الحادي وبداية القرن الثاني عشر الهجريين: الشيخان علي الكماد، وعبد اللطيف الكماد، بحيث كانا من ضمن العلماء الذين أخذ عنهم العالم التونسي أحمد بن مصطفى برناز التونسي (1074- 1138ه) حين حط الرحال بقسنطينة [1].

– المبحث الثالث: بيوتات وأسر علمية متفرقة بمدينة قسنطينة:

(أولا) – بيت ابـــــــن نعـــــمون:

بيت ابن نعمون من البيوتات العريقة بقسنطينة، وذلك ما أكده الفكون بقوله:" وهم دار عافية، ومن بيتات قسنطينة، وشهرتهم في أسلافهم، بنسل سيدي نعمون"[2]. أما نسبهم فقد بينه عبد القادر الراشدي في كتابه " عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس" بقوله:" أولاد نعمون من توابع الحفاصة من هنتانة"[3]. وقد كانت لهم زاوية، وأصلها لأصهارهم أسرة الفكون، فلما قام أحد أسلاف بيت الفكون وهو جدهم أبو عبد الله محمد ببناء مدرسة استقلوا بها "ورفعوا أنفسهم عن الزاوية المذكورة لأصهارهم أولاد بن نعمون "[4].

(1)– أبو محمد بركات بن نعمون:

الشيخ أبو محمد بركات بن نعمون أحد فقهاء قسنطينة، وهو جد أبو عبد الله محمد بن نعمون للأب، إلا أن الفكون لم يُتحقق من اسمه، دفين الزاوية الجوفية المشتهرة بهم[5]. ويورد عبد الكريم الفكون رواية تؤكد أن الأسرة التي نحن بصدد التعريف بها أسرة علمية منذ العهد الحفصي، مفادها أن الفقيه أبو محمد بركات بن نعمون كان أميا في صغره، إذ "خرج عن طريقة أسلافه"، ولذلك وبخه الشيخ أبو زكريا الفكون، آمرا إياه بالرجوع إلى طريقة أسلافه "وحضه على القراءة، فيقال إنه تصاغر واستحى منه ورجع من حينه إلى

---

[1]– حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، ص: 231.

[2]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 80.

[3]– عبد الله الحمادي، في مقدمة تحقيقه لكتاب " تحفة الإخوان في تحريم الدخان" لعبد القادر الراشدي، ص: 35.

[4]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية ، ص: 80.

[5]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 80.

الطريق المثلى، ففتح الله عليه في الفقه والصلاح، فكان ممن يشار إليه في الصلاح ورضى الحال"[1]. ومن الأسلاف الأقدمين لهذه الأسرة من ينسب إلى الصلاح[2].

تولى الشيخ الفقيه أبو البركات بن نعمون الإمامة بالجامع الأعظم بعد انتقال الشيخ يحي الفكون إلى تونس، ولم يزل إماما به إلى أن عزل من الإمامة بعد أن " أصابه آخر أمره سلس لا يستطيع رفعه"[3].

(2)– أبو عبد الله محمد بن نعمون:

ينحدر الفقيه أبو عبد الله المدعو بكنيته ابن نعمون، من أسرتين علميتين عريقتين أسرة الفكون وأسرة ابن نعمون، فهو ابن أخت عبد الكريم الفكون الجد، وجده للأب الإمام أبو البركات ابن نعمون[4] المترجم له قبله. كان في تربية خاله عبد الكريم الفكون الجد " من جملة أولاده لكونه في حضانة جدته والدة الجد لموت والدته ووالده وهو بحال صغر... ولم ينتقل إلى دار أسلافه إلا إلى البناء (الزواج)" [5].

ورغم صلة القرابة التي تربطه بصاحب "منشور الهداية" إلا أنه ترجم له في الفصل الخاص بمن:" تعاطى المنصب الشرعي لادعائه العلم، وهم كل من ادعى ما لا يصح له من خطة وتدريس وغيرهما إلا قليلا "[6].

قرأ أبو عبد الله بن نعمون على مشايخ قسنطينة، ومنهم خاله عبد الكريم الفكون، وتولى عدة وظائف في قسنطينة ف" كان في صغره من شهود دار القضاء"، غير أن خاله عبد الكريم المذكور لم يرض منه التعرض لخطة الشهادة "، و"يقال إنه نقص في عينه إذ ذاك" بعد أن " كان يعز عليه كثيرا[7]. كما " تولى خطة الفرائض ومفاصلات التركات، والإشراف

---

[1]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص، ص: 80، 81.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 88.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 81.

[4]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 80.

[5]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 82.

[6]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 63.

[7]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 82.

على صاحب المواريث بعد موت صهره أبي محمد عبد اللطيف المسبح، ثم أنه ترقى لمنصب الفتيا ".

كان ابن نعمون حسب صاحب "منشور الهداية " " بليدا لا يحسن ما قرأه ولا يتقنه"[1]. ويقول بشأنه أيضا :" وأما العلم فهو أجهل ممن رأيت، وأحمق ممن لا قيت، وإن كان يتصدى لإقراء المختصر والرسالة، وأعجب من ذلك تعاطيه لابن الحاجب في ناديه مع جمع عمتهم الجهالة، فلو كان في زمن محتسب لله لكان له معه شأن وأي شأن... ولعمري لا يصلح لأن يقعد بين يدي العلماء، فضلا أن يتسمى بالعلم" [2].

أعقب ولدين أحدهما مسمى محمد والثاني كذلك إلا أنه لقب بالتومي، وكان والدهما متكلا عليها في كثير من وظائفه[3]، وهما أيضا توليا الفتيا لفترة من الزمن. وقد امتحن الشيخ ابن نعمون في ابتداء أمره، بسب وشاية به إلى مدينة الجزائر، إلا أنَّ محنته لم تطل إذ " يسر الله في إخراجه بسهولة"، وكان خروجه على يد المفتي أبي العباس أحمد المدعو حميدة بن حسن الغربي[4].

أهم الوظائف التي تولاها الفتوى، التي ترأس فيها بعد موت أبي العباس أحمد الغربي، وشاركه فيها من غير ترأس جماعة منهم أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن أبي زكريا يحي بن باديس، وبعد مدة حدثت بينهما منافرة، فعزل ابن نعمون من خطة الفتيا بعد سجنه هنيهة، ورفعت يده واستقل أبو العباس وحده، إلا أن أبا عبد الله بن نعمون ظل يسعى لرده ورد أولاده، للخطة، وحريصا على أخذ الثأر من أبي العباس بن باديس، مستعينا عليه بجماعة من رفقائه الذين وشوا بأبي العباس عندما ذهابهم إلى مدينة الجزائر لدى الباشا، وكتبوا سجلات

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 81.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 87.

[3]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 82.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 82.

ووصفوه بأمور لا يحل الوصف بها، فذهب ابن باديس إلى مدينة الجزائر، وقد أغرمه والي مدينة قسنطينة " مالا أرهقه فيه وسجنه قليلا"[1].

لقد أطال ابن الفكون الحديث عن ابن نعمون، ومما قاله بشأنه:" فما أقبحه من شخص، وما أشأمه على الخليقة من شخص" إلى أن قال:" لو تصدى المتصدي لما هو عليه حالا وقولا وفعالا لم تسعه الدفاتر، ولكلت الأقلام ونفذت المحابر". ويذهب ابن الفكون أنه كان يأخذ الرشوة." ومن مساوئه تغيير كثير من أحباس البلدة وهتك حرمتها والإغراء على بيعها، فتجده عاكفا على بيعها وابتياعها، حتى إن كل من صادفته يد الفقر واضطر يأتيه فيجعل له أشياء يموه بها على المسلمين في بيع الأحباس"، أورد الفكون هذا البيت[2]:

وأما أنه من سلف منْ مضى فحقٌ لكن نعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا

والمؤلف يصفه بالصفات السيئة، ويدعو الله أن يطهر منه البلاد ويريح منه العباد[3]، ويفهم من سياق الكلام أنه كان لا يزال على قيد الحياة عندما ألف الفكون كتابه "منشور الهداية" سنة 1045ه/ 1635م.

ورغم الأوصاف التي وصفه بها إلا أننا نجد في "نوازل الفكون" بعض المسائل التي أجاب عنها الشيخ أبو عبد الله بن نعمون، وفي مطلع إحداها :" سئل العالم العلامة السيد أبو عبد الله بن نعمون..." [4].

(3)– محمد ومحمد التومي ولدا محمد بن نعمون:

خلف محمد ابن نعمون ولدان كلاهما يعرف باسم محمد، إلا أن أحدهما عرف بالتومي، وقد كانا حسب الفكون أنجب من والدهما، ولذلك كان والدهما متكلا عليهما في مجلس درسه، وكذا في غالب الفرائض، ويتكل عليهما في غالب الوثائق، لأن ثلاثتهم معهم معرفة

---

[1]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص، ص: 83، 84.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص– ص: 85– 88.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 89.

[4]– النازلة حول شهادة العدول حول بعضهم البعض بسبب تحاسدهم. ينظر: محمد الفكون، نوازل الفكون. ص: 485. وله أجوبة عن مسائل أخرى، ص، ص: 148، 472.

مبادئ الفرائض قسمة[1]، وتعرضا للفتوى خطة والدهما بعد عزله، ثم تولى مرة أخرى هو ورفع ولداه يديهما.

وقد كان أحدهما "وهو ولده المسمى محمدا"[2] يقرأ مع الشيخ عبد الكريم الفكون في صغره في إحدى حلقات الدرس بقسنطينة، وكان مُمسك لكتاب المدرس، ثم كُلف الفكون صاحب "منشور الهادية" بهذه المهمة -التي كان يتقاضى عليها صاحبها أحيانا راتبا رمزيا من الأوقاف- بدلا من محمد بن نعمون.

(ثانيا)- بيت المســـــــبح:

بيت المسبح من البيوتات العريقة بقسنطينة[3]، وهم من بني مرداس، وذلك ما يؤكده الفكون في "منشور الهداية"[4]، وعبد القادر الراشدي في كتابه " عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس"، الذي وضح فيه أنساب بعض الأسر القسنطينة الشهيرة حيث قال:" أولاد المسبح من بني مرداس بن عوف السلمي"[5]. ذكر الفكون أربعة من رجال العلم من هذا البيت، منهم الإخوة الثلاثة: عبد اللطيف، وحميده، وبركات، وقد جمعتهم علاقة جيدة ببيت الفكون، وهم معاصرون لجده عبد الكريم بن يحي الفكون، وممن لهم محبة خالصة فيه وإخوته[6].

(1)- أبو محمد عبد اللطيف المسبح (ت 980ه/1572م):

وصفه الفكون ب:" الفقيه الفرضي أبو محمد عبد اللطيف المسبح المرداسي نسبا"[7]، كان مفتيا بقسنطينة، مدرسا في الفقه بها، وكان الحساب أغلب عليه من غيره. وتميز عن غيره

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 82.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 109.

[3]- قال الفكون في ترجمة حميدة مسبح والهاء تعود على قسنطينة بأنه " من ذوي بيتاها ". ينظر: عبد الكريم الفكون، المصدر نفســـه، ص: 47.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 46.

[5]- عبد الله الحمادي، في مقدمة تحقيقه لكتاب " تحفة الإخوان في تحريم الدخان" لعبد القادر الراشدي. ص: 35.

[6]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 47.

[7]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 46.

في صناعة التوثيق، لذلك يقول الفكون بأنه كان – والهاء تعود على قسنطينة–:" مرجوعا إليه في وثائق أهلها"، وبأنه كان "صاحب تفنن فيما يُحتاج إليه من وثائق". من مؤلفاته: شرح على مختصر الشيخ عبد الرحمن الخضري، وشرح على درة عبد الرحمن الأخضري في الحساب[1].

كما كانت له مشاركة في السياسة من خلال تدخله ببعض الأحداث التي عرفتها قسنطينة، بحيث رافق الشيخ عبد الكريم الفكون الجد عندما كلفوا بالذهاب في مهمة في مدينة الجزائر في سنة 975ه/1567م، ولما كانا بها نقض أهل قسنطينة البيعة فسجنهم حاكم الجزائر، ثم أخلى سبيلهم[2].كما كان مرافقا له في نواحي البلدة حينما قبض عليهم الأعراب[3]. لم يذكر الفكون وفاته غير أن الحفناوي يذهب إلى أنه توفي سنة 980ه/1572م[4].

(2)– أبو العباس أحمد المدعو حميدة المسبح (ت981هـ/ 1573م):

الفقيه المدرس أبو العباس أحمد المدعو حميدة، هو أخ عبد اللطيف المترجم له قبله، وهو من المفتين بقسنطينة، وممن له الشورى في النوازل، ويقال إن اعتماد أخيه عليه في بعض المهمات إلا أن أخاه أي عبد اللطيف " أشهر ذكرا لمخالطته الأمراء"[5]. توفي حميدة المسبح سنة 981هـ/ 1573م[6].

(3)– أبو محمد بركات المسبح (ت 982هـ/ 1574م):

الفقيه أبو محمد بركات هو الأخ الثالث لعبد اللطيف وحميدة المسبح المترجم لهما من قبل، وصفه الفكون ب:" الفقيه النجيب المشارك"، وبكونه أصغر من أخويه " سنا وأكبر معرفة ودراية"، كان مشتغلا بالقراءة والإقراء والعكوف على الدرس والتدريس، حريصا على

---

[1]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 46.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 48.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 49.

[4]– الحفناوي، تعريف الخلف ج2، ص: 224؛ وعنه نقل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 296.

[5]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 47.

[6]– الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص:82؛ وعنه نقل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 296.

الانتفاع. توفي في زمن الطاعون الذي أصاب الشرق الجزائري في سنة 982هـ/ 1574م[1].

(4)- أبو عبد الله محمد المسبح:

هو أبو عبد الله محمد بن الفقيه حميدة المسبح - المترجم له قبله- تولى خطة نيابة القضاء بقسنطينة ومكث فيها زمانا. وقد نقده الفكون نقدا لاذعا بوصفه بأنه كان عامي القلم والفكر لا يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته، وبأنه اتخذ كتب الوثيقة صناعة، عما فيها من الفساد والإفساد علما ورسما، وكان موسوما بالرشى[2]. توفي قبل 1045ه/ 1635م، بحيث كان متوفيا عند تأليف الفكون لمنشور الهداية في السنة المذكورة.

(5)- محمد بن المسبح القسنطيني (ت 1242ه/ 1826م):

تولى محمد بن المسبح الخطابة في قسنطينة، كما ولي القضاء بها مرارا. وصفه الحفناوي ب:" العلامة الجليل الأديب الواعظ"، وبأنه :" كان أديبا بليغا عارفا بالعربية واللغة والحديث"، "خطيبا مصقعا فارس المنابر"، " له باع مديد في صناعة الخطابة والإنشاء" [3].

ويذكر صاحب "تعريف الخلف" رواية مفادها أنّ الشيخ محمد بن المسبح كان مالكي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الحنفي نزولا عند رغبة عثمان باي قسنطينة[4]، الذي ولاه الخطابة بجامع سوق الغزل، الذي كان يصلي به البايات[5]. توفي محمد بن المسبح سنة 1242هـ/ 1826م [6].

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 47؛ نويهض، المرجع السابق، ص: 296.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 90.

[3]- الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص، ص: 663، 664.

[4]- عصمان باي هو ابن محمد بن عثمان الكبير باي وهران المشهور، (1218- 1219ه/1803- 1804م)، سبق له أن تولى بايا على الغرب، وقد كان رجل حزم في أموره، وكان حسب العنتري يكره الترك من أجل ظلمهم، ويحب العرب لنصحهم. وهو الذي توفي في ثورة ابن الأحرش. ينظر: العنتري، فريدة منسية، ص - ص:69- 71.

[5]- الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص:173.

[6]- بن عمر حمدادو، " المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب خلال القرنين (11- 12هـ/ 17- 18م)". أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية. بإشراف: د. بن نعمية عبد المجيد. جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. (2012- 2013)، ص: 140.

(ثالثا)– أسرة العـــــــــــطار:

بيت العطار من البيوتات العلمية الشهيرة بقسنطينة، ويصف الفكون أحدهم ب :"الأوراري نسبا" [1]، وقد أنجب هذا البيت عدد من رجال العلم وهم:

(1)– أبو عبد الله محمد العطار:

عاش خلال القرن العاشر الهجري، وكان معاصرا للشيخ عمر الوزان، وهو من أثرياء مدينة قسنطينة، ومن مدرسيها " المتقنين"، وكان له بعض أجنة بالمدينة، كما كانت له خلال العهد الحفصي تجارة يخرج بسببها أحيانا إلى تونس دار الإمارة إذ ذاك، ويحضر حلقات الدروس التي يعقدها العلماء بجامعها الأعظم جامع الزيتونة[2].

(2)– أبو القاسم العطار:

هو أخو محمد المتقدم، كان معاصرا لعبد الكريم الجد، ومفتيا في زمنه، وتصدر للإقراء والتدريس ودخل الشورى في جملة من أهل عصره. وعمي في آخر عمره، ولزم داره إلى وفاته[3].

(3)– أبو عبد الله بن العطار:

أبو عبد الله المدعو بكنيته ابن العطار، وهو حفيد الفقيه أبي الفضل قاسم العطار، المترجم له قبله. تصدى لخطة نيابة القضاء، وكان من أهل الخطة التوثيقية، صاحب خط حسن، وكان منتهى العام والخاص في الوثائق، وملجأ الخاص في عقود الأنكحة، ووغيرها من العقود لحسن خطه، وصناعة تزويقه، وقد عرف بنباهته وحذقه[4]. عاش خلال القرن العاشر الهجري، إذ كان كبير السن لما كان مؤلف "منشور الهداية" صغير السن، وتوفي قبل 1045ه/1635م، بحيث أشار إليه في "منشور الهداية" على أنه متوفي.

---

[1]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 56.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص– ص: 38– 40.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 56.

[4]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص، ص: 90، 91.

(4)- أبو العباس أحمد العطار:

هو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي الفضل المترجم له سابقا، وهو ابن عم أبو عبد الله المترجم له قبله، تصدى للإفتاء بقسنطينة، وهو حسب الفكون ضعيف العقل، يزعم زعما أنه على ثقة من العلم ويبالغ في ادعائه، وكان معروفا بالضرب على الخطوط. توفي قبل سنة 1045ه، وهي السنة التي أنهى فيها الفكون كتابه "منشور الهداية"[1].

(رابعا)- أسرة ابن جلول:

أسرة ابن جلول هي وهي من الأسر الكبيرة بمدينة قسنطينة، وقد كان لها زاوية عرفت باسمها وهي "زاوية أولاد جلول"[2]. وهي أكبر أسرة توارثت خطة القضاء الحنفي، وكتابة العدل بقسنطينة في عهد صالح باي وبعده. وقد ارتبطت أسرة ابن جلول بعلاقة متينة بصالح باي حتى أنه تصاهر معهم[3].

(1)- الشيخ شعبان بن جلول:

يعد الشيخ شعبان بن جلول أشهر علماء هذه الأسرة، وقد تصدى للتعليم بقسنطينة، واستعان به صالح باي في تسيير أمور التعليم بالمدينة، وكما تولى هذا العالم منصب قضاء الحنفية بمدينة المذكورة[4]. ويرد اسمه كقاضي للحنفية بقسنطينة في الوثائق وبعضها مؤرخ بسنة 1190ه/1176م، مع أن ختمه الذي ختمها به يحمل تاريخ سنة 1179ه/ 1765م، وهذا يعني أنه كان قاضيا للحنفية منذ تلك السنة [5]. ثم وجدناه يقيد إحدى الوثائق بصفته قاضيا للحنفية في سنة 1206ه/ 1791م[6].

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص:92.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:265.

[3]- الأرجح أنه زوج ابنته للأسرة ولم يتزوج منها. ينظر: فاطمة قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة خلال القرن 18م، ص: 151.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 325.

[5]-L. Féraud, Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine, in **R. A**, N : 67, 12 Année, 1868. P-p : 124- 126.

[6]- L. Féraud, Ibid. P : 132.

(2)– أحمد بن جلول:

ورد اسمه كمفتي بقسنطينة في وثيقة التي تعود إلى سنة 1190ه/1776م[1]، وذلك في أيام صالح باي.

(خامسا)– بيت ابن عبد المؤمن:

هناك من يذهب إلى أن أصل بيت عبد المؤمن من مرابطي الساقية الحمراء[2]، وهو من البيوتات ذات النفوذ الكبير بقسنطينة خلال العهد الحفصي، إلا أنَّ مكانتهم تراجعت كثيرا خلال العهد العثماني.

والظاهر أن "سيدي عبد المؤمن" كان ضحية الخلاف الذي وقع في قسنطينة بين أنصار العثمانيين وخصومهم، وكان عبد المؤمن من خصومهم، ولكن لمكانته الدينية وكثرة أتباعه بُنيت له زاوية وجامعا، وبالنسبة للجامع هو أحد جوامع الخطبة الموجودة في الأحياء الرئيسية وهو جامع سيدي عبد المؤمن بباب الجابية[3]. أما الزاوية فتعرف بزاوية عبد المؤمن، وقد جددها سنة 1183ه/1769م صالح خوجة بن مصطفى، الذي تزوج أيضا من أسرة عبد المؤمن[4].

ونتيجة لهذه المعطيات الجديدة انتقلت إمارة ركب الحج من بيت ابن عبد المؤمن إلى بيت الفكون، وقد بقيت إمارة ركب الحج في أسرة عبد المؤمن إلى زمن محمد حفيد عبد المؤمن أي حوالي قرن من الوجود العثماني[5].

إن المتصفح لكتاب منشور الهداية ليتساءل عن عدم ترجمة الفكون لعلماء هذه الأسرة رغم مكانتها في قسنطينة. وفي صدد ترجمة الفكون لأحد معاصريه وهو الشيخ المدرس محمد الفقيه الزواوي الذي أراد أن يحج :" فأنعم الله بحمله له حبيبنا محمد حفيد الشيخ عبد

---

[1]– L. Féraud, Ibid. P-p : 124- 127.

[2]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص:264.

[3]– فاطمة الزهراء قشي، معالم قسنطينة وأعلامها، ص: 15.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:264.

[5]– أبو القاسم سعد الله، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون (القرن 11هـ/ 17م)، ص، ص: 388، 392.

المؤمن"[1]، فهذا النص دليل على أن محمد حفيد الشيخ عبد المؤمن كان أميرا لركب الحج، كما أنّ نعت الفكون له بحبيبنا يدل على أن عدم ترجمة الفكون لهم لا يدل على عداوة لهذه العائلة أو منافسة حادة بين العائلتين، سيما وأن الفكون يتسم ببعض الذاتية في "منشور الهداية"، فهو كثير التمركز على شخصه وعائلته، فقد جعل نفسه وعائلته مقياسا في الحب والبغض. فالذين يحبون عائلته ويلتجئون إليها قوم خيرون، والذين لهم فيها رأي أو مستقلون عنها قوم لا خير فيهم[2]. وربما كانت المعاصرة سببا وجيها في تجاوز الأقران لبعضهما البعض.

لقد ذكر بعض المؤرخين الفرنسيين أن عائلات قسنطينة انقسمت عند مجيء العثمانيين إلى فريقين فريق بزعامة عائلة ابن عبد المؤمن وفريق بزعامة عائلة الفكون، هذا مجرد اختلاق لم تؤكده الوثائق، وكل ما في الأمر أن عائلة ابن عبد المؤمن قد ضعفت خلال العهد العثماني بينما ارتفعت حظوظ عائلة الفكون، وانتقل إمارة ركب الحج من الأولى إلى الثانية. ولا نجد في كتابات الفكون التي تعرض بالتفصيل إلى أهل القرن السادس عشر (10هـ) والسابع عشر أية إشارة أو تعريضا صريحا، يشتم منها المس من قيمة عائلة ابن عبد المؤمن، بالعكس أنه عندما ذكر شخصا من هذه العائلة قال عنه:" حبيبنا محمد، حفيد الشيخ عبد المؤمن"[3].

وتذكر بعض المصادر الفرنسية أن أولاد عبد المؤمن ثاروا بقسنطينة في سنة 1052ه/ أكتوبر 1642م وحملوا السلاح ضد الجنود الأتراك الذين اعتدوا عليهم ودامت المعارك يومين في شوارع المدينة، وقتل خلق من الجانبين، خاصة من أولاد عبد المؤمن الذين قتل منهم أربعة وعشرون شخصا، واضطروا إلى الاعتصام بحيهم في الجابية، وحاصرهم الجنود الأتراك،

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 102.

[2]- أبو القاسم سعد الله، في مقدمة منشور الهداية للفكون، ص: 13.

[3]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام ، ص، ص:22،23؛ مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون، ص: 388.

فتدخل شيخ البلد وآغا النوبة، والقاضي، لدى آغا النوبة، وتم الاتفاق على أن ينسحب الجنود الأتراك إلى ثكناتهم ويعاقب الجناة من الجانبين[1].

– المبحث الرابع: بيت ابن ساسي البوني بمدينة عنابة

(أولا)– نسبه ومكانته:

تعد أسرة ابن ساسي البونية أشهر الأسر العلمية بمدينة عنابة (بونة)[2] خلال العهد العثماني، وهناك روايتان فيما يخص نسبهم، الأولى لبعض المستشرقين الذين يذهبون إلى أنهم ينحدرون من الأندلس من مهاجري منطقة غرناطة، والرأي الثاني هو للإخباريين ويذهبون إلى أنهم من أصل عربي بربري، من قبيلة كيشاوة، كتامة سابقا. أما الشيخ أحمد البوني في "الدرة المصونة" ينسب أصله إلى الشاعر أبو محمد أحمد المسيتي المعاصر لابن خلدون، أي أنهم كانوا ببونة قبل مأساة الأندلسيين، إذن هذه أسرة جزائرية محضة استقرت في ضواحي السيبوس لأجيال [3].

والأرجح أن أسرة البوني أسرة عربية من بني تميم، ولهذا تضاف عبارة التميمي إلى أسماء أبناءها[4]، من ذلك ما ورد في مطلع "ثبت الشيخ أحمد البوني"، وفي نوازله المعروف ب"رسالة في الحضانة":" يقول أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني التميمي"[5]، كما تضاف إلى أسماءهم عبارة المسيـــتي من ذلك، ما ختم به أحمد البوني إحدى النوازل بقوله:"

---

[1] - Mercier Ernest, Histoire de Constantine. Constantine : J. Marle et F. Biron, Imprimeurs –Editeurs, 1903. P, p :228, 229.

[2]– تقع مدينة بونة على مقربة من نهر سيبوز، ويشرف عليها جبل أيدوغ. وقد تمكن من ضمها إلى السلطة المركزية في 1522م. وقد كانت مستقلة آنذاك. ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. القاهرة: طبع دار المعارف– البليدة: نشر دار الكتاب، (ط2)، 1963. ص: 208.

[3]-H' sen Derdour , Annaba 25 siècles de la vie quotidienne et de luttes. Alger : Complexe Graphique de Reghaia. 1983. tome:2 , p ,p: 91,92.

[4] – ورد في القصيدة التي أرسلها أحمد البوني لمحمد باكداش: (سعد بوفلاقة، في مقدمة تحقسقه للدرة المصونة، ص: 15)

" أحمد نجل قاسم * بوني ذو مآثم "

" إلى تميم ينتمي* باب الإله يحتمي".

[5] – أحمد بن قاسم البوني، « ثبت البوني»، مخطوط. ص: 1؛ « رسالة في الحضانة » مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2160، ص: 1.

قال ذلك وكتبه... أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي البوني التميمي المسيتي..." في رمضان 1113ه/1701م [1]. ومن ذلك أيضا ما ورد في مطلع منظومته " الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة"[2]:

يقول راجي عفو رب راحم عن كل ذنب أحمد بن قاسم

ابن محمد أي المسيـــــــتي ثم التمـــيمي بلا تنـــكـــيت

أمَّا تسميتهم بأولاد النوري فلم نجد من ينعتهم بهذا الاسم غير حسن دردور في كتابه "عنابة"، فهذا الورثيلاني يزور هذه الأسرة بعنابة، في أيام الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد زروق بن الشيخ أحمد البوني ويقول أنه " زار أولاد سيدي أحمد بن الشيخ سيدي زروق"[3]، ولم يذكر التسمية التي وردت عند حسن دردور مطلقا.

وصف الورثيلاني هذا البيت بما يدل على مكانته الدينية المرموقة بقوله:" ودارهم دار الولاية من أعالي أسلافهم إلى الآن "، ثم يضيف قائلا:" من رأى أولاد سيدي أحمد بن الشيخ رأى أنوار فيهم وعناية كاملة لهم وفضلا عاما لديهم"[4].

وقد كان لأسرة ابن ساسي البوني دور كبير في تنشيط الحركة الفكرية بمدينة عنابة حتى غطى نشاط علماءها عن غيرهم من العلماء بتلك المنطقة، مع أن المدينة نفسها لم تكن من الحواضر العلمية البارزة بالجزائر آنذاك، وهذا بشهادة أبرز علماءها الشيخ أحمد البوني في الأرجوزة التي تقدم بها للباشا محمد بكداش، واصفا حالتها العلمية بقوله- الهاء تعود على بونة-[5]:

قد صال فيها الظـــالم وهانَ فيها العالـــم

---

[1]- أحمد بن قاسم البوني، « رسالة في الحضانة »، مخ، ص: 5.

[2] - أحمد بن قاسم البوني، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، ص: 55.

[3] - الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أو الرحلة الورتلانية. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (ط1)، 2008. ج1، ص: 347.

[4] - الورثيلاني، الرحلة، ج1، ص، ص: 347، 348.

[5]- ابن ميمون، التحفة المرضية، ص:129.

خُرِبَـت المســاجد وقل فيها الساجد

ورغم الوصف الذي ذكره أحمد البوني إلا مدينة عنابة لم تخلوا من العلماء والمشتغلين بالعلم، ومن أهم المؤسسات التعليمية ببونة جامعها الأعظم المعروف باسم مؤسسه أبي مروان الشريف[1]. وزاوية بيت البوني التي أشار إليها أحمد البوني في الأرجوزة التي قدمها للداي محمد بكداش بقوله -والهاء تعود على المخاطب-[2]:

بـــه تصـــير الزاويـــة عامرة لا خاويـــة

أسرة البوني ميسورة الحال، جمعت بين العلم والصلاح، ولهذا استطاعت أن تحظى بمكانة مرموقة لدى الخاصة والعامة، وسيطرت روحيا على عنابة ونواحيها طيلة قرنين من الزمن، وأنجبت عددا من العلماء، خلال العهد العثماني وحظيت بوظائف الإفتاء والقضاء المالكي بعنابة إلى غاية الاحتلال الفرنسي لها[3].

خصص الشيخ أحمد البوني في منظومته "الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة" عددا من الفصول للتعريف ببعض أفراد عائلته، ومنها الفصل الذي يحمل عنوان:" في ذكر سيدي بلعيد وأولاده وبعض أحفاده إلى الوالد"، وفيه يذكر أن بركات جده بلعيد كثيرة :" يقصده من فيه ريح الجن، يبرأ سريعا مع حسن الظن"، ومثله ولده حميده، ويشير أحمد البوني أن رأى من الأخير " في بعض المرض شيئا عجيبا"، وهو شهير بذلك[4]. لم يشر أحمد البوني إلى أي نشاط في المجال العلمي لأجداده الأوائل، ولهذا فإمّا أنهما لم يكونا من أهل العلم أصلا، أو أن التصوف غلب عليهما.

---

[1]- مروان أبو عبد الملك بن علي البوني (توفي حوالي سنة 440هـــ): أندلسي الأصل، سكن بونة. من أشهر مصنفاته: شرح الموطأ. ابن فرحون، الديباج المذهب،ج2، ص: 320.

[2]- ابن ميمون، المصدر السابق، ص: 128 ؛ سعد بوفلاقة، دراسة التي وضعها للدرة، ص: 15.

[3] -H' sen Derdour , Annaba 25 siècles de la vie quotidienne et de luttes. tome:2 , p : 91.

[4]- الفصل الرابع الذي يضم ستة وثلاثين (36) بيتا. ينظر: أحمد البوني، الدرة المصونة، ص، ص: 73، 74.

ومن أجداده الأوائل جده محمـــد، وهو الذي أشار إليه في قوله:" بجدنا محمد ذي البركة"، وهو الآخر يستبعد أن يكون ممن تغلب عليهم صفة العلم، وابنه الشيخ إبراهيم بن محمد.

(ثانيا)– علماء بيت ابن ساسي البوني:

(1)– الشيخ إبراهيم بن محمد:

هو والد الشيخ محمد ساسي جد الشيخ أحمد البوني، قال فيه هذا الأخير في كتابه "الدرة المصونة" بعد أن ذكر والده محمد[1]:

وبابـــنه العالم إبراهيم مفتي البـــلاد أسأل الكريم

ومن خلال هذا البيت يتبين أن الشيخ إبراهيم جد والد أحمد البوني كان مفتيا، وقد خصص هذا الأخير فصلا لبعض تلامذة السيد إبراهيم، وقد وصف أغلبهم بالعلم[2]، مما يدل على ممارسته التعليم.

(2)– الشيخ محمد بن إبراهيم ساسي البوني:

كان الشيخ محمد ساسي البوني مرابطا وعالما ذائع صيت في بونة وضواحيها خلال القرن الحادي عشر (17م)، وقد أخذ عن الشيخ طراد عالم بونة في عصره، كان مدرسا بجامع أبي مروان، ولجمعه بين العلم والتصوف صار " مسموع القول عند الخاصة والعامة "، كما "صار رئيس الباطن والظاهر" عند أهل بونة [3]، بهذه العبارات عرفه معاصره عبد الكريم الفكون الذي ترجم له، في الفصل المخصص لمن «ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين ... ».

كان محمد البوني من أتباع الشيخ طراد الذي كان من المبالغين في ادعاء التصوف في بونة وضواحيها[4]. وقد أطال الفكون الحديث عن الشيخ محمد ساسي البوني وعن أمره

---

[1]– أحمد البوني، المصدر نفسه، ص، ص: 73، 74.

[2]– الفصل السابع من الباب الثالث. وهي في سبعة أبيات. ينظر: أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 80.

[3]– الفكون، منشور الهداية، ص: 165.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. الجزائر: الشركة الوطنية للكتاب. 1983. ص: 48.

الخرافي، ووضعه "ضمن هؤلاء الدجاجلة، لترحيبه بالشيخ المغربي علي خنجل واتخاذه الحضرة، وجعله حماما سماه " حمام أهل الصفا" إلخ [1]. انتقده محمد ساسي نقدا لاذعا على خروجه عن التصوف الصحيح، وخلطه بين العلم والدجل، واستغلال بساطة العامة، ونشر بدعة الحضرة والإنشاد والرقص، وأخذه أموال الناس بالباطل[2].

وقد عاتبه حفيده أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني الفكون بعد مدة طويلة من وفاته على تعرضه لجده، ومما قاله في جده في "الدرة المصونة" – والهاء تعود على والده إبراهيم– [3]:

...بنجله محمد ساسي جد الفقير العارف المواسي

...منظم الكبرى مع الشذور تاج الهبذات وذوي الصدور

من جدد العلم وقد كان اندرس وقام فيه مخلصا بل دنس

يحفظ تاتائي على الرسالة وسط بهرام بلا كساله

...أخذ يقظة على الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني

وذا على سبيل خرق العادة كرامة للأولياء السادة

...طعن الفكون فيه صلح باطل إذ هو قطب عارف وكامل

فطعنه تحامل وظلم وعند ربنا تعالى العلم

لقد اعتبره حفيده أحمد بن قاسم البوني أحد أقطاب بونة الخمس:" ورابعهم جدنا ولي الله سيدي محمد ساسي"[4]. وقد خصص حفيده فصلا في الدرة لبعض تلامذة جده سيدي محمد الساسي، وأغلبهم من العلماء ممن عرفوا بالإفتاء والإمامة وغيرها[5].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 178.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. ص: 48؛ أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 34، 35.

[3]– أحمد البوني، الدرة المصونة، ص، ص: 73، 74.

[4]– سعد بوفلاقة، ملاحق المرفقة بالدرة المصونة، ص: 156.

[5]– خصص أحمد البوني فصلا لبعض تلامذة جده محمد ساسي البوني، ويضم 29 بيتا. ينظر: الدرة المصونة، ص، ص: 81، 82.

بعث إليه يوسف باشا[1] حاكم الجزائر في وقته للتدخل لدى الأهالي لتوقيف ثورة ابن صخري[2] في شرق البلاد ضد الحكم العثماني، وطلب البوني من الباشا العفو عن الأهالي فكان له ما طلب[3]. وهناك رسائل بين البوني والباشا، مؤرخة بسنتي: 1050هـ/1640م، و1051هـ/1641م، ومما ورد في إحدى الرسائل بعد الحمدلة:"... إلى سيادة الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله... أبي عبد الله سيدي محمد ساسي قوى الله مدده، وأكثر حزبه وعدده..." [4]، وللشيخ محمد ساسي البوني تآليف في التصوف[5].

(3)- الشيخ قاسم بن محمد الساسي (ت1677م/ 1088ه)[6]:

كان الشيخ قاسم البوني كوالده من أصحاب الطرق الصوفية (الشاذلية)، والعلم أيضا[7]، بحيث كان يجمع بين الفقه والتصوف، وذلك ما أشار إليه ابنه بقوله:" كان أبي الوالد -رضي الله تعالى عنه- غلب عليه التصوف والفقه كأنهما مزجا بلحمه ودمه" [8].

يعد الشيخ قاسم البوني رأس هذه الأسرة وصانع مجدها وهو والد أحمد البوني، درس في جامع أبي مروان، ثم رحل إلى المشرق للاستزادة من العلم، فأقام هناك مدة طويلة، ودرس على علماءه خاصة بالأزهر، ورجع إلى بونة، وكان بها سنة 1045هـ/1635م، وهي السنة التي ولي فيها منصب الإفتاء المالكي في بونة وتصدى للتدريس[9] في جامع عنابة الكبير.

---

[1]- تولى يوسف باشا الحكم في الجزائر عدة مرات بين سنتي (1044- 1064هـ)، وقد واجهت الدولة خلال هذه الفترة ثورة ابن صخري، وقد كانت هذه الثورة سبب المكاتبة بين يوسف باشا ومحمد ساسي البوني.

[2] -Mercier Ernest, Histoire de Constantine, p : 227.

[3]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص، ص: 34، 35.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحالة، ص-ص :54- 56؛ وينظر أيضا الدور السياسي لبيت البوني في الباب الثاني.

[5]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:279.

[6] -H' sen Derdour , Annaba 25 siècles de la vie quotidienne et de luttes. tome:2 , p : 93.

[7]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص: 49. هامش: 1.

[8]- أحمد البوني، "ثبت أحمد البوني" مخ، ص:9.

[9] -H' sen Derdour, Annaba, Tome 2, p, p : 91, 92.

وقد كان من رجال بونة البارزين في عصره، ولهذا مدحه الشيخ منصور السويدي القسنطيني بقصيدة عند زيارته بونة، وهذه بعض أبياتها [1]:

فيا بونة الغـــرّاء فقت ســـواك في زمانك هذا فارفلي وأظهري العجب

فقد حزت شيخ الوقت قاسما الذي سما قـــدره فوق السّـــماءيـــن يرتقب

خصص له ابنه أحمد البوني فصلا في " الدرة المصونة" ووصفه ب:" العالم البحر الولي قاسم"[2]، كما خصص فصلا لذكر بعض تلامذة والدته [3] من بونة، وفصل آخر لذكر تلامذته من غير أهل بونة [4].

ومن تلامذة الشيخ قاسم من أهل بونة "سيدي محمد التمتام"، والذي وصفه أحمد البوني ب" الإمام ولد الإمام"، وبأنه :" الخاتمه لدار أنصار من التماتمه"، ومن تلامذته أيضا: العالم النبيه قاسم الميلي، والفقيه أحمد النيار، ومنهم الفقيه العجمي إبراهيم بن سنان، وقد كان له حب كبير واعتقاد في أفراد أسرة البوني، وهو صهر محمد بكداش، وهو الآخر من تلامذة والده "وهو من الذين فينا أحسنوا قولا وفعلا"، وأشار بأنه تولى إمارة الجزائر فأحسن فيها، وبأن وهران فتحت على يديه.

ويمكن معرفة العلوم التي كان يدرسها قاسم البوني من خلال العلوم التي درسها عليه ابنه أحمد البوني، والتي ذكرها في ثبته هي: الرسالة، مختصر الشيخ خليل، ألفية الإمام مالك، وشرح الصغرى للإمام السنوسي، وحكم ابن عطاء الله بشرحها لابن عباد، تفسير الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان، الشفاء للإمام عياض، أحزاب القطب الشاذلي، وحاشية الفاسي على الحزب الكبير منها ووظيفة العارف العلامة سيدي أحمد

---

[1]- أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 150، 151. في الملحق رقم 2 في مدح بونة.

[2]- خصص البوني الفصل الخامس من الباب الثالث لوالده قاسم، وهو يضم 38 بيتا. ينظر: أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 77.

[3]- الفصل التاسع وعدد أبياتها خمسون (50) بيتا. ينظر: أحمد البوني، المصدر نفسه، ص- ص: 82- 85.

[4] - الفصل الحادي عشر، ويضم 11 بيتا. ينظر: أحمد البوني، المصدر نفسه، ص، ص: 86، 87.

زروق، شرح العارف بالله تعالى سيدي أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة على الأحاديث التي أخذها من صحيح الإمام البخاري...إلخ[1].

ترك قاسم البوني بعض التآليف " في الوعظ وفي التفسير "[2]، وقد أشار ابنه أحمد البوني إلى بعض تآليف والده في ثبته بقوله:"... غالب تواليفه ورسائله وقصائده بخطي، وقد ألف – رضي الله تعالى عنه– كتابه في الوعظ المسمى ب"النور الوضاح الهادي إلى الفلاح"... وهو في غاية الحسن، و"تقييدا على قوله تعالى الله نور السماوات والأرض"، وآخر في الزيارة، وقد قرأنا كثيرا منه على جمع من علماء تونس...فاستحسنوه ... له تقييد جليل على كلام لشيخ الوقت الصالح البركة... شيخنا وبركتنا المحسن إلينا...سيدي أبي الحسن علي عزوز الفاسي، ثم الزغواني ... وله غير ذلك..." [3].

(4)– الشيخ أبو العباس أحمد بن قاسم البوني (ت1139هـ/ 1726م):

ولد الشيخ أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي بن إبراهيم البوني[4] في سنة 1063ه/1653م، وهو أشهر علماء هذه الأسرة وواسطة عقدها، وقد جمع بين الفقه والتصوف، وبرع في عدة علوم في مقدمتها الحديث الشريف؛ الذي أخذه على أجلة علماء المشرق. وممن نوهوا به عبد الرحمن الجامعي، ومحمد ابن ميمون في" التحفة المرضية".

أخذ العلم عن مشايخ الجزائر، كما رحل إلى المشرق، واستقر به مدة طويلة، وأخذ عن علمائه بمصر وغيرها[5]. وقد ذكر في ثبته أو الإجازة التي كتبها لابنه أحمد الزروق ورفيقه محمد بن علي القسنطيني شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم من الجزائريين، ومن التونسيين

---

[1] – أحمد البوني، " ثبت أحمد البوني" مخ ، ص، ص: 8، 9.

[2] – خصص البوني الفصل الخامس من الباب الثالث لوالده قاسم ، وهو يضم 38 بيتا. أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 77.

[3] – أحمد البوني، " ثبت أحمد البوني" مخ ، ص، ص: 8، 9.

[4] –ترجمت له العديد من الدراسات منها: مخلوف، شجرة النور، ص:330؛ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص:177؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص– ص:60– 64؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 33 .

[5] – Derdour , Annaba. tome: 2 , p : 92.

والمغاربة[1] والمصريين[2]؛ وقد بلغ عددهم ثلاثة عشر شيخا، واكتفى بذلك مخافة التطويل:" وغير ذلك من الأشياخ الذين يزيد عددهم وخوفا من التطويل والملل... [3]"، ثم ذكر كُتب الحديث التي أخذها عن هؤلاء، وعدَّدَ أيضا بعض تأليفه.

كان مترجمنا ملازما لوالده، وذلك ما أكده بقوله:" وقد كنت لا أغيب عنه حضرا وسفرا، ليلا ونهارا" إلى أن يقول:" اعلما رحمكما الله تعالى أن لي في علم الحديث وغيره أشياخا كثيرين متقنين متقين محررين... من أجلهم سيدي والدي رحمه الله تعالى"[4].

ومن شيوخه الجزائريين[5]: بركات بن باديس والشيخ يحي الشاوي[6]، فأما الأول فقال بشأنه في ثبته:" الإمام العلامة القدوة البركة الفهامة شيخنا سيدي بركات بن باديس القسنطيني فقد كانت بيني وبينه محبة شديدة وعقيدة أكيدة ومراسلات وقصائد وفتاوى وفوائد...[7]". وأما شيخ يحي الشاوي فقد درس عليه بمصر، وأثنى عليه كثيرا في ثبته:" كان رضي الله تعالى عنه يخصني بخطابه، ويتوجه إلي من دون أصحابه، ويجلسني على يمينه ليس بيني وبينه أحد... بل كنت نازلا بداره نحو السنة" [8].

وفي عهده شدت الرحال إلى عنابة لطلب العلم على يديه لشهرته، حيث كان العالم إذا تصدر للتدريس واشتهر أمره، شُدّت إليه الرحال من أقصى جهات البلاد، وأقبل عليه

---

[1]– ومن شيوخه المغاربة: أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الفلالي الإدريسي، عبد اللطيف بن أحمد البشيشي، سعيد الطرابلسي ثم التونسي، ساسي الجبالي ثم التونسي. ينظر: أحمد البوني، " ثبت البوني" مخ، ص:5.

[2]– من شيوخه المشارقة الذين ذكرهم في ثبته: محمد الخرشي المصري، محمد بن محمد الغربي الريداني، إبراهيم اللقاني، أبو الحسن علي الحصرين الحنفي الرشيدي، والشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز المنوفي الشافعي، والشيخ عبد الباقي الزرقاني. ينظر: ثبت البوني مخ. مواضع متفرقة مثلا الصفحات : 4، 5، 12.

[3]– أحمد البوني، " ثبت البوني" مخ، ص:5.

[4]– أحمد البوني، المصدر نفسه، ص:8.

[5]– من مشايخه الجزائريين الذين ذكرهم في ثبته:" الشيخ الفقيه العلامة... سيدي أبو العباس أحمد لقب الصديق اليعدلي الزواوي ثم البوني رحمه الله تعالى، والشيخ التزيه العلامة الفقيه... سيدي أبو القاسم بن مالك اليراتني الزواوي رحمه الله تعالى". ينظر: أحمد البوني، المصدر السابق، ص:5.

[6] – ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص، ص: 130، 131.

[7] – أحمد البوني، المصدر السابق، ص:8.

[8]– أحمد البوني، " ثبت البوني" مخ، ص:12.

الطلاب من كل حدب وصوب، وتزاحموا على حلقته[1]، وقد كان هذا حال بونة التي عرفت الحركة الفكرية بها في أيامه انتعاشا يستحق التنويه، فقد كانت قبلة لطلاب العلم من داخل الجزائر ومن خارجها.

تصدر الشيخ أحمد البوني للإقراء بالأزهر أثناء عودته من الحج[2]، كما تصدى للتدريس بعنابة، وتتلمذ عليه العديد من الطلبة الجزائريين من أشهرهم: الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، والشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني؛ الذي لازمه مُدة طويلة حتى برع في الفقه المالكي. وقد أصبح فيما بعد شيخ جامع سيدي الكتاني، ومفتي قسنطينة[3]، والشيخ حسن بن محمد بن العنابي، الذي أصبح فيما بعد مفتي مدينة الجزائر[4].

وتتلمذ عليه بعض العلماء المغاربة في بونة، كالشيخ أحمد برناز التونسي[5]، والشيخ عبد الرحمن الجامعي الفاسي[6] – الذي قدم إلى الجزائر بعد بعد الفتح الأول لوهران سنة 1119هـ– وترجم له في مؤلفه المسمى "بالتاج المشرق الجامع ليواقيت المشرق والمغرب"، فقال مُتحدثا عن بونة:" لَّما دخلتها أممتُ دار الشيخ... أبي العباس أحمد بن الولي الصالح البر الناجح، أبي عبد الله قاسم بن الولي الصالح، أبي عبد الله محمد المعروف بساسي، فوجدته طلق المحيا، وأنزلني بمنزل لإكرام أضيافه مُهيا"؛ وأثناء المدة التي لازمه فيها كان يحضر مجالس دروسه، وذلك ما عبَّر عليه بقوله:" فأقمت عنده يترهني في كل يوم في رياض تآليفه الحديثية وغيرها... وكنت أحضر أثناء تلك المدة مجلس رواية الصحيحين بين يديه، مع مشايخ بلده وولديه... ولَّما وقفت في علم الحديث على البحر العباب، والعجب العجاب، سألته الإجازة فيما وقفت عليه وغيره من تصانيفه"[7].

---

[1] – العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، ضمن مجلة سيرتا، السنة الثانية، العدد: 03، ماي: 1980. ص: 67.

[2] – محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 330؛ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص: 177.

[3] -H' sen Derdour , Annaba, Tome 2, p: 109.

[4]- Ibid , Tome 2, p: 98.

[5] – حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، ص: 231 ؛ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج1، ص: 93.

[6] – محمد محفوظ، المرجع السابق، ج2، ص: 10؛ مخلوف، المرجع السابق، ص:351.

[7]– عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 236.

من خلال الإجازة التي كتبها لابنه أحمد الزروق ورفيقه محمد بن علي القسنطيني يمكن معرفة العلوم التي كان يدرسها، وهي مختلفة": فقد حضراني سنين في صحيح الإمام سلطان المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري..."، ليواصل سرد بقية العلوم، ومنها: صحيح مسلم، موطأ الإمام مالك، شفاء للقاضي عياض، ألفية المصطلح لزين الدين العراقي وبشرحها لزكريا الأنصاري، نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلاني وشرحها له أيضا، إلى أن قال:" وقرآ علي غير ذلك مما يطول جلبه وتفصيله، وعده وتحصيله..." [1].

أما مؤلفاته فهي كثيرة، بحيث برع أحمد البوني في عدة علوم في مقدمتها الحديث الشريف، ولهذا كتب في كل العلوم تقريبا، في الفقه، النحو، التاريخ، الطب، الحديث. بلغت مؤلفاته أكثر من مئة تأليف بين مختصر ومطول[2] ذكرها في رسالته التي سماها " التعريف بما للفقير من تأليف"، ومن مؤلفاته: المستدرك على الحافظ السيوطي من خصائص الجمعة، ونظم الشمائل، وزاد المسير إلى دار المصير[3]، فتح الباري في غريب البخاري، والدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة وغيرها. وألف حتى في الألغاز[4].

ولمكانته العلمية فقد كان مقصودا للفتوى، وكثيرا ما كانوا يلجؤون إليه في المسائل التي تثير جدلا بين العلماء، من ذلك النازلة الواردة عليه من قسنطينة سنة 1113ه/1701م يتعلق سؤال في الحضانة انقسم أهل العلم في شأنه إلى فريقين فأجاب عنه إجابة مفصلة في

---

[1]- أحمد البوني، "ثبت البوني" مخ، ص: 2.

[2] - ذكر مؤلفاته في ثبته البوني مخ. ص- ص:37- 42.

[3]- الكتاني، المرجع السابق،ج1، ص: 236- 239.

[4]- وفي كتاب الألغاز يقول البوني بأنه سأله شيخه يحي الشاوي عن لغز يظنه للسيوطي، فأجابه في ثلاثة أبيات عن اللغز، فأعجب بجواب شيخه. ينظر: رحلة ابن حمادوش، ص: 131.

عدة صفحات[1]. وهناك نازلة أخرى سنة1107هـ/ 1695م كان قد أجاب عنها أحد الفقهاء فعارض البوني جوابه ورد عليه بلهجة شديدة دون أن يذكر اسمه[2].

وقد ذكر الشيخ أحمد البوني أولاده في " الدرة المصونة" وهم: قاسم، وأبي مدين الذي مات صبيا، ومحمد، وأحمد الزروق، وقد كان بعض هؤلاء من بكار العلماء فواصلوا مسيرة أسلافهم في نشر العلم، سيما محمد، وأحمد الزروق.

(5)– الشيخ محمد بن أحمد بن قاسم البوني (ت 1178هـ/ 1765م):

ولد الشيخ محمد بن أحمد ساسي البوني في سنة 1116ه/ 1704م، ودرس في مسجد أبي مروان على والده[3]، وذلك ما أشار إليه الشيخ عبد الرحمن الجامعي الذي كان يحضر مجلسه "مع مشايخ بلده وولديه"[4]، ولا شك في أنه يقصد ولديه محمد وأحمد الزروق، اللذان اشتهرا بالعلم. وقد ذكر محمد في " الدرة المصونة" لوالده في هذه الأبيات[5]:

بولـــدي محـــمد التُّوسي العالم العلامة الكـــــمي

فكل أهل بلـــدي يثنون عليه خيرا قد حوى فنونا

فالله يجعله من خير خلف يحيي به مآثرا لمـــن سلف

كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد ساسي البوني من علماء بونة البارزين في عصره، وبعد وفاة والده عُيِّنَ للإشراف على جامع أبي مروان، وجامع السلطان[6]، وفي "التحفة المرضية" خبر مفاده أن الداي محمد بكداش أجبره على الإفتاء[1].

---

[1]– صبي توفيت والدته وهو متعلق بوالده، انقسم العلماء فريقان أحدهم يجعل حضانته لوالده والفريق الآخر لجدته أم والدته. ينظر: أحمد البوني، « رسالة في الحضانة » مخ. ص– ص:1-5.

[2]– هي أن أخوين أحدهما كبير والآخر صغير وللصغير وصي. فباع الأخ الأكبر ربع من نصيب أخيه. أحمد البوني، المصدر نفسه، ص – ص : 9 – 16.

[3]– H' sen Derdour , Annaba , T2, p: 105.

[4]– عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 236.

[5]– أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 79.

[6]– H' sen Derdour , Annaba , T2, p: 105.

ترك محمد البوني العديد من المؤلفات منها: "كتاب تاريخ تفصيل الحروب التسعة"، الذي ألفه بتكليف من والده، وهو خاص بالحروب التسعة التي دارت بين الجزائر وتونس[2]. أخذ الميول الشعرية بالوراثة عن والده، فنظم عدد من القصائد منها القصيدة التي مدح الداي محمد بكداش[3]، كما أنه لم يهمل الجانب الاجتماعي في قصيدة مشهورة معنونة ب:" فن في آداب السلوك"، وكتاب " المسارب فيما يتعلق بالأكل والثوب والمشارب" الذي يضم مجموع من القصائد في فن الغذاء، ولكي لا يكون الإنسان رهينة لمعدته، ونظم أيضا بعض تآليف والده:" نظم فريد مختصر خليل"، " نظم القطر لابن هشام"[4].

زار الشيخ الورثيلاني هذا البيت في بونة، قائلا بأنه زار :" أولاد سيدي أحمد ابن الشيخ سيدي زروق لا سيما من كتب اسم محمد -ﷺ- بقلم القدرة على يده اليسرى، وهو من العلماء العاملين لا نظير له في المعقول والمنقول" [5]، وقد سأل الورثيلاني في بعض المسائل فأجابه " وكان خطه أجود الخطوط، وما رأيت خطا أحسن منه"[6]. وهو الذي أجاز للورثيلاني:" وأنه أجازني - رضي الله عنه- في سائر العلوم النقلية والعقلية" [7].

وذكر الورثيلاني اسمه هكذا: محمد بن أحمد بن الشيخ سيدي زروق بن الشيخ أحمد البوني، ولو لم يقل الورثيلاني بأن تآليف والده كثيرة لا تحصى كثرة منها نظم مختصر خليل، نظم عقائد السنوسي، ونظم الجوهرة والياقوتة ... إلخ لما عرفنا أنه هو محمد بن أحمد بن قاسم البوني. والذي ذكر في صدد الحديث عن والده أحمد البوني:" والآن في الحياة ولده

---

[1]- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط1)، 1972، ص، ص: 174، 175؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 392.

[2]- يذهب فيرو وشربوني إلى أنه غير موجود في الجزائر.

[3]- محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص، ص: 174، 175.

[4]- H' sen Derdour ,Op.cit . T :2, p, p: 105, 106.

[5]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 347.

[6]- يذكر مختار فيلالي (رحلة الورتلاني عرض ودراسة، ص: 168) بأن الشيخ حسين الورتلاني زار أحمد زروق، ووصفه باشتهاره بجودة الخط، وبراعته فيه إلى جانب ثقافته الموسوعية إلا أننا اعتمدنا على نسختين من رحلة الورثلاني القديمة (طبعة فونتنا ص: 291، 292) والحديثة (الورثيلاني، الرحلة، ج1، ص: 348) إلا أنه يذكر أن الذي أجازه هو محمد بن أحمد البوني، وهو الذي قال بأنه على قيد الحياة.

[7]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص:347.

الفاضل الكامل سيدي محمد، وقد مكثت عنده نحو جمعة ..." [1]. أما الفترة التي زاره فيها فهي أثناء حجته الأولى سنة 1153ه/1740م.

وفيما يخص تاريخ وفاته فإن الورثيلاني يذكر في أحد النصوص:" والآن في الحياة ولده الفاضل الكامل سيدي محمد " [2]، والآن تعني سنة 1181ه/1767م التي انتهى فيها الورثيلاني من تقييد رحلته. في حين يذكر حسن دردور أنه توفي في سنة 1178 هـ/ 1765م[3].

(6)– الشيخ أحمد الزروق بن أحمد البوني (توفي بعد سنة 1158ه/ 1745م):

الشيخ أحمد الزروق بن أحمد بن قاسم البوني هو من مشاهير علماء عنابة، عاش خلال القرن الثاني عشر، وقد كان حيا سنة 1158هـ/ 1745م، بحيث أشار إليه ابن حمادوش في رحلته في السنة المذكورة، ومما وصفه به الورثيلاني قوله:" الفاضل العدل الثقة المبرز في العدالة، والعالم الفقيه المحدث المفسر صاحب المنقول والمعقول سيدي أحمد زروق نجل الشيخ المؤلف البركة سيدي أحمد بن الشيخ العنابي"[4].كما ذكره والده الشيخ أحمد البوني في " الدرة المصونة"

ومما ذكره بشأنه [5]:

بأحمد الزروق أيضا ولدي قوىَّ به الله الكريم خلدي
حوى فنونا مع تقوى الله أحيى به سلفـــــنا إلهي
فربنا الحليم يبقي ذكرهم وعزهم وعلمهم ونصرهم

[1]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص:347، 348.
[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 348.
[3] – H' sen Derdour , Annaba , T2, p: 106.
[4]– الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 353.
[5]– أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 79.

كتب له والده الشيخ أحمد البوني إجازة عامة في سنة 1136هـ/1723م، وهي جد مطولة[1] ولهذا تعتبر ثبتا، وقد أشركه فيها مع رفيقه محمد بن علي الجعفري القسنطيني افتتحها ببيان فضل الإسناد، وعلم الحديث الشريف إلى أن قال:" وأن ممن سابق إلى نيل شريف علاه... وكرع حتى روى من زلال صافيه، الفقيه الأجل النبيه المبجل متقن الرواية وجيد الرواية ... ولـــــــدي وقـــــــرة عيـــــــني ولدي أبا العباس سيدي أحمد الملقب بالزروق لا زال بدره في تمام وشروق، وقرنه الشاب النجيب ذو الفهم العجيب الفقيه الأجل...سيدي محمد بن علي القسنطيني ثم البوني..." [2].

كان ابنه الشيخ أحمد الزروق أيضا من مشاهير عصره، ولكنّه كان أقل تأليفا من والده[3]. زار المشرق وأخذ عن بعض علماءه ففي الحجة الأولى للورثيلاني التي كانت سنة 1153ه أخذ عن الشيخ الصباغ السكندري، وروى بعض الأخبار عن هذا الشيخ ثم قال:" وقد سمعت ذلك ممن سمع منه، والذي سمعت منه هو الفاضل ... سيدي أحمد زروق "[4].

ويبدو أنه لم يكن مهتما بالألغاز – وهي من أنواع التسلية العلمية والأدبية–كوالده، إذ وقع في أيدي أدباء مدينة الجزائر عام 1157ه/1744م " تأليف الألغاز" فاجتهدوا في حل أحد الألغاز النظمية به، وفي رحلة ابن حمادوش:" فتداولناه بيننا حتى بلغ كل عالم وأديب في البلد فلم يفتض بكرته، ولم نجد علما عند أحد به"، " فلما أيسنا من أنفسنا كتبنا إلى ابنه سيدي أحمد الزروق إن كان عنده علم به أو أمكن أن يطلع على كتب والده فليفدنا، فلم يرد جوابا"[5].

---

[1]– يذكر الكتاني (فهرس الفهارس، ج1، ص: 239) أنها في أربعة كراريس، أما النسخة التي حصلت عليها فتحتوي على 63 صفحة، ولا يوجد بها تاريخ تأليفها، إلا تاريخ النسخ، وهو في سنة 1140ه. ينظر: أحمد البوني، « ثبت البوني» مخ، ص: 63.

[2] – أحمد البوني، « ثبت أحمد البوني » مخ، ص: 1.

[3]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 62.

[4]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 353.

[5] – ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 138؛ أورد ابن حمادوش محاولات لعدد من العلماء لحل اللغز وهو أحدهم، ص– ص: 130– 138.

سافر أحمد الزورق كأسلافه إلى المشرق، ونزل بثغر رشيد بمصر والتقى ببعض العلماء به، وأجاز الشيخ خليل الرشيدي الحضري، كما أجاز في الحديث الشيخ حسن بن سلامة الطيبي، وهو شيخ السيد محمد مرتضى الزبيدي[1] نزيل مصر[2]. وذكره هذا الأخير في معجمه "تاج العروس" بقوله حول أحد النصوص:" ونقله عنه شيخ مشايخنا سيدي أحمد زروق بن محمد بن قاسم البوني التميمي الحسني في كراسة إجازة له "[3]، مع أن هناك خلل في كتابة الاسم إلا أن المقصود هو مترجمنا.

كما أجاز أحمد زورق لمرتضى الزبيدي أيضا[4]، وقد ذكر الكتاني أنه اطلع في "النفح المسكي على نص مفاده أن" أحمد بن عبد اللطيف الحسني الشهير بزورق المستوطن بعنابة، ومفتيها" بعث " إجازة كتابة من بلده سنة 1179ه" للمرتضى [5]. ويذهب الكتاني إلى أن نعته بكونه ابن عبد اللطيف يعكر عليه.

إلا أن حدوث خطأ في كتابة الأسماء وارد، من ذلك أننا نجد المرتضى يصف أحمد الزروق في النص السابق بالحسني، رغم أننا نعرف أن أسرة البوني ليست حسنية، وعليه فلا يستبعد ورود خطأ من الشيخ مرتضى في اسم أحمد زروق لا غير.

عرفنا من خلال رحلة الورثيلاني أنه كان حيا سنة 1158ه/1745م، وما دام الورثيلاني يذكر في أحد النصوص متحدثا عن محمد البوني:" والآن في الحياة ولده الفاضل

---

[1] – أبو الفيض محمد بن محمد العلوي، الزبيدي النسب (1145-1205هـ/ 1732- 1791م): نشأ في بلاده الهند، ورحل في طلب العلم إلى الحجاز ومصر، التي دخلها سنة 1167 هـ، وقد عرف بحرصه الشديد على جمع الأسانيد، وتخاريج الأحاديث، وألّف في ذلك كتبا، ورسائل ومنظومات وأراجيز جمة. من مؤلفاته: ألفية السند، وكتاب تاج العروس. الجبرتي، عجائب الآثار، ج2، ص- ص: 73- 79؛ الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص- ص: 526- 529؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص: 681.

[2] – الكتاني، فهرس الفهارس. ج1، ص:238.

[3] – مرتضى الزبيدي، شرح القاموس "تاج العروس من جوهر القاموس". مصر: المطبعة الخيرية، (ط1)، 1888م. ج1، ص:14.

[4] – وفي تعليق لأبي القاسم سعد الله أنه هو الذي أجاز محمد مرتضى الزبيدي صاحب "تاج العروس".ينظر: رحلة ابن حمادوش، ص: 138، هـ: 2.

[5] – الكتاني، المرجع السابق، ج1، ص:238.

الكامل سيدي محمد" [1] والآن تعني سنة 1181ه/ 1767م التي انتهى فيها الورثيلاني من تقييد رحلته، وهذا النص قد يؤكد أن أخاه أحمد الزوق كان قد توفي في هذا التاريخ.

(7)– بعض أفراد الأسرة من أهل العلم:

ومن المشتغلين بالعلم من هذا البيت والمذكورين في "الدرة المصونة" لأحمد البوني فصلا معنون ب:" في ذكر بعض باقي قرابتي" منهم:

– السيد أحمد: عم والده، وقد وصفه صاحب "الدرة المصونة" بحسن الخط، والعلم والتقوى، والفقه والتوحيد، والإنشاء والنحو والصرف، والفرائض، وله في طريق القوم ".

ومنهم عمه علي الذي رحل إلى مدينة الجزائر، فأخذ العلم عن الأنصاري"، ثم أجازه بكل فن"[2]. وممن ذكرهم في منظومته أخيه الفقيه حمودة [3].

– المبحث الخامس: البيوتات والأسر العلمية ببلاد زواوة

(أولا)– البيوتات العلمية ببجاية منذ تبعيتها إلى الحفصيين إلى مطلع القرن 16م:

اصطبغت البيوتات العلمية بمدينة بجاية في ظل الحفصيين بالصبغة السياسية أكثر من الصبغة العلمية، وقد كان لها على قلتها بمقارنتها مع بيوتات تلمسان أدوار سياسية بارزة[4]، حتى أن بعض أبناء هذه البيوتات من الولاة والحجاب تحولوا إلى مستبدين بالسلطة في بجاية، كما فعل ابن سيد الناس. كما أنّ أغلب هذه البيوتات ذات أصول أندلسية لأن سياسة البيت الحفصي الحاكم ارتكزت على اصطناع الأندلسيين، فأسندوا إليهم أعلى المناصب في الدولة: الكتابة، الحجابة، الوزارة، الولاية. والبيوتات العلمية ببجاية في ظل الحفصيين عديدة نذكر منها: بيت ابن خلدون، وبيت المشذالي، وبيت ابن سيد الناس اليعمري، وبيت القاضي الغبريني.

---

[1] – الورثيلاني، الرحلة، ج1، ص: 348.

[2] – الفصل السادس، المخصص لبعض قرابته، ويضم 41 بيتا. ينظر: أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 78.

[3] – أحمد البوني، الدرة المصونة، ص، ص: 79. وذكر البوني أن أخاه حمودة لم يعقب.

[4] – رفيق خليفي، « البيوتات الأندلسية » رسالة ماجستير، ص : 245.

(أ)– بيت المشذالي:

يعد بيت المشذالي أشهر البيوتات العلمية ببجاية خلال العهد الحفصي[1]، و" المشذالي بفتح الميم المعرفة وشد الذال، نسبة لقبيلة من زواوة". وقد رصدت المصادر أربعة من علماء هذا البيت وهم:

بلقاسم (أبو القاسم) بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشذالي البجائي[2]، وابنه أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد المشذالي (ت 866ه/1461م)، وهو من كبار علماء عصره، تولى الخطابة بالجامع الأعظم ببجاية، وتصدى للفتوى والتدريس بها، كان ذو وجاهة عند صاحب تونس[3]. وولديه العلامة أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشذالي (ت865ه/1460م)، ومحمد بن محمد بن أبي القاسم (ت859ه/1454م)[4].

(ب)– بيت بنو خلدون:

يمكن اعتبار بيت بنو خلدون من بيوتات بجاية لكونها محطة مهمة لرجال هذا البيت رغم تنقلهم بين مختلف عواصم الغرب الإسلامي. برز بنو خلدون بمدينة إشبيلية منذ القرن الثالث الهجري، واحتفظوا بمكانة رفيعة لقرون عدة، وتولى بعضهم قيادة الجيش الأندلسي، وتدخلوا في السياسة[5]. واستطاعوا تكوين ثروة، ويؤكد ابن حيان القرطبي (ت469هـ/1076م) في كتابه "المقتبس" منزلتهم في عصره بقوله:" وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية نهاية في النباهة، و لم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية "[6]، ولما انتقلوا لبلاد المغرب كان لهم به من

---

[1] – روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي. ج2، ص: 331.

[2] – أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 150.

[3] – أحمد بابا التنبكتي، المصدر نفسه، ص: 538، 539.

[4] – أحمد بابا التنبكتي، المصدر نفسه، ص: 541– 542؛ معجم المؤلفين، ج11، ص: 259.

[5] – استطاع كُرَيْب بن خلدون خلال القرن 3ه الاستقلال بإشبيلية، كإمارة خاصة تكاد تكون مستقلة عن قرطبة دار الإمارة لفترة من الزمن، كما كان منهم الوزراء لأكبر إمارة من ملوك الطوائف، وهي إمارة بني العباد أصحاب إشبيلية. ابن خلدون، رحلة ابن خلدون. ص– ص: 29–32.

[6] – ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص:30.

الرياسة ما كان لأسلافهم بالأندلس، فتقربوا من الحكام الذين أقطعوهم الإقطاعات، وعينوهم في المناصب الرفيعة كالحجابة والأشغال والكتابة والخطابة وغيرها من الوظائف.

ومن رجال هذا البيت أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن خلدون (ت681هـ/ 1282م) الذي عين في منصب صاحب الأشغال[1]، وهذه الوظيفة هي بمثابة وزير المالية، وابنه محمد بن أبي بكر (ت737ه/1336م) الذي عينه السلطان أبو إسحاق سنة 679هـ/1280م حاجبا ببجاية لابنه وولي عهده فارس عبد العزيز[2]. في حين سلك ابنه أبو بكر محمد بن محمد بن أبي بكر (ت750هـ/1349مـ) مسلكا مغايرا لما عرف به البيت الخلدوني، مسلك العلم والزهد، واشتهر بنبوغه في العربية وفنون الأدب والشعر. وعرف له من الأبناء ثلاثة وهم: عبد الرحمن، يحي، ومحمد، نشأ الإخوة الثلاث في كنف بيتهم العريق، وكان من شأن تلك البيئة أن تولد في نفوسهم حب الرياسة الجاه والمناصب، وحب العلم والتضلع فيه[3].

فأما ابنه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808ه/1405م) فتقلب في المناصب السياسية والعلمية والدينية في بجاية فاس وتونس والأندلس ومصر، إلا أن الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية استأثرت بأكبر قسط من نشاطه. ومن أهم الوظائف التي تولاها: الحجابة، وخطة المظالم، والكتابة الإنشاء، الخطابة[4].

نال عبد الرحمن بن خلدون رفعة وحظوة لدى الكثير من السلاطين، ودفع ثمن تلك الحظوة في الكثير من المرات بالسجن[5]حينا وبالعزل حينا آخر. إن تقلبات الدول ومؤامرات القصور والبلاطات جعلت ابن خلدون يقرر اعتزال السياسية، فيتفرغ منذ حوالي عام 776ه/1374م

---

[1]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص:34؛ رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية، ص:277.

[2]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 44؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص:34؛ برنشفيك، تاريخ إفريقية، ج1، ص: 112.

[3]- نهلوا مختلف العلوم على والدهم وعدد كبير من العلماء من أهل تونس، ومن الطارئين عليها. ذكر عبد الرحمن بن خلدون في رحلته أسماء العلماء الذين تتلمذ عليهم، كما ذكر أخاه يحيى بعض شيوخه في بغية الرواد بصفة «شيخنا»، ولا بد أن الإخوة اشتركوا في بعض مشايخه. ينظر: رحلة ابن خلدون، ص- ص: 36- 64 ؛ يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: ألفرد بل. الجزائر: مطبعة بيير فونتانا الشرقية، 1902. ج 1، ص: 57.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، مواضع متفرقة مثلا الصفحات: 65، 72، 75، 80، 82، 95، 96.

[5]- في سنة 758ه حبسه السلطان أبي مرين لاتصاله بالأمير محمد صاحب بجاية ولم يخرج من سجنه إلا بعد حوالي سنة. ينظر: رحلة ابن خلدون، (ط 2004). ص: 73.

للتأليف، وللعلم تعليما وتعلما. ومنذ سنة 784ه/1382م رحل ابن خلدون إلى المشرق[1]، واستقر بمصر، فكان له حظوة لدى رجال الدولة بها، حتى أنهم ولوه منصب قاضي قضاة المالكية خمس مرات[2]، وتوفي بمصر سنة 808ه/1405م [3].

إنَّ اشتغال ابن خلدون بالكتابة أظهر قريحته في مجال الأدب، وموهبته في صناعة الشعر، وعبر عن ذلك بقوله:" أخذت نفسي بالشعر فانثال علي منه بحور توسطت بين الإجادة والقصور"، فترك عدة قصائد في أغراض شعرية مختلفة [4]. وبعض التآليف وأشهرها كتابه " العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"[5]. وهو كتاب ضخم يتألف من عدة مجلدات.

وتولى أخاه أبو زكريا يحيى بن محمد بن خلدون هو الآخر وظائف في بلاطات المرنيين والزيانيين من أهمها كتابة الإنشاء[6]، وتورط هو الآخر في دائرة الصراعات السياسية حتى ذهب ضحية لها، وانتهت حياته بنهاية مأساوية سنة 780هـ/ 1378م[7].

أما الشق الثاني من حياة يحي بن خلدون فهو رجل العلم والأدب والتاريخ، إذ عرف بتميزه في الأدب، وتظهر مكانة الأدبية الرفيعة ليحي من ثنايا الخطاب الذي وجهه له ابن الخطيب، والذي يصف براعته بقوله:« إن البيان يا آل خلدون سكن مثواكم دار الخلود... واستأثر في محابركم السيالة، وقضيب رماحكم الميادة والميالة ». وعرف يحي في مجال التاريخ

---

[1]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص- ص: 188- 190.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، الصفحات: 205، 208، 272، 299، 300.

[3]- أحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج، ص: 252.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص:74؛ رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية، ص:283.

[5]- التنبكتي، المصدر السابق، ص: 251.

[6]- يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج 2، ص:76، 238؛ ج 3، ص- ص: 200 – 202؛ رحلة ابن خلدون، ص: 186.

[7] - حدثت منافسة شديدة بين ولدي الأمير أبي حمو- الذي كان يحي كاتبا لسره- على حكم وهران، أبي زيان الذي كان حاكما لها، وأبي تاشفين الذي طمع بحكمها لنفسه، ولما ماطله والده بطلبه، ظن أبو تاشفين أنّ الأمر قد دُبِرَ من قبل كاتبه يحيى، فدبر له مكيدة ذهب يحي ضحيتها. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 7، ص. 140.

أيضا وإن لم تبلغ مكانته في هذا المجال مكانة أخاه عبد الرحمن، ويشهد على ذلك كتابه "بُغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد "[1].

ورغم الشهرة التي حظي بها بيت المشذالي وبيت ابن خلدون إلا أنهما اختفيا منذ القرن التاسع الهجري، ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة لبيت ابن سيد الناس اليعمري، وبيت القاضي الغبريني فلم نجد من يمثلهم خلال العهد العثماني إلا أننا عرفنا عالما واحدا من كل بيت خلال القرن العاشر الهجري (16م)، وبالتحديد خلال الأحداث التي عرفتها المنطقة إثر الاحتلال الإسباني لبجاية، فوجب علينا أن نعرف لهما بشكل مستفيض بخلاف البيتين السابقين، فلعلهما أنجبا علماء آخرين خلال العهد العثماني و لم نتمكن من معرفتهم نتيجة شح المادة العلمية التي هي ميزة العهد الذي ندرسه.

(ج) – بيت بنو سيد الناس اليعمري ببجاية:

بيت بنو سيد الناس أندلسي الأصل. وتسمية مؤسس هذا البيت بسيد الناس بالأندلس يؤكد على ما بلغه هو وبيته من جاه وسؤدد، واستمر هذا اللقب في عقبه. وقد نبغ عدد من علماء هذا البيت منذ كانوا بالأندلس.

(1)– علماء بيت ابن سيد الناس في العهد الحفصي:

ويعد الحافظ المحدث أبو بكر أو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي الملقب ابن سيد الناس(ت659ه/1260م)[2] أحد أشهر أبناء البيت اليعمري بإشبيلية، وهو الذي نزح إلى بجاية[3]. وهناك عمل أصلاء بلده من الإشبيليين بالتنويه بفضله وعلمه، فولاه أصحاب القرار ببجاية الإمامة والخطابة بجامعها الأعظم[4]. وبعد سنوات عدة

---

[1]– أفصح في مقدمته عن أنه ألفه للأمير أبي حمو بقوله :" تخليداً ما لدولته الكريمة من معال، وبأس ونوال... وما جمعته سيرته الكريمة من حرب وسلم... ". ينظر: يحي بن خلدون، البغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. ج 1، ص: 4.

[2]– أبو الحسن أحمد بن الخطيب بن قنفد، الوفيات. ص: 326.

[3]– الغبريني، عنوان الدراية، ص– ص: 291– 295؛ رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية، ص– ص :257– 259

[4]– الغبريني، المصدر نفسه، ص: 291– 295؛ رفيق خليفي، المرجع نفسه، ص :259– 261.

استدعي إلى تونس من طرف السلطان المستنصر بالله الحفصي[1] الذي كان حريصا على تجميع الكفاءات العلمية والنخب السياسية، وذوي البيوتات والأحساب إلى حضرته، لبى أبا بكر بن سيد الناس دعوة السلطان مفضلا حاضرة الدولة على بجاية، واستطاع أن ينال حظوة عند المستنصر، فوّلاه خطابة الجامع الأعظم الجديد، مع التدريس في المدرسة التوفيقية [2].

وتشير كتب التراجم إلى شخصية أخرى من علماء البيت اليعمري ألا وهو عبد السلام بن علي بن عمر بن سيد الناس المعروف بأبي محمد الزواوي (ت681ه/1282م). انتقل عبد السلام بن علي شابا إلى المشرق، واستقر بدمشق، أصبح شيخ مشايخ الإقراء بها، كما تولى القضاء لمدة [3].

كان أبا بكر بن سيد الناس المُترجم له من قبل حريصا على تعليم أبناءه وبناته على حد سواء، وتفيدنا النصوص التاريخية بثلاثة من أبناءه وهم: أبو عمر محمد، وأحمد المكنى بأبي العباس، وبأبي عبد الله، وأخيه أبي الحسين محمد. حصل كل أبناء أبا بكر على نصيب وافر من العلم، إلا أن واحدا منهم فقط وهو أبو عمر الذي سلك طريق والده، بينما شق أخواه طريقا مغايرا ف" عدلوا عن طلب العلم"، حيث فتح لهم قربهم من البلاط باب الطموح للمناصب والجاه.

كان الأمير أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبي إسحاق والمرشح لولاية عهده، على سابق معرفة بابني أبي بكر بن سيد الناس، فاختص أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس (ت679ه/ 1280م) بلقب حجابته[4]، إلا أن بعض رجال الدولة نجح في تخويف السلطان

---

[1]- السلطان أبو عبد الله المستنصر بالله الحفصي بن المولى أبي زكريا حكم في الفترة الممتدة بين سنتي:647- 675ه. ينظر: الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، ص: 62 وما بعدها.

[2]- رفيق خليفي، المرجع السابق، ص :262.

[3]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 162.

[4]- كان الحاجب المحلي في كل من بجاية وقسنطينة يعتبر رديف الأمير الوالي ومساعده المباشر. برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص: 55.

أبا إسحاق[1] من أحمد، وبأنه سيدفع أبو فارس إلى الانقلاب على أبيه، فأمر السلطان بقتله[2].

وفضل أخاه أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس (ت690ه/1291م) هو الآخر الاشتغال بالسياسية رغم تلقيه لنصيب وافر من العلم[3]. وبرز في الأحدث التي عرفتها المنطقة منذ سنة 681ه/1282م على إثر ثورة الدعي أبي عمارة[4]، الذي تمكن من الاستلاء على عاصمة الحفصيين تونس، وعمل على استئصال أفراد البيت الحفصي، ونجي الأميران أبو زكريا بن أبي إسحاق، وأبو حفص عمر الأول بن أبي زكريا.

نجى الأمير أبو حفص بمساعدة بعض صنائع دولتهم، وكان أبو الحسين بن سيد الناس من جملتهم، حيث لاذوا به إلى قلعة سنان معقل هوارة[5]، ومنها عمل الأمير أبو حفص على استرجاع ملك آباءه، ولما تمكن من القضاء على الدعي ابن أبي عمارة سنة 683ه/ 1284م، كافأ منقذيه بالإقطاعات وبالمناصب الرفيعة كقيادة، والحجابة، دون أبو الحسين بن سيد الناس [6]، فلحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان، التي كان بها لدى صهره السلطان عثمان بن يغموراسن، وأقنعه بطلب ملك أبيه، فلاقى ذلك هوى في نفس أبي زكريا، وساعده في العودة، وتمكن من جذب عدد من المناطق في طاعته، واستقر ببجاية التي أصبحت إمارة له، وكافأ ابن سيد الناس بمنصب الحجابة، وقد انتزع من سيده تفويضا بتدبير شؤون ولايته[7]. وهكذا أحدث ابن سيد الناس شرخا كبيرا في جسم الدولة الحفصية، بإحداث القطيعة بين بجاية وتونس.

---

[1]- السلطان أبا إسحاق إبراهيم الحفصي حكم في الفترة الممتدة بين سنتي:678- 682ه. ينظر: الشماع، الأدلة البينة النورانية، ص- ص: 75- 79 .

[2]- ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص: 138.

[3]- الغبريني، عنوان الدراية. ص: 295.

[4]- أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية القادمين إليها من المسيلة. ينظر: الشماع، المصدر السابق، ص: 79 وما بعدها.

[5]- محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص: 48.

[6]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، (ط2004)، ص: 34، 35.

[7]- رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية، ص- ص : 264- 266.

بعيدا عن أضواء السياسة كان أبو عمر محمد (ت705ه/1305م) الابن الثالث لأبي بكر بن سيد الناس يؤسس لأسرة علمية نابغة، إلا أنه رحل إلى المشرق، واستقر بمصر وتولى مشيخة المدرسة الكاملية[1]، وسلك أبناءه بمصر طريق والدهم في طلب العلم[2].

نشأ الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحاجب أبو الحسين محمد (ت733ه/1332م) في بجاية، وترعرع في ظل الإمارة وقصورها، لصلة والده بأمير بجاية. أمَّا بروزه على الساحة السياسية فكان مع الأمير أبو يحي أبو بكر بن أبي زكريا والي قسنطينة، الذي تمكن من اعتلاء عرش المملكة الحفصية خلال الفترة الممتدة من سنة 718ه/1318م إلى سنة 747ه/ 1346م[3].

وكان محمد بن سيد الناس قد دخل في خدمة الأمير أبو بكر منذ كان على رأس قسنطينة، فعينه في سنة 721ه/1321م على بجاية حاجبا، ووصيا على أميرها الصغير ولده أبي زكريا، وفي نفس الوقت قائدا عسكريا، إلا أنه استغل صغر سن الأمير، وانشغال والده السلطان أبي بكر بين قسنطينة وتونس وأخذ يصطنع الرجال، ويطلق يده في تسيير شؤون الإمارة. واتسعت صلاحيات ابن سيد الناس لتشمل تدخله في العلاقات الخارجية[4].

وفي سنة 727ه/1326م أضيفت لابن سيد الناس حجابة قسنطينة مع ما كان يتولاه، ثم عين لحجابة السلطان أبي بكر في تونس، وفي نفس الوقت جدد له العقد على بجاية وحجابة أميرها أبي زكريا[5]، وظل نفوذ الحاجب ابن سيد الناس يزداد والسِعَايات تكثر فيه

---

[1]- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص، ص: 100، 101؛ رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية، ص : 267.

[2]- منهم: أبي سعيد محمد (ت728ه)، وأبي القاسم محمد (ت749ه)، وأبي الفتح محمد (ت 734ه)، الذي بلغ بالبيت اليعمري غاية المجد العلمي، وهو مؤلف أحد أشهر كتب السيرة النبوية المعنون ب" عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير". ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4، ص- ص: 130- 133؛ رفيق خليفي، المرجع السابق، ص : 267.

[3]- أبو عبد الله محمد الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، ص- ص: 84- 89.

[4]- برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1، 184، 185؛ رفيق خليفي، المرجع السابق، ص: 270.

[5]- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 67.

بسبب استبداده بأمور الدولة ببجاية وتونس، وفي سنة 733ه/1332م أمر السلطان بالقبض عليه، ثم قتل في السنة نفسها[1].

(2)– أبو يوسف بن الحسين بن علي بن سيد الناس (القرن 10هـ/ 16م):

لقد جنت الكتابة التاريخية على الفترة الانتقالية بين التاريخ الوسيط والحديث بالنسبة للمغرب الأوسط، لذلك لا يمكننا أن نغطي هذه الفترة كما ينبغي، وبالنسبة لبيت بنو سيد الناس فلم نتمكن من رصد علماءه إلا بعد أكثر من قرن، بحيث أشار أحد المصادر إلى شخصية علمية تتمثل في أبي يوسف بن الحسين بن علي بن سيد الناس.

يعد الشيخ أبو يوسف بن سيد الناس من أهم علماء بجاية في وقته، وقد وردت الإشارة إليه عرضا في كتاب "عنوان الأخبار فيما مرَّ على بجاية " للشيخ أبي علي إبراهيم المريني البجائي[2]، وكان ابن سيد الناس قد خرج مع الأميرين أبي فارس وأبي عبد الله ابني صاحب بجاية السلطان عبد العزيز في بعض القبائل لرد الغزاة الإسبان على مدينتهم، التي غزاها الكونت بطرس النفاري في جانفي 1510م، ولكنها لم تستسلم بسهولة ودخل أهلها في مقاومة المحتل بقيادة سلطانها وأبناءه، وكان مترجمنا مشاركا في إحدى المعارك التي وقعت في شهر مارس 1510م، والنص كما ورد في الكتاب:" اندفع ولدا السلطان عبد العزيز، أبو فارس وأبو عبد الله وسط كل هؤلاء المحاربين لخوض الحرب المقدسة مصحوبين بأربعة من علماء المدينة الأجلاء[3]..." وذكر منهم :" أبو يوسف بن الحسين بن علي من نسل سيد الناس"[4].

---

[1]– الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 70؛ ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص: 165.

[2]– نشر شارل فيرو هذا المخطوط في المجلة الإفريقية على قسمين: في العدد 67 ، القسم الأول ص– ص: 245– 257، والقسم الثاني ص– ص: 337– 349.

[3]– العلماء الثلاثة الآخرين هم: أبو أحمد بن إسماعيل بن علي كناني، الحاجب السابق للأمير إبراهيم المتوفى في عهد الأمير العباس، وأبو عيسى بن إبراهيم الهنتاني، المكلف بشؤون السلطان، والداعية أبو علي بن محمد.

[4] -Charles Féraud, Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit Arabe. In **R. A**. 12 Année, N° : 67, Janvier 1868. P :253 .

إلا أننا لا نعرف مصير ابن سيد الناس، إذ لم ترد الإشارة إليه مرة أخرى، فهل تراه استشهد في هذه المعارك التي استشهد فيها الكثير من المسلمين منهم رجال الدين والعلماء والمرابطون، بالإضافة إلى ابنا السلطان عبد العزيز الأميران أبو فارس وأبو عبد الله[1].

(د)- بيت ابن القاضي الغُبريني:

ينتسب أولاد القاضي الغُبريني إلى قبيلة " بني غبري" البربرية في أعلى وادي سيباو، بالقرب من مدينة بجاية[2]، وقد اشتهر أبناء هذا البيت بتداولهم على القضاء ببجاية.

(1)- علماء بيت ابن القاضي في العهد الحفصي:

أنجب هذا البيت عدد من العلماء أشهرهم الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد[3]بن عبد الله بن محمد بن علي بن عمر، المشتهر بالغُبريني (ت 704ه/1304م)، وهو من كبار فقهاء المالكية في وقته، وتصفه المصادر بما يدل على ذلك[4]، بحيث وصفه ابن خلدون ب:" كبير بجاية وصاحب شوارها "[5]، ولي قضاء الجماعة ببجاية[6]، واشتهر بكتابه: "عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية". وله أيضا " المورد الأصفى" و" الفصول الجامعة "[7].

ورغم المكانة التي تمتع بها الغبريني بين معاصريه إلا أن نهايته كانت مأساوية، إذ قتل من طرف أمير بجاية أبي البقاء خالد بن يحي الحفصي[8]، وكان هذا الأمير قد أوفد أحد أقاربه في مهمة إلى سلطان تونس وأرفقه ب:" القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب

---

[1]-Ibid. P :254 .

[2]- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 248.

[3]- تذكر أغلب المصادر أن اسم والده أحمد، وتذكر بعضها أن اسم والده محمد. كوفيات ابن قنفد، ص: 338.

[4]- وصفه ابن قنفد (الوفيات، ص: 338) ب:" الفقيه المحدث الجليل الشهير الفاضل قاضي الجماعة "، ووصفه من المُحْدثين الكتاني ب:" العلامة القاضي الأديب أبو العباس أحمد بن الشيخ الأثيل الصالح أبي العباس أحمد ". ينظر: فهرس الفهارس، ج2، ص: 883.

[5]- ابن خلدون، العـــــبـــــــر، ج 6، ص: 719.

[6]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص: 518.

[7]- نويهض، المرجع السابق، ص: 249.

[8]- كان أميرا لبجاية وقسنطينة بعد وفاة والده أبو زكريا، ثم أصبح سلطان للدولة الحفصية بين سنتي: سنة 709ه، و711ه، وتلقب بالناصر لدين الله. ينظر: أبو عبد الله محمد الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، ص، ص: 84، 85.

شوارها، فأدوا رسالتهم وانقلبوا إلى بجاية"، فأشاعت بطانة السلطان أن الغبريني "داخل صاحب الحضرة في التوثب بالسلطان (أبي البقاء)" ولهذا قتله، وكان ذلك سنة 704ه/1304م[1].

وتذكر المصادر اثنان من أبناءه أولهما هو: أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني أبو القاسم التونسي (ت بعد770ه/1363م)، وهو الآخر من كبار العلماء بعصره، تولى الفتيا بتونس والخطابة، وتصدى للتدريس. وثانيهما هو: أحمد بن أحمد بن أحمد أبو سعيد الغبريني (ت نحو 775ه /1373م)، وهو محدث من كبار فقهاء المالكية، تولى الإمامة الخطابة[2].

(2)- أبو محمد بن أحمد بن القاضي الغربيني (القرن 10ه/ 16م):

تتميز الفترة الانتقالية بين العصرين الوسيط والحديث بجور الكتابة التاريخية عليها، ولهذا لم يتيسر لنا تتبع مسار البيوتات التي كانت بالمنطقة، وبالنسبة لبيت ابن القاضي وردت إشارة إلى أحد العلماء خلال العقد الثاني من القرن العاشر الهجري في كتاب " عنوان الأخبار فيما مرَّ على بجاية" لأبي علي إبراهيم المريني البجائي، ووصف بأنه " رجل مثقف (متبحر) في كل العلوم "[3].

وردت الإشارة إليه في الأحداث التي عرفتها المنطقة إثر احتلال بجاية من طرف الإسبان عام 1510م، فبعد وفاة السلطان عبد العزيز صاحب بجاية[4] خلفه ابنه الأمير العباس، وظل النزاع مستمرا بينه وعمه أبي بكر صاحب قسنطينة حول زعامة البلاد الداخلية، ذلك أنَّ

---

[1]- أغلب المصادر على أنه توفي سنة 704ه، ومنها ابن قنفد " الوفيات"، (ص: 339)، إبراهيم بن نور الدين، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محي الدين الجنان. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 1996. ص: 136، في حين تذهب بعض الكتابات على أنه توفي سنة 714ه، ومنها فهرس الفهارس للكتاني (ج2، ص: 883)، وشجرة النور الزكية، وهذا غير صحيح لأن الأمير أبي البقا كان متوفيا في سنة 714ه.

[2]- التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 104؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 249، 250.

[3]-Féraud, Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit Arabe. P :342.

[4]- تعرضت بجاية للغزو الإسباني في جانفي 1510م، بزعامة الكونت بطرس النفاري ولكنهم لم يستولوا عليها إلا في اليوم 5 صفر من عام 915ه/ 25ماي 1510م. ينظر: (Féraud, Op.cit. p-p : 337-342 .).

الإسبان اكتفوا باحتلال المناطق الساحلية الرئيسية، وشرعوا في إقامة علاقات مع السلطة المحلية لحماية خلفيتهم، والتزود بالإمدادات الضرورية لحاميتهم[1].

ولهذا دخلوا في مفاوضات مع العباس في عام 1511م، فاستعان الطرفان في ذلك بالوسطاء، هذا إذا أخذنا بمصنف المريني:" إن الذي اشتغل كوسيط بينهما هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن القاضي الغبريني، وهو رجل مثقف (متبحر) في كل العلوم "[2]. وأفضت تلك المفاوضات إلى إبرام معاهدة[3] بين العباس وأنطونيو دي رافادينا[4]. إنّ ما يهمنا في هذه الأحداث هو مشاركة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن القاضي الغبريني فيها فهو عالم، ومشاركته في المفاوضات تدل على كفاءته، ومكانته من جهة ثانية. فهل أبو محمد هذا هو نفسه أحمد بن القاضي مؤسس إمارة (سلطنة) كوكو، أو هو أحد أقاربه.

بما أننا لا نتوفر على أدلة لإثبات أو نفي ذلك، نشير إلى أن أوجه الشبه بين الشخصيتين كثيرة جدا، ولهذا وقع كثير من الدارسين في تردد، فهذا يوسف بنوجيت يتساءل أولا إن كانا نفس الشخصية[5]، ثم يعود مرة أخرى ليتناول الموضوع على أنهما شخصية واحدة فيعرف أحمد بن القاضي سلطان كوكو بقوله:" اشتغل أحمد بن القاضي قاضيا لدى السلطان عبد العزيز، وعند احتلال بجاية وحدوث التنافس بين أبي بكر وأخيه ثم بينه وبين أبناء أخيه انحاز ابن القاضي إلى جانب العباس، وقام بدور المفاوض مع رفادينا، وفي هذه الفترة توطدت العلاقة بينه وبين عروج"[6].

---

[1]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد. ص- ص: 81- 84.

[2]- قتل السلطان عبد العزيز من طرف أخاه أبا بكر، فبايع الناس ابنه العباس وهو آخر أبناءه ينظر:

- Féraud, Conquête de Bougie par les Espagnols. in **R A**, N° : 67. P : 338.

[3]- جاء في هذه المعاهدة :" يعترف الإسبان بسيادة الأمير عبد الرحمن (أخو العباس) على البلاد الداخلية (أراضي مملكة بجاية سابقا باستثناء المدن الساحلية)، ويعترف لمولاي عبد الله بحق السيادة على ربض بجاية، وينص البند الأخير على التحالف الدفاعي الهجومي بين الطرفين، وبمقتضى ذلك يُعين الإسبان أميري القلعة للوقوف ضد أبي بكر. ينظر: يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس، ص، ص:95، 96.

[4]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 115.

[5]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 94.

[6]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 110.

ويظهر جليا تردد يوسف بنوجيت في شخصية ابن القاضي في النص الموالي:" أما أصل هذه الشخصية التي لعبت دورا لا يستهان به في تاريخ بلدنا، والذي أسس دولة دام حكمها لقرون، وكذا الوسائل التي استعان بها لإقامة إمارة، فكلها أمور لا تزال مجهولة"[1].

أما صالح عبَّاد فيذهب إلى أنَّ هذا الوسيط هو ابن مؤسس إمارة كوكو في قوله:" يبدو أن الوسيط بين العباس والإسبان، الذي ذكره المريني هو ابن ذلك الذي تُنسب إليه مملكة كوكو أحمد بن القاضي"[2].

ومحمد بن أحمد بن القاضي هو الذي انقلب على خير الدين بربروس وتحالف مع سلطان تونس سنة 1520م، كما هو مبين في "مذكرات خير الدين بربروس"، من ذلك هذا النص:" كان ابن القاضي أحد عظماء العرب بالجزائر، كما كان يُكِّنُ لي قدرا كبيرا من الصدق والمودة، حاول سلطان تونس أن يحرضه للخروج عليّ إلا أنه لم يوافقه على ذلك... الآن توفي هذا الرجل العاقل، وحل محله ولد طائش يدعى ابن القاضي أيضا، فكان أول ما فعله أن اتفق مع سلطان تونس على أن يكونا يدا واحدة ضدي "[3].

فإذا كان هذا الرأي صحيحا فنحن أمام عالمين من بيت واحد هما أحمد بن القاضي، وابنه محمد بن أحمد بن القاضي الذي وصف من طرف المريني بالتبحر في العلم.

وبالنسبة لأحمد بن القاضي صاحب مملكة كوكو، فهو من عائلة ذات صيت في القضاء، حظيت لأجيال عديدة بمنزلة رفيعة في المملكة الحفصية ببجاية[4]، وهو أيضا من العلماء المشهود لهم بالعلم، و لم يحد على طريق أسلافه فاشتغل قاضيا لدى السلطان عبد العزيز آخر سلاطين بجاية [5]. وقال فيه معاصره الإمام عبد الله بن محمد الهبطي المغربي[1] :" ما رأيت

---

[1]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس، ص: 115.

[2]- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514- 1830. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط3)، 2011. ص: 34.

[3]- خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج. الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، (ط1)، 2010. ص: 109؛ وينظر أيضا: المصدر نفسه، ص- ص: 114- 124؛ والفصل الخاص بالدور السياسي للبيوتات.

[4]- يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص: 122.

[5]- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510- 1541م)، تر: جمال حمادنة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007. ص: 26، 27؛ يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص: 110.

فيمن أدركت من المشايخ من كان على الجادة، وجاء بالتربية النبوية على أصلها المعروف من سيرة الرسول -ﷺ- مع أصحابه إلا رجلين"، أحدهما هو "... الشيخ أحمد بن القاضي بجبل زواوة"[2].

وخصه صاحب "دوحة الناشر" بترجمة وصفه فيها بأنه:" كان من الفضلاء الأخيار، والصلحاء الأبرار، مجتهدا باذلا نفسه وماله في إقامة شعائر الدين، وغزو أعداء الله الكافرين..." إلى أن قال:" وهو كان سبب دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيلائهم عليها، وعلى المغرب الأوسط إلى الآن، لحسن ظنه بهم، ومحبته الجهاد في سبيل الله تعالى، وبعد ذلك تنكروا له شأن رياسة المتغلبين، وقتلوه شهيدا رحمة الله عليه في العشرة الثالثة "[3].

(ثانيا): بيت الورثيلاني ببلاد زواوة:

(أ)- نسبه ومكانته:

اشتهرت أسرة الورثيلاني " بالعلم والصلاح، وهي تنتمي إلى قبيلة بني ورثيلان[4] قرب بجاية[5]. وتعود أصولها الأولى إلى شرفاء تافيلالت، إحدى القبائل العربية التي استوطنت جنوب المغرب الأقصى، وقد هاجر الجد الأكبر لهذه الأسرة من تافيلالت واستقر ببجاية، ويذهب مختار فيلالي إلى أن سبب استقرار جده هذا ببجاية لأنها كانت إحدى المراكز العلمية الكبرى إبان العصر الوسيط[6]، دون أن يبين المستندات التي اعتمد عليها فيما ذهب إليه، سيما وأن لا الورثيلاني ولا غيره من المصادر ذكر فترة استقرار جده هذا ببجاية لا سببه.

أما نسبتهم إلى شرفاء تافيلالت فأشار إليها الشيخ الحسين الورثيلاني في رحلته بقوله

---

[1]- الهبطي (ت 963ه)، هو من أبرز رجال العلم والتصوف بالمغرب الأقصى. ينظر: محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان من بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي. الدار البيضاء (المغرب): منشورات مركز التراث المغربي، (ط3)، 2003. ص- ص: 15- 21.

[2]- ابن عسكر، المصدر نفسه، ص: 94.

[3]- ابن عسكر، المصدر نفسه، ص: 114.

[4]- ذلك ما ذكره الشيخ حسين الورثيلاني في رحلته:" عرشنا بني ورثيلان". ينظر: رحلة الورتلاني، ج1، ص: 85.

[5]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 143.

[6]- مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة. باتنة: دار الشهاب للطباعة والنشر، 1979. ص، ص: 12، 13.

:"ومن إخواننا الشرفاء الزابر لهذه الرحلة العبد الضعيف الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر أحمد الشريف نجل الشيخ الولي سيدي علي البكاء البجائي، هكذا ثبت بخط جدي وهو ثقة، وأصله والله أعلم من تافيلالت أي من شرفائها "[1].

ويبدو من خلال ما أورده الورثيلاني عن شجرة نسبه أنه وقع في خلل، فلم يضبط نسبه كاملا، حيث ذكر أن جده أحمد الشريف كان له ولد اسمه يحي، وهو الذي سكن مجانة لمدة عشرين سنة، بينما نجده عند ذكره لشجرة نسبه يغفل هذا الجد منها[2].

إن القارئ لرحلة الورثيلاني يلاحظ جليا اعتزاز الحسين الورثيلاني بنسبه الشريف فهو يذكره في مناسبات عدة من رحلته[3] حتى وإن لم يكن المقام يستدعي ذلك، وذهب به الأمر إلى تفسير حب بعض الناس من الخاصة أو العامة له أو لعائلته بنسبه الشريف، من ذلك ما ذكره بشأن الشيخ الوفق من أولاد الشيخ أم رزق :" وكان محبا لوالدنا وجدنا، نعم يحب الجانب العلي أعني الأشراف بحيث لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا معهم، بل أنه مملوك لهم"[4].

استقرت هذه الأسرة ببجاية، ثم تحولت في عهد جده الولي الصالح علي البجائي إلى مواطن قبيلة بني ورثيلان ببلاد زواوة[5]، ويذهب صاحب الرحلة إلى أنَّ جده أتى من ميلة، وصاهر أسرة محمد أمقران حاكم منطقة قترات، أصبح شيخ علم معترفا له، وأسس نفوذ الأسرة الروحي في المنطقة، وبعد أن توفي أقيمت له قبة باعتباره من كبار المرابطين[6].

وقد حظيت هذه الأسرة بمكانة اجتماعية متميزة عند أهالي بلاد زواوة، حتى أنهم كانوا يعتقدون بهم البركة، فعند خروج الحسين الورثيلاني مع بعض أفراد أسرته متجهين

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص: 696.

[2]- مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة. ص: 14.

[3]- من ذلك قوله:" الشرفاء في بوجليل، فإنهم أهل فضل وبركة وعناية، وقد اجتمعنا معهم في الجد الأعلى والشرف على ما كنا نسمعه من أعالي أسلافنا". رحلة الورتلاني، ج1، ص: 25. وذكر نفس المعلومة في ص: 55.

[4]- الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 51.

[5]- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1999. ص: 418.

[6]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 394.

للحج "وقع البكاء والصراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلا الخير والبركة"[1].

(ب)– علماء بيت الورثيلاني:

أنجبت أسرة الورثيلاني عدة علماء على مر عدة أجيال، استطعنا أن نعرف بعضهم:

(1)– الشيخ أحمد الشريف بن علي البكاء (البكاي) البجائي:

كان متبحرا في الفقه والتصوف والتوحيد، وكان صاحب زاوية معدة لنشر العلم[2]، أشار إليه حفيده في رحلته ب:" الولي الصالح جدنا سيدي أحمد الشريف نسبا إذ ثبت ذلك، وهو الشريف الحسني، والذي سمعناه من أعالي أسلافنا أنه من شرفاء تافيلالت، وأمّا مقره ومقر أوائله فمن بجاية، وجدُنا هذا نجل الشيخ سيدي علي البكاي، وكانت له زاوية عظيمة، وقد سمعنا أنه قدم بخمسمائة طالب إن صح، وقد ثبت عن بعض الثقات من بني يعدلي أن طلبة الشيخ في محله إذا قرأوا الحزب سمعوهم من بني يعدلي "[3]. فهو إذن من العلماء المدرسين، وهو صاحب زاوية، وقد ظل " قبره يزار" بعد وفاته، ويجتمع فيه الناس للذكر [4].

ويشير صاحب الرحلة إلى أن جده أحمد الشريف كان مستقرا ببجاية، وانتقل إلى بني يعلى، وتصاهر مع حاكم هذه المنطقة محمد بن يعلى، حيث زوجه ابنته[5]، وقد نسب الورثيلاني لجده هذا كرامات كثيرة، يصعب تصديقها من طرف أهل عصرنا.

(2)– يحي بن أحمد الشريف:

أشار إليه الورثيلاني صاحب الرحلة بقوله:" وكان جدنا سيدي يحي في مجانة بأهله مكث فيها عشرين سنة، وكان يركب معه من ممالكه ثمانون عبدا... ثم بعد ذلك رجع إلى وطنه ... وكانت عنده خزانة عظيمة بحيث لا توجد عند غيره، ولما سلط عليهم الوباء، و لم

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 104.

[2]– مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة. ص: 12.

[3]– الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 100؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 62.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 238.

[5]– مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص: 12.

يبق إلا ولدان صغيران ضاعت الكتب والأملاك البرانية التي في بني عبد الجبار وسلالته أولاد عيسى بن عبد الله فإن بقية منها في الزاوية، وادعوا بعد ذلك أنها لهم "، إلى أن قال:" ومن أولاده الفاضل الكامل الفقيه الورع سيدي الحسين جدي..." [1]. وفي امتلاكه خزانة كبيرة من الكتب تدل على أنه كان من أهل العلم، وربما كان عالما مثل أبيه أحمد الشريف[2].

(3)– الحسين بن يحي بن أحمد الشريف (القرن 11ه/17م):

هو ابن "سيدي" يحي المترجم له قبله، وهو أيضا جد صاحب الرحلة والد والده، وقد أشار إليه في رحلته بقوله :" الفاضل الكامل الفقيه الورع سيدي الحسين جدي، إذ كان مدرسا دائما... إلى أن مات، وهو يفتي" [3]، للناس دون مقابل. ومن تلاميذه " الفقيه سيدي يحي بن الواثق" [4]. كما كان يخصص بعض وقته لنسخ بعض الكتب الهامة[5].

(4)– محمد بن الحسين بن يحي الورثيلاني:

هو والد الحسين الورثيلاني صاحب الرحلة، وقد أشار إليه ابنه في عدة مواضع من رحلته، ونقل عنه بعض المسائل الفقهية من ذلك قوله:" أوردنا هذا الكلام على الوالد –رحمه الله– لأنه أفقه زمانه، وما رأيت مثله في الفقه إذ أنه في التحقيق بمكان" [6]، وذكره في موضع آخر بقوله: كان :" والدي في غاية الإتباع أكثر من أبيه، تأخذ السنة من كلامه ومن أفعاله، فالمدخل والشيخ عبد الله بن أبي جمرة، وابن عطاء الله، والشيخ زروق أمامه" [7].

وقد تلقى محمد الورثيلاني العلم على مشايخ وطنه، ومنهم الشيخ محمد العربي (أو الغربي)، الذي أشار إليه صاحب الرحلة بقوله:" شيخ والدنا الفاضل النحوي اللغوي المحدث

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص، ص: 101، 102؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص، ص: 63، 64.

[2]– مختار بن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة، ص: 12.

[3]– الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 102.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 83.

[5]– مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص: 11.

[6]– الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 366.

[7]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 102، 103.

المفسر الأديب الفقيه الجامع بين المعقول والمنقول... شيخ شيوخنا المعرب الغربي سيدي محمد العربي المتوطن في جبل سيدي الموهوب " ببلاد زواوة [1].

وقد كان يحدث بين علماء أسرة الورثيلاني نقاش في المسائل العلمية، من ذلك ما حدث لصاحب الرحلة مع والده:" وقد وقع بيننا وبين الوالد –رحمه الله– نزاع في بعض المسائل من مسائل الفقه فاستظهرت أنا والعلامة الفاضل والمحقق الكامل عمنا سيدي محمد الصغير أمرا، والوالد جزم بفهم آخر"، ولما كان الورثيلاني بمصر ذكر تلك المسألة لشيخه سالم النفزاوي فأجابه بما أجابه به والده[2].

تصدى الشيخ محمد الورثيلاني للتدريس بالزاوية فأخذ عنه الكثير من طلبة العلم، ولا شك في أنه لم يتول أيا من المناصب الدينية، لأن الريف لا يتوفر على مثل هذه الوظائف.

(5)– محمد الصغير بن رقية:

هو عم الورثيلاني صاحب الرحلة، وقد كان حيا سنة 1179هـ/1765م[3]، أخذ العلم بوطنه، ومن أساتذته " الفقيه سيدي يحي بن الواثق وهو في غاية الفقه... كان يتعلم عليه المختصر ". والشيخ محمد الصغير من كبار العلماء في عصره –حسب الورثيلاني– الذي أشار إليه عدة مرات في رحلته من ذلك قوله:" وقد أخبرني عمي سيدي محمد الصغير إذ هو علامة زماننا "[4]، ووصفه مرة أخرى ب:" العلامة الفاضل والمحقق الكامل عمنا سيدي محمد الصغير[5]، ووصفه في موضع آخر ب:" عمنا العلامة المحقق الفهامة سيدي محمد الصغير بن رقية" [6].

(6)– الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني (ت 1193هـ/1779م):

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص:81، 82.

[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 352.

[3]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 27.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 83.

[5]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 352.

[6]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 27.

الحسين بن محمد السعيد بن الحسين الورثيلاني هو صاحب الرحلة المشهورة، ووصف في تعريف الخلف ب:" الإمام العالم العلامة ... شيخ مشايخ الإسلام"[1]، وعلى الرغم من غلبة الروح التصوف على الشيخ الحسين الورثيلاني أكثر من الروح الفقهية، فقد كان يجمع بين علوم الظاهر والباطن[2].

ولد سنة 1125هـ/ 1713م[3]، أخذ العلم بزاوية أسرته ببني ورثيلان على والده[4]، كما أخذ على مشايخ آخرين بوطنه بلاد زواوة[5]. ومما ساهم في توسيع مدارك الورثيلاني أخذه على عدد كبير من علماء المشرق وتونس أثناء تردده على الحرمين الشريفين[6]، سيما خلال رحلته التي دامت حوالي ثلاث سنوات بين سنتي: 1179ه/ 1765م، و1181هـ/1767م، والتي كان فيها قد بلغ مبلغ كبار العلماء، واشتهر بالتدريس بزاوية الأسرة بزواوة- وفي تلك الرحلة تلقى إجازات علمية وصوفية من ثمانية من علماء مصر، وبعضهم أجازه أكثر من مرة[7].

ومن مشايخ مصر الذين اعتبرهم الشيخ الورثيلاني عمدته[8]: الشيخ عبد الوهاب

---

[1]- الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 136.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 394.

[3]- مخلوف، شجرة النور، ص: 357؛ ابن الطاهر فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة. ص: 14؛ سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص: 418.

[4]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 143.

[5]- أشار الورثيلاني في رحلته إلى بعض مدرسيه منهم معلمه الذي علمه القرآن عندما كان صغيرا " سيدي يوسف بن بشران". (ج2، ص: 718)، كما أشار إلى شيخه:" العلامة الفاضل سيدي علي بن أحمد" الذي أخذ عنه الألفية (ج1، ص:81).

[6]- حج ثلاث مرات الأولى في سنة 1153هـ/1740م، والثانية في سنة 1166هـ/ 1752م، والثالثة في سنة 1179هـ/1765م، واستغرقت الأخيرة ثلاث سنوات، حيث امتدت إلى سنة 1181هـ/ 1767م، وهي التي كتب حولها رحلته. ينظر: رحلة الورتلاني، مواضع متفرقة؛ ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: 418؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 143.

[7]- من علماء مصر الذين أخذ عنهم الورثيلاني أثناء تردده على المشرق وأجازوه: أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي المالكي، الشهير بالبليدي (ت 1176هـ)، وأحمد بن عبد الفتاح الملوي، الشيخ الإمام العمروسي، والشيخ علي الفيومي المالكي (ت1185هـ). ينظر: رحلة الورتلاني، ج 1، ص- ص: 338- 344.

[8] - قال متحدثا عن العفيفي:" وعليه اعتمادنا "، ووصف الحفناوي " بشيخنا وعمدتنا "، وذلك لكونهما من أهل التصوف.

العفيفي[1] والشيخ محمد الحفناوي، وكلاهما أجازاه إجازة مطلقة في سائر العلوم العقلية والنقلية، كان الأول متصدر لتربية المريدين، فجدد عليه الورثيلاني العهد في الطريقة الشاذلية، كما كان الشيخ محمد بن سالم الحفناوي جامعا بين الحقيقة والشريعة، فحضر الورثيلاني مجلس إقراءه، وتلقن منه الذكر على طريق أشياخه، وأذن له في الإعطاء والإذن[2].

سَارَ الحسين الورثيلاني على نهج أسلافه، فتصدى للتدريس في زاوية الأسرة التي أصبح شيخا لها[3]. كما كان يتوجه إلى بجاية في شهر رمضان من كل سنة قصد الرباط، والتدريس والقيام بالوعظ والإرشاد[4]. ومن العلوم التي اشتهر بها التوحيد حتى أن طلبة الأزهر أعجبوا ببراعته فيه، وطلبوا منه أن يقرئهم "كبرى السنوسي"[5].

ومن تلامذته الشيخ الحسين الورثيلاني الذين ذكرهم في رحلته: السيد محمد بن الفقيه وهو من أولاد الشيخ محمد صالح، ووصفه بأنه "محقق في الكلام "، وقد أخذ عنه صغرى السنوسي وقرأها عليه قراءة تحقيق بحاشية المحقق المراكشي[6]، والسيد محمد السكلاوي الجزائري الذي قرأ عليه كبرى الشيخ السنوسي بشرح الشيخ اليوسي قراءة تحقيق في أيام زيارة الورثيلاني لقرية "تدلس" وفي وغيرها" [7].

ومن تلامذته أيضا: قاضي بجاية:" العلامة الفاضل... سيدي أبو القاسم نجل الكامل سيدي

---

[1]- عبد الوهاب بن عبد السلام بن أحمد بن حجازي العفيفي المالكي البرهاني (ت 1172هـ): درس على علماء مصر كالشيخ سالم النفزاوي، ومحمد البليدي. ينظر ترجمته : الجبرتي، عجائب الآثار، ج1، ص، ص: 212، 213؛ المرادي، سلك الدرر، ج3، ص: 141.

[2]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ص- ص: 348- 355.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 394.

[4]- مواضع متفرقة من رحلة الورثيلاني ج1، ص: 31؛ مختار فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة، ص: 23.

[5]- طلب منه طلبة الأزهر أن يقرئهم كبرى السنوسي، فوعدهم بذلك، إلاّ أن ظروفا استجدت فعجلت بسفره. ينظر: رحلة الورتلاني، ج1، ص: 339.

[6]- الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص، ص:89، 90.

[7]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 27، 28.

إبراهيم" [1]، وأبو القاسم بن مدور من بني عباس من قرية "تفرج" وهو قاضي بجاية، والسيد عبد القادر بن أحمد وهو من أولاد الشيخ سيدي الموهوب[2]، والسيد محمد الجوادي[3]. ولما كان الورثيلاني من كبار رجال الطريقة الشاذلية فقد كان يعطي العهد[4].

توفي الورثيلاني عام 1193هـ/1779م[5]، مخلفا عدد من المؤلفات أشهرها رحلته الحجازية المسماة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، والتي أشار فيها إلى عدد من مؤلفاته بعضها في التوحيد من ذلك: شرحه على الخطبة مسمى" بمقدمة شرح السنوسي على صغراه"، وحاشيته على شرح السكتاني المراكشي على صغرى السنوسي[6]. ورسالة تناول فيها " قول بعض الأولياء وقفت بساحل وقفت الأنبياء دونه" [7]. كما شرح وظيفة الشيخ القطب سيدي يحي العيدلي المشهورة في وطنه. والصلاة المنسوبة إلى الشيخ السمان القرشي المدني بطلب من صاحبها الذي لقيه بالمدينة المنورة في حجته سنة 1179هـ/1765م[8].

ومن مؤلفاته أيضا: شرح على محصل المقاصد لابن زكري، قصيدة ميمية في مدح النبي -ﷺ- على وزن البردة[9]، " الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية"، شرح على القدسية لعبد الرحمن الأخضري، وشرح وسطى الإمام السنوسي[10].

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص، ص: 30، 31.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 79.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 357.

[4]- من ذلك أنه دخل مدينة بسكرة في أثناء حجه والتقى بأفاضل العلماء وقاضيها ومفتيها وغيرهم من العامة والخاصة ": وقد أخذ كثير منهم العهد عنّا". ينظر: الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 115.

[5]- مخلوف، شجرة النور، ص: 357؛ مختار فيلالي، رحلة الورتلاني عرض ودراسة. ص: 15؛ سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص: 418.

[6]- الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 338.

[7]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 26، 27.

[8]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص، ص: 611، 612.

[9]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 340.

[10]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 144.

(7)– علماء آخرين من بيت الورثيلاني:

رافق الورثيلاني في حجه سنة 1179هـ/1765م عدد من أبناء عمومته، وبعضهم من أهل العلم منهم: " ابن عمنا الفاضل سيدي الصديق وولده العالم العلامة تلميذنا سيدي محمد صالح"[1]، والفاضل الكامل سيدي عبد العزيز نجل خالي سيدي محمد بن الحاج الشريف، ومثله الفاضل الفقيه النحوي المتكلم المنطقي الحافظ لكل شيء لا سيما الشعر ابن عمنا سيدي أحمد الشريف"[2].

(ثالثا)– أسر علمية متفرقة ببلاد زواوة:

(أ)– أسرة ابن مصباح:

(1)– محمد بن مصباح (القرن 11ه/ 17م):

وصفه الورثيلاني ب:" الشيخ الفاضل الولي الصالح المعلوم النجاح سيدي محمد بن مصباح ذو العلم المتين والسر المبين"[3]، ولما تسبب الولي الصالح سيدي محمد بن علي وكان معاصرا لجد الورثيلاني في إزالة الميراث عن النساء " فلما سمع الشيخ الفقيه الولي الصالح سيدي محمد بن مصباح أنكر ذلك إنكارا كليا " [4]. والمعلوم أن جد الورثيلاني عاش خلال القرن الحادي عشر الهجري.

وذكر الورثيلاني عقب الشيخ محمد بن مصباح بقوله:" وكذا أولاده فضلاء نجباء –رضي الله عنهم وأرضاهم– سيما من أدركنا سيدي أحمد زروق، وسيدي أحمد بن المبارك، فقد كان فيهم العلامة الفاضل المحقق الكامل محيي السنن سيدي الحسين"[5].

(2)– الحسن بن أحمد زروق بن مصباح (القرن 12ه/ 18م):

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص: 697.

[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 697.

[3]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 58.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 103.

[5]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 58.

هو الحسن بن الولي الصالح أحمد الزورق بن مصباح "من أهل الوقت"[1]، وقد كان له معهد يبث فيه العلم ببني يعلى العجيسي بضواحي بجاية[2]، وهو معاصر للورثيلاني الذي وصفه ب:" العلامة الفاضل المحقق الكامل محيي السنن سيدي الحسين"[3]، وزاره في معهده أثناء رحلته للحج في سنة 1179هـ/1765م، قائلا بأنَّهم توجهوا :" قاصدين بني يعلى، فبلغنا محل المدرس الفاضل العلامة الكامل... سيدي الحسن بن مصباح... وقد فرح بوصولنا وأحضر الطعام فأكل منه القانع والمعتر بالتمام" [4].

وقد منح الحسن بن مصباح صاحب معهد بني يعلى العجيسي إجازة علمية للشيخ محمد بن علي الشلاطي المعروف بابن علي الشريف، وهي الإجازة التي نقلها العلامة العربي بن مصباح قريب صاحب المعهد في تأليف خصصه لمعهد شلاطة قائلا- في سياق حديثه عن إجازة شيخه محمد بن علي الشريف البَلُولي-:" وقد أجازني شيخي ومولاي علامة الدنيا على الإطلاق... أبو أحمد سيدي الحسن بن أحمد رزوق بن مصباح... من علم الحديث بصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة، ومن علم التفسير...". ثم استعرض الكتب التي أجازه بها في الفقه، علم الكلام، النحو، الأصول، وعلم البيان، ومصطلح الحديث وغيرها إلى أن قال:" وغير ذلك ممَّا هو موسوم في ثبته الذي أجازنا به – رحمه الله- "[5].

ومن مؤلفاته: ثبت، وكتاب "تحفة المستمع والقاري بشرح قدسية الأخضري" [6].

(ب)- أولاد "سيدي" محمد صالح:

هي من الأسر العلمية المتنفذة ببلاد زواوة، وقد وصفهم الورثيلاني بما يدل على مكانتهم

---

[1]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:191، هـ: 2.

[2] - المهدي البوعبدلي وسعيدوني ناصر الدين، الجزائر في التاريخ. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984. ج4، ص، ص: 152، 153.

[3]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 58.

[4]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 107.

[5]- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ج4، ص، ص: 152، 153.

[6]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:191.

العلمية والاجتماعية، وأورد قصيدة له يمدحهم ويثني عليهم فيها، تتضمن ثلاثة وثلاثين بيتا ومما ورد فيها[1]:

أهـــلة أقمر في ظلمة مـــن دجى وعلمـــهم أنوار للصبح منبلجا

فـــإنهم في أنهار العلـــم يلتقـــطوا من در عرفانهم فالكل ينبسطوا

(1)– الشيخ محمد صالح (القرن 11ه/ 17م):

وصفه الورثيلاني ب" محي الفنون ومجدد العلم والدين... علامة زمانه وقدوة أوانه... الولي الواضح سيدي محمد صالح كاد أن يجدد الدين في وقته، وعلمه مشهور، وفضله منشور، توفي في القرن الحادي عشر ضريحه معلوم يزار في قرية اجلميم من عرش بني منجلات من عرشنا بني ورثيلان... وهذا الشيخ كان مدرسا للعلم قائما بأمور الطلبة بنفسه مع قلة يده ".

وقد كان حريصا على تطبيق الأحكام الشرعية، ولذلك ألزم نفسه بالخروج من كل قرية لا يعمل أهلها بالأحكام الشرعية فقد انتقل من قرية بيكني، وسكن متين من بني عيدل فوجدهم أيضا يمنعون الميراث عن النساء، فأمرهم بإعطائه، فلما امتنعوا عن ذلك رأى أن هجرته واجبة، إلا أنهم امتثلوا لرأيه بعد أن هم بالرحيل عن قريتهم " إذ لا قدرة لهم على فراقه... فلما ألحوا على رجوعه وإقامته معهم حلف أن لا يرجع إليهم إلا بالرجوع إلى الحكام الشرعية... فامتثلوا أمره بجد وصدق فرجع فيهم على الأحكام الشرعية إلى الآن"[2].

(2)– حسين بن محمد صالح:

وفي نص الورثيلاني :" قال والدي أني لزمته... وكان صديقا ملاطفا لجدي" [3]، إشارة إلى أنه كان من أهل القرن الحادي عشر الهجري، وربما شهد القرن الثاني عشر.

ويذكر الورثيلاني بخصوص عقب محمد صالح :" أولاده على طريقة من العلم والحلم والفضل والإحسان والأدب... سيما الورع الزاهد ... الجامع بين الحقيقة والشريعة...

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثلاني، ج1، ص: 91.

[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:85.

[3]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:88.

سيدي حسين نجل الشيخ المذكور[1] ". يبدو أنه كان صاحب زاوية، بحيث يذكر الورثيلاني أنه كان "يطعم الطعام لليتامى ولليتامى والأيامى من النساء والمحتاج كل يوم كأنه وليمة عنده"، كما كان له طلبة "ونحن طلبة عنده "، ومنهم " الولي الصالح الأستاذ تلميذه سيدي أحمد بن الحسين "[2]. ونظرا لنفوذه الكبير في المنطقة[3]، إذ" كان الناس يعتقدون فيه البركة"، "أتى لزيارته فرحات باي ليكلفه بالتدخل للإصلاح " بين القبائل الذين بينهم فتنة "[4].

(3)– علماء آخرين من أولاد "سيدي" محمد صالح:

أشار الورثيلاني إلى عدد من فقهاء هذه الأسرة في رحلته، وفيما يلي بعض النصوص، التي ذكروا فيها :" أولاد الشيخ سيدي محمد صالح جل أحوالهم على هدى، وسيدي عبد الله من الصالحين وترك ولدين صالحين سيدي عبد الرحمن وسيدي أحمد... وولداه صالحان (لعله يقصد سيدي أحمد بن عبد الله) سيدي عبد الوهاب وسيدي علي؛ قد قرأت على سيدي علي الألفية"[5].

وفي نص آخر للورثيلاني:" أولاد سيدي محمد صالح من قرية بيكني كلهم على الفضل والعلم والحلم والخير خصوصا العالم الفاضل الخطيب المحقق في علم الكلام... وهو العالم الفاضل سيدي المسعود بن عبد الرحمن آية من آيات الله تعالى، وقد تزوجت بنتين من ولده سيدي السعدي. وسيدي علي ولده محقق في علم الكلام غير أنه لا يصل إلى مرتبة أبيه، وكذا سيدي محمد بن الفقيه محقق في الكلام فاضل صالح مشتغل بنفسه، وقد أخذ عني الصغرى بأن قرأناها قراءة تحقيق بحاشية المحقق المراكشي[6]".

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثلاني، ج1، ص:86.

[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:87.

[3]– في الرحلة إشارات إلى أنه كان من مربي المواشي، بحيث كانت له غنم وكان لها راع يرعاها، كما كان يربي الأبقار. ينظر: رحلة الورثيلاني، ج1، ص:87، 88.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:89.

[5]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص:89.

[6]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:89، 90.

(ج)– أسرة ابن علي الشريف:

هم أصحاب زاوية "شلاطة "، إحدى الزوايا الشهيرة بمنطقة زواوة. وهم من نسل الصالحين الذين جاءوا من المغرب واستوطنوا بلاد زواوة ما بين القرن السادس والثاني عشر، ينتهي نسب جدهم الأعلى الشريف سيدي موسى (أو علي) إلى عبد السلام بن مشيش، وهو الذي فارق مسقط رأسه وانتقل إلى يلولة فأقام بها، وصاهر إحدى الأسر المعروفة بالصلاح، وبعد مدة أحدث زاوية شلاطة، وهي زاوية مقصودة لقراءة القرآن الكريم، ولأهميتها كان الناس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسبوه إلى إحدى الزاويتين زاوية تاسلينت – التي تملكها أسرة ابن أبي داود– وزاوية شلاطة[1].

(1)– محمد بن علي الشلاطي (القرن 12ه/ 18م):

عرف الشيخ محمد بن علي الشلاطي بابن علي الشريف، وهناك تضارب كبير بين ما ذكره أبو القاسم سعد الله وأبو القاسم الحفناوي بشأن هذه الشخصية، بحيث يذهب الأول منهما أنَّ من مؤلفاته: "معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار" في الفلك والتنجيم الذي ألفه سنة 1192هـ/1778م وأشار إلى نسخة أخرى لهذا الكتاب نسخت سنة 1205ه/1790م، وهي التي يملكها على أمقران السحنوني[2].

كان هذا الأخير مشتغلا بالتدريس في زاويته شلاطة، وإعطاء الأوراد والأذكار للمريدين[3]، وقد منحه العالم الحس ابن مصباح إجازة علمية، وهي الإجازة التي نقلها العلامة العربي بن مصباح قريب صاحب المعهد في تأليف خصصه لمعهد شلاطة قائلا– في سياق حديثه عن إجازة شيخه محمد بن علي الشريف اليلُولي [4].

---

[1]– الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص: 528.

[2] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 409.

[3]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج2، ص: 410.

[4]– المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، ص، ص: 152، 153.

ومن مؤلفاته إلى جانب "معالم الاستبصار " المذكور:" تفسير الغريب للمبتدئ"، والتعريف بالأحبار المالكين الأخبار، و"سيرة المصطفى وسير ة الخلفاء ومن بعدهم من سلوك العرفاء"[1].

أما صاحب "تعريف الخلف" فيذهب إلى أن محمد السعيد بن علي الشريف ولد سنة 1238ه /1822م، وبأنه توفي سنة 1314ه/ 1896م، وقد كان صديقا لوالده[2].

ونحن أمام روايتين كلاهما ذات حجج قوية، بحيث حصل أبو القاسم سعد الله على مخطوط "معالم الاستبصار" ومنه تأكد سنة نسخه، كما أن محمد بن علي الشريف معاصر لوالد الحفناوي بل تجمعه به صداقة متينة، وعليه فإما نكون أمام شخصيتين كلاهما تحمل اسم محمد بن علي الشريف، أو أن علي الشريف الأول يعرف هو الآخر بمحمد بن علي الشريف كبنه محمد السعيد.

(د)– أسرة ابن أبي داود:

هم أصحاب زاوية ابن أبي داود، التي أسسها أو أعاد تأسيسها الشيخ السعيد بن أبي داود بتاسلنت بالقرب من آقبو ببلاد زواوة في نهاية القرن الثامن عشر، عرفت شهرة واسعة خلال القرن التاسع عشر، واهتمت بتدريس الفقه واللغة العربية، وتخرج منها الكثير من العلماء والفقهاء في القطر الجزائري[3].

(1)– السعيد بن عبد الرحمن بن أبي داود (ت 1256ه/ 1840م):

السعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن سليمان بن أبي داود الزواوي[4]، من كبار رجالات الطريقة الرحمانية، وعلمائها بالجزائر. ينتهي نسبه إلى سليمان

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص، ص: 20، 126، 328، 409.

[2] – الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص: 528.

[3] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:60، ها: 3.

[4] – الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص: 438.

بن داود بن موسى بن عبد الله مؤسس زاوية جبل بني سلام بأقبو في القرن الثامن الهجري، ثم أسس أجداده زاوية أخرى بإقليم القبائل، عرفت شهرة واسعة في القرن 12ه[1].

وفي تعريف الخلف متحدثا عن مترجمنا :" كان أبوه سيدي عبد الرحمن يدرس "رسالة ابن أبي زيد القيرواني"-رضي الله عنه- أخذها عن أبيه سيدي محمد، عن أبيه أحمد، عن أبيه عن أبيه إلى مؤلفها، لأن أسلافهم كلهم كانوا أهل قدم راسخ في العلم "[2].

ولد السعيد بن عبد الرحمن حوالي سنة 1176ه/ 1762م تركه والده صغيرا يتيما فقيرا، أخذ العلم عن مشايخ عصره، ومنهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري بزاويته، وتتلمذ عليه وأخذ عنه الطريقة الرحمانية، برز في العلوم الفقهية والعلوم اللغوية وألف فيها، كما كان يقرض الشعر، وله مدائح نبوية باللغة البربرية[3]، زاول التدريس بزاويتهم مدة تقارب الخمسين سنة، تخرج فيها على يديه المئات من الطلبة من مختلف أنحاء القطر، لشهرة الزاوية بتدريس الفقه وعلومه. له نظم الأجرومية. توفي في محرم سنة 1256ه/ 1840م[4].

(2)- أبو القاسم بن السعيد بن أبي داود (ت 1255ه/1838م):

ابن المترجم له قبله، درس بزاوية والده السعيد بن أبي داود الفقه والعربية وغيرها من العلوم، وممن درس عليه بها الشيخ بن أبي القاسم الديسي (1311ه/1893م) [5]، وقد درس عليه ابنه أحمد بن أبي القاسم (1235-1280ه/1819-1861م): الذي تولى التدريس بزاويتهم زاوية أبي داود وهو ابن عشرين سنة[6].

(ه)- أولاد سيدي الصادق:

وصف الورثيلاني سيدي الصادق (القرن 10ه/16م) ب:" الولي الصالح، والقمر الواضح

---

[1] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:155.

[2] - الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص: 438.

[3] - الحفناوي، المرجع نفسه، ج 2، ص: 439.

[4] - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:156.

[5] - عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص:169.

[6] - عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص:60.

له بركات ظاهرة "، و" ضريحه في الوادي معلوم يزار، وهو من القرن العاشر أعني أواخره ولا أدر هل بلغ الحادي عشر أم لا"، " ومآثر سيدي الصادق وأولاده كثيرة"، وقد نظم فيهم الورثيلاني شعر يضم خمسة عشرة بيت مطلعه[1]:

يا أيها الإنسان فاعـــلم قدرهم لأنهم ســـحابة مع غيـــثهم

قد اخضرت أشجار أهل العصر وأثمرت فواكها بتـــمـــر

ووصف عقبه بقوله:" وأولاده -رضي الله عنهم- بدور أهلة وأعلام أجلة، كالفاضل الولي والولي الصالح والفقيه العلي سيدي يحي بن الموهوب، ومثله في الفضل سيدي محمد الموهوب، وسيدي التواني الفقيه سيدي يحي بن الواثق وهو في غاية الفقه تلميذ جدنا..."، كان من مدرسي مختصر خليل وقد كان محمد الصغير عم الورثيلاني ممن درس عليه [2].

(و)- أولاد سيدي علي بن سليمان البرباشي:

كان الولي الصالح " سيدي علي بن سليمان البرباشي معظما عند أهله ومحترما عند أهل وطنه، وقبره يزار"، وأولاده فيهم" العلم والصلاح وخدمة الخير وأهله ومحبة العلم وذويه سيما سيدي علي بن الصالح، وكان حبيبا لجدي ولوالدي ... وعلمه وفضله ظاهران، قد درس وأسس وعلم وأنس نبراس زمانه وعبقري أوانه... وكذا سيدي عبد الله تفقه على جدي الحسين الشريف... وكذا أخوه سيدي الموهوب بن علي بن سليمان وأولاده على الخير والبركة..." [3].

(ز)- أولاد الشيخ سيدي الموهوب: ذكرهم الورثيلاني بقوله:" وأولاد الشيخ سيدي الموهوب فيهم الخير والعلم والأدب خصوصا سيدي عبد الله نجل الشيخ سيدي عبد القادر

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص:83.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:83؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 190.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 72.

المذكور، وسيدي عبد الله بن محي الدين وتلميذنا سيدي عبد القادر بن أحمد وكذا غيرهم"[1].

وأشار الورثيلاني إلى أسر علمية كثيرة بشكل مقتضب جدا نذكر بنصوصها:

" **أولاد تبونداوث** فضلاء نجباء فقهاء مفتون، وفيهم البركة إذ العلم كله بركة، وقد سمعنا أنهم من بجاية ... وأنهم قضاة من العهد الأول إلى الآن"، و" **أولاد سيدي عبد الحليم** الساكنون في قرية من قرى بني عباس فضلاء كرماء علماء صلحاء إلى الآن"، و" **أولاد معمر** فضلاء علماء صلحاء ذوو بركة عظيمة..."، و" **أولاد أبي جمعة** فهم فضلاء صلحاء محل العلم وأهله، فقهاء أئمة خطباء"، و" **أولاد أبي ذئب** صلحاء علماء ذوو بركة..."، و" **أولاد العياض** ومن معهم رضي الله عنهم علماء كرماء أدباء فضلاء محبون للعلم وأهله"، و" **الشواثرة** علماء أيضا صلحاء لا يخلون من العلم يرثونه خلفا عن سلف"، و" **أولاد سيدي خروف** معظمون فيهم العلماء والصلحاء، والقضاة والمفتيون، وهم شرفاء على ما اشتهر عندنا من كان في زمورة وبني يعدل" [2].

ونسب أسرا أخرى إلى أبرز علماءها[3] مثل:" سيدي سراج ذو بركة عظيمة... وأولاده فضلاء كرماء فقهاء علماء" [4]، و" الولي الكامل والعالم الفاضل مقيم السنن، ومنشر العلم سيدي محمد بن عبد القادر وأولاده فضلاء علماء أدباء جمعا فاوعوا سيما سيدي محمد بن عبد القادر وولده سيدي الموهوب، فإنهما من فضلاء الوقت يقصدان للفتيا –رضي الله عنهم–"[5].

---

[1]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 79.

[2]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص – ص: 54-57.

[3]– ذكر بيوتات علمية أخرى في مواضع متفرقة من رحلته: ج1، ص: 59، 64، 68، 69.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه،ج1، ص: 56.

[5]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 58، 59.

– المبحث السادس: البيوتات والأسر العلمية بإقليم الزيبان:

(أولا)– بيت سيدي المبارك بن ناجي بالخنقة[1] بضواحي بسكرة[2]:

(أ) – نسبه ومكانته:

هم يسلسلون نسبهم ابتداء من جدهم "سيدي" المبارك كالتالي: المبارك بن قاسم بن ناجي بن قاسم بن ناجي بن منصور بن عامر بن حسن، إلى عثمان بن عفان –رضي الله عنه– [3]. وهم ينتمون إلى هي إحدى الأسر التي هاجرت من الأندلس بعد سقوط الدولة الإسلامية بها، واستقروا بتونس، وكان منهم "سيدي ناجي"، وابنه "سيدي" قاسم اللذان يوجد لهما في العاصمة تونس ضريحان، لكن بعض أبنائهما أو أحفادهما انتقلوا بعدهما إلى ورقلة وتوقرت وسوف، والزاب الشرقي.

ونزل أحدهم وهو الشيخ المبارك بن قاسم بن ناجي[4] سنة 1011ه/1601م شرقي بسكرة [5] بحوالي مائة كيلومتر، بأسرته وأفراد من قبائل أخرى مرافقون له، ولم تكن المنطقة التي نزل بها مأهولة، فأنشأ بها بلدة سماها الخنقة، طبقا لموقعها الجغرافي الموجود بين جبلين[6] يتوسطهما وادي العرب المعروف، ونَسَبها إلى جده تبركا به فسميت خنقة سيدي ناجي[7].

---

[1]– الخنقة قرية ضواحي مدينة بسكرة، تبعد عنها ب95 كم، وهي ذات نخيل وأشجار، وهي وسط واد بين جبلين. ينظر: أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي. مجلة سيرتا. قسنطينة: مطبعة البعث. العدد: 03، ماي 1980. ص: 113.

[2]– ضم الباشا صالح رايس مدينة بسكرة نهائيا إلى السلطة المركزية سنة 960هـ/ 1552م، وقد كانت من أعظم المراكز التجارية. ينظر: توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 186.

[3]– محمد موهوب بن أحمد بن حسين مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي أو عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام لمحمد بن محمد الطيب الخنقي. عين ميلة (الجزائر): دار الهدى، 2002. ص :د، ها: 1.

[4]– وقاسم والده، وناجي جده هما حفيدا الموجودين بتونس.

[5]– وصف العياشي مدينة بسكرة بأنّها " من أعظم المدن وأجمع لمنافع كثيرة، مع توافر أسباب العمران"، ثم تطرق إلى سبب خرابها، وهو أنّها ابتليت في القرن 11هـ بتخالف الترك عليها وعساكر الأعراب، فيستولي عليها هؤلاء تارة، وأولئك أخرى، إلى أن بنى الأتراك حصنا على رأس الماء الذي يأتي إليها فتملكوا البلاد وأضروا بأهلها. ينظر: الرحلة العياشية، ج2، ص، ص: 523، 524.

[6]– الخنقة تعني المضيق، وهي بلدة جبلية تقع على وادي العرب بولاية بسكرة حاليا. ينظر: أبو القاسم سعد الله، في تعليق له في كتاب " إتحاف القاري بحياة الشيخ خليفة بن حسن القماري المتوفى 1207ه/ 1792م" لمحمد الطاهر التليلي. الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010. ص :21، ها: 1.

[7]– محمد موهوب بن أحمد مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي لمحمد الخنقي. ص :د.

وهكذا نشأ هذا البيت العلمي الديني في تلك المنطقة فجمع في العلم والصلاح والرياسة، وسوف يكون لأبنائه دورا مهما في نشر العلم، كل فرد يكمل مسيرة الذي قبله. تلك المهمة التي بدأت شاقة وتكاد مستحيلة خلال القرن11هـ/17م، بحيث وصف العياشي أولاد سيدي المبارك بن ناجي بأنّهم" أهل خير وبركة، لهم رغبة في العلم وتعلمه، إلاَّ أنَّهم في بلاد قلَّ فيها أهل التحصيل"[1]، ورغم قلة إمكانيات هذه البلدة في كل المجالات إلى أنهم حولوها إلى منارة للعلم في تلك الربوع.

أما الورثيلاني فقد زار الخنقة في عام 1153ه/1740م، ووصف أصحابها بقوله:" أولاد الشيخ سيدي ناجي قد حازوا المعالي من قديم الزمان، وقد وجدت كثيرا من الفضلاء منهم في محلهم، كسيدي محمد بن الطيب، وسيدي أحمد بن ناصر وفقهاء وقراء، وفيها الولي الصالح تلميذ الشيخ سيدي أحمد بن ناصر وهو سيدي عبد الحفيظ أعني أولاده، وأما هو فقد وجدته ميتا قبلي بنحو شهرين، وقد أخذ عنه مباشرة..."، إلى أن قال :"وبالجملة فمحلهم مشهور بالفضل والعلم والهمة، غير أنه يتحاسدن عن تولية الرياسة "[2].

(ب)– علماء بيت مبارك بن ناجي:

(1)– المبارك بن قاسم بن ناجي (ت 1031ه/ 1622م):

المبارك بن قاسم بن ناجي الأصغر بن قاسم بن ناجي الأكبر، صوفي صالح، مؤسس بلدة خنقة سيدي ناجي، وفي الوقت ذاته واضع حجر الأساس لبيت ابن ناجي العلمي الديني. ويقال أنّ الشيخ المبارك هاجر إلى المغرب، واستقر بوادي درعة، وهناك تلقى الطريقة الناصرية الشاذلية، وأصبح أحد شيوخها الكبار، ثم انتقل إلى الجزائر واستقر بالزاب الشرقي. وقد كانت له رئاسة كبيرة، وأملاك كثيرة، وشهرة واسعة، مما جعل الشابي[3] ينافسه في

---

[1] – العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 521.

[2] – الحسين الورتلاني، الرحلة الورثيلانية، ج1، ص: 152.

[3] – عبد الصمد الشابي (ت1025ه) المطرود من تونس، والمعروف بحروبه ضد العثمانيين والقبائل المستعصية، وقد أخضع لسيادته الهضاب العليا بتبسة، ووصل إلى مشارف الصحراء. ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:275، ها: 2.

حكمه، ويؤلب عليه الأعراش التي يحكمها، فغادر الزاب متوجها إلى الخنقة، وقد كانت موضعا خاليا، فاستقر بها سنة 1010ه/ 1602م، متخذا منها بلدته الجديدة [1].

عُمرت هذه البلدة الجديدة شيئا فشيئا، واهتم الشيخ المبارك بمساعدة مرافقيه بتشييد المباني، وغرس النخيل والأشجار المثمرة، ولما كان تطلعه إلى نشر العلم والمعرفة من أولوياته أسس زاوية تعلم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف[2] تولى مشيختها، وأصبح بذلك الراعي لشؤون البلدة الدينية والدنيوية. ولما توفي الشيخ المبارك سنة 1031ه/ 1622م دفن داخل جامعه الذي أصبح يحمل اسمه "جامع سيدي مبارك"[3]، ثم توارث أبناؤه من بعده مشيخة الزاوية.

(2) – محمد التواتي بن المبارك الخنقي (ت 1060ه/ 1650م):

محمد التواتي بن المبارك بن قاسم بن ناجي الخنقي من أبناء الشيخ المبارك[4] مؤسس بلدة وزاوية خنقة سيدي ناجي، عالم فقيه، مدرس، صوفي[5]. التقاه العياشي ببسكرة سنة 1059هـ/1649م ووصفه ب:" سيدي أحمد بن المبارك الملقب بالتواتي، وهو كبير أولاد سيدي ناجي لذلك العهد"[6]، وأثنى عليه قائلا بأنه:" كان من العلماء العاملين "[7]، إلا أنه لم يأخذ عنه شيئا " وإنما كانت مذاكرة، ومحادثة أبانت منه عن عقل ذكي، وفضل جلي" [8]– حسب تعبير العياشي– وهو الذي رحل إليه الشيخ عيسى الثعالبي من مدينة الجزائر، وبقي في صحبته، ولازمه وأخذ عنه، ولم يغادره إلى أن توفي. ولما تحدث العياشي عن أولاد سيدي

---

[1] – لا تختلف رواية عبد المنعم القاسمي (ص:275)كثيرا عن الرواية التي ذكرها أبو القاسم سعد الله نقلا عن رواية شفوية نقلها عن شيخ مسن التقاه بالخنقة سنة 1980م واسمه محمد المولود بوغديري. ينظر: زيارة لخنقة سيدي ناجي، ص: 119.

[2] – عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:275.

[3] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:276.

[4] – يذهب أبو القاسم سعد الله إلى أنه أخو الشيخ المبارك. ينظر: زيارة لخنقة سيدي ناجي. ص: 118.

[5] – عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:356.

[6] – العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 170.

[7] – العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 521.

[8] – العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 170.

ناجي قال بأنه :" كانت بينه (عيسى الثعالبي) وبينهم ألفة قديمة ومودة أكيدة حياة عمهم الأكبر سيدي التواتي بن ناجي "[1].

توفي الشيخ محمد التواتي سنة 1060ه/1650م بالقرب من بلدة سيدي عقبة، بداء الطاعون الذي ضرب بسكرة ونواحيها، وتولى تجهيزه تلميذه عيسى الثعالبي هناك[2].

(3)- محمد بن محمد الطيب الخنقي (ت 1154ه/ 1741م):

قيد اسمه في ختام إحدى المسائل الفقهية التي أجاب عنها هكذا:" قال ذلك الفقير إلى ربه محمد بن محمد الطيب بن أحمد بن المبارك بن القاسم بن ناجي"[3]، هو ابن هذه الأسرة العريقة التي ورثت الحكم والعلم والتصوف، فأبوه حاكم البلدة وشيخ الزاوية التي درس فيها، وجده الشيخ المبارك بن قاسم هو مؤسس بلدة سيدي ناجي[4].

وهو من علماء هذا البيت البارزين بحيث حلاه معاصره الشيخ عبد الله بن عبد الواحد العمراني (ت 1155ه/1742م) أحد علماء بسكرة ب:" العالم الفقيه، القاضي الوجيه، ذو الرئاستين، وثالث القمرين، محي آثار الديانة بعد دروسها ومطلع نهارها بعد أفول أقمارها وشموسها..." [5]. كما نجد وصفا له في ظهير مؤرخ في سنة 1128ه/1715م وجهه إليه حسين باي صاحب ولاية قسنطينة فيقول فيه:" الفقيه النبيه، العالم الوجيه، العلامة البحر..." إلخ[6].

ولد الشيخ محمد بخنقة سيدي ناجي في سنة 1078ه/1667م، وتتلمذ على العلماء الذين كانت تعج بهم الزاوية[7]، وقد كان كثير التنقل في شبابه، زوّارا لأهل الفضل والعلم،

---

[1] - العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 521.

[2] - العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 521؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:357.

[3] - محمد بن محمد الطيب الخنقي، مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي أو عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام، تنظيم وتقديم وتعليق: محمد موهوب بن أحمد بن حسين، عين ميلة (الجزائر): دار الهدى، 2002. ص :71.

[4] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:358.

[5] - محمد بن محمد الطيب الخنقي، المصدر السابق، ص :132.

[6] - محمد موهوب بن أحمد، في مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية لمحمد الخنقي. ص :هـ.

[7] - محمد موهوب بن أحمد، في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص :هـ.

كما تتلمذ على علماء أجلاء بتونس منهم الشيخ علي بن محمد النوري الصفاقسي (ت1118ه /1706م)، الذي أخذ عن بصفاقس سنة 1103ه/1691م وحصل على إجازته [1].

وما إن يفع صاحب الترجمة حتى شد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فحج لأول مرة سنة1107ه/1696م، فكان ينتهز الفرصة في الحل والترحال للالتقاء بالعلماء والاحتكاك بهم والاستفادة منهم. وأثناء عودته، وهو في طرابلس بلغه نبأ وفاة والده فعاد مسرعا، وحل محله

في رئاسة الزاوية وفي تسيير البلد دينيا ودنيويا[2].

عرفت الزاوية والبلدة في عهده حركة علمية ودينية وسياسية نشيطة، حيث اهتم بالفلاحة والتعمير، وقام بشق القنوات لسقي الأراضي، كما كان له الفضل في بناء مسجد سيدي المبارك سنة 1147ه/1734م[3]، والذي أصبح منارة علم، وصرحا لتلقي المعارف الدينة، وأنار في عهده وبعده زمنا طويلا.

كان الشيخ محمد بن محمد الطيب يتقلد المشيخة في بلده خنقة سيدي ناجي، كما كان قاضيا [4] معينا من طرف السلطات، وذلك ما تؤكده النصوص التاريخية، فبعد أن أورد الشيخ عبد الله بن عبد الواحد العمراني أحد علماء بسكرة تفاصيل إحدى المسائل الفقهية قال:" فلما تحققنا هذا منهم (أصحاب القضية)... رتبنا عليه ما جاء من نصوص مذهب المالكية، وحاصل ما أنتجته الأفكار... أفكار أصحابنا الفقهاء المشاورين بمجلس الأحكام،

---

[1]- محمد موهوب بن أحمد، في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص : ز.

[2]- محمد موهوب بن أحمد، في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص :ز، ح.

[3]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:358؛ محمد لعباسي، « الإفتاء في الجزائر العثمانية (918- 1245ه/ 1512- 1830م) »، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية. جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. 2012 - 2013م. ص :169.

[4]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:358.

بجامع الشيخ الولي الصالح... سيدي المبارك بن ناجي ببلدة الخنقة... بين يدي الفقيه القـــاضي الوجيه... منفذ القضايا والأحكام ... سيدي محمد بن محمد الطيب "[1].

كما كان الناس يلجؤون إليه للفتوى ففي كتابه "عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام" بعض المسائل التي أجاب عنها[2]. وفي هذا الكتاب أتى بعدد كبير من فتاوى معاصره العالم العلامة عبد الله بن عبد الواحد العمراني، الذي تقلد منصب الإفتاء في بسكرة[3].

ولدينا نص ورد في كتابه المذكور حول إحدى القضايا :" فلما اطلع على الوثيقة (عبد الله العمراني)، وكان الخصام بين يدي الفقير إلى الله أبي محمد بن سيدي محمد الطيب –رحم الله الجميع– وذلك بمسجد الشيخ سيدي عبد السلام ببلد تكرت، ومحضر فقهاء الجبل أولاد سيدي عبد السلام فحكم الفقهاء ب..." [4]. وكل هذه النصوص تؤكد أنه كان قاضيا معينا من طرف السلطات و لم يكن يمارس القضاء بصفته حاكما للبلدة.

ولدينا نص آخر يثبت ما ذكرناه، بعد أن أورد القضية كلها ذكر الحكم:" بهذا سجلنا وبه حكمنا على أن لأولاد الأسمر ثلثين في البستان، ولأولاد مرابط ثلث، بهذا عملنا، وعليه عولنا، وكتب عبد الله محمد بن الطيب"[5].

وتثبت النصوص الواردة في "عمدة الأحكام" أن مسجد سيدي المبارك كان مقرا للقضاء يجلس فيه القاضي محمد بن محمد الطيب، وتعقد فيه اجتماعات مجلس العلماء الذين يرفع إليهم القاضي المذكور بعض القضايا، والنص الموالي دليل على ما ذكرناه– وهو على لسان المترجم له– :" قلت: وقد وقعت نازلة في بلد واشكون، وترافع إلينا فيها خصمان، في مسجد الشيخ البركة سيدي المبارك ببلدنا الخنقة –عمرها الله تعالى– بين يدي الفقهاء سيدي

---

[1]– المسألة رقم: 158. ينظر: محمد بن محمد الطيب الخنقي، مسائل في الأحكام الشرعية، ص :132.

[2]– المسألة رقم 116، حول كيفية السقي عند قلة الماء. ينظر: محمد بن محمد الطيب الخنقي، المصدر نفسه، ص :71.

[3]– محمد موهوب بن أحمد في مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية، ص : ز.

[4]– المسألة رقم: 167. ينظر: محمد بن محمد الطيب الخنقي، المصدر السابق، ص :142.

[5]– حكم المسألة رقم : 262. محمد بن محمد الطيب الخنقي، مسائل في الأحكام الشرعية، ص 249.

عبد الله بن عبد الواحد، وسيدي محمد المسعود بن عبد العزيز، وسيدي محمد المسعود بن أبي القاسم بن الطاهر ..."، وحكم محمد بن الناجي في القضية بعد أن استشار الفقهاء المشار إليهم[1].

وهناك نص أخر في قضية أخرى:" وقف بين يدي فقهاء العصر بمسجد الشيخ البركة سيدي المبارك ببلد الخنقة"، بعد أن ذكر ملابسات القضية أضاف قائلا :" وآل الأمر إلى الوقوف للشريعة، بمحضر العلامة سيدي عبد الله بن عبد الواحد العمراني، والعلامة سيدي علي بن الحاج محمد العمراني... وجمع من علماء بلدنا "[2]. وبعد أن بين الحكم الصادر منه قال:" وعلى هذا عملنا وبه قضينا " [3].

كما كان مترجمنا سياسيا بارعا، تم الاعتماد عليه كوسيط بين بايات قسنطينة وبايات تونس، لحل النزاعات بينهم، وقد ذاع صيته فنال احترام وتقدير والولاة العثمانيين، الذين عملوا على كسب وده، فتلقى ظهائر من أحمد باي، والداي مصطفى وحسين باي وغيرهم.

تطورت مدرسة الخنقة في عهده ثم على يد ابنه بالخصوص الشيخ أحمد بناصر، فأصبحت من أشهر المدارس الموجودة في غير العواصم، وقد اشتهرت بعلوم النحو والفقه والحديث، وكانت مقصد طلبة الزيبان ووادي سوف والأوراس، وحتى قسنطينة وعنابة[4].

من آثاره كتاب "عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام"[5] ألفه سنة 1152ه/ 1739م[6]، وتوفي الشيخ محمد في الخنقة سنة 1154ه/ 1741م دفن بها[7].

---

[1]- محمد بن محمد الطيب الخنقي، المصدر نفسه، ص :340، 341.

[2]- محمد بن محمد الطيب الخنقي، المصدر نفسه، ص :272.

[3]- محمد بن محمد الطيب الخنقي، المصدر نفسه، ص :273.

[4]- محمد موهوب بن أحمد في مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية، ص :هـ، و.

[5]- يتضمن حوالي 500 مسألة فقهية، وقد طبعه حفيده بن حسين تحت عنوان:" مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي".

[6]- محمد بن محمد الطيب الخنقي، مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي. ص 447.

[7]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر.ص:358، 359.

(4)– أحمد بناصر بن محمد بن محمد الطيب (القرن 12ه/ 18م):

لا شك في أنه أخذ العلم على علماء الخنقة بزاوية أسرته، أما مكانته العلمية فيثبتها اهتمامه بمدرسة أسرته، والتي عرفت بالمدرسة الناصرية، والتي يوجد على بابها الخارجي كتابة منقوشة على الرخام تقول أنها بنيت على يد أحمد بن ناصر في شهر رجب سنة 1171ه/1757م. والغالب على الظن أن هذا التاريخ هو تاريخ تجديد وليس تاريخ البناء الأصلي، ولهذا يرجح أنها معروفة بالمدرسة الناصرية نسبة إلى مجدد بنائها، وليس إلى الطريقة الناصرية الشاذلية[1].

لاشك في أن علماء هذا البيت أكثر مما توصلنا إليه، وهناك إشارة إلى أحدهم في" الدرة المصونة"، وهو عيسى بن ناجي الذي تتلمذ في بونة على الشيخ قاسم البوني. ورد ذكره في البيت الموالي[2]:

وبابن ناجي العدل عيسى العالم ورفقائه ذوي المكارم

(ثانيا)– بيوتات وأسر علمية متفرقة بإقليم الزيبان بسكرة:

(أ)– أسرة ابن رمضان:

(1)– الصادق بن مصطفى البسكري (ت 1276ه/ 1859م):

هو الشيخ محمد الصادق بن مصطفى بن محمد بن رمضان بن عصمان، المعروف بابن رمضان من أصل تركي. وأسرة بن رمضان من الأسر العريقة المعروفة بالعلم والثراء في منطقة بسكرة، من رجالات الطريقة الرحمانية وعلمائها. ولد محمد الصادق في بسكرة في حدود سنة 1194ه/1779م، ونشأ في أسرة دينية، إذ كان والده الشيخ مصطفى عالما مبرزا يدرس علوم الفقه والتفسير بمدينته، فأخذ العلم عن والده، وأخذ الطريقة الرحمانية، والتصوف عن الشيخ محمد بن عزوز البرجي(ت1818م/1234م)، والشيخ عبد الحفيظ الخنقي[3].

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي، ص: 116.

[2] – أحمد البوني، الدرة المصونة. ص:87.

[3] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:171.

شرع في التدريس بزاوية والده ببسكرة، وأضاف إلى زاوية والده مباني جديدة ساعدت على التكفل بالطلبة القادمين من مناطق بعيدة، وكان ينفق على الزاوية من ماله الخاص. ومن الذين أخذوا عنه: ابن أخيه الشيخ مصطفى بن رمضان، والشيخ مصطفى بن العابد وغيرهما[1].

وبعد ثورة الزعاطشة نفته سلطات الاحتلال إلى بلدة جمورة بالقرب من بسكرة، فظل بها إلى وفاته سنة 1276ه/ 1859م. ترك الشيخ عدة مؤلفات أغلبها في الزهد والتصوف منها: تبصرة الذاكرين في طريق السالكين، تحفة السلوك إلى مقام الملوك، لطائف الحكم أو طب القلوب، رسالة دائرة الأولياء[2].

(ب)- الأسرة الحافظية:

تنسب هذه الأسرة إلى أحد الأشراف الأدارسة في فاس، واسمه سيدي هجرس بن سيدي علي الشريف[3]، والذي يرتفع نسبه إلى الإمام علي -كرم الله وجهه- وينتمي إلى أسرة عريقة في العلم والدين، ولعل من أشهر رجالاتها "سيدي زرزور" صاحب الضريح المشهور ببسكرة القديمة، والذي عرف بسعة علمه وكراماته[4]. ويعرف الواحد منهم بالوانجي نسبة إلى " وانجن قوم أشراف في جبل أوراس "[5].

(1)- أحمد بن محمد الهجرسي (القرن 12ه/ 18م):

أحمد بن محمد الوانجي الحافظي الهجرسي الإدريسي الحسني، هو جد الأسرة الحافظية[6]، وأبرز أبناءها عبد الحفيظ الخنقي من كبار رجالات التصوف في القرن 12ه[7].

---

[1]- عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص:171.

[2]- عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص، ص:171، 172.

[3]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر (1830- 1954)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954. 2007. ص:201.

[4]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:114.

[5]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830- 1954. ص:201.

[6]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع نفسه، ص:201.

[7]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:114.

كان الشيخ أحمد بن محمد الحافظي يسيح في الأوراس ويعلم الناس الشريعة، وتوقف مدة في الزاب الشرقي، وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري[1] أسس زاوية ب" زريبة الوادي" لنشر العلم والطريقة الصوفية، ثم انتقل إلى الخنقة وفيها درس العلم سيما الرياضيات والفلك بإشارة من صديقه محمد الطيب بن محمد بن أحمد المبارك زعيم بلدة الخنقة، وبعد مدة أسس بها زاوية خاصة به سرعان ما ذاع صيتها [2].

وتوفي بالخنقة في بداية القرن الثاني عشر الهجري، مخلفا ابنه عبد الحفيظ الذي واصل مسيرة سلفه، وخلفه ابنه أحمد ثم ابنه محمد، ثم ابنه الشيخ عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد رائد الطريقة الرحمانية في الخنقة [3]، المترجم له فيما بعد.

(2)- عبد الحفيظ بن محمد الخنقي (ت 1266ه/ 1850م):

الشيخ عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد بن عبد الحفيظ بن أحمد الحافظي الوانجي الهجرسي، ولد بخنقة سيدي ناجي عام 1203ه/1789م، وبها ترعرع وأخذ العلم، وفي بداية شبابه صحب إمام الرحمانية في تلك النواحي الشيخ محمد بن عزوز فأجازه في الدعوة وتربية المردين، فقام بذلك أحسن قيام، فكانت زاويته من أكبر معاقل الطريقة[4]، كما أخذ عن الشيخ علي بن عمر[5].

يعد الشيخ عبد الحفيظ أحد رواد الطريقة الرحمانية بالخنقة، وقد تولى التدريس بزاوية جده أحمد الهجرسي بالخنقة، وعمل على نشر الطريقة الرحمانية بها، وأصبح مقدما لها في تلك الناحية.

ورغم انشغاله بالتربية والتعليم إلا أنه شارك بشكل فعال في مقاومة المحتل الفرنسي في ثورة الزعاطشة عام 1849م، ثم هاجر إلى نفطة بالجنوب التونسي، وهناك توفي سنة

---

[1]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص:201.

[2] - عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:114.

[3]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص:202.

[4]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830- 1954. ص:202.

[5] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:180.

1266ه/ 1850م. مخلفا العديد من المؤلفات منها: التعريف بالإنسان الكامل، الجواهر المكنونة والعلوم المصونة، حزب الفلاح ومصباح الأرواح، الحكم الحفيظية، غنمية المريد في التصوف، سر التفكر في أهل التذكر، غنية القاري بترجمة ثلاثيات البخاري، غاية البداية في حكم النهاية[1].

وهكذا؛ وجدت بالخنقة زاويتان الزاوية الناصرية وهي التي تعود لبيت أولاد سيدي ناجي، والزاوية الرحمانية، فأما الزاوية الرحمانية فهي حديثة نسبيا، إذ تعود إلى القرن الثالث عشر الهجري، ومؤسسها هو الشيخ عبد الحفيظ بن محمد الخنقي الذي انخرط في سلك الطريقة الرحمانية المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري (ت 1208ه)، وتسمى أيضا بالخلوتية. ولا شك أن زاوية الشيخ عبد الحفيظ قد بدأت بنشر العلم وقراءة القرآن وإطعام الطعام للفقراء، شأنها في ذلك شأن معظم الزوايا في ذلك الزمان[2].

ومن الخريجين القدماء للمدرسة خليفة بن حسن القماري المولود سنة 1123ه/1711م بقمار، ونشأ بها، وأخذ العلم بها ثم انتقل حيث أكمل معلوماته في معاهد مشهورة مثل توز ونفطة، وأكثر تعلمه بمدينة الخنقة في النصف الثاني من القرن 12ه. كانت الخنقة في عصره محط رحال العلماء في القطر الجزائري. وبها قرأ على الشيخ عبد الحفيظ صاحب الخنقة والزاوية المشهورة باسمه[3].

(ج)– بيت ابن عزوز:

هو " بيت علم وفضل وصلاح"، زاويتهم بصحراء الزاب من أعمال بسكرة، ببلدة صغيرة تسمى البرج [4]، هي أسرة علمية دينية ظهرت في أواخر العهد العثماني، واستمر أبناؤها خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ومع ذلك عرجنا عليها وحاولنا أن نعرف

---

[1]– عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص– ص:202– 204؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص، ص:180، 181.

[2] – أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي.. ص، ص: 116، 118.

[3]– محمد الطاهر التليلي، إتحاف القاري بحياة الشيخ خليفة بن حسن القماري المتوفى 1207ه/ 1792م. تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010. ص :21.

[4]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:401.

أبناءها الذين ولدوا في السنوات الأخيرة للعهد العثماني وبدأوا تحصيلهم العلمي به، ولكن نشاطهم العلمي والسياسي كان خلال القرن 19م إلا أسلافهم، الذين استطعنا أن نعرف منهم والدهم وربما جدهم.

(1)– أحمد بن عزوز:

عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري وهو معاصر لمحمد بن محمد الطيب، ومن المسائل التي أوردها هذا الأخير في كتابه قضية أو مسألة أصحابها من طولقة، ترافعوا إلى القضاة والحكام في منطقة بسكرة، ومن الرجال الذين مرت على أيديهم أحد أفراد هذا البيت من خلال الاسم، بحيث ذكر هكذا "بعد حكم السيد أحمد بن عزوز"[1]، وهذا يؤكد أنه كان قاضيا.

(2)– محمد بن أحمد بن عزوز البرجي (ت 1233ه/ 1818م):

محمد بن أحمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبد المؤمن... بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل، ولد سنة 1170ه/ 1757م بقرية البرج قرب طولقة[2]، واشتغل بتحصيل العلم فأخذ عن والده الولي الصالح أحمد بن يوسف، ثم انتقل إلى مدينة الجزائر واتصل بمحمد بن عبد الرحمن الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية، ولما رجع إلى البرج أسس زاوية هناك للتعليم والإرشاد، فانتشرت الطريقة الرحمانية في تلك النواحي، وأصبحت تعرف بالعزوزية[3].

وتوفي سنة 1233ه بمسقط رأسه بالبرج، مخلفا ترك عدة مؤلفات منها: رسالة في التصوف سماها " قواطع المريد" وشرحها، وشرح على التلخيص، وهو تلخيص المفتاح في المعاني والبيان لمؤلفه الخطيب القزويني (ت739ه/ 1338م)[4].

---

[1]– محمد بن محمد الطيب الحنقي، مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي، ص :131.

[2]– ترجم له الحفناوي في تعريف الخلف، ج2، ص:469؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 232.

[3]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:288.

[4]– عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص:289.

كما خلف عقب أولاد بررة صالحين خدموا العلم والدين، أكبرهم الشيخ الحسن بن عزوز (ت1263ه/1847م) خليفة الأمير عبد القادر على مناطق الزيبان[1]، والشيخ مصطفى بن عزوز، والشيخ التازي دفين طيبة المنورة، المبروك دفين الأغواط، وغيرهم[2].

– ومن متأخري هذا البيت:

المبروك بن محمد بنعزوز البرجي (ت 1305ه/ 1887م) [3]، والتازي بن محمد بن عزوز البرجي (ت1310ه/ 1892م) وهو من أبرز علماء الطريقة الرحمانية[4]، محمد بن محمد بن عزوز البرجي (ت 1309ه/ 1891م)[5]، مصطفى بن محمد بن عزوز البرجي (ت1282ه/ 1865م) وغيرهم.

– من خلال هذا الفصل يتبين أن مدينة قسنطينة تميزت عن المدن الأخرى بأن عدد معتبر من بيوتاتها العلمية كانت قد برزت خلال العهد الحفصي واستمرت خلال العهد العثماني، والأمر الطارئ هو أن بعض البيوتات تبوأت الصدارة في العهد العثماني كبيت الفكون، في حين تراجعت قليلا مكانة بيوتات أخرى، مثل بيت الكماد، وهذا يؤكد أهمية العلاقة بالسلطة الزمنية في مكانة البيوتات بها.

– ويتبين أيضا أن البيوتات والأسر العلمية كثيرة ببلاد زواوة، ولهذا كانت الحركة العلمية بها نشيطة، كما يتبين أن الحركة العلمية في منطقة الزيبان وبالتحديد بخنقة سيدي ناجي ازدهرت منذ القرن 12ه/ 18م تزامنا مع ازدياد عدد البيوتات والأسر العلمية بها، أما مدينة عنابة فرغم أنها مركز حضاري بالمقارنة مع المناطق المذكورة إلا أن عدد البيوتات العلمية بها كان قليل جدا، فلم نستطع أن نحصي أكثر من بيت واحد، وهذا ما أثر وتأثر بالحركة العلمية بها، والتي لم تكن في مصاف الحواضر العلمية في ذلك العهد.

---

[1]– عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830– 1954. ص:501.

[2]– عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:289.

[3]– عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص، ص:276، 277.

[4]– عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص– ص:131– 133.

[5]– عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص:360.

الفصل الثالث

البيـوتات والأسر العـلمـية ببايليك الغرب

المبـحث الأول: بيت المشـــــــــارف بإقليم الراشدية

المبـحث الثاني: بيت السيد عبد القادر بن المختار بالراشدية

المبحث الثالث: بيـــوتات وأسر علمية متفرقة بمدينة معسكر وضواحيها

المبـحث الرابع: البيوتات العلمية بمدينة تلمسان

المبحث الخامس: البيوتات والأسر العلمية بمازونة

المبحث السادس: البيوتات والأسر العلمية بمستغانم وقلعة بني راشد

تعد مدينة معسكر- الواقعة بإقليم بني راشد[1]-أهم الحواضر العلمية ببايليك الغرب[2]، وتليها مدينة مازونة إلا أنهما حاضرتان من الدرجة الثانية - إن صح التعبير- إذ لم تبلغ الحركة العلمية بهما المستوى الذي عرفته مدينة الجزائر وقسنطينة خلال العهد المدروس. أما مدينة تلمسان العاصمة القديمة للزيانيين[3] فقد تراجعت الحركة العلمية بها خلال العهد العثماني، وفقدت ما كانت تتمتع به من ريادة في المجالين السياسي والثقافي في ظل الزيانيين.

كانت مدينة تلمسان تحتل مكانة رائدة في المجال الثقافي[4]بين حواضر المغرب الإسلامي، وتجلى ذلك في كثرة علماءها وضخامة إنتاجهم الفكري، وترجع تلك المكانة إلى النزعة الثقافية التي تميز بها بعض سلاطين[5] وأمراء بني زيان[6]، الذين عرفوا برعايتهم المستمرة للعلم ورجاله، وبتقريب العلماء والأدباء من مختلف الحواضر المغربية والأقطار الإسلامية[7]، وقد

---

[1] - يمتد هذا الإقليم على طول نحو 50 ميلا من الشرق إلى الغرب، وعلى عرض يقرب من 25 ميلا، جهته الواقعة جنوبا كلها سهول، والواقعة شمالا كلها تقريبا مرتفعات. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تح: محمد حجي- محمد لخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي- منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (ط1)، 1983. ج2، ص: 26.

[2]- كانت إدارة بايليك الغرب في البداية مقسمة بين تلمسان ومازونة، ثم جمعتا للباي مصطفى أبو الشلاغم المسراتي سنة 1098هـ/ 1686م، فنقل كرسي البايليك إلى قلعة بني راشد ثم إلى معسكر، وبعد الفتح الأول لوهران سنة 1119هـ/1707م نقل إليها المقر فظل بها إلى ما بعد 1143هـ/ 1734م، وفيها عاود الإسبان احتلال وهران، وظل بها إلى أن فُتِحت من جديد في 1206هـ/ 1791م فنقل إليها مقر البايليك نهائيا. ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، تح: يحي بوعزيز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1990. ج1، ص، ص: 270، 271؛ محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق: المهدي البوعبدلي. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978. ص، ص: 192، 193.

[3]- تأسست الدولة الزيانية بغرب المغرب الأوسط سنة 633ه/1235م، ودام حكمها حوالي ثلاثة قرون، قبل أن يقضي عليها البايلرباي صالح رايس سنة 962ه/ 1555م.

[4]- كثرت المؤسسات التعليمية تلمسان من مساجد وزوايا ومدارس، ومن مساجدها العريقة جامع أجادير الذي بني من طرف الأدارسة سنة 174ه، والجامع الأعظم الذي بناه المرابطون بين عامي: 475ه، و530هـ، أما المدارس فأقدمها مدرسة أولاد الإمام، التي أنشئت سنة 710ه، والمدرسة التي بناها أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بعد سنة 718ه. ينظر: توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 190.

[5]- نذكر من بين السلاطين العلماء: السلطان الشاعر أبي حمو موسى الثاني (760-791ه)، والسلطان أبي زيان محمد الثاني (796ه-801ه) فقد قربا العلماء منهما وأسسوا المدارس والمكتبات ونسبت لهم بعض التآليف. ينظر: عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية). الجزائر: موفم للنشر والتوزيع، 2002. ج2، ص: 320- 323؛ بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993. ص: 34.

[6]- من الأمراء العلماء: الأمير الفقيه عبد الله بن عثمان بن يغمراسن بن زيان المعروف بأبي حفص حفيد السلطان، والفقيه أبي سليمان داوود علي " كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم". ينظر: أبو عبد الله محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة - منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (ط1)، 2008. ص: 153.

[7]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني. ج2، ص - ص: 317- 320.

كانت المنافسة بين سلاطين المغرب على أشدها في اختيار كبار الكتاب والفقهاء والأدباء، وإدراجهم في المجالس العلمية والدواوين[1].

وفي ظل ذلك الرقي الحضاري والازدهار العلمي الذي عرفته تلمسان الزيانية كان لا بد أن يكثر بها عدد البيوتات والأسر العلمية، خاصة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، وقد لعبت تلك البيوتات دورا بالغ الأهمية في تنشيط الحركة العلمية بها، ومشاركتها في الحياة السياسة، لاعتماد الدولة على العلماء في جهازها الإداري، فهم الحجاب، والوزراء والكتاب...إلخ، فضلا عن الوظائف العلمية والدينية كالقضاء والتدريس وغيرها. وأشهرها البيوتات العلمية بتلمسان آنذاك: بيت المقري، وبيت العقباني، وبيت ابن زاغو، وبيت المرازقة، وبيت ابني الإمام.

وفي الفترة الأخيرة من العصر الوسيط تضاءل عدد البيوتات والأسر العلمية بتلمسان، تزامنا مع الظروف التي عرفتها المنطقة في مختلف المجالات، وجاء التحاقها بالعثمانيين وما صاحبه من اضطرابات ليزيد الأوضاع سوءا، فاختفت الكثير من البيوتات العلمية بتلمسان خلال العهد العثماني، وحتى البيوتات التي استمرت خلال هذا العهد لم تكن بذلك الحضور الذي عرفته خلال العهد السابق، فلم يبرز مثلا علماء كبار من بيت العقباني وابن زاغو، أما بيت المقري فبرز منه ثلاثة علماء كبار، واحد منهم فقط هو الذي استقر بتلمسان، وساهم في الحركة الفكرية بها.

توجه الإخوة بربروسة إلى تلمسان سنة 923ه/1517م[2] بطلب من أهلها الذين نفروا من حكامهم الزيانيين، إلا أن المدينة لم تصفوا للعثمانيين، لتشبث الزيانيون بملك تلمسان مستظهرين في أغلب الأحيان بالإسبان، ولهذا عرفت المدينة اضطرابات وفتن لمدة تربو عن الأربعين سنة. وآخر سلاطين الدولة الزيانية هو السلطان الحسن بن عبد الله، الذي

---

[1]- عيسى بن الذيب وآخرون، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007. ص: 147.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله، ص: 108.

استمر على ولائه للعثمانيين خمس سنوات، ولكن سيرته لم تكن محمودة، فضاق أهل تلمسان من ظلمه، وفساده واجتمع مجلس العلماء والوجهاء وأعلنوا خلعه في سنة 962ه/ 1555م، عندئذ أعلن البيلرباي صالح رايس نهاية الدولة الزيانية، وانضمام تلمسان إلى الحكومة المركزية[1]، فتسببت هذه الفتوى بهجرة عدد كبير من علماء تلمسان[2]، وهو ما زاد في تدهور الحركة الفكرية بها.

وهكذا فإن مدينة تلمسان لم تفقد خلال العهد العثماني زعامتها السياسية، فقط بل فقدت أيضا رصيدها الثقافي، فها هو أحمد المقري يزور مدرسة أولاد الإمام إحدى أشهر وأهم مدارسها في العهد الزياني في حدود 1010ه/1601م، فيجدها قد تحولت إلى خراب، وذلك ما صرح به أحمد المقري قائلا بأنه زارها رفقة جملة من العلماء والأعيان " فطافوا بآثارها الباقية حتى وصلوا إلى خزانة الكتب المشهورة فوجدوها "خاوية على عروشها "[3]. وهذا التراجع الذي أصاب تلمسان خلال العهد المدروس لا يعني أنها أصبحت خلوا من العلم، بل كانت بعض مساجدها تقوم بدور التعليم، وأهمها جامعها الأعظم.

هذا؛ وقد اشتهرت العديد من البيوتات والأسر العلمية بمختلف أرجاء بايليك الغرب، فكان لها دور مهم في تنشيط الحركة العلمية به، وأبرزها على الإطلاق بيت المشارق، وبيت الشيخ مصطفى المختاري جد الأمير عبد القادر، وبيت ابن زرفة، بيت المقري، بيت ابن الشارف المازوني... إلخ.

- المبحث الأول: بيت المشـــــارف بإقليم الراشدية - أم عسكر:

[1]- محمد حجي، الحركة الفكرية، ج1، ص: 39؛ وج2، ص: 355.

[2]- بدأت هجرة علماء تلمسان قبل هذا التاريخ، بحيث هجرها عدد كبير من علمائها إلى المغرب الأقصى؛ بحثا عن الهدوء والاستقرار، فحظوا هناك بتقدير سلاطين المغرب، وتولوا المناصب العلمية الرفيعة. ينظر: محمد حجي، المرجع السابق، ج1، ص: 39؛ وج2، ص: 355.

[3]- المقري، رحلة المقري، ص: 140.

(أولا)- نسب المشارف:

يتصل نسب بيت المشارف بالشرفاء العرهبيين[1] أهل فقيق بقصر واد غير[2]، وهذا البيت إدريسي النسب من الفرع الحسني[3]، تطرق ابن الجوزي المزيلي[4] إلى نسب المشارف في كتابه " شرح عقد الجمان" قائلا:" المشرفي نسبة إلى مشرَف -بفتح الراء وكسرها- وهو ابن عبد الرحمن بن مسعود المقدم قاضيا لبعض ملوك بني زيان... هو من ذرية سيدي يوسف بن عيسى الشريف الحسني"، ثم أضاف قائلا :" أنّ مسعود هذا من أبناء عبد الله سيدي علي بن مشرف بن غريب الله بن علي بن المشرف بن عبد الرحمن المدعو رحمون بن عبد الله بن يوسف بن عيسى بن صالح بن الحسن ابن أبي القاسم بن أبي عبد الله العربي بن محمد بن الشيخ مولانا يعقوب ابن إسحاق بن عبد الله بن أبي عمران... إدريس... (إلى علي وفاطمة -رضي الله عنهما-) [5].

وقد حصل المشارف على ظهائر[6] ثبت صحة نسبهم الشريف من قبل العثمانيين حكام الجزائر، والعلويين حكام المغرب الأقصى[7]، وفي "الدرر البهية":" وبأيدي هؤلاء المشرفيين رسوم عديدة، وفتاوى مفيدة، اشتملت على عشرين ظهيرا، عضّدها ظهائر ملوك الترك...

---

[1]- العرهبيون هم حفدة العربي المدعو عرهب دفين تادلة من شرفاء فجيج، بن محمد يعقوب الجد الجامع للشرفاء العرهبيين والعفيفيين واليعقوبيين والمغراويين مدفون قرب معسكر، بن عبد الله بن أبي عمران موسى... إلى إدريس الأكبر. ينظر: عبد الحق شرف، صورة الأسرة المشرفية بمنطقة معسكر في كتابات يحي بوعزيز، ضمن مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، ع: 1، جوان 2011. ص: 135.

[2]- يحي بو عزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1995. 2ج، ص: 231.

[3]- ينتهي نسبه إلى عيسى بن إدريس الثاني بن إدريس الأول. ينظر: أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، ص: 18.

[4]- أورد أبو حامد المشرفي في "ياقوتة النسب" مخ (ص: 19) نسبه بقوله:" نسبنا المتصل بنسب العرهبيين فنقول نسب جامعه ومقيده محمد العربي بن عبد القادر بن علي بن محمد بن مسعود بن عبد الله بن يوسف بن عيسى البوخليلي بن صالح ابن الحسن..." ، ووصل بسلسلة نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله-ﷺ-.

[5]- ابن الجوزي المزيلي، شرح عقد الجمان نقلا عن أبي حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس »، مخ، مكتبة الشيخ بلقرد - مدينة معسكر، ص: 16.

[6]- يعود أقدم الظهائر التي تثبت نسب المشارف إلى القرن 11ه. ينظر: عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر، ص: 68.

[7]- أورد ابن مصطفى المشرفي في كتابه "السهام الصائبة" ظهيرا للسلطان مولاي الحسن، يثبت فيه نسب الأسرة المشرفية الشريف، بالإضافة إلى وثائق أخرى. ينظر: إدريس بوهليلة في دراسته وتحقيقه للحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي. الرباط: دار أبي الرقراق للطباعة والنشر- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (ط1)، 2005. ج1، ص: 55.

وظهائر الشرفاء الملوك العلويين أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن بن هشام، وابنه سيدي محمد، وحفيده السلطان مولانا الحسن إلى غير ذلك"[1].

ورغم الظهائر المشار إليها، ومما ذكره أبا حامد العربي المشرفي من أنه:" انعقد إجماع العلماء في آخر القرن العاشر على أنهم أشراف"[2]، وهذا لم يمنع من تعرض نسب المشارف للطعن من طرف بعض معاصريهم[3]، ويستوقفنا في هذا الصدد عدم ترجمة عبد الرحمن التوجيني لأي من المشارف في كتابه " عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس"، الذي خصصه لأشراف القرن الحادي عشر الهجري، وذلك ما أكد عليه بقوله:" ولا نذكر إن شاء الله في هذا الديوان إلا من ثبت شرفه عند أهل القرن الحادي عشر"[4]، مع وجود علماء من المشارف خلال هذا القرن[5].

(ثانيا)- الأجداد الأوائل للمشارف:

(1)- مشرف بن غريب:

هو الجد الأعلى للمشارف، واسمه مشرف بن غريب بن علي بن المشرف بن عبد الرحمن المدعو رحمون الذي ينتهي نسبه إلى إدريس الأكبر، كما في شرح "عقد الجمان النفيس"[6].

(2)- يوسف بن عيسى المشرفي:

هو الجد الأوسط للمشارف، وفيه تجتمع أشراف المشارف[1]، واسمه الكامل هو "يوسف بن عيسى بن عبد الله بن العربي بن يعقوب الشريف الحسني"[2]. عرفه أبا حامد

---

[1]- إدريس الفضيلي، الدرر البهية، ج2، ص: 154.

[2]- أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص:28.

[3]- طعن الشيخ أبي راس الناصري في نسب المشارف، وقد تناولنا هذه المسألة بالتفصيل في القسم الثاني.

[4]- أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس. المسيلة (الجزائر): دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع.(ط1)، 2005. ص: 11.

[5]- لم يفرد التوجيني الشيخ أحمد بن أبي جلال المشرفي بترجمة، وأشار إليه في سياق ترجمته لأحد العلماء. ينظر: عقد الجمان، ص: 20.

[6]- محمد الأعرج الغريسي السليماني الفاسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب للعلامة سيدي عيسى بن موسى التيجيني الغريسي، ضمن كتاب مجموع النسب للهاشمي بن بكار. تلمسان: المطبعة الخلدونية، (ط1)، 1961م. ص: 387.

المشرفي بالولي الصالح " قطب الراشدية سيدنا الحاج يوسف بن عيسى، دفين الكرط، عُرهبي من أولاد عرهب شرفاء فجيج"[3]. ووصفه أبو راس ب:" الشريف الأسعد... سيدي يوسف بن عيسى الشريف، فخر أشراف الراشدية...جد الفضلاء النبلاء من العلوم والمعارف... المتوطنين بحبوحة أرض غريس... المشهورين بالمشارف" [4].

عاش في القرن العاشر الهجري (16م)، إذ لقيه ابن عسكر سنة 955هـ/1548م[5]، وأخذ عنه طريق القوم بالعهد والصحبة، وترجم له في كتابه "دوحة الناشر" المخصص "لمن كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر"، وعرفه ب:" الولي ذو الأقوال الزاهرة، والكرامات الظاهرة... وله في علم الأحوال والمعاملات وأسرار الذكر الخاص الشأن الذي لا يدرك"[6]. وتشير بعض الروايات إلى أنَّ الشيخ يوسف بن عيسى انتقل من فجيج إلى وطن الراشدية غريس فنزل ببني شقران بسفح جبل الذهب، وأسس زاوية بالكرط الواقعة بالقرب من معسكر، حملت اسم موضعها[7].

رحل الشيخ يوسف بن عيسى إلى المشرق في عام 957هـ/1550م، وأقام بمكة ستة عشر سنة[8]، أما تاريخ وفاته فهو غير مذكور في المصادر، وكل ما نعرفه أنه كان قد نيف على الثمانين سنة، عندما التقى به ابن عسكر.

---

[1]- محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ضمن كتاب مجموع النسب للهاشمي بن بكار. ص: 387.

[2]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس»، مخ، ص: 15.

[3]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، مخ، ص: 18.

[4]- أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، « تقييد في النسب المشرفي »، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم: 13959. ص، ص: 18، 19.

[5]- يذهب كل من الزاوي الجيلالي بن محمد المشرفي والمشرفي عبد الكريم، إلى أنه أسس زاوية الكرط أواخر القرن 8 ه وبداية القرن 9ه، بينما يذكر ابن عسكر أنه التقى به خلال القرن 10ه. ينظر دراستهما المعنونة ب:نافذة على بعض علماء معسكر رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 2 وع: 3. 2004- 2005. ص: 86.

[6]- ابن عسكر محمد الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان من بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي. مراجعة: عبد المجيد خيالي. الدار البيضاء (المغرب): منشورات مركز التراث المغربي، (ط3). 2003. ص- ص: 12- 14.

[7]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس»، مخ، ص: 15؛ وياقوتة النسب، ص: 18؛ ابن مصطفى المشرفي، تقييد في النسب المشرفي، مخ، ص: 17.

[8]- ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان من بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ص: 12- 14؟.

(3)- مشرَف بن عبد الرحمن بن مسعود:

هو الجد الأدنى للمشارف، هو من ذرية سيدي يوسف بن عيسى. وهناك اختلاف بين الروايات التاريخية حينما تتطرق إلى أول من دخل الوطن الراشدي من المشارف، فهذا أبا حامد المشرفي ينقل عن "مختصر البيان" أنَّ "يوسف بن عيسى الشريف العرهبي هو أول أتى من جبل فجيج إلى وطن الراشدية فنزل ببني الشقران بسفح جبل الذهب[1]. وفي رواية لابن الجوزي المزيلي في "شرح عقد الجمان " أنَّ الذي قدم من بوسمغون[2] وتولى القضاء بغريس لبعض أمراء بني زيان هو مشرَف بن عبد الرحمن بن مسعود[3] الجد الأدنى للمشارف [4].

(ثالثا)- علماء المشارف الأوائل بغريس:

تفرعت عن بيت المشارف خلال القرن الثاني عشر الهجري عدد من البيوتات العلمية، وكلها تشترك في انتسابها إلى الشيخ أحمد أبو جلال المشرفي، وابنه الشيخ اعمر التـــــراري المشرفي:

(1)- الشيخ أبو العباس أحمد أبو جلال المشرفي:

أشارت إليه العديد من الوثائق[5] والمؤلفات، ولكنها لا تزيد عن نسبه إلى أحد أجداده الأوائل[6]، وورد نسبه بشكل أوضح في رسالة الشيخ محمد بن الحاج البيدري المدعو ابن عبد الرحمن المسماة "بتنوير قلوب أهل التقى والمعارف بذكر نسب سادات غريس الموسومين بالمشارف"، في هذا النص:" السيد أحمد أبي جلال ابن محمد بن امحمد بن محمد

---

[1]- أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص: 15؛ وياقوتة النسب، مخ، ص: 18.

[2]- بوسمغون: قرية بالجنوب الغربي الجزائري.

[3]- نفس الرأي يذهب له محمد الأعرج(شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 387)، ويميل إليه يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 2ج، ص: 231.

[4]- ابن الجوزي المزيلي، شرح عقد الجمان نقلا عن أبي حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس »، مخ، ص: 16.

[5]- ابن مصطفى المشرفي، تقييد في النسب المشرفي، مخ، ص: 10.

[6]- ورد في " عقد الجمان النفيس" لعبد الرحمن لتوجيني أنه ينتسب إلى مشرَف، وهو ابن عبد الرحمن بن مسعود. ص: 20؛ أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص: 16.

المشرف ابن عبد الرحمن المدعو رحمون ابن مسعود بن عبد الله بن يوسف بن عيسى"[1].

وعليه فإنَّ أبا جلال هو حفيد أحفاد الشيخ يوسف بن عيسى.

ومن خلال سلسلة النسب الواردة من قبل نجد ستة آباء بين الجد يوسف بن عيسى الذي عاش خلال القرن العاشر الهجري، وحفيد أحفاده الشيخ أبي جلال الذي عاش على الأرجح خلال النصف الثاني من القرن العاشر، والقرن الحادي عشر، وهذا ينبئ بوجود خلل ما، إما في سلسلة النسب، أو أن الفترة الزمنية التي عاش فيها كل منهما.

عاش الشيخ أحمد أبو اجلال المشرفي على الأرجح خلال القرن الحادي عشر الهجري (17م)، يؤكد ذلك تتلمذه على الشيخ عبد الرحمن بن زرفة، والشيخ اعمر التراري المستغانمي، الذي سمى ابنه باسمه لحبه له، وهو العلامة الشيخ اعمر التراري بن أحمد أبي جلال المشرفي[2].

وصفه الشيخ أبو راس في شهادته للمشارف بنسبهم الشريف ب:" الجليل الأثيل الأسمى... العارف بالله الشيخ أحمد أبو اجلال... فهو فرع الشجرة الشماء والسرحة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، توشح بالولاية يافعا ووليدا "[3].

(2)- الشيخ اعمر التـــــراري بن أحمد أبي جلال المشرفي:

وصفه ابن مصطفى المشرفي ب:" العلامة الدراكة الفهامة شيخ المحققين، وعمدة الجهابذة المدققين" [4]، وفي شهادة الشيخ أبي راس للمشارف بنسبهم الشريف والهاء تعود على- أبي جلال-:" منهم ابنه لصلبه، العارف كأبيه بربه، ورثه في العلم والشيم والكرم... الشيخ اعمر التراري، سوقه في بث العلوم ما بار وما كسد "[5]، وهو الذي رثاه تلميذه

---

[1]- ابن مصطفى المشرفي، « تقييد في نسب المشارف »، مخ، ص: 16.

[2]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 11.

[3]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 19.

[4]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص، ص: 11، 12.

[5]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 19.

الشيخ مصطفى الرماصي[1] بقصيدة طويلة[2]، وصفه فيها بأوصاف تدل على تفوقه في العلم ك:" الجهبيذ "، مشيرا إلى بعض العلوم التي كان يدرسها، كالمعاني والعروض، ومختصر خليل وفروعه، وشرح المرادي، ألفية ابن مالك، ابن حاجب، بشارحه التوضيح، كما كانت " له خوضة في السبع بل وفي عشرها "، والأصلين مع علم المعاني، وفي هذه المرثية ما يدل على أنه تولى القضاء، من ذلك قوله[3]:

ليبكيه سوى أم العساكر دائما ... بها قد أذاع الحق لا من يناجده

يحكم بين الخصم بالفصل جازما ... فسيان عنده الغريب وباعده

وسيان عنده الحقير ومن سطى ... فلم يخشه و لم تزغه مكائده

ولا يستميله الغني برشوة ... فيجيء مع المنهاج لا من يناده

إذا شام في أقضية الحكم سيفه ... تهابه فيها أسده وسبانده

(رابعا)- بيوتات المشارف:

لم تنحصر بيوت هذه الأسرة في بيت واحد وإنما "هم جموع كثيرة من المشارف" [4]، وقد أنجبت عدد من بيوتاتها علماء استطاع بعضهم أن ينال شهرة واسعة، ولهذا فإنَّ أبا حامد لم يبالغ كثيرا حينما قال:" أنَّ قدر علماء المشارف شهير في الأقطار وشائع في القرى والأمصار"[5]، وأشهرهم على الإطلاق "شيخ الجماعة ومعتقد الجميع السيد عبد القادر بن عبد الله المعروف بالشيخ المشرفي"[6].

---

[1]- مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي (ت 1136هـ/ 1723م): عرف بتبحره في الفقه المالكي. من مؤلفاته: حاشية على شرح الشمس التتائي على المختصر، وكفاية المريد على شرح عقيدة التوحيد. ينظر: مخلوف، شجرة النور، ص: 334؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 560؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 193.

[2]- تنيف على 110 أبيات أورد ابن مصطفى المشرفي في «تقييد في نسب المشارف» مخ جزءا كبيرا منها. ص- ص: 12- 15.

[3]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص، ص: 14، 15.

[4]- أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة » مخ، ص: 18.

[5]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس » مخ، ص: 15.

[6]- الطيب بن المختار المختاري الغريسي، كتاب القول الأعم في بيان أنساب الحشم، ضمن كتاب مجموع النسب والحسب والتاريخ والأدب في أربعة كتب للهاشمي بن بكار. تلمسان: المطبعة الخلدونية، (ط1)، 1961م. ص: 332.

لم تبلغ كل أسر المشارف نفس المكانة العلمية، ولم تحظ أيضا بنفس المكانة لدى السلطة، وذلك ما يؤكده صاحب " القول الأعم" بقوله:" ولم تتعد الرياسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك، وكانت لهم ولاية في خطط الشريعة أيام الأتراك وأيام ابن عمنا الأمير وغيرهم من أبناء عمهم... بهم لا ظهور لهم معهم"[1]. وبيوتات المشارف هي:

(أ)– بيت الشيخ عبد القادر المشرفي:

يعتبر هذا البيت أشهر بيوت المشارف[2]، وينحدر منه أشهر علماء هذا البيت وهم:

(1)– الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي (ت 1192ه/ 1778م):

هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن الشيخ أحمد أبو جلال المشرفي، ذكره محمد بن الحاج البيدري في رسالته المسماة " بتنوير قلوب أهل التقى" في هذا النص:" أما أولاد سيدي أحمد أبي جلال، فمنهم أخونا ذو المناقب الفاخرة... محقق ما خفى من مسائل المعقول...العلامة ... السيد عبد القادر بن السيد عبد الله بن السيد محمد المكنى ابن دح بن السيد أحمد أبي جلال "[3].

كان يدعى بالشيخ المشرفي، ويوصف بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، وهو أشهر علماء المشارف على الإطلاق، لذلك وصفه أبو راس الناصري بواسطة عقد قلادة المشارف[4]، كما كان من أكابر علماء وقته، إذ اشتهر بين معاصريه بالفقه والأدب والتصوف.

تعلم الشيخ عبد القادر المشرفي بإقليم الراشدية على علماء عصره[5]، ومن شيوخه الجزائريين العلامة محمد المنور التلمساني[6]، كما أخذ على علماء المغرب ومصر مثل: الشيخ

---

[1]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص، ص: 332، 333.

[2]– أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة » مخ، ص: 20؛ الطيب بن المختار، المصدر السابق، ص، ص: 332، 333.

[3]– ابن مصطفى المشرفي، « تقييد في النسب المشرفي » مخ، ص: 16.

[4]– ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 20.

[5]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 231.

[6]– أبو راس، فتح الإله، ص: 53.

محمد بن محمد بن عربي البناني المكي، والشيخ محمد بن محمد شهاب الدين الأنصاري المدني، ومحمد بن حسن الميقاتي الإسكندري [1]، والشيخ أبي عبد الله محمد برايق[2].

كان الشيخ عبد القادر المشرفي من الأساتذة المبرزين، وذلك ما يؤكده كثرة طلبته، إذ وصفه تلميذه الشيخ أبو راس بقوله:" انتفع به خلق كثير شريعة وحقيقة... له دروس حسنة بسلس عبارة، وألطف إشارة "[3]، وقد تصدر أولا للتدريس بمعهد الشيخ محي الدين في زاوية القيطنة بواد الحمام، ثم أسس لنفسه زاوية بمسقط رأسه الكرط[4]، أصبحت تضاهي زاوية القيطنة[5]، فتخرج عليه عدد كبير من الطلبة من أشهرهم الشيخ أبي راس الذي يذهب إلى أنّ شيخه المشرفي:" أتقن علوما جمة وبرع فيها... وأقر له كل من رآه بالبراعة والكفاية" [6]، وقد كان مترجمنا " في علم الأصول بحر لا يجارى"[7]، حسب أبو حامد المشرفي.

كما كان المشرفي يفتي للعامة من الناس وللخاصة، وذلك ما أكده تلميذه أبي راس بقوله:" يخضعون له القضاة وسائر الولاة، ويهابونه ويرجعون إليه، ودأبهم التعويل عليه في مهمات الدين"[8].

وقد كان يمتلك القدرة على الكتابة نثرا، وذلك ما أكده أبا حامد في قوله:" وله – رضي الله عنه– ملكة عريضة العارضة في النثر أقوى من عارضة النظم"[9]. أما مؤلفاته فليست كثيرة إذ:" شغله عن التأليف قيامه بوظيفة العبادة، ولو جمعت فتاويه الفرعية ودونت لملأت الديوان"[10]. وأشهر مؤلفاته تأليفه عن قبائل وهران وعلاقتها بالإسبان المعروفة ب" بهجة

---

[1] – سعيدوني، من التراث الجغرافي، ص: 412؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص، ص:205، 206.

[2] – ينظر استجازته من محمد برايق سنة 1149هـ في « رسالة في الرد على أبي راس » مخ لأبي حامد المشرفي، ص– ص: 6-9.

[3] – محمد أبو راس، فتح الإله، ص: 53.

[4] – يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 231؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:206.

[5] – الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 332.

[6] – أبو راس، المصدر السابق، ص: 53.

[7] – أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 19.

[8] – أبو راس، المصدر السابق، ص: 53.

[9] – أبو حامد المشرفي، في رسالة في الرد على أبي راس مخ، ص– ص: 6-9.

[10] – أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، مخ، ص: 19.

الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر". ومن مؤلفاته أيضا: رسالة محمد بن علي الخروبي المعروفة ب" الدرة الشريفة على أصول الطريقة" نظما بعنوان " عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط"، كما ترك أيضا مجموعة رسائل إخوانية جمعت الاهتمام بالفقه والأدب[1]، وذلك ما عناه أبا حامد بقوله:" وله – ﷺ– أدبيات محفوظة عند علماء عصره"[2].

توفي عبد القادر المشرفي سنة 1192هـ/1778م[3]، واستمر العلم في بيته من بعد، وذلك ما عبر عنه أبو راس بقوله:" وبالجملة فما من رهطه إلا عالم كريم حكيم « ذُرِّيَةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [4]"[5].

(2)– الشيخ الطاهر بن عبد القادر المشرفي:

هو ابن صاحب الترجمة السابقة، كناه أبا حامد في "ياقوتة النسب" بأبي النظافة[6]، وحلاه ب:" حبر المشارف في العلوم، وأستاذهم في تقرير المنطوق والمفهوم، العلامة الصدر الماهر، المقدم في علمي الباطن والظاهر ابن الشيخ المشرفي سيدي الطاهر[7]".

أخذ العلم بمسقط رأسه معسكر على والده وغيره من العلماء، كما أخذ على علماء بفاس[8]، ولما رحل إلى الحرمين الشريفين أخذ على علماء مصر، وذلك ما جاء على لسان أبا حامد:" هذا العالم الجليل الذي أخباره في مصر القاهرة، يوم ذهب لأداء حج الفريضة...

---

[1]– سعيدوني، من التراث الجغرافي، ص، ص: 412، 413.

[2]– أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص، ص: 9، 10.

[3]– الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص: 198.

[4]– سورة آل عمران، الآية: (34).

[5]– ابن مصطفى المشرفي، تقييد في النسب المشرفي، مخ، ص: 20.

[6]– أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب، ورقة: 10و.

[7]– أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص: 4.

[8]– الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 466.

فكم تغـــزل في علمائها العامـــلين التماسا لبركتهم، وتنـــويها بقدره عنـــدهم، فكـــانوا يتسابقونلى إكرامه، ويتواطئون على بروره وإنعامه[1].

تولى الطاهر المشرفي القضاء بوهران[2] على الرغم من زهده فيه –حسب أبا حامد– :"وقد جبره ملك الأتراك على القضاء بعد إباية منه وامتناع"[3]، وسار على منهاج والده في تدريس العلوم فدرس بالراشدية ثم نقله باي الغرب " لوهران للنفع به"، فكان مُدرسا بها في حدود عام 1240هـ/ 1824م، وقد كان حظيا لدى الباي حسن، وقد خصته السلطة بمرتب شهري معتبر على تصديه للتدريس بوهران. ومن العلوم التي كان يدرسها: علم المعاني والبيان، والنحو والتصريف والفروع الفقهية [4].

ولم يكن الطاهر المشرفي من المكثرين في التأليف كوالده، له ثبت يرويه العلماء ويتداولونه، وهو الثبت الذي أجاز به تلميذه " ابن عبد الله سقط". وكتاب شرح النصيحة الزروقية[5] شرح به منظومة والده على منظومة " الدرة الشريفة في أصول الطريقة" لأحمد زروق، التي تعرف بالنصيحة الزروقية. واهتمام الطاهر المشرفي ووالده بالنصيحة الزروقية يؤكد انتماءهما إلى الطريقة الشاذلية الزروقية، وقد أجيز الطاهر المشرفي بإجازة سلوكية[6] من طرف الشيخ علي بن محمد الميلي، وفيها دعاءه له:" وأن يجمع (الله) له من الطريقة الشاذلية الزروقية أسباب الخير في الدنيا والآخرة" [7].

أما تاريخ وفاة الطاهر المشرفي ففيه اختلاف، بحيث ذكر في مخطوط « مجموع إجازات

---

[1]– أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص: 4.

[2]– الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 466.

[3]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 19.

[4]– أبو حامد المشرفي، رسالة في الرد على أبي راس، مخ، ص: 4؛ ياقوتة النسب، مخ، ص: 19.

[5] – الكتاني، المرجع السابق، ج2، ص: 466؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:178.

[6]– الإجازات السلوكية: هي الإجازة في سلوك طريق التصوف، ويسميها البعض بالتزكية السلوكية، وتتم بتشبيك الأيدي، المصافحة، أخذ السبحة والضيافة ولبس الخرفة، ونحو ذلك. ينظر: حمدادو بن عمر، " المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب"، أطروحة دكتوراه، ص: 136.

[7]– حمدادو بن عمر، المرجع نفسه، ص: 138.

ابن عبد الله سقط » إلى أنه توفي سنة 1235ه/1722م[1]، غير أن رواية أبا حامد المشرفي السابقة تؤكد أنه كان لا يزال حيا حدود سنة 1240هـ/ 1824م[2].

(3)- الشيخ أحمد بن الطاهر المشرفي:

ليس لدينا معلومات كافية حول الشيخ أحمد بن الطاهر المترجم له قبله، إلا أنّ تعيينه عضوا في مجلس الشورى العالي الأميري للأمير عبد القادر[3]، الذي كان يضم كبار العلماء يدل على علو باعه في العلم، ذلك أن الأمير عبد القادر كان حريصا على تعيين أغلب خلفائه ومسؤوليه من أعيان البلاد في الديـــــــن والدنيا[4].

(4)- محمد بن عبد الله سقط:

هو محمد بن عبد الله بن مصطفى بن إمام الراشدية الشيخ عبد القادر المشرفي، الملقب بسقط أو سقاط، وصفه أبا حامد المشرفي ب" شيخ الإسلام"، و" شيخ الجماعة[5] بمدينتي الملك أم العساكر ووهران"[6]. درس ابن عبد الله سقط على علماء الراشدية، وفي مقدمتهم عمه الشيخ الطاهر المشرفي، الذي لازم مدة أخذ عنه فيها عدة علوم، ثم استجازه فأجازه "إجازة تامة شاملة مطلقة عامة" في عام 1222هـ/1807م[7].

كما لازم ابن عبد الله سقط حلقات الشيخ أبي راس في الجامع الأعظم، فكان هذا الأخير يستعد جيدا لدرسه لمناظرته، وقيل أن الشيخ أبا راس كان يبيت مجدا في المطالعة والتتبع فتشفق عليه ابنته، و" تستعطفه في الاقتصار فيقول لها: كيف ينام والدك وخلفه

---

[1]- « مجموعة إجازات ابن عبد الله سقط »، مخ بالخزانة الحسنية، ضمن مجموع، تحت رقم: 14134. ص: 136.

[2]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس »، مخ، ص: 4.

[3]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 232.

[4]- أبو القاسم سعد الله في تقديمه لكتاب: حياة الأمير عبد القادر لهنري تشرشل، ص: 9.

[5]- اعتبره عبد الحي الكتاني:" مسند المغرب الأوسط في القرن الثالث عشر الهجري". ينظر: فهرس الفهارس، ج2، ص: 577.

[6]- أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب » مخ، ص: 19.

[7]- إجازة الطاهر المشرفي لابن عبد الله سقط ضمن « مجموع به إجازات ابن عبد الله سقط»، مخ بالخزانة الحسنية بالرباط. تحت رقم: 14134. ص- ص: 136- 138.

سقط"[1]. كما أخذ على علماء آخرين بالمنطقة وحصل على إجازاتهم، ومنهم الشيخ عبد القادر بن محمد السنوسي بن زرفة [2].

كما كانت رحلته للبقاع المقدسة لأداء فريضة الحج فرصة استغلها كغيره من العلماء لتوسيع مداركه العلمية بالتذاكر مع عدد من العلماء بالحرمين الشريفين وبالبلدان التي مر بها أو زارها، والحصول على إجازاتهم، وأكد ذلك أبا حامد في قوله :"حج واعتمر ولقي أشياخا أخذوا عنه وأخذ عنهم وفهرسته[3] تشهد له بذلك"[4].

وتنبغي الإشارة إلى أنّ تواريخ إجازاته المشرقية[5] تمتد بين سنتي 1229ه/1813م و1232هـ/1816م، وفيه دلالة على أنه جاور عدة سنوات بالحرمين الشريفين. وفي احدى هذه الإجازات إشارات على أنه حج رفقة عمه وشيخه الطاهر المشرفي، بحيث ورد في إجازة الشيخ علي بن محمد الميلي:" قد أخذ العلم عن مشايخ من أعظمهم صِنوُ أبيه... الشيخ الإمام... الجامع بين علمي الباطن والظاهر، والخل الوفي السيد طاهر بن السيد عبد القادر المشرفي"، ثم أوصاه "بملازمة عمه، والعمل بأقواله وأفعاله " [6].

وإجازاته كثيرة منها إجازة الشيخ محمد بن محمد بن محمد عربي البناني مفتي المالكية بمكة[7]، كما حصل بمكة المكرمة على إجازة من الشيخ محمد شهاب المدني الحنفي، وهي مؤرخة في: 19 ذي القعدة 1230هـ [8].

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس"، مخ، ص: 12؛ الكتاني، المرجع السابق، ج2، ص: 577.

[2]- الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 578.

[3]- هناك من يعتبرها فهرسة، ولكنها في الحقيقة مجموع به مجموعة من إجازات سقط وحتى الترقيم وضع لكل إجازة أرقام صفحات خاصة، توجد مجموع الإجازات هذه في مكتبة آل سعود بالدار البيضاء بالمملكة المغربية.

[4]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، ورقة: 11و.

[5]- نجدها مؤرخة بالسنوات التالية 1229ه، 1230ه، 1231ه، 1232ه.

[6]- إجازة محمد بن علي الميلي لسقط. ضمن « مجموع إجازات ابن عبد الله سقط»، مخ مكتبة آل سعود بالدار البيضاء. ص: 21؛ وتقع هذه الإجازة الثانية بالمجموع من ص – ص: 19- 23.

[7]- هي أول إجازة بالمجموع من ص – ص: 1- 19، وهي مطولة جدا ولهذا تعتبر فهرسة.

[8]- إجازة محمد شهاب المدني، ص:5 في الإجازة. و ص: 27 ضمن المجموع.

تصدى الشيخ ابن عبد الله للتدريس، فدرَّس جملة من العلوم، وأحرز تفوقا على معاصريه في ذلك[1]، بشهادة تلميذه وقريبه العربي المشرفي الذي قال:" وقد قرأنا عليه الفقه، وعلى غيره ممن عاصره، فلم نجد له بديلا في التحقيق، وقرأنا عليه علم العروض، فلم نجد فيها عند غيره تحقيقه، وتدقيقه "، إلى أن قال:" وكان يحضر مجلس تدريسه للفقه والنحو والتفسير خلق كثير وجم غفير، ولم يشاركه في تدريس التفسير أحد" [2]. كما قال بأنه:" كان عالما مشاركا في جميع الفنون... وانفرد في وقته بعلم المعاني والبيان وعلم المنطق والميزان، وله الباع الطويل في علم العروض كان شاعرا مفلقا... كان في السيرة النبوية حافظا حجة لا يفوته فيها سؤال وإن أعضل" [3].

يعد الشيخ ابن عبد الله أشهر علماء المشارف بعد جده عبد القادر المشرفي، تولى القضاء خلال العهد العثماني وفي دولة الأمير عبد القادر[4]، وذلك ما أشار إليه أبا حامد بقوله:" تولى القضاء بأم العساكر سنين عديدة... وكان أيام دولة الأتراك عليه الاعتماد في مشكل النوازل، وكذا أيام دولة السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين مع وجود جم غفير من العلماء أهل التحقيق "[5].

وبعد تعرض الجزائر للاحتلال كان لابن عبد الله سقط حضور بارز في الجهاز الإداري للدولة الناشئة منذ أيامها الأولى، بحيث حضر مبايعة للأمير عبد القادر أميرا للجهاد، فكان من ضمن الموقعين على صك البيعة المؤرخ ب: رجب 1248ه /27 نوفمبر 1832م[6]. وعينه الأمير عبد القادر قاضيا، وعضوا في مجلس الشورى العالي الأميري[7]،

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 20.

[2]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 10.

[3]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 20.

[4]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 332.

[5]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، ص، ص: 20، 21.

[6]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 53.

[7]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 232.

واعتمد عليه في مهام سياسية[1] مهمة تدل على ثقته بقدراته وإمكانياته المعرفية والسياسية. وقد كان لهذه المهمة دور في مكانة سقط، وفي "القول الأعم" ما يؤيد ذلك:" وكانت له وفادات على سلطان المغرب... فحصل له من ذلك جاه عظيم"[2].

وبعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر هاجر الشيخ ابن عبد الله سقاط إلى المغرب، وعند وصوله إلى وجدة في وفد من المهاجرين راسل السلطان عبد الرحمن بن هشام لطلب يد العون، فأرسل إليهم السلطان مجموعة من الفرسان لحمايتهم حتى دخولهم إلى فاس، كما أرسل ظهيرا إلى ابنه الخليفة يأمره بإسكان الشيخ سقاط دارا تناسبه بفاس، وكذا إعانته على مؤونته[3].

عُرف ابن عبد الله سقط بنظم الشعر، وله –حسب أبا حامد المشرفي– " قصائد عجيبة من جملتها القصيدة التي مدح فيها سلطان المغرب... مولانا عبد الرحمن بن هشام" يوم ذهب إليه سفيرا بهدايا وتحف من خليفة الوقت... السيد الحاج عبد القادر بن سلطان العلماء الشيخ محي الدين[4]، ومطلعها:

إن المليحة فاس لا يُقاس بها إيوان كسرى ولا صرحٌ لذي سُرُجِ

مؤلفاته: لم تذكر المصادر مؤلفاته حتى أبا حامد المشرفي الذي قال بأنه:" ألف وصنف"، لم يذكرها إلا أنه قال بأنه درَّس التفسير بالبيضاوي، وله تقاييد عليه من أوله إلى آخره[5]، ولهذا يرجح أنه لم يترك مؤلفات كثيرة شأن العلماء المنشغلين بالوظائف والتدريس.

---

[1]– ذهب سقاط في مهمة دبلوماسية إلى سلطان المغرب الأقصى مولاي عبد الرحمن بن هشام في مارس 1837م، وحمل سؤالا إلى مفتي فاس التسولي حول موقف الشرع الإسلامي من المتعاونين مع الكفار الأعداء. ينظر: يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 232.

[2]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 332.

[3]– شرف عبد الحق، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفي سنة 1895هـ (حياته وآثاره). الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. (ط1)، 2011. ص: 84.

[4]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 20.

[5]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

توفي الشيخ ابن عبد الله بمكناسة الزيتون ودفن بها، قيل مات مسموما، وقيل مات مخنوقا، كان ذلك بعد سنة 1247ه/1831م، لوجود إجازات له بفاس في هذا التاريخ [1].

(ب)- بيت أولاد السيد بوجلال:

هو أحد "بيوت العلم في المشارف"، أشار صاحب "ياقوتة النسب" إلى علماءه بقوله:" فقد مضت لهم أعلام وجهابذة، وأئمة أساتذة"[2]. نذكر منهم:

(1)- الشيخ ابن عبد الله السنوسي بن المهدي:

وصفه أبا حامد المشرفي بالعلامة، تولى خطة القضاء نحو الأربعين سنة، إلا أننا لا نعرف الفترة التي عاش فيها، إلا ما أشار إليه المشرفي من أن أكثر وثائق المتأخرين بخط يده، ويبدو أنه كان موثقا لقول أبا حامد:"عليه تعتمد قضاة الأمصار في إتقان الوثائق"[3].

(2)- الشيخ علي بن عبد القادر المشرفي:

هو والد أبا حامد مؤلف "ياقوتة النسب الوهاجة"، الذي وصفه بتبحره في الفقه بقوله :"كان في علم الفقه إليه المرجع والمفزع، لا يعجز فيه عن جواب وإن أعضل"، وبأنه "كان مصدر للأحكام الشرعية في وقته بإذن من ولاة الأمر، وقضاء الأمصار، وإن امتنع من التحكيم لجور الوقت"، والنص الأخير فيه غموض، إذ يفهم منه أنه كان متوليا للفتوى، وفي نص آخر يفهم منه أنه كان متوليا للقضاء وهو قوله:" كانت أحكامه الفاصلة بين الخصوم غالبها أنه يقضي بينهم بالصلح... ومن عادته -رضي الله عنه- إذا أشكل عليه في القضية أمرا لم يجد نصا في عين النازلة رفعهم للقضاة أو يلح في الصلح بينهم"[4].

---

[1]- الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص- ص: 577- 579.

[2]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 21.

[3]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 21.

[4]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 21.

يفهم من النصوص السابقة بأنه كان متوليا للفتوى أو القضاء، إلا أننا نتساءل إن كان والده قد تولى حقا لوظائف كهذه فلماذا لم يصرح بذلك، كما فعل في ترجمته لبعض علماء بيته، وهو الحريص على إظهار مآثر سلفه.

(3)- أبو حامد محمد العربي بن عبد القادر المشرفي (ت1313هـ/ 1895م):

رغم كثرة تآليفه إلا أن هناك اختلاف في اسمه، وهو نفسه من أوقعنا في التباس، لإيراده

اسمه بصيغتين مختلفتين، بحيث أورده في "ياقوتة النسب" هكذا:" محمد العربي بن عبد القادر بن علي ابن محمد بن مسعود..."[1]، بينما أثبت اسمه في رسالته التي رد على أبي راس:" أبو محمد العربي بن علي المشرفي الحسني"[2].

ولد أبو حامد المشرفي في مطلع القرن التاسع عشر ميلادي[3] بقرية الكرط بإقليم الراشدية، أي إنه عاش حوالي ربع قرن خلال العهد العثماني الذي نخصه بالدراسة، ولهذا نعتبره من علماءه لأن مرحلة طلبه العلم كانت خلاله، وهي أهم مراحل حياة العالم. تعلم بمسقط رأسه معسكر التي كانت مشهورة بكثرة علمائها[4]. وأهم شيوخه بها الشيخ أبو راس الناصري، وابن عبد الله سقط المشرفي، كما تعلم في وهران أيضا بين سنتي: 1824-1825م[5].

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر شارك المشرفي في المقاومة إلى جانب الأمير عبد القادر، ثم هاجر إلى فاس، ووثق صلته بسلاطين المغرب الأقصى[6]، إلا أن ذلك لم يفتح له الأبواب

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 19 .

[2]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس"، ص: 1.

[3]- هناك اختلاف بين الباحثين حول تاريخ ولادته، ويرجعه بعضهم إلى سنوات الخمس الأولى من القرن 19م. ينظر: شرف عبد الحق، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي... للعربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895م، دراسة وتحقيق، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة، بإشراف: أ. د عبد المجيد بن نعمية. جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، (2011-2012). ص، ص: 3، 4.

[4] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:227.

[5]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 332.

[6]- خاصة الحسن الأول الذي كان يصحبه معه في جولاته التفقدية والتأديبية، ولذلك خصه بديوان شعر في مدحه".

إلى المناصب الرفيعة، فكل ما يُعرف عنه أنه كلفه تعليم الأطفال[1]. نقد المشرفي بأسلوب جارح علماء فاس وأهلها، ولم يسلم من نقده حتى الأمير عبد القادر بطل المقاومة، إذ ألف فيه كتابا أسماه " طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الأمير عبد القادر وأهل دائرته الفجار"[2]، ويبدو أنّ موقفه من الأمير تبدل مع الأيام، ففي سياق ترجمته لأحد شيوخ الأمير ذكر بأنه:" شيخ العلامة الهمام، والملك الإمام، السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين"[3].

واشتهر المشرفي بالتأليف والنظم فخلف وراءه عدد من الدواوين في المدح، ومؤلفات في أغراض متعددة: السير والتراجم، والرحلة والتصوف، وفي النحو والتاريخ والحديث والطب. نذكر منها "ذخيرة الأواخر والأوائل فيما ينتظم من أخبار الدول"، و" تاريخ الدولة العلوية"، و"الرحلة الجزائرية"، "رحلة إلى شمال المغرب"، "الحسام المشرفي للمهاجر المقتفي"[4].

تضاربت الآراء حول تاريخ وفاة أبو حامد المشرفي[5]، إلا أن الراجح منها أنه توفي بفاس سنة 1313هـ/ 1895م[6].

(ج)- بيت الحمر:

---

[1]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص: 332.

[2]- بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 233؛ الزاوي الجيلالي المشرفي والمشرفي عبد الكريم، نافذة على بعض علماء معسكر، ص: 97.

[3]- شيخه هو الحاج بن عب بن المصطفى. ينظر: أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 21.

[4]- ينظر مؤلفات المشرفي في موسوعة أعلام الجزائر للدكتور عبد المجيد بن نعمية وآخرون، ص- ص : 333- 335.

[5]- قيل أنه: توفي سنة 1310هـ/ 1892م؛ وقيل أنه توفي بمدينة فاس عام 1893م (1311هـ)، وقيل عام 1895م (1313هـ). ينظر: يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 233؛ الزاوي الجيلالي المشرفي والمشرفي عبد الكريم ، نافذة على بعض علماء معسكر. ص: 97.

[6]- عبد الحق شرف، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي، أطروحة دكتوراه، ص: 39؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص:228.

يوصف" هذا البيت في المشارف" بأنه " مشهور ببيت العلم والعمل"، وجد أولاد الأحمر هو العلامة السيد ابن فريحة بن رصاع[1]، ومن فروعه حفيد أحفاده الشيخ عبد القادر بن المصطفى الأحمر.

(1)- الشيخ عبد القادر بن المصطفى الأحمر (ت1269هـ/ 1852م):

حظي الشيخ عبد القادر بترجمة مهمة في "ياقوتة النسب" لأبي حامد المشرفي، الذي أشار إليه بابن عمنا، ووصفه بالعلامة. درَس الشيخ عبد القادر على عدد من علماء عصره بغريس، وبجامع الزيتونة بتونس وبغيرهما. وتصدى للتدريس بغريس فدرّس الفقه والنحو واللغة، وبعد احتلال الجزائر هاجر بأهله لمصر، ودرَّس بجامعها الأزهر، ثم انتقل إلى الحرمين الشريفين وجاور البيت الحرام، والمسجد النبوي سنين عديدة، ودرس بالحرمين، ورتب له السلطان عبد الحميد الثاني المرتب الشهري والسنوي ما رتبه لعلماء الحرمين. رجع الشيخ عبد القادر الأحمر إلى مصر بأهله ناويا الاستيطان بها، فتوفي بها سنة 1269هـ/ 1852م، "وكان لجنازته مشهد عظيم رثاه علماؤها" [2].

(2)- محمد بن المصطفى الأحمر (ت1275ه/1858م):

أخ المترجم له سابقا، وصفه عبد الحفيظ الفاسي بأنه كان:" عالما فاضلا شهما شجاعا"، انتقل من غريس في حدود 1260ه/1844م، وتوفي بمصر قافلا من الحج 1275ه/ 1858م[3].

وهو والد الشيخ محمد بن الحاج محمد بن المصطفى الأحمر (ت 1334هـ/1916م) [1]، صاحب كتاب " الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية"، وصفه ابن عمه وأستاذه أبا حامد بكونه:" أنجب أهل وقته في علم الأدب نظما ونثرا "[2].

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 21.

[2]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص- ص: 21- 22.

[3]- عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي، معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المُدهش المطرب، تص وتع: عبد المجيد الخيالي. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 2003. ج2، ص: 146.

(د)– بيت أولاد السيد عبد القادر بن امحمد (فتحا):

هذا البيت هو " من بيوت العلم في المشارف"، ومن علماءه:

(1)– الشيخ الحاج بن عب بن المصطفى:

وصفه صاحب "ياقوتة النسب" ب" العلامة الحامل للواء المختصر"، تصدى للتدريس بالراشدية فتخرج عليه عدد من التلامذة أشهرهم: الأمير الإمام عبد القادر بن محي الدين، وقد تولى القضاء بمحلة الأمير إلى أن استولى عليها الفرنسيين، فهاجر بأهله للصحراء صحبة نفر من العلماء، ومنها إلى فاس التي استقر بها إلى وفاته[3].

(2)– علماء آخرين من بيت أولاد السيد عبد القادر بن امحمد:

ومنهم" **العلامة السيد الحاج مصطفى بن عب**، وصنوه **السيد عبد القادر بن عب** فهم في المتأخرين علماء هذا القبيل (المشارف)، خطة الأول كتابة الإنشاء بالحضرة القادرية، وأمين دولتها. والثاني خطته الشهادة في مجلس الأحكام الشرعية صدره القضاء لعدالته وخيرته"[4].

تولى بعض أبناء هذا البيت نقابة الأشراف، وذلك ما أشار إليه أبا حامد بقوله: وقد أدركنا النقابة " في يد ابن عمنا **السيد عبد القادر الأطرش** من أولاد سيدي عبد القادر بن محمد[5].

(ه)– أولاد البقـــــــــرة:

---

[1]– تولى الافتاء بفاس، كما تولى نيابة قضاء الحياينة. ترك عدة مؤلفات منها: تقييد في النسب المشرفي. ينظر: عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ. ج2، ص، ص:146، 147؛ عبد الحق شرف، العربي بن القادر بن علي المشرفي حياته وآثاره، مواضع متفرقة مثلا الصفحات: 111، 112،108، 116؛ إدريس بوهليلة في مقدمة تحقيقه لكتاب الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، لابن مصطفى المشرفي، ج1، ص: 28.

[2]– أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب" مخ، ص: 21.

[3]– أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة» مخ. ص، ص:21، 22.

[4]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 22.

[5]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 24.

ومن بيوت العلم في المشارف أولاد البقرة ففيهم " قُراء وأساتيذ، ونجباء في المتقدمين وجهابيذ". منهم: الفقيه العلامة السيد **محمد الأكحل**: تولى خطة القضاء في دولة الأمير عبد القادر، وهو معاصر لأبي حامد المشرفي، الذي وصفه بأنه كان "عالما عاملا متقد الفكر"[1].

ومنهم **السيد مصطفى بن عب بن البقرة**: هو ابن عم زوجة أبا حامد المشرفي الذي وصفه ب "نحرير الأدباء"، وبأنه فاق أقرانه في علم الشعر والأدب واللغة، إلا أنه جُذب "أعرض عن الدنيا وعن أهلها... مع ما أعطى الله لوالده من المال والكسب والخيل المسومة والأنعام والحرث" [2].

- **السيد محمد بن عبد الله**: هو معاصر لأبي حامد المشرفي، وقد كان نقيبا للأشراف [3].

(و)- بيت أولاد السيد ابن عبد الحاج:

يعد هذا البيت " من البيوت الشهيرة في المشارف"، حسب المشرفي أبا حامد المشرف "فهم في هذه القبيل (المشارف) أعلى الناس قدرا، وإذا كان القبيل ذاتا فهم الرأس له، بيتهم بيت عز وشرف، يتنافسون في الجود والكرم من عهد أسلافهم الكرام، وزاويتهم مشهورة للضيوف، يرد عليهم الملك والمملوك، والغني والصعلوك ... لا يتجرأ متجرأ عليهم ولو جاوزت مرتبته الثريا من شدة العصبية، فهم أولوا قوة وأولوا بأس شديد ... ولا يخلو بيتهم من علم".

ويصف أبا حامد أسلاف هذا البيت بما يدل على مكانتهم العلمية، والرياسة في المنطقة في هذا النص:" أجدادهم إذا جلسوا مجلس محاضرة أو مناظرة زاحموا العلماء فيما يعلمونه من معلومات الدين فقها، وسيرة، حديث، وتفسير أو أنساب العرب، ولهم الرياسة في القديم، والكلمة لا ترد عند قبائل الحشم وغيرهم [4].

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 23.

[2]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص، ص: 22، 23.

[3]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 24.

[4]- أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة » مخ، ص: 23.

– ومن علماء هذا البيت الشيخ **عبُ بن الحاج محمد**، وابنه **السيد عبد القادر بن عبُ بن الحاج محمد**، الذي تصدى للتدريس في النحو، كما كان يتعاطى قراءة الفقهيات. وصفه معاصره صاحب "ياقوتة النسب" بأن:" له ملكة نافذة، وفهم ثاقب، ورأي صائب ربما تضل النازلة على والده وتوجد عنده، وإن كان والده بلغ من الذكاء والفطانة ما لم يبلغه غيره". وهذه الأوصاف الثلاثة حسب أبا حامد هي في أنجب ولد الأصغر **السيد الحاج مُحمد ضما**، "ورث ذلك بالقعد ومن أبيه وأسلافه"[1].

– و" من بيوت العلم في المشارف": **أولاد سيدي البشير**"، " و**أولاد سيدي سنوسي** أهل الشعبة"[2]، إلا أن في المشرفي لم يترجم لأبنائها في "ياقوتة النسب"، ولهذا لم نتمكن من معرفة بعض علماء هذين البيتين.

ويجدر التنبيه إلى أنَّ الشيخ أبا راس ذكر في شهادته للمشارف بالنسب الشريف عام 1237ه/1821م بعض علماء المشارف:" ومنهم قاضي الراشدية الشيخ عبد القادر بن عبوا وابنا الشيخ محمد"، الذي " قتل شهيدا في طريق الحج [3].

– المبحث الثاني: بيت السيد عبد القادر بن المختار بالراشدية:

جمع بيت السيد عبد القادر بن المختار بين العلم والتصوف والانتساب للأشراف، فأما العلم فهو مشهور فيهم بحيث وصفهم أبو حامد المشرفي ب" قائمة العلم والعمل لا يخلو قبيلهم منهم"[4]، وفي مذكرات الأمير عبد القادر بأنهم " محط علم ومحل تعلم وتعليم" في الوطن الغريسي[5]. استقرت هذه الأسرة بالقيطنة، وهي منطقة ريفية منعزلة رغم أنَّها كانت قريبة من مدينة معسكر عاصمة بايليك الغرب قبل فتح وهران.

---

[1]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 23.

[2]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص:24.

[3]– محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 19.

[4]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 25.

[5]– الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر (سيرة ذاتية)، تح: محمد الصغير بناني وآخرون. الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2008. ص:57.

(أولا)– نسبه:

هم من أعيان الأشراف بغريس[1]، ويتصل نسبهم بالمولى إدريس–رضي الله عنه– وقد كان أسلافهم بإفريقية إلى أن انتقل منهم السيد أحمد المعروف بالمختار – والد عبد القادر بن خدة– إلى غريس، والسيد أحمد بالمختار هو الجد الأعلى لهذا البيت [2].

أمَّا سلسلة نسبهم فوردت في عدد من المصادر منها "مذكرات الأمير عبد القادر" التي ورد فيها نسبه هكذا :" عبد القادر بن محي الدين بن المصطفى بن محمد بن أحمد[3] بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر المعروف بخدة – محشي صغرى السنوسي– بن أحمد القديم بن عبد القادر بن محمد بن محمد بن عبد القوي ..." إلى أن وصل بالسلسلة إلى علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–[4].

و**عبد القوي** الذي ينسب إليه هذا البيت هو: عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن أحمد بن محمد بن مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس[5]. ويشير أبو حامد المشرفي إلى أن أسلافهم كانوا ملوكا في الأرض إذ جدهم عبد القوي هو الذي اختط مدينة دير أقزول تاقدمت [6].

في حين يذهب عبد المنعم القاسمي إلى أنَّ أول من نزح من أسلافهم عن مراكش عبد القوي الأول، الذي نزل بقلعة بني حماد، واستمروا إلى عهد عبد القادر بن أحمد المختار،

---

[1]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، ص: 25.

[2]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 335.

[3]– ورد نسب الأسرة (الأمير) في " سلسلة الأصول" لحشلاف (ص، ص: 109، 110) هكذا:" عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد **بن** المختار بن عبد القادر **بن أحمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد** المشهور بابن خدة مرضعته. وعليه نجد اختلاف بين السلسلتين في عدة أسماء ابتداء من الاسم الخامس. ففي السلسلة الأولى:"... محمد **بن أحمد** بن المختار بن عبد القادر"، وفي الثانية:" محمد **بن** المختار بن عبد القادر".

[4]– مذكرات الأمير، ص:46.

[5]– عبد الرحمن التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص: 14؛ حشلاف، سلسلة الأصول، ص، ص: 110.

[6]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 25. وتاقدمت تبعد ببضع كلومترات فقط عن مدينة تيارت.

الذي كانت شهرته تغطي نواحي قسنطينة، وأخذ عن علمائها الطريقة القادرية التي نقلها بدروه إلى أبنائه، ونشرها بالغرب الجزائري[1].

(ثانيا) – علماء بيت السيد عبد القادر بن المختار:

أنجبت هذا البيت عدد من العلماء، جمع بعضهم بين العلم والتصوف، وغلب على بعضهم الآخر التصوف حتى غطى على الجانب العلمي لديهم، وعلمائه هم:

(1)– أحمد بن محمد الراشدي:

أحمد بن محمد بن عبد القوي الإدريسي. ومن خلال الشخصيات التي عاصرها يبدو أنه عاش خلال النصف الثاني من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين. وهو أول من اشتهر من رجال هذا البيت، ولد بتاقدمت ونشأ بها، وأخذ عن والده محمد بن عبد القوي، وانتقل إلى بجاية فأخذ عن الشيخ أحمد زروق[2] رفقة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، وبعد وفاة والده انتقل إلى وادي العبد قرب غريس، وساهم في نشر الطريقة القادرية بالغرب الجزائري، تعرض لذكره الإمام الصباغ المستغانمي في مناقب الملياني. توفي في وادي العبد، وقبره مشهور. وبعد وفاته انتقل ولده السيد عبد القادر إلى نسمط وقطن كاشرو الفوقاني، وقصده الخلق لأخذ العلم والطريقة القادرية [3].

(2)– أبو محمد عبد القادر بن أحمد المختار (الجد):

هو أبو محمد عبد القادر بن أحمد المختار بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي[4]. يصفه صاحب "عقد الجمان" ب:" العالم الجليل، الرئيس النبيل، النحوي

---

[1]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 405.

[2]– أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزورق (ت899ه/1493م): أحد أقطاب التصوف، وهو الذي تنسب إليه الطريقة الزروقية الشاذلية. ينظر ترجمته، التنبكتي، نيل الابتهاج ، ص، ص:130– 133.

[3]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 99.

[4]– عبد المنعم القاسمي، المرجع نفسه، ص: 203.

اللغوي، الحيسوبي الفرضي، الأوحد، المحدث، الإمام السيد أبو محمد بن عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خدة "[1]، وخدة مرضعته على عادة الأشراف في ذلك الوقت.

لدينا التباس في القرن الذي عاش بين القرون الهجرية الثلاث: التاسع والعاشر[2] والحادي عشر، لأن له ترجمة في "عقد الجمان" مخصص لأعيان أشراف القرن الحادي عشر، وذكر في الصفحات الأخيرة من العقد بأنه هو "جد بدور القرن العاشر"[3].

كان من العلماء العاملين، ولذلك انتهت إليه رياسة غريس، وتمتع بمكانة مرموقة عند أهلها[4]، وصفه عبد الله الونشريسي في كتابه " البستان في ذكر العلماء الأعيان" بقوله:" إمام جليل القدر، واسع الصدر، له عظمة عند الخاصة والعامة " إلى أن قال:" حاز رئاسة غريس بعد موت أصحابه، وشدت له الرحال من أقطار المغرب والمشرق". ووصفه ذات المصدر بأنّ :" له تبحر في علم النحو واللغة والحساب والفرائض والتوحيد... إذا سمعته يدرس علما قلت أفنى عمره فيه لشدة إتقانه له" [5].

أخذ عنه الطريقة ابنه أحمد المختار، الذي خلفه في تدريس العلم وتلقين الورد القادري، كما أخذ عنه العالم الشيخ سعيد قدورة والشيخ عبد القادر بن الراشدي[6] وغيرهم. وله تآليف عدة منها: حاشية على صغرى السنوسي[7]، وهي التي اعتمد عليها تلامذته في مؤلفاتهم في التوحيد وغيره [8].

(3)- السيد أحمد المختار بن عبد القادر بن خدة (القرن 10ه/ 16م):

---

[1]- عبد الرحمن التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص: 14؛ محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 401.

[2]- يذهب عبد المنعم القاسمي (المرجع السابق، ص: 204) إلى أن تاريخ وفاته غير معروف، وقد وجد في نهاية القرن 9 وبداية القرن 10ه، ويذهب حمدادو (المساهمة العلمية، ص: 53) إلى أنه من أهل القرن 9ه.

[3]- يبدو أن الصفحات الأخيرة من "عقد الجمان النفيس" ليست من كتابة مؤلفه التوجيني. ينظر: ص، ص: 27، 28.

[4]- لمكانته تلك أصبح قبره بعد وفاته معروف يزار. ينظر: عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي حشلاف، كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. تونس: المطبعة التونسية، 1929. ص: 110.

[5]- عبد الله الونشريسي، البستان في ذكر العلماء الأعيان، نقلا عن: التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص، ص: 27، 28.

[6]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 335؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 204.

[7]- توجد منه نسخة في بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 2421 د، ضمن مجموع، ويقع في حوالي ثلاثين صفحة. تطرق حمدادو لهذا الشرح، المساهمة العلمية، ص- ص: 61- 65.

[8]- حشلاف، سلسلة الأصول، ص: 110؛ محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 401.

سار السيد أحمد المختار بن عبد القادر – المترجم له قبله– بسيرة أبيه في طلب العلم، فحصل له منها حظ وافر، وتصدى للقراءة والتعليم، ومسجده وخلوته بقرية بابا علي من مدينة معسكر معروفان[1]، وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار لأخذ العلم، وتلقين الأذكار القادرية[2]، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد القادر بن أحمد المختار جد أولاد سيدي قادة بمعسكر.

كانت له مشاركة في تقريض الشعر منها القصيدة التي مدح بها الشيخ عبد القادر الجيلاني، والتي سماها ب:" عقد جوهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني"[3].

(4)– الشيخ عبد القادر بن أحمد المختار (الحفيد):

هو عبد القادر بن أحمد المختار – المترجم له قبه– بن عبد القادر بن أحمد المختار بن محمد، اشتهر بسيدي قادة[4]، وهو الجد الأدنى للأسرة، (والجد الثالث للأمير عبد القادر)، تجتمع فيه فروع أولاد سيدي قادة[5]. ترجم له صاحب "القول الأعم" قائلا بأنه:" حاز قصب السبق من بين معاصريه واختص بالمشيخة الكبرى[6]... فتنوسي بذكره ذكر سلفه... وطبق الجميع على مشيخته وسيادته، وأجلسته الملوك من آل عثمان على فرشها... واختص بتلقين الورد القادري في ذلك العصر، ودرست زاويته جميع الزوايا الموجودة يومئذ بهذا القطر"[7].

---

[1]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 335.

[2]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 79.

[3]– مطلع هذه القصيدة: " أقول لمن أعيا الطبيب علاجه* وقد مل من شرب الدواء لعلة".
ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:80.

[4]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 336.

[5]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 204.

[6]– المقصود مشيخة الطريقة القادرية التي وجدت بالجزائر منذ القرن 8 هـ/ 14م، وانتشرت بشكل كبير في الغرب من زواياها: زاوية كنتة بالجنوب الغربي، وانتشرت في غليزان، تلمسان، عين تموشنت، عين الصفراء ورقلة. وفي قالمة في الشرق. ينظر: حمدادو، المساهمة العلمية، ص: 39.

[7]– الطيب بن المختار، المرجع السابق، ص: 336.

لا شك في أن التصوف غلب على "سيدي قادة" أكثر من العلم، فلم يظهر دوره في التدريس كما هو شأن علماء الظاهر، حتى زاويته يظهر أنها كانت مخصصة لتلقين الورد القادري بالدرجة الأولى.

(5)– السيد محمد بن عبد القادر بن المختار (المعروف بشايب ذراع):

هو الإمام السيد محمد بن عبد القادر – ابن المذكور قبله– بن المختار، المعروف بشايب ذراع، يبدو أن التصوف غلب عليه كوالده، إذ يذكر صاحب " القول الأعم" بأنه ورث مقام والده" في العظم والعمل والقيام بأمر الطريقة القادرية أحسن قيام"، و لم يشر إلى العلم الظاهر.

وقد اشتهر ب:" سعة المال وعظم الجلال وكثرة العقار، واتساع الحرث والحيوان، وبعد الصيت والجمع بين رياسة الدنيا ورياسة الآخرة، شيد القصور وقصر المشيد المشيدات بالبادية ". انتقل بعض ولده إلى تلمسان فاستوطنوها فكان منهم ذو المعارف وذوو الأقدام الراسخة في العلم والقضاة، وقد أصبح أعقابهم يعرفون بأولاد شايب ذراع [1].

(6)– الشيخ مصطفى بن المختار (ت 1212ه/ 1798م):

هو حفيد الشيخ عبد القادر بن المختار. يذكره أبو راس في "فتح الإله" بالمصطفى بن المختار، بحيث شهد لأبي راس بالنسب الشريف ووصفه بالعارف بالله " الطائر صيته بالولاية في كل الأمصار... الشيخ المصطفى بن المختار" [2]. وهذا يختلف عما ورد في مصادر أخرى حين تورد سلسلة نسب الأسرة بحيث تذكره ب:" المصطفى بن محمد بن أحمد بن المختار بن عبد القادر"[3]، وفي رواية أخرى" مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر "[4].

---

[1]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 336.

[2] – أبو راس الناصر، فتح الاله، ص: 29.

[3]– مذكرات الأمير، ص:46.

[4]– حشلاف، سلسلة الأصول، ص، ص: 109، 110.

درَس الشيخ مصطفى على علماء الراشدية، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي الذي أخذ عليه العلم[1]، والطريقة القادرية[2]، والشيخ الهاشمي بن علي بوشنتوف، وله منظومة في مدحه شيخه هذا [3]. وكان يستغل فرصة وجوده بالمشرق أثناء ذهابه للحج[4]، ليأخذ العلم والإجازات عن علماءه[5]، وليزور مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد[6].

كان الشيخ مصطفى بن المختار من" شيوخ الطريقة الجامعين بين الشريعة والحقيقة"، وعـــرف بتبحره في علوم مختلفة "خصـــــوصا علم العربية والفروع الفقهية"[7]، وفي علم التصوف والحكمة[8]. وساهم بشكل كبير في نشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري، فكان من بين مريدي طريقته باي وهران محمد بن عثمان الكبير الذي حظي عنده بمكانة مرموقة، والنص الوارد في " القول الأعم" –والهاء تعود على الشيخ مصطفى–:" واشتمل عليه الباي محمد اشتمالا كثيرا حيث خالطه فيه بنفسه، فكان لا يرد عليه كلمة فحصل على يديه للمسلمين نفع كثير" [9].

والشيخ مصطفى هو الذي أسس قرية القيطنة[10]، و"اتخذ الزاوية بدرب الحمام"[1]، عام 1206هـــ/1791م[2]، وأقام بها معتكفا على تدريس العلم وتلقين ورد الطريقة

---

[1]– مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 50.

[2]– الطيب بن المختار، المرجع السابق، ص: 338؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 244.

[3]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 405.

[4]– في مذكرات الأمير عبد القادر (ص: 48) أنه حج أربع مرات.

[5]– من ذلك إجازة مرتضى الزبيدي. ينظر: أبو القاسم سعد الله في تقديمه لكتاب حياة الأمير عبد القادر لهنري تشرشل، ص:69، ها: 2.

[6]– زار بغداد ثلاث مرات، وفي كل مرة كان ينال حظوة خاصة، وهناك جدد أخذ الطريقة القادرية، وتبرع من ماله لتوسيع ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني. ينظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2004.ص: 69.

[7]– الطيب بن المختار، المرجع السابق، ص: 338؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص، ص: 404، 405.

[8]– مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 48.

[9]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 338؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[10]– تقع قرية القيطنة في الجهة الغربية من غريس، وهي تبعد عن معسكر بحوالي 28كلم، احتطها مصطفى بن المختار جد الأمير عبد القادر عام 1200هـــ/1787م، وهدمها بيجو في سبتمبر عام 1841م. ينظر: مذكرات الأمير عبد القادر، ص:48.

القادرية، وها هو أبا راس يدخل للقيطنة في حال صغره، فيرى الشيخ مصطفى بن المختار في الجامع يدرس القسم الأول من المختصر[3]، كما وظف في زاويته علماء أجلاء أمثال: شيخه عبد القادر المشرفي[4]، وكانت القيطنة زاوية محطة للزائرين في حياته[5].

توفي الشيخ مصطفى بن المختار ببرقة قرب درن من قرى طرابلس عام 1212ه/ 1797م [6]، أثناء عودته من الحجاز بعد أدائه حجته الرابعة[7]، وخلفه على رأس الزاوية ابنه محي الدين.

(7)- الشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار (ت 1249ه/ 1833م):

هو محي الدين بن مصطفى بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار، ولد عام 1190هـ[8]/1776م[9]، درس على أبيه [10]، وعلى شيوخ زاوية القيطنة، ومنهم الشيخ عبد القادر المشرفي[11]، حج ثلاث مرات، وزار في آخر حجاته بغداد[12]، حيث ضريح عبد القادر الجيلاني.

وصفته المصادر[13] بما يدل على علو مكانته في عصره، بحيث وصفه أبو حامد المشرفي ب" سلطان العلماء"[1]، ووصفه صاحب " الحلل البهية" بأنه كان "جامعا بين الحقيقة

---

[1]- الطيب بن المختار، المرجع السابق، ص: 338.

[2]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 47، هامش 1.

[3]- أبو راس، فتح الاله، ص: 43.

[4]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[5]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 48.

[6]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[7]- قبره معروف عند عين بساحل البحر يقال لها عين غزالة قرب برقة، منقوش على حجرة على قدم مقامه:" هذا قبر سيدي الحاج مصطفى بن الغريسي. ينظر: مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 48.

[8]- كان في سن الخمسين عندما قرر الحج سنة 1823م. ينظر: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 66.

[9]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[10]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 50.

[11]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 387.

[12]- نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص: 114.

[13]- وصفه المزاري ب" شيخ الجماعة"، (طلوع سعد السعود، ج1، ص: 361)، وصفه ا.ف. دينيزن، ب:"سيدي محي الدين الرجل الوقور الذي كان يحظى باحترام الجميع". (الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر. تر: أبو العيد دودو. الجزائر: دار هومة

والشريعة "، وبأنه "أحد أئمة العلم والعمل "[2]، أما صاحب "القول الأعم" فوصفه ب:" شيخ الإسلام... وملجأ الخاص والعام، وخاتمة الأئمة الأعلام"، إلى أن قال:" اجتمع فيه ما تفرق في سلفه علما وديانة، وعفة وصيانة، فلقب بالشيخ وهو في عنفوان الشباب، وغشيت بابه الوفود من كل باب، وخدمته المشايخ والأمراء رؤساء الأجناد والوزراء وخدمته الملوك الأعاظم... وكان عظيم القدر والشأن مقبول الشفاعة عند أمراء بني عثمان"[3].

ورث محي الدين عن والده مشيخة الزاوية، فكان منشغلا بأمورها "مع محافظته على العبادة والتدريس"[4]، وكثر عليه طلاب العلم والمعرفة ومريدو الطريقة والتصوف، واشتهر بالصلاح وسداد الرأي، وغزارة العلم والمعرفة[5]. ومن العلوم التي كان يدرسها: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، وأصول الدين، والفقه، وهي العلوم التي أخذها عنه ابنه عبد القادر[6]. كما كان يلقن للمريدين الأوراد القادرية[7].

ومن المحطات التاريخية المشهورة في حياة محي الدين وفي تاريخ هذا البيت هو ما تعرض له محي الدين من المنع من الحج والإقامة الجبرية بوهران من طرف الباي حسن بن موسى، لتخوفهم من تجمع الناس حوله[8]، فلم يسمحوا له بمواصلة حجه إلا بعد عامين من بقاءه تحت الإقامة الجبرية.

للطباعة والنشر والتوزيع، 2003. ص: 21)، في حين وصفه محمد الأعرج الغريسي ب:" العارف بالله الدال عليه، العالم العامل الورع الكامل سيدي محي الدين" . (شرح المنظومة المسماة بغية الطالب. ص: 401).

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 20.

[2]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية. ج2، ص: 76.

[3]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 338.

[4]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 48.

[5]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[6]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 50.

[7]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 387.

[8]- أبو حامد المشرفي، ذخيرة الأواخر، مخ؛ نقلا عن: عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 388.

وعندما احتل الفرنسيون الجزائر[1] تزعم محي الدين حركة المقاومة، ورشح ابنه عبد القادر أميرا للجهاد، ويذهب أبو عبد الله الأعرج السليمان أن المجاهدين توجهوا إلى زاوية الشيخ أبو عبد الله محمد الأعرج بن محمد السليماني الحسني بوادي فروحة بغريس، وكانوا زهاء عشرة آلاف فارس وتقدم أعيانهم إلى صاحب الزاوية المذكورة، وشكوا إليه أمرهم من أنهم :" لم يروا لهم من أستاذ هذا الأمر لما توفرت فيه شروطه، أشار عليهم بالشيخ محي الدين بن مصطفى المختاري الحسني لما ظهر على يده أيام الفترة غزواته من حسن التدين ورياسة، الشهم الكبير واستكماله شروطها من علم ونسب وحسب" [2].

توفي محي الدين عام 1249هـ/1833م فخلفه ابنه محمد السعيد في رئاسة الزاوية بالقيطنة[3].

(8)- علي بن أبي طالب بن مصطفى بن المختار (ت 1258ه/ 1842م):

يعد الشيخ علي بن أبي طالب (أو بو طالب) بن مصطفى بن المختار بن القادة بن المختار الغريسي، أحد أعيان علماء هذا البيت، وهو أخ الشيخ محي الدين، ولد سنة 1198ه/1748م، ولما توفي والده وهو صغير السن رباه أخاه المذكور. واشتغل بطلب العلم، فقرأ على علماء الراشدية ومنهم أخاه محي الدين، وكان عالما فاضلا محققا جامعا بين الشريعة والحقيقة[4].

شارك في مقاومة الأمير عبد القادر منذ البداية، بحيث ورد إمضاءه بصك البيعة المؤرخ ب: رجب 1247هـ/ 27 نوفمبر 1832م مع إمضاءات من حضر البيعة من أعيان العشائر وكبار رجال الوطن[5]. ويذهب عبد المنعم القاسمي إلى أنه توفي عام

---

[1]- تمكن الفرنسيون من احتلال وهران في 4 جانفي 1831م.

[2]- أبو عبد الله محمد الأعرج السليماني، تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر (عن كتاب الشماريخ القسم الثاني وجزء من القسم الثالث)، تح: حساني مختار. الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية. ص: 270.

[3]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج2، ص: 246.

[4]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 250.

[5]- بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 53.

1258ه/1842م بأرض أولاد ميمون بالقرب من تلمسان، ودفن داخل مقام أبي مدين[1]، في حين يذهب محمد الأعرج الغريسي إلى أنه هاجر لفاس وانتقل إلى طنجة وبها عقبه[2].

(9)- السيد محمد السعيد بن محي الدين (ت 1278ه/1861م):

محمد السعيد بن محي الدين، الأخ الأكبر للأمير عبد القادر، تخرج على علماء بلده[3]، تولى رئاسة زاوية القيطنة بعد وفاة والده الشيخ محي الدين عام 1249هـ/1833م[4]. وشارك مع أخاه الأمير عبد القادر في جهاد الفرنسيين، وكان من المرافقين له في السجن بفرنسا[5]. وهاجر معه إلى دمشق وتولى التدريس بها، قال صاحب "منتخب التواريخ" :" وكان محل اعتقاد واعتزاز علماء دمشق حين هاجر إليها"[6]. ونشر الطريقة القادرية بها، وصار من شيوخها ببلاد الشام. من آثاره:" إتقان الصنع في شرح رسالة الوضع"، "سيرة محي الدين". توفي بدمشق عام 1278ه/1861م[7].

(10)- عبد القادر بن محي الدين عالـــمًا (ت 1300ه/1883م):

الأمير عبد القادر "واسطة عقد العائلة المختارية"[8]، وهو رجل علم، وبطل مقاومة ضد الاحتلال ومؤسس دولة وقائد جيش، إلا أنه اشتهر بالجوانب الأخيرة دون الجانب الأول، أي أن شهرة صاحب السيف غلبت على شهرة صاحب القلم[9]، جمع الأمير بين الإمارة والعلم مع أنهما قلما يجتمعان في شخص واحد، ولهذا وصف ب:" العلامة الهمام والملك الإمام [10]"، وب: " أمير العلماء وعالم الأمراء"[1].

---

[1]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 250.

[2]- محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ضمن كتاب مجموع النسب، ص: 401.

[3]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 160.

[4]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 246.

[5]- أبو القاسم سعد الله في تقديمه لكتاب حياة الأمير عبد القادر لهنري تشرشل، ص: 17، 18.

[6]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 109.

[7]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص، ص: 160، 161.

[8]- محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ضمن كتاب مجموع النسب، ص: 401.

[9]- أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة (أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ). بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990. ص: 60.

[10]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 19.

الأمير عبد القادر الابن الرابع لمحي الدين، ولد في عام 1222ه/1807م[2] بالقيطنة الواقعة في أراضي قبيلة هاشم ونشأ بها، وتلقى تعليمه في معهد أسرته في القيطنة[3]، وقد امتاز منذ طفولته بنبوغ غير عادي [4]، ولما أصبح في سن الرابعة عشر بدأ يعطي دروسا في جامع الأسرة، وفي هذه السن انتقل أيضا إلى مدينة وهران لاستكمال تعليمه[5]، لقد كان طموحه الأكبر في شبابه هو أن يصبح مرابطا مثل والده[6].

واستغل هو ووالده رحلتهما للحج سنة 1241ه/1825م لتأدية فريضة الحج وفريضة طلب العلم، سيما وأن الرحلة استمرت أكثر من سنتين، فذهبا إلى دمشق، وقد بقيا فيها شهورا، وهناك تعرفا على مشاهير العلماء، وكان يقضيان جل وقتهما في الجامع الأموي دائبين على المجالس العلمية[7]،كما استفاد من الدروس التي حضرها بالعراق، والحجاز ومصر، وتونس[8].

ومن شيوخه بالجزائر: والده الذي أخذ عنه جملة من العلوم، والحاج بن عب بن المصطفى، والسيد مصطفى بن الهاشمي والشيخ محمد بن نقريد[9]. ومما ساهم في التحصيل العلمي الجيد للأمير بالإضافة إلى المواظبة على حضور المجالس العلمية عكوفه على مكتبة أسرته بمعهدهم[10]. ومن جملة العلوم التي درسها البلاغة والتاريخ، ويشير دينيزين إلى أنّه:"

---

[1]– محمد الأعرج الغريسي، المرجع السابق، ص: 401.

[2]– مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 50؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 306.

[3]–دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ص:21؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 209.

[4]– كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، فأصبح (طالبا) عندما كان في الثانية عشرة، أي أنه كان متمكنا من القرآن والحديث وأصول الشريعة. ينظر: تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص، ص: 61، 62؛ دينيزن، المرجع السابق، ص: 21.

[5]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 60؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 210.

[6]– شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص، ص: 61، 62.

[7]– شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر. ص: 69.

[8]– أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة. ص: 60.

[9]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 19؛ مذكرات الأمير عبد القادر، ص، ص: 50، 51.

[10]– بعد العودة من الحج سنة 1828م، عكف على المكتبة فقرأ أعمال أفلاطون وفيثاغورس، وأرسطو، ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث، وعن الفلسفة واللغة، والفلك والجغرافية، بل حتى عن الطب. ينظر: تشرشل، المصدر السابق، ص: 71، 72؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 60.

كرس وقته لدراسة البلاغة والتاريخ، ويقال عنه في اللحظة الراهنة إنه الرجل الوحيد الذي يتمتع بأعظم موهبة بلاغية في البلد كلها، وهو ما يجعله متميزا تميزا خارقا للعادة ... درس تاريخ بلاده كما ينبغي"[1].

وقد استفاد من ذلك كله في إدارة دولته رغم عمرها القصير، بحيث بايعه الجزائريون وولوه أمر الجهاد وخلعوا عليه لقب أمير في سنة 1249ه/1833م، فقام يقاتل الفرنسيين ويخوض ضدهم المعارك التي حقق انتصارات باهرة في بعضها وينظم الدولة، وينظر في شؤون الرعية إلا أن ظروف البلاد وتشتت جبهة الجزائريين، وتنظيم جبهة الفرنسيين أحبطت من جهوده ودفعت به إلى الاستسلام في 1264ه/ ديسمبر سنة 1847م[2].

كان الأمير عبد القادر يحفظ الشعر والأمثال، والخطب والحكم، كما كان شاعرا وله ديوان في الشجاعة، والفخر والحرب ونحوها، وله كتب ألفها بعد خروجه من الجزائر، ابتداء من سنة 1848م، بحيث كانت أيامه بدمشق حافلة بالدراسة والتأليف. ومن تآليفه الفكرية: كتاب "المواقف" في التصوف، و"المقراض الحاد" في شؤون الرعية، ألفه في فرنسا، و" ذكرى الغافل" في الفلسفة [3]. ومن المؤلفات التي ذكرها له ابنه[4] في "تحفة الزائر" "التقييد" الذي تضمن مساجلات الأمير مع الشاذلي القسنطيني[5].

إنَّ أفكار الأمير في تسيير الدولة تدل على ثقافته وعبقريته، ومن الأفكار التي سيطرت عليه فكرة الوطنية والقومية، فقد تجاوز خطابه بني فلان وبني فلان إلى الشعب، وإلى كل المواطنين، حيثما كانوا ومهما كانت انتماءاتهم، وتعامل مع مختلف الطرق الصوفية دون

---

[1]- ا.ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر. ص، ص: 21.

[2]- تطرقت مصادر كثيرة جدا لمقاومة الأمير عبد القادر العربية والأجنبية منها "حياة الأمير عبد القادر" لهنري تشرتشل.

[3]- أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة. ص: 60؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 104.

[4]- ولد الأمير محمد ابن الأمير سنة 1840م بالقيطنة، وعاش مع والده في سجون فرنسا.

[5]- أبو القاسم سعد الله في تقديمه ل: حياة الأمير عبد القادر لهنري تشرشل، ص:17

استثناء رغم أن والده كان على رأس الطريقة القادرية، وكان يتصرف كرجل دولة إسلامية وطنية لا كرجل طريقة أو جهة أو قبيلة[1].

توفي الأمير عبد القادر في شهر رجب 1300ه/1883م بقصره الكائن بدمر قرب دمشق[2].

(11)- السيد المختار بن الطاهر بن البشير:

هو المختار بن الطاهر بن البشير بن محمد بن عبد القادر بن المختار [3]، من أولاد شايب ذراع، أخذ النحو والفقه والتوحيد عن ابن عمه الشيخ محي الدين، وعن أخيه السيد علي بن أبي طالب بزاوية أبيهما الشيخ مصطفى بن المختار، وتصدى للقراءة بالزاوية المذكورة وهو في عنفوان الشباب، ثم تاقت نفسه لتحصيل العلوم العقلية سافر إلى تلمسان وقرأ على جملة من العلماء كالعلامة ابن زيان، وأبو عبد الله محمد المجاوي، كانت له مشاركة في العروض، وله شعر، إلا أنّ شعره ليس داخل تحت طور الإجادة[4].

يعد الأمير عبد القادر أحد أبرز متأخرو البيت إلا أن مكانته في تاريخ الجزائر جعلتنا نفرده بترجمة مفصلة في حين نكتفي بترجمة مقتضبة لبعض معاصريه من علماء بيته منهم:

(12)- الشيخ الطيب بن المختار بن الطاهر (ت1308ه/1890م):

هو الطيب بن المختار بن الطاهر بن البشير بن محمد بن عبد القادر بن المختار"، اشتهر بكتابه "القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم"، شارك في المقاومة إلى جانب ابن عمه الأمير عبد القادر، ورافقه في منفاه[5]، ثم عاد إلى الجزائر وتولى القضاء خلال فترة الاحتلال

---

[1]- أبو القاسم سعد الله في تقديمه للمصدر نفسه، ص: 9.

[2]- الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 310؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 211.

[3]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 327.

[4]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 337.

[5]- كان دائم التواصل مع الأمير وأسرته المهاجرة، فذهب لمقابلته في مارسيليا، كما زاره في الشام مرتين، مكث في الأولى مدة طويلة، وكانت له معه مراسلات. ينظر: عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر. ص: 197.

بمعسكر[1]. وله باع في التفسير والتوحيد، وهو أديب وشاعر، له ديوان شعر، وعدد من القصائد[2]. توفي بالجزائر سنة 1308ه/ 1890م[3].

– المبحث الثالث: بيوتات وأسر علمية متفرقة بمدينة معسكر وضواحيها:

(أولا)– بيت دح بن زرفة:

(أ)– نسبه ومكانته:

بيت ابن زرفة من البيوتات العلمية الشهيرة[4]، ولذلك مدح أبو راس أحد علماءه، وهو عبد القادر بن السنوسي بقوله :"... وسلفه في العلم قديم" [5]. أما صاحب كتاب " القول الأعم" فيذهب إلى أنّ هذه القبيلة – يقصد أولاد سيدي دحو أبي زرفة– أكثر القبائل:" تعاطيا لله للعلوم، وأولاها بتحقيق المنطوق والمفهوم "، مشيرا إلى أشهر علماء هذا البيت بقوله:" كان فيهم أئمة مشاهير كالسيد الحاج عبد القادر بن السنوسي، وولده العلامة السيد السنوسي، والدراكة الأرضى الإمام المرتضى السيد المصطفى بن عبد الله وغيرهم"[6].

وأصل أسلافهم من الأندلس، وهم من بني حمود الذين كانوا ملوكا بها، وقد أورد صاحب " عقد الجمان النفيس" سلسلة نسبهم في سياق ترجمته لأحد أفراد هذا البيت، وهو شيخه عبد الرحمن بن علي المشهور بدحو بن زرفة كما يلي:" شيخنا عبد الرحمن بن علي بن عثمان بن عيسى بن عثمان بن عيسى بن عقيل بن أحمد بن محمد

---

[1]– تولى القضاء بمعسكر بين سنتي 1274ه و1281هـ، عرف بمساعيه من أجل القضاء. ينظر: أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 55.

[2]– من قصائده القصيدة التي مدح بها الأمير عبد القادر، والقصيدة التي وصف بها صقلية، أما المناسبة فهي نزول الشاعر والوفد المرافق للأمير عبد القادر، بهذه الجزيرة وهم في طريق الرحلة إلى المشرق، بعد إطلاق سراحهم في ديسمبر 1852م. ينظر: عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص، ص:196، 197؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 22..

[3]– عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع نفسه، ص: 194.

[4]– ذلك ما أكد عليه أبا حامد المشرفي بقوله:" وبيوت العلم فيهم مشهورة". ينظر: المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 24.

[5]– أبو راس الناصري، فتح الاله، ص: 68.

[6]– الطيب بن المختار الغريسي المختاري، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، ص، ص: 329، 330.

بن أحمد، من أبناء ابن راشد بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن" [1].

وقد كان الشيخ دحو بن زرفة يضيف إلى اسمه عبارة " الزروالي الراشدي"، فسأله صاحب "عقد الجمان" عن ذلك فقال له :" لزروال نسب الاشتهار، ولراشدي يحي بن علي أحد الأجداد نسب الأصل والنجار" [2].

وهم عدة بيوت، وقد كانت الرياسة في هذا البيت خلال العهد العثماني وفي دولة الأمير عبد القادر " في بيت السيد الحاج محمد، وفي بيت الحاج المكي ابن عبد الله، وفي بيت سيدي عبد الرحمن بن حسن، وغيرهم من أبناء عمهم تبع لهم، وهؤلاء الثلاثة هم كانوا بين أبناء عمهم وملوك الأتراك يرفعون حوائجهم، ويتكلمون في مصالحهم"[3].

أما **انتسابهم للأشراف** فهو أمر مشهور، وذلك ما ذكره أبو حامد المشرفي بأنه من " البيوت الشهيرة في النسب الشريف، وبيوت العلم فيهم مشهورة"[4]، أما صاحب كتاب "القول الأعم" فيذهب إلى:" أن من أعيان الأشراف الذين لا شك في شرفهم ولا خلاف أولاد سيدي دحو أبي زرفة، وهذه القبيلة من أصح القبائل نسبا، وأوضحها حسبا، وأشدها بأسا، وأعظمها في القديم جاها، وأكثرها تعاطيا لله للعلوم، وأولاها بتحقيق المنطوق والمفهوم" [5].

وترجمة عبد الرحمن التوجيني، لابن زرفة في كتابه " عقد الجمان النفيس" المخصص لذكر "الأعيان من أشراف غريس" دون غيرهم من الأشراف يؤكد شهرة نسبهم، هذا وقد صرح صاحب العقد في سبب تأليفه لكتابه:" قد سألني بعض الإخوان من أبناء الزمان أن أضع لهم تأليفا أذكر فيه من توطن أرض غريس من الأشراف، وثبت له أنه من ذريته-ﷺ-

---

[1]- أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص:15.

[2]- عبد الرحمن التوجيني، المصدر نفسه، ص:16.

[3]- الطيب بن المختار، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم. ص، ص: 329، 330.

[4]- المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 24.

[5]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص، ص: 329، 330.

بلا اختلاف"[1]، كما قال:" ولا نذكر إن شاء الله في هذا الديوان، إلا من ثبت شرفه عند أهل القرن الحادي عشر"[2].

وعلى الرغم من العلاقة الجيدة التي تربط عدد من أعلام هذه الأسرة بالشيخ أبي راس- فمنهم أصحابه وأشياخه وتلامذته، وقد مدحوه وقرضوا بعض مؤلفاته- إلا أنها من الأسر التي طعن أبي راس في نسبها الشريف[3]، والنص كما ذكره أبي حامد المشرفي هو:" ثم إنَّ النفس الأمارة بالسوء حملته -يقصد أبي راس- على أن تكلم في المشارف، وفي أولاد سيدي دح بن زرفة، وفي كل من له شرف ديني أو طيني من أهل غريس ونفا نسبتهم للجناب النبوي مع أن نسبتهم إليه أوضح من طلعة الشمس"[4].

وبيت ابن زرفة من البيوتات التي أسندت إليها نقابة الأشراف، وفي "ياقوتة النسب" :"وبيت النقابة في أولاد سيدي أحسن، وإذا انتقلت إلى غيرهم لا تدوم فهم المشهورون بها في دولة الأتراك، وفي دولة محي الدين"[5].

وهم -حسب صاحب القول الأعم- " لهذا العهد ما خرجوا عن طريقة أهل الأندلس من تعاطي الشعر، والتأنق في الكلام، وارتكاب أبواب الفصاحة، والتطاول في المحافل، والتوغل في رفاهة الملبس والمركب، والمأكل والمشرب"[6]،

(ب)- علماء بيت دحو بن زرفة:

ومن خلال المصادر المتوفرة لحد الآن استطعنا أن نحصي ستة من علماء هذا البيت، وهم:

(1)- الشيخ عثمان بن عيسى:

---

[1]- عبد الرحمن التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص، ص: 7، 8.

[2]- عبد الرحمن التوجيني، المصدر نفسه، ص:11.

[3]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، « تقييد في نسب المشارف » مخ، ص: 5.

[4]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس » مخ، ص:12.

[5]- أبو حامد المشرفي، « ياقوتة النسب » مخ، ص:25.

[6]- الطيب بن المختار الغريسي المختاري، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم. ص: 329، 330.

هو جد الشيخ عبد الرحمن المعروف بدحو بن زرفة – المترجم له بعده– لم نتمكن من إيجاد معلومات كافية عنه، إلا أن صاحب "عقد الجمان" وصفه ب:" العالم الشهير الكبير سيدي عثمان بن عيسى جد الشيخ عبد الرحمن"[1]، ووصفه في موضع آخر بأنه :"كان كثير الاطلاع والحفظ"[2].

(2)– عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة (ت1065ه/ 1654م):

أثبت عبد الرحمن بن زرفة اسمه في الوثيقة التي شهد للمشارف بالنسب الشريف في سنة 998هـ/ 1589م هكذا :" عبد الرحمن بن علي بن عثمان بن عيسى بن عثمان الراشدي"[3]، وهو من كبار العلماء الراشدية في عصره، ولهذا وضع ابن مصطفى المشرفي تأليفا في مناقبه سماه:" قلائد الياقوت والمرجان"[4]، ووصفه ب:" الشيخ العلامة"[5]، وب:" الولي الكبير، والقطب الشهير"[6].

تفقه الشيخ عبد الرحمن بن علي على يدي الشيخ عبد القادر بن خدة، والشيخ محمد بن علي أبهلول وعنه أخذ الطريقة. وتصدى هو الآخر للتدريس ومن تلاميذه: عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني مؤلف " عقد الجمان النفيس"، والسيد عبد الرحمن الدرعي، والسيد محمد بن حسناء[7].

وقد كان له مكانة رفيعة عند الحكام في عهده، وذلك ما أكد عليه صاحب " القول الأعم " بقوله : ولجدهم احترام عند ملوك الأتراك، حتى أنَّ بكل محكمة من محكماتهم مسجدا مضافا إليه، ومن دخله من أهل المطالب والجنايات لا يتعرض له، ولا يؤخذ بشيء

---

[1]– عبد الرحمن التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص:17.

[2]– عبد الرحمن التوجيني، المصدر نفسه، ص:19.

[3]– محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، " تقييد في نسب المشارف" مخ، ص: 8.

[4]– ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص:11.

[5]– ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 10.

[6]– ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 5.

[7]– عبد الرحمن التوجيني، عقد الجمان النفيس، ص، ص: 16،17.

مراعاة لجناب سيدي دحو"[1]. أما وفاته فكانت سنة 1065هـ/1654م، وقبره برأس الماء معروف[2].

(3)- أبو عبد الله محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة (ت1215هـ/1800م):

هو محمد المصطفى بن عبد الله المعروف بابن زرفة مرضعة جده[3]، وهو تلميذه أبو راس الناصري، وهو أحد العلماء الأربعة من بيت ابن دحو الذين أشار إليهم أبو راس في كتابه "فتح الاله"، إلا أنه لم يبين صلة القرابة التي تجمعه بهم، ولكن المقارنة بين اسمه، واسم عبد القادر بن السنوسي بن عبد الله بن دحو، يظهر أن الشيخ المصطفى هو عم عبد القادر بن السنوسي، إلا أن المزاري يذكر أنهم أبناء العمومة[4].

عرفه شيخه أبو راس بقوله:" كبير العلماء العاملين والجهابذة الفاضلين... تلميذنا الشيخ مصطفى بن عبد الله بن دحو ... كاتب بارع، ناظم ناثر، ذو المعاني والإعراب، والفنون والآداب... مع الحسب الأصيل"، كما وصفه ب" خاتمة ذوي التحقيق والتدقيق"[5]. ووصفه المزاري ب:" العالم الجليل... الكاتب الفاخر الناظم الناثر... الجامع بين الحسب والنسب الأصيل ... الشريف... السيد مصطفى بن عبد الله بن دحو "[6].

كان كاتبا لباي وهران محمد الكبير، وشارك في تحرير وهران الثاني عام 1206هـ/ 1792م، وكان مساعدا لرئيس رباط إيفري للطلبة قرب وهران، فكلفه الباي بجمع الحوادث عن هذا الفتح وتسجيلها فجمعها في كتاب سماه " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"[7] أنهاه عام 1206هـ/1792م، وله كتاب آخر

---

[1]- الطيب بن المختار، القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، ص، ص: 329، 330.

[2]- عبد الرحمن التوجيني، المصدر السابق، ص، ص: 17، 18. هامش: 2.

[3]- مصطفى بن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران لحساني مختار. ص: 157؛ الثغر الجماني، ص، ص: 146، 244.

[4]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 301.

[5]- أبو راس الناصري، فتح الاله، ص: 72.

[6]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 295.

[7]- ابن زرفة، المصدر السابق، ص: 159؛ أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، قسنطينة: مطبعة البعث- منشورات وزارة التعليم العالي والشؤون الدينية. 1973. ص، ص: 146، 147.

سماه " الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء" موضوعه صحة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها[1]، " وله كتابات على أسئلة كبار ... ومناظرات وأجوبة مع العلماء وأسئلة، وله أيضا في مدح رسول الله -ﷺ- قصائد " [2].

اشتهر ابن زرفة بنظم الشعر، وله قصائد في أغراض مختلفة: المدح، الرثاء، التقريض [3]، منها القصائد التي مدح بها الباي محمد الكبير [4]، الذي كان عينه قاضيا بوهران بعد الفتح وظل بمنصبه إلى أن توفي عام 1215هـ/1800م من جراء الوباء[5]. ويبدو أن معاصريه أو على الأقل المقربين منه كانوا يقدرون قصائده، ولهذا لما شيد الباي محمد الكبير قبة البرج الأحمر بوهران في عام 1207ه/1793م، كتب على صالة مركز جلوسه أبياتا أنشدها المصطفى بن زرفة [6].

(4)- السيد عبد القادر بن السنوسي (الوالد):

عاصر الشيخ "عبد القادر بن السنوسي بن عبد الله بن دحو" [7]، الشيخ أبي راس فأخذ كل منهما العلم عن صاحبه، ولهذا وصفه أبو راس[8] ب" شيخنا في علم المعقول، وتلميذنا في الفقه المنقول". ووصفه أيضا ب" الحافظ اللافظ... وعاء من أوعية العلم، له لكل علم وصول من حديث وفقه ونحو وأصول، كان عالما عاملا" [9].

---

[1]- بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 233.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الاله، ص: 72.

[3]- قرض بعض تآليف أبو راس، ك" الحلل الحريرية في بيان المقامات الحريرية". ينظر: أبو راس، المصدر نفسه، ص: 73.

[4]- توجد هذه القصائد في كتابه الرحلة القمرية، و لم يكن فيها إبداع كبير، لما يطغى عليها من نثرية فيها أثر الصنعة. ينظر: حمدادو بن عمر، المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب، ص: 257.

[5]- نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 158. وحسب أبي راس (المصدر السابق، ص: 72):" توفي في حال الشيبة... ".

[6]- مطلعها:"يا غافلا عن أمور زانها ذهب* ولونها لجين وتمرها رطب". ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 295.

[7]- هكذا أورد اسمه في تقريظ له " لشرح دلائل الخيرات" لأبي راس، فتح الإله، ص: 68.

[8] - شهد لأبي راس بالنسب الشريف وكتب له بذلك. ينظر: أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 29.

[9]- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص: 65.

استغل مترجمنا كغيره من العلماء رحلة الحج فالتقى بفضلاء أهل علم وانتفع بهم، فأخذ بمصر عن الشيخ أبي الفيض مرتضى الحنفي، وشيخ المالكية محمد الأمير وغيرهم، طار صيته بمصر، ولقبوه بالشيخ عبد القادر أخذ عنه جماعة: علم الفقه والنحو وكذا المعقول[1].

أما مؤلفاته فقد" تصدر لحواشي على الخرشي إلا أنها لم تكتمل" [2]، وقد كان ينظم الشعر كبقية علماء بيته، وقرض بعض تآليف أبي راس نظما، ووصف هذا الأخير أحد تقاريظه بقوله:" لله دره، من فصيح وما أبلغه "[3]. ومن مؤلفات أبي راس التي قرظها شرحه المسمى "الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات"، مطلعها[4]:

هنيئا لكم بشرحكم للدلائل فخرتم به على فحول الأوائل

توفي أيام الباي عثمان بن محمد الكبير الذي استمرت ولايته بين سنتي: 1213-1215ه/ 1798م-1800م، بحيث حدث في أيامه طاعون فمات به كثير من الناس، ومنهم بالراشدية :" العلامة الإمام... السيد عبد القادر بن السنوسي بن دح بن زرفة، ومنهم صنوه الفقيه ذو الفهم الراشمي الخرير السيد الهاشمي، ومنهم ابن عمهما الفقيه الأديب الألمعي الأنجب الشبيه بالأورزاعي، مؤلف فتح وهران السيد مصطفى بن عبد الله "[5].

(5)- السيد السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي:

هو السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي - المترجم له قبله- قال فيه الشيخ أبي راس :" على صغر سنه لفنون العلوم والآداب جامعا، مُذ كان مراهقا يافعا... تلميذنا العلامة السيد السنوسي"، ووصفه أبو حامد المشرفي بقوله:" وخاتمة علماء هذا البيت نحرير الأدباء، وأمين النجباء الفقيه العلامة السيد السنوسي بن عبد القادر... منهم من لازمه السنين

---

[1]- أبو راس الناصري، فتح الإله، ص: 65.

[2]- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص: 65.

[3]- قال ذلك في تقريظه له في شرح أبي راس الكبير المسمى ب" الحلل الحريرية في بيان المقامات الحريرية"، نظم في 8 أبيات. ينظر: أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص: 70.

[4]- هذا التقريظ في 14 بيت. ينظر: أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص: 68.

[5]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص، ص: 299، 301.

المتطاولة ولا رآه فتش على مضان المسائل في الكتب الفرعية والأصلية، لما أعطاه الله من الحفظ والفهم وذكاء القريحة"[1].

وهو يجيد نظم الشعر كوالده، وقد ترك قصائد في أغراض مختلفة منها نظم في المشارف[2]، ونظم في مدح في أبي راس، كما قرظ بعض تآليفه، بعد أن وجد كلام والده في شرح أبي راس " شرح العقيقة" :" وقد تأملت مدح والدنا والشرح وما فيه فوجدته يستجلب الذوق ولا ينافيه، فمدحته أنا عبد الله أيضا "، وهو النظم الذي وصفه أبي راس بقوله:" لله در الوالد ونجله، وبلاغة كل ونبله، في هذا التقريض ". ونظم في ستة أبيات مطلعه[3]:

يا درة جذبت من خالص الدرر ونظمت بعقيق أشهى في النظر

كما خمس النظم الذي قرض به والده شرح أبي راس المسمى ب" الحلل الحريرية". ومما ورد فيه قوله[4]:

ما كنت أحسب قبل هذا أن أرى جنات عدن داخل الأوراق

حتى تصفحت للإمام الناصري حلل الحريري جلية الأشراق

(6)- الشيخ السنوسي بن السنوسي:

الشيخ السنوسي بن السنوسي، شقيق الشيخ عبد القادر المتقدم، هو الآخر معاصر لأبي راس الذي يصفه ب" صاحبنا"، وقد أخذ كل منهما العلم عن صاحبه:" كنت قرأت عليه المنطق والبيان، وقرأ هو وحده علي الفقه، ولجلالته وعلو منصبه أفردته عن الطلبة في القراءة لكثرتهم جدا حتى يضيق عنهم الجامع ورحابه ". ووصفه أيضا بقوله:" كان هذا

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 24.

[2]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 24؛ ابن مصطفى المشرفي، "تقييد في نسب المشارف"، مخ، ص- ص:21- 22.

[3]- أبو راس الناصري، فتح الاله، ص: 69، 70.

[4]- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص، ص: 70، 71.

السيد علامة محققا، قدوة حافظا نظارا أصوليا لغويا نحويا بيانيا... ذو القدم الراسخ في العوم والإمامة العظمى في الفنون: فقها وأصولا وتفسيرا وعربية وإعرابا [1]".

ولكن أبي راس يكتف بالإشارة إلى وفاته بأنه قتل مجاهدا في معركة عظيمة بين المسلمين ونصارى وهران، ودفن في تربة جده[2]، دون أن يذكر تاريخ ذلك.

(ثانيا)- بيـــت أولاد أحمد بن علي بشنتوف:

وصفهم صاحب "ياقوتة النسب" بقوله و"هم علماء صلحاء وفضلاء نصحاء"[3]، كما وصفهم صاحب " القول الأعم" هذا البيت بقوله:" وهم دار علم وجلالة وجاه عظيم وقبيلتهم في القديم مشحونة بالعلماء والأقطاب"[4]. وهم أشراف ذكر في "ياقوتة النسب" أنهم من شرفاء الشهرة [5]، ويتصل نسبهم بمحمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم-[6].

والسيد أحمد بن علي [7] هو أول من استوطن غريسا، وكان أبوه السيد علي بن عيسى مشهور بتاسالة من بلاد بني عامر[8]. ومن أسلاف هذا البيت السيد أحمد بن علي المذكور، والسيد علي بن سحنون بو شنتوف[9]، وهو من مشاهير أولياء وصلحاء هذا البيت، وهو والد الهاشمي بوشنتوف، صاحب الترجمة الموالية. وعلماء أسرة بشنتوف هم:

(1)- الهـــاشمـــي بن علي بن بوشنتوف: (ت بعد 1184ه/ 1770م)

---

[1]- أبو راس الناصري، فتح الاله، ص: 73.

[2]- أبو راس الناصري، المصدر نفسه، ص:73، 74.

[3]- المشرفي، " ياقوتة النسب" مخ، ص: 25.

[4]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 331.

[5]- المشرفي، المصدر السابق، ص: 25.

[6]- الطيب بن المختار، المصدر السابق، ص: 331.

[7]- هو أحمد بن علي بن عيسى البوعمراني (ت960ه)، وهو من تلاميذ أحمد بن يوسف المليانى. وقبره بغريس من المزارت الشهيرة. ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:84؛ الطيب المختاري، المصدر السابق، ص: 333.

[8]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 52.

[9]- علي بن سحنون بن أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بو شنتوف(ت بعد 1150ه): أخذ العلم عن والده الفقيه سحنون، كان معاصرا للشيخ مصطفى الرماصي، وهو صاحب علوم باطنة، كان مجذوبا في غالب أحواله، وكان يغيب طويلا عن إخوته حتى يظنوا موته ويقتسموا تركته. ينظر: القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:235؛ الطيب المختاري، المصدر السابق، ص: 331.

كان من العلماء الراشدية البارزين بعصره، وهو أيضا من مشاهير صلحاء وأولياء هذا البيت[1]، ولهذا أثنى عليه تلميذه شيخ مصطفى بن مختار قائلا:" شيخ التقى والعلم... سيدنا الهاشمي بن علي قطب بدور صفوة الله بقطرنا ". ومدحه نظما من ذلك قوله[2]:

رئيس أهل العلم والدراية والفقه والتفسير والرواية

سافر الشيخ الهاشمي إلى وزان بالمغرب الأقصى، وأخذ الورد عن المولى أبي عبد الله محمد الطيب الوزاني، وأذن له في التربية وأمره بالرجوع إلى وطنه، ومنه بدأت الطريقة الطيبية[3] تنتشر بالغرب الجزائري.

(2)- السيد محمد بن الهاشمي بن علي (القرن 12ه/18م):

هو والده الهاشمي - صاحب الترجمة المتقدمة- وهو أيضا من مشاهير صلحاء وأولياء هذا البيت. وقد كان السيد محمد بن الهاشمي زاهدا ورعا، كما كان مقبول الشفاعة عند ملوك الترك، وكان لا يقبل جوائزهم كأبيه وجده. وهو الآخر كان شيخا الطائفة الطيبية، التي اختص بتلقين وردها[4].

(3)- السيد أحمد بن التهامي:

يعد السيد أحمد بن التهامي أحد علماء الراشدية الأعلام[5]،كان يتمتع بثقافة واسعة ومكانة رفيعة في بين معاصريه، ولهذا يلقبه صاحب القول الأعم ب"شيخ الجماعة "[6]. تقلد

---

[1]- الطيب المختاري، القول الأعم، ص: 331.

[2]- عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص:416.

[3]- تنسب الطريقة الطيبية إلى مؤسسها عبد الله بن إبراهيم الشريف الوزاني، بجبل العلم سنة 1004هـ/ 1596م، ووزان 1089هـ/ 1678م من نسل يملح بن عبد السلام بن مشيش من الأشراف الأدارسة، هاجر من مسقط رأسه بشمال المغرب واستقر في بلدة وزان. وتولاها بعده ابنه محمد (ت1120هـ/ 1708م)، ثم تولاها حفيداه الأخوان التهامي بن محمد (ت1127هـ /1715م)، وأبو عبد الله محمد الطيب (ت1181هـ/1767م) الذي أصبحت الطريقة تنسب إليه فسميت الطيبية. ينظر: حمدادو بن عمر، المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب، ص: 41.

[4]- الطيب المختاري، القول الأعم، ص، ص: 331، 332؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص، ص:381، 382.

[5]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 100.

[6]- الطيب بن المختار، المصدر السابق، ص: 331.

الشيخ أحمد الإفتاء بوهران خلال العهد العثماني[1]، فكانت تشد الرحال إلى فتواه، وتصدى للتدريس، فكان أبو حامد المشرفي ممن استفاد منه علم الفقه، وتردد على مجلسه بجامع وهران الأعظم، ووصف مجلسه بأنه غاص بأهل العلم[2].

وهو صهر لبيت مصطفى بالمختار، إذ هو متزوج من أخت السيد محي الدين عمة الأمير عبد القادر[3]، وقد ساهم في المقاومة منذ انطلاقتها الأولى، إذ كان أحد العلماء الكبار الذين حضروا بيعة الأمير في رجب 1247هـ/27 نوفمبر 1832م، وبآخر صك البيعة إمضاءه إلى جانب إمضاءات من حضر البيعة من أعيان العشائر وكبار رجال الوطن[4]. ونظرا لمكانته العلمية فقد عينه الأمير عضوا في المجلس الشورى العالي الأميري، والذي يتشكل من أحد عشر عضوا من كبار العلماء[5].

(4)– مصطفى بن أحمد بن التهامي (ت1283ه/1866م):

أخذ السيد مصطفى بن التهامي العلم بالراشدية ووهران، وتصدى للتدريس بوطنه قبل الاحتلال الفرنسي، وبالشام فيما بعد، فكان من تلامذته الطيب بن مختار الذي يشير إليه في " القول الأعم" ب: " العلامة شيخنا السيد الحاج المصطفى بن تهامي" [6]، كما كان أبو حامد المشرفي من تلامذته، فشبهه بسبويه في النحويات، قائلا بأن له الفهم الثاقب والرأي الصائب لا يجارى في علم العروض، وفي المعقولات، درس في علم المعاني والبيان[7].

---

[1]– عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 52؛ أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث، ص: 142.

[2]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 25. وهو يذهب إلى أن عدد الحاضرين مجلسه " يزيد في بعض الأوقات على الخمسمائة طالب، ويقرب من الألف، منهم من يحضر مجلسه للتبرك"، وإن كان الرقم مبالغ فيه بعض الشيء إلا أنه يعني كثرة المقبلين على مجلسه.

[3]– أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث، ص: 142.

[4]– عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص: 53.

[5]– المزاري، المصدر السابق، ج1، هامش: 1، ص: 100.

[6]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 331.

[7]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 25.

وهو ابن عمة الأمير عبد القادر، وقد شارك إلى جانبه في المقاومة فعينه في المرحلة الأولى كاتبا لرسائله الخاصة في ديوان الإنشاء[1]، ثم عينه خليفة له على مدينة معسكر، فقام بأعمال جليلة إلى جانب الأمير، وتولى قيادة جيش الأمير في عدة جهات من الوطن، وخاض معه معظم المعارك، وأشرف على تنصيب عدة خلفاء، وظل يكافح ويجاهد مع الأمير إلى أن استسلم[2]، فاشترط الأمير أن يكون مصطفى بن التهامي من بين الذين يرافقونه، ونقل معه إلى الأمبواز وهناك داوم الأمير على تدريس العلم، وإفادة من معه من جماعته وسلك بعض مرافقيه نفس طريقه، وخليفته السابق مصطفى بن التهامي، بل أن الأمير وضع أبنائه تحت إشراف مصطفى فيما يتعلق بتعليمهم[3].

وبعد انتقالهم إلى دمشق سنة 1856م، وفي أيام إقامته بدمشق كان ابن تهامي إماما بجامع بني أمية، كما تولى التدريس به[4]، والفتوى على المذهب المالكي، كما كان يحضر مجالس الأمير ويناظر علماء الشام حتى عد إمام المالكية بجامع دمشق. أما مؤلفاته فأشهرها تاريخ عن حياة الأمير عبد القادر، وألف في قصر الأمبواز[5]. وكان ينظم الشعر " وله القصائد الموزونة الطنانة"[6] -حسب تعبير أبا حامد المشرفي- ومنها المنظومة التي نظمها في السجن الأمبواز حيث كان مرافقا للأمير عبد القادر، وهي من نوع الاستغاثة[7]، ومن آثاره شرح على العقيقة لسعيد المنداسي[8]. توفي مترجمنا سنة 1283ه/ 1866م[9].

---

[1]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 473؛ أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث، ص:143.

[2]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، هامش: 1، ص: 101.

[3]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص: 475.

[4]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 25.

[5]- المزاري، المصدر السابق، ج1، هامش: 1، ص: 101.

[6]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 25.

[7]- الغوثية هي طلب الفرج من الله بعد محنة السجن التي دامت 5 سنوات. وهي تضم أزيد من 500 بيت. استهلها بقوله: « لما جرى القدر بالخلاف* ووقع الخلف بالإتلاف». ينظر: أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث، ص:49، ها: 4، ص: 142.

[8]- أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث، ص:143.

[9]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، ص: 476؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:399.

وفي كتاب " القول الأعم" إشارة إلى عدد من علماء هذا البيت في هذا النص :"... من مشاهير علمائهم سيدي أحمد بومعزة، وولده سيدي عبد الرحمن بن أحمد، وولد سيدي الطيب بن عبد الرحمن، وقد ولي عبد الرحمن هذا القضاء في ولاية الباي حسن آخر أمراء بني عثمان بوطن الجزائر"[1]. وكان أبا حامد المشرفي ممن أخذ عن العلم عن الشيخ الطيب بن عبد الرحمن[2].

(ثالثا)– أسرة ابن سحنون الراشدي:

أسرة ابن سحنون أسرة علمية اشتهر كثير من أفرادها بالعلم[3]، كان لهذه الأسرة سابقة في الجهاد[4]، ويبدو أن صلة هذه الأسرة بحكام بايليك الغرب كانت قوية بدليل وظيفة الوالد كقاضي بمعسكر ومكانة الابن وصلته القوية بمحمد الكبير باي وهران. ومن علمائها :

(1)– الشيخ محمد بن علي بن سحنون:

وصفه المزاري ب:" العالم العلامة الدراكة الفهامة كثير المعاني ومشارك الفنون، قاضي المعسكر السيد محمد ولد مولاي علي الشريف بن سحنون"[5]، كان قاضيا بمعسكر ومتصدرا للتدريس بها في النصف الثاني من القرن 12ه/18م، وقد ذكره تلميذه أبا راس " فتح الإله" في هذا النص:" جلست في حلقة شيخنا السيد محمد بن مولاي علي بن سحنون قاضي معسكر لأقرأ الفقه" [6].

وعلى الرغم من أن المهدي البوعبدلي وصفه بقاضي قضاة معسكر[7]، إلا أنه لا وجود لهذه المراتب في القضاء في الجزائر العثمانية، ولكن قضاة المدن الرئيسية كان لهم اليد الطولى

---

[1]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 331.

[2]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 25.

[3]– البوعبدلي، مقدمة تحقيقه لكتاب الثغر الجماني، ص: 64.

[4]– حضر عم صاحب " الثغر الجماني" الفتح الأول لوهران 1120هـ/ 1708م. ينظر: سعيدوني، من التراث التاريخي، ص: 439.

[5]– المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 286.

[6]– أبو راس، فتح الإله، ص: 42.

[7]– المهدي البوعبدلي، مقدمة تحقيقه لكتاب الثغر الجماني، ص: 64.

على قضاة النواحي، وأبو راس نفسه يذكر بأنه تقلد القضاء في بوادي معسكر :" على يد شيخه محمد بن مولاي علي قاضي أم عسكر"[1].

ولا شك في أنه ظل مدة طويلة في منصب القضاء حتى لا يذكر إلا مقرونا بنعت " قاضي معسكر"، وله قصيدة وجهها إلى الآغا إسماعيل بن البشير البحثاوي، الذي وصفه المزاري ب:"الفارس الأعظم ... الذي لا يدانيه شجاع"، وهو آغا الباي إبراهيم المليانى[2].

ومن خلال تلك القصيدة يتبين أن الشعر ليس من صنعته، ومع ذلك كلف نفسه به، وهي وتحتوي على عشرة أبيات، الخمسة الأولى كلها مدح وإطراء للآغا المذكور، أما الأبيات الأخيرة فيبدو أنه يستجير به، مما قد بلغه من أن الباي سيولي غيره في منصبه، وهذه هي الأبيات الأربعة الأخيرة[3]:

قد قيل لي إن أمير المؤمنين إبراهيم باي يريد يا أمين

توليت غيري وأنت المفتاح والاتكال عليك يا مصباح

وكيف قد أخشى وأنت عندي يا ملاذي وعدتي ورشدي

فلا تدع تمنيت الأمير تكمل يا عمدتنا يا شهير

(2)- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون (ت بعد 1211هـ/1796م):

نشأ أحمد بن سحنون بمعسكر ودرس على شيوخها، كما درس بالرباط[4] أثناء محاصرة الباي محمد الكبير[5] على الشيخ محمد الموفق بن محمد[1] المعروف بأبي الجلال [2].

---

[1]- أبو راس، فتح الإله، ص: 24.

[2]- ظل الباي إبراهيم على رأس البايليك مدة أربعة عشرة سنة، إذ تولى عام 1170ه/1757م، وتوفي سنة 1185ه/ 1772م. " وكان محبا للعلماء بمحبته للعلم". ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص، ص: 285، 286.

[3]- المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 286.

[4]- لمَّا عزم الباي محمد على طرد الإسبان من وهران قام بإحياء الرباط بجبل المائدة، واختيار محمد الجلالي رئيسا للرباط، وعيَّن له مساعدين، ومنع الناس من التدريس في المدن. ينظر: أحمد بن سحنون، الثغر الجماني، ص: 233.

[5]- تولى الباي محمد بن عثمان الكبير بايا على الغرب في سنة 1193هـ، وظل به إلى أن توفي سنة 1213هـ. اهتم اهتماما بالغا بالعلم؛ فبنى ورمم المساجد والمدارس. ينظر: سحنون، الثغر الجماني، ص- ص: 126- 133؛ الزهار، مذكرات الزهار، ص: 63؛ الزياني، دليل الحيران، ص- ص: 199- 204.

كان من ملازمي بلاط الباي محمد الكبير، تولى وظيفة الكتابة لديه (1193-1211هـ /1779- 1796م)[3]، وكانت صلته بهذا الباي سببا في إقباله على التأليف والنسخ، إذ كان الباي محمد الكبير يأمر بنسخ الكتب النادرة ويكافئ عليها، فمنح ابن سحنون مائة سلطاني (دينار ذهبا) بعد تلخيصه لكتاب "الأغاني"، وخمسون دينار ذهبا على جمعه لكتاب طب القاموس. ومن مؤلفات ابن سحنون أيضا عقود المحاسن، وشرح العقيقة[4]، إلا أنّ أهم وأشهر مؤلفاته هو "الثغر الجُماني في ابتسام الثغر الوهراني"، الذي خصصه للفتح الثاني لوهران وتعرض فيه لإنجازات محمد الكبير باي وهران ومآثره[5].

يقوم كتاب "الثغر الجماني" على شرح أرجوزة وضعها ابن سحنون في الفتح الثاني لوهران، يدور موضوعها حول الإشادة بفاتحها محمد الكبير، وأتمها مع فتح وهران مع شرحها الثغر الجماني، في شهر رمضان من سنة 1207هـ/1792م، ونال بهذه الأرجوزة تقدير وتقريظ علماء عصره. توفى أحمد بن سحنون بعد عام 1211هـ/ 1796م[6].

(رابعا)- أسرة أولاد السيد اعمر بن دوبـــــــة:

أولاد السيد اعمر بن دوبة أسرة علمية من أشراف غريس وأعيان مرابطيه، وهم ينتمون إلى الأشراف السباعين[7]، ولهذه القبيلة تشابه بأولاد سيدي دحو في العلم والرياسة والاشتهار، وبينهما مخالطة وصهر قديم، ولهم معهم اشتراك في التنافس في طلب العلم والافتخار به، وحب الرياسة، وتولية الفصل بين الخصوم، وكانت الرياسة فيهم قديما

---

[1]- ابن عبد الله محمد الموفق بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد، تعلم على شيوخ بلده، ثم على شيوخ فاس والحجاز. لـه رسـالة قيِّمة رد فيها على أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية. ينظر: ابن سحنون، المصدر السابق، ص، ص: 63، 228.

[2]- أحمد ابن سحنون، المصدر نفسه، ص- ص: 229 -231.

[3]- سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ص- ص: 439 -441.

[4]- ابن سحنون، المصدر السابق، ص: 146؛ سعيدوني، المرجع السابق، ص- ص: 439 -441.

[5]- بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 248.

[6]- سعيدوني، المرجع السابق، ص: 440.

[7]- للأشراف السباعيين صيت بالمغرب الأقصى، ومقرهم قريب من سوس. ينظر: الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 330.

وحديثا في بيت أولاد ابن دوخة، وفي بيت سيدي البشير، وأولاد سيدي محمود، وفيهم الآن الفضلاء والعلماء[1].

ويبدو أن علماء هذا البيت لم يكونوا من مشاهير العلماء، حتى أننا لا نجد لهم تراجم في كتب تلك الفترة على قلتها، ولهذا فلم نتمكن من معرفة إلا اثنان من علماء هذا البيت أحدهما هو **الشيخ عمرو بن دوبة** دفين غريس، وهو من علماء أواخر القرن الحادي عشر (17م)[2]، والثاني هو أحد أعقابه وهو **الشيخ محمد ابن آمنة** خال الأمير عبد القادر.

(1)– الشيخ محمد ابن آمنة:

هو محمد بن عبد القادر الشهير بابن آمنة بن دوخة، أورد اسمه في آخر منظومته :" محمد بن آمنة بن دوبة بن عبد القادر"، بينما أشير إليه في " تحفة الزائر":" السيد محمد بن عبد القادر الشهير بابن آمنة خال الأمير" [3]. ويعرف بالأزهري لدراسته بالأزهر[4]، ولما تطرق صاحب "القول الأعم" لبيت ابن دوبة قال:" ومن علمائهم المشهورين بين العلم والولاية سيدي بن يامنة ابن دوخة خال ابن عمنا الأمير عبد القادر أيده الله، فإنه كان سبويه زمانه وأصبحي عصره وأوانه"[5]. والشيخ ابن آمنة وهو الذي حرر صك البيعة الأولى للأمير عبد القادر[6]. ثم تولى وظيفة كتابة الإمارة في دولته، من أهم آثاره قصائد في مدح النبي –ﷺ–[7].

(خامسا)– أســـــــــرة أبو راس الناصري:

(1) – المآثر العلمية لأسرة الناصري كما ذكرها أبو راس في "فتح الإله":

---

[1]– الطيب بن المختار، المصدر نفسه، ص، ص: 330، 331.

[2]– أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 43.

[3]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 43.

[4]– وقد أجازه علماؤه سنة 1278هـ. ينظر: حمدادو، المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب، ص: 249.

[5]– الطيب بن المختار، المصدر السابق، ص: 331.

[6]– أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص: 43.

[7]– حمدادو، المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب، ص: 249.

لم تترجم المصادر لأفراد هذه الأسرة غير أنّ أبا راس عرف أسلافه في كتابه "فتح الاله" مبتدئا بوالده أحمد إلى أن ذكر أجداده الأقدمون، ولا شك في أن أسرته لم تخل من رجال العلم، ولكن رجالها لم يكونوا من كبار العلماء المدرسين أو المؤلفين، ويُلاحظ جليا سعي الشيخ محمد أبو راس لإبراز مآثر أسلافه العلمية، غير أن المبالغة بادية عليه. كما أنه يورد كرامات أسلافه دون أن يناقشها، بل يضيف لها ما يدعمها، وهو الذي انسحب من القراءة لدى الشيخ أبو طالب المازوني وأنكر عليه ما يدعيه من إشارات غيب، فهذه ميزة كتابة الخاصة بالسيرة الذاتية، إذ توفر للباحثين مادة علمية هامة، إلا أنها لا تخلو من الذاتية.

ويعرف أفراد هذه الأسرة بالناصري نسبة إلى الشيخ الناصر بن علي، وهي أسرة شريفة النسب، وقد أورد أبو راس نسبه في "فتح الاله" بقوله:" محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل"، وهذا النسب متصل بعمرو بن إدريس إلى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله-ﷺ"[1]. وقد شهد لصاحب "فتح الاله" بالنسب الشريف اثنان من كبار، وهما الشيخان: المصطفى بن المختار، عبد القادر بن السنوسي"، " فقد قالا ذلك باللسان وكتبا رضي الله عنهما شهادتهما بالبنان "[2]. وعلماء هذه الأسرة استنادا إلى كتاب "فتح الإله" هم:

- **الشيخ عبد العظيم**: وصفه أبو راس ب" العالم العارف... إمام زمانه وقطب أوانه... شيخ الطريقة ولي الله سيدي عبد العظيم"، " حبست عليه بلاد عظيمة جنت عليها أيدي الجور" [3].

- وحفيده **السيد الناصر بن علي بن عبد العظيم**: وصفه أبو راس ب:" الشيخ الإمام السيد الهمام... العالم الولي الكبير القطب " الجامع بين شرف العلم والنسب "[1]. يعتبر

[1] - أبو راس الناصر، فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، ص: 25.

[2] - أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص، ص: 29، 30.

[3] - أبو راس الناصر، فتح الاله ومنته، ص: 29.

السيد الناصر مؤسس هذه الأسرة، وذلك ما عبر عنه أبي راس بقوله:" فهو الرافع لمجادتنا، وواسطة عقد قلادتنا، ومنوه ذكرنا، وعماد فكرنا، وجامع شملنا، وباني قواعد عزنا المؤسس ". وهو "أول من ميَّز المصلى التي في بلادنا غربي" وحوزها بأحجار كبار، لتدريس العلم ولصلاة العيد... وهي في حجر عرعارة، طويلة غليظة مستقيمة من أدواح الشجر العظيمة ". وقد كان الناس في المناطق الريفية يلجؤون إلى مثل هذه الطرق لغياب المدارس.

وكانت لهم " بها مدرسة لقراءة العلم، أثرها باق إلى الآن"، أي إلى الربع الأول من القرن 19م، إلى أن يقول:" وقد سمعت من تواتر الثقات أن لنا بها في الماضي سبعة مجالس، وأول من أنشأ ذلك جدنا هذا، وهو القطب الظاهر... شيخ الطريقة السيد الناصر" [2].

كما وصف أبو راس ابنه **الشيخ أحمد بن الناصر** ب" العالم المشهور الذي طار صيته في أقطار المعمور"[3]، أما ابنه **الشيخ محمد بن أحمد**: هو جد والد أبا راس، فكان " يضرب به المثل في معرفة الفقه والفتوى لا سيما علم الفرائض".

ووصف صاحب "فتح الإله" جده ووالده بما يدل على أنهما من رجال العلم، فوصف جده **عبد القادر بن محمد** بأنه " كان أعجوبة الزمان في الولاية والصلاح والفضل الفضيل، كاد أن يكون كابن عياض الفضيل، وكان مذهبه في رسم القرآن على طريقة المشارقة"، كما أبو راس بأن والده **أحمد بن عبد القادر** كان " من القراء الماهرين والأساتذة المشهورين، ومن أهل الحزم في القرآن والجد "[4]. وأبرز علماء هذه الأسرة على الإطلاق هو الشيخ أبو راس، ولولاه لما عرفت هذه الأسرة.

(2)- الشيخ محمد أبو رأس الناصري (ت 1238هـ/ 1823م):

---

[1]- أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 26.

[2]- أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 27.

[3]- أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 26.

[4]- أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته، ص: 25.

ولد محمد بن أحمد بن عبد القادر سنة 1165ه/1751م[1]، وهو من كبار العلماء في عصره، ولهذا وصفه المزاري ب:" مجدد القرن الثالث عشر" [2]، درس أبو راس على عدد من المشايخ بمعسكر، ومازونة، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر المشرفي، ومما زاد في تحصيله العلمي قيامه بعدة رحلات داخل الجزائر وخارجها، بحيث زار مدينة الجزائر[3]، والتقى بشيوخها، وتذاكر معهم. وانتقل إلى العديد من البلدان بالمشرق[4] والمغرب، واتصل بعلمائها كفاس، وتونس ومصر والشام وفلسطين[5]. كما كان الشيخ أبو راس يحضر بعض المجالس التي تعقد بحضرة محمد باي بن عثمان بوهران [6].

ولي الشيخ أبو راس المناصب الدينية العليا: الفتوى، القضاء، والخطابة[7]، وتصدى للتدريس فازدحم الطلبة على حلقته، ولذلك صنع له الباي كرسيا، إلا أن وظائفه لم تشغله عن التأليف، بحيث عرف بكثرة تآليفه، التي تشمل علوم مختلفة: التفسير، القراءات، الحديث، الفقه، النحو، العقائد، الأصول، التاريخ[8]، منها: زهرة الشماريخ في علم التاريخ، درء الشقاوة في حروب درقاوة، زهرة الشماريخ في علم التاريخ، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، وعدة شروح على قصيدته "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلس"،

---

[1]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 321.

[2]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 351.

[3]- زار مدينة الجزائر أكثر من مرة إحداها قبل 1205ه، وأخرى سنة 1214ه. ومن العلماء الذين لقيهم بها: محمد بن جعدون، محمد بن مالك، علي بن الأمين، وأحمد بن عمار، محمد بن الحفاف، محمد بن الشاهد، علي بن الأمين. ينظر: أبو راس الناصر، فتح الاله، ص: 91- 96، 159- 163.

[4] - حج أبو راس مرتين على الأقل: إحداها سنة 1204ه، وأخرى سنة 1226. أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص:18، 76، 118.

[5]- G.Faure- biguet," Notice sur le Cheikh Mohammed Abou Ras". Journal Asiatique, (Septembre - Octobre), 1899, Série 9, Tome14.Paris:Imprimeri national, p p : 304- 321.

[6]- أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص، ص:100، 101.

[7]- أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 24.

[8]- خصص الباب الخامس من فتح الإله لذكر مؤلفاته وسماه ب" العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز".

وشرح العقد النفيس في ذكر الأعيان من أولياء غريس، لب أفياخي في معرفة أشياخي[1]، وغيرها.

توفي الشيخ محمد أبو راس في شهر شعبان 1238ه/أفريل1823م، ودفن بعقبة بابا علي بمعسكر[2].

– المبحث الرابع: البيوتات العلمية بمدينة تلمسان:

كان عدد البيوتات العلمية بمدينة تلمسان كبير جدا في ظل الزيانيين إلا أن أغلبها بدأت في الاختفاء منذ نهاية العصر الوسيط، حتى تلاشت خلال العهد العثماني بيوتات كانت مشهورة جدا كبيت المرازقة وبيت أولاد الإمام.

فبيت المرازقة هو من البيوتات التي كان لها حضور علمي وسياسي كبيرين بتلمسان، ولهذا وصفهم ابن مريم بقوله:" وهم أهل صلاح، وعلم ودين ووجاهة"[3]. وعدد علماءه في صدد ترجمته لابن مرزوق الخطيب قائلا:" وبيته بيت علم وولاية، وصلاح، كعمه وأبيه وجده، وجد أبيه، وكولديه محمد وأحمد وحفيد حفيده المعروف بالخطيب، وهو آخرهم فيما أعلم"[4].

وتذكر المصادر ثمانية من علماء هذا البيت أولهم هو: الشيخ محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت681ه/1282م) الذي كانت له حظوة كبيرة عند الأمير يغمراسن بن زيان[5]. وأشهرهم هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد، المعروف ابن مرزوق الخطيب وبالجد[6]

---

[1] – أبو راس الناصر، فتح الاله، ص، ص: 180، 181.

[2] – المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 351؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 331.

[3] – ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية. سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع. (ط1)، 2011. ص: 360.

[4] – ابن مريم، المصدر نفسه، ص: 316.

[5] – أبو عبد الله محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص:149 ، ص:167 ؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 360.

[6] – نجد ترجمته مصادر كثيرة منها: ابن مريم، البستان، ص– ص: 306– 316 ؛ نيل الابتهاج، ص– ص: 450– 455؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص: 110؛ ابن قنفد، الوفيات، ص: 374 .

(ت781هـ/ 1379م)، الذي انتقل بين حواضر الغرب الإسلامي وتولى بها وظائف الخطابة والتدريس، ودخل في خدمة السلطان أبي الحسن المريني بفاس، الذي ولاه الخطابة بمسجد العباد بتلمسان، كما كان يستعمله في سفارته إلى الأندلس[1]، وخاتمة تجواله مصر، الذي أنزله ملكها الأشرف منزلة رفيعة، وعينه خطيبا وقاضيا ومدرسا بأكبر مدارس القاهرة[2].

ويشير ابن مرزوق الخطيب إلى المكانة التي تمتع بها بقوله:" وبعد فإني لما ابتليت... بهذا الظهور الدنيوي الذي لم يصل إلى نوعه من عاصرني من صنفي من الرجال، حتى لقد ارتقيت خمسين منبرا من حواضر الإسلام..." [3]. وقد خلف العديد من المؤلفات منها:" المناقب المرزوقية"[4]، التي ألفها في سيرة سلفه.

أما بيت أولاد الإمام فعرف بهذا الاسم نسبة لابني الإمام: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت743ه/1342م)[5]، وأخاه أبو موسى عيسى بن محمد بن عبد الله بن الإمام (ت749ه/1348م)[6]. عُرف والدهما محمد بن عبد الله بالإمام لأنه كان إماما للصلاة بأحد مساجد برشك القريبة من تنس، كما كان جدهما إماما بنفس البلدة. لكن ولديه اضطرا للخروج من بلدتهما والاستقرار بتلمسان، فقربهم السلاطين المتوالين على حكمها، كالسلطان أبي حمو موسى الأول تلمسان الذي بنى لهما سنة 710ه/1310م مدرسة، عرفت باسمهما مدرسة أولاد الإمام، كما بنى لكل واحد منهما منزلا، وخصهما بالفتوى والشورى [7].

---

[1]- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص:304؛ رحلة ابن خلدون، ص: 94.

[2]- ابن خلدون، المصدر نفسه، ص: 98.

[3]- ابن مرزوق، المصدر السابق، ص:140.

[4]- ألفه سنة 763ه، وهي الفترة التي كان فيها بالسجن. ينظر: ابن مرزوق، المصدر نفسه، ص:311.

[5]- ابن مريم، البستان، ص – ص: 222- 229؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص- ص: 245- 248.

[6]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص: 78؛ التنبكتي، المصدر نفسه، ص – ص: 291- 297.

[7]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ص: 90؛ عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني. ج2، ص: 321، 322.

وبعد وفاة ابني الإمام احتفظ أبناؤهم بمكانتهم تلك، وفي ذلك يقول ابن خلدون:" وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة، مُتَوَقِّلين قُللها طَبَقا عن طَبَق إلى هذا العهد "[1]. ونسب لهذا البيت عدد من العلماء عاش أحدهم خلال القرن 10ه/ 16م، وهو أبو العباس أحمد بن أبي الفضل [2].

وهناك بيوتات علمية نشأت خلال العهد الزياني، وظلت قائمة خلال العهد العثماني، ولكن لم يكن لأبنائها حضور علمي وسياسي قوي كالذي عرفت به في ظل الزيانيين.

(أولا): البيـــــت المقَّــري بتلمسان:

(أ)– نسبه ومكانته في ظل الزيانيين:

بيت المقري من البيوتات العريقة بتلمسان، يُعرف هذا البيت ببيت المقري نسبة إلى جدهم الأكبر علي القرشي المقري، نسبة إلى بلدة مقَّرة، قرية من قرى الزاب[3]، ورد اسمها على روايتين الأولى بفتح الميم وتشديد القاف " مَقَّرة"[4]، وهي الرواية التي وردت عند الأغلبية، أما الرواية الثانية فتضبط البلدة بفتح الميم وسكون القاف، وهي رواية الأقلية[5].

أمَّا نســـــب هذا البيت فتكاد تجمع المصادر على أنه عربي النسب من قبيلة قريش، وذلك ما أورده أحمد المقري في سياق ترجمته لجده محمد المقري الشهير بقوله:" وممن صرح بالقرشية في حق الجد المذكور ابن خلدون في تاريخه، وابن الأحمر في نثير الجمان... والشيخ ابن غازي..."[6].

---

[1]– عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص: 78.

[2]– التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 248.

[3]– أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس. بيروت: دار صادر. ج 5، ص: 203.

[4]– أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص: 420؛ ابن مريم المديوني، البستان، ص: 267.

[5]– المقري، المصدر السابق، ج 5، ص: 205.

[6]– المقري، المصدر نفسه، ج 5، ص: 204؛ وينظر أيضا: أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص:420.

انتقلت أسرة المقري من بلدة مَقَّـــــرة إلى تلمسان مع نهاية القرن السادس الهجري (القرن 12م)، وأول من انتقل جدهم عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري صحبة الشيخ أبي مدين[1] شعيب، وقد نقل من خط الشيخ أبي عبد الله محمد المقري ما يفيد بذلك :"وكان الذي اتخذها من سلفنا قرارا، بعد أن كانت لنا مزارا، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري صاحب الشيخ أبي مدين... وهو أبي الخامس"[2].

اشتهر بيت المقري في العهد الزياني بالعلم والتجارة، فأمَّا التجارة فقد أنشأ أبناء يحي بن عبد الرحمن المقري، وهم خمسة إخوة شركة تجارية بينهم، وكانت تقوم بالتجارة من تلمسان إلى سجلماسة، ومنها إلى ايوالاتن، وهي مملكة صغيرة ببلاد السودان، وذلك ما نُقل من خط الشيخ محمد المقري الجد:" وكان ولد يحي الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومـــــــتا نســـــــــبي من جميع جهات أمي وأبي بتلمسان، وعبد الرحمن شقيقيهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي، وهما شقيقاهم الصغيران بإيوالاتن فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط، والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الإيماء" [3].

وقد كوَّن أولئك الإخوة ثروة هائلة من تجارتهم، ولكن بعد وفاتهم ضاعت تجارتهم حتى لم يدرك منها الشيخ أبو عبد الله المقري الجد إلا أثر النعمة، وذلك ما ورد على لسانه بقوله:" ولَّـــا درج هؤلاء الأشياخ جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلاطين، ولم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن (القرن8هـــ)، فها أنا ذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فضوله

---

[1]- شعيب بن الحسين (أبو مدين) (ت 594هـــ/ 1198م): أندلسي الأصل، رحل إلى المشرق وتعرف بالشيخ عبد القادر الجيلاني، ولما عاد من الحج استوطن بجاية لأكثر من 15 عاما، وكان يدرس بها كتب التصوف، فانتشر بها مذهبه الصوفي. توفي وهو في طريقه إلى المغرب بالقرب من تلمسان ودفن بالعباد. من مؤلفاته: "أنس الوحيد ونزهة المريد". ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:169.

[2]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج5، ص، ص: 203، 204.

[3]- أحمد المقري، المصدر نفسه، ج5، ص: 205.

عيشا، وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، أسباب كثيرة تعين على الطلب"[1]. ونحن بدورنا نتساءل إن بقي أثر لهذه النعمة خلال العهد العثماني، وبالأخص خزانة الكتب.

(ب)- علماء بيت المقري في ظل الزيانيين:

(1)- الشيخ محمد بن محمد بن أحمد المقري (ت 759هـ/1359م):

كان الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن القرشي، الشهير بالمَقَّرِي الكبير من أبرز علماء عصره، ولهذا ألَّف أبو عبد الله بن مرزوق كتابا في التعريف به سماه " النور البدري في التعريف بالفقيه المقري"[2]. وقد انتصب الشيخ محمد المقري للتدريس بتلمسان، ولما التحق بخدمة السلطان المريني أبي عنان، ولاه قضاء الجماعة بفاس، ثم ولاه قضاء العساكر[3].

ونظرا لمكانة المقري لدى أبي عنان فقد كان يلقي الدروس بحضرته، وكلفه بسفارة إلى الأندلس، وظل في خدمته إلى أن توفي بفاس سنة 759هـ/1359م، مخلفا مصنفات في مختلف العلوم منها: كتاب القواعد، وكتاب الحقائق والرقائق في التصوف[4].

(2)- أبو الحسن علي المقري (القرن 8ه):

هو ابن عم المترجم له قبله، كان قاضيا عندما ألف يحي بن خلدون كتابه البغية سنة 777هـ/ 1375م، فخصه بترجمة بعد ابن عمه بقوله:" ابن عمه الفقيه القاضي أبو الحسن علي من أهل العلم والدين، قاضي تلمسان الآن، خيِّر فاضل... متحر الصواب في أحكامه"[5].

---

[1]- أحمد المقري، المصدر نفسه، ج5، ص: 205.

[2]- المقري، نفح الطيب، ج 5، ص: 204؛ عبد الكبير الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح: علي بن المنتصر الكتاني. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، (ط1)، 2002.ص، ص: 202، 203.

[3]- التنبكتي، نيل الابتهاج، ص - ص: 420- 423.

[4]- ابن مريم، البستان، ص: 280؛ ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص: 103.

[5]- يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص: 58.

(ج)– علماء بيت المقري في ظل العثمانيين:

أنجبت عددا من العلماء خلال العهد العثماني استطعنا أن نعرف بعضهم:

(1)– سعيد بن أحمد المقري (ت 1025هـ/1616م):

ولد الشيخ العلامة سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري سنة 928ه/ 1522م[1]، وهو حفيد حفيدة "سيدي" محمد بن مرزوق أبو لحيتين[2]، نشأ بتلمسان وتعلم على يد مشايخها[3]، وتصادف هذه الفترة من حياته في بداية الوجود العثماني في تلمسان، ولهذا وجد المدينة قد نضب معينها العلمي برحيل معظم علماءها إلى فاس وغيرها، فلم يقنع هو أيضا ببقايا العلم بها، فرحل إلى فاس ليكترع من مناهلها كما فعل معاصريه[4]. ودرس بها على أجلة علماءها منهم الشيخ عبد الواحد الونشريسي، وعلي بن هارون، وعبد الوهاب بن محمد الزقاق التجيبي[5].

رجع الشيخ سعيد المقري إلى تلمسان، وتشبث بالبقاء بها رغم الظروف التي عرفتها، غير ملتفت لرأي ابن خالته الشيخ محمد بن محمد بن عيسى البطوئي التلمساني نزيل المدينة المنورة، الذي كان يكتب إليه، ويقول له في كتـــابه:" ارْمِ تلمسان قبل أن ترميك" [6]. تمتع بها بمكانة متميزة، استمد ذلك من علمه وعراقة بيته في المدينة، وعبر أحمد بن القاضي تلك المكانة بقوله:" انتهت إليه رياسة بلده تلمسان"[7].

---

[1] – يذكر ابن مريم (البستان، ص:195) أنه سمع منه هو شخصيا تاريخ ولادته، إلا أن بعضهم يذهب إلى أنه ولد سنة 930ه.

[2] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:154.

[3] – من مشايخه التلمسانيين: محمد أبو السادات المديوني، و الشيخ علي بن يحي السلكيني. ينظر: ابن مريم، البستان، ص:195.

[4] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1ج، ص، ص: 376، 377.

[5] – الأفراني، صفوة من انتشر، ص: 101؛ القادري، نشر المثاني، ج1، ص: 131.

[6] – ابن مريم، المصدر السابق، ص:420.

[7] – أحمد بن القاضي، جدوة الاقتباس في ذكر من حـــل من الأعلام بمدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقـــة، 1973. ج1، ص: 323؛ ج2، ص: 520.

تولى سعيد المقري الفتوى بتلمسان لمدة ستين سنة حسب الأفراني[1]، والخطابة بجامعها الأعظم لمدة خمس وأربعين سنة حسب ابن مريم[2]، إلا أننا نعلم أن المفتي كانت تجمع له عدة وظائف في الجامع الأعظم ومنها الخطابة، ووكالة أوقاف الجامع. ولا شك في أن القيمة العلمية والاجتماعية التي يحظى بها سعيد المقري هي التي رشحته لتولي هذه الوظيفة المهمة[3].

ورغم أهمية وظيفة الإفتاء التي كان يتولاها إلا أن شهرته الحقيقة اكتسبها من تصديه للتدريس بالجامع الكبير لثقافة موسوعية، إذ كان مُلمًا بجميع العلوم المتداولة وغير المتداولة في عصره، ويصفه ابن مريم بقوله:" له باع في فن حديث البخاري وغيره، وكان علامة في التوحيد والفقه... أتقن كل علم، حافظا للغة العربية والشعر والأمثال". كما كان – حسب ابن مريم– :" إماما في العلوم العقلية كلها: حسابا ومنطقا وفرائض وهندسة، وطبا وتشريحا ..."[4]. ويحق لنا أن نتساءل عن علاقته بعلم الطب والجراحة وغيرها من العلوم العقلية فهل كان يمارس مهنة الطب والجراحة؟ أو أنه كان يدرسهما نظريا؟ ذلك ما لا تجيب عليه مصادرنا.

وعرف عن سعيد المقري أنه كان من العلماء المعقولين رغم لباسه للخرقة الصوفية وتدريسه علم التصوف، الذي كان شعار العلماء والمرابطين على السواء، كما أنه لم يكن بالرجل المتواري عن الناس بل كان عالما مشاركا في الحياة العامة، ولعله كان يمارس التجارة أيضا بطريقة غير مباشرة كما كان يفعل بعض العلماء في وقته[5].

تخرج على يدي الشيخ سعيد المقري جيل من العلماء من تلمسان ومن خارجها، واشتهر عدد منهم لتوليهم المناصب الرفيعة والتأليف كابن أخيه أحمد المقري، وسعيد بن

---

[1]– الأفراني، المصدر السابق، ص: 101.

[2] – ابن مريم، المصدر السابق، ص: 195.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 377.

[4] – ابن مريم ، البستان، ص: 196.

[5] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص، ص: 377، 378.

إبراهيم قدورة [1]، وعيسى البطيوي صاحب كتاب "مطلب الفوز والفلاح"[2]. ويبدو أنَّ تصديه للفتوى والتدريس شَغَلَه عن التأليف، فلم تُعرف لسعيد المقري تآليفولو مختصرا[3].

وهناك اختلاف بين الرواة في تاريخ وفاته، بحيث يذهب الإفراني أنه توفي سنة 1010ه/ 1601م[4]، في حين يذهب ابن مريم إلى أنه " كان حيا سنة إحدى عشر وألف" (1011/ 1602م) [5]، بينما يذكر تلميذه سعيد قدورة في أوراقه له أنه توفي بعد الشيخ المطماطي ببضع سنوات، وقد توفي المطماطي سنة 1019ه/1610م، فيكون سعيد المقري قد توفي حوالي سنة 1025هـ/ 1616م[6].

(2)- الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المقري (ت1041ه/1631م):

ولد أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش المقري بتلمسان سنة 986ه/1578م، وأخذ على مشايخها وفي مقدمتهم عمه سعيد المقري- المترجم له قبله- بحيث لازمه مدة طويلة، وأخذ عنه أغلب العلوم، وقد تحدث هذا الأخير عن دراسته بتلمسان بقوله:" قطعنا نبذة من الشباب في موطن الأحباب، ما بين دراسة ودراية ورواية ... ومثول بين أيدي أشياخ مجالستهم نامية الغروس، وخصوصا شيخهم... عمنا مفتيها سيدي سعيد بن أحمد المقري ... فهو شيخ أولئك الأعلام الذين ورثوا العلم عن غير كلالة"[7].

---

[1] – الأفراني، صفوة من انتشر، ص: 101.

[2] – في هذا الكتاب إشارات لسعيد المقري. ينظر: عيسى بن محمد البطوئي، مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح، تح: حسن الفكيكي. الرباط: مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث. سنة: 2000. ص، ص: 132، 151.

[3] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، 1ج، ص: 378.

[4] – محمد بن الحاج الأفراني، صفوة من انتشر، ص: 102.

[5] – ابن مريم، البستان، ص: 196.

[6] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 378، ها: 2.

[7] – أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، المغرب الأقصى والإمارات العربية المتحدة: أعيد طبعه تحت إشراف اللجنة المشتركة لإحياء التراث، 1978. ج1، ص: 10.

وفي هذه الفترة كانت تلمسان قد فقدت أهميتها السياسية والعلمية، وأخذ الكثير من علمائها وأعيانها، وأسرها يهاجرون إلى المغرب الأقصى خاصة إلى فاس[1]. في الوقت الذي كان فيه المغرب يعيش في هدوء واستقرار، إذ تعد فترة حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي (1578-1603م) أزهى الفترات في تاريخ الدولة السعدية في كل المجالات، ولهذا رحل الشيخ أحمد المقري إلى المغرب الأقصى مرتين، استمرت الأولى أكثر من سنة ونصف خلال سنتي: 1009[2]- 1010ه الموافق ل:1600- 1602م، انتقل فيها بين مدينتي فاس ومراكش، فكان يحضر حلقات الدروس، ويناقش العلماء في المسائل الفقهية، كما اتصل بالسلطان أحمد المنصور في مراكش، حيث البلاط غاصًا بالعلماء والأدباء[3]. وخلَّد المقري هذه الرحلة بكتاب سماه " روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"؛ عدّ فيه حوالي أربعة وثلاثين عالما من علماء المغرب؛ الذين اتصل بهم ولقيهم بمراكش وفاس، وأخذ عنهم[4].

عاد أحمد المقري ثانية إلى المغرب الأقصى سنة 1013هـ/1604م، ومكث به هذه المرة أربعة عشر عاما، انتهت بتوجهه إلى المشرق في سنة 1027هـ/ 1617م[5]. استقر المقري بفاس مُعَّمِرا وقته بالتأليف والتدريس، حيث ألفى في ظل السلطان أبي المعالي زيدان مكتبة حافلة بالمخطوطات في شتى الفنون[6]. وفي سنة 1022هـ/ 1613م

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور، في تقديمه لروضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس لأحمد المقري، تح: عبد الوهاب بن منصور . الرباط: المطبعة الملكية، (ط2)، 1983. ص:ط.

[2]- محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.(د.ت). ج1، ص: 303.

[3] - محمد بن عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، ص- ص: 143- 154.

[4] - استجاز خمسة من أعلام المغرب فأجازوه منهم أحمد بن القاضي، ونزيل مراكش الشيخ أحمد بن أبي القاسم التادلي صاحب زاوية الصومعة بتادلا، أحمد بابا التنبكتي (ت 1032هـ) صاحب نيل الابتهاج، وأبو عبد الله محمد بن قاسم القصار (ت 1012هـ). ينظر: روضة الآس، مواضع متفرقة؛ فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص: 183 وما بعدها.

[5]- المحبي، المصدر السابق، ج1، ص: 303.

[6] - أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، ص: 4.

أسندت إليه وظيفة الإفتاء، والخطابة، والإمامة بجامع القرويين، فظل متوليا لها أزيد من خمس سنوات، إلى أن خرج منها متوجها إلى المشرق[1].

تصدى الشيخ أحمد المقري للتدريس بالمغرب، فتخرج عليه عدد من أعلام المغرب، كما أن علاقاته مع علماء الجزائر لم تنقطع برحلته عن تلمسان، إذ كان وهو في فاس يتبادل الرسائل مع بعض علماء الجزائر منهم عبد الرحمن بن علي المجاجي آبهلول[2]، وأثناء رحلته إلى المشرق سنة 1027هـ/1618م نزل بمدينة الجزائر، وألقى بها دروسا في التفسير، وأحاطه علماؤها وأدباؤها بالتقدير والاحترام، وتبادل معهم الألغاز والأشعار، وظل يتبادل الرسائل مع بعضهم وهو في المشرق كالشيخ سعيد قدورة، والشيخ عبد الكريم الفكون[3].

لقد كان أحمد المقري من " العلماء الجهابذة الأعيان بتلمسان"[4]، ولهذا فإن هجرته منها، وهو سليل أحد أبرز البيوتات العريقة بتلمسان ضربة قاسية أخرى تلقتها هذه المدينة تضاف إلى ضروب المحن التي تعرضت لها.

تمتع أحمد المقري بمكانة مرموقة بالمغرب الأقصى، لكنه اضطر إلى مغادرته إلى المشرق لَّما اضطربت أحواله إثر تطاحن أبناء السلطان أحمد المنصور على العرش. واستقر المقري بمصر و"حصلت له بها شهرة تامة، وتزوج من السادات الوفائيين أعظم بيوتات مصر بعد البكريين، وذلك نهاية الشرف عندهم"[5]، وظلَّ يتردد منها إلى الحرمين الشريفين، فحج خمس مرات، وزار المدينة المنورة سبع مرات، أمَّا بيت المقدس فسافر إليه ثلاث مرات،

---

[1] – أحمد المقري، نفح الطيب، ج7، ص: 135؛ الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 143.

[2] – المقري، الرحلة، ص، ص: 72، 73، و 213.

[3] – الفكون، منشور الهداية، ص: 224.

[4] – عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ج2. ص: 204.

[5] – الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 144.

ودمشق مرتين[1]، وعند عزمه على العودة إلى المدينة الأخيرة والاستقرار بها في المرة الثالثة وافاه الأجل سنة 1041هـ/1631م[2].

عاش المقري بالمشرق حياة حافلة بالنشاط العلمي، حيث تفرغ هناك للتأليف والتدريس، فعقد دروسا بكل مكان كان يحل به، فهرع إليه الأعيان والعلماء، وجلسوا للسماع والقراءة عليه، وانتشرت إجازاته بين المشارقة[3]. والحاصل أنّ التكريم الذي حظي به هناك لا يقِّل عن ذاك الذي أحاطه به المغاربة، حتى تساوى في المنزلة مع أعلام المشرق، وهو ما ورد في قصيدة رثاه بها الشيخ المصطفى بن محب الدين الدمشقي، وساواه فيها بعلامة مصر الشهير الشيخ إبراهيم اللَّقاني المتوفى معه في السنة نفسها، منها هذا البيت[4]:

مَضَى المَقري اثرَ اللاني لاحقا إمامان ما للدهر بعدهما خلف

عرفت حياة المقري بمصر في سنواته الأخيرة من عمره تكدرا، مع ذلك لم يقرر العودة إلى تلمسان. أمَّا سبب ذلك فهو حسب الإفراني فهو طلاقه لزوجته الوفائية:" ثم طلق الزوجة لأمر اقتضى ذلك، فغضب لذلك أهلها، وامتعض لهم أهل مصر، وصرموا حباله، فكتب صاحب الترجمة لطلبة فاس يخبرهم بذلك، وهو يقول ولما طلقتها لم يبق في مصر أحد يسلم عليّ إلا رجل حداد" [5]. عبر المقري عن حالته بمصر نظما أيضا في قوله[6]:

تركت رسوم عزي في بلادي وصرت بمصر منـــــسي الرسوم

ورضت النفس في حال اغترابي على ذل الخمول وقلت لها صومي

يعد الشيخ أحمد المقري من بين العلماء الجزائريين الأكثر تآليفا، إذ ترك مؤلفات في فنون مختلفة، فقد" كان ولوعا بالتاريخ"[7]، ولهذا ألف:" أزهار الرياض في أخبار القاضي

---

[1] – ذلك ما ذكره المقري في رسالته لمحمد بن أبي بكر الدلائي سنة 1041ه. ينظر: القادري، نشر المثاني، ج1،ص: 299.

[2] – المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص: 311.

[3] – حول إجازاته بالمشرق ينظر: المقري، نفح الطيب، ج2، ص– ص: 425– 432؛ الرحلة، ص، ص: 163– 169.

[4] – المحبي، خلاصة الأثر، ج1، ص: 9.

[5]– الإفراني، صفوة من انتشر. ص: 144.

[6]– أحمد المقري، رحلة المقري، ص: 78.

[7]– عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ج2. ص: 204.

عياض"، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"، كما ألف في التوحيد والحديث الشريف وغيرها من الفنون. ومن مؤلفاته بالإضافة إلى ما ذكر: "فتح المتعال في مدح النعال"، أرجوزته في العقائد مسماة " إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة" وغيرها[1]. توفي المقري في سنة 1041ه/ 1631م، ودفن بالمجاورين قريبا من الأزهر[2].

(3)– الشيخ محمد بن محمد شقرون المقري (ت1087ه/1676م):

لم يحظ الشيخ محمد المقري بترجمة خاصة في كتب التراجم المتداولة إلا أنَّ تلميذه الشيخ مصطفى بن رمضان العنابي البوني الحنفي خلد أسانيده في ثبته، وأثنى عليه بقوله:" العالم العلامة، والبحر الفهامة، خاتمة المحققين، وإمام أئمة المسلمين، وسيد دهره، وفريد عصره أبي عبد الله سيدي محمد بن محمد شقرون بن أحمد المقري التلمساني"[3].

كان الشيخ أبو عبد الله محمد شقرون المقري مقيما بمدينة الجزائر، وصلة القرابة التي تربطه ببيت المقري التلمساني ثابتة من خلال هذا النص الوارد في "ثبت ابن العنابي":" ومن علو سنده أيضا ما حدثني به عن أبيه عن عمه سيدي سعيد المقري" [4]. وفيه إشارة إلى أن والده السيد أحمد كان من حملة العلم أيضا.

ويبدو أنه كان مقيما بمدينة الجزائر قبل سنة 1075هـ/1664م، بحيث أجاز تلميذه مصطفى ابن العنابي سنة 1087هـ/1676م، بعد أن لازمه اثنتا عشرة سنة، إلا أننا لا ندر إن كان مولودا بمدينة الجزائر أو وافدا عليها[5]. والمعلوم أن مدينة الجزائر كانت تعيش ازدهارا اقتصاديا كبيرا في القرن الحادي عشر الهجري نتيجة انتعاش عمليات الغزو البحري،

---

[1]– المحبي، المصدر السابق، ج1، ص: 302.

[2]– القادري، نشر المثاني، ج1، ص: 294؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص، ص:112، 113.

[3] – مصطفى بن العنابي، « ثبت مصطفى ابن العنابي» مخ، ص: 1.

[4] – مصطفى بن العنابي، المصدر نفسه، ص، ص:3، 4.

[5]– نزل الشيخ أحمد المقري بمدينة الجزائر أثناء توجهه إلى المشرق سنة 1027ه، ولكنه لم يشر إلى أسرة المقري.

كما عرفت الحركة الفكرية بها تطورا ملحوظا، وهذه العوامل كافية لتجعلها وجهة للتجار والعلماء والطموحين بل وحتى العمال البسطاء.

تصدى الشيخ محمد المقري للتدريس فكان من المدرسين البارزين في عصره، ومن أشهر تلامذته الشيخ الكمّاد القسنطيني[1]، والشيخ مصطفى بن رمضان العنابي الحنفي، الذي لازمته " مدة مديدة تزيد على اثني عشر سنة"[2]، وحضر حلقاته في: جميع صحيح البخاري، وشمائل الترميذي[3]، والتوحيد، والمنطق، والأصول، وعلم التصوف، وغير ذلك[4].

كان ابن العنابي يفتخر بدراسته على الشيخ محمد المقري لعلو سنده، مما يجعله يكرر ذلك في عدة مواضع في ثبته من ذلك قوله:" سند عالي غاية العلو قلَّ أن يوجد نظيره في زماننا... وهو آخر القرن الحادي عشر سنة سبعة وثمانين وألف".

وقال في موضع آخر:" ومن علو سنده أيضا ما حدثني به عن أبيه، عن عمه سيدي سعيد المقري..." وقال:" [حدثني] أيضا عن العالم العلامة سيدي سعيد بن إبراهيم قدورة مفتي الجزائر، عن شيخه العلامة سيدي سعيد المقري، عن شيخه أبي عبد الله محمد بن جلال، عن الإمام التنسي صاحب " الدر والعقيان"، عن الإمام العلامة الميورقي، عن التلمساني الذي اختطفته الجن ... قلت: وهذا أيضا سند عال قلّ أن يوجد نظيره في زماننا، إذ بيني وبينه -ﷺ- ثمانية رجال"[5].

---

[1] – محمد القادري، نشر المثاني، ج3، ص: 155.

[2] – رغم المدة الطويلة التي قضاها في الدراسة عليه، إلا أنه لم يطلب منه الإجازة إلا في سنة 1087هـ بعد أن سمعه يذكر أهمية الإجازة في الرواية الأحاديث عن النبي-ﷺ-.ينظر: ابن العنابي، المصدر السابق، ص: 1.

[3] – الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى المعروف بالترميذي (297هـ): مؤلف الجامع الصحيح في الحديث أحد الكتب الستة. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4 ، ص: 278.

[4] – ابن العنابي، " ثبت مصطفى بن العنابي" مخ، ص: 1.

[5] – ابن العنابي، المصدر نفسه، ص، ص: 3، 4.

رحلة الشيخ محمد المقري إلى المشرق وتلقى عن مشايخه، وحصل على إجازاتهم بعضهم كالإمام أبي الحسن سيدي علي الأجهوري المالكي، والإمام إسماعيل بن ماضي بن يونس السنجيدي الشافعي، والإمام أبي بكر بن يوسف السجستاني ثم المراكشي المالكي[1].

ومن الوثائق التي نستند عليها للترجمة لهذه الشخصية عقد زواج ابنته رقية مع عبد الرحمن المرتضى سنة 1087هـ، ومن خلال هذا العقد تتبين المكانة الاجتماعية المرموقة التي حضي بهذا هذا العالم بمدينة الجزائر، كما يتبين أنه كان من أثرياء المدينة، وسوف نورد قسما من هذا العقد لأهميته:" فانتدب لهذا الداعي (يقصد النكاح)... الفقيه النبيه، الفاضل النزيه، أبو زيد السيد عبد الرحمن ابن المرحوم المنغمس في رحمة القيوم أبي العباس السيد أحمد الشريف المرتضى، فخطب في بيت مروءة لا تنكر، وحضرة حسب ونسب، وهي من نار على علم أظهر... الكريمة المصونة، الدرة المكنونة، رقية بنت الشيخ الإمام العلامة الهمام سليل العلماء الأعلام أبي

عبد الله السيد محمد المقري"[2].

أما وفاته، فتشير بعض الدراسات الحديثة إلى أنه توفي سنة 1084ه/1673م[3]، غير أن تلميذه ابن العنابي يؤكد أن وفاته كانت سنة 1087ه/ 1676م بقوله:" وكانت وفاته – رحمه الله– ليلة الثلاثاء، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر في مقام الولي الصالح سيدي عمر التنسي خارج باب الوادي من الجزائر المحروسة في التاسع من ذي القعدة عام سبعة وثمانين وألف"[4]. ويؤكد ذلك الشيخ محمد بن محمود المعروف بابن العنابي ذلك في مخطوط له بعنوان " سند الجزائري للبخاري والكتب الستة "[5].

(ثانيا)– بيت العقباني:

---

[1]– ابن العنابي، المصدر نفسه، ص – ص: 6– 9.

[2]– ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 239.

[3] – نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 189.

[4]– ابن العنابي، " ثبت مصطفى ابن العنابي" مخ، ص: 11.

[5]– عابد فكرات، الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر. ص: 28.

عُرف هذا البيت ببيت بالعقباني نسبة لعقبان، وهي قرية من قرى الأندلس أصله منها، وهي تنتسب إلى تُجيب[1]، وهي بطن من كندة، فهي عربية النسب، انتقل أسلافهم إلى تلمسان واستقروا بها.

يعد بيت العقباني أشهر بيت علمي بتلمسان والمغرب الأوسط على الإطلاق، وقد استمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف، أنجبت خلالها أكثر من خمسة عشر فقيها وعالما، واستطاع احتكار أعلى وظيفة في القضاء الزياني وهي" قاضي الجماعة " لأكثر من قرن وربع من الزمن. وكانت الفتاوى والنوازل صناعتهم التي لا ينافسون فيها، فالمتصفح لكتاب " الدرر المكنونة في نوازل مازونة" مثلا يدرك الحضور العقباني الذي يمثل تقريبا نصف الكتاب من خلال النوازل التي أفتوا فيها وهي356 مسألة، 165 في كتاب "المعيار المعرب"[2].

(أ) – علماء بيت العقباني في ظل الزيانيين:

(1)– سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني التجيـــــبي (ت811ه/1408م):

يعد سعيد العقباني أحد أعلام العلماء بتلمسان الزيانية، وهو المؤسس الأول لبيت العقباني، ويؤكد يحي ابن خلدون ذلك بقوله:" أول نجباء بيته، ذو نبل ونباهة"[3]. تصدى للتدريس بتلمسان، وتولى القضاء بعدة مدن: وهران، سلا، مراكش، وولي قضاء الجماعة ببجاية وتلمسان[4]، وهي أعلى رتبة في القضاء، كانت مدة ولايته للقضاء طويلة، وذلك ما أكسبه الوجاهة والامتيازات له ولبنيه من بعده.

(2)– قاسم أبو الفضل بن سعيد بن محمد العقباني (ت 854ه/ 1450م):

---

[1]– ابن مريم، البستان، ص: 199؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 190.

[2]– رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص– ص: 220– 224.

[3]– يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص: 60.

[4] – ابن مريم، البستان، ص، ص: 198، 199.

تولى القضاء، وعند وفاة والده خلفه في قضاء الجماعة بتلمسان، وظل به لمدة طويلة، كما عكف على الإفتاء، وبعض فتاويه مقيدة في "الدرر المكنونة " للمازوني، وفي "المعيار المعرب" للونشريسي[1]. وقد ذكرت المصادر اثنان من أبناءه العلماء هما: أحمد، أبو سالم إبراهيم، اللذان نشآ في أحضان أسرة اتضحت معالمها العلمية وذاع صيتها، وبانت عراقتها.

(3)- **أحمد بن قاسم العقباني** (ت840ه/1463م): ولي القضاء بتلمسان كأبيه وجده، وهو والد الحفيد العقباني[2]. خلف مترجمنا عددا من الأبناء: محمد، عبد الواحد ويحي.

(4) **أبو سالم إبراهيم بن قاسم العقباني** (ت880ه/1475م): تولى هو الآخر القضاء بتلمسان، واستطاع أن يترقى فيه إلى أن يولي بقضاء الجماعة. كما اشتغل بالتدريس والفتوى[3]، وولي الخطابة بالجامع الأعظم[4].

(5)- الشيخ محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني (ت871ه/1466م):

تصدى للتدريس بتلمسان، وتقلد القضاء، وترقى إلى مرتبة قضاء الجماعة[5]. ونظرا لمكانته اختير من طرف السلطان الزياني محمد المتوكل على الله ليكون ضمن الوفد الدبلوماسي الذي استقبل السلطان الحفصي أبا عثمان محمد بن أبي فارس[6] قصد الصلح والمبايعة في إطار العلاقات الثنائية الزيانية الحفصية[7].

(6)- يحي بن أحمد بن قاسم (ت 876ه/1471م):

ولي قضاء الجماعة بعد وفاته أخاه محمد فظل به إلى وفاته، وكان إلى ذلك من المشتغلين

---

[1]- التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 365؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص: 259؛ خليفي، البيوتات الأندلسية. ص: 218.

[2]- نجد له ترجمة جد مقتضبة في عدد من المصادر: ابن مريم، المصدر نفسه، ص:116؛ التنبكتي، المصدر نفسه، ص: 118.

[3]- التنبكتي، المصدر نفسه، ص: 65؛ ابن مريم، المصدر نفسه، ص:127.

[4]- نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان، ص:82؛ خليفي، المرجع السابق، ص: 219.

[5]- ابن مريم، البستان، ص، ص:357، 358؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، ص: 547، 548.

[6]- السلطان الزياني محمد المتوكل على الله: (866- 873ه/ 1462- 1468م)، السلطان الحفصي أبا عثمان محمد بن أبي فارس (839- 893ه/ 1435- 1488م).

[7]- نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص:85.

بالتدريس والتعليم[1].

(7)– عبد الواحد بن أحمد بن قاسم العقباني (ت896ه/1491م):

تولى هو الآخر منصب قاضي الجماعة بتلمسان[2].

(ب)– علماء البيـــت العقباني منذ القرن 10ه/ 16م:

لا شك في أن المتأخرين من رجال العلم وفقهاء بيت العقباني لم ينالوا في نفس المكانة العلمية والاجتماعية التي نالها أسلافهم، ولعل ذلك إحدى الأسباب التي جعلتهم لا يحضون بتراجم ضمن المصادر المكتوبة كالبستان الذي ترجم مؤلفه لعدد من أسلافهم.

(1)– الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم بن سعيد العقباني

عاش خلال القرن العاشر الهجري، إلا أن شهرته وحضوره العلمي لم يكن كأسلافه، انتقل من تلمسان إلى فاس، بعد ضم مدينتهم للعثمانيين، التقاه صاحب دوحة الناشر، وأورد له ترجمة جد مقتضبة في كتابه، ووصفه بأنه كانت له" حصة مباركة من الفقه"، وكان قدومه إلى فاس رفقة اثنين من علماء تلمسان فوصفه بأنه :" كان دونهما في ادراك العلوم"[3].

ومما لا شك فيه أنّ رأي ابن عسكر فيه نوع من المبالغة، وإلا كيف استطاع أحمد العقباني أن يتصدر للتدريس بالقرويين[4]، حسبما ذكره ابن عسكر نفسه، والعلماء متوافرون بكثرة بفاس، والتدريس بالقرويين لا يتأتى إلا لمن كان له قدم راسخ في العلم.

وهناك اختلاف في تاريخ وفاته فبينما يذهب ابن عسكر إلى أنه توفي "في آخر العشرة الثامنة بفاس"[5]، أي حوالي سنة 980ه/1571م، يذهب آخرون إلى أنه توفي سنة 989هـ/ 1581م[1].

---

[1] – رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص: 220.

[2] – التنبكتي، المصدر السابق، ص: 288.

[3] – ابن عسكر، دوحة الناشر، ص: 111.

[4] – ذكر رفيق خليفي أنه درس بفاس عشرين سنة. ينظر: البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص: 220.

[5] – ابن عسكر، المصدر السابق، ص: 111.

ولحسن الحظ فإن أخبار البيت العقباني لم تنقطع تماما بسكوت المصادر التاريخية المكتوبة، ولم يتوقف الأعقاب النجباء في الاستمرار في إذكاء شعلة العلم والفضل والحفاظ عليها متقدة رغم جور الكتابة التاريخية، فشواهد القبور[2] الخاصة بالعقبانيين تشير إلى بعض هؤلاء الفقهاء، ومن خلال التحليات والألقاب المضافة إلى أسمائهم، وسنوات الوفاة يمكن أن نستخلص معلومات قيمة عن نشاط هؤلاء الأعلام وعن مستوياتهم الفكرية والعلمية، والمناصب التي شغلوها. ومن هؤلاء الفقهاء الذين تفيدنا بهم الكتابات الجنائزية:

(2)– **محمد بن أبي يحي بن قاسم بن سعيد العقباني** (ت941ه/1534م):

مما كتب على شاهد قبره:" هذا قبر الشاب المُدَّرِس أبي عبد الله محمد بن القاضي أبي يحي العقباني، توفي رحمه الله أواسط جمادى عام إحدى وأربعين وتسعمائة"[3].

(3)– و" السيد الفقيه **أبي عبد الله محمد بن القاضي أبي يحي العقباني**"، ذكر اسمه على شاهد قبر ابنته المتوفاة 941ه/ 1534م.

(4)- و" الفقيه الإمام **أبي العباس أحمد الخطيب أبا عبد الله محمد بن ابراهيم العقباني**" ذكر مع ابنته المتوفاة سنة 990ه/ 1582م.

(5)– **السيد أبو العباس أحمد بن أبي يحي العقباني**، ذكر اسم هذا " الفقيه العالم " على شاهد قبر ابتنه المتوفاة في سنة 991ه/1583م.

(6)– **السيد محمد العقباني** (القرن 11هـ/ 17م):

عاش خلال القرن 11هـ، ذكر في شاهد قبره ابنته " الصبية شاشة بنت الفقيه العالم السيد محمد العقباني " توفيت أواخر رمضان 1020هـ/ 1611م[4].

(7)– **الفقيه سعيد بن أحمد بن محمد العقباني** (ت1085هـ/ 1674م):

---

[1]– رفيق خليفي، المرجع السابق، ص: 221.

[2]– توجد الشواهد القبرية للعائلة العقبانية بمتحف تلمسان، وقد نقلت من مقبرة سلاطين بني زيان المعروفة بمقبرة سيدي إبراهيم.

[3]– نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان. ص:85.

[4] – رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص: 221.

يبدو أنه ابن أحمد العقباني الذي رحل إلى فاس، والتقاه ابن عسكر وترجم له في دوحة الناشر، وقد ذكر في شاهد قبره:" السيد الأفضل الفقيه الأجل التالي لكتاب الله عز وجل سعيد بن السيد الفقيه المحدث الفصيح البليغ أحمد بن محمد العقباني" توفي يوم الثلاثاء 28 ذي الحجة 1085هـ[1].

(8)– السيد محمد خوجة:

يحمل أحد الشواهد القبرية هذا النص :" الشاب الأسعد التالي لكتاب الله تعالى: السيد محمد العقباني بن الفقيه الأجل الأديب الأزيد الكاتب السيد **محمد خوجة** ابن التقي النقي السيد محمد السقال"، فأما تاريخ وفاته فهو غير مقروء بشكل جيد في الشاهد على القبر[2]، ولكننا لا نتردد في إدراجه هو ووالده ضمن فقهاء العهد العثماني لأن والده كان كاتبا لدى العثمانيين، ولهذا عرف بالخوجة، التي تعني الكاتب عند الأتراك، وهذا اللقب لم يكن خلال العصر الوسيط، وإنما أدخل مع العثمانيين في النظام الإداري في الجزائر. كان تاريخ وفاته يتشكل من أربعة أرقام لم يبق منها إلا الرقم الأخير (2)، وهذا يعني أنه توفي في الألفية الثانية على الأقل خلال القرن 11ه.

(9)– سعيد بن محمد العقباني:

كان خطيبا وقاضيا بتلمسان خلال القرن الحادي عشر الهجري (17م)، وينسب إليه تأليف خصصه للإرث ونحوه، وهو شرح لإحدى كتب الفرائض والفقه[3].

(ثالثا)– بيت ابـــــن زاغـــو (زاغُ):

(أ)– علماء بيت ابن زاغو في ظل الزيانيين:

هو من البيوتات العريقة بتلمسان، وهم ينتسبون إلى قبيلة مغراوة البربرية[1]، وهي احدى فروع زناتة. وقد أنجب هذا البيت عدد من العلماء ومنهم:

---

[1] – رفيق خليفي، المرجع نفسه، ص: 222.

[2] – رفيق خليفي، المرجع نفسه، ص: 222.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 86.

(1)– القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف بن علي بن زاغُ[2]: عاش خلال النصف الثاني من القرن 7هـ، والنصف الأول من القرن 8ه.

(2)– الولي علي بن محمد بن زاغو: (ق 8ه/ 14م) من أهل العلم والمعرفة ذكره يحي بن خلدون في "بغية الرواد".

(3)– أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت 845هـ/ 1441م):

هو من العلماء المعروفين بتلمسان، وقد وصف ب:" العالم الفاضل، الولي الصالح، الصوفي الزاهد، العلامة المحقق" [3]، تصدى للتدريس فتخرج عليه عدد كبير من طلبة العلم، والعلماء، ومن أشهر تلامذته: أبو زكريا بن موسى المازوني (ت883ه) صاحب النوازل المكنونة، والشيخ أبو الحسن القلصادي الذي ترجم له في فهرسته[4].

أما تآليف فهي كثيرة نذكر منها: مقدمة في التفسير، تفسير الفاتحة، وشرح التلمسانية في الفرائض، وله فتاوى كثيرة بعضهما مقيدة في كتاب المعيار للونشرسي، ونوازل المازوني[5].

(4)– أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد (ت 849ه/ 1445م):

وهو ابن أحمد المترجم له قبله، أشار إليه صاحب نيل الابتهاج ب:" الفقيه العالم، ابن الإمام العلامة " [6].

(ب)– علماء بيت ابن زاغو في ظل العثمانيين:

(1)– أحمد بن زاغو (القرن 11ه/17م):

---

[1]– أبو راس الناصري، فتح الإله، ص: 108.

[2]– ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص: 223.

[3]– ابن مريم، البستان، ص– ص:103– 105.

[4]– التنبكتي، نيل الابتهاج، ص– ص: 119– 121؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص– ص: 156– 157.

[5]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 111؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج1، ص: 538.

[6]– التنبكتي، نيل الابتهاج، ص:527؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 157.

كان مفتيا بمدينة تلمسان خلال القرن الحادي عشر الهجري، وهو الذي عرَّض به الشاعر سعيد المنداسي[1]، أبرز الشعراء الذين وقفوا موقفا مضادا للأتراك العثمانيين بالجزائر وهجاهم في قصائده، واصفا إياهم بأبشع الصفات، كما تحدث عما عانته تلمسان منهم، وعرض بالمفتي التلمساني في عهده الشيخ أحمد بن زاغو الذي انقاد في نظره للأتراك، واتهمه بالسكر وبالضلال في الدين، وأنه قد هدم دار العلم[2].

(رابعا)– بيت بن الحاج المناوي اليبدري:

(أ)– علماء بيت بن الحاج المناوي اليبدري في ظل الزيانيين:

(1)– أحمد بن الحاج اليبدري (ت930ه/ 1523م):

هو أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب بن سعيد بن عبد الله المناوي أصلا ونجارا، الورنيدي مولدا ودارا، التلمساني رحلة وقرارا، عرف بابن الحاج. كان في ابتداء أمره ساكنا بموضع يقال له اثلاثن أوليلى، ثم ارتحل إلى واد يبدر جنوب تلمسان[3]. ويبدو أنه مؤسس هذه الأسرة العلمية لأنها تنسب إليه، إذ يشير إليهم أبو راس بالشيخ أحمد بالحاج المانوي وبنوه[4].

تصدى للتدريس بتلمسان فتخرج عليه جماعة كسيدي الحاج بن سعيد ولد أخته وابن عمه، ومن العلوم التي كان يدرسها القراءات السبع والعربية، كما كان الطلبة يأخذون عنه التصوف، سيما كتب ابن عطاء الله [5].

"وكان شاعرا ماهرا في عروض الشعر"، وفكان يتبادل الألغاز النظمية مع معاصريهم، وفي مقدمتهم الإمام محمد بن أحمد بن غازي (ت919ه/1513م). من مؤلفاته: شرح

---

[1]– سعيد بن عبد الله التلمساني المنشأ، المنداسي الأصل(ت 1088ه/1677م) شاعر الملحون، من آثاره :"العقيقة" قصيدة في مدح النبي– ﷺ–. وصف المنداسي في قصائده العثمانيين بأبشع الصفات، وتحدث عما عانته تلمسان منهم، وقد هرب إلى المغرب الأقصى وتقرب من حكامه، ومات بسجلماسة. ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص، ص:156، 157.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 265.

[3]– ابن مريم، البستان، ص: 61.

[4]– أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته، ص: 108.

[5]– ابن مريم، البستان، ص: 62.

السينية لابن باديس، ومنظوماته كثيرة منها نظم عقيدة السنوسي الصغرى[1]. توفي في حدود سنة 930ه/ 1523م[2].

(2)- محمد الحاج المناوي (ت955ه/1548م):

هو محمد بن سعيد المدعو الحاج، المناوي أصلا، الورنيدي مولدا ودارا، وصفه ابن مريم ب:" العالم الشهير، الولي الصالح، المتصوف العارف بالله"، وبأنه:" كان حافظا للمذهب...مُفتيا، أستاذا في القراءات ". أخذ عن خاله محمد بن الحاج - المترجم له قبله- عدة علوم. تصدى هو الآخر للتعليم فأخذ عنه " أناس كثيرون لا يحصون"[3]. منهم ولده "سيدي" محمد بن الحاج.

(ب)- علماء بيت بن الحاج المناوي اليبدري في ظل العثمانيين:

(1)- محمد بن محمد بن سعيد المناوي:

هو ولد صاحب الترجمة المتقدمة، وقد وصف ب:" الفقيه العالم النبيه، الحافظ الأعرف". تصدى هو الآخر للتدريس فأخذ عنه طلبة تلمسان وعلماءها ومنهم بعض أفراد أسرته: ولده محمد الصغير، وولد أخيه محمد أمقران بن أبي عبد الله بن الحاج، وأخوه حدُّو بن الحاج ". زاره ابن مريم، إلا أنه لم يتحقق من تاريخ وفاته[4].

(2)- حدو بن الحاج بن سعيد المناوي (ت 998ه/ 1589م):

هو ابن محمد الحاج وأخ صاحب الترجمة المتقدمة، وصفه ابن مريم في البستان بأنه كان فقيها عالما، أستاذا في القراءات السبع عارفا بأحكام القرآن والعربية والحساب، والفرائض. أخذ عن مشيخة تلمسان ومنهم والده محمد بن سعيد "الحاج"، وتصدر للتدريس بتلمسان، فكان "يُدَرِّس الخراز، والضبط، وابن بري، والأجرومية، وألفية ابن مالك والرسالة ". ومن

---

[1]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص- ص: 61- 63؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 67.

[2]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص: 80.

[3]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص، ص: 413، 414؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 310.

[4]- ابن مريم، البستان، ص: 414.

مؤلفاته: منظومة في مدح النبي -ﷺ- وتوسلات بسور القرآن من أوله إلى آخره. توفي عام 998ه/ 1589م، ودفن في روضة "سيدي" أحمد بن الحاج و"سيدي" الحاج[1].

(3)- حدادة بن محمد بن الحاج اليبدري (1008ه/1599م):

هو "سيدي" حدادة بن محمد بن الحاج اليبدري التلمساني، وصفه معاصره صاحب البستان ب:" الفقيه العالم النحرير"، تلقى تعليمه بتلمسان فأخذ عن عدد من شيوخها، وفي مقدمتهم الشيخ "سيدي" علي بن يحي، والشيخ سعيد المقري، وأخذ الحساب والفرائض على والده محمد بن الحاج، توفي في البحر حاجا، ودفن بجربة عام ثمانية وألف (1008ه/ 1599م)[2].

(4)- محمد بن أبي عبد الله بن الحاج (ت 1009ه/ 1600م):

محمد بن أبي[3] عبد الله بن الحاج بن سعيد المناوي أصلا، الورنيدي مولدا ودارا، " الفقيه الإمام الخطيب، المعروف بأمقران"، وهي كلمة بربرية تعني الأكبر، وقد وصفه ابن مريم ب:"الولي الصالح، العارف بالله المتصوف"[4].

أخذ على عمه الشيخ محمد بن محمد بن سعيد[5]، كما " قرأ على جدِّه الحاج بن سعيد القرآن والعربية والحساب"، وقرأ على علماء آخرين بتلمسان كالشيخ علي بن يحي السلكسيني، والشيخ محمد بن يحي المديوني، توفي سنة 1009ه/ 1600م[6].

(5)- الشيخ محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمساني (القرن 12ه/ 18م):

أشار إليه تلميذه الشيخ أبو راس في كتابه "فتح الإله"، قائلا بأنه " من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المانوي"، واصف إياه ب:" وحيد الأوان وعلامة

---

[1]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص: 181؛ عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 126.

[2] - ابن مريم، المصدر نفسه، ص، ص: 181، 182.

[3]- ذكر محقق البستان (ص: 434، ها: 9) أن اسمه ورد (محمد أبو عبد الله) في النسختين المعتمدتين في التحقيق.

[4]- ابن مريم، البستان، ص: 434.

[5] - ابن مريم، المصدر نفسه، ص: 414.

[6]- ابن مريم، المصدر نفسه، ص، ص: 434، 435؛ عبد المنعم القاسمي، المرجع السابق، ص: 332.

الزمان"، وبأنه :"عَلَمُ تلمسان وعالمها، وعاملها، وقاضي الجماعة بها، شيخ الإسلام الحبر الهمام" [1].

وقد كانت له رحلة علمية إلى مصر فأخذ عن: الشيخ السمان، ومحمود الكردي، وغيرهما. وكان متوليا لقضاء المالكية بتلمسان، كما كان منتصبا للتدريس بها لمدة طويلة، " ولما عُزل عن القضاء والمناصب التي تحمد وترتضى، سمت به همته، ونمت به رفعته إلى الرحلة إلى المشرق ثانيا، فكانت هجرته نهائية إلى الحرمين الشريفين، وعبر عنها أبو راس بقوله:" ونبذ تلمسان نبذا كليا، واتخذها وراءه ظهريا..." ولما قيل له قال:" قد طلقتها بتاتا، قائلا: فما قلبي إليها يرجع ويسفر"، " فودعها وداع من لا يعود، وأعرض عن العشائر والأقارب وأهل، وأضرحة الجدود "، "ولحق بالحرمين الشريفين، وأخذ معه من العسجد أكثر من ألفين، فضلا عن الورق، الوريق" [2].

وكان الشيخ محمد بن عبد الرحمن اليبدري أحد علماء تلمسان البارزين في وقته، ولهذا تواصل معه بعض علماء الراشدية، ومنهم تلميذه أبو راس الناصري، وهو أيضا أحد العلماء الذين اتصل بهم الشيخ محمد الموفق بن عبد الله الجلالي بتلمسان وأجازوه[3]. كما ارتبط بعلاقات مع المشارف، وقيد شهادة بخط يده يشهد فيها بانتسابهم إلى الأشراف في شهر رمضان عام 1178هـ/ 1764م، "حلاهم بفضائل لا مزيد عليها في العلم والدين"، وهي على الأرجح رسالته مسماة " بتنوير قلوب أهل التقى والمعارف بذكر نسب سادات غريس الموسومين بالمشارف"[4].

وقد اشتهر بحاشيته على الخرشي، حتى قرنت باسمه، فقد وصفه ابن مصطفى المشرفي ب:" الفاضل العلامة السيد محمد بن الحاج البيدري المدعو ابن عبد الرحمن صاحب حاشية

---

[1] – أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته، ص: 49.

[2] – أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 49، 50.

[3] – البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، ص: 151.

[4] – ابن مصطفى المشرفي، " تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص:16.

الخرشي"، ووصفه في موضع آخر ب:" العالم الفاضل محشي الخرشي السيد محمد بن الحاج البيدري "[1].

(6)– "سيدي" حامد محمد بن عبد الرحمن التلمساني:

هو ولد ابن عبد الرحمن القاضي المتقدمة ترجمته، أخذ عنه أبي راس، كما أخذ على والده، ووصفه ب:" الكوكب الدري، شيخنا الشيخ البيدري، الأنجد الماجد، ابن الشيخ، سيدي حامد " [2].

(7)– أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني (ت 1264ه/ 1847م):

نشأ بتلمسان وتلقى تعليمه على شيوخها، ومنهم أبو طالب المازوني، وسافر إلى فاس لاستزادة من العلم على عادة أبناء تلمسان [3]، فأخذ عن سيدي حمدون بن الحاج وغيره[4].

ونظرا لمكانته حمل بيت اليبدري حمل اسمه فيما بعد، فأصبحوا يعرفون بأولاد ابن سعد، بعد انتقل بعضهم إلى المغرب الأقصى إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد ذكرهم الشيخ عبد الحفيظ الفاسي في النص الموالي:" بيت أولاد ابن سعد كان بتلمسان بيتا عظيما علما، ومجدا، وثروة، تعدد فيهم العلماء والفضلاء آخرهم... العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن سعد الشهير"، ويضيف قائلا بأنّ مرجع نسبهم إلى الإمام أبي العباس أحمد بن الحاج البيدري التلمساني (ت930ه) غير أن ابن مريم " لم يذكر له نسبه إلى آل البيت، والمتأخرين يصفونهم بالشرف[5] الحسني"[6].

---

[1] – ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص، ص:9، 16.

[2] – أبو راس الناصر، فتح الإله، ص: 50.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص، ص: 502– 504؛ عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر. ص: 375.

[4] – محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حمزة بن علي الكتاني. (الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس 4)، 2005. ترجمة رقم: 954، ج3؛ ص: 97.

[5] – ذكر مترجمنا في أول شرحه على الشمقمقية نسبتهم الشريفة، ويتساءل عبد الحفيظ الفاسي عن مستندهم في ذلك. ينظر: معجم الشيوخ، ج1، ص: 53.

[6] – عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج1، ص: 52. أما صاحب سلوة الأنفاس فيصفه بالحسني. ج3، ص: 97.

تولى محمد بن سعد القضاء بتلمسان للعثمانيين، وتزامن ذلك مع ولاية الباي حسن آخر بايات وهران، وقد تورط في مجريات الأحداث السياسية في المنطقة، ففي خريف عام 1828م رفضت قبائل ولهاصة في شمال تلمسان رفض الضريبة المفروضة عليهم للسلطة، بتحريض من عامل وجدة أبي العلى إدريس، فأنفذ إليهم الباي حسن حامية لاستخلاصها بالقوة، إلا أن الحامية العثمانية تعرضت لكمين فأبيدت عن آخرها، فاضطر القاضي محمد بن سعد للرحيل بنفسه لتهدئة الأوضاع، إلا أنه اهم بالتعاطف مع السكان، فخشي على نفسه، وعجل بالفرار إلى المغرب حيث استقبله السلطان عبد الرحمن بن هشام، وهو ما يؤكد صلته القوية به، فأقام هناك إلى غاية قدوم الوالي المغربي الجديد إلى تلمسان بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر[1].

وكان سلطان المغرب قد أنفذ واليا إلى تلمسان بطلب من أهلها، فدخل المدينة في 20 جمادى الأولى 1246ه/7 نوفمبر 1830م، بصحبة محمد بن سعد الذي ولاه مرة أخرى قضاء المدينة، إلا أن السلطان عبد الرحمن اضطر إلى سحب ممثليه من مدينة تلمسان في أفريل 1831م تحت ضغط الفرنسيين[2].

ظل القاضي محمد بن سعد يتردد بين تلمسان والمغرب الأقصى تبعا للظروف مدينة تلمسان، بحيث غادرها فارا بأهله إلى فاس إثر حملة كلوزيل عليها في عام 1251م/جانفي 1836م، "وترك جميع كتبه وماله"[3]، ولما رجعت تلمسان لحكم دولة الأمير عبد القادر بعد معاهدة التافنة تاقت نفسه إلى العودة إليها، بأسرته، واستأذن السلطان مولاي عبد الرحمن فأذن له، مكاتبة في رسالة هذا بعض ما ورد فيها:" الفقيه القاضي السيد محمد بن سعد... وصلنا كتابك مخبرا بأن الله لما حقق الرجاء... وبلغت الأمنية بهناء الوطن وأمنه...

---

[1] – عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر. ص: 375، 376.

[2] – احتجت الحكومة الفرنسية معتبرة ما قام به المغاربة خرقا لمعاهدة السلم المبرمة بين السلطان محمد بن عبد الله وفرنسا سنة 1777م، وتوعدت بإعلان الحرب، وبعثت أسطولها مهددة إلى ميناء طنجة.

[3] – محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس. ج3؛ ص: 97.

تاقت نفسك للرجوع إليه، والقدوم بالأولاد والحشم عليه، لما جبلت عليه النفس من حب الأوطان... وقد أذنا لك في التوجه إلى بلدك بأهلك وولدك، فتأهب لذلك وأعلمنا والسلام. في 14 ربيع الثاني عام 1256ه(1840م)، بأمر مولانا أمير المؤمنين" [1].

لم يطل المقام بمحمد بن سعد بتلمسان بحيث اضطر إلى مغادرتها مرة أخرى إثر غزوها من طرف المارشال بوجو في سنة 1842م، وقد وجد بالمغرب كل الرعاية والترحاب[2]، غير أنَّ أوغست كور (Auguste cour) يذهب إلى أن الفرنسيين هم الذين طردوا محمد بن سعد من تلمسان سنة 1842م، وأنه توفي بعد فترة قصيرة من رحيله بمدينة فاس في بؤس وفقر مدقع[3].

فأما تاريخ وفاته فتذكر بعض المصادر المغربية أنه بفاس سنة 1264ه[4]، وقد كان هؤلاء المؤلفين من أهل البلاد، ونقلوا أخباره من أفواه من عاصروه، وبعضهم تلامذته، فهذا صاحب "سلوة الأنفاس" يصفه بشيخ بعض أشياخنا، بل أن والده كان أحد المنتفعين من دروسه بفاس.

أما ما أشار إليه من أنه عاش في فقر مدقع ففيه بعض المبالغة، وحسبنا أن نشير إلى أن من نتائج الطبيعية للحروب فقدان السكان لممتلكاتهم، وابن سعد واحد من المتضررين، بحيث ترك أملاكه بتلمسان وخرج فارا بأهله، وسكن بفاس ثم انتقل منها لتازة "لضيق المعيشية عليه بها "[5]، غير أننا لا نعتقد أن هذه الحالة استمرت طويلا لصلته القوية أولا بسلاطين المغرب، ولأنه تولى بعض الوظائف العلمية والدينية.

---

[1]-A. Cour, L'occupation Marocaine de Tlemcen (septembre 1830- janvier 1836). in **R. A**. Année : 1908, N : 52. p, p : 62,63.

[2] – عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر. ص: 378.

[3]-A. Cour, Op.cit. p : 64.

[4]– عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ. ج1، ص: 52؛ محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج3؛ ص: 97.

[5]– محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس، ج3؛ ص: 97.

أقام مترجمنا بتازة يدرس ويفتي، وقلد مدة الخطابة والإمامة بجامعها الأعظم، وفي سنة 1262ه/ 1845م رجع إلى فاس ف" كان له بها مجالس حفيلة" [1]، " وأخذ عنه جم غفير"[2]، ومنهم القاضي شعيب الذي درس عليه الألفية والفقه[3]. من مؤلفاته محمد بن سعد شرح على الشمقمقية[4].

– المبحث الخامس: البيوتات والأسر العلمية بمازونة:

عرفت مدينة مازونة[5] حركة علمية على درجة كبيرة من الأهمية، ولم تفقد مكانتها الثقافية حتى بعد أن فقدت مكانتها السياسية كعاصمة إقليمية لصالح معسكر ثم وهران، ولهذا كانت مقصد طلبة العلم، ولا سيما من ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران.

وقد برع علماء مازونة في عدة علوم إلا أنهم اشتهروا بالفقه حتى قيل «مازونة بلد الفقه بالقطر الجزائري»[6]، وتخرج منها عدد كبير من العلماء، ولعل أشهرهم الشيخ أبو راس الناصري المعسكري؛ الذي يشير في كتابه " فتح الإله ومنته " أنه سافر إلى مازونة بعد أن ذُكِرَت له "كثرة مجالسها ونجابة طلبتها، وقريحة أشياخها "[7]. وهذا النشاط ساهم في بروز عدد من البيوتات والأسر العلمية، أشهرها على الإطلاق: وأسرة الكتروسي، وأسرة ابن الشارف المازوني اللتين تقاسمتا الشهرة بمازونة.

(أولا)– بيت الكتروسي:

---

[1] – محمد بن جعفر الكتاني، المصدر نفسه، ج3؛ ص: 97.

[2] – عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج1، ص: 52.

[3] – عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830– 1954. ص: 159.

[4] – عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي، المصدر السابق، ج1، ص: 53.

[5] – مازونة مدينة عتيقة، تقع نحو أربعين ميلا من البحر المتوسط. وقد اتخذت مقرا لحكم القطاع الغربي وتولى عليها ثمانية عشر بايا. أولهم حسن بن خير الدين سنة 971هـ/1563م، وآخرهم الباي مصطفى أبو الشلاغم الذي نقل في أيامه كرسي الأيالة الغربية إلى القلعة ثم إلى معسكر. ينظر: الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 36؛ الزياني، دليل الحيران، ص، ص: 192، 193.

[6] – عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982. ج1، ص: 506.

[7] – أبو راس الناصر، فتح الاله ومنته، ص: 47.

اشتهرت هذه الأسرة العلمية بمازونة خلال القرن الحادي عشر للهجرة (ق17م)[1]، وحظيت بتأييد ودعم كبير من طرف بايات الغرب، فتولى عدد من أبناءها مناصب دينية هامة كالقضاء والفُتيا والخطابة والإمامة، ولا يزال لها عقب في عصرنا الحالي بمدينة مازونة، وبحوزتهم مجموعة من الوثائق[2]، وأغلبها عبارة عن ظهائر صادرة عن بايات الغرب وبعض رجال الدولة لصالح علماء هذه الأسرة بخصوص تعيينهم في مناصب الفتوى والقضاء والخطابة والإمامة، وكذا منحهم امتيازات مختلفة.

وتشير بعض هذه الوثائق إلى انتساب أسرة الكتروسي إلى الأشراف، من ذلك الوثيقة المؤرخة بسنة 1080هـ/1669م، وموضوعها تعيين الشيخ أحمد بن خدة مفتيا بمازونة، وهي تصفه ب:" الولي الصالح القطب الناصح شريف النسب والحسب... سيدي أحمد بن خدة "[3]. وتنص الوثيقة المؤرخة بسنة 1238هـ/1822م صراحة على نسبهم الشريف ومنها:"... أما بعد فإننا أنعمنا على الحسباء النسباء الفضلاء الأدباء ... الأشراف...السيد محمد المهدي... وإخوانه وأولاده ومن انضم إليه".

وتشير الوثائق التي تمكننا من تحصيلها إلى عدد من صلحاء وعلماء أسرة الكتروسي وهم: السيد علي الكتروسي، السيد أحمد بن خدة، السيد المهدي[4] بن أحمد بن خدة، السيد محمد بن المهدي بن محمد بن المهدي، وأخيه السيد علي.

(1)- السيد أحمد بن خدة:

هو أحمد بن خدة بن علي الكتروسي، وهناك وثيقتان تخصانه، الأولى مؤرخة بسنة 1077هـ/ 1666م صادرة عن إسماعيل باي، وفيها يمنح السيد أحمد بن خدة وأخيه

---

[1]- مولاي بالحميسي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية (من القرن 15 إلى منتصف القرن 20م)، على الشبكة العنكبوتية "منتدى جمعية الظهرة مازونة". تاريخ دخول الموقع: 09- 10- 2011. ص: 2.

[2]- استطعت الحصول على أكثر من 15 وثيقة منها، وهي تغطي الفترة الممتدة من: 1080هـ/1669م إلى1247هـ/1831م.

[3]- وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة.

[4]- إن تكرر اسم المهدي في نفس الأسرة قد يوقع الباحث في التباس سيما مع اكتفاء بعض الوثائق بالإشارة إلى العالم بالسيد المهدي فقط.

محمد نجلى السيد علي الكتروسي امتيازات مهمة فهو يوصي بحرمهم واحترامهم ويعفيهم من المطالب المخزنية والوظايف السلطانية قلت أو جلت[1].

أما الوثيقة الثانية فهي مؤرخة بسنة 1080هـ/1669م وهي صادرة عن باشا الجزائر أحمد أبو العباس عبد الله موجهة إلى أحمد بن خدة، وتصفه ب:" الولي الصالح القطب الناصح... سيدي أحمد بن خدة بن الولي الصالح المعظم الشهير سيدي علي الكتروسي"، موضوعها تعيينه مفتيا بمازونة وسائر عمالتها على مذهب مالك، وإماما بجامع الكبير المعروف بسيدي عيسى وعزوز بحي بوماتع[2]، ويكون مسؤولا عن أحباسه متكفلا بالمسجد بالزيت والبناء والوطاء والحصير، وأوصى بحرمه واحترامه، مع أمر السلطات بالمدينة بحمايته وإعفائه من كل الالتزامات المالية (من المطالب المخزنية والوظائف السلطانية) [3].

والملاحظ أن هذه الامتيازات لم تشمل أسرته ولا أخاه السيد محمد بن علي الكتروسي الذي ورد ذكره في الرسالة السابقة، فهل يا تراه كان قد فارق الحياة أم أنه لم يكن من أهل العلم البارزين؟

(2)- السيد المهدي بن أحمد بن خدة:

يبدو أن السيد المهدي ابن الشيخ أحمد بن خدة، هو أبرز رجال الأسرة خلال القرن 12ه/ 18م، لأنها حملت اسمه فيما بعد، وأصبح عقبه يعرفون بأولاد المهدي. وهناك وثيقة مؤرخة بسنة 1100هـ/ 1688م صادرة عن باي الغرب علي باي تونسي، ومضمونها تعيين السيد المهدي المترجم له إماما ومدرسا في مسجد سيدي علي بن حسن، وأن يتصرف فيه "بحق العادة القديمة". وللعبارة الأخيرة احتمالان، منها أن هذه الرسالة هي تجديد وليس تعيين، والثاني أن إمامة هذا المسجد كانت من قبل في أحد أفراد هذه الأسرة.

---

[1] - وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة، مؤرخة ب: 1077ه/ 1666م.

[2]-Moulay belhamissi, Mazouna (une petite ville, une long histoire !). Alger : société nationale d'Edition et de Diffusion. p: 51.

[3]- وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة، مؤرخة ب:1080ه؛ بالحميسي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية، ص: 2.

وقد نعت محمد المهدي بمحمد الصغير، في الظهير الصادر عن مصطفى باي صاحب الولاية الغربية، والذي عينه بموجبه إماما بجامع سيدي عيسى، وهو مؤرخ بسنة 1124ه/ 1712م :" وبعد فإننا أنعمنا على المكرم الوجيه المحترم العلامة الحبر الفهامة السيد محمد الصغير[كذا] نجل البركة السيد أحمد بن خدة وجعلناه إماما بجامع سيدي عيسى وسيدي عزوز... بعدما رفعنا يد السيد محمد بن عمار عن تلك المسجد ووليناه للسيد المهدي أن يصلي فيه الصلوات المفروضة... ".

(3)- السيد المهدي:

ذكر المفتي السيد المهدي الكتروسي في ظهير مؤرخة بسنة 1173هـ/1759م صادر عن خليل آغا نوبة مازونة، والسيد محمد بن حم باش بولكباشي وكافة العسكر، موضوعه منح امتيازات للمفتي السيد المهدي الكتروسي ولبعض أفراد أسرة المهدي من إخوته وأعمامه ذكروا بأسمائهم وهم: أخاه الفقيه أحمد، والسيد مصطفى، والسيد محي الدين، وعمهم السيد محمد المهدي.

ونظرا للفارق الزمني الشاسع بين الوثيقة المؤرخة بسنة 1100هـ/1688م والتي تخص المفتي السيد المهدي بن أحمد بن خدة، وهذه الوثيقة المؤرخة بسنة 1173هـ/1759م، والتي تخص المفتي السيد المهدي، فإننا نرجح أنهما لا تخصان الشخصية نفسها.

(4)- الشيخ أبو عبد الله محمد بن المهدي الكتروسي:

هو أبو عبد الله محمد بن "سيدي" المهدي بن محمد بن المهدي بن أحمد بن علي الكتروسي. لدينا ست وثائق تخص هذه الشخصية: بحيث عين -أو تم إقراره في وظائفه- في سنة 1212هـ/1797م "مفتيا وخطيبا في مسجد أبي ذلول يصلي فيه الصلوات الخمس على سبيل العادة والطريق المعتادة"، ونفس الأمر بالنسبة للوثيقة المؤرخة بسنة 1215هـ/ 1800م بحيث عين مرة أخرى أو - أو تم إقراره في وظائفه- السابقة[1].

[1] - والنص في الوثيقة:" مفتيا بمازونة وخطيبا وإماما يصلي الصلوات الخمس في جامع أبي ذلول".

وفي سنة 1228هـ/1813م عين السيد محمد بن المهدي " قاضيا بمازونة ونواحيها يفصل في الخصومات ويقسم التركات"، وفي وثيقة التعيين عبارة:" وأمرناه يُفتي بالمشهور..." والتي يفهم منها أنه أبقي في منصبه الأول كمفتي وأضيف له القضاء، وإلا فهذه العبارة لا محل لها؟ وقد حدث أن جمع بعض العلماء بين الوظيفتين في وقت واحد.

وهناك ظهير مؤرخ بسنة 1247هـ/1831م مضمونه تولية الأخوين ولدا المهدي في وظيفتي القضاء والإفتاء:" الفقيه العلامة السيد محمد بن المهدي خطة القضاء على مذهب مالك بمازونة وأحوازها، وتولية أخاه الفقيه السيد علي الفتوى بالمحل المذكور".

أما الوثيقة السادسة فهي عبارة عن استجازة [1]، أو استدعاء كتابي بعث به الشيـــــــخ

محمد التوهامي بن رحمون[2] من فاس للشيخ محمد بن المهدي الكتروسي سنة 1240هـ/ 1824م، افتتحه بالثناء على الشيخ محمد بن المهدي بقوله:" الشيخ المنفرد بالتحقيق إيوانه وأوانه، المتخلق بأخلاق العلم... شمس الدين أبو عبد الله سيدي محمد بن المهدي..." إلى أن قال:" وليكن في كريم علمك، أنّني أطلب من سيادتك إجازة تامة شاملة مطلقة عامة، في جميع ما لديك من العلوم، والأسرار والفهوم، والطرق الصوفية والأحاديث المسلسلات إلى خير البرية تبركا بسندك العالي ".

إن حيازة الشيخ ابن المهدي للسند العالي كان دافعا قويا لمحمد التوهامي ليسعى في الحصول على إجازته. ويدل هذا الاستدعاء على المكانة التي بلغها الشيخ محمد المهدي سيما وأنّ المستجيز "عالم مسند" من العلماء البارزين بفاس التي كانت تعج بكبار العلماء.

(5)– السيد علي بن "سيدي" المهدي بن محمد بن المهدي:

---

[1]– طلب الإجازة أو الاستدعاء، وتعتبر الإجازة مراسلة والتي تمنح بدون قراءة على الشيخ إجازات تبركية تشريفية، يتم تبادلها في أغلب الأحيان بين الأقران من العلماء. ينظر: فوزية لزغم، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، ص– ص: 28–31.

[2]– محمد التوهامي بن محمد المكي بن عبد السلام بن رحمون العلمي الحسني الإدريسي (ت1263هـ/1847م): كان عالما مسندا. أخذ عن جماعة وافرة من أهل المشرق والمغرب. وله ثبت في مروياته. ينظر: عبد الحفيظ بن محمد الطاهر بن عبد الكبير الفاسي، معجم الشيوخ، المسمى "رياض الجنة أو المُدهش المطرب".ج1، ص: 118.

ليس لدينا معلومات كافية عن السيد علي المهدي، إلا أنه ذكر في الوثيقة المؤرخة سنة 1215هـ/1800، بحيث ذكر ضمن إخوة محمد المهدي الذين تشملهم الامتيازات الممنوحة للأسرة، كما عرفنا أنه عين في وظيفة الإفتاء في سنة 1247هـ/1831م، في نفس الرسالة التي عين فيها أخاه محمد بن المهدي خطة القضاء.

(ثانيا)– بيت ابن الشارف المازوني:

هم أصحاب المدرسة المشهورة بمازونة، والتي تُعَّد من أقدم المدارس التي تأسست في العهد العثماني[1]، ولدينا وثيقة مؤرخة بسنة 1910م[2] عددَّ فيها كاتبها أساتذة مدرسة مازونة، منذ نشأتها على يد ابن الشارف إلى تاريخ تحرير الوثيقة، سهلت لنا مهمة تتبع علماء هذه الأسرة:

(1)– الشيخ محمد بن الشارف المازوني (القرن 11ه/ 17م):

امَحمد بن الشارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز البلداوي[3]، ويذهب بالحميسي إلى أنه من النازحين الأندلسيين[4]، وهو مؤسس المدرسة المشهورة بمازونة[5] في سنة 1029هـ/ 1619م، درَّس بها لمدة طويلة جدا، فتخرج عليه الكثير من العلماء أشهرهم الشيخ مصطفى الرُماصي[6]، وقد ذكره هذا الأخير في إجازته لأحد تلامذته[1] :" أما البُخاري فأخذته عن سيدي محمد بن الشارف المازوني "[2].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 285.

[2]– أدرجت هذه الوثيقة في ملاحق: بوكفة يوسف، مدرسة مازونة الفقهية، رسالة ماجستير، في: علم الاجتماع التربوي، بإشراف: بن عمر يزلي. جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم: علم الاجتماع. (2003– 2004).

[3]– كان عبد العزيز البلداوي بوطن مجاهر وقبره معلوم هناك بقرب واد شلف، ترك أملاك كثيرة من أرض حراثة وبساتين لكن أخذ البايليك جميعها. ينظر: وثيقة كتبت من طرف أحد أعقاب الأسرة للمتصرف العام بارنو 9 فيفري 1910، نسخة عنها في ملاحق رساله مدرسة مازونة الفقهية لبوكفة يوسف.

[4]–Moulay belhamissi, Mazouna (une petite ville, une long histoire !). p: 49.

[5]– مولاي بالحميسي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية ، ص: 2.

[6] – أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي(ت 1136هـ/1723م): أخذ عن شيوخ مازونة، وعن شيوخ مصر. له حاشية على شرح الشمس التتائي على المختصر، وكفاية المريد على شرح عقيدة التوحيد. ينظر: مخلوف، شجرة النور، ص: 334؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 442؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 193.

وورد في الوثيقة المشار إليها أنَّ ابن الشارف بنى المدرسة من ماله الخاص، ودرس بها أربع وستين سنة، إلى أن توفي سنة 1164هـ[3]. ولاشك في أنه وقع تصحيف في تاريخ الوفاة، ذلك أنَّ الفرق بين تاريخ إنشاء المدرسة، وتاريخ وفاة المؤسس هو 135 سنة، وهذا غير منطقي، بالجمع بين تاريخ تأسيس المدرسة، ومدة تدريسه بها نجد أن ابن الشارف توفي في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر الهجري (17م).

وقد كان عدد الطلبة بالمدرسة كبيرا، وأقبل عليها الطلبة من ندرومة، وجدة، فجيج من الونشريس المدية، وقد كان أهلي مازونة يتكفلون بهم[4]. خلف ابن الشارف المازوني ولدين هما: السيد علي والسيد عبد الرحمن، وبعد وفاته تولى السيد عبد الرحمن التدريس، ثم تولاه بعده السيد علي[5].

(2)- الشيخ علي بن محمد (ت 1189هـ/1775م):

هو الشيخ علي بن محمد بن علي بن الشارف، تصدى للتدريس بالمدرسة مع والده، وتوفي سنة 1189هـ بمدينة مازونة. وخلف ثلاث أولاد هم: مصطفى، والسيد عبد الرحمن[6]، الشيخ محمد المعروف بأبي طالب.

(3)- عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني (القرن 18ه):

هو ابن علي المتقدم، ليس لدينا معلومات كافية عن هذه الشخصية غير أن اسمه ونسبته تدل على أنه أحد أبناء هذه الأسرة، وقد كان يدرس بالمدينة الجزائر حينما قدم إليها الشيخ أحمد بن محمد الورززي في سنة 1159ه/سبتمبر 1746م، وخصص العديد من الحلقات التي كان يعقدها بالجامع الأعظم لتصحيح كتاب الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش المعنون ب

---

[1]- كتب ذلك في إجازته لمحمد بن علي الشريف الجعدي الجزائري. ينظر: الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص: 543.

[2] - الحفناوي، المرجع نفسه، ج 2، ص: 541.

[3]- الوثيقة المؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

[4]-Moulay belhamissi, Op.cit. p: 49.

[5]- وثيقة كتبت من طرف أحد أعقاب الأسرة للمتصرف العام بارنو 9 فيفري 1910. ينظر: نسخة مصورة عنها في ملاحق رساله مدرسة مازونة الفقهية لبوكفة يوسف.

[6]- الوثيقة المؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

"الدر على المختصر " لمحمد السنوسي في المنطق، بحضور مجموعة من الطلبة، أحدهم هو عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني[1].

(4)- الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني (ت1233هـ/ 1818م):

هو أبو طالب محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الشارف، ولد في مطلع القرن الثاني عشر الهجري[2]، وهو أبرز علماء هذا البيت، وقد وصفته المصادر المعاصرة له بما يدل على مكانته، بحيث وصفه صاحب " الرحلة القمرية" ب:" الفقيه الصالح المدرس الناجح ... شيخنا سيدي محمد بن أبي طالب المازوني "[3].

أخذ العلم على علماء بلدته وعلى غيرهم. وتصدى هو الآخر للتدريس، وتشير إحدى الوثائق إلى أنه أصبح على رأس مدرسة أسرته منذ وفاة والده سنة 1189هـ/1775م، وبقي مدرسا بها أربعة وأربعين سنة إلى وفاته[4]، ولكننا نعتقد أن المدة التي درس فيها أكثر من هذه المدة لأن أبا طالب من المعمرين، كما أن العالم لم يكن ينتظر وفاة والده لينتصب للتدريس فكثيرا ما الآباء يستعينون بأبنائهم في التدريس حتى في المناصب الرسمية، فكيف إذا كانوا هم أصحاب تلك المدرسة أو الزاوية.

تخرج على الشيخ أبي طالب أجيال من الطلبة والعلماء أشهرهم على الإطلاق الشيخان: محمد أبو راس الناصري[5]، ومحمد بن علي مؤسس الطريقة السنوسية، الذي قرأ عليه،

---

[1]- بعد الانتهاء من مراجعة الكتاب، كتب الورززي لابن حمادوش شهادة على كتابه هي بمثابة إجازة بالتأليف، ثم أردفها بعض الطلبة الحاضرين شهاداتهم فكانت إحداها شهادة عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني. ينظر: رحلة ابن حمادوش، ص- ص: 258- 262.

[2]- ذكر تلميذه محمد بن علي السنوسي في فهرسته " البدور السافرة " أنه ولد في أواخر القرن 11ه، أو مقاربا لبداية القرن 12ه، (الكتاني، فهرس الفهارس،ج1، ص: 507) في حين يحددها البعض ب: 1103ه/1691م.

[3]- مصطفى بن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوطين لحساني مختار. مخبر مخطوطات جامعة الجزائر، 2003. ص: 342.

[4]- الوثيقة المؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

[5]- حضر مجالسه لفترة ثم انقطع عنها، واعترض عنه لما كان " يدَّعيه من إشارات غيب". ينظر: أبو راس، فتح الإله، ص: 46.

وعلى حفيده الشيخ أحمد بن هني على سبيل النيابة عدة علوم[1]، كما أخذ عنه بمازونة عدد من علماء المغرب الأقصى نذكر منهم الشيخ أبو العباس أحمد التادي الحمودي العلمي السويفي (ت 1236هـ/1820م)[2].

الشيخ أبو طالب من المعمرين بحيث توفي سنة 1233هـ/ الموافق لسنة 1818م[3]، بعد أن جاوز المئة سنة من عمره، لكنه لم يترك تآليف كثيرة، ماعدا حاشية على شرح الخرشي[4] على مختصر خليل المعنونة بـ :" درة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي "، ومؤلَّف في التوحيد[5].

كان للشيخ محمد بن أبي طالب وجاهة كبيرة عند الناس والحكام، وكانت له أملاك من بساتين وأرض حراثة نحو 800 هكتار، وديار[6]. وقد شارك في الجهاد ضِّدَ النصارى الإسبان بوهران مع جند الباي محمد الكبير باي[7] في الرباط سنة 1205هـ/1790م، ونظرا للجهود التي قام بها، وسَّع له الباي محمد الكبير المدرسة ببناء بيوتها وجامعها، وقد كان عدد الطلبة بالمدرسة في حياته كبيرا، فقد أخذ معه إلى الرباط بوهران مائتي طالب، رغم أنه وقد كان ضعيفا لأنه كان مسنا[8].

---

[1] – المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، ص، ص: 196، 197.

[2] – عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ج1، ص: 119.

[3] –Moulay belhamissi, Mazouna . p: 49. الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 506.

[4] – أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي المالكي(ت 1101هـ): تصدر للإقراء بالأزهر. من مؤلفاته: شرحان على مختصر خليل كبير وصغير. ينظر: المرادي، سلك الدرر، ج4، ص: 78؛ مخلوف، شجرة النور، ص: 317.

[5] – بحري أحمد، حاضرة مازونة دراسة حضارية في العصر الحديث (1500–1900م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في: التاريخ والحضارة الإسلامية، بإشراف: أ. د محمد بن معمر. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. قسم: الحضارة الإسلامية. (2012–2013). ص : 242.

[6] – الوثيقة المؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

[7] – الباي محمد الكبير بن عثمان الكردي (1780– 1799م): كان والده عثمان الكردي بايا على بايليك التيطري، تدج في المناصب في باليك الغرب ومنها منصب خليفة الباي، ثم بايا، وكانت له إنجازات عمرانية وثقافية مهمة، وأهم إنجاز في عهده هو فتح مدينة وهران الثاني سنة 1791م، ولهذا عرف بعدة كنى منها أبو الفتوحات، أبو النصر، المجاهد. وقد " كان محبا للعلماء والفضلاء والأدباء". ينظر: أحمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران، ص:190؛ عائشة غطاس، باليك الغرب، ضمن كتاب الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ص: 223.

[8] – ابن سحنون، الثغر الجماني، ص: 234؛ مصطفى بن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ص: 342.

وقد كان من أبرز العلماء بالرباط حتى أن الرسائل التي يوجهها الباي للمشايخ بالرباط تبدأ به في كثير من الأحيان، ورد في إحداها :" بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله السيد محمد بن أبي طالب والسيد مصطفى بن عبد الله، والسيد محمد بن أبي سيف وكافة الطلبة... " [1]. وفي الرحلة القمرية أيضا ما يثبت مكانته :" شيخنا الفقيه الصالح البركة المدرس الناصح السيد محمد بن أبي طالب، وكان هو الناظم لجمع رباط هذا الثغر الوهراني"، فقام في الطلبة يقول لهم:" وكانت كلمته مسموعة، والنفوس على الخوف من عنايته مطبوعة"[2].

(5)- السيد هني بن الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني:

هو أحد الفقهاء المدرسين من هذا البيت، وقد كان مرافقا لوالده في الرباط بوهران، والنص الذي أشار إليه فيه ابن زرفة هو:" الفقيه السيد هني بن السيد الفقيه محمد بن أبي طالب، وكان يدرس مختصر خليل بعد العصر، ومجتمع عليه نحو خمسمائة طالب" [3]. ساهم هو الآخر في تسيير الرباط حتى أنه لما أراد الطلبة تقديم شكاية للباي في المسؤولين على النفقة عليهم :" قام فيهم سبيلهم محمد بن أبي طالب وابنه سيدي هني المذكوران ووعظاهم بأن هذا الأمر من نزغات الشيطان "[4].

وبعد فتح وهران تصدى للتدريس بها عند الباي محمد، وبأنه توفي قبل والده، ودفن ببلدة مازونة، وخلف ولدان عبد الرحمن، وأحمد[5].

(6)- الشيخ أبو العباس أحمد بن هني:

---

[1]- ابن زرفة، المصدر نفسه، ص: 382.

[2]- ابن زرفة، المصدر نفسه، ص: 410.

[3]- ابن زرفة، الرحلة القمرية، ص: 393.

[4]- ابن زرفة، المصدر نفسه، ص: 394.

[5]- الوثيقة المؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

الشيخ أحمد بن هني بن محمد بن علي هو حفيد الشيخ أبي طالب المازوني، تولى هو الآخر التدريس بمدرسة الأسرة أيام العثمانيين، وخلال الفترة الأولى من الاحتلال الفرنسي، فأخذ عليه عدد من العلماء[1]، ومنحهم الإجازات أشهرهم على الإطلاق الشيخُ محمد بن علي السنوسي.

وقد كانت له أملاك وفلاحة غزيرة ووجاهة عند الناس[2]. ومن مؤلفاته: حاشية على الخرشي، الشرح الكبير على صغري الشيخ السنوسي[3].

(ثالثا)– أسرى علمية متفرقة بمازونة:

وجدت أسر علمية أخرى بمازونة إلا أن قلة المادة العلمية منعتنها من التعرض لها، وقد أشار أبو راس في "فتح الإله" إلى بعضها أثناء دراسته بمازونة في صغره –أي في النصف الثاني من القرن 18م– منها:

– أسـرة ابن نافلة عد أبو راس الناصري ثلاثة من علمائها السيد العربي بن نافلة: وقد كان يدرس " مختصر خليل "، وغم أنه كان مسنا، قائلا بأنه:" أفنى عمره بين تلاوة ودراسة "، كما أخذ عن أخيه الشيخ أحمد بن نافلة، وعن ابنه الشيخ أحمد بن العربي بن نافلة [4].

ومن المشايخ الذي ذكرهم أبو راس بمازونة الشيخ ابن علي بن الشيخ أبي عبد الله المغيلي بقوله:" والطلبة على بابه مقبلة"[5]، وهو الذي يسميه مولاي بالحميسي الصادق الحميسي، وهو من أسرة توارث أفرادها القضاء والتدريس، درس على علماء بلدته ثم سافر إلى معسكر فدرس على عبد الله المشرفي ثم جاور بالأزهر، ورجع إلى مازونة حيث تولى

---

[1]– ممن أخذ عنه الشيخان: محمد بن أبي الحسن علي العبادي، ومحمد الحرشاوي الندرومي. ينظر: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 344، وص: 367.

[2]– الوثيقة المؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

[3] – أحمد بحري، حاضرة مازونة دراسة حضارية في العصر الحديث، أطروحة الدكتوراه، ص: 243.

[4]– أبو راس، فتح الاله ومنته، ص، ص: 44– 46.

[5]– أبو راس، المصدر نفسه، ص: 44.

القضاء، تولى نفس مهامه في وهران بعد فتحها سنة 1206ه/1791م، ويظل يشغل وظائفه إلى الاحتلال الفرنسي[1].

كان الصادق الحميسي يملك أعظم مكتبة علمية ورثها عن أجداده. ترك عدة أحكام له ولابن عمه الميلود قاضي المحلة بمازونة. وفي عهده زار مازونة شيخه المشرفي قاضي معسكر، ومدح قاضيها الصادق الحميسي بهذه الأبيات[2]:

مازونة خير القرى وأهلها خير ناس

.. لا سيما قاض بها حاز الفخار والجراس

...أكرم به من عالم سما بفكر وداس

– المبحث السادس: البيوتات والأسر العلمية بمستغانم وقلعة بني راشد:

(أولا)– أسرة ابن حواء المستغانمية:

أسرة عريقة اشتهرت بالعلم والتقوى، وهي من بني توجين القبيلة ذات الأصل البربري التي كانت تقطن بنواحي معسكر، وحتى بعد انتقالها إلى مستغانم ظل أبناؤها يحتفظون بنسبتهم إلى إقليم الراشدية. يمكن أن نثبت نسبها استنادا إلى ما كتبه محمد بن حواء أحد أبنائها في منظومته في علم المواريث كما يلي:" محمد بن محمد بن حواء بن محمد الجيلاني بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن عيسى التوجيني المستغانمي"، وأثبت اسمه أيضا في مخطوط نسخه بيده كما يلي[3]:" محمد بن محمد الموفق المشهور بأمه حواء بن قدار بن الجيلاني بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عمرون عيسى التوجيني نسبا، الراشدي إقليما، المستغانمي منشأ وقرارا"[4].

---

[1]-Moulay belhamissi, Mazouna (une petite ville, une long histoire !). p: 52.

[2]– مولاي بالحميسي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية. ص، ص: 2، 3 .

[3]– المخطوط الذي نسخه بيده هو شرح ابن سعيد، وذلك يوم 4 شوال عام 1142هـ/ أفريل 1730م.

[4]– صادق بن قادة، الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان (مكانتها في إنتاج المناقب الجهوية)، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، الصادرة عن مخبر المخطوطات بجامعة وهران، ع: 2-3، 2004- 2005. ص: 73.

وينسب لهذه الأسرة عدد من العلماء إلا أننا لم نتمكن إيجاد صلة القرابة التي تجمع بينهم كلهم، وهي من الأسر التي حظيت بتقدير السلطة حتى أن الباي عثمان بن الحاج إبراهيم[1]:" أمر بتحرير العلامة السيد محمد بن حواء وإخوانه، وبني عمه التجاجنة من جميع التكاليف المخزنية وكتب لهم بذلك رسما نص ختامه: بأمر المعظم الجليل المجاهد الكفيل أبي سعيد السيد الحاج عثمان باي الأيالة الغربية وتلمسان في أوسط جمادى الأولى عام سبعة وستين مائة وألف (1167ه)"[2]. وبما أنه يوجد عدد ممن يحملون اسم محمد في هذه الأسرة فليس من السهل معرفة العالم المقصود. ومن علماءها:

(1)– محمد بن حواء (الوالد):

هو محمد الموفق بن قدار بن الجيلاني، المعروف بابن حواء نسبة إلى أمه[3]، وهو والد صاحب منظومة "سبيكة العقيان" –المترجم له بعده– وفيها عد والده من ضمن علماء مدينة مستغانم في هاذين البيتين[4]:

العالم المحدث الأستاذ العالم المعـــدود في الأفذاذ

الوالد الشهير بابن حواء أتحـــف ربي الجميع عفوه

(2)– محمد بن محمد بن حواء (الابن) (ت 1180ه/1766م):

أثبت ابنه المترجم له بعده اسمه في بعض مؤلفاته ومنها منظومته "سبيكة العقيان" التي اشتهر بها بأنه: محمد بن محمد الموفق المشهور بأمه حواء بن قدار بن الجيلاني[5]. ولد بمدينة مستغانم، وقد أكد ذلك بقوله:" إنها لنا بها ولادة وسكن منذ سنين قدرت عن نصف قرن

---

[1]– الباي عثمان ويقال له عصمان بن الحاج إبراهيم: تولى سنة 1160ه/1747م، وظل بايا عليها لمدة 9 سنوات إلى أن توفي بمعسكر سنة 1170ه/1756م، هو الذي بنى الجامع الأعظم بداخل المعسكر سنة توليته، كان له غزوات لفتح وهران إلا أنه لم يتمكن من فتحها. ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص:283– 285.

[2]– المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 285.

[3]– صادق بن قادة، المرجع السابق، ص: 74.

[4]– حشلاف، سلسلة الأصول، ص، ص: 105، 106.

[5]– صادق بن قادة، الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان ص– ص: 74.

يقرب..." [1]. ويرجح أنه من مواليد أواخر القرن السابع عشر الميلادي، بحيث انتهى من منظومته في علم المواريث في الفاتح من جمادى الأولى سنة 1142هـ/ نوفمبر 1729م، ومنظومته المسماة " الريحانة المروحة " التي انتهى منها يوم 28 ذي القعدة سنة 1176هـ/ جوان 1763م، وكان قد تجاوز الخمسين بكثير.

أما **مؤلفاته** فأغلبها نظم، بحيث ترك عدد من المنظومات، ذكرنا اثنين منها، ونضيف "الغوثية الكبرى"، ومنظومة في تراجم المتصوفة والعلماء سماها " سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم من العلماء والأعيان"[2]، وذكرها دراسات أخرى ب" سبيكة العقيان في ذكر علماء مستغانم وأحوازه من الأعيان"[3]، أما ناظمها فقد اختتمها هكذا [4]:

قد انتهت سبيكة العقيان في ذكر ما أدركت من الأعيان

تقع منظومة سبيكة العقيان في مئة وواحد وستون بيتا (161) عدد فيها ناظمها علماء وصلحاء مستغانم ووادي شلف وغريس[5]، وهذه بعض أبياتها [6]:

يقول عبد الكريم مذنب سليل من للأم ينسب

..فها أنا مناضل عن وطني ومولدي ومرضعي ومسكني

ويبدو أنه عمَّر طويلا في قوله في أحد الأبيات:

يبكي بكاء الذي أحبابه درجوا وأكسبه العمر الطويل تأخرا

وأما وفاته[7] فهي في أواخر القرن الثامن عشر[1]، وهناك من يحددها بسنة 1180ه/ 1766م[2].

---

[1]- صادق بن قادة، المرجع نفسه، ص: 74.

[2]- أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة. ص: 163؛ عبد المنعم القاسمي، معجم أعلام الجزائر. ص: 354. الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 363.

[3]- صادق بن قادة، المرجع السابق، ص: 75.

[4]- حشلاف، المصدر السابق، ص: 109.

[5]- صادق بن قادة، الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان. ص- ص: 81.

[6]- حشلاف، سلسلة الأصول، ص: 103.

[7]- يوجد قبره خارج السور القديم لمدينة مستغانم، وهو مزار للتبرك. ينظر: صادق بن قادة، المرجع السابق، ص: 74.

(3)– السيد عبد الله بن حواء:

كان قاضيا بمعسكر، خلال الفتح الثاني لوهران، وقد كان محل ثقة الباي محمد الكبير ولهذا كلفه ببعض المهام، وكان الباي قد استشار العلماء في أمر الذين يتعاونون مع الإسبان فأفتوا له بالعفو عنهم حتى لا يذهبوا للإسبان، فكتب لهم كتابا في هذا ولكنهم طلبوا منه أن يبعث لهم الأمان مع بعض المرابطين " فبعث إليهم بقاضي البلد العلامة السيد عبد الله بن حواء، وخطيب المسجد الأكبر أخينا السيد أحمد" وغيرهما [3].

(4)– الشيخ الطاهر بن حواء (ت1791م/1205هـ):

عينه الباي محمد الكبير أستاذا بالمدرسة المحمدية[4] التي بناها بمعسكر، وأشير إليه في" الثغر الجماني" ب:" العلامة ... ذو الكمال الباهر قاضي المعسكر السيد الطاهر "[5]. والمعسكر قد تدل على مدينة معسكر، كما قد تدل على الرباط، بحيث شارك في تحرير مدينة وهران، وكلف بمساعدة الشيخ محمد الموفق الجلالي بإدارة الرباط بوهران رفقة مصطفى بن زرفة.

يذهب الشيخ المهدي البوعبدلي[6] إلى أن الطاهر بن حواء مذكور في منظومة "سبيكة العقيان"، إلا أننا نجد في البيت السادس والثلاثين(36) من المنظومة المذكورة إشارة إلى قاضي اسمه الطاهر، ولكن ليس هناك أية إشارة تدل على أنَّ المقصود هو الطاهر بن حوا،

---

[1]– تكتف أغلب الدراسات بالقول بأنه كان حيا سنة 1176ه أو 1167ه انطلاقا من تآليفه التي انتهى من تأليفها في تلك السنوات ك: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 363؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 298.

[2]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص: 355.

[3]– أحمد بن سحنون، الثغر الجماني، ص: 427.

[4]– بناها الباي محمد الكبير قرب مسجده الذي أسّسه على أنقاض الجامع العتيق بمعسكر. وصفها ابن سحنون بقوله:" المدرسة التي كاد العلم أن يتفجر من جوانبها"، وقد جعل بجانب مسجده خزانة كتب، كما جعل من بين موظفيه أربعة مدرسين ورتب لهم رواتبا. الثغر الجماني، ص: 127.

[5]– أحمد بن سحنون، الثغر الجماني، ص: 237.

[6]– المهدي البوعبدلي، في تعليق له الثغر الجماني لابن سحنون، ص: 237، ها: 1.

ويذكر الناظم في ابتداء من البيت الخامس والسبعون (75) أن الشخصيات التي ذكرها من قبل توفوا، وناظم السبيكة توفي قبل مترجمنا [1].

استشهد الطاهر بن حواء في شهر جمادى من عام 1791م/1205هـ أثناء الحصار وهران ورثاه صاحب " الثغر الجماني" بمرثية في ثمان وثلاثون (38) بيتا نذكر منها[2]:

ساد بالعلم والتقى والعطايا وبنى المجد فهو أكرم باني

...كان بدر العلوم في كل حفل يهدي للعلماء نور البيان

... يا ابن حواء إن قلبي حريق عنك مفتتن وأي افتتان

كما رثاه مصطفى بن عبد الله بن زرفة بقصيدة رفقة أحمد النكروف، حاول من خلالها إبراز خصال ابن حوا العالم الفقيه النحرير صاحب الجود والكرم، وهذه بعض أبياتها[3]:

والشاذي يشذو بالغازي وذكرها وبن حوا الفارس الدمغان

... بحر العلوم ومن إليه زمـــانها ألقت إليه مقاليد العرفان

(5)– السيد أبو محمد عبد الله بن الطيب بن حواء (ت1239ه/ 1823م):

ذكره المزاري ضمن أولياء وهران في هذا النص:" العلامة الكبير، والقدوة الشهير الجامع بين العلم والعمل الشيخ الرباني، أبو محمد عبد الله بن الطيب بن حواء القداري التجاني، شيخ الطريقة الدرقاوية كثيرة النوالي، بعد شيخه مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي البوبريحي الزروالي"[4].

لقد كانت نهاية هذا الشيخ الجليل نهاية مأساوية على يد الباي حسن بن موسى في إطار التصفية الجسدية لأتباع الطريقة الدرقاوية. أما تاريخ اغتياله ففيه بعض الاختلاف، بحيث يذكر المزاري أن الباي المذكور " أمر بقطع رأسي الفقيهين العالمين الجليلين الوليين الكاملين

---

[1]– والبيت الذي يقصده المهدي البوعبدلي هو:« وشيخنا قاضي القضاة الماهر* خاتمة الموثقين الطاهر ». ينظر: منظومة سبيكة العقيان ضمن كتاب سلسلة الأصول للقاضي حشلاف، ص: 104.

[2]– أحمد بن سحنون، المصدر السابق، ص، ص: 238، 239.

[3]– حمدادو بن عمر، المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب، ص: 263.

[4]– المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 90.

الجميلين السيد بن عبد الله بن حواء التجيني الدرقاوي، والسيد فرقان الفليتي بغير كلام". وأن ذلك كان في شهر شعبان 1239ه[1]/ 1823م.

في حين يذهب محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي إلى أن الباي حسن أمعن في قتل المشايخ :" وكان آخرهم وأكبرهم علما وعملا وحالا ومقالا، أبا محمد سيدي عبد الله بن حواء الغريسي، فقد سلطوا عليه وشنقوه"، مضيفا أنه بعد قتله بثلاث سنوات سلط الله عليهم من قطع ظلمهم[2]. أي أن ابن مصطفى المشرفي يذهب إلى أن قتله كان سنة 1242ه/ 1827م، في حين يذهب عبد المنعم القاسمي أن قتله كان سنة 1245ه/ 1829م[3].

(6)- السيد محمود بن حواء التجيني:

ذكره المزاري ضمن علماء الغرب[4]، إلا أننا لم نعثر في المصادر على المزيد من أخباره.

(7)- محمد بن حواء بن يخلف:

تولى القضاء في أواخر العهد العثماني، وحضر بيعة الأمير عبد القادر الثانية في الثاني عشر رمضان سنة 1248هـ/ 1832م، وورد ذكره ضمن من حضرها من العلماء والأعيان في هذا النص:"... والولي الناسك الأشرف السيد محمد بن حواء بن يخلف..." [5].

(8)- الطاهر بن حواء (الثاني):

ومن هذه الأسرة الشاعر الشعبي المشهور، الذي تولى القضاء في عهد الأمير عبد القادر[6].

(ثانيا)- أسرة ابن خوجة المستغانمية:

---

[1]- المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 351.

[2]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية.ج2، ص، ص: 54، 55.

[3] - عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:217.

[4]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 105.

[5]- أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تح: ناصر الدين سعيدوني. بيروت: دار الغرب الاسلامي، (ط1)، 1991. ص، ص:35، 36.

[6]- المهدي البوعبدلي، في تعليق له الثغر الجماني لابن سحنون، ص: 237، ها: 1.

أسرة بن خوجة من الأسر العلمية المشهورة، ولهذا أشار أبو راس في كتابه " فتح الاله" إلى أحد أبناءها قائلا بأنه " من بيت علم وصيانة"[1]. أما أصلها فهي تركية حسب المزاري لقوله متكلما عن صاحب كتاب "الدر والأعيان" :" قال السيد حسن بن خوجة التركي"[2]. أنجبت هذه الأسرة عددا من العلماء والأدباء منهم حسين خوجة، وابن عمه محمد بن حسين خوجة، والشريف ابن خوجة، وابنه أحمد بن خوجة الذي درس عليه الأمير عبد القادر بوهران خلال إقامته بها مع والده محي الدين[3].

(1)– حسن خوجة:

يذكره المزاري بحسن خوجة[4]، ويحي بوعزيز بحسين خوجة، ويذهب إلى أنه كان مثل ابنه كاتبا في ديوان الإنشاء للباي محمد بن عثمان الكبير، وألف كتابا أسماه " دُرَّ الأعيان في أخبار مدينة وهران "[5].

ولا شك في أنه كان من الكتاب أثناء حروب درقاوة[6] لأنه ذكر في كتابه " الدر" ما يؤكد حضوره لبعض الوقائع:" ولقد رأيت الجندي يأتي بالثلاثة والأربعة رؤوس بالعيانة فيضعها بين يدي الباي" [7]، ولهذا ذكر كثير من أخبار حرب درقاوة في كتابه " در الأعيان"[8]، وأورد الكثير من القصائد في هذه الحروب، منها القصيدة التي مدح أحد أبرز الأغوات، وهو الآغا السيد قدور الصغير بن إسماعيل البحثاوي، نذكر من أبياتها[9]:

جزى الله جل الناصر بالبواتر قدور بن إسماعيل رايس الدواير

لحزب الأتراك في جميع المعارك فإنه ليـــث الحرب ليس بغادر

---

[1]– أبو راس، فتح الاله، ص: 100.

[2]– المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 350،

[3]– يحي بوعزيز، في تعليق له في كتاب طلوع سعد السعود للمزاري، ج1، ص: 98، هامش: 1.

[4]– المزاري، المصدر السابق، ج1، ص: 349، 350.

[5]– يحي بوعزيز، في تعليق له في المصدر السابق، ج1، ص: 98، هامش: 1.

[6]– ينظر حول ثورة درقاوة الفصل الخاص بالدور السياسي للبيوتات.

[7]– المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 317.

[8]– اعتمد عليه المزاري في طلوع سعد السعود، ونقل صفحات بأكملها منه. ج1، مثلا ص: 317 وما بعدها.

[9]– المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 317.

ومن الأبيات الواردة في إحدى قصائده التي نظمها خلال حروب درقاوة في عهد الباي محمد بن عثمان المقلش[1]:

أيا عسكر الأعراب تب جميعكم وسوف تروا ماذا بكم سيصير

فلا تعجلوا للموت ها هي دونكم غدات اللقا منها الرؤوس تطير

كما كان كاتبا لقائد فليتة حسن بن موسى الباهي: المعروف بأهج حسن، وهو الذي ولى فيما بعد بايا على وهران فكان آخر باياتها[2]. ذلك في عهد صهره الباي محمد الرقيق:" ويقول في ذلك قال صاحب "در الأعيان" وهو السيد حسن خوجة كثير المعاني والبيان وكنت كاتبا لأموره الشاملة ولازمته في الخدمة السنة الكاملة ... فلم أسمع قط منه جناحا... وإنما يظهر منه من محاسن الأخلاق"[3].

ومنذ سنة 1238ه/1817م أصبح حسن بن موسى بايا على وهران، وقد مدحه حسن خوجة بقصيدة في الفترة الأولى لولايته، إلا أننا لا ندر إن أصبح كاتبا له أيضا، ويجب التنبيه إلى أن الباي حسن تغير في سياسته وأصبح كثير البطش سيما بالعلماء الذين قتل بعضهم على غير وجه حق. ومن الأبيات التي نظمها فيه مترجمنا[4]:

إذا ذكر البايات كان أعفهم وأكثرهم جودا وأوجبهم فرضا

وإن ذكر الفرسان كان أكرّهم وأفرسهم خيلا وأرماهم غرضا

(2)- السيد محمد بن حسن:

هو ابن حسن المترجم له قبله، ذكره المزاري ضمن علماء القرن الثالث عشر الهجري قائلا:" الشريف السيد محمد بن حسن المعروف بالكاتب المستغانمي لكونه كان كاتبا لإنشاء

---

[1]- المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 320.

[2]- تولى الباي حسن خلال الفترة الممتدة من (1238- 1246ه/1817- 1831م) المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 349، 368.

[3]- المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 349.

[4]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 350.

الباي المجاهد السيد محمد بن عثمان فاتح وهران"[1]. كما أشار إليه أبو راس في كتابه " فتح الاله" واصفا إياه بما يلي ب:" لسان الدولة وفارس الجولة الذي عظم الله مكانته ورفعته... وقربه في بساط الملك تقريبا... وأعطاه لواء القلم الأعلى، فوجب على من دونه من أولي صنعته أن يتبعه... العالم الفقيه الحبر النزيه...ذو البلاغة والجزالة واللسن، السيد محمد بن حسن، من بيت علم وصيانة، ونزاهة وأمانة ...ومنصب كريم وحسب حميم... وكان رحمه الله ذا يد في النحو واللغة وسائر العلوم... لا سيما الأدب" [2].

إنَّ ترحم أبا راس عليه يدل على وفاته خلال تأليفه " لفتح الإله"، الذي ألفه في السنوات الأخيرة من حياته. والمعلوم أن أبي راس توفي سنة 1238ه/ أفريل 1823م[3].

(3)– السيد أحمد بن خوجة المستغانمي:

هو أحمد بن محمد بن حسن بن خوجة، لم نجد الكثير من أخباره غير أن المزاري ترجم له اثر والده بهذا النص:" ابنه القاضي الشريف السيد أحمد بن خوجة المستغانمي"[4].

(ثالثا)– أسرة الخروبي بقلعة بني راشد[5]:

ويبدو أن أسرة الخروبي وأسرة أولاد جلول فرعان لأسرة واحدة، ذلك أن المصادر تصف الواحد منهم بالخروبي وبالجلالي في الوقت ذاته، وهي أهم الأسر العلمية بالقلعة، وفي مخطوط "قلعة بني راشد" ما يؤكد ذلك:" فمن طائفة أولاد جلول وطائفة الخرابة اكتسبت القلعة شرفا واحتراما سنين عديدة ومدة مديدة، وكانت مشهورة بقراءة مختصر خليل في فقه مالك، وفي الحديث والتوحيد وغير ذلك"[6].

---

[1]– المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 97.

[2] – أبو راس، فتح الاله، ص: 100.

[3]– المزاري، المصدر السابق، ج1، ص: 351.

[4]– المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 98.

[5]– تأسست قلعة بني راشد في القرن الخامس للهجرة (11م)، وكانت تعرف بقلعة هوارة. ينظر: يحي بوعزيز في تعليق له في المصدر السابق، ج1، ص: 103، هامش: 2.

[6]– بوركبة محمد، جوانب من مخطوط " قلعة بني راشد" للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات الصادرة عن مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران . ع1، جوان 2003. ص115.

ذكر صاحب مخطوط " قلعة بني راشد" في تراجم أبناء هذه الأسرة أن أصل أسلافه من أولاد سيدي محمد (أو إلى أولاد بلقاسم) واستوطنوا القلعة واستفحلوا في العلم الإسلامي، فنالوا بذلك القرب لدى الملوك فقربهم كم من باي[1]. وقد توارث علماء أسرة الخروبي خطة القضاء للعثمانيين وللأمير عبد القادر[2].

(1)- الشيخ محمد بن علي بن الخروبي القلعي:

هو من أوائل علماء هذه الأسرة، وقد ذكره الشيخ مصطفى الرُماصي في إجازته لأحد تلامذته بقوله:" وأكثر قراءاتي في العقائد السنوسية على الشيخ المحقق الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن الخروبي القلعي"[3].

(2)- السيد محمد بن الجيلاني الخروبي[4]:

تولى القضاء والكتابة بوهران، وكان مقربا من بعض بايات وهران، ووصفه المزاري بقوله :" الخوجة السيد الحاج محمد بن الخروبي، والشبيه بالحكيم اليوناني القاضي السيد محمد بن الجيلالي الخروبي"[5]. وورد في "طلوع سعد السعود" أن الباي عثمان بن محمد بن عثمان ثالث بايات وهران [6]:" أعرض عن المملكة باللب وأقبل بكله على اللهو والطرب... فصار مجلسه لا يخلو من الأدباء الظرفاء والسادات الأعيان والشرفاء ... وكان من جملة ندمائه حقا، وأظرفهم خَلقا وخُلقا، الفقيه اللبيب، الكعب الأريب، الآخذ من كل علم وافر بنصيب، الحائز للآداب بكمال المرعى، السيد محمد بن الجيلاني الخروبي

---

[1]- بوركبة محمد، المرجع السابق، ص115.

[2]- يحي بوعزيز في تعليق له في طلوع سعد السعود للمزاري، ج1، ص: 103، هامش: 2.

[3] - الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص: 541.

[4]- يسميه ابن عثمان القلعي بمحمد بالجيلاني بالخروبي بينما يسميه المزاري بالاسم المثبت في المتن.

[5]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 103.

[6]- سنة 1213ه/ 1799م، وبقي في الحكم ثلاث سنين. عرفه بإقباله على اللهو وإهمال شؤون البابليك. المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 299.

القلعي"[1]. قد نظم فيه الخوجة السيد مسلم بن عبد القادر الحميدي في " أنيس الغريب والمسافر" بهذين البيتين[2]:

ونم لأبي ممد عثمان مصدر في كل شيء فقيه

عفيف ذو نجابة مهاب ظريف ذو رئاسة وجيه

كما كان السيد محمد بن الجيلاني مقربا من الباي محمد بن محمد بن عثمان الملقب بالمقلش، وهو خامس بايات وهران[3]، وتمكن الباي من تحقيق انتصارات مهمة على الدرقاوي، ولما ظهر هذا الأخير مرة أخرى استشار هذا العالم :" ونادى لنديمه الأديب ورفيقه الحبيب ومؤنسه، وصاحب سره، المطلع في جميع الأحوال على سعده ونحسه وخيره وشره، شبيه الحكيم اليوناني، اللبيب الخروبي القلعي السيد محمد بن الجيلاني...."، فأشار عليه مترجمنا بجمع أعيان مخزنه ليستشيرهم ففعل[4].

(3)- السيد مصطفى بن جلول[5]:

وصفه المزاري بقوله :"حافظ البخاري[6] السيد مصطفى بن جلول الخروبي"[7]، ووصفه عثمان القلعي بقوله:" الفقيه العلامة السيد مصطفى بن جلول، وهو من أولاد سيدي

---

[1]- المزاري، المصدر السابق، ج1، ص: 299.

[2]- المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 300.

[3]- تولى سنة 1220ه/1805م، " وبقي في الملك ثلاثة أعوام ". ينظر: المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 310.

[4]- المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 314.

[5]- أما صلة القرابة بين الرجلين يتحدث المزاري (طلوع سعد السعود، ج1) عن مصطفى، ويضيف **وصنوه** السيد محمد بن جلول الخروبي.

[6]- ونص ابن عثمان القلعي " الفقيه السيد مصطفى بن جلول حتى كان هذا سيدي مصطفى يعرف كتاب البخاري على ظهر قلبه". ينظر: بوركبة محمد، جوانب من مخطوط " قلعة بني راشد" للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي، ص115.

[7]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 103.

بلقاسم، كانت له كلمة عالية لدى البايات بوهران لا سيما الباي مصطفى[1] والباي محمد بوكابوس[2]"[3].

(4)- السيد الحاج محمد بن الخروبي (ت1278هـ/1861م):

ابن أخ محمد السابق، كان كاتبا عند الباي حسن آخر بايات وهران[4]، وخرج معه في حملاته، بحيث رأى هذا الباي إقبال الناس على السيد محمد الكبير ابن الشيخ أحمد بن سالم التيجيني فأراد كسر شوكته :" فجمع له جيشا عظيما ... وغزا به عليه بعين ماضي، وحاصره بها شهرا كاملا بماض، إلى أن حصل الصلح بينهما على يد كاتبه السيد الحاج محمد بن الخروبي القلعي على أن يعطي التجيني للباي لزمة سنوية "[5]. وكان هذا الحصار سببا في ثورة التجانية عام 1242ه/1827م[6].

كما تولى القضاء بالقلعة مدة في العهد العثماني، وفي أيام الأمير عبد القادر، وتولى باي المحال، وخليفة بأرض الزيبان، وجميع الجهة الشرقي، ولما انتهت مقاومة الأمير عبد القادر انتقل معه للشام، وتوفي هناك سنة 1278ه/1861م[7].

(5)- المكي الخروبي: لا نعرف من أخباره إلا أنه عين عضوا في مجلس الشورى العالي الأميري[8]، وهذا كاف للدلالة على كفاءته من جهة ومكانة أسرته من جهة أخرى.

---

[1]- الباي مصطفى بن عبد الله العجمي، هو رابع بايات وهران، تولى عليها مرتين الأولى سنة 1215ه/ 1800م، 1220ه/ 1805م، وتولى بايا للمرة الثانية سنة 1222ه/ 1808م وبقي حوالي تسعة أشهر ثم عين خزناجيا بعاصمة الأيالة. وفي أيامه كانت حروب الدرقاوي لا تزال مستمرة. ينظر: المزاري، المصدر السابق، ج1، ص، ص:302- 310، 327.

[2]- الباي محمد بن عثمان الرقيق المكنى ببوكابوس، وكان يقال له الصغير للتفريق بينه وبين أخاه محمد الكبير المجاهد، تولى في أواخر 1222ه/ 1808م، وبقي في الحكم خمسة أعوام. ينظر: المزاري، المصدر السابق، ج1، ص: 329، 330.

[3]- بوركبة محمد، المرجع السابق، ص115.

[4]- بوركبة محمد، المرجع نفسه، ص115.

[5]- المزاري، المصدر السابق، ج1، ص: 354.

[6]- أتى محمد الكبير التجاني في رجال من عين ماضي من الصحراء، قبائل الحشم ودخل بهم معسكر، إلا أن الباي قضى على ثورته في فترة وجيزة.

[7]- بوركبة محمد، جوانب من مخطوط " قلعة بني راشد" للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي، ص115.

[8]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 103، 104، هامش: 2.

– من خلال هذا الفصل المخصص للتعريف بعلماء البيوتات والأسر العلمية ببايليك الغرب، نجد أن البيوتات كانت تكثر حيث تنشط الحركة العلمية فتأثر هذه البيوتات فيها بنشاط أبناءها، وتتأثر بها، كما نجد ارتباط ذلك بتركز السلطة، بحيث نشطت الحركة العلمية مثلا بمعسكر منذ اتخذت مقرا لباي الغرب، لأسباب مختلفة منها توفر المناصب العلمية والدينية الكبرى، ونلاحظ بشكل جلي تراجع الحركة لعلمية بتلمسان وقلة عدد الأسر العلمية منذ فقدت زعامتها السياسية واختفت الكثير من بيوتاتها.

الباب الثـاني

الدور الثقافي والسياسي للبيوتات والأسر العلمية ومكانتها الاجتماعية

الفصـل الأول: الـــدور الثقافي للبيوتات والأسر العلمية

الفصل الثـاني: الدور السياسي للبيوتات والأسر العلمية

الفصل الثالث: المكانة الاجتماعية للبيوتات والأســـر العلمـــية

الفصل الأول

الدور الثقافي للبيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني

المبحث الأول: زوايا ومدارس البيوتات العلمية

المبحث الثاني: محافظة البيوتات العلمية على خصوصيتها الثقافية

المبحث الثالث: البيوتات والأسر العلمية والوظائف

المبحث الرابع: البيوتات العلمية وإمارة ركب الحج الجزائري

الثقافة هي ذلك النتاج التراكمي القابل للتحول من سلوك الماضي في جماعة أو تجمع ما، وهي تتضمن جميع فروع العلم والمعرفة بالإضافة إلى الإنتاج المادي. ولّما كانت الثقافة بالجزائر -خلال العهد العثماني- دينية فقد ارتكزت على العلوم الإسلامية[1]، وارتبطت ارتباطا وثيقا بحركة التعليم، وبالأخص التعليم الذي يُوصف بالثانوي والعالي؛ المتوفر في بعض المناطق دون غيرها، ولهذا يمكن القول: بأنَّ الثقافة بالجزائر كانت جهوية إقليمية، أكثر منها عمومية قطرية[2].

وعلى هذا الاعتبار فإن الحياة الثقافية عرفت انتعاشا ملحوظا في الحواضر الكبرى التي كثر بها رجال العلم والمؤسسات التعليمة وفي مقدمتها مدينة الجزائر ومدينة قسنطينة، وحتى في بعض المدن والأقاليم المتوسطة الأهمية كمدينة مازونة وإقليم الراشدية الذي تقع ضمنه مدينة معسكر. وكثيرا ما كانت الحواضر الثقافية البارزة هي مقر للسلطة المركزية، أو مقرا للبايليك.كما عرفت الحركة الفكرية انتعاشا يستحق التنويه في بعض القرى والتجمعات الريفية التي وجدت بها زوايا تعليمية نشيطة كبلاد زواوة، وخنقة سيدي ناجي وغيرها.

وانطلاقا مما رأيناه في الباب الأول من هذه الدراسة نلاحظ أن البيوتات والأسر العلمية كثيرة بالمراكز التي تنتعش فيها الحياة الثقافية مما يوحي بوجود علاقة تأثير وتأثر بين البيوتات والمستوى الثقافي للمنطقة. فأما تأثير البيوتات في الحراك الثقافي فهو من خلال تأطير أبناءها لمختلف الأنشطة الثقافية والعلمية، والتي ارتبط جلها بالتعليم، والتأليف، وإدارة المؤسسات الثقافية التي لا تخرج عن المسجد والزاوية والمدرسة... إلخ[3]، كما ارتبط نشاط أبناء البيوتات العلمية بالوظائف الدينية والعلمية ومن أهمها: القضاء والإفتاء، والتدريس، بالإضافة إلى إمارة ركب الحج، نقابة الأشراف...إلخ.

---

[1]- المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، ص: 126.

[2]- محـــمد بن عبد الكريم في مقدمة تحقيقه لكتاب: التحفة المرضية في الدولة البكداشية لمحمد بن ميمون الجزائري. ص: 56.

[3]- لم يوجد آنذاك مؤسسات ثقافية كالمتحف، أو المسرح وغيرها.

- المبحث الأول: زوايا ومدارس البيوتات العلمية

أهم الأدوار التي قامت بها البيوتات العلمية هو إشرافها على الثقافة والتعليم من خلال تأسيسها للعديد من المدارس والزوايا التي خرَّجت أجيالا من العلماء والمتعلمين. ولا مناص في أن التعليم هو المحرك الأساسي للحركة الفكرية، إذ به تنتشر الثقافة بين أفراد المجتمع، وبه تتقدم العلوم والآداب، وبه أيضا يترقى المجتمع سلوكيا وحضاريا. ومن الأدوار الأساسية لبعض الزوايا هو خدمة التصوف إلى جانب التعليم، فتصدى بعض رجالها لإعطاء العهد والأوراد في طريقة صوفية ما.

وتزداد أهمية المؤسسات التعليمية التابعة للبيوتات العلمية الكبرى، أمام تراجع دور السلطة في هذا المجال، إذ لم يكن من ضمن سياسة السلطة العثمانية بالجزائر الاهتمام بالتعليم[1]، فقد كانت انشغالاتها آنذاك منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي، والدفاع عن الحدود، وجمع الضرائب، وتركت المشاريع العمرانية والخدمات الاجتماعية للمبادرات الفردية، أو لرعاية المؤسسات الخيرية[2].

ولا شك في أنه من غير المنصف تحميل العثمانيين المسؤولية الكاملة في تدهور الثقافة بالجزائر، ولكن يجب القول بأن سياستهم أعانت على ذلك، فلم يكونوا حاملي مشروع ثقافي، ولم يشكلوا في الوقت نفسه عائقا في وجه استمرار الحياة الثقافية، بل كان بعض الحكام ورجال الدولة يحترمون العلماء، والأكثر من ذلك فإن بعضهم قام ببناء جوامع[3]، أو كتاتيب لتعليم

---

[1] - يستثنى من هذا الحكم كل من الباي محمد الكبير في بايليك الغرب وصالح باي في بايليك الشرق، لأنهما بذلا جهودا كبيرة من أجل النهوض بالتعليم. ينظر: توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766- 1791م). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986. ص، ص: 134، 135.

[2] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 313.

[3] - ارتفع عدد المساجد بالجزائر بعد التحاقها بالدولة العثمانية، خاصة بمدينة الجزائر التي شاهد بها فانتور دي برادي 12 مسجدا جامعا، وعدد كبير من المساجد الصغيرة. ومن المساجد التي تأسست على أيديهم مسجد خير الدين، وجامع كتشاوة (القرن 11هـ)، الذي أوقف عليه حسن باشا في سنة 1210هـ /1796م أوقافا مهمة، وخصص رواتب لاثنين من المدرسين به. ينظر:

القرآن الكريم أو زوايا[1]، ثم يوقفون عليها أوقافا لحفظها وصيانتها.

وهكذا فرغم إهمال السلطة العثمانية للتعليم، فقد كان يقوم على جهود الأفراد – حكاما ومحكومين– والمؤسسات الخيرية التي تتغذى من الأوقاف، فانتشر التعليم في الجزائر انتشارا واسعا خصوصا " التعليم الأولي"، إذ لم يكد يُوَجد بالجزائر من لا يعرف القراءة والكتابة؛ وذلك لكثرة الكتاتيب القرآنية التي لا يكاد يخلو منها حي من الأحياء في المدن، ولا قرية من القرى، بل كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية[2]، وهذا ما أبهر جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني[3].

أما التعليم من المستوى الثانوي والعالي، فقد كان قليلا[4]، ورغم أنَّ الرحالة الفرنسي فانتور دي بارادي (venture de paradis) تحدث في القرن الثاني عشر الهجري (18م) عن وجود ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي بمدينة الجزائر وحدها[5]، فالواقع يشهد على أنَّه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه، فقد خلت الجزائر آنذاك من مؤسسة للتعليم العالي، تُوَّحِد نظم التعليم، وتحافظ على مستواه، وتعكس نشاط واتجاه

---

venture de paradis, Alger au 18eme siècle. Alger : Imprimeur libraire, édité par : E.faghan, 1898, p:157 ; Devoulx, Les Edifices Religieux de l'ancien Alger , in **R.A** , N° : 12, Année : 1868,p-p :107- 113.

[1]– أسس عدد من رجال الدولة مدارس وكتاتيب وزوايا من أموالهم الخاصة منها: مسيد القيسارية، ومسيد السودان، ومدرسة ساحة الجنينة، والمدرسة التي أنشأها بيت المالجي ساري مصطفى بن الحاج محمود سنة 1113هـ/1703م، وزاوية الأشراف التي أنشأها الداي محمد بكداش بمدينة الجزائر سنة 1121هـ، وأوقف عليها أوقافا متنوعة، وجعل من بين موظفيها مدرسا. ينظر:
Devoulx, Op.cit, N° :11, Année : 1867,p, p :449, 454, 457. N° :12, Année : 1868,p-p105-107.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 274.

[3]– قال عبد الرحمن الجامعي المغربي واصفا المكاتب القرآنية بمدينة الجزائر:" كان بهذه الحاضرة نحو مئة مكتب ملآى بالأولاد". وذكر مرسيل، أنه كان في مدينة تلمسان خمسين مدرسة (ابتدائية) يتردد عليها ألفي تلميذ. ينظر: نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر. ص: 202؛
Emerit Marcel, L'Algérie à l'époque d'Abdel- Kader. Paris : Editions la rouse.1951.p: 13.

[4]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص، ص: 319، 320.

[5]–venture de paradis, Op.cit. p: 158.

العلماء، وتحفظ قدرا معينا من أساليب اللغة، والذوق الأدبي العام[1].

وقد كانت حلقات الدروس العليا تُعقَد في المساجد، والمدارس، وفي الزوايا التعليمية [2]، وحتى في الرباطات[3]. وأكثر هذه المؤسسات التعليمية انتشارا الزوايا والمساجد، فلا نكاد نجد بالجزائر قرية أو حيا بدون مسجد، واحتضان هذه المساجد مهمة التعليم، إلى جانب مهامها الدينية والاجتماعية، وانفردت كل حاضرة بجامعها الأعظم الذي يُمَثِّل معهد التعليم المتوسط والعالي[4].

أمَّا الزوايا التي كان جلها ملكا لبيوتات علمية ودينية- فقد انتشرت بالريف في بداية العصر الحديث، بالإضافة إلى الزوايا التي كانت قائمة بالمدن، وكان لها الفضل في انتشار التعليم بالمناطق البعيدة عن الحواضر[5]، بل نجحت في جعل بعضها من أهَّم المراكز الثقافية في الجزائر، كمنطقة زواوة التي تأسس بها عدد كبير من الزوايا[6].

أما المدراس المخصصة للتعليم من المستوى الثانوي والعالي، فقد كانت قليلة جدا بالجزائر خلال العهد المدروس. وفيما يلي أهم الزوايا والمدارس التي تملكها البيوتات.

(أولا)- زوايا ومدارس البيوتات العلمية بدار السلطان:

يبدو أن تولي أبناء البيوتات العلمية بمدينة الجزائر للفتوى بالجامع الكبير المالكي والجامع الجديد الحنفي أتاح لهم فرصة إثبات أنفسهم كمفتين وأئمة وخطباء، ومدرسين، فلم يعودوا بحاجة إلى إنشاء مدارس وزوايا خاصة بهم ليتألقوا وسط ذلك العدد من البيوتات، كما أن

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 273.

[2]- لمزيد الاطلاع على النظام الداخلي للزوايا التعليمية ينظر: محمد سي يوسف، " نظام التعليم في بلاد زواوة بأيالة الجزائر خلال العهد العثماني". أعمال ملتقى: الحياة الفكرية في الولايات العثمانية. زغوان (تونس): منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، (ط1)، 1990. ص- ص: 193- 209؛ العيد مسعود،" المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، ع: 10، السنة السادسة، 1988. ص- ص: 23-25.

[3]- إنّ تعرض الجزائر الدائم للحملات الصليبية الأوربية أدى إلى انتشار الرباطات على سواحلها بتنس، وبجاية، ووهران، وتلمسان وغيرها. ينظر: المهدي البوعبدلي في مقدمة تحقيقه لكتاب للثغر الجماني لابن سحنون، ص، ص: 19، 20.

[4]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص: 270.

[5]- العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، ص: 63.

[6]- محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص:195.

النشاط التعليمي والديني للجامع الكبير بالخصوص كان يغطي على نشاط أي مؤسسة أخرى.

وإذا قيل أن عدم إقبال تلك البيوتات على إنشاء المدارس والزوايا هو ما تتطلبه تلك المؤسسات من مال لدفع أجور المدرسين والإنفاق على الحاجات اليومية للطلبة، قلنا أن ذلك صحيح في حق بعض البيوتات، أما بعضها الآخر فلا، فقد كانت أسرة قدورة مثلا ثرية جدا ومع ذلك لم تنشأ مدرسة خاصة بها. وهنا لا بد أن نشير إلى أن تلك المؤسسات سرعان ما تصبح بعد إنشاءها وجهة للمحسنين فيتصدقون عليها ويوقفون عليها أوقافا هامة، إيمانا منهم بدورها الجليل في خدمة الدين ونشر العلم والمعرفة.

وإذا قارنا بيوتات هذه المدينة ببيوتات قسنطينة التي أقبلت على إنشاء المدارس والزوايا رغم اشتغالها بالوظائف الدينية والعلمية المختلفة وإدارتها للجوامع الكبرى، نجد أن الفرق بينها يتمثل في افتقاد بيوتات مدينة الجزائر للعراقة إذ نشأت كلها خلال العهد العثماني، بينما دأبت البيوتات القسنطينية العريقة منذ قرون على إثبات خصوصيتها الثقافية من خلال تلك المؤسسات، وذلك هو الدور الإيجابي للتنافس بينها.

وقد كانت بمدينة الجزائر عدد من الزوايا التابعة للبيوتات الدينية إلا أنها لم تكن مخصصة للتعليم، إذ انحصر دورها في الجانب الاجتماعي المتمثل في إيواء المحتاجين وتقديم مساعدات مختلفة للفقراء، ولما كانت هذه الزوايا تضم عادة ضريحا لوليها أو عدد من أضرحة كبار تلك الأسر، فقد أقبل العامة على زيارتها، للتبرك بأوليائها، ومن هذه الزوايا زاوية الزهار، وزاوية عبد الرحمن الثعالبي وزاوية عمر التنسي[1]. كما كانت هناك العديد من الزوايا خارج مدينة الجزائر من أشهرها زاوية ابن مبارك بالقلعة، وزاوية الحاجي بتنس.

[1] – وجدت بمدينة الجزائر عدد من الزوايا التي كان لها دور في التعليم إلا أنها ليست ملكا لبيوتات وإنما تنسب لفئة معينة كزاوية الأشراف، وزاوية الأندلسيين، زاوية شيخ البلاد وزاوية القشاش.

(1)- زاوية آل آبهلول المجـــاجـــي بثغر تنس:

قامت هذه الزاوية بالتعليم أحسن قيام، ولذلك وصف المشرفي بلدتها بقوله:" مجاجة دار علم وعمل"[1]، ورغم ذلك فأنَّ تاريخ تأسيسها غير معروف على وجه الدقة، ومؤسسها كذلك، إذ لا نملك أية إشارة إلى مؤسسها، فلا نعرف إن كان مؤسسها هو "سيدي" محمد بن علي أبهلول الولي المشهور، أم أنه ورثها عن أسلافه[2]. وكل ما نعرفه هو أنها اشتهرت في أيام الشيخ محمد بن علي، أي في النصف الثاني من القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر الهجريين، وبعد وفاته قام بأمرها أخوه أبو علي وأبناؤه، واستمر الأحفاد يتوارثونها ويديرونها جيلا بعد جيل طيلة العهد العثماني، إلا أن أخبارها انقطعت في كتابات ذلك العهد، للعدم إنجابها لعلماء كبار من جهة، ولضعف أدائها التعليمي من جهة أخرى.

برزت زاوية المجاجي في ميادين مختلفة في حياة الشيخ محمد بن علي أبهلول، فقد اشتهرت بنشر العلم، فكانت تشد إليها الرحال، وقد كان يقيم بها نحو ثلاثمائة طالب يدرسون العلم[3] على الشيخ محمد بن علي الذي كان يلقي دروسا في التفسير[4] والنحو، والصرف، والمنطق، والتوحيد وغيرها من العلوم.

وإلى جانب نشاطها الثقافي الذي تجسد في التعليم بالدرجة الأولى، كانت تؤدي دورا في التصوف، وإن كانت معلوماتنا في هذا الجانب قليلة فالحضور الصوفي لبعض أفراد هذا البيت وفي مقدمهم الولي المشهور محمد بن علي، وتمتع هذا البيت لعدة قرون بمكانة رفيعة في المنطقة كممثلين للدين يؤكد دورها في مجال التصوف.

---

[1]- أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 35.

[2]- نسبها أبو القاسم سعد الله إلى الأخوين محمد وأبا علي معا، واصفا إياها ب " زاوية الشيخ محمد وأخيه أبي علي بن آبهلول". ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص: 361.

[3]- ابن عشيط، الأحرف الوهاجة، ص: 20.

[4]- كان يدرس تفسير القرآن الكريم وتوقف عند سورة " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا "(سورة الإسراء، الآية (1)) وتوفي في الصباح، فعدَّ بعضهم ذلك من كراماته. ينظر: الجيلالي العطافي، كتاب المرآة الجلية، ص: 201.

لقد نالت أسرة أهلول مكانة مرموقة لانتسابها للأشراف، ولشهرة أبناءه بالصلاح والتقوى، إلى جانب العلم الذي تزين به عدد منهم، كما كان للدور الذي أدته زاويتهم في التصوف والجهاد أبلغ الأثر في رفع مكانتهم، وباعتبار منطقة تنس ثغر، فقد كان هذه الزاوية رباط للجهاد أيضا.

ظلت زاوية المجاجي تقوم ببعض النشاط خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وقد ذكر المشرفي الذي زارها سنة 1249هـ/1833م بأنه وجد بها بعض العلماء المتضلعين في علم المعقول والمنقول، وأشار إلى أعقاب الشيخ محمد بن علي بقوله:" وله أحفاد من أولاده ورثوا رتبة جدهم في الجود والكرم وحسن الخلق والمروءة... يلقون الضيوف بالبشاشة وطلاقة الوجه، ولا تخلوا زاويتهم من علم"[1].

(ثانيا)– زوايا ومدارس البيوتات العلمية ببايليك الشرق:

رغم تكفل العديد من الجوامع بمدينة قسنطينة بالتعليم وفي مقدمتها الجامع الأعظم[2]، الذي كانت تعقد فيه حلقات الدروس من المستوى العالي، إلا أن ذلك لم يمنع البيوتات العلمية الكبرى من إنشاء مدارس وزوايا، وذلك راجع إلى عراقة بيوتاتها، والتي دأبت على التنافس فيما بينها، فكان إنشاء هذه المؤسسات التعليمية والدينية إحدى الوسائل التي تحقق لها التميز عن غيرها من البيوتات. ومن أهم مدارس وزوايا البيوتات العلمية: زاوية أسرة الفكون، وزاوية أسرة ابن نعمون، ومدرسة ابن آفانوس، إلى جانب زاوية أسرة ابن باديس، وزاوية ابن عبد المؤمن.

جمع الشيخ أبو عبد الله محمد ابن آفانوس صاحب إحدى المدارس المذكورة بين العلم والتصوف والوجاهة، فكان "فقيها عالما"، كما كان "ذا مال ورباع"، وكان أيضا "مشهورا

---

[1]– أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 35.

[2]– بني الجامع الأعظم بقسنطينة سنة 430 هـ، ويقع في القصبة بمكان يسمى البطحاء، وكان إمامه يعين من طرف الباي، وهو المسؤول عن جميع موظفيه، كما توكل إليه مهمة إدارة أوقاف المسجد. ينظر:
Mercier, Histoire de Constantine. P, p: 216, 225.

في زمنه بالعلم والولاية"، وأضاف إلى ذلك كله ما حظي به من " وجاهة عند الأمراء"، غير أننا لا نعرف الكثير عن مدرسته إلا حينما أشار إليها الفكون، وقد صاهر ابن آفانوس الشيخ عمر الوزان إذ زوجه من ابنته[1]. ثم ذكر الفكون :" زاوية الشيخ الوزان"[2]، وذكر أيضا أن ابن آفانوس، والوزان كلاهما دفنا بعد وفاتهما بمدرسة ابن آفانوس، وعليه فإننا نرجح أن تكون زاوية الوزان هي نفسها مدرسة ابن آفانوس، آلت إليه بعد وفاة صهره، وقد كانت ذلك شائعا بين الأصهار إذ أن زاوية ابن نعمون هي في الأصل لأسرة الفكون، فلما أسسوا مدرسة جديدة واستقلوا بها " رفعوا أنفسهم عن الزاوية المذكورة لأصهارهم أولاد نعمون"[3]. وأشهر المدارس أو الزوايا التابعة للبيوتات هي زاوية أسرة الفكون.

(1)- مدرسة-زاوية بيت الفكون:

إنَّ حرص بيت الفكون على خدمة الدين والمجتمع بمؤسسة تابعة له ليس وليد الفترة الحديثة بل هو متأصل في الأسرة منذ العهد الحفصي، إذ يحدثنا الفكون في النص الموالي عن زاوية أسلافه، وهي التي تخلوا عنها لأصهارهم آل نعمون بعدما بنى السيد محمد شقرون الفكون المدرسة -والهاء تعود على زاوية أسلافه-:"... وأصلها - فيما يذكر- لأسلاف جامع التقييد وبعض أملاك أسلافه مرجعة إليها، وكانت لهم [4] إلى أن أحدث بناء المدرسة جد الجد أبو عبد الله محمد المذكور، وهي التي بها دفن الجد أبو محمد عبد الكريم... فاستقل أسلافي بها، ورفعوا أنفسهم عن الزاوية المذكورة لأصهارهم أولاد بن نعمون"[5].

لا شك في أن تأسيس آل الفكون لمدرستهم كان في الفترة المتأخرة من العهد الحفصي، ثم توارثها أبناء الأسرة خلال العهد العثماني واعتنوا بها من ذلك قيام الشيخ محمد الفكون بتجديدها وتوسيعها، إذ يذكر الفكون بأن جده أبو محمد عبد الكريم الفكون الجد

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، ص:38.

[2]- الفكون، المصدر نفسه، ص:45.

[3]- الفكون، المصدر نفسه، ص:80.

[4]- المعنى أن الزاوية وبعض أملاكها كانت لأسلاف المؤلف (جامع التقييد) قبل أن تؤول إلى آل نعمون.

[5]- الفكون، المصدر السابق، ص: 80.

المتوفى سنة 988ه دفن بمدرسة الأسرة[1]، " وهي في الأصل محدثة البناء لجده سيدي محمد شقرون دفين رحبة البلد... وبناء قبتها وإحداث ما هي عليه الآن من البناء والانتصاب لوالدي بعد وفاة والده" [2].

وهناك إشارات كثيرة لهذه المدرسة في "منشور الهداية" غير أن مؤلفه عبد الكريم الفكون لا يميز أحيانا بين الزاوية والمدرسة وحتى الدار، فكلما ذكر العلماء والطلبة الذين يأتون إلى قسنطينة للقراءة أو للزيارة إلا وذكر أنهم نزلوا عنده في مدرسة الأسرة أحيانا وأحيانا بزاويتها وأحيانا بداره هو[3]، من ذلك ما نجده في حديثه عن أحد فقهاء زواوة القادمين للقراءة بقسنطينة[4] :" فنزل علينا بالزاوية المشهورة بأولاد الفكون، وبها أُقبر الجد الصالح عبد الكريم الفكون المذكور، ووجدني في حداثة السن"[5].

قام عبد الكريم الفكون بتجديد إحدى دور الأسرة ليستقل بها بنفسه مع عائلته فقط، إذ أخبرنا أنه كان سنة 1022هـ/1613م يجدد داره ويبني مسقط رأسه هروبا « من سكنى الدار العليا » لما وقع له من « الضيق والتضييق من بعض الأقارب»، وقد كانت مسقط الرأس بالقرب من الجامع الأعظم، وقد نظم داره الجديدة وهيأها لاستقبال الضيوف من العلماء والطلبة، فجعل لها طابقا علويا للصلاة وللضيافة، وعبارته كما وردت في كتابه وهي:"... علو الدار الذي جعلته مصلى، ولمن يستضيفني"[6].

---

[1]- تنسب الزاوية عادة لرجل صالح أسسها أو دفن فيها، أما المدرسة فقد تأسس لنشر العلم في الأساس رغم وجود مدافن عائلية بها. ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 46.

[2]- الفكون، منشور الهداية، ص: 51.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 46.

[4]- الفقيه النحوي أبو عبد الله محمد بن راشد الزواوي " قدم من زواوة أيام الشيخ المذكور (التواتي) طالبا منه قراءة المرادي".

[5]- الفكون، المصدر السابق، ص: 106.

[6]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، ص: 67، 68.

ظلت هذه الزاوية قائمة إلى الاحتلال الفرنسي، ونظرا لتألق مكانة بيت الفكون خلال العهد العثماني أصبحت هذه الزاوية وجهة للعوام بالإضافة إلى رجال العلم، وتدريجيا غلب الدور الاجتماعي على نشاط الزاوية أكثر من الدور الثقافي في أواخر العهد المدروس[1].

(2)- زاوية أسرة ابن ساسي ببونة:

ساهمت أسرة ابن ساسي بقوة في إثراء الحياة الثقافية ببونة وضواحيها من خلال نشاط أفرادها في هذا المجال وتصديهم للتدريس وهو أهم الأدوار الثقافية التي يقوم بها العالم آنذاك. وقد كان لهذه الأسرة زاوية، كمعظم البيوتات العلمية والصوفية الكبرى، وهي من الزوايا المشهورة[2]، ولكن ليس لدينا معلومات كافية حولها إلا ما يفهم من ظاهر أحد الأبيات الواردة في المنظومة التي تقدم بها الشيخ أحمد البوني للداي محمد بكداش، والبيت المقصود هو - والهاء تعود على محمد بكداش-[3]:

به تصير الزاويـــة عـــامـــرة لا خاوية

ورغم قلة معلوماتنا حول هذه الزاوية فإننا لا يستبعد أن تكون من المراكز الثقافية المهمة في بونة لمكانة أصحابها روحيا وعلميا في المنطقة، وسواء خصصت لإلقاء الدروس، أو لإقامة الوافدين إلى بونة من العلماء والطلبة. وقد كان للشيخ البوني مترل مخصص لإقامة ضيوفه، وذلك ما يفهم من كلام الشيخ عبد الرحمن الجامعي الفاسي الذي أخذ على الشيخ أحمد البوني ببونة، وترجم له في رحلته المسماة ب" التاج المشرق الجامع ليواقيت المشرق والمغرب"- والهاء تعود على بونة-:" لَّما دخلتها أمـــــتُ دار الشيخ... أبي العباس أحمد بن الولي الصالح البر الناجح، أبي عبد الله قاسم بن الولي الصالح، أبي عبد الله محمد المعروف بساسي، فوجدته طلق

---

[1]- ينظر الدور الاجتماعي لبيت الفكون في الفصل الثالث من هذا الباب.

[2]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 37.

[3]- ابن ميمون، التحفة المرضية، ص: 128 ؛ سعد بوفلاقة، دراسة التي وضعها للدرة، ص: 15.

المحيا، وأنزلني بمنزل لإكرام أضيافه مُهيا "[1].

(3)- زاويا الأسر العلمية والدينية ببلاد زواوة:

لعبت زاويا الأرياف دورا أكثر إيجابية من الزوايا في المدن، ويظهر دورها في التعليم على وجه الخصوص[2]؛ فانتشر التعليم على نطاق واسع، مُحدثا شبه توازن بين الريف والمدن في هذا المجال، كما حدث ببلاد زواوة، التي شهدت خلال العهد المدروس حركة علمية نشيطة تضاهي بعض الحواضر العلمية في الجزائر في تلك الفترة، وذلك ما أشار إليه أحد أبناء المنطقة الرحالة الحسين الورثيلاني متحدثا عن وطنه بلاد زواوة:" وطننا طيب فيه العلم" [3].

وقد كان بزواوة عدد كبير من الزوايا التي حملت على عاتقها مهمة نشر العلم[4]، وجل هذه الزوايا هي ملك لبيوتات وأسر علمية ودينية، كان الأبناء يرثونها عن آبائهم ويسعون للحفاظ على نشاطها، رغم ما تكلفهم من مال، بحيث كان على أصحاب الزاوية التكفل بالحاجات اليومية للطلبة، وقد أخبر الفكون عن الشيخ أبو الحسن علي ابن عثمان الشريف، أحد العلماء المدرسين ببلاد زواوة قائلا:" وهو الآن صاحب درس عظيم على ما بلغني... وصار يُطعم الطلبة من عنده"[5].

ومن بين الزوايا القائمة ببلاد زواوة **زاوية أسرة ابن مصباح** ببني يعلى العجيسي بضواحي بجاية[6]، ويعد الشيخ الحسن بن الولي الصالح أحمد الزورق بن مصباح "-وهو معاصر للورثيلاني- أحد أبرز مدرسيها[7].

---

[1] - عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص: 236.

[2] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:267، 268.

[3] - الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 44.

[4] - محمد سي يوسف، نظام التعليم في بلاد الزواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني، ص: 193.

[5] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 207.

[6] - المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، ص، ص: 152، 153.

[7] - الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 58.

وزاوية **أسرة الورثيلاني**، ومن مكوناتها على أغلب الظن مسجد، وقد أشار الورثيلاني إلى المسجد والزاوية، بحيث ذكر إحدى المنظومات ثم قال:" وهي عندنا في الزاوية"[1]، كما أشار إلى المسجد في سياق حديثه عن عبد الرحمن المجدوب قائلا:" أنه قدم إلى مسجدنا في حياة أبي وبات في المسجد وبت معه"[2].

وقد تصدى علماء هذا البيت للتدريس بزاويتهم، كالشيخ الحسين الورثيلاني الذي ظل مداوما على التدريس إلى أن توفي، وحفيده الحسين الورثيلاني صاحب الرحلة. ولا شك في أن مشايخ آخرين من الأسرة نفسها أو من خارجها كانوا يزاولون التدريس بها، كالفقيه محمد السعيد بن الحسين والد صاحب الرحلة، وعمه محمد الصغير الذي وصفه بالعلامة المحقق.

ويعد التعليم من الأنشطة الأساسية لهذه الزاوية، وذلك ما يفهم من العديد من النصوص الواردة في رحلة الورثيلاني، فتحدث مثلا على أولاد سيدي عمر في قرية ترق قرب مجانة، وهو ولي صالح كبير الشأن قائلا بأن :" أولاده معظمون راغبون في العلم وأهله، وهم على العهد الأول من القراءة والأخلاق السنية والأوصاف الحميدة فأكثر أولادهم يتعلمون علينا " [3].

وقد رافق الورثيلاني في حجته الأولى سنة 1153هـ/1740م بعض طلبته[4]، ونشير هنا إلى أن نشاط الزاوية لم يكن يتوقف برحلة الحسين الورثيلاني إلى الحرمين الشريفين، وهذا ما يفهم من النص الموالي :" فلما حان السفر وآن جمعت طلبتي وأمرتهم بالاشتغال

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 53.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 718.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 57.

[4]- زار معهم في طريق الذهاب الشيخ أحمد الزريبي :" ولما وصلت إليه مع بعض طلبتي". ينظر: الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 159.

بالعلم والمودة بينهم، والطاعة لله تعالى، عمَّرهم الله تعالى على الدوام بالعلم والعمل مع أولادنا الذكور" [1].

جمعت أسرة الورثيلاني بين العلم والتصوف، ولهذا كان علماؤها يلقنون الأوراد ويعطون العهد للمريدين، كما كان يفعل بقية المتصوفة، ودليلنا في ذلك أن الورثيلاني دخل مدينة بسكرة أثناء ذهابه للحج، والتقى بأفاضل علماءها، وغيرهم من العامة والخاصة :" وقد أخذ كثير منهم العهد عنا "[2]. فإذا كان يفعل ذلك في ترحاله، فلا شك في أنه كان يفعله في حله في زاويته.

وهناك زوايا أخرى تابعة لأسر علمية بمنطقة زواوة نذكر منها : و**زاوية "شلاطة " بيلولة**، إحدى الزوايا الشهيرة بالمنطقة، وهي لابن علي الشريف، وهي زاوية مقصودة لقراءة القرآن الكريم[3]، بالإضافة إلى **زاوية ابن أبي داود**، وهي ملك للأسرة التي تحمل اسمها، وقد أسسها أو أعاد تأسيسها الشيخ السعيد بن أبي داود بتاسلنت بالقرب من آقبو ببلاد زواوة في نهاية القرن الثامن عشر، عرفت شهرة واسعة خلال القرن التاسع عشر، واهتمت بتدريس الفقه واللغة العربية، وتخرج منها الكثير من العلماء والفقهاء في القطر الجزائري[4]. وقد ازدادت أهمية هاتين الزاويتن في القرن التاسع عشر فكان الناس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسبوهإلى احدهما [5].

(4)– زاوية – مدرسة خنقة سيدي ناجي:

[1]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 44.

[2]– الورثيلاني، رحلة الورتلاني، ج1، ص: 115.

[3]– الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص: 528.

[4] – عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:60، ها: 3.

[5]– الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص: 528.

تعد مدرسة خنقة سيدي ناجي -الواقعة بالقرب من بسكرة- من أشهر المدارس في غير العواصم في الجزائر العثمانية إلى جانب مدرسة مازونة[1]. وقد حملت لواء العلم في منطقة نائية جدا. ولهذا أشاد بها بعض المؤلفين كحسين خوجة الذي وصفها بأنّها "ذائعة الصيت في الأماكن الغربية "، وبأنها "معروفة بالعلم"، وبتخريجها " لمشايخ كرام، وعلماء أعلام"، وبأنها "مقر الصلحاء"[2].

وممَّا زادَ في أهمية هذه الزاوية- المدرسة تدهور الحياة الفكرية ببسكرة، أكبر المدن القريبة منها، والتي وصف العياشي مسجدها الكبير بأنه": في غاية السعة وإتقان البناء، إلاّ أنّه قل عامروه، وضعف ساكنوه فلا ترى به مدرسا ولا قارئا مع أن هذه المدينة من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة"[3]. فإذا كان هذا حال جامعها الأعظم فما بالنا ببقية مساجدها؟

أمَّا الخنقة فقد وصف العياشي (القرن11هـ/17م) سكانها متحدثا بالخصوص عن أولاد سيدي المبارك بن ناجي واصفا إياهم بأنّهم" أهل خير وبركة، لهم رغبة في العلم وتعلمه، إلاَّ أنَّهم في بلاد قلَّ فيها أهل التحصيل"[4]، وهذا الوصف يختلف تماما عما وصفها به الورثيلاني الذي زارها خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م) حيث قال بأنَّ :" الخنقة قرية مباركة طيبة... لها فضل عظيم، سيَّما إظهار العلم فيها" [5].

إنَّ هذا الاختلاف بين آراء الرَّحالة يعني أنّ الحركة الفكرية بها عرفت انتعاشا خلال القرن الثاني عشر على يد بيت سيدي ناجي، والذي تعد زاويته المعروفة بالزاوية الناصرية أقدم الزوايا بالخنقة، وقد أشعت بجامعها الكبير ومدرستها على الناحية بالعلم والمعرفة طيلة

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 284.

[2] – خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، ص: 253.

[3] – العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 523.

[4] – العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 521.

[5] – الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 150.

قرنين أو أزيد، وكانت موئل علماء الزاب، والصحراء، والأوراس وقسنطينة، وزواوة، بل وتونس وطرابلس أيضا[1].

ويعود تأسيس الجامع الكبير بالخنقة والمعروف بجامع سيدي مبارك[2] إلى القرن الحادي عشر الهجري، أما المدرسة فتأسست سنة1171ه/1757م على أحمد بن ناصر بن محمد الطيب، لذلك تسمى بالمدرسة ناصرية[3]، وهو الذي بنى المدرسة، والجامع، والقبة من ماله، وقد كلفته ثمانية آلاف ومئة واثنتا عشر (8112) سلطاني ذهبا، والظاهر أن ذلك كان تجديدا فقط لأن هذه المؤسسة تعود إلى سنة 1147ه/1734م على الأقل[4]. وقد كان الطالب يقرأ القرآن الكريم في المدرسة ويبيت فيها، وعندما ينضج علميا يحضر حلقات الدروس في الجامع الكبير المجاور لها، والمعروف بجامع سيدي مبارك[5].

ونظرا لأهمية التعليم الذي كانت تقدمه هذه الزاوية أصبحت في القرن الثاني عشر الهجري مركزا علميا مقصودا، حتى من تونس التي عرفت الحركة العلمية بها انتعاشا ملحوظا في عهد الحسينيين[6]، ومِمَّن دَرَسَ بها من علماء تونس: العلامة الشيخ إبراهيم الجُمني التونسي الذي أخذ بها عن الشيخ عبد الله بن أبي القاسم الجلالي[7].

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 116.

[2] – هو جامع واسع، ويحتوي على 36 عرصة، وله صحن غير مغطى ملحق به. ينظر: أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي ، ص، ص : 116، 117؛ تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 284.

[3] – تحتوي المدرسة الناصرية على (25) غرفة، ويقيم بكل غرفة من خمسة إلى عشرة طلاب، ولها بابان خارجي وداخلي يؤدي إلى الجامع. ينظر: أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي. ص، ص : 116، 117.

[4] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 284.

[5] – أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي، ص– ص: 115– 117.

[6] – كانت الخنقة على صلة وطيدة بتونس علميا وتجاريا وحتى سياسيا في بعض الأحيان. ينظر: محمد الطاهر التليلي، إتحاف القاري بحياة الشيخ خليفة بن حسن القماري المتوفى 1207ه/ 1792م. تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010. ص :21، ها: 1.

[7] – محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي– محمد محفوظ. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988. ج2، ص: 411.

أما العلوم التي كانت تدرس بها فيشير إليها الورثيلاني مؤكدا على أن علماء الخنقة :" مشتغلون بالنحو والفقه والحديث، خصوصا مختصر البخاري لابن أبي جمرة... أما علم الكلام والمنطق فمنعدم في محلهم رأسا "[1]، ثم أضاف قائلا:" إن النحو عندهم يعتني به الكبير والصغير حتى أنهم اشتهروا به اشتهارا بينا"[2]. ونظرا لإهمالهم تدريس التوحيد مؤثرين عنه علم النحو انتقدهم الورثيلاني[3].

(ثالثا)– زوايا ومدارس البيوتات العلمية ببايليك الغرب:

يعد إقليم الراشدية من أكثر المناطق غنى بالزوايا ببايليك الغرب، ومن أهم الزوايا به[4]: الزاوية القادرية بالقيطنة، وزاوية الشيخ سيدي محمد سليمان، وزاوية الشيخ سيدي عبد الله بن عبد الرزاق الإدريسي، وزاوية محمد الإدريسي شيخ مصطفى الرماصي، وزاوية الشيخ عبد القادر المشرفي وهو أبرز علماء بيت المشارف وغيرها، وجل هذه الزوايا تابعة لبيوتات علمية وصوفية ذات مكانة مرموقة في المنطقة، ولهذا يصف الزهار أهل غريس بالعلم والصلاح:" وكان أهل هذه المدينة علماء عاملين وأولياء وصالحين، وهم أهل فصاحة، وفيهم بعض الناس من بقية الملوك المتقدمين، وهم أهل سنة وورع"[5].

(1)– زاوية مصطفى بن المختار بالقيطنة:

تقع قرية القيطنة بضواحي بوحنيفية، وهي البلدة التي اختطها الشيخ مصطفى بن المختار (ت 1212ه/ 1798م) سليل بيت عبد القادر بن المختار، وقد أدى هذا البيت دورا ثقافيا مهما للغاية، إذ جمع بين العلم والتصوف، فهو الممثل الرئيسي للطريقة القادرية في الغرب بل في الجزائر كلها، كما أنجبت العديد من العلماء، وأسس زاوية لنشر العلم

---

[1]– الحسين الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 150.

[2] – الحسين الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 152.

[3]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 317.

[4]– انتشر التعليم بهذا الإقليم منذ القرن 10ه/ 16م، لتأسيس عدد كبير من الزوايا، واحتضانها مُهِّمة التعليم. ينظر: بالهاشمي بن بكار، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربع كتب. تلمسان: مطبعة ابن خلدون، 1961. ص: 35.

[5]– أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 159.

فقصدها طلبة العلم والعلماء من مختلف النواحي، في الوقت الذي قصدها مريدو الطريقة القادرية لأخذ العهد عن مشايخها.

ويُذكر أنَّ أول شيخ للطريقة القادرية بالغرب الجزائري هو الشيخ عبد القادر بن المختار المعروف بسيدي قادة، وهو الجد الأدنى للأسرة الذي " اختص بالمشيخة الكبرى"، كما "اختص بتلقين الورد القادري في ذلك العصر"، "وطبق الجميع على مشيخته وسيادته، وأجلسته الملوك من آل عثمان على فرشها"[1]. وازدادت مكانة هذا البيت منذ أسس أحد أحفاده وهو الشيخ مصطفى بن المختار زاوية أو مدرسة بالقيطنة على وادي الحمام في أواخر القرن 18م، وأقام بها معتكفا على تدريس العلم وتلقين ورد الطريقة القادرية[2]، فاعتبر الشيخ مصطفى هو ناشر الطريقة القادرية في الغرب الجزائري.

كان ارتباط أعيان هذه الأسرة بالطريقة القادرية قويا، ولهذا كانوا يزورون ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد عند الرحلة للحج ويتبرعون له بمبالغ مالية هامة، فقد زار مصطفى بن المختار بغداد ثلاث مرات، وفي كل مرة ينال حظوة خاصة[3]، وهناك جدد العهد بالطريقة القادرية، وتبرع من ماله الخاص لتوسيع ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني، فأصبحت الزيادة تعرف بزيادة الشيخ مصطفى المغربي[4].

أما ابنه الشيخ محي الدين فقد زار ضريح الولي عبد القادر الجيلاني ببغداد أثناء رحلة الحج رفقة ابنه عبد القادر[5]، ولما كانا من عائلة شهيرة بالهدايا الثمينة التي تقدم بها كثير من أعضائها إلى للضريح فإنهما لقيا استقبالا حارا كريما من طرف قاضي المدينة، المنحدر من هذا الولي، وقد تبرع محي الدين هو الآخر بكيس مليء بالذهب للضريح[6].

---

[1]- الطيب بن مختار، القول الأعم، ص: 336.

[2]- الطيب بن مختار، المصدر نفسه، ص: 338.

[3]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 69.

[4]- الطيب بن مختار، المصدر السابق، ص: 338؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 244.

[5]- مذكرات الأمير، ص، ص:111، 136.

[6]- شارل هنري تشرشل، المصدر السابق، ص: 69.

وأهم الأدوار الثقافية لهذا البيت فهي من خلال الدور التعليمي لزاويته التي تأسست بقرية القيطنة حوالي عام 1206هـ/1791م[1] على يد الشيخ مصطفى بن المختار جد الأمير عبد القادر [2]، وبعد وفاة مؤسسها تولاها ابنه الحاج محي الدين، ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأكبر الشيخ محمد السعيد (الأخ الأكبر للأمير) [3].

ورغم أن صاحب "القول الأعم" يشير إلى زاوية الشيخ عبد القادر بن المختار، المعروف بسيدي قادة بقوله:" ودرست زاويته جميع الزوايا الموجودة يومئذ بهذا القطر"[4]، فإننا لا نعرف أي أخبار أخرى عنها، وهذه الزاوية إن كانت موجودة فعلا فالغالب على الظن أن التعليم لم يكن من أولوياتها، وعلى الأرجح أنها اختصت بتلقين الورد القادري.

أما المدرسة التي أسسها حفيده الشيخ مصطفى فجمعت بين التعليم وخدمة الطريقة القادرية، وقد وصفها دينيزن (dinesen) بقوله –والهاء تعود على الأمير عبد القادر–:" القيطنة مدرسة ثانوية على نحو ما، جمع فيها أجداده شبانا كانوا يعلمونهم فيها اللغة والتوحيد والفقه، تقع فوق منحدر جبل عال في منطقة مزدهرة خلابة كل ما فيها يدعو إلى الدراسة والهدوء النفسي"[5].

كانت هذه الزاوية أو المدرسة ذات أهمية بالغة، ولهذا كانت محطة للزائرين في حياة مؤسسها[6] وفي أيام خلفه من بعده. ومن أهم العلماء الذين تداولوا على التدريس بها: مؤسسها الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي، والشيخ عبد القادر المشرفي، ومن مدرسيها في عهد السيد مصطفى شيخ الجماعة وعالم غريس الشيخ محمد المشرفي تلميذ مصطفى

---

[1]– نجد تواريخ مختلفة لتأسيس مدرسة القيطنة وهي تواريخ متقاربة منها التاريخ الذي أثبتناه في المتن، ويذهب حمدادو بن عمر إلى أنها تأسست سنة 1200هـ/ 1787م. ينظر: المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب، ص، ص: 121، 122.

[2]– مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 47، هامش 1.

[3]– حمدادو، المرجع السابق، ص: 39.

[4]– الطيب بن مختار، القول الأعم، ص: 336.

[5]– ا.ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر. ص:21.

[6]– مذكرات الأمير عبد القادر، ص:48.

الرماصي[1].

ونظرا لشهرتها العلمية توافد عليها العلماء وطلبة العلم من مناطق مختلفة حتى بلغ عددهم حوالي ستمائة طالب، وذلك ما نجده في مذكرات الأمير:" أما طلبة القرآن الذين قرأوا القرآن والعلم بقريته المذكورة (القيطنة) فلا يحصون كثرة... لا يخلو موضع قراءتهم من خمسمائة إلى ستمائة، بحيث لا يسمع المار بها إلا دوي القراءة في كل وقت"، مضيفا إلى أنه كان يعقد فيها "نحو السبعة مجالس للتدريس"[2] لمختلف العلوم.

كانت تشد إلى زاوية القيطنة الرحال لطلب العلم، فتخرج منها كثير من العلماء، وأكثرهم من علماء غريس[3]، ولا شك في أن من أهم أسباب اشتهار الزاوية استمرار أبناء المؤسس في رعايتها والاهتمام بها، فهذا الشيخ محي الدين بن المصطفى يوليها اهتماما كبيرا بعد وفاة والده، فيتتابع الزوار لزاويته حتى بلغ عددهم أكثر مما كان في حياة والده، وقد صار من كبار المشايخ يلقن الأوراد القادرية، وجاءه المريدون من جهة مراكش وسوس وشنقيط، ومن نواحي إفريقية بل كان له تلاميذ حتى بالإسكندرية[4].

وقد كانت قرية القيطنة في أيام محي الدين محل اهتمام رجال الدولة، من ذلك بناء قائد من ولاة وهران مسجد القرية المعد للصلاة، وكما أن بعضهم بنى رحى الطحن وبعضهم بنى بيت السكن، وكانوا يتنافسون بالمزايدة في إنفاق أموالهم على الزاوية يرجون بركتها[5]. حسب تعبير صاحب المذكرات.

وفي مذكرات الأمير أن قلوب أهل الوطن عامة وخاصة، رئيسا ومرؤوسا، وأشرافا وغيرهم كانت مجلوبة على حب هذه الزاوية، ولما توفي الشيخ محي الدين بعد تمام سنة من

---

[1]- محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب، ص: 401.

[2]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 49.

[3]- نذكر منهم بعض علماء غريس المتأخرين الذين كانت لهم الهجرة إلى فاس، وتونس ودمشق وغيرها من البلاد كالسيد محمد بن الخضير المهاجي، والشيخ عبد الله المشرفي، والسيد عبد القادر بن محمد الهزيل. ينظر: محمد الأعرج الغريسي، المصدر السابق، ص: 401.

[4]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 48.

[5]- المصدر نفسه، ص: 49.

سلطنة ولده عبد القادر، "بقي أولاده بعده على ما كان عليه والدهم من الجمع الدنيوي والكمال الديني وارثين وراثة أسلافهم إلى أن استولى ملك الفرنسوية على جميع مملكة الجزائر"[1].

أسرة عبد القادر بن المختار من الأسر العلمية الكبرى، التي اجتمعت فيها العناصر الثلاثة التي كانت ترفع من شأن من اتصف بها: النسب الشريف، العلم، والتصوف. وقد اشتهر أبناؤها بتلقين أوراد الطريقة القادرية، واشتهر بعضهم بالتدريس، والقليل منهم من ساهم في التأليف.

(2)- زاوية الشيخ عبد القادر المشرفي بالكرط:

رغم شهرة البيت المشرفي إلا أن المصادر لا تتناول الزاوية التي أسسها جدهم الأول، وتكتفي بوصفه ب" الشريف العرهبي سيدي الحاج يوسف بن عيسى البوخليلي، مختط زاوية الكرط"[2]. وهذه الإشارة مقتضبة لا تمكننا من معرفة دور هذه الزاوية ولا مصيرها فيما بعد.

وخلال القرن الثاني عشر الهجري (18م) أسس أحد أحفاده وهو الشيخ عبد القادر المشرفي زاوية ومعهدا علميا بمسقط رأسه الكرط[3]، فأصبحت تضاهي زاوية القيطنة، وذلك ما أكده صاحب "القول الأعم" في هذه النص:" فقد كانت زاويته بالكرط بمنزلة زاوية سيدي محي الدين بواد الحمام[4]".

أما عدد الطلبة بزاوية الشيخ عبد القادر المشرفي فقد بلغ بين المائتين والثلاثمائة طالب، وذلك ما أكده قريبه أبا حامد بقوله بأنه كان:" يقوم الليل والنهار مع بثه العلم للطلبة، فلا

---

[1]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 50.

[2]- ابن مصطفى المشرفي، " تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 7.

[3]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر، ج2، ص: 231.

[4]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 332.

تخلو زاويته من مائتي طالب في بعض الأوقات، يأخذون عنه العلم، ويطعمهم من ماله ويسقيهم، دون الوفود والضيوف التي تأتي لزيارته تتبرك به وتنظر في وجهه" [1].

وفي نص آخر لأبي حامد المشرفي متحدثا عن عبد القادر المشرفي :" فقد كان في زمن الباي محمد الكبير بأبي العوينات- موضع قريب من معسكر- منتصبا لتدريس العلوم الفرعية والأصلية، وكانت عنده محلة من الطلبة عددها ينيف في بعض الأوقات على ثلاثمائة طالب من طلبة العلم، ولم تنقص عدتهم في الغالب على المائتين حسبما بلغنا ذلك متواترا من أسلافنا"[2].

وقد كان مصرا على الإنفاق على زاويته من ماله أو من أوقافها، وهو ما يفهم من رواية المشرفي:" وحكي لنا أن الباي محمد المذكور كان يبعث له صرة من الذهب ذات عدد كثير إعانة له على رزق الطلبة فيردها عليه، وتكرر ذلك من الباي، وهو في كل ذلك لا يقبل عطيته، ويقول للطلبة الشيخ -رضي الله عنه- حين رآهم يجنحون لقبول العطية شفقة منهم عليه، من قتله دقيق الشعير وماء أبي العوينات فلا حياة له " [3].

(3)- مدرسة بيت ابن الشارف بمازونة:

كانت مدرسة مازونة على درجة كبيرة من الأهمية في النواحي الغربية للجزائر، وكان لها نظام راسخ، وتقاليد متينة استمَّدتها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى. واستمرت تشع بالمعرفة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، فكانت مقصد طلاب النواحي الغربية، ولا سيما من ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران[4].

وتُعَّد هذه المدرسة من أقدم المدارس التي تأسست في العهد العثماني، حيث تُشير لوحة

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 19.

[2]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 11.

[3]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 11.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 285.

التدشين[1] الموجودة بمدخلها، وإحدى الوثائق التاريخية[2] إلى أنها تأسست على يد الشيخ محمد بن الشارف المازوني في سنة 1029هـ/1619م، وورد في الوثيقة المشار إليها أنَّ ابن الشارف بنى المدرسة من ماله الخاص، ودرس بها أربع وستين سنة إلى أن توفي.

وبعد وفاة مؤسسها ابن الشارف المازوني واصل أبناؤه وأحفاده مسيرته في نشر العلم، وتداولوا على التدريس بها، وظلت هذه المدرسة قائمة إلى القرن العشرين، وقد كان عدد الطلبة بالمدرسة كبيرا، وأقبل عليها الطلبة من ندرومة، وجدة، فجيج، ومن الونشريس، والمدية، وقد كان سكان مازونة يساهمون في التكفل بهم[3].

ومن أشهر مدرسيها الشيخ أبو طالب محمد بن علي بن عبد الرحمن المازوني (ت1233هـ/ 1818م)، وهو الذي شارك في الجهاد ضِّدَ النصارى الإسبان بوهران مع جند الباي محمد الكبير باي في الرباط سنة 1205هـ/1790م، رغم أنه كان مسنا، ونظرا للجهود التي قام بها، وسَّع له الباي محمد الكبير المدرسة ببناء بيوتها وجامعها، وقد كان عدد الطلبة بالمدرسة في حياته كبيرا، فقد أخذ معه إلى الرباط بوهران مائتي طالب[4].

– المبحث الثاني: محافظة البيوتات العلمية على خصوصيتها الثقافية

يعد الانتماء إلى أحد البيوتات أو الأسر العلمية مفخرة للأبناء، وهو أيضا سندهم القوي في تحصيل مكانة اجتماعية مرموقة، وبالنسبة لرجال العلم منهم فإن ذلك الانتماء كان يمنحهم تفوقا على أقرانهم ومعاصريهم ومنافسيهم، لأن آباءهم وطؤوا لهم الطريق لاكتساب الحظوة والجاه، وتولي المناصب الرفيعة وتحصيل الامتيازات المختلفة. وبما أن الشرع الحكيم

---

[1]– توجد لوحة التدشين حاليا بمدخل المسجد، وقد وضعت في النصف الأول من القرن 20 م من طرف أحد أفراد هذه الأسرة.

[2]– كتبت هذه الوثيقة من طرف أحد أعقاب الأسرة للمتصرف العام بأرنو في 9 فيفري 1910، عددَّ فيها كاتبها أساتذة مدرسة مازونة، منذ نشأتها إلى تاريخ تحرير الوثيقة. ينظر: الوثيقة مصورة في الملحق (أ) لرسالة ماجستير بعنوان:« مدرسة مازونة الفقهية»، لبوكفة يوسف.

[3]–Moulay belhamissi, Mazouna (une petite ville, une long histoire !). p: 49.

[4]– ابن سحنون، الثغر الجماني، ص: 234؛ مصطفى بن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران لحساني مختار. ص: 342.

حث المسلمين على طلب العلم والمعرفة، وبما أن تلك البيوتات خبرت أيضا أهمية تفوقها في المجال الثقافي، فقد كان أبناؤها حريصين على تحلي الخلف بالعلم، ومتمسكين بتراثهم الثقافي، العلمي، أكثر من غيرهم.

(أولا)– الحرص البيوتات العلمية على تعليم الأبناء:

1– أمثلة عن حرص البيوتات على تعليم الأبناء:

كانت البيوتات والأسر العلمية والدينية على اختلاف مستوياتها الاجتماعية والمادية حريصة أشد الحرص على تعليم أبنائها، ولذلك كانوا يختارون لهم مدرسين أكفاء، من ذلك اختيار الشيخ عبد القادر المشرفي لتلميذه أبي راس –على صغر سنه– ليعلم أبناءه، والنص كما ورد في "فتح الإله" :" ولما ظهرت بي علامات النفع للطلبة تنافس الأشياخ في أخذي لتدريس أولادهم، فآثرت شيخنا الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، فذهبت لقيطنة... وصار الشيخ يعظمني على صغري، وأعطاني القمح، والشعير، والدراهم، والسمن، والزيت، والكباش..." [1].

كما كان العلماء عموما يحثون أبناءهم على طلب العلم، ويقرعونهم إذا ما قصروا فيه، من ذلك حث الشيخ عبد الرحمن بن علي المشهور بدحـــو بن زرفة أبناءه على طلب العلم قائلا لهم:" عليكم بالعلم فإنه يزيد الشريف شرفا ولا غنى لأحد عنه "[2].

(2)– تعليم المرأة في البيوتات والأسر العلمية:

حث الإسلام على تعليم المرأة إلا أن الواقع العملي يثبت أن المرأة ظلت محرومة من هذا الحق، سيما في العهد الذي ندرسه، ولا شك في أن بعض الأسر سمحت لبناتها بالتعلم في الكتاب (المسيد)، حيث كان الأطفال يقرأون القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، وبعض المتون، ولكن لا يسمح لها بمواصلة التعلم بعد سن البلوغ، ولا يستثنى من ذلك حتى

---

[1]– أبو راس الناصر، فتح الاله، ص: 24.

[2]– أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، ص:17.

بنات البيوتات المشهورة بالعلم والفقه والأدب، التي كانت تحرص على تعليم بناتها كتعليم أبنائها. ومصادرنا في هذا الموضوع قليلة جدا، منها الكتابة الجنائزية التي ذكرت فيها ثمانية نسوة من البيت العقباني، وخلوهن من التحلية العلمية يدل على أنه لم يكن لهن حضور في الحياة العلمية –صناعة الأسرة– نذكر منهن:" الحرة الجليلة بنت الفقيه الإمام أبي العباس أحمد الخطيب أبا عبد الله محمد بن إبراهيم العقباني" والمتوفاة سنة 990ه[1].

ولا شك أن المرأة التي تنتمي للبيوتات العلمية كانت أوفر حضا من الناحية الفكرية والتعليم من بقية النساء، حتى وإن كانت تعوزنا المادة العلمية لنثبت ذلك، إلا بعض الإشارات الواردة عرضا في متون المصادر، ومن ذلك ما أشار إليه الورثيلاني في رحلته من أن جده سيدي يحي "كانت عنده بنتان كل واحدة منهما نسخت التوضيح"[2]. هذا يدل على أنهما كانتا على قدر لا بأس به من العلم.

كما أشار الورثيلاني إلى زوجته عويشة بنت الشيخ عبد الله بن رحاب، وأختها فاطمة زوجة ابنه محمد، اللتان رافقتاهما في حجتهما سنة 1179ه/ 1765م، ووصف كل منها ب"الطالبة"، والنص كما ورد في رحلته:" ومن أولاد سيدي رحاب الفاضل الفقيه المتوجه إلى الله، وقد تزوجت ابنته الفاضلة الحرة الجليلة الشريفة الطالبة عويشة، وتزوج ابني محمد أختها الفاضلة الجليلة العابدة الطالبة فاطمة ماتتا في تونس – رحمهما الله–"[3].

وقد وصف الورثيلاني زوجته عويشة بنت الشيخ عبد الله بن رحاب في موضع آخر ب"المتطلبة"، وأشار إلى مستواها العلمي بقوله:" الحرة الجليلة الكريمة الطيبة النخبة الشريفة المتطلبة، فإنها تقرأ نحو الربع[4]، وتحفظ بعض الأذكار كوظيفة الشيخ زروق، وكانت

---

[1]– رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص: 222.

[2]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 102.

[3]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 695.

[4]– الأرجح أنه يقصد أنها تحفظ ربع القرآن الكريم.

تحفظ الصغرى للشيخ السنوسي، وكذا بعض الرسالة لأبي زيد، حاصله في غاية الأدب والفهم والفطانة"[1].

كما السيدة عودة بنت الشيخ محمد بن علي أبهلول المجاجي من النساء المتعلمات[2]، حتى أنَّ الحاج علي بنعشيط يذهب إلى أنها كانت تدرس بزاوية أبيها بمجاجة[3]، وهي التي ذهبت للحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج سنة 1063ه/1652م، فتوفيت هناك ودفنت بالبقيع بالمدينة المنورة[4]. وهناك رسالة منسوبة إليها، ولا يزال أعقابهم يحتفظ بنصها، المنقول من الأصل المكتوب بخط السيدة عودة [5]. وإن صح أنها كتبت الرسالة بخط يدها، وصح ما ذهب إليه بنعشيط – وهو أحد أعقاب هذا البيت– من أنها كانت تدرس بزاوية أبيها فهذا يدل على أنها كانت تحظي بنصيب وافر من العلم.

وهذه الإشارات قليلة لا تكفي لتكوين صورة متكاملة عن تعليم بنات البيوتات العلمية، ولكنه يدل على أن بنات العلماء كن يحظين بنصيب مهم من العلم، وللأسف فإنه رغم شهرة بيت الفكون مثلا فإننا لا نجد ما يمكننا من الحديث من خلاله عن المرأة في هذا البيت.

(ثانيا)– العلاقة بين حملة العلم من أبناء البيت الواحد في المجال الفكري:

(1)– الدراسة على الأقارب:

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص، ص: 610، 611.

[2]–لم تخلف أولادا ويقال أنها ربت ولدا اسمه أحمد بن عودة، وعلمته، مقامه مشهور بنواحي غليزان. ينظر: الحاج علي هني بنعشيط المجاجي، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة، ص: 23.

[3]– الحاج علي هني بنعشيط المجاجي، المرجع نفسه، ص: 23.

[4]– خصص لها المجاجي في رحلته 12 بيتا، ذكر أن سنها كان 91 سنة عند وفاتها، وبأنها كانت عابدة، صوامة قوامة، ومحافظة على أورادها، وقد كانت تساعد المحتاجين، حتى شبهها الناظم برابعة العدوية. ومن الأبيات التي ذكرها فيها:" "هناك توفيت بنت شيخ شيوخنا * لها في طريق الخير يا صاح شهرة". ينظر: رحلة المجاجي، المحققة من طرف سعاد آل سيد شيخ ضمن رسالة ماجستير ص، ص: 137، 138.

[5]– وثيقة ملك لأعقاب بيت المجاجي بمجاجة – ولاية شلف؛ وينظر أيضا الملحق رقم: 14.

قد لا نجد طالبا أو عالما من أبناء البيوتات العلمية إلا وكان أقاربه أول من جلس للتتلمذ

عليهم، وفي مقدمتهم: والده، أو جده أو عمه، أو خاله أو أخاه ...إلخ، وقد لازم بعض رجال العلم قريبه مدة طويلة، مرت معنا أمثلة كثيرة على ذلك في الباب الأول من هذه الدراسة، نكتف بالإشارة إلى بعضها منها تتلمذ أحمد المقري على عمه سعيد، وتتلمذ محمد قدورة على والده سعيد... إلخ. وكثيرا ما كان هؤلاء يفتخرون بدراستهم على أقاربهم ويرددون ذلك في الكثير من مؤلفاته وإجازاتهم وفهارسهم.

من ذلك ملازمة الشيخ أحمد البوني لوالده الشيخ قاسم وقراءته عليه، وذلك ما أكده في ثبته بقوله:" وقد كنت لا أغيب عنه حضرا وسفرا، ليلا ونهارا..." إلى أن يقول:" اعلما رحمكما الله تعالى أنّ لي في علم الحديث وغيره أشياخا كثيرين متقنين متقين محررين... من أجلهم سيدي والدي رحمه الله تعالى... الشيخ الإمام العالم الصوفي الوفي الهمام النحرير العلامة الغني بشهرته عن التمييز والعلامة المؤلف الجامع بين الحقيقة والشريعة... سيدي ومنهجي أبو الفضل قاسم بن الأستاذ الأكبر الشهير الأنور الكبريت الأحمر ولي الله تعالى بلا منازع الغوث باتفاق وإجماع بل القطب الأكثر من ثلاثين سنة ... أبي عبد الله محمد لقب ساسي البوني التميمي رحمه الله تعالى "[1].

(2)– تبادل الإجازات العلمية بين أبناء البيت الواحد:

كان العلماء حريصين على تحصيل رجال العلم من أقاربهم للإجازات العلمية فيستدعون لهم لذلك كبار العلماء، كما كانوا يجيزونهم ويكتبون لهم بذلك، وأشهر تلك الإجازات إجازة الشيخ أحمد بن ساسي البوني لابنه أحمد الزروق، وكتابته له إجازة تتجاوز عدد صفحاتها الستين صفحة، ولهذا يمكن اعتبارها فهرسة، فبعد أن بين فضل علم الحديث الشريف والإسناد قال:" وأنَّ ممن سابق إلى نيل شريف علاه، حتى أكمله الله سبحانه وعلاه،

[1]– أحمد البوني، " ثبت أحمد البوني" مخ، ص:8.

وأشرف بفضل الله تعالى على ما فيه، وكرع حتى روى من زلال صافيه، الفقيه الأجل النبيه المبجل متقن الرواية، وجيد الرواية، التقي العفيف، النقي الظريف ولـــــــدي وقـــــرة عيـــــــــني ولدي أبا العباس سيدي أحمد الملقب بالزروق لا زال بدره في تمام وشروق، وقرنه الشاب النجيب ذو الفهم العجيب الفقيه الأجل...سيدي محمد بن علي القسنطيني ثم البوني..." [1].

كما تتلمذ الإخوة على بعضهم، من ذلك تتلمذ الشيخ أحمد بن سعيد قدورة على أخيه الشيخ محمد قدورة، وهو آنذاك من أشهر المدرسين بالجامع الأعظم، ثم تقدم له بإستجازة نظمية تقع في عشرين بيتا، سائلا إياه إجازته في روايةَ ما رواه عن والده سعيد قدورة وغيره من العلماء، وإذا كنّا لا نعلم شيئا عن استجابة الشيخ محمد قدورة لهذا الاستدعاء، فالذي لاشك فيه هو إجازته له رواية بناء على طلبه، ولأنَّه لم يكن من عادة العلماء رفض الإجازة بالرواية، وهذه بعض أبيات الاستجازة المشار إليها[2]:

...تلميذكم ومحبكم بل عبدكم طلب الإجازة منكم بوفاء

بجمـــيع ما تـــروونه عن والد أو غيره من سائر العـــلماء

(3)– تقديم الأبناء للمناظرة في مجالس الفقهاء:

لم يكن الأقارب يترددون في تقديم أقاربهم وبالأخص بأبنائهم للمناظرة، إذا خبروا مقدرتهم على المناظرة والجدل، وعرفوا تمكنهم من العلم، من ذلك تقديم الشيخ محمد الفكون لابنه عبد الكريم للرد في مسألة فقهية رغم صغر سنه، إذ ناطح به القاضي أبو زكريا يحي بن محمد بن محجوبة، الذي أراد فسخ عقد من عقود الأحباس تقربا لوالي قسنطينة آنذاك الباي محمد بن فرحات، فانقاد لرأيه جماعة "وعقدوا له مجلسا بالجامع الأعظم"، وأجاب بعدم جواز فسخه جماعة من فقهاء العصر، ذلك لأن الحبس لا يفسخ، وفي

[1]– أحمد البوني، « ثبت أحمد البوني»، مخ ص، ص: 1، 2.

[2]– محمد قدورة، « جليس الزائر وأنيس السائر»، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2600. ص: 55.

مقدمتهم محمد الفكون، الذي حضر المجلس للرد عليه، ثم كلف ابنه عبد الكريم بالخروج للقاضي في المحفل، فخرج إليه وحاجهوانتصر عليه. وكتب عبد الكريم الفكون في ذلك تأليفا أصبح وثيقة مشتهرة عند أهل البلد[1].

كان محمد الفكون من علماء بيت الفكون المعروفين رغم أننا لا نعرف له تأليفا، وهو لم يكن مفتيا رسميا، وإنما كان إماما وخطيبا بالجامع الأعظم الذي عقدت فيه المناظرة، ومع ذلك كان لرأيه وزن، إذ حضر المجلس للرد، ثم قدم ابنه عبد الكريم لتلك المهمة. ولهذا يحق لنا أن نتساءل أولا عن سبب انسحابه هو عن المناظرة، وهو من رجال العلم، كما نتساءل عن سبب تقديمه لابنه لهذه المهمة على الرغم من صغر سنه، مع أنه كان بإمكانه أن يكلف بها عالما آخر لكثرة العلماء بالمدينة، ومهما كانت أسباب التي ألجأته إلى الامتناع عن المناظرة، وتقديم ابنه فإن فعله لا يخلو من رغبته في إظهار إمكانيات ابنه العلمية.

وهنا نشير إلى أن الأعين كانت على أبناء البيوتات العلمية البارزة، إذ يذكر صاحب "منشور الهداية" عدد من المواقف التي استفزه فيها علماء كبار، وهو لا يزال تلميذ صغير سن[2] يطرحون عليه أسئلة يفترض أن لا تطرح لمن هم في مثل سنه.

(4)- تبادل الألغاز:

يعد تبادل الألغاز من أنواع التسلية العلمية التي لجأ إليها رجال العلم والأدب لإثراء المشهد الثقافي، وسد الفراغ الحاصل في هذا المجال، وبلغ بهم الأمر إلى أن تراسلوا بها من مناطق بعيدة، و لم يستثن من ذلك حتى كبار العلماء كعبد الكريم الفكون، وسعيد قدورة، وأحمد المقري، وأقبل بعضهم إلى التأليف في الألغاز مثل الكتاب الذي ألفه أحمد البوني[3]، وهو من كبار العلماء آنذاك.

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 67.

[2]- من ذلك أن عبد الكريم الفكون كان في صغره ذاهب للدراسة في الكتاب، فناداه الفقيه إبراهيم الفلاري التونسي وطرح عليه صعب. ينظر: عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص:110.

[3]- ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 131.

وتبادل بعض العلماء الألغاز مع أبنائهم من ذلك أن الطاهر المشرفي ألغز عبد القادر المشرفي :" أبوه -رضي الله عنه- في اسم علي لغزا ينبئ عن غزارة علمه، وقوة جأشه وصفاء فكره "، فأجابه والده عن اللغز كتابة، كما كان اللغز[1].

(ثالثا)- إشادة أبناء البيوتات العلمية بأسلافهم:

(1)- الافتخار بالانتماء إلى البيوتات العلمية:

لم يكن العلماء يترددون في إظهار افتخارهم بانتسابهم إلى البيوتات العلمية، سيما إذا ألجأهم الضرورة إلى ذلك كمنافسة أقران وغيره، فهذا الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القسنطيني (ت 1116هـ/ 1704م) يدخل تطوان، وتحدث بينه وبين أحد فقهائها وحشة، فيرد عليه بقصيدة يبين فيها مكانته ومكانة أسرته، نورد منها هذه الأبيات[2]:

... فأنَا للعلا سَموتُ وَحُزْتُ رتبة لا تسام بالجوزاء

وورثت العلوم قِدَماً يقيناً عن أباء قساور نجباء

(2)- الاعتناء بتآليف السلف نظما وشرحا:

كان بعض العلماء يولون اهتماما كبيرا لتآليف أسلافهم من ذلك شرح الطاهر المشرفي منظومة والده عبد القادر على منظومة " الدرة الشريقة في أصول الطريقة" لأحمد زروق، التي تُعرف بالنصيحة الزروقية[3]. وهذا الكتاب معروف ب "شرح النصيحة الزروقية". ومن ذلك أيضا تخميس الشيخ أحمد البوني القصيدة المسماة قرة العين بمدح الصحيحين لجده السيد محمد ساسي البوني[4]، كما قام ابنه الشيخ محمد بن أحمد البوني بنظم بعض تآليفه "نظم فريد مختصر خليل"، " نظم القطر لابن هشام"[5].

---

[1]- للاطلاع على نص اللغز، ونص الجواب ينظر: أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس » مخ، ص، ص: 4، 5.

[2]- وهي القصيدة التي قال فيها أيضا:" لهف نفسي على كسوف* شمس العلماء وذلة الغرباء". ينظر: الإفراني، صفوة من انتشر. ص: 360.

[3]- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 466؛ حمدادو، المساهمة العلمية، ص، ص: 75- 77.

[4]- عبد الحي الكتاني، المرجع نفسه، ج1، ص: 237.

[5]- H' sen Derdour , Annaba . T :2, p, p: 105, 106.

(3)– الإشادة بمآثر السلف في مصنفاتهم:

إنَّ الإشادة بمآثر السلف ليس وليد العهد المدروس، فقد ألف بعض العلماء في أسلافهم، أو تطرقوا لهم في مؤلفاتهم، كما فعل أبو عبد الله محمد بن مرزوق (ت781ه/1379م) في "المناقب المرزوقية"، والذي عبر فيه عن سبب تأليفه بقوله:" وكان لي سلف صالح متجرد لطريق الآخرة... رأيت أن أثبت في هذا المجموع سيرة من سلف لي من الصالحين على الاختصار "[1]. كما خصص عبد الرحمن ابن خلدون حيزا مهما في رحلته للتعريف بسلفه.

وأما خلال العهد العثماني فلا نكاد نجد مؤلفا في السير والتراجم أو الرحلات من أبناء البيوتات العلمية، إلا وخصص مؤلفه مساحة مهمة للتعريف بأسلافه من رجال العلم، وهذه الكتابة كما نعلم سيف ذو حدين، فمع ما تقدمه لنا من معلومات عن أولئك العلماء، إلا أنها كتابة تطبع بطابع الذاتية التي تصير أحيانا مفرطة، للمبالغة في وصف المآثر العلمية للأسلاف، والتغاضي الكلي عن كل ما من شأنه ينتقص منهم.

وأكثر المؤلفين مبالغة في إبراز المكانة العلمية لأسلافه هو الشيخ أبو راس الناصري، الذي خصص عدة صفحات في كتابه " فتح الاله"، للحديث عن أسرته فعدد أسلافه، ولا يخفى على القارئ لهذه الصفحات مبالغة المؤلف في دورهم الثقافي، مع أن أسرة أبي راس لم تكن من الأسر العلمية البارزة، إذ لم نجد أي ذكر لأسلافه في مصادر تلك الفترة، وهو نفسه لم يجد ما يكتبه عن مستواهم العلمي، وإنجازاتهم العلمية إلا بعض الإشارات.

كما ترجم عبد الكريم الفكون لأجداده، ولبعض أفراد أسرته في كتابه "منشور الهداية"، وأشاد بخصالهم الحميدة، ومآثرهم العلمية، بل وجعلهم مقياس للحب والبغض، فكل من أحبهم فهو من الصالحين، وكل من أبغضهم فهو من الطالحين إن صح التعبير. كما خصص أحمد البوني في " الدرة المصونة في صلحاء وعلماء بونة"، عدة فصول لأسرته

[1]– أبو عبد الله محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص:140.

أجداده، ووالده، وأبناءه، والشيء نفسه قام به أبو حامد المشرفي، بحيث خصص حيزا معتبرا من "ياقوتة النسب الوهاجة" للترجمة لعلماء بيت المشارف.

(رابعا) – توارث الوظائف في البيوتات والأسر العلمية:

(1)– تقديم الأقارب سيما الأبناء للوظائف الدينية والعلمية:

تكشف لنا عدد من المصادر عن تقديم العلماء لأبنائهم وأحفادهم للقيام بوظائفهم العلمية والدينة الرسمية وغير الرسمية، وبهذه الطريقة تستمر الأمجاد العلمية والدينية للبيت ويستمر جاهه ونفوذه، وغيرها من المزايا التي تستفيد منها البيوتات من جراء توليها لتلك المناصب.

ففي المدارس والزوايا التابعة للبيوتات العلمية كان الأبناء والأحفاد من العلماء يقومون بالتدريس والإمامة والخطابة... إلخ في حياة كبير علماء البيت، وعند وفاة السلف يواصل الخلف رعاية شؤون المدرسة أو الزاوية تلقائيا، ولم يكن ذلك يلقى أية معارضة حتى من طرف كبار العلماء لأن الزاوية والمدرسة في الأصل لهذه الأسرة. ويلاحظ تمرين الآباء والأجداد لأعقابهم على تحمل أعباء مؤسساتهم من بعدهم، من ذلك إنابة الشيخ محمد المازوني حفيده أحمد بن هني للتدريس في مدرستهم.

ولم يقتصر ذلك على المؤسسات التابعة للأسرة، بل حتى الوظائف الرسمية والتي يُعين فيها الأب بقرار من السلطة، بحيث كان بعض العلماء حريصين أشد الحرص على توريث وظائفهم لأبنائهم، رغم المعارضة الشديدة التي يلقونها من طرف الطموحين المتطلعين لتلك الوظائف، وكثيرا ما يتم ذلك وفق تدرج، فيقوم الأب بإنابة ابنه عنه في وظيفته، فلما يتوفى الأب يكون الابن المؤهل الأول لتلك الوظيفة، ولئن كانت بداية هذه الخطوة تثير حفيظة العلماء الطموحين في المنصب، فإن كانت تنتهي باستسلام الخصم وقبوله بالأمر الواقع.

وهكذا فإن احتكار العديد من البيوتات والأسر العلمية لبعض الوظائف لسنوات عدة، لم يكن بمحض الصدفة، بل أن هناك تخطيطا لذلك، بحيث عملت تلك البيوتات على

توارث المناصب اعتمادا على صلة القرابة، وفي مقدمتها علاقة البنوة والأخوة، وحتى اعتمادا على علاقة المصاهرة. ويبدو أيضا أن هناك شبه إقرار من طرف السلطة لمبدأ وراثة المناصب الدينية والعلمية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالبيوتات المتنفذة، أو تلك التي خدمتها بتفاني، إذ يعد ذلك بمثابة امتياز لها.

ويتضح نزوح السلطة إلى توريث المناصب في احتكار بعض الأسر لوظائف معينة لعدة قرون مثل الإمامة والخطابة بجامع البطحا بقسنطينة والتي ظلت في بيت الفكون منذ القرن العاشر الهجري إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر، واحتكار بيت قدورة للإفتاء المالكي بمدينة الجزائر لأزيد من قرن من الزمن، واحتكار آل ابن باديس للخطابة بجامع القصبة بقسنطينة لمدة طويلة وأمثلة ذلك كثيرة.

وبعض رسوم تعيين الأبناء في مناصب الآباء إلى مبدأ وراثة المنصب، ومثال ذلك ما نجده في وثيقة تعيين محمد الفكون في وظائف أبيه عام 1074هـ/1663م من طرف إسماعيل باشا، وهي تنص صراحة على تعيينه موضع والده، ومما ورد فيها:" إن حامله المعظم الفقيه ... أبي عبد الله محمد بن المرحوم إلخ الشيخ البركة سيدي عبد الكريم الفكون... أنعمنا عليه، وجددنا له حكم الأوامر التي بيده لإخواننا الباشوات المتقدمين قبلنا بأن يكون في موضع والده المرحوم المذكور إماما مرضيا... "[1].

وفي المصادر عدة أمثلة عن تقديم أبناء البيوتات لذويهم في الوظائف، ومنها ما ذكره صاحب "منشور الهداية" عن تولي جده عبد الكريم الفكون (ت988ه) إمامة الجامع الأعظم، بحيث كان الشيخ الفقيه أبو البركات بن نعمون " إماما بالجامع الأعظم بعد انتقال الجد أبي زكريا إلى تونس، ولم يزل هو القائم به إلى أن تولاه الجد أبو محمد عبد الكريم من يده"، ويقال إن الفقيه بركات المذكور عزل بسبب سلس أصابه آخر أمره، واعترف

[1]- Ernest mercier, " Constantine au 17e siècle, élévation de la famille el fagoun ", p :21.

بذلك لدى القاضي قاسم الفكون، فلما عزله هذا الأخير كلف بالخطة أخاه عبد الكريم الفكون[1].

كما كان الشيخ محمد الفكون إماما بالجامع الأعظم، ولما أصبح ابنه عبد الكريم الفكون الحفيد يافعا أو كما قال هو « لما وقع عليَّ التكليف» استخلفه للصلاة، بدل السيد أحمد الميلي نائبه التقليدي، فصار هذا الأخير، وصديقه الشيخ المدرس أبو الحسن علي بن الشيخ محمد بن حسن يعلنان بأنه صغير السن وأن الصلاة لا تجوز وراءه من أجل ذلك[2]. وقال في حق الأخير منهما :" وكان هو من جملة عذَّل الوالد في توليتي الصلاة بالجامع الأعظم زعما منهم جهلي بأمورها، وحداثة سني التي توجب تأخري وتقدم غيري"[3].

وتظهر ذاتية صاحب "منشور الهداية" عند تناوله لهذه المسألة، فرغم أنه يدرك أن ما جعل هاذان الرجلان يتحفظان على إنابته هو صغر سنه، إلا أنه يعتبرهما من خصومه من أجل موقفهما، مبينا خطأهما في حقه، ثم تفوقه عليهما فيما بعد، فقال في حق أحمد الميلي :« فكان من لطف الله ورعايته أن لم يمت حتى جثا بين يدي جثو الصبي للمعلم»[4]، وقال في حق الثاني:" وقد اتفق من فضل الله أن جثا أبو الحسن علي بين يدي للسؤال، وكنت أجيبه عما يسأل عنه من فنه الذي يدعي معرفته"[5].

نفس الشيء فعله الشيخ سعيد قدورة من إنابة ابنه محمد عنه[6]، والنص كما في "تقاييد ابن المفتي" :" ولما تعاظمت حرمة سيدي سعيد وكثرت أشغاله قدم ابنه سيدي محمد العالم الفقيه القدير... وكلفه أبوه مع صغر سنه بالفتوى والخطابة والتدريس لفضله ونبهاهته"[7].

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 81.

[2]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 95؛ أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص، ص: 59، 60، 105.

[3]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 105.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 95.

[5]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 105.

[6] - نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، ص: 194.

[7]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 98.

ويحق لنا أن نتساءل عن السن التي يقصدها ابن المفتي بوصفه بصغير السن، ففي ترجمة هذا الأخير لمفتي الحنفية محمد بن الماستيجي قال بأنه تولى :" صغير السن لم يدرك الثلاثين"[1]. وعليه يرجح أن يكون محمد قدورة قد تجاوز سن العشرين عندما أنيب في كل تلك الوظائف سيما الفتوى والخطابة.

لقد قدم سعيد قدورة نوابا، ثم جرُؤ على تقديم ابنه محمد بدله في كل تلك الوظائف، وهو عمل قل من يجرؤ عليه، لأن الوظيفة شخصية وليست وراثية أو حرة، ولكن قدورة الذي خبر الناس في عصره، وعرف كيف يوقف تدخلهم تمكن من كل ذلك دون معارض[2]. أما سبب إقدام سعيد قدورة على هذه الخطوة حسب أحد المعجبين به وهو ابن المفتي، بأنه كان قد كلف محمد بن قرواش[3] ليقوم مقامه، وبعد أربعة أشهر لامه أهل البلد على ذلك، وجزعوا من صنعه، ثم حصل الاتفاق بينه وبينهم على تقديم ابنه محمد خليفة له[4].

ورغم ما ذكره ابن المفتي من أن سعيد قدورة كان يدفع من جيبه الخاص إلى من يُنيبهم عنه فإن أوقاف الجامع الكبير في عهده لم تكن محصنة كل التحصين، فابنه محمد، وهو من أكبر العلماء في عصره، كان يتقاضى حقه في الأوقاف أثناء حياة والده لأنه كان ينوب عنه رسميا بخلاف الأربعة الآخرين[5].

وقد تتحول تلك المعارضة إلى ضجة كبيرة، إذ وجد منافس عنيد ،كما حدث للشيخ محمد بن إبراهيم بن نيقرو الذي كان مفتيا للمالكية بمدينة الجزائر، وكان له نائب يقوم بالخطبة بدلا عنه، وهو السيد محمد بن هدى ابن إحدى الأسر العلمية والدينية، إلا أن ابن

---

[1]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 90.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 362.

[3]- لعله هو الذي يسميه قونزاليز محمد بن قرباش، قائلا بأنه مشهور في وقته لدى الحواضر، وساكني الأعراش، وبأنه توفي سنة 1092ه/ 1681م. ص: 15.

[4]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 98.

[5]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص، ص: 362، 363.

نيقرو قرر أن يتولى الخطبة "بنفسه حسب العادة التي جرى عليها العمل من السادات الأولين مثل سيدي سعيد قدورة وابنه محمد، وقدم ولديه للخطـــبة ليراهما ويُسر بهما[1]، فغضب من ذلك خليفته في الجامع سيدي محمد بن هدى-رضي الله عنه- مع أنه بقي يتقاضى صلته، وكثر تنازعهما لأن محمد بن هدى كان مشتهي الخطبة بالاستئناس في المدة الماضية أيام صهره زوج أخته سيدي عمار بن عبد الرحمن لعجزه وكبر سنه"[2].

ورغم تأذي ابن النيقرو فلم يتراجع عن قراراه في تقديم ولديه للخطبة، ومما زاد من متاعبه استعانة خليفته ابن هدى عليه بمن له صلة برجال الدولة، وحرض عليه العامة فتجاسروا عليه وطلبوا سماع الخطبة من نائبه[3]. واستمر هذا النزاع وكثرت مضايقتهم له إلى أن توفي في 16 ذي الحجة سنة 1152ه/ 1739م[4].

وإصرار المفتي محمد بن إبراهيم النيقرو على توريث مناصبه لأبنائه لم يقتصر على الجامع الكبير على ما يبدو، بل حتى في المساجد الأخرى التي مر بها، فلما توفي خلف عدد من الأولاد، وأكبرهم هو سي أحمد الذي كان في سنة 1166ه/ 1753م " بمسجد ستنا مريم، ويسرد الحديث بزاوية الأندلس"[5]. ونحن نعرف أن هذه الأسرة كانت تتوارث الإمامة بمسجد ستنا مريم، ونصَّ ابن المفتي صراحة على تولي ابنه الآخر لمنصب والده بقوله:" وولده الثاني محمـــد فقيه نجيب تولى مكان أبـــيه بالتدريس بجامع ميزومورطو بباب عزون"[6]. فقد خلفا والدهما في التدريس.

هذه بعض النماذج عن حرص الأولياء على توريث وظائفهم الرسمية لأبنائهم غير مبالين بموقف معاصريهم، وفيهم من هو بدون شك أحق بتلك الوظائف. وقد رأينا كيف

---

[1]- ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 111.

[2]- ابن المفتي، تقاييد ابن المفتي، ص: 111.

[3]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 111.

[4]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 112.

[5]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 112.

[6]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 112.

ساهم النفوذ في تحقيق تلك الغاية بالنسبة لأسرتي الفكون وقدورة بينما لم تتحقق غاية ابن نيغرو لأن هذه الأسرة وإن كانت ذا مكانة في المدينة، ولكنها لم تبلغ مكانة الأسرتين السابقين.

كما أن صلة المصاهرة كانت سببا في توارث المناصب، فهذا الفقيه محمد بن نعمون يتولى "خطة الفرائض ومفاصلات التركات والإشراف على صاحب المواريث بعد موت صهره أبي محمد عبد اللطيف المسبح"[1].

(2)- سلبيات توريث الوظائف:

إنَّ توريث الوظائف يحرم العديد من العلماء من فرصتهم في تولي مناصب علمية ودينية يستحقونها، لأن الكثير من الوظائف محصور في أسر معينة، مما يدفع الكثير من طلبة العلم إلى الانشغال بطلب الرزق عن طلب العلم، وهذا يضر بالحياة الثقافية بشكل مباشر.

ومن أهم سلبيات توريث المناصب سيما المناصب المهمة كالفتيا والقضاء والتدريس هو تولية أشخاصا ليسوا أهلا لها. وهذا لا يعني أن توريث المناصب دائما يأتي بعلماء غير أكفاء، فمثلا ورث محمد قدورة وظائف والده، فكان من العلماء النجباء، وورث عبد الكريم الفكون الحفيد بعض وظائف والده فحقق تفوقا أكثر من والده، ولكن حدث أن ولي بعض رجال العلم وظائف أسلافهم سيما الفتوى التي تحتاج إلى تعمق كبير في العلم رغم أنهم ليسوا أهلا لها. ونكتف هنا بثلاثة نماذج عن علماء تولوا وظيفة الفتوى وهي من الوظائف العليا رغم عدم كفاءتهم لها حسب بعض معاصريهم:

بحيث عين الفقيه أبو الحسن بن أبي الفضل الغربي في منصب الفتوى بقسنطينة خلال القرن العاشر الهجري، مع أنه لم يكن مؤهلا لمثل هذا المنصب حسب الفكون ونصه:"

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص:81.

أخبرني جمع كثير ممن يقتدى بقوله أنه لا باع له في العلم إلا أن شهرة أسلافه أورثته المنصب المذكور، وينسبون إلى الشيخ أبي العباس أحمد الخطيب"[1]، المعروف بابن قنفد.

ورغم ما يكنه ابن المفتي لبيت قدورة من إعجاب وتقدير إلا أنه ذكر اثنان ممن تولوا مناصب أسلافهم بدون أن يكونوا مؤهلين لها، أولهما هو عبد الرحمن بن أحمد المرتضى، وهو حفيد الشيخ سعيد قدورة ابن ابنته، فقد تصدى للتدريس فكان مدرسا ناجحا [2]، وكان"حاذقا في علم الكلام، وفي علم الحديث"[3] -حسب ابن المفتي- ولكن عندما يتعلق الأمر بوظيفة كالفتيا يكون لابن المفتي رأي آخر فيه، والنص كما هو:" كان سيدي عبد الرحمن المرتضى تعوزه الفطنة... وهو لا مدخل له في هذه المنقبة الجليلة، والخطة الرفيعة"[4].

تولي الشيخ عبد الرحمن المرتضى خطة الفتوى عدة مرات، وبعد عزله للمرة الأولى ولي الإفتاء أحد أفراد بيت قدورة وهو الحاج سعيد، وظل في المنصب أكثر من سبع سنين، ثم عزل وعين لأول مرة بعد حوالي قرن من الزمن مفتي من خارج أسرة قدورة وهو العالم الحاج مهدي بن الحاج صالح، وبعد خمسة أشهر نزلت صاعقة على المنارة، فاستغل هذه الحالة رجل يدعى يوسف بن الكرتيلو، و" قصد الدولاتلي أُزُنْ علي باشا، وقال له:" إنّ أهل المدينة يقولون لك أن المدينة لن تهنأ مع مُفْت ليس من أبناء سيدي سعيد"[5].

ولا يخفي ابن المفتي استياءه مما حدث بقوله بأنه بسبب هذا المسعى عزل الحاج المهدي وأعيد عبد الرحمن المرتضى لخطة الفتوى مرة أخرى، وقد " تسبب في عزل عالم نابغة ضليع في أربعة علوم يكفيه واحدها وهي: النحو، والأصول، والبيان، وعلم الحديث". والمرتضى يفتقد للفطنة، وهو لا مدخل له في هذه الخطة الرفيعة[6].

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 56.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 370.

[3]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[4]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 108.

[5]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 108.

[6]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 108.

أما المفتي الثاني الذي تولى الوظيفة من بيت قدورة رغم عدم كفاءته حسب ابن المفتي دائما هو: الحاج سعيد بن أحمد بن الشيخ سعيد، تولى منصب الإفتاء المالكي بعد عزل المرتضى في حوالي سنة 1122ه/1710م، وهو ابن خالته، وأيضا صهر خاله الشيخ المفتي محمد بن سعيد قدورة، إذ كان متزوجا من ابنته عزيزة[1].

لقد ظل الحاج سعيد في منصبه لأكثر من سبع سنوات متواصلة رغم أن معاصره ابن المفتي يصفه بأنه :"كان أبلد مخلوقات الله تعالى"[2]، ويذهب إلى القول بأنه:" وصل إلى هذه الخطة بكره ونفور"، مضيفا " وجاءت توليته بسبب أن أهل المدينة كانوا يُجلون آباءه وأسلافه ويستبشرون بهذه العائلة... وكانوا يعتقدون بل حتى يتيقنون أنّ البركة تلتصق حتى بالأبناء في سن الحداثة، وكثير من محاوراتنا معهم في هذا المعنى، وهو:" أن المدينة ما لم يتولّ فيها مُفت ينتسب لذرية سيدي سعيد فإنه سينهال عليها وابل من البؤس كغلاء الأسعار والزلزلة والصاعقة وأشياء أخرى"[3].

لا شك في أن المعاصرة تكون أحيانا سببا في مبالغة الأقران في التقليل من شأن بعضهم، ولكن عدم إحراز هاذين المفتيين للشهرة والمكانة التي حازها من قبل سعيد قدورة وابنه محمد، قد تدل على أن رأي ابن المفتي فيه شيء من الصحة.

(خامسا)– مكتبات البيوتات العلمية:

كانت الكتب والمكتبات في الجزائر خلال العهد العثماني كثيرة جدا، وذلك ما شاهده الرحالة المغربي محمد بن علي التمغروتي في القرن السادس عشر، والباحثون الفرنسيون الذين جمعوا المخطوطات أثناء عملية الاحتلال، ومنهم شارل فيرو الذي ذكر بأن بعض المؤسسات الدينية والعائلات الكبيرة بقسنطينة كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات [4].

---

[1]– ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 108.

[2]– يذكره ابن المفتي بالحاج سعيد فقط، ولا ينعته بسيدي التي ينعت بها العلماء.

[3]– ابن المفتي، المصدر السابق، ص: 107.

[4]– نذكر منهم البارون ديسلان، وأدريان بربروجير، شارل فيرو.

والمكتبات نوعان، عامة وخاصة، فأما المكتبات العامة فهي المكتبات التابعة للمؤسسات الدينية والتعليمية كالمساجد والزوايا، والمدارس، وقد كان عدد الكتب يقل ويكثر بها، على حسب كفاءة مسيريها، وأهمية المؤسسة والوقف الذي ينفق عليها [1].

وأما المكتبات الخاصة فيعود أغلبها إلى البيوتات التي نالت شهرة علمية، وضخامة مكتباتها يرجع لاستمرارها لطويل عهدها بالجاه والنفوذ، ولاسمرار الاهتمام بها من طرف أبناء الأسرة، بحيث يرث الأبناء كتب الآباء، ثم يضيفون عليها كتبا جديدة، ويُوَّرثونها بدورهم لأعقابهم، وهكذا يزداد عدد الكتب في مكتبة الأسرة. وهذا النوع من المكتبات كثيرة جدا بالجزائر آنذاك، لأن شراء الكتب لم يكن دائما للاستفادة العلمية، بل كانت بعض العائلات الميسورة الحال تقتني الكتب لتفاخر بها مثيلاتها [2].

ومن المكتبات الخاصة مكتبة بيت ابن العنابي بمدينة الجزائر، إذ يبدو أن محمد بن محمود بن العنابي كان صاحب مكتبة ضخمة ورثها عن آبائه، وأضاف إليها مقتنيات من عنده، وكان يعلق على الكتب التي يملكها، ويكتب حواشي في أطراف الصفحات منبها أو ناقدا أو مصححا. ويبدو كذلك أن مكتبته الخاصة قد أصيبت بالتلف أثناء إجباره على مغادرة الجزائر سنة 1830م بعد الاحتلال مباشرة، وأن ما بقي منها تلف بعد وفاته في الإسكندرية 1267ه/ 1850[3].

وقد بلغ عدد المكتبات الخاصة بمدينة قسنطينة سبعة عشرة (17) مكتبة حسب بول قفاريل (Gaffaral)، ولذلك قال بأن أهل قسنطينة :" كانوا مولعين باقتناء الكتب، والبحث عن نفائس المخطوطات"[4]. وقد جاء في التقارير الفرنسية المدونة بعد الاحتلال أن

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:296.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:293.

[3]- وجد مثلا تملك له على كتاب كعبة الطائفين. (كعبة الطائفين 15 مجاميع، دار الكتب المصرية). ينظر: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي ، ص: 24.

[4]-Gaffaral, (p), L'Algérie, Histoire, Conquête et colonisation. Paris : Imp de l'institut, 1883. P :123 .

أشهر المكتبات الخاصة بقسنطينة، هي مكتبة الشيخ الفكون، ومكتبة باش تارزي[1]. وهذه الأخيرة هي أيضا أسرة علمية بارزة في قسنطينة إلا أنها نشأت في أواخر العهد العثماني، واستمرت خلال الفترة الاستعمارية.

ولا شك في أن مكتبة أسرة الفكون كانت أضخم مكتبة خاصة بقسنطينة آنذاك، بل بالجزائر كلها، وقد ذكرها أحمد البوني في كتابه "الدرة المصونة" متحدثا عن الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون أمير ركب الحجاج آنذاك بقوله:" وعنده الكتب بالآلاف"[2]، وهي المكتبة المعروفة بمكتبة حمودة الفكون أحد أبرز أبناء هذا البيت المتأخرين، وكانت تحتوي على 2500 مجلد، أما مكتبة باش تارزي فكانت تضم 500 مجلد. وقد أهدى صالح باي مجموعة من الكتب إلى مكتبات ومدارس ومساجد قسنطينة من بينها مكتبة السيد حمودة الفكون، بحيث وجدت عدة كتب تحمل خاتمه[3].

وقد ذكر الورثيلاني أنه كانت لجده يحي :" خزانة عظيمة بحيث لا توجد عند غيره، ولما سلط عليهم الوباء ... ضاعت الكتب"[4].

أما بباليك الغرب فمن أهم خزائن الكتب مكتبة بيت عبد القادر بن المختار[5]، وهي "مكتبة ضخمة" حسب شارل هنري تشرشل، وهي التي عكف الأمير عبد القادر على المطالعة بها [6]. وتعتبر هذه المكتبة عامة أيضا لأنها تابعة لزاوية الأسرة، ومتاحة لاستفادة الطلبة وغيرهم من المترددين على الزاوية.

ومن المكتبات الخاصة بالغرب الجزائري المكتبة المسماة بمكتبة المذاهب الأربعة التي

---

[1]-Francis Laloé, A propos de l'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabe (les manuscrits arabes de Constantine) .in **R. A**. N° : 66. Année : 1925. P, p : 106, 107.

[2]- أحمد البوني، الدرة المصونة، ص، ص: 96.

[3]-Francis Laloé, Op.cit. P, p : 106, 107.

[4]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 102.

[5]- أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة (أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ)، ص: 60.

[6]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص، ص: 71، 72.

حبسها بايات وهران على الشيخ محمد أبي راس الناصري[1]، كما كان لبعض علماء المشارف مكتبات خاصة، نذكر منها مكتبة عبد القادر المشرفي، وذلك ما ذكره أبا حامد المشرفي بقوله:" خزانته التي كانت مستودعة عند الصفليين"[2]، كما كان للسيد المختار بن الطاهر بن البشير الكثير من الكتب[3].

كما كان لأبي العباس أحمد المقري التلمساني مكتبة مهمة بتلمسان، فلما هاجر إلى فاس صحب كتبه معه، فكانت مكتبته من المكتبات التي يشار لها في زمن السعديين، ولما رحل إلى المشرق ذهب بالمختار من كتبه، وترك الباقي بفاس، وقد كتب وهو بالمشرق إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي قائلا في شأن كتبه التي خلفها بفاس:" أرسلت إلى الأصهار والفقيهين سيدي عبد الواحد بن عاشر وسيدي محمد بن سودة، ببيع الكتب على طريق الإذاعة والإظهار والنداء عليها في محل الرغبات ومظان الطلبات، ودفع ثمنها في مؤن البيت، ثم قال: وقد صدرت عنهم أي أصهاره فعلة أحزنت، وفلتة ساءت، وهي بيع بعض الكتب التي تعبت في تحصيلها، وجعلت تصحيحها نتيجة العمر، ومن جملتها: ابن غازي على العيني على الألفية... وأخبرني بعض التواتيين أنها عنده بتوات، وذكر لي علامات في هذا الكتاب بخطي، والدهر يردها غير موات فهل يعدل الكتاب شيء"[4].

– المبحث الثالث: البيوتات والأسر العلمية والوظائف:

تأتي أهمية العلماء و الفقهاء حسب ابن خلدون في المجتمع في تأطيرهم لشؤون الرعية، سواء في مجال العبادات أو المعاملات أو العلم أو التدريس:" من إمامة وفتيا وقضاء وعدالة وحسبة"[5]. وقد قام العلماء بذلك الدور في مختلف الفترات التاريخية.

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:297.

[2]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 19.

[3]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 337.

[4]– عبد الحي الكتاني (ت 1382هـ/ 1962م)، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود. الرباط: المكتبة الحسنية. (ط2)، 2005. ص، ص: 95، 96.

[5]– ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص: 227.

وفي الجزائر خلال العهد المدروس استأثر العثمانيون بأمور الحكم، وانفردوا بالمناصب القيادية الكبرى بالدولة في السياسة والاقتصاد والإدارة والجيش، وتاركين للسكان المحليين المناصب التي لا تمت للحكم بأي صلة[1]، ومنها الوظائف المتصلة بالدين والعلم، هي: الإفتاء والقضاء، والخطابة، والإمامة، بالإضافة إلى التعليم بمختلف مراحله، والكتابة... إلخ. ومن الوظائف الدينية التي عين فيها بعض العلماء إمارة ركب الحج، ونقابة الأشراف، وكالة الزوايا والأضرحة، قراءة القرآن في المسجد (الحزابون)... إلخ .

(أولا)– الإفتاء والقضاء:

(1)– الإفتاء:

تعد هذه الوظيفة أعلى وظيفة يتولاها العالم آنذاك، لما تحتاجه من درجة عالية في العلم وتعمق في مسائل الفقه ومعرفة جيدة للقرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف، والتبحر في اللغة العربية... إلخ بالإضافة إلى النزاهة والصلاح والشجاعة، وكانت شهرة العالم بين الناس بهذه الأوصاف هي التي ترشحه لهذه الوظيفة[2]، كما أن تولي الآباء لها كان يمهد الطريق للأبناء في توليها.

لم يكن الإفتاء وظيفة رسمية قبل العثمانيين، فقد كان العلماء قبلهم يستشارون في المسائل الفقهية المختلفة كعلماء، وليسوا كموظفين تابعين لأي مصلحة من مصالح الدولة، فكان العالم إذا اشتهر أمره بين الناس علما وورعا تتوافد عليها الأسئلة من العامة والخاصة فيجيبه عنها، ولهذا وجد عدد من كتب النوازل والفتاوى قيدت من طرف علماء كانوا مراجع للفتوى في عهدهم [3] دون أن يكونوا موظفين.

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 388.

[2]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص:391.

[3]– من هذه الكتب نوازل المازوني "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"، فتاوى الونشريسي المعروفة بالمغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب.

ولما جاء العثمانيون جعلوا الإفتاء وظيفة رسمية يعين صاحبها ويعزل كباقي الموظفين، وجعلوا الفتوى على مذهبين: المذهب المالكي، مذهب أغلبية السكان، والمذهب الحنفي المذهب الرسمي للأيالة، وقد لقب العثمانيون المفتي الحنفي بشيخ الإسلام كما كان يلقب نظيره في استانبول، وجعلوه مقدما على المفتي المالكي في الحظوة والرأي والاعتبار[1].

وينبغي التنبيه إلى أنه بالرغم من المكانة العليا للإفتاء، إذ يعد أعلى جهاز ديني آنذاك فإنه لم يكن له أي تدخل في أمور السياسية، إلا أن الجاه والنفوذ الذي بلغه بعض المفتين جعل السلطة تلجأ إليهم في المهمات السياسية المتعلقة بعلاقتها مع السكان المحليين.

لقد كان الجامع الكبير بالمدينة هو مقر المفتي العام، ولهذا كان المفتي يشرف على النشاطات المختلفة للجامع إلى جانب قيامه بوظيفة الإفتاء، بحيث كان المفتي يتولى الإشراف على أوقاف الجامع الكبير، كما يتولى به الخطابة والإمامة، إلى جانب التدريس[2]. ونظرا لكثرة انشغالات صاحب هذه الوظيفة كان بعض المفتين ينيب غيره في الإمامة، بل أحيانا حتى في الخطابة.

وقد كان المسجد مخصصا للمذهب المالكي، وقد كان كذلك مقرا للمجلس العلمي الذي كان يجتمع للنظر في القضايا المستعصية، والذي كان يضم كلا من المفتيين الحنفي والمالكي وقاضيي المذهبين[3].

وقد استأثرت البيوتات العلمية الكبرى بوظيفة الإفتاء وقلما خرجت عنها، مثلا في مدينة الجزائر توارثها بيت قدورة، كما أن وظيفة الإفتاء الحنفي وبالتالي إدارة الجامع الجديد ظلت متوارثة في بيت ابن علي وابن العنابي، وفي مازونة استأثر بيت الكتروسي بالإفتاء المالكي وبإدارة الجامع الكبير سيدي عزوز. أما في قسنطينة فيعد بيت الفكون استثناء، بحيث

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 392، 393.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص:393.

[3]- مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها، ص: 49.

أدار أبناؤه الجامع الكبير بالبطحا رغم عدم توليهم الإفتاء، وإنما تداولوا على الإمامة والخطابة به.

ويعد بيت قدورة أشهر البيوتات التي توارثت الإفتاء المالكي، إذ توارثه أبناء هذا البيت لمدة حولي قرن من الزمن بشكل متواصل، وأول من أسندت إليه الوظيفة من هذا البيت هو مؤسسه الشيخ سعيد قدورة، فتولاه لمدة تزيد عن الثلاثة عقود، ولما توفي ترك أربعة أولاد على الأقل هم: إبراهيم، وعلال، ومحمد وأحمد. فأما إبراهيم فلا نعرف من أخباره شيء إلا أنه كان بالحرمين الشريفين سنة 1077هـ/1666م[1]، وأما علال، فقد كان يشغل منصب قاضي المالكية في سنة 1118ه/1706م[2]،

وأما محمد وأحمد فهما أشهر أبناء سعيد قدورة، وكلاهما تولى الإفتاء، فأما محمد فقد ظل في الفتوى أربعين سنة بشكل متواصل (1066ه-1107ه)، وكان والده قد بدأ في تمرينه على هذه المهمة، وعلى تولي الوظائف الرسمية منذ صغره، ولم يكد يوافيه الأجل حتى كان محمد هو المرشح الأول للإفتاء في الجامع الكبير[3]، ورغم شهرته وقوة عارضته في علوم الدين إلا أنَّ بعض معاصريه ظلوا يعتقدون أنه مدين بما وصل إليه من مجد وشهرة وجاه لوالده، فهذا محمد بن زاكور الفاسي يصفه بأوصاف كبار العلماء ثم يقول:" وإمامة والده أبي عثمان هي التي أرقته على غيره من الأعيان، وأولته المراتب الخطيرة، والفضائل الشهيرة"[4].

ثم تولى المنصب أخاه أحمد أزيد من عشر سنوات بشكل متواصل أيضا خلال الفترة الممتدة بين سنتي: 1107ه-1118ه، غير أن نهايته كانت مأساوية بحيث أعدم رفقة أخاه علال من طرف الداي محمد بكداش، ومع ذلك لم يخرج منصب الفتوى نهائيا من بيت

---

[1] – عيسى الثعالبي، « إجازة عيسى الثعالبي لإبراهيم بن سعيد بن إبراهيم قدورة » مخ، ص: 234.

[2] – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 259.

[3] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 365.

[4] – ابن زاكور، نشر أزاهر البستان، ص: 38.

قدورة، بحيث تولاه بعض أحفاد سعيد قدورة، فعين عبد الرحمن المرتضى مفتيا بعد إعدام خاله، ثم عين فيه سعيد بن أحمد بن سعيد، وأخاه عبد الرحمن[1]، وهكذا تداوله هؤلاء الأحفاد لسنوات عدة، ثم بدأوا يعينون بالتناوب مع غيرهم، ولكن عارضة هؤلاء في العلم لم تكن كأسلافهم، ويشهد بعض معاصريهم على أن شهرة أسلافهم وتمسك سكان المدينة بهم هي التي جعلت السلطة توليهم قبل أن يختفي هؤلاء من المنصب نهائيا منذ 1180ه/ 1766م[2].

(2)- القضاء:

وضع الفقهاء شروطا لمن يتقلد هذا المنصب، أهمها أن يكون المرشح عدلا، ومتمكنا من وسائل الاجتهاد كالحذق في اللغة العربية وعلوم الشريعة[3]، وبما أن هذه الدراسة ولا تسعنا لتقييم القضاء في الجزائر خلال العهد العثماني ومدى استجابته لهذه المؤهلات[4]، نشير فقط إلى أنه حدث أحيانا أن ولي أشخاصا غير مؤهلين لهذا المنصب.

وقد كانت السلطة تعين قاضيان في كل مدينة رئيسية، أحدهما للمذهب الحنفي والآخر للمالكي، وتحت هاذين القاضيين مجموعة من القضاة الموزعين في أنحاء الأقاليم. ويجدر التنبيه إلى أن بعض المصادر العائدة إلى الفترة العثمانية ك"منشور الهداية" للفكون تسمي القاضي الرئيسي أو العام ب" قاضي الجماعة"، رغم أن هذا المصطلح كان معمول به في النظام القضائي في عهد الحفصيين والزيانيين ولا وجود له في النظام القضائي العثماني.

---

[1] -De Gonzalez, Essai chronologique . p : 59.

[2]- تطرقنا لذلك بالتفصيل في التعريف ببيت قدورة في فصل الخاص بالبيوتات والأسر العلمية بدار السلطان.

[3]- مصطفى أحمد بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام (نموذج الجزائر في العهد العثماني). دبي: قسم الدراسات والنشر، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دمشق: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع. (ط1)، 1999. ص:95.

[4]- تشير بعض المصادر إلى تولي بعض الأشخاص غير المؤهلين للوظيفة كمنشور الهداية، ويذهب ابن حموش إلى أن الوثائق العائدة إلى تلك الفترة لا تشير إلى أي خلل في هذه الشروط غير أن الدراسات الغربية تشير إلى بعض التجاوزات. ينظر: المدينة والسلطة في الإسلام (نموذج الجزائر في العهد العثماني). ص: 96.

يحتل القضاء المرتبة الثانية بعد الإفتاء من حيث الأهمية، حتى وإن لم يكن للقاضي تدخل بشكل مباشر في الأمور السياسية إلا أن وظيفة القاضي الحنفي وظيفة دينية سياسية[1].

وقد أسندت للقاضي مهام مختلفة إلى جانب مهمته الرئيسية؛ وهي الفصل في القضايا الخاصة بالسكان من زواج وطلاق، وعقود بيع وشراء، وعقود الأوقاف...إلخ. كما كان القاضي يلعب دورا في توجيه بعض الوظائف الدينية والإشراف على الأوقاف، وتعيين القائمين عليها.

لقد كان منصب القضاء مدعاة للتنافس بين العلماء لما يكسبه صاحبه من الجاه والنفوذ، أما بالنسبة للأسر التي تداولت على هذا المنصب، فنلاحظ أن القضاء الحنفي لم ينحصر في أسر معينة على غرار المناصب الحساسة الأخرى[2]، وهناك من يفسر الأمر بكون هذه الوظيفة كانت تكلف صاحبها الكثير من الرشوة، وذلك ما حال دون توريث هذا المنصب في أسر معينة [3].

وبالنسبة للقضاء المالكي بمدينة الجزائر دار السلطان فليس من الهين معرفة أسماء العلماء الذين تداولوا على هذا المنصب، "إذ عسرت الطريقة المعتمدة في تسجيل العقود من متابعة ذلك، لاكتفائها في أغلب الأحيان بذكر عبارة :"... الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام قاضي المالكية ومحرر القضايا الدينية الواضع اسمه فيه معقودا بعلامته..." بدون تسجيل اسم القاضي، فرغم توفر العديد من الوثائق في سجلات المحاكم الشرعية، والتي بث فيها قضاة مالكية إلا أنّ اسم القاضي وارد بعلامة والمعروفة آنذاك ب" الطغرة"، وما دمنا لا نعرف

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص:394.

[2]- غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، ص: 77.

[3]- عائشة غطاس، القضاة الأحناف بمدينة الجزائر (1560- 1850م)، ضمن المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع17، 18، سنة 1998. ص: 374.

أسماء القضاة، فلا يمكننا أن نعرف " أسماء الأسر التي تولت القضاء المالكي على نحو دقيق حتى نعرف فيما إذا كان مبدأ توريث المنصب هو السائد"[1].

أما ما ذكرته عائشة غطاس من أنه من بين الأسر التي تولت القضاء المالكي أسرة المانجلاتي، وأسرة بن مالك[2]، فهي على الأرجح لا تعني بأن هذه الأسر توارثت القضاء، وإنما

هي أسر علمية تولى بعض أبناءها هذا المنصب دون احتكاره.

أما في عواصم البايليك والمدن الأخرى فلدينا مثال عن تولي بعض علماء بيت المشارف للوظائف الدينية ومنها القضاء، وأكثر فروع بيت المشارف توليا للوظيف بيت عبد القادر المشرفي، وذلك ما ذكره صاحب "القول الأعم" بقوله:" و لم تتعد الرياسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك، وكانت لهم ولاية في خطط الشريعة أيام الأتراك وأيام ابن عمنا الأمير وغيرهم من أبناء عمهم... بهم لا ظهور لهم معهم"[3].

ومن علماء بيت المشارف الذين تولوا القضاء، " قاضي الراشدية الشيخ عبد القادر بن عبوا "[4]، والعلامة الشيخ اعمر التـــــراري المشرفي بن أحمد أبي جلال، وفي القصيدة التي رثاه بها تلميذه الشيخ مصطفى الرماصي ما يدل على توليه للقضاء[5]:

ليبكيه سوى أم العـــســـاكر دائما بها قد أذاع الحـــق لا من يناجده

يحكم بين الخصم بالفصل جازما فسيان عنـــده الغريب وباعده

...ولا يســـتميله الغـــني بـــرشوة فيجيء مع المنهاج لا من يناده

---

[1]– هذا ما نقرأه في أغلب عقود المحاكم الشرعية. ينظر: غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 77.

[2]– غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، ص: 77.

[3]– الطيب بن المختار، القول الأعم، ص، ص: 332، 333.

[4]– محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، " تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 19.

[5]– محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص، ص: 14، 15.

كما عُرض منصب القضاء على الشيخ عبد القادر المشرفي إلا أنه اعتذر عنه، وذلك ما أكده تلميذه أبي راس:" عُرض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه ولا عرج عليه"[1]. وهو الذي ذكر له كرامة يهمنا منها رأي الشيخ عبد القادر المشرفي في تولي المناصب، والكرامة هي:" أنَّ ابن عمه السيد عبد الله بن أحمد رجع كاتبا عند الباي فنهاه فلم يقبل... فدعا عليه فلم تمض عليه جمعتان حتى مات"[2].

إلا أن الشيخ عبد القادر المشرفي كان يفتي الناس، ويكتب لهم بذلك مع أنه لم يكن مفتيا رسميا، " ولو جمعت فتاويه الفرعية[3] ودونت لملأت الديوان"[4]، ولم يقتصر إفتاؤه على العامة الناس بل حتى القضاة ورجال الدولة كانوا يستفتونه، وذلك ما أكده تلميذه أبي راس:" يخضعون له القضاة وسائر الولاة، ويهابونه ويرجعون إليه ودأبهم التعويل عليه في مهمات الدين "[5].

أما ابنه الطاهر المشرفي فتولى القضاء بوهران[6] على الرغم من زهده فيه، وذلك ما أشار إليه أبا حامد في قوله:" وقد جبره ملك الأتراك على القضاء بعد إباية منه وامتناع، فأحسن السياسة الشرعية" [7]. كما تولى الشيخ ابن عبد الله المدعو بسقط حفيد عبد القادر المشرفي القضاء في عهد الدولة العثمانية، وفي دولة الأمير عبد القادر[8]، وذلك ما أشار إليه أبا حامد بقوله:" تولى القضاء بأم العساكر سنين عديدة لقلة من يقوم مقامه في ذلك الباب،

---

[1]- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته، ص: 53.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله، ص: 54.

[3]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص، ص: 9، 10.

[4]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 19.

[5]- أبو راس الناصري، المصدر السابق، ص: 53.

[6]- الكتاني، فهرس الفهارس، ج2، ص: 466.

[7]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 19.

[8]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 332.

وكان أيام دولة الأتراك عليه الاعتماد في مشكل النوازل، وكذا أيام دولة السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين مع وجود جم غفير من العلماء أهل التحقيق... "[1].

وممن تولى القضاء أو الإفتاء من بيت المشارف الشيخ علي بن عبد القادر المشرفي حسب ما يُفهم من ظاهر النص الوارد في كتاب "ياقوتة النسب" لابنه أبا حامد المشرفي، وهو:" كان مصدر للأحكام الشرعية في وقته بإذن من ولاة الأمر وقضاء الأمصار، وإن امتنع من التحكيم لجور الوقت"، وفي قوله أيضا:" وكانت أحكامه الفاصلة بين الخصوم غالبها أنه يقضي بينهم بالصلح"، وقوله أيضا :" ومن عادته -رضي الله عنه- إذا أشكل عليه في القضية أمرا لم يجد نصا في عين النازلة رفعهم للقضاة أو يلح في الصلح بينهم"[2]. فهل كان مفتيا أم قاضيا أم لم يكن كذلك، إلا أن الناس كانوا يردون عليه لمكانته ليفصل بينهم في قضاياهم؟

ومن بيت أولاد السيد بوجلال المشرفي الشيخ بن عبد الله السنوسي بن المهدي، تولى خطة القضاء نحو الأربعين سنة، كما تولى خطة التوثيق، ولذلك فإن أكثر وثائق المتأخرين من بيت المشارف بخط يده، وعليه تعتمد قضاة الأمصار في إتقان الوثائق-حسب أبا حامد المشرفي- [3].

(3)- القضاة الفرعيون:

كانت السلطة تعين قاضيان في كل مدينة رئيسية، وتحت هاذين القاضيين مجموعة من القضاة الموزعين في أنحاء الأقاليم، كما يوجد نائب أو خليفة للقاضي، وقاضي المواريث، وبالإضافة قضاة العسكر الذين كانوا يرافقون الحملات العسكرية والغزوات البحرية[4].

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص، ص: 20، 21.

[2]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 2.

[3]- أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب" مخ، ص: 21.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص:394.

وبالنسبة لنيابة القضاء، فإن القضاة هم الذين كانوا يعينون أحيانا من ينيبون عنهم غيرهم، أو يعين الباي خليفة للقاضي، وهو ما تحدث عنه الفكون في "منشور الهداية" وسماه "نيابة قضاء العجم"[1]، ويعني بهم الأتراك. ولكن ليس لدينا معلومات كافية عن هذه الوظيفة رغم تتبعنا ما ورد من إشارات حولها في الكتاب المذكور، وقد ذكر أبو القاسم سعد الله في تعاليق له في الكتاب المذكور[2]:" بمعنى أصبح في مرتبة باش عدل ونحوه" [3].

كما أن قوله بالنيابة للقضاة العجم، أي الأتراك، يحتاج لتوضيح ذلك أن السكان المحليين كلهم مالكية، والأتراك أحناف، فهل يمكن لفقيه مالكي أن يتولى نائبا للقاضي الحنفي، ولهذا لا يستبعد أن القصد من ذلك أنه أصبح نائبا في عهد العثمانيين سواء للحنفية أو المالكية.

ويفهم من ظاهر أحد النصوص الواردة في "منشور الهداية" أن نائب القاضي قد يكلف بمرافقة العسكر عند خروج المحلة[4]، فقد ذكر في ترجمته للفقيه أحمد الجزيري، بأنه كان مدرسا من أهل الفتوى، وبأنه " تولى النيابة في القضاء عن قضاة العجم، وكان يصلي بقواد المدينة في رحيلهم عن البلد بمحلتهم"[5].

وقد تولى هذه الوظيفة عدد من أبناء البيوتات العلمية العريقة بقسنطينة كبيت الكماد، ومنهم أبو عبد الله محمد الكماد، الذي كان في ابتداء أمره قاضيا للجماعة، "ثم تنَوَّب على قضاة العجم"[6]، كما تولاها ابنه وسميه محمد الكماد، وقد ذكر الفكون في ترجمته:" وكان هو أيضا نائبا عن قضاة العجم بعد والده القاضي الفقيه المذكور، وكان من

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، ص: 44.

[2]- ويبدو تردد أبو القاسم سعد الله بحيث ذكر في تعليق آخر:" الظاهر أنه كان في رتبة باش عدل". (ها: 1، ص: 69). وفي تعليق آخر له (ها: 5، ص: 213) بأن:"وظيفة النيابة تشبه وظيفة باش عدل".

[3]- أبو القاسم سعد الله في تعليق له منشور الهداية للفكون، ها: 4، ص: 44.

[4]- المحلة هي فرقة عسكرية تخرج إما لجمع الضريبة أو لمعاقبة القبائل الثائرة. ينظر: زكية زهرة، الجيش الانكشاري، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص: 83.

[5]- الفكون، منشور الهداية، ص: 69.

[6]- الفكون، المصدر نفسه، ص: 44.

عدول البلد، وممن له الخطة التوثيقية"[1]. والنص يبين لنا تداول هذا الفقيه على تلك الوظائف، وربما الجمع بين بعضها.

ومن البيوتات التي تولى بعض أبناءها النيابة بيت ابن باديس، وبيت الغربي، إذ كان الفقيه يحي بن باديس" نائبا عن قضاة العجم في البلد المذكور، وخطيب جامع قصبتها "[2]. كما أن أحمد المدعو أحميدة بن حسن الغربي:" تولى نيابة قضاة العجم، وامتحن من الولاة كثيرا... تشكت به العامة"، وهذا قبل أن يتولى الفتوى[3].

(ثانيا)– العدول والموثقون:

كان يعاضد القاضي في المحكمة عدد من الموظفين الخاضعين له، وفي مقدمتهم العدول والموثقون، وفي ظل غموض النصوص التاريخية المتوفرة فإننا أمام رأيين فيما يخص هؤلاء المساعدون، إذ يعتبر بعض الدارسين أن العدول هم الموثقون، في حين يعتبر البعض الآخر أنهما وظيفتان مستقلان عن بعضهما البعض[4].

أما منشأ هذا الاختلاف فهو تداخل مهام أصحاب هاتان الوظيفتان كما في النصوص المستقاة من "منشور الهداية"، سيما وأن بعض الفقهاء تداول بين هذه الوظائف، فكان بعضهم يولى التوثيق ثم نيابة القضاء، وأحيانا يجمع بينهما، وكان آخرون يجمع بين الشهادة وبين التوثيق، وهكذا، ولهذا جاءت النصوص غامضة، ومنها أنَّ أبا عبد الله محمد الكماد كان:" نائبا عن قضاة العجم... وكان من عدول البلد، وممن له الخطة التوثيقية "[5].

---

[1]– الفكون، المصدر نفسه، ص: 77.

[2]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 69.

[3]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 75.

[4]– العدول في المغرب الأقصى هم الموثقون، إذ كانوا يحررون وثائق البيع، والأنكحة ...إلخ لزبائنهم، وقد كان هؤلاء العدول المنتصبون للشهادة يجلسون في دكاكين خاصة تقع غالبا قرب الجامع الأعظم، وقد تكثر هذه الدكاكين المتلاصقة فتسمى سماطا. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية في بالمغرب في عهد السعديين، ج2، ص:118.

[5]– عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 77.

ويذهب أبو القاسم سعد الله في تعاليق له في "منشور الهداية" إلى أن خطة الوثيقة: وظيفة كتابة الوثائق الشرعية[1]، وقال في تعليق له على خطة الشهادة بأنه يُقصد بخطة الشهادة التوثيق[2]. وعليه فهو لا يفرق بين العدول والموثقون، ونفس الرأي يذهب إليه مصطفى بن حموش حينما يذكر بأن القاضي كان يأمر شاهديه (أي كاتبيه) بتحرير العقد[3].

ويفهم من ظاهر أحد النصوص واردة في " النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني" بأن ناصر الدين سعيدوني هو الآخر يعتبر أن أن العدول هم الموثقون، والنص كما هو:" العدول الاثني عشر الذين كانوا يعملون في تحرير الوثائق، وتقديمها للقاضيين المالكي والحنفي لختمها والمصادقة عليها، وهؤلاء العدول لا تتعدى أجرة كل واحد منهم سكة جزائرية واحدة ". ويضيف بأن العدل كان يتقاضى مقابل تحريره لكل حيثية بدقة شيك أو نصفها، ويحصل أيضا إلى جانب القاضي بدخل محترم فيما إذا كانت الأمور تتعلق ببيع الأملاك العقارية حيث تتعقد الإجراءات ويتوجب التحري ومراجعة وثائق الملكية[4].

وذكر المؤلف نفسه في "ورقات جزائرية" بأن بيت المالجي كان يباشر مهامه بمساعدة عدد من الموظفين منهم: قاض يعرف عادة باسم الوكيل، وبمعونة موثقين يعرفان أيضا باسم العدول، يتم تعيينهم أو عزلهم بأمر من الداي[5].

وتحسم بعض الفتاوى الواردة في " نوازل الفكون" في الأمر، ويتبين جليا أن الموثقون هم غير العدول، وموضوع النازلة هو رفض موصى عليه بيع أخته الوصية عليه عقارا، واستند في دعواه على بطلان الوثيقة بإغفال كاتبها لبعض التوضيحات التي كان ينبغي عليه تسجيلها، وبأمور عديدة منها عدم حضوره للبيع، والنص الذي نستند عليه في التفريق بين

---

[1]– أبو القاسم سعد الله في تعليق له في كتاب منشور الهداية للفكون، هامش: 1، ص: 214.

[2] – أبو القاسم سعد الله في تعليق له في المصدر نفسه، ص: 95. هامش 3.

[3]– مصطفى أحمد بن حموش، المدينة والسلطة في الإسلام، ص: 91.

[4]– ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، ص، ص: 136، 137.

[5]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية. ص: 168.

العدول والموثقون هو-والهاء تعود على صاحب القضية الموصى عليه-:" ... ودعواه عدم الحضور للبيع فكيف يقبل منه وقد شهد عليه بذلك عـــدلان منتصبان للإشهاد بين الناس فيما لهم وعليهم، وكيف يقدح في شهادة أحدهما بلا سبب بقوله غير مقصود للتوثق مع أنه مشتهر بالعدالة كما ذكر، وكبر سنه وقد جاوز سنة الثمانين سنة، وله قدم في العدالة ما يـــزيد على الستين سنة، وعظم قدره بالنسب العلي النبوي، فكيف يطعن فيه بمجرد القول مع أن الطعن في العدول ببلدنا باب مغلق، ودريعة سدت، ولو فتح هذا الباب لاتسع الخرق، ولا يكاد يوجد في زمننا من تصح شهادته، ومنها ما أخذه من قول الموثق في آخر الرسم أعلاه ..." [1]. وفيها أيضا أن:" الاعتراض واه، وأما شهادة العدول صحيحة لا يمكن ردها "[2].

إنَّ تكرر عبارة: شهادة العدول، و"كاتب الوثيقة" والموثق (واسمه قاسم) في هذه النازلة، يتبين أن الموثق هو كاتب الوثيقة، وأن العدول هم الشهود.

(1)- العدول:

العدول مفردها عدل، وقد ارتكز القضاء الإسلامي على الإدلاء بالشهادة، غير أنها أخذت في الجزائر خلال العهد العثماني طابعا رسميا، فكان هؤلاء العدول يحضرون مجلس القاضي في المحكمة بشكل دائم[3]، ويشهدون على صحة العقود، وأحكام القاضي في شتى القضايا، ويسجلون مختلف الأقوال التي يصرح بها أطراف القضية المطروحة أمام القاضي. كما كانوا يراقبون كل ما يجري داخل مجلس القاضي من مرافعات وشهادات الشهود، فيتأكدون أنَّ هؤلاء يتمتعون بكامل قواهم العقلية، والصحية، مما يؤهلهم للشهادة، وبالتالي

---

[1]- محمد الفكون، " نوازل الفكون" مخ، ص:158.

[2]- محمد الفكون، المصدر نفسه، ص:159.

[3]- كان العدول يشكلون جهاز رقابة على القاضي، وكان بإمكانهم طلب إعادة المحاكمة أمام نفس القاضي، أو المطالبة بسماع الشهود، أو مناقشة القاضي في حكم أصدره، كما أنه بإمكان القاضي تأديبهم عند الإخلال بواجبهم، إلا أن المصادر لا تتفق على تحديد عددهم داخل المحكمة، ولكن لا يمكن أن يكون عددهم أقل من اثنين، وهو ما تثبته عقود المحاكم من خلال توقيع الشاهدين في آخر كل عقد. ينظر: محمد بوشنافي، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني (10- 13ه/ 16- 19م)، ص، ص: 116، 117.

صحة حكم القاضي. ونظرا لأهمية دورهم فإن عقود المحاكم الشرعية لا تخلو من ذكرهم، للتأكيد على صحتها[1].

ويشترط في العدول حسن الخلق، والاستقامة، والأمانة، والحرية، والعقل، والإسلام، والبلوغ، ولهذا كان معظم العدول من الفقهاء والأئمة. كما يشترط فيهم أن يكونوا من سكان المدينة التي يباشر فيها القاضي مهامه، فيقمون بالشهادة على الأشخاص والأحداث مصداقا لقوله تعالى :" وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُم"[2] [3].

وقد ارتبطت هذه الوظائف بنيابة القضاء وبالتوثيق بشكل ما، فهذا أحمد الميلي :" وممن تعاطى خطة الشهادة، وربما استنيب أياما "[4]، وهذا أبو العباس أحمد بن الحاجة كان :"من أهل الوظائف المذكورة، عدالة ونيابة ببلد قسنطينة "[5]. ويبدو أن هذه الوظائف لم تكن توفر لصاحبها دخلا ماليا مُهما بحيث يصف الفكون صاحبه هذا بأنه " كثير الجود على قلة ذات يده"[6].

وقد سمحت هذه الوظيفة لبعض متوليها بالارتقاء إلى الوظائف العليا حتى مع قلة مؤهلاتهم، من ذلك الفقيه أبو عبد الله محمد بن نعمون وهو الذي تولى "خطة الشهادة "[7]، وقد ذكر الفكون في ترجمته :" كان في صغره من شهود دار القضاء... وتولى خطة الفرائض، ومفاصلات التركات والإشراف على صاحب المواريث بعد موت صهره أبي محمد

---

[1]- وفي بعض العقود مثلا:" شهد على السيد القاضي حفظه الله تعالى بما نسب إليه فيه، وعلى من ذكر بما ذكر على نحو ما بين فيه وسطر، في أحواله الجائزة شرعا وعرفه بتاريخ..."، ويلي ذلك توقيع العدلين، كما يرد ذكرهما في افتتاحية العقود بعبارة :" الحمد لله حضر لدى شهيديه وبالمحكمة...". ينظر: محمد بوشنافي، المرجع السابق. ص، ص:116، 117.

[2]- سورة الطلاق، الآية (2).

[3]- محمد بوشنافي، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني (10- 13ه/ 16- 19م)، ص، ص:116، 117.

[4]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 95.

[5]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 116.

[6]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 213.

[7]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 82.

عبد اللطيف المسبح، ثم إنه ترقى لمنصب الفتيا "[1]، مع أنه " كان في مجلس درسه متكلا على ولديه... وكذا في غالب الفرائض، ويتكل عليهما في غالب الوثائق، لأن ثلاثتهم معهم معرفة مبادئ الفرائض قسمة" [2]. وذكر الفكون في موضع آخر أن الأمير كان يحبه :" لأنه كان شـــاهد بيت ماله، ومَجَابيهَا على يديه، مع استعماله في شهادات يستعين بها على أمور رعيته "[3].

ولا شك في أن خطة الفرائض هي قضاء المواريث، وفيما يخص شاهد بيت المال فهو إما يقصد بها العدالة أو التوثيق، مع العلم أن بعض المصادر ينعت الموثق أحيانا بالشاهد، الأمر الذي أربكنا كثيرا.

إنَّ التنافس غير الشريف بين عدول قسنطينة بلغ مداه في القرن العاشر الهجري، الأمر الذي أجبر بعض العلماء إلى إبطال شهادة العدول على بعضهم البعض لتحاسدهم، حسبما ورد في إحدى "نوازل الفكون" :" وبعد أن تقرر ذلك من حالهم، وانتهى بينهم أشهد الآن الشيخ الفقيه الإمام الخطيب القاضي... عاقدا شهادته محمد بن محمد الخطيب الغربي قاضي الجماعة بالمدينة المشار إليها حين التاريخ... أن سجل على عدول قسنطينة بالمدينة المذكورة ألا يشهد بعضهم على بعض في شيء مما ذكر ولا تجوز شهادتهم فيه على بعضهم بعضا بوجه"[4]، كان ذلك في سنة 946ه/1539م.

(2)- الموثقون:

كان الكتاب أو موثقون يجلسون عن يمين ويسار القاضي، وتنحصر مهمتهم في تسجيل محاضر الجلسات، وتحرير مختلف أنواع العقود، وقد يُسدون النصيحة للقاضي في بعض

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 81.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 82.

[3] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 211.

[4] - محمد الفكون، " نوازل الفكون" مخ، ص، ص:475، 476.

القضايا، ولهذا يشترط فيمن يتولوها أن يكونوا عدولا، وأن يكونوا أيضا من رجال العلم[1]. وفي "نوازل الفكون" أنّ:" خطة التوثيق شريفة، ومَرْتَبَة رفيعة، وهي مُفْتقدة إلى علوم، إذ لا ينتصب لها من غلب الجهل عليه... وقد قال مالك-رضي الله عنه- لا يكتب بين الناس إلا عالم بالتوثيق، عدل في نفسه، لقوله تعالى:" وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ"[2] "[3]. ومن العلوم التي تحتاجها أن يكون ملما بالفقه، وبقواعد اللغة العربية، وفنون الخط[4].

وقد كان " قضاة العدل يمنعون من لا يحسن التوثيقية من كتب الوثيقة " حسبما ورد في "نوزل الفكون"، ولهذا أفتى أحد الفقهاء بعزل أحد الموثقين لجهله بشروط مهنته بعد أن أطلعه المستفتي على عقد بيع حرره، والنص هو:" وهذه الوثيقة لا يُقضى بها، وعلى الحاكم الشرعي أن يمنع كاتبها من كتب الوثائق بين الناس "[5].

ولم يقتصر عمل الموثقون على المحكمة بل عملوا في بعض مصالح الدولة كبيت المال، وهي هيأة تقوم بمهام متعددة أهمها مراقبة تركات الأشخاص الذين يتوفون، ولا يمكن دفن أي ميت إلا بأمر من بيت المالجي، وهو رئيس هذه الهيأة التي تعين حقوق الورثة. وفي " المرآة" بأن بيت المالجي يساعده قاض وموثقان، وكاتبا ضبط، ومسجلون. ومن مهام الموثقين، الذهاب إلى محل سكنى الميت، وتقييد جميع الأشياء الموجودة فيه لضمان حقوق جميع الورثة[6].

وقد تولاها العديد من أبناء البيوتات العلمية العريقة بقسنطينة، وبعضهم من الأعيان كالشيخ محمد بن أبي زكريا يحي بن باديس (القرن11ه)، الذي كان " من موثقي البلدة،

---

[1]- محمد بوشنافي، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني. ص: 117.

[2]- سورة البقرة، الآية (282).

[3]- أجاب عن هذه النازلة المفتي يحي بن محجوبة حوالي سنة 1008ه. ينظر: محمد الفكون، المصدر السابق، ص: 115.

[4]- محمد بوشنافي، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني، ص: 117.

[5]- محمد الفكون، "نوازل الفكون" مخ، ص: 115.

[6]- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تر وتح: محمد العربي الزبيري. الجزائر: منشورات ANEP، 2005. ص: 96.

وممن يُشار إليه "[1]، ومنه أيضا أبو عبد الله بن العطار الذي "تصدى لخطة النيابة" لفترة يسيرة، أما المهنة التي اشتهر بها وحقق فيها تميزا بقسنطينة فهي التوثيق، بحيث كان " من أهل الخطة التوثيقية، صاحب خط حسن... وكان منتهى العام والخاص في الوثائق، وملجأ الخاص في عقود الأنكحة، وكتب رسوم الأشراف لحسن خطه، وصناعة تزويقه"[2].

وتداول على هذه الخطة كغيرها من الخطط بعض أبناء الأسرة الواحدة كأسرة المسبح بقسنطينة، بحيث كان الفقيه أبو محمد عبد اللطيف المسبح (ت980ه/1572م) مفتيا بقسنطينة، إلا أن كان الحساب أغلب عليه، وتميز عن غيره في صناعة التوثيق، لذلك يصفه الفكون بأنه كان:" مرجوعا إليه في وثائق أهلها"، وبأنه كان "صاحب تفنن فيما يُحتاج إليه من وثائق" [3].

كما تولاها الشيخ أبو عبد الله محمد بن الفقيه حميدة المسبح، وهو معاصر للفكون، إذ :" تولى خطة النيابة بالبلد، ومكث فيها زمانا". كما اشتغل بالتوثيق، وقد نقده الفكون نقدا لاذعا بوصفه بأنه لم يكن :" يعرف ما يصلح به وضوءه وصلاته فضلا عمَّا وراء ذلك، غير أنه اتخذ كتب الوثيقة صناعة، على ما فيها من الفساد والإفساد علما ورسما"[4].

وكانت مهنة التوثيق تمكن صاحبها بالظفر بوظيفة أعلى منها كنيابة القضاء، من ذلك ما ذكره الفكون في ترجمة أبو محمد عبد اللطيف بركات:" ممن تولى الخطة (النيابة) على معرفة بقواعد البيِّنة على المدَّعي واليمين على من أنكر، ليس له دراية إلا ما تلَّقاه من كثرة مرور

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، ص: 209.

[2]- الفكون، المصدر نفسه، ص: 91.

[3]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 46.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 90.

النوازل عليه حين كان من جملة الموثـــقين، حتى أنه -رحمه الله- لا يعرف جل مصلحات صلاته عبادته فضلا عن غيرها "[1].

(ثالثا)- جدول يبين توارث بعض البيوتات العلمية للقضاء والوظائف المتصلة به:

يضم هذا جدول نماذج عن البيوتات العلمية التي توارثت الإفتاء والقضاء ونيابة القضاء أو الشهادة والتوثيق، وسنأخذ أسرتين من بايليك، وقد حاولنا إيراد الفترة التي تولى فيها كل عالم في خانة مستقلة في الجدول غير أن عدم دقة ذلك في المصادر، وتعيين وعزل أغلب العلماء عدة مرات حال دون تحقيق تلك الغاية.

البيت	المدينة والمذهب الفقهي	العالـــــــم المتولي للوظيفة	الوظيفة
قـــــدوة (7 علماء)	مدينة الجزائر/ مالكي المذهب	سـعيد بن إبراهيم قـــدورة (ت 1066ه)	الإفتاء
		أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت1107ه)	الإفتاء
		أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 1118ه)	الإفتاء
		علال بن سعيد بن إبراهيم (ت 1118ه)	القضاء
		عبد الرحمن المرتضى (ابن ابنة قدورة) (ق12ه).	الإفتاء
		سعيد بن أحمد بن سعيد (ق 12ه)	الإفتاء
		عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد؟ (ق12 ه)	الإفتاء
ابن العنابي (4 علماء)	مدينة الجزائر/ حنفي المذهب	مصطفى بن رمضان العنابي (ت 1130ه).	الإفتاء والقضاء
		حسين بن محمد العنابي (ت 1150ه).	الإفتاء
		محمد بن حسين بن محمد (ت1203ه).	القضاء
		محمد بن محمود بن محمد (ت1267ه).	الإفتاء والقضاء
المســـبح	قسنطينة/ مالكي	أبو محمد عبد اللطيف المسبح (ت 980ه).	الإفتاء،

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 79.

(4 علماء)	المذهب	أحمد المدعو حميدة المسبح (ت981هـ) محمد بن حميدة المسبح(ت قبل 1045ه). محمد بن المسبح (ت 1242ه)	والتوثيق. الإفتاء. نيابة القضاء والتوثيق. القضاء
الغـــربي (5 علماء)	قسنطينة/ مالكي المذهب	محمد بن محمد الخطيب الغربي (ق10ه) أبو الفضل بن أحمد الغربي (ق10ه). أبو الحسن بن أبي الفضل الغربي (ق10ه). أحمد أحميدة بن حسن الغربي (ت 1030ه). عمار الغربي (ت1251ه)	القضاء القضاء الإفتاء نيابة القضاة، ثم الإفتاء. الإفتاء
المشارف (6 علماء)	معسكر/ مالكي المذهب	اعمر التراري بن أحمد أبي جلال (ق11، ومطلع 12ه). الطاهر بن عبد القادر (ت بعد 1240ه) ابن عبد الله بسقط (ت بعد 1247ه) علي بن عبد القادر المشرفي (ق 12-13ه). ابن عبد الله السنوسي بن المهدي (ق 12-13ه). عبد القادر بن عبو (ق 12- ه13)	القضاء القضاء القضاء القضاء أو الإفتاء القضاء، والتوثيق القضاء
الكتروسي (أولاد المهدي) (4 علماء)	مازونة/ مالكي المذهب	السيد أحمد بن خدة (القرن 11ه) السيد المهدي (ق 12ه). محمد بن المهدي بن محمد (ق 12-13ه) علي بن المهدي (ق 12-13ه)	الإفتاء الإفتاء الإفتاء والقضاء لقضاء

(رابعا)- تحفظ بعض البيوتات العلمية من القضاء والوظائف المتصلة به:

ورغم تجنب كبار علماء الإسلام الأوائل لوظيفة القضاء ففي العهد الذي ندرسه نادرا ما نسمع عن عالم امتنع عن منصب القضاء أو الفتوى، بل كان التنافس عليها على أشده[1]. وبالنسبة للبيوتات نادرا أيضا ما نجد بيتا بأكمله يتحفظ عن تولي هذه المناصب، إلا أن أشهر بيت بالجزائر آنذاك، وهو بيت الفكون كان له موقفه من القضاء والوظائف المتصلة به، إذ تؤكد الوثائق على تعيين علماء بيت الفكون في الإمامة وخطابة بالجامع الأعظم بقسنطينة، والإشراف على أوقافه، ولا تشير إلى توليهم وظيفة الإفتاء المالكي في هذا الجامع، مع أن أغلبهم كانوا من كبار المفتين، ولكن تصديهم للفتوى كعلماء وليسوا كموظفين، وعدد كبير من فتاويهم مسطرة في "نوازل الفكون".

لقد كان عدد من علماء بيت الفكون مرجعا للفتوى في أيامهم، وخير دليل على قوة آرائهم هو انتصارها في المجالس العلماء حتى في القضايا الحاسمة، من ذلك إصرار يحي الفكون على تنفيذ عقوبة الإعدام في المختاري اليهودي[2]، واستطاع أن يفرض رأيه على المجلس وفيه الباي، كما أن ابنه محمد الفكون انتصر مع ابنه عبد الكريم الفكون في المجلس حينما أراد القاضي ابن محجوبة فسخ عقد أحد الأحباس إرضاء لباي قسنطينة[3].

وقد كان رجال بيت الفكون راغبين في تجنب الوظائف المخزنية، حتى الوظائف الدينية المحضة كالإمامة والخطابة، إذ يذكر الفكون أن جده الشيخ عبد الكريم الفكون امتنع في البداية عن تولى الإمامة والخطابة بالجامع الكبير بالبطحاء، ولم يتولاه إلا بعد أن ألزمه على ذلك شيخه عمر الوزان[4].

أمَّا وظائف الإفتاء والقضاء فكانوا مبتعدين نهائيا عنها، ويبدو أن الشيخ قاسم الفكون، هو الوحيد من علماء هذا البيت الذي تولى القضاء، وقد تولى هذه الوظيفة على الرغم

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 392.
[2]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 64.
[3]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 67.
[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 48.

من رفض أخيه الشيخ عبد الكريم الفكون لذلك، حتى أنه رفض أن يدفن بجانبه، فعندما قربت وفاته سئل عن الموضع الذي اختاره للدفن " فعُرض عليه الموضع الذي به أخوه العم سيدي قاسم المذكور، فأجاب أنه ثقيل موحش"، ثم صرح بالسبب الحقيقي بقوله:" إنّ سيدي يعني أخوه المذكور – سامحه الله– كان قاضيا، ولا أحب الدفن هناك" [1].

ونظرا لارتباط مهنة الشهادة بالقضاء، فقد كانت غير محببة من طرف بعض العلماء، كالشيخ عبد الكريم الفكون الجد (ت988ه)، وهو الذي ربى أحد عدول قسنطينة ابن أخته الفقيه أبو عبد الله بن نعمون، وحسب عبد الكريم الفكون الحفيد فإنه كان" من جملة أولاده لكونه في حضانة جدته والدة الجد لموت والدته ووالده وهو بحال صغر... وكان يعز عليه كثيرا، ولم يرض منه التعرض لخطة الشهادة فيما أسمع عليه، بل يقال إنه نقص في عينه إذ ذاك" [2].

وكان عبد الكريم الفكون الحفيد هو الآخر رافضا لهذه الوظائف، وكثيرا ما كان يُسد النصح لمتوليها من أصدقائه بتركها، ومنهم أبو العباس أحمد بن الحاجة، الذي " تولى النيابة عن القضاة"، "وكثيرا ما أنهاه عن تعرضه للخطة المذكورة فيخجل احتشاما ويبدي ابتساما، يستجلب الدعاء مني في خلاصه منها، مع اعترافه أنه فيها على خطر"[3]. وقال متحدثا عن صديقه الموثق أبو إسحاق إبراهيم الجزيري:" أنكرت عليه تعاطيه لبعض أمور مخزنية لا أرضاها له، وليست من شأن أمثاله"[4].

وانطلاقا من هذه المواقف فلا شك في أن السلطة حاولت أن تسند وظيفتي الإفتاء والقضاء لعلماء بيت الفكون، وهم رفضوها، ثم سار الأبناء على نهج الآباء فلم يتولوا إلا

---

[1]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 50.

[2]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 82.

[3]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 213.

[4]– عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 214.

الخطابة والإمامة بالجامع الأعظم، ولم نجد ممن تولى هذه الوظائف غير قاسم الفكون المذكور، وحسين الفكون الذي كان عدلا بالمحكمة في أواخر العهد العثماني.

ويجدر التنبيه إلى أن الاعتذار عن تولي هذه الوظائف لم يقتصر على بيت الفكون، إذ أنَّ علماء بارزين آخرين رفضوا هذه الوظائف، غير أن أعقابهم لم يقتدوا بهم فتولوها، بحيث اعتذر الشيخ عمر الوزان لباشا الجزائر حسن آغا – الذي رد حملة شرلكان– عن تولي منصب القضاء بقسنطينة في سنة 948هـ/1541هـ، فقبل اعتذاره، وعين قاسم الفكون بدلا عنه[1]، إلا أن أعقابه من بيت الكماد فتولوا وظائف: القضاء ونيابة القضاء، والعدالة، التوثيق ...إلخ، ودخلوا في منافسة مع أقرانهم من أجل الظفر بها.

ويمكن أن نتساءل إن كان رفض الوزان لوظيفة القضاء إيمانه بخطورتها كما كان الأمر عند علماء السلف، أو هو تعبير عن موقف سياسي برفضه للسلطة العثمانية. ويصبح السبب الثاني غير مستبعد متى عرفنا أن بيت الكماد خدم السلطة الحفصية بقسنطينة لمدة طويلة، وأن الوزان نفسه ألف كتابا للرد على المرابط عرفة القيرواني الذي ثار على الحفصيين سماه "الرد على الشابية" [2].

ومن الأمثلة عن اعتذار العلماء عن منصب الفتوى ما ذكره محمد بن ميمون من أن الباشا محمد بكداش قد أجبر الشيخ محمد بن أحمد البوني على قبول الإفتاء رغم اعتذاره[3].كما عرض منصب القضاء على الشيخ عبد القادر المشرفي إلا أنه اعتذر عنه، وذلك ما أكده تلميذه أبي راس:" عُرض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه ولا عرج عليه"[4]. أما أعقابه وأبرزهم ابنه الطاهر وحفيده ابن عبد الله سقط فقد توالوا القضاء كما مر معنا.

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون. ص:15.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 382.

[3]– محمد بن ميمون، التحفة المرضية، ص: 174؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 392.

[4]– أبو راس الناصري، فتح الإله، ص: 53.

(خامسا)– الخطابة والإمامة:

كان الخطيب يؤدي صلاة الجمعة والعيدين، وقد يجمع له بين الخطابة والإمامة في مسجد واحد، كما كان بعضهم يعمل كإمام في مسجد وخطيب في آخر. وتستلزم الخطابة شروطا كالفصاحة وجودة الصوت وسعة الاطلاع والجرأة الأدبية. وبخلاف الوظائف الأخرى فقد كان للأهالي دور في اختيار الخطيب، إذ يرشحونه للباشا إذا استحسنوا فصاحته وعلمه وخلقه[1]، وقد كانت الوظيفة محل تنافس بين العلماء.

وقد احتركت بعض الأسر الخطابة في الجوامع الكبرى لارتباطها بالإفتاء، كأسرة قدورة بالجامع الأعظم، والكتروسي بمازونة...إلخ. وأما الخطابة في الجامع الجديد فقد احتكرتها بعض الأسر الحنفية كأسرة ابن العنابي، وأسرة ابن علي. أما آل الفكون فعلى الرغم من عدم توليهم للإفتاء إلا أنهم احتكروا الخطابة بالجامع الكبير بالبطحاء، أحد الأحياء الرئيسية بمدينة قسنطينة، وهو أقدم جوامع الخطبة بالمدينة، إذ يعود بناؤه إلى القرن السابع الهجري (13م)، وظل يحتفظ بمكانته رغم المنافسة الشديدة التي عرفها خلال القرن الثاني عشر (18م) بتأسيس جوامع جديدة[2]، كما توارث آل ابن باديس الخطبة بجامع القصبة أحد الجوامع الرئيسية بقسنطينة. وحتى في غير الجوامع الكبرى قد تحصر الخطابة في بعض الأسر، كأسرة ابن نيغرو التي احتكرت الخطابة والإمامة بمسجد ستنا مريم.

أما الإمام فكان يقوم بأداء الصلوات الخمس المفروضة يوميا، وقد يقتصر دوره في المساجد الكبرى على أداء الصلاة بالناس، وأحيانا يجمع له بين الإمامة والخطابة، أما في المساجد الصغرى فيجمع عدد من المهام ومنها التدريس.

وقد تداولت بعض الأسر على إمامة بعض المساجد، ولا شك في أن التنافس حول هذه الوظيفة يخضع لأهمية المنطقة التي يقع فيها المسجد، وأهمية أوقافه، سيما وأن الإمام في

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص، ص:395، 396.

[2]– أنشئ جامع سوق الغزل بين سنتي 1736– 1754م تحت إشراف الباي حسين بوحنك، والجامع الأعظم (أو جامع سيدي الكتاني) سنة 1775م من طرف صالح باي. ينظر: فاطمة قشي، معالم قسنطينة وأعلامها، ص– ص: 13– 15.

بعض المناطق كان هو من يشرف على كل المسجد وعلى أوقافه، وتشير بعض الوثائق إلى أنه كان يسمح للإمام من الاستفادة من فائض الأوقاف بعد أن يقضي حاجيات الجامع المختلفة[1].

(سادسا)– نقابة الأشراف:

انتظمت العائلات ذات النسب الشريف بالجزائر كما في باقي المدن العربية في تنظيم خاص يتصدره أحد الأشراف، ويعرف ب" نقيب الأشراف" أو " مزوار الشرفاء"، و لم يقتصر وجود هذا التنظيم على مدينة الجزائر بل وجد بالمدن الجزائرية الأخرى، كقسنطينة، عنابة، معسكر.

كان منصب نقيب الأشراف يلي مباشرة منصب القاضي، وكانت له الصدارة على الوزراء أنفسهم من الناحية الشرفية والتشريفية[2]، إلا أنَّ الأخبار حول هذا التنظيم في الفترة السابقة للوجود العثماني قليلة جدا، ولهذا فليس من اليسير تحديد تاريخ ظهورها بدقة، وقد حدده أبو القاسم سعد الله بمطلع القرن السابع عشر.

وقد أدى هذا التنظيم دورا مهما في تسيير المدينة، لدرجة أن حمدان خوجة اعتبره الحاكم

الثاني للمدينة في قوله:" يوجد في كل مدينة حاكم ثان يختار من بين الأسر الشريفة، التي تنتمي إلى أحد المرابطين، ويسمى هذا الشخص نقيب الأشراف، وواجبه كلما حدث أمر هام، أن يجمع في بيته شيخ البلد، وسائر الأمناء التابعين له للبحث عن التدابير التي يجب اتخاذها[3].

وقد كان نقيب الأشراف يتمتع بمكانة مرموقة لدى رجال الدولة، وكان من الجملة الأعيان الذين يحضرون تولية الوالي الجديد، فقد ذكره الزهار في ولاية محمد باشا المجاهد التي

---

[1]– وثائق أسرة الكتروسي.

[2]– غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر. ص: 88.

[3]– حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، ص 87.

كانت سنة 1179ه/1765م:" ومن الغد يوم الاثنين قدم الدولاتلي أعني آغا العسكر، وكاهيته وكافة الديوان والمفتيين، والقضاة، ونقيب الأشراف، وأعيان الناس، واجتمعوا به بدار الإمارة، فجلس محمد باشا على كرسي الملك، وبايعه العلماء ثم نقيب الأشراف، ثم الوزراء وكافة الديوان" [1]، كما ذكره في ولاية عمر باشا عام 1230هـ/ 1814م فعند توليته :"اجتمع الديوان والفقهاء ونقيب الأشراف، وأعيان البلد، ورؤساء المراكب الجهادية، وأطلقوا المدافع " [2].

كما كان نقيب الأشراف من بين الذين يمضون على الرسالة الموجهة للسلطان العثماني إثر تعيين باشا جديد[3]، إلى جانب المفتي والقاضي وأعضاء الديوان والأعيان، " وعندما تنتهي عملية التنصيب يكلف أحد الأشخاص بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم وقيام الديوان بانتخاب الحاكم الجديد، وبهذه المناسبة تكتب رسالة تحمل إمضاء وخاتم كل واحد من أعضاء الديوان، وخاصة القاضي والمفتي ونقيب الأشراف، ويوافق أعيان المدينة كذلك " [4].

ورغم هذه المكانة المعنوية التي تمتع بها نقيب الأشراف إلا أنه مكانته في زاوية الشرفة لا تتعدى كونها أحد الأشراف، بحيث وضع الداي محمد بكداش لزاوية الأشراف التي أسسها نظاما لتسييرها، يرتكز على تسع تعليمات، أحدها أن لا يتدخل نقيب الأشراف في تسيير الزاوية، وإنما يعتبر من أعيان الأشراف[5]، وهذا الشرط هو بمثابة عزل الزاوية عن نفوذ وسلطة نقابة الأشراف[6].

---

[1]- أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 23.

[2]- أحمد الزهار، المصدر نفسه، ص: 117.

[3]- يجتمع الديوان ويعين باشا جديد، ثم تكتب رسالة للسلطان العثماني بمثابة تقرير عن ملابسات التعيين، فيرسل له السلطان فرمان التولية والقفطان.

[4]- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، ص:94.

[5] - Devoulx, Les édifices religieux , in **R. A**, année :1868, N : 12. p: 105.

[6]- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، ص: 87.

فإذا كان شرط الانتساب للأشراف ضروري فيمن يتولى نقابة الأشراف، فهل كان شرط العلم كذلك، وهل أسندت هذه الوظيفة التشريفية للبيوتات العلمية الشريفة الكبرى أم إلى بيوتات المرابطين والصلحاء الشريفة؟ حتى نجيب على هذه التساؤلات لا بد أن نتتبع من تولوا نقابة الأشراف، اعتمادا على المعلومات القليلة المتناثرة في بطون الوثائق العائدة إلى تلك الفترة.

(1)- نقابة الأشراف بدار السلطان:

تشير مصادرنا إلى اثنين من الأسر التي تولت نقابة الأشراف ب**مدينة الجزائر** هما: أسرة المرتضى، وأسرة الشريف الزهار، وبالنسبة لأسرة المرتضى فهي أسرة علمية شريفة[1] بحيث تولى النقابة السيد أحمد الشريف المرتضى[2]، غير أن معلوماتنا عن هذه الشخصية قليلة، ولكن يبدو أنه من أعيان المدينة، إذ لا تمنح وظيفة تشريفية كهذه إلا لأعيان البيوتات، وهو صهر الشيخ سعيد قدورة زوج ابنته.

ثم خلفه ابنه السيد عبد الرحمن المرتضى، وهذا الأخير هو حفيد الشيخ سعيد قدورة ابن ابنته، وهو من رجال العلم البارزين، " شغل المرتضى خطة نقيب الأشراف التي تولاها والده قبله"[3]، ثم دعي عبد الرحمن المرتضى [4] " لخطتي الفتوى والخطابة بالجامع الكبير، وذلك في أيام الدولاتلي بكتاش خوجة، ثم عزل زمن الدولاتلي دالي إبراهيم "[5]، أعيد لخطة الفتوى وظل بها أزيد من خمس سنوات إلى وفاته في شوال سنة 1128هـ/1715م[6].

إذن تبين أن عبد الرحمن المرتضى من العلماء، أما والده الذي تولى النقابة قبله، فلا نعرف مستواه العلمي، وإن وصفت أسرة المرتضى بأنها أسرة علمية.

---

[1]- عائشة غطاس، المرجع نفسه، ص: 86.

[2]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[3]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[4]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص، ص: 102، 103.

[5]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 106.

[6]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 108.

وفي تقاييد ابن المفتي ما يفيد بعدم جمع عبد الرحمن المرتضى بين منصبي نقابة الأشراف والفتوى في آن واحد، في النص الموالي:" وحين تولى الفتوى أول مرة تولى مكانه في خطة نقيب الأشراف سيدي محمد من ذرية الولي سيدي محمد الشريف" [1]. وهكذا انتقلت نقابة الأشراف إلى أسرة الشريف الزهار، غير أن مصادرنا لا تسعفنا في تحديد تاريخ تحول المنصب من الأسرة الأولى إلى الأسرة الثانية، ولا على أسبابه وملابساته، حتى وإن كان نص ابن المفتي واضحا، فلم نعرف إذا كان "سيدي" محمد هو أول من تولى النقابة من هذا البيت، أو تولاها من قبل بيته ثم أعيدت إليهم.

توارثت أسرة "سيدي" محمد الشريف الزهّار نقابة الأشراف[2] منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر للهجري (18م) [3]، ورغم اشتهارها كإحدى الأسر العلمية والدينية إلا أنه لم ينسب إليها علماء كبار، ولكنها على كل حال لم تخل من المشتغلين بالعلم. ومنذ بناء ضريح الولي الصالح "سيدي" محمد الشريـــف الزهار المعروف بمدينة الجزائر سنة 948هـــ/ 1550م من طرف أحد أحفاده[4]، وهم يتداولون على وكالة ضريح جدهم.

وقد جمع عدد من هؤلاء الوكلاء بين الوكالة وبين نقابة الأشراف بمدينة الجزائر كأبو عبد الله الشريف الذي ذكرته وثيقة عناء مؤرخة بسنة1217هـــ/1802م، ومما جاء فيها "ورام إمام المسجد المذكور في التاريخ ونقيب الأشراف وهو السيد أبو عبد الله الشريف" ، والحاج علي بن أحمد ذكرته وثيقة عناء أواسط صفر سنة 1226هـــ/1811م. وكان على رأس النقابة عام 1228هـــ /1813م الحاج محمد الحسني الذي كان وكيلا لضريح

---

[1]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 106.

[2]- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، ص، ص: 77، 78.

[3]- تذهب فاطمة الزهراء قشي إلى أن هذه الخطة أصبحت من نصيب أسرة الزهار أواخر القرن الثامن عشر. ينظر: الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 153.

[4] - Devoulx, Les édifices religieux , in **R .A**, année :1870, N : 14. p: 183, 185.

جده[1]، وقد تولى النقابة خلفا لوالده محمود نقيب الأشراف [2]. وهكذا استطاعت هذه العائلة الجمع بين الوظيفتين.

وأسند المنصب في فترة لاحقة إلى السيد علي الشريف الزهار، ومنه انتقلت إلى ابنه الحاج أحمد الشريف الزهار، وظلت النقابة في الأسرة نفسها إلى غاية الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م، وكان على رأسها وقتئذ سي محمود، ويبدو أن الحاج أحمد أسندت إليه النقابة تحت الإدارة الفرنسية[3] عام 1843م[4].

فهل كان نقباء الأشراف من عائلة الزهار من العلماء؟ نظرا لقلة المادة العلمية لا نجازف بإثبات صفة العلماء لهؤلاء النقباء ولا نفيها عنهم، ولكن الذي لا شك فيه هو أنهم كانوا من المتعلمين، أو من ذوي الثقافة المتوسطة، ويعد الشيخ أحمد الزهار صاحب المذكرات المشهورة أحد أبرز رجال هذا البيت، وهو بدون شك من العلماء بمقاييس ذلك العصر.

(2)- نقابة الأشراف ببايليك الشرق:

لم نتمكن من تحصيل معلومات كافية عن البيوتات التي تولت نقابة الأشراف بمدينة قسنطينة، وقد عرفنا أن الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الشريف الحسني كان مزوارا للشرفاء في قسنطينة خلال القرن العاشر الهجري (16م)، وهو جد الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد لأمه، وقد أشار إليه في " منشور الهداية" بقوله:" وجدي للأم مزوار

---

[1]- الوثائق التي ذكر فيها هؤلاء النقباء الثلاثة هي على الترتيب: م . ش. ع: 13،- 133 (53)؛ م.ش.ع: 129، (64)؛ م.ش. ع: 2/6 ، وثيقة:15. نقلا عن: بودريعة ياسين، أوقاف الأضرحة والزوايا، رسالة ماجستير، ص: 164.

[2] - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 86.

[3]- ظلت نقابة الأشراف في عائلة الزهار وآخر نقيب الأشراف هو السيد محمود الشريف الزهار حفيد الشيخ أحمد صاحب المذكرات، وهو الذي تسلم منه أحمد توفيق المدني مذكرات جده.ينظر: مذكرات الزهار، ص: 5.

[4]- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 86.

الشرفا إذ ذاك" [1]، وهو من رجال العلم البارزين، بحيث تولى الفتوى زمن عبد الكريم الفكون الجد[2]. وله عدد من الفتاوى في "نوازل الفكون".

يبدو أن إحدى الأسر القسنطينة تولت النقابة لمدة طويلة حتى تحول فيها إلى لقب عائلي، بحيث تشير بعض وثائق القرن الثامن عشر إلى أنَّ السيدة جليلة بنت سي عباس بن مزور الشرفا تزوجت في سنة 1202هـ/ 1787م من ابن عمها محمد بن السيد علي بن مزور الشرفا وكان الصداق مرتفعا نسبيا [3]، وهذا يؤكد على أن هذه الأسرة من الأسر الثرية، غير أننا لا نعرف من هي الأسرة المقصودة، فهل هي أسرة النقيب المذكور سابقا، أم أسرة أخرى. ولم يتضح الفرق بين لقب مزوار الشرفاء وبين منصب " مزوار الشرفا" الذي ذكره عبد الكريم الفكون، كما أن هذا اللقب لم يرد في كتب التاريخ والرحلات التي اهتمت بتاريخ قسنطينة[4].

أما بمدينة بونة فقد تولت نقابة الأشراف إحدى الأسر العلمية على ما يبدو، إذ تولاها السيد أبو العباس أحمد الشريف الخطيب، ورد ذكره إحدى النوازل الواردة في "نوازل الفكون"، وهي مؤرخة بسنة 1005ه/1596م ، والنص كما يلي:" السيد الأجل الفقيه الحاج الناسك أبو الخيرات رمضان الشريف بن المرحوم أبي العباس أحمد الشريف الخطيب مزوار الشرفاء بالبلد المذكور "[5].

وممن تولى النقابة ببونة السيد الشريف نور الدين محمد بن عيسى بن محمد، ولا ندر إن كان ينتمي لأسرة تولت النقابة، وكل ما نعرفه أنه كان مفتيا وقاضيا ببونة، وهو خال أحمد البوني المشهور، وقد ذكره في "الدرة المصونة" في الفصل المخصص لذكر باقي قرابته،

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، ص: 49.

[2]- الفكون، المصدر نفسه، ص: 68.

[3]- قيمة هذا الصداق: مائة (100) ريال، وقفطان موبر، وملحفة وحزام حرير. ينظر: فاطمة قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 152.

[4]- فاطمة الزهراء قشي، المرجع نفسه، ص، ص: 152، 153.

[5]- محمد الفكون، " نوازل الفكون" مخ، ص، ص: 469، 470.

وقد كان هناك نوع من التنافس بين جديه للأب وللأم، ولعل ذلك ما يعنيه البوني بقوله بغير جحد، وهذه الأبيات التي ذكره فيها[1]:

بخالنا الشريف نور الدين محمد ذي الجود واليـــقين
قد كان مفتيا وكان قاضيا نقيب أشراف وحبرا ماضيا
وذا دها وكان في الفرائض يفوق غيره كنهر فايـــض
وبأبيه جدنا عيسى التقي وجده محمد الشهم النقي
قد كان بينه وبـــين الجد بعـــض تنافـــس بغير جحد

(3)- نقابة الأشراف ببايليك الغرب:

ومن بين الأسر التي تولت نقابة الأشراف بإقليم الراشدية أسرة المشارف، وذلك ما نص عليه أبا حامد المشرفي بقوله:" المشارف كلهم حازوا الرياسة على سائر شرفاء الراشدية، ولذلك كانت النقابة فيهم لا تتعداهم ولا تخرج منهم، وحصرها فيهم ملوك الأتراك، وقد أدركناها في يد الجواد ابن عمنا السيد عبد القادر الأطرش من أولاد سيدي عبد القادر بن محمد، وفي يد ابن عمنا السيد محمد بن عبد الله من أولاد البقرة[2]"[3]. لقد ربط أبا حامد بين النقابة والرياسة، وفيه تأكيد على أن نقابة الأشراف كانت تحصر في بيوتات أعيان الأشراف.

وإن لم تسعفنا المصادر لترجمة النقيبين اللذين ذكرهما أبا حامد، فلا يستبعد أن يكونا من أهل العلم، لحرص الأسر العلمية على تعليم أبناءها، وبما أن أبا حامد أغـــفل ترجمتهما في "ياقوتة النسب" ففيه إشارة إلى أنهما لم يكونا من كبار العلماء.

كما كانت النقابة في بيت علمي آخر وهو بيت السيد عبد الرحمن بن علي المشهور بدحـــو بن زرفـــة وهو أيضا من "شرفاء الشهرة" والنص الوارد في "ياقوتة النسب":" بيت

---

[1] - أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 78.

[2] - ينظر تعريف الأسرتين في الفصل الخاص بالبيوتات والأسر العلمية ببايليك الغرب.

[3] - أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص، ص: 23، 24.

النقابة في أولاد سيدي احسن (أحد فروع هذا البيت) وإذا انتقلت إلى غيرهم لا تدوم فهم المشهورون بها في دولة الأتراك، وفي دولة محي الدين"[1].

– المبحث الرابع: البيوتات العلمية وإمارة ركب الحج الجزائري:

كانت السلطة الحاكمة بأيالة الجزائرية حريصة على التنظيم الجيد لركب الحج، ولهذا كانت ترفقه بعدد من الموظفين يتصدرهم أمير الركب، ولا بد أن تعيين هذا الأخير خضع لجملة من الشروط، فهل كان التعمق في العلم شرطا أساسيا في أمير الركب، أم يكف أن يكون من أهل المعرفة والدين؟ وهل كان الأمير يختار من بين أبناء البيوتات العلمية والدينية المتنفذة أم لا؟

(أولا)– تعيين أميـــر ركـــب الحج الجزائري:

كان يخرج من أيالة الجزائر ركب واحد[2] كل عام، يتشكل عن طريق تجمع العديد من قوافل الحج الفرعية القادمة من جميع أنحاء الأيالة: من معسكر، والمدية، وقسنطينة، وعنابة وغيرها، لتتجمع في مكان واحد وهو بسكرة التي كانت نقطة التقاء الركب الجزائري[3]. وعندما يكون الركب المتوجه إلى الحج في طريقه إلى الأراضي المقدسة، يكون الركب الذي خرج في السنة الفائتة في طريق العودة، بعد أن أدى فريضة الحج، وكثيرا ما يلتقي الركبان في تونس أو طرابلس.

---

[1]– المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 25.

[2]– إن ورود عبارة " الركب الجزائري" أو "ركب أهل الجزائر" في كتب الرحلات الحجازية وفي مقدمتها العياشي والورثيلاني تؤكد على وجود ركب حج جزائري واحد، ولو كان هناك ركائب أخرى لوجدنا عبارة الركب البسكري أو الركب العنابي مثلا. سيما وأن الورثيلاني ينعت أيالة الجزائر بعمالة الجزائر، وهذا يؤكد بأنه يقصد الركب الخاص بالأيالة ككل لا الركب الخاص بمدينة الجزائر.

[3]– هناك من يذهب إلى أن الركب الجزائري كان يلتقي ببسكرة بالركائب القادمة من المغرب الأقصى، ثم تخرج بعد ذلك جملة واحدة، إلا أن الرحلات الحجازية التي تعود للفترة الحديثة تؤكد أن بسكرة كانت فعلا محطة تتوقف بها ركائب المغرب الأقصى، إلا أن كل ركب يسير لوحده، وتكون تلك الركائب قريبة من بعضها، فلربما تجتمع لتسير معا عندما يكون عدد الحجاج قليلا، أو أنها كانت تتجمع بعض المواضع وتسير معا تفاديا لقطاع الطرق.

أما عبارة" الركب المغربي" الواردة في كتب الرحلات، فالمقصود بها ركائب بلاد المغرب العربي[1]، والتي تسير في نفس الطريق، وهو يضم ستة ركائب: اثنان من المغرب الأقصى: الركب الفاسي والركب المراكشي أو الفيلالي[2]، واثنان من أيالة طرابلس: الركب الفزاني[3] والركب الطرابلسي، في حين يخرج ركب واحد من الجزائر، وآخر من تونس.

وبالنسبة لأمير الركب الجزائري فقد كان يتم تعينه من طرف أعلى سلطة في البلاد وهو الباشا، كما كان يمكن لبعض كبار رجال الدولة أن يشرفوا على تعينه، وذلك بإذن من الباشا. وبما أنّ الرحلة إلى الأراضي المقدسة من الجزائر كانت تستغرق حوالي سنة، فإن إمارة ركب الحج لم تكن توكل لشخص واحد لسنتين متواليتين، لهذا فإن أنّ التكليف بها لم يكن عاما، بحيث كان لابد من تجديد كتابة التعيين للأمير في كل مرة يكلف فيها بإمارة الركب.

كان الأمير يعلن عن انطلاق رحلة الحج في مدينة الجزائر عن طريق ضرب الطبل، كما تؤكده النصوص التاريخية، إذ ورد في بعض مراسيم تعيين الأمير:" وأذّنا له بضرب الطبل ويتوجه بالمسلمين كما كان ويكون..."، وفي رحلة الورثيلاني:" سمعنا أن الشيخ الفاضل الكامل شيخ الركب سيدي مسعود نجل الشيخ البركة سيدي الموهوب... قد ضرب طنبله في المدينة المحروسة الجزائر على عادة الأمراء في ذلك"[4].

---

[1]- كانت هناك ركائب أخرى تخرج من بلاد شنقيط (موريتانيا)، وغرب إفريقيا (بلاد السودان الغربي) منها: الركب الشنقيطي، الركب التكروري، الركب الولاتي، وغيرها. ينظر: حماه الله ولد سالم، " دور ركاب الحاج والأوقاف في التواصل بين المجال الشنقيطي- السوداني مع المشرق العربي"، ضمن مجلة الجسرة الثقافية. قطر: نادي الجسرة الثقافي. ع: 14، خريف 2002. ص- ص: 37- 46.

[2]- يشير الورثيلاني إليه بالركب الفيلالي، بينما يشير إليه العياشي في رحلته بالركب المراكشي (ج2، ص: 486).

[3]- يقع إقليم فزان في جنوب طرابلس، أهم مدنه مدينة مرزق، وقد كانت تحكمه أسرة عربية شريفة تعرف بأولاد محمد، وتمكن العثمانيون من إخضاعه للسلطة المركزية سنة 985ه/1577م، إلا أن سكانه سرعان ما كانوا يثورون على الحامية العثمانية، فيعود حكمه لأولاد محمد وتكرر الأمر عدة مرات، إلى أن عقدت السلطة معهم اتفاقا سنة 1030ه/ 1620م موافقة على طلبهم بتعيين الحكام من أولاد محمد، مع دفع جزية سنوية، فظل الإقليم يتمتع باستقلال ذاتي، ولهذا كان له ركب مستقل عن الركب الطرابلسي. وقد أنهى القرمانليون حكم هذه الأسرة في أواخر أيامهم، وولوا عليها حاكما من طرفهم حمل لقب بك فزان. ينظر: علي مفتاح إبراهيم منصور، الرحلة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ص: 186.

[4]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج 1، ص: 14.

كما كان على الأمير العودة إلى نقطة الانطلاق، وهي مدينة الجزائر أيضا عند القفول من الحج حتى وإن مر الركب بداره، كما حدث لأمير الركب الذي الحج فيه المجاجي، بحيث ذهب الأمير عند العودة من الحج إلى داره بمدوكال[1] بضواحي بسكرة رفقة الحجاج، ولأن مهمته لم تكن قد انتهت بعد، سار مع من تبقى من الحجاج في الركب إلى أن أتى مدينة الجزائر.

وعندما يصبح الركب على مشارف مدينة الجزائر ينصب الأعلام والرايات، ولما يدخلها يحظى باستقبال رسمي من طرف أعلى سلطة في البلاد والمتمثلة في الباشا، فإذا كان هذا الأخير راضيا عن مهمة الأمير في تسييره للركب، يعينه أميرا لموسم آخر، ويكتب له بذلك. وكل هذه التفاصيل ذكرها المجاجي في رحلته في هذه الأبيات[2]:

نصبنا بنودا فوق رأس أميـــرنا نسير بسير ليست فيه عجيلة

دخلنا به وسط الجزائر قصد من له في بلاد الخير بنـــد وراية

...سلـــطانهم والحافظ لأمورهم ومنصورهم بالله وهو المعونة

قـــضى لأمير ركبنا ما يخصه ورحب به ترحيبا ببشاشة

وأثبـــته على عـــوائد جده وثم أبـــيه عنـــد كل قبـــيلة

وثقه بالكتـــب والطابع الذي توارثته الأملاك عنـــد الإمارة

ولدينا ثلاثة وثائق خاصة بتعيين الأمير: إحدهما خاصة بتعيين الشيخ عبد الكريم الفكون سنة 1048هـــ/1638م، وهي صادرة عن علي باشا، والثانية تخص تعيين ابنه محمد سنة 1075هـــ/1664م[3]، وقد صدرت عن مصطفى آغا العسكر[1] بإذن من

---

[1]- كانت مدوكال محطة قوافل رئيسية وممر الحجيج، وهي بلدة قديمة تقع على بعد 36 كلم من بريكة، وهما في ولاية باتنة حاليا. ينظر: أبو القاسم سعد الله في تعليق له في منشور الهداية، ها: 3، ص: 142.

[2]- عبد الرحمن المجاجي، رحلة المجاجي (دراسة وتحقيق)، تح: سعاد آل سيد الشيخ، رسالة ماجستير غير منشورة، بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، (2007- 2008). ص: 182.

[3]-Mercier, Constantine au 17eme siècle «élévation de la famille el fagoun »; p -p:26-29.

الباشا. والثالثة خاصة بتعيين الشيخ محمد الفكون، وصدرت عن أحمد باي في عام 1242ه/1826م[2].

ومما ورد في مرسوم تعيين الشيخ عبد الكريم الفكون أمير للركب:" الحمد لله، ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم... من القواد والعمال والخاص والعام ببلد قسنطينة... وبعد فإن الشيخ العالم القدوة التقي... سيدي عبد الكريم الفكون... جددنـــا له على مقتضى ما بيده من الأوامر، فلما كان توجه للأرض المشرفة وزار قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام... وأذنا له بضرب الطبل ويتوجه بالمسلمين كما كان ويكون رقاس الرسول[3] –عليه الصلاة والسلام– لا مانعا له ولا معارض ولا مدافع ...لأنه أحق بها ويقوم بحقها إلخ، موصي فيما سعى وقلد إليه واتباع الطريق فيما اقتدى واهتدى، والرفق بالرفيق والسائق المزمل للبيت العتيق يسير على قدر سيرهم، ولا يؤثر البعض على بعضهم إلخ...كتب بأمر عبد الله المجاهد في سبيل الله أبي الحسن علي باشا –أيده الله– بتاريخ أوائل رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين وألف[4] ".

ومن خلال هذه الوثائق نجد أن مرسوم تعـــيين أمير الركب يضم جملة من العناصر وهي:

– التصريح بتعيين الأمير أو التجديد له: كقوله:"...ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم...

وبعد فإن الشيخ العالم القدوة... سيدي عبد الكريم الفكون... جددنا له على مقتضى ما بيده من الأوامر...".

---

[1]–آغا العسكر: هو القائد الأعلى للجيش الانكشاري، وهو بمثابة الجنرال، يعين في منصبه لمدة شهرين فقط، ثم يحال على التقاعد، ولهذا يعرف بآغا الهلالين. ينظر: زكية زهرة، الجيش الانكشاري، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص: 80.

[2]–Mercier, Op.cit, p– p:32– 35.

[3]– رقاس رقاص: المبعوث أو حامل البريد والهدايا ونحو ذلك. ينظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 226، ها: 2.

[4]–Mercier, Op.cit, p,p:17,18.

- توصية الأمير بالحجاج كالرفق بهم، والسير على قدر سيرهم، وأن يساوي بينهم في المعاملة، وغيرها من الوصايا.

- التأكيد على صلاحيات الأمير: من ذلك ما نجده في وثيقة تعيين محمد بن عبد الكريم الفكون:" فعلى كافة أهل ركب... المتوجهين معه قاصدين البقعة المشرفة... أن يكون كلهم عند نظره وسمعه وطاعته، بحيث لا يخرج أحد منهم عن أمره ونهيه، ويكون مسموع القول عندهم، نافذ الحكم فيمن يستحقه منهم، ويجري في ذلك على عادة والده المرحوم المذكور، وعادة من تقدم من المعظمين السادات الأبرار، الأجلة الأطهار، أمراء أركاب المسلمين المتقدمين قبله في أخذ عوائده وفوائده كما هي العادة المعلومة والطريقة السابقة المعتادة"[1].

- الإذن للأمير بالإعلان عن التوجه إلى الحج: كما ورد في مرسوم تعيين محمد الفكون :"وأذنا له بحسب التنفير... يؤذن في الناس بالحج بضرب الطبل سعيا لمن أراد يؤدي الفريضة إلى الأماكن العلية الشريفة...".

- الـــتأكيد على امتيازات الأمير: تشير بعض المراسيم الخاصة ببعض أمراء الركب من بيت الفكون إلى الامتيازات الممنوحة للأمير، كالمرسوم الخاص بمحمد الفكون، وفيه يؤكد على وجوب "حرمه واحترامه"، واحترام "جميع خدامه وأصحابه وخماميسه وشركائه بالحرم الوافر، وكما أن جميع ما يدخله من باب البلد المذكور أو يخرجه مسرحا من قايد الباب ... جريا في ذلك على عادته وعادة أسلافه قبله..." [2].

- وختمت المراسيم الثلاث بتحديد الجهة التي صدرت عنها، وتاريخ تحريرها.

(ثانيا)- الشروط التي يجب توفرها في أمير الركب:

[1]-آغا العسكر: هو القائد الأعلى للجيش الانكشاري، وهو بمثابة الجنرال، يعين في منصبه لمدة شهرين فقط، ثم يحال على التقاعد، ولهذا يعرف بآغا الهلالين. ينظر: زكية زهرة، " الجيش الانكشاري"، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص: 80.

[2]-Mercier, Constantine au 17eme siècle «élévation de la famille el fagoun »; p:28.

كان الأمير كان يتصرف بحرية في تسيير أمور الركب[1]، إلا أنّ مهمـــته لم تكن يسيرة، فعليه أن يتولى قيادة جم غفير من الحجاج من مختلف شرائح المجتمع، ومن مختلف المستويات الفكرية والمادية، وفيهم ذوي النفوذ والمكانة الاجتماعية طيلة عام أو أزيد، وعليه تسيير الركب والوقوف على كل متطلبات الحجاج، وأهمها توفير أمن الحجاج باجتناب بقدر المستطاع الأراضي التي يتواجد بها قطاع الطرق والمتلصصة، وعليه مواجهتهم إذا لزم الأمر، وعليه أحيانا مواجهة حرامية منظمين[2]، وحرصا منه على أمن وسلامة كل الحجاج كان أمير الركب يتأخر مع بعض أصحابه رفقا بالضعيف منهم. وعلى الأمير أيضا أن يجد حلولا لمواجهة أخطار الطريق الطبيعية كعدم وجود الماء.

ومن المهام الأساسية لأمير الركب بالإضافة إلى ما ذكر أنه هو من يقرر سير الركب وتوقفه، كما كان عليه أحيانا أن يتولى مسؤولية كراء الدور للمبيت في المدن الكبرى، وأحيانا يُنيب عنه من يقوم بهذه المهمة، وفي أغلب الأحيان كان الحجاج هم بأنفسهم من يبحثون عن منازل لكرائها. كما كان الأمير يسعى لتأمين الغذاء للحجاج [3]. فما هي الشروط التي يجب توفرها في أمير الركب انطلاقا من هذه المهام؟

لا شك في أن الشروط الأساسية لأمير الركب هي تمتعه بالأخلاق الفاضلة، والسمعة الطيبة بين الناس، وبالحكمة وقوة الشخصية... إلخ لأن عليه أن يسير الركب لحوالي عام كامل، وعليه أن يوفر للحجاج المتطلبات الأساسية أثناء الرحلة وفي مقدمتها الأمن، وأن يعود بهم سالمين إلى ديارهم، ولذلك يتطلب شروط صارمة في الأمير.

---

[1]-كان الأمير يستعين ببعض الأشخاص في تسيير الركب وتوفير الخدمات المختلفة للحجيج كالقاضي ومهمته الفصل في أمور المتخاصمين وتسجيل العقود، كاتب: يسجل كل ما يتعلق بالركب ماديا ومعنويا. والمنادي: الذي يُسمع الحجاج الأوامر الصادرة عن الأمير، حاملي الرايات أو العلامين الذين يعلنون عن المبيت أو الرحيل أو في الاحتفالات في الذهاب والإياب، ويتخذ في الطريق دليل: ليرشد الركب إلى الطريق، ومواضع وجود الماء، ويسير بهم بأيسر الطرق وأأمنها. ينظر: سعاد آل سيد الشيخ، رحلة المجاجي، ص، ص: 112، 113؛ مختار الفيلالي رحلة الورثيلاني، ص: 86.

[2]- أشار الورثيلاني في رحلته إلى الحرامية المنظمين في البولاق بمصر، ينظر: رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 375.

[3]- تأمين الغذاء عن طريق الشراء، وأحيانا تقدم بعض الأهالي الذين يمر بهم الركب استضافات.

وبما أن مصادرنا تشير إلى أن جل أمراء ركب الحج الجزائري ينتمون إلى بيوتات علمية ودينية كبرى وهي: بيت ابن عبد المؤمن، وبيت الفكون بقسنطينة، وبيت أحمد بن يوسف المليانى بمليانة، وبيت محمد بن الحاج بمدوكال القريبة من بسكرة، لمعرفة شروط أمير الركب الجزائري علينا أن نبحث عن القاسم المشترك بين هؤلاء الأمراء أو بالأحرى بين تلك البيوتات، فنجدها تشترك فيما يلي:

أ- الجاه العريض:

تتمتع البيوتات التي تداولت على إمارة ركب الحج بجاه عريض، ولا شك في أنّ تمتع أمير الركب بالنفوذ الروحي مطلب أساسي لأن الأمير يصدر التعليمات المختلفة للحجاج بالركب، وطاعتهم له تتوقف على قوة شخصيته ومكانته ونفوذه بينهم، سيما أن الركب يضم أناس من مختلف شرائح المجتمع، ومن مستويات فكرية وأخلاقية مختلفة، كما يضم بعض الأعيان ومنهم من يتمتع بنفوذ قوي بين الحجاج، وهكذا فإن تسيير الركب يستلزم قوة شخصية وصرامة طيلة سنة كاملة.

ب- الثروة:

تشترك البيوتات التي تولت إمارة الركب في كونها تمتعت بثروات مهمة، وتشير جل المصادر إلى أن أمراء الركب كانوا أثرياء، لأن إمارة الركب تمنح لصاحبها امتيازات معنوية ومادية مهمة جدا، وبما أن الأسرة قد تكتسِبُ الوجاهة والنفوذ من خلال ثروتها، وقد تكتسب الثروة من خلال مكانتها الاجتماعية والجاه، نتساءل إن عين هؤلاء الأمراء لأنهم أثرياء، أم أن إمارة الركب جعلتهم كذلك؟ ولعلنا لا نجازف إذا قلنا أن بعضهم كانوا ميسوري الحال، ثم جمعوا ثروات معتبرة من خلال إمارة الركب، في حين كان آخرين أثرياء، فزادتهم الإمارة ثروة إلى ثرواتهم.

ج- العلاقة الحسنة مع السلطة الحاكمة:

تشترك في هذه الخاصية كل البيوتات التي تولت إمارة الركب، وبعضها تحالف مع العثمانيين منذ الوهلة الأولى لوجودهم بالجزائر، إذ أعان يحي الفكون العثمانيين في دخول قسنطينة وسهل عليهم بمكانته في المدينة مشوارا طويلا، كما تعاون أحمد بن يوسف الملياني مع خير الدين بربروس[1].

د- العلم:

هناك تفاوت واضح في المستوى الفكري لهؤلاء الأمراء، ففي حين كان بعضهم من كبار العلماء كالشيخ عبد الكريم الفكون، كان آخرون ذوو مستوى فكري محدود، والدليل هو خلو أسماءهم من التحلية العلمية، فكان يكف أن يكون الأمير من أهل العلم، وليس بالضرورة أن يكون من المتعمقين فيه، سيما وأن الركب لا يخلو من الفقهاء والعلماء، وهم أحرص الناس على أداء فريضة الحج، والتي يقرنوها في كثير من الأحيان بفريضة طلب العلم.

ويبدو أن تحلي أمير الركب بالعلم الغزير لم يكن مطلوبا في الركب الجزائري، كما في غيرها من ركائب المغرب العربي، وفي رحلة العياشي عدد من النصوص التي نستطيع توظيفها في هذا المجال، فوصفه لعدد من أمراء الأركاب المغربية يدل على أن بعضهم كان من العلماء البارزين[2]، من ذلك وصفه لعبد الكريم الفكون وابنه محمد الذين وصفها بأوصاف التجلة في هذا النص:" وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون" [3].

---

[1]- ينظر الصفحات الموالية.

[2]- ذكر العياشي أن أمير ركب تونس هو مفتيهم:" ودخل علينا في طرابلس ركب أهل تونس في شارة حسنة وفخامة هيئة في بشر كثير وسواد عظيم كسواد الليل ...وأميرهم أبو الفضل مفتي تونس". ينظر: رحلة العياشي، ج2، ص: 488.

[3]- العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 498.

ووصف العياشي لأمراء آخرين يؤكد أنهم لم يكونوا من كبار العلماء كالركب الذي كان فيه[1]، والركائب التي التقوا بها في طريق عودتهم من الأراضي المقدسة[2]:" دخلت علينا الأركاب الآتية من المغرب، ركب أهل فاس أميرهم الحاج محمد القسيمي، وركب أهل مراكش وأميرهم الشيخ المبارك الحاج إبراهيم الفزان..." [3]، فخلو أسمائهم من التحلية العلمية يدل على أنهما لم يكونا من كبار العلماء.

وهكذا يتبين أنه لم يكن يشترط في الأمير أن يكون ذو ثقافة إسلامية عميقة، بل يكف أن يكون من حملة العلم الشرعي، وأن يتصف بالحكمة وقوة الشخصية والنفوذ الروحي لتحقيق انقياد الحجيج لتعليماته.

(ثالثا)– البيوتات التي تداولت على إمارة ركب الحج الجزائري:

يمتد الوجود العثماني بالجزائر لفترة تزيد عن الثلاثة قرون، فإذا افترضنا أنه خرج كل عام ركب واحد للحج[4]، يكون قد خرج من الجزائر أكثر من ثلاثمائة ركب، وبالتالي عدد كبير من الأمراء. وتشير المصادر التي اعتمدنا عليها إلى أن إمارة ركب الحج انحصرت طيلة الوجود العثماني في عدد من البيوتات.

ويبدو أن توريث إمارة الركب ليست ظاهرة خاصة بالجزائر بل عرفتها بلدان أخرى كالمغرب الأقصى، من ذلك وراثة أمير الركب المراكشي الذي حج برفقته العياشي المنصب عن والده، الذي وافاه الأجل في الطريق ودفن بمكان يسمى المخيلي بضواحي طرابلس، والنص هو :"شيخ الحجاج عمران، وولده محمد هو شيخ الركب بعد موت أبيه، وموت أبيه

---

[1]– العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص: 477.

[2]– في منتصف شهر رجب في جنوب طرابلس.

[3]– العياشي، المصدر السابق، ج2، ص: 486.

[4]– يبدو أن الركب الجزائري كان يخرج حتى في فترة الوباء، وقد ذكر أحمد الزهار أنه خرج للحج في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة الوباء بمدينة الجزائر. ينظر: مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 144.

كان في شهر رمضان في السنة الفائتة، وهذا الذي طلع بالركب من مراكش ولده"[1].

والبيوتات التي تولت إمارة الركب الجزائري هي:

(1)- بيت ابن عبد المؤمن:

بيت ابن عبد المؤمن من البيوتات العريقة بمدينة قسنطينة، أوكلت إمارة ركب الحج إلى بعض أبناء خلال العهد الحفصي- على أغلب الظن- وبقيت الإمارة في هذه الأسرة إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر (17م) ، أي حوالي قرن من الوجود العثماني[2]. وفي هذه الفترة تولاها السيد محمد حفيد الشيخ عبد المؤمن، وهو الذي أشار إليه الفكون في "منشور الهداية" قائلا بأن معاصره الشيخ محمد الفقيه الزواوي المقيم بقسنطينة أراد أن يحج :" فأنعم الله بحمله له حبيبنا محمد حفيد الشيخ عبـــد المؤمن"[3].

وقد بقيت إمارة ركب الحج في هذه الأسرة إلى أن انتقلت إلى أسرة الفكون[4]، وهذا تبعا للتطورات التي عرفتها المنطقة مع الوجود العثماني، غير أن المؤرخين الفرنسيين ذهبوا بعيدا حينما صوروا العلاقة بين الأسرتين على أنها علاقة تنافس وصراع من أجل المناصب، وما يدفع ادعاءاتهم أنه كان يمكن أن تتولى الأسرتان إمارة الركب في وقت واحد، بما أن الأمير لا يمكنه أن يخرج على رأس الركب لسنتين متواليتين.

ونحن وإن لم نكن ممن يذهبون مذهب الفرنسيين في تفسيراتهم للعلاقة بين العلماء ووجهاء المدينة، إلا أننا نتساءل عن عدم ترجمة الفكون لأي من أفراد أسرة ابن عبد المؤمن على الرغم من شهرتها، والإشارة الوحيدة إلى أحدهم وردت عرضا، وقد وصفه ب:"حبيبنا "، أي أنّ العلاقة التي جمعته به كانت علاقة حسنة، مع العلم أن الفكون لم يكن يتردد في قول

---

[1]- العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص: 480.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون، ص: 392.

[3]- الفكون، منشور الهداية، ص: 102.

[4]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 388.

رأيه بصراحة في الذين كانت علاقته بهم متوترة.

وعليه فإننا أمام احتمالين، الأول أن أسرة ابن عبد المؤمن لم تنجب علماء بارزين ممن تولوا الوظائف العلمية والدينية الكبرى فيترجم لهم الفكون، وإيراد الفكون اسم محمد حفيد عبد المؤمن بدون تحلية علمية يؤكد على أنه ليس من العلماء. وأما الاحتمال الثاني فهو التنافس الذي جعل الفكون يغفل ترجمة رجال هذه الأسرة، ورغم قلة المادة العلمية التي نعول عليها في الترجيح، إلا أن الاحتمال الأول هو الأقرب إلى الواقع لعدم وجود أية إشارة لأي من علماء هذا البيت في كل المصادر المتوفرة لحد الآن.

(2)- بيت الشيخ أحمد بن يوسف الملياني:

هو بيت ديني مرابطي وليس بيت علمي بالمعنى الدقيق للكلمة، ومؤسسه هو الشيخ أحمد بن يوسف الملياني (ت991هـ/1583م) أحد أبرز رجال الطريقة الشاذلية بالجزائر، وهو يعرف بالراشدي نسبة إلى قلعة بني راشد التي ينتمي إليها، كان يتمتع بنفوذ وسطوة كبيرة بين الأهالي، وذلك ما أثار شكوك الزيانيين حوله، وبلغ بهم الأمر إلى مطاردته عازمين على التخلص منه لولا أنه نجى منهم[1].

ونتيجة توتر العلاقة بين الشيخ أحمد بن يوسف الملياني والزيانيين وضع يده في يد العثمانيين، وذلك منذ اتصل به عروج بربروس حوالي سنة 1517م، وقد استفاد العثمانيون من نفوذه، من ذلك نجاحهم في حصار القلعة[2] بعد دعوته السكان إلى تأييدهم، وقد ظلت علاقة الملياني حسنة بالعثمانيين بعد استشهاد عروج.

---

[1]- بدأ الزيانيون ينظرون إليه بعين الريبة بعد التفاف الناس حوله أثناء التجمعات التي كان يعقدها برأس الماء وتلمسان ووهران، لضعف قبضة السلطة الزيانية بتلك المناطق، وبلغ بهم الأمر إلى ملاحقته، بعدما بلغهم ما قاله عنهم من أن سلطتهم أسوأ من سلطة اليهود. ولهذا سجنوه وسعوا لحرقه لكنه نجى منهم بأعجوبة. ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 75.

[2]- تم حصار القلعة من طرف إسحاق بربروس والقبطان اسكندر ضد أبي حمو وحلفائه نهاية عام1517م، ومنتصف عام 1518م نجحوا اقتحامها ولكنهم عاثوا فيها فسادا بعد دخولها.

لقد كان للناس في أحمد بن يوسف اعتقاد كبير حتى أهل العلم، فهذا الشيخ ابن زرفة يسوق في كتابه " الرحلة القمرية" عدة حكايات عن كرامات الشيخ نقلا عن كتاب " بستان الأزهار وزمم الأبرار"، من ذلك هذا النص:" وللشيخ الكامل الفاضل الناسك ... شيخ الطريقة وخاتمة عند أهل الحقيقة مولانا ذو الفضل الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي ... دخل في تسليم وهران للمشركين وبيعها من أولئك الملحدين". ولما أمره الزيانيون بالخروج من أرضهم أي مناطق نفوذهم دعا عليهم بقوله:" شوشونا شوشهم الله من البر والبحر" ويضيف ابن زرفة قائلا:" فلم يكن إلا قليل أخذت المرسى، وبعدها وهران"[1].

وقد ظلت علاقة العثمانيين حسنة بذرية أحمد المليانى وأتباعه من الشاذلية[2]، طيلة حكمهم لأيالة الجزائر، فبعد وفاة أحمد بن يوسف، تم الاتصال بين خير الدين ومحمد بن مرزوقة الابن الكبر " لسيدي" أحمد بن يوسف، ونصبه خير الدين خليفة لأبيه، وأمير ركب الحجاج لحمل الصرة إلى الحرمين، ومنذ ذلك الحين أصبح بيت المليانى من البيوتات التي تداولت على إمارة الحج، وظل هذا البيت يحظى بمكانة لدى حكام الجزائر[3]، حتى أن الداي حسين باشا صاهر هذه الأسرة[4].

لقد تمتعت أسرة المليانى بثروة كبيرة نتيجة للجاه والامتيازات التي اكتسبتها من علاقتها مع السلطة، سيما تلك امتيازات المرتبطة بإمارة ركب الحج، والتي يبدو أنها ساهمت بشكل مباشر في ثروة هذه الأسرة. وقد استطعنا أن نحصي خمسة من أمراء ركب الحج الجزائري من بيت المليانى، والذين عينوا خلال القرون الثلاث: 16م، 17م، و18م، وهم:

---

[1]- ابن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير وهران لحساني مختار، ص، ص:234، 235.

[2]- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص، ص: 25، 26.

[3]- محمد حاج صادوق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. 1989. ص: 105.

[4]- رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات (1671-1830م). رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر: (2005-2006). ص: 17.

– **السيد محمد بن مرزوقة:** هو الابن البكر للشيخ أحمد بن يوسف المليانى، قيل أنه يشبه والده حزما وعزما، وقد كلفه والده قبيل وفاته بصيانة أسرته وتسيير زاويته بالقلعة[1]، وقد تم الاتصال بينه وبين خير الدين بربروس، وتوثقت العلاقة بينهما.

فقد استقبل خير الدين ببروس محمد بن مرزوقة بحفاوة بمدينة الجزائر، وأعطاه كمية كبيرة من الدراهم وسماه أمير الحجاج " لحمل الصرة"[2] إلى الحرمين الشريفين. والصرة: هي مقدار من المال يرسل كل عام من حصيلة أوقاف الحرمين الشريفين إلى فقراء مكة والمدينة. وبقيت إمارة الحج هذه في ذرية ابن مرزوقة الذين استوطنوا بعدئذ بوادي الحامول في نواحي المدية فتمتعوا بها إلى نهاية الحكم العثماني بالجزائر[3].

– **السيد أبو زيان** حفيد أحمد بن يوسف المليانى: كان أميرا للركب في النصف الثاني من القرن 11هـ/17م، بحيث خرج أميرا على رأس الركب بين سنتي: 1073-1074ه/ 1662-1663م. وقد أشار إليه العياشي في رحلته بقوله:" وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان حفيد سيدي أحمد المليانى، وهو رجل لين وليست له عصبة قوية، إنما كان يتأخر في بعض الأحيان هو وفارس آخر من أصحابه"[4].

– **الشيخ بن طيبة بن سيدي بوزيان:** وهو الذي خرج على رأس ركب الحج في سنة 1122ه/ 1710م[5].

---

[1]– محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ص: 79.

[2]– خصصت بالجزائر أوقافا هامة لفائدة الحرمين الشريفين، وقد حظيت بأكبر قسط من العقارات الموقوفة في الجزائر، ومنذ مطلع القرن 17م أشرفت على تسييرها مؤسسة الحرمين الشريفين، فكانت توجه جزء هاما من عائداتها سنويا كصدقة لفقراء الحرمين الشريفين، وهو ما اصطلح على تسميته بالصرة. ينظر: عائشة غطاس، " أوقاف الحرمين الشريفين"، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص– ص:243– 250.

[3]– محمد حاج صادق، المرجع السابق، ص: 105.

[4]– العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص: 389.

[5]–Albert Devoulx, Notice sur les Corporations religieuses d'Alger. Alger : Typographie Adolphe Jourdan. 1912 .p : 39.

– **السيد أحمد بن الطيب أو أحمد بن طيبة:** كان أميرا خلال القرن 12هـ/18م، فقد خرج على رأس الركب سنة 1153ه/1740م، وهو الركب الذي حج معه الورثيلاني في حجته الأولى، وذكره عدة مرات في رحلته، كما في هذا النص:" وكنت دخلت الخنقة في الحجة الأولى مع أمير الحجاج سيدي أحمد بن الطيب نجل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف"[1]. وأشار إليه في موضع آخر قائلا بأن أحد العلماء قال له عن طريق الكشف أنك تحج السنة :" وكان الأمر كما ذكر، فأتى الله بولد سيدي أحمد بن يوسف، وهو سيدي أحمد بن طيبة فذهب الركب معه" [2].

– وورد اسم **السيد بوطيبة اللمداني** في بعض الوثائق المحلية، واللمداني نسبة للمدية لأن أبناء أحمد بن يوسف استقروا بوادي الحامول في نواحي المدية كما مر معنا. إذ ترأس هذا الأمير الركب في الفترة السابقة لعام 1172ه/1758م[3]، فهل هو نفسه أحمد بن طيبة، أو أمير آخر من نفس الأسرة؟

– **الحاج محمد بن الواحد بن سيدي الخلادي:** كان أميرا للركب خلال منتصف القرن الثاني عشر (18م)، إذ خرج على رأس الركب في سنة 1175هـ/ 1761م[4]، وقد أشير إليه في وثيقة خاصة بأوقاف الحرمين الشريفين مؤرخة بتلك السنة[5].

(3)– بيت "سيدي" محمد الحاج:

هي أسرة صوفية ولكنها لا تخلو من العلم، ومؤسسها هو محمد الحاج الصحراوي، وقد ترجم له معاصره الفكون في الفصل المخصص لمن " ادعى الولاية من الدجاجلة والكذابين والمتشدقة والمبتدعة"، وذهب إلى أنه تلميذ عيسى الديندي، وأنه جعل الخلوة والعزلة، ثم أظهر أمره في البادية، وتصدى لإعطاء العهد، وخالط مشيخة العرب ورؤسائهم،

---

[1]– الورثيلاني، رحلة الورتلاني، ج1، ص: 138.

[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 348.

[3]– عائشة غطاس، أوقاف الحرمين الشريفين، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ص: 251.

[4]– Albert Devoulx, Notice sur les Corporations religieuses d'Alger. p : 41.

[5]– عائشة غطاس، المرجع السابق، ص: 251.

واتخذ زوايا ورعايا تزكي عليه ويأخذ منها الجبايا والأعشار، فاعتقد فيه أهل القطر الغربي وناحية بسكرة وما حواليها، وأظهر الولاية واتخذ الطلبة في بلده للاصطياد بهم على عادة أمثاله في اتخاذهم شهرة وطلبا للجباية[1].

وكان ظهور محمد الحاج واشتهاره في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري[2]، ولا يذكر الفكون أنه تولى إمارة الركب، مع أنه يؤكد أن سكناه بقرية مدوكال[3]، مما يوحي بأن أبناؤه هم الذين تولوها بعده لما تمتعت به هذه الأسرة من جاه وثراء[4]، وقد يكون لإقامة هذه الأسرة بالقرب من بسكرة المكان الرئيسي لتجمع القوافل دور مهم في تكليف بعض أبناءه بإمارة الركب، بحيث تعتبر بسكرة من المحطات الرئيسية التي تتوقف بها القوافل الجزائرية والمغربية المتجهة نحو المشرق والقادمة منه.

وتحدث الورثيلاني خلال القرن 12ه/18م أيضا عن هذه الأسرة، فقال بأنّ قرية بريكة :" هي لسيدي محمد الحاج يقاتل عليها أولاد دراج بينهم أزال الله ظلمهم، وأهلك من أرادها منهم من غير رضى أولاد الشيخ"، ثم أضاف قائلا بأنّ:" طريقة أولاد سيدي محمد الحاج ربانية لا يشك فيها أحد، فلا يشوبها شوائب الملك أصلا "[5].

يتمتع أولاد "سيدي" محمد الحاج بمدوكال بمكانة مرموقة بدليل تعاونهم مع السلطة لجمع الضرائب، بحيث عملوا على استقطاب عدد من القبائل لصفهم بعدما طلبوا ترخيصا

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص- ص: 142- 145.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 145.

[3]- ورد اسم هذه القرية في كتب الرحلات الحجازية بأسماء مختلفة: إذ يسميها المجاجي بكالة أو أمر كالة (رحلة المجاجي، ص: 172) ويسميها العياشي ب: بلاد سد وكال، في حين يسميها الورثيلاني قرية مدوكال. وقد كانت الكثير من الركائب تمر بها، كالركب الذي حج معه الورثيلاني، بحيث دخل الركب بقرية بريكة، ومنها انتقل إلى قرية مدوكال وفيها نخل، "ولم يكن من بلانا نخل إلا فيها"، وبعدها تأتي قرية الزاب. ينظر: رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 114.

[4]- ذكر الفكون بأن مؤسسها كان يأخذ الجباية من أتباعه من أهل البوادي، كما ذكر المجاجي بأن له أملاك مهمة من رباع وبساتين وضياع ببسكرة وغيرها. ينظر: الصفحات الموالية.

[5]- الورثيلاني، المصدر السابق، رحلة الورثيلاني، ج1، ص:114.

من السلطة لجمع الضرائب وقد منحته لهم 1711م، ثم أوكلت لهم سنة 1748م مهمة جمع ضرائب أولاد زيان والصحاري[1].

ورغم غلبة التصوف على رجال هذه الأسرة، وعدم إنجابها لعلماء كبار، فإنها أنجبت بعض رجال العلم ممن تولوا إمارة الركب ومن غيرهم، ومن علماء هذا البيت الشيخ أحمد بن التواتي، وفي كتاب "عمدة الحكام " نازلة كتبت من طرفه تدل طريقة تفصيله لها أنه من أهل العلم، " قال الشيخ العالم سيدي عبد الله بن عبد الواحد العمراني : وكتب إلينا صاحبنا الفقيه السيد أحمد بن التواتي بن سيدي محمد الحاج، الساكن بسكرة، المدوكالي أصلا " [2].

وقد استطعنا حتى الآن أن نحصي خمسة أمراء ينتمون لهذا البيت، وهم: "سيدي" المسعود، وابنه الولي الصالح "سيدي" محمد بن المسعود، وحفيده "سيدي" محمد بن محمد بن المسعود، والشيخ الموهوب، والسيد محمد المسعود بن الشيخ الموهوب:

- **الولي الصالح محمد بن مسعود:** ذكر العياشي في رحلته بأنه كان " من أهل الصلاح، وممن يتردد بالركب إلى الحج الشريف "[3].

- **السيد محمد بن محمد بن مسعود:** كان أميرا للركب خلال القرن 11هـ، وقد لقيه العياشي بالقرب من مدينة طرابس قافلا بالركب في سنة 1064هـ/1653م[4] :" لقينا ركب الجزائر قافلين من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ ابن الولي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي، خرج معهم يشيعهم إلى جربة... وأمير ذلك الركب سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد سد وكال، وله رباع[5] ببسكرة وربما استوطنها، وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن يتردد بالركب إلى الحج

---

[1]- رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات، ص: 112

[2]- محمد بن محمد الطيب الخنقي، مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي أو عمدة الحكام، ص :305.

[3]- أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص: 86.

[4]- حج العياشي للمرة الأولى خلال سنتي 1059- 1060ه فدخل بسكرة في ذهابه للحج وعند عودته منه (ص: 524)، حج للمرة الثانية خلال سنتي: 64- 1065هـ (ص: 521).

[5]- الرباع: مفرده الربع، وهو الدار أو ما حول الدار أو المنزل أو الحي.

الشريف، وتأكدت بينه وبين سيدي محمد الصيد الصحبة، فلذلك نشأ الولدان على طريق والديهما" [1].

وفي نص العياشي ثلاث إشارات مهمة وهي: امتلاك هذا الأمير لرباع ببسكرة، وأن والده السيد محمد كان من قبل أميرا للركب، كما يشير النص إلى الصداقة المتينة التي جمعت الأمير محمد ووالد الأمير محمد بأصحاب الزواية جنوب طرابلس السيد عبد الحفيظ ووالده الشيخ محمد الصيد[2]،كل هذه الإشارات نجدها في أمير الركب الذي حج برفقته المجاجي سنة 1063هـ/ 1652م، فهو من كالة، وله أملاك عديدة ببسكرة، وهو صديق عبد الحفيظ الذي خصص له المجاجي عدة أبيات، وكان والده من قبل أميرا للركب، مما يؤكد أن العياشي والمجاجي يتحدثان عن الأمير نفسه.

لقد كانت حجة عبد الرحمن المجاجي خلال سنتي 1063و1064ه موضوعا لرحلته النظمية[3] غير أنّ لم يفصح عن اسم أمير الركب، ولهذا اعتقد بعض الباحثين أنه عبد الكريم الفكون، وكل المواصفات التي ذكرها العياشي والمجاجي في هذا الأمير ليست في عبد الكريم الفكون، إذ يستبعد أن تكون له أملاك ببسكرة لبعدها عن قسنطينة، كما أنه هو أول من تولى الإمارة من أسرة الفكون[4]، في حين يذكر المجاجي أن والد الأمير الذي حج برفقته وجده كانوا من قبل أمراء على الركب.

خصص المجاجي لأمير ركبه السيد محمد بن محمد بن مسعود اثنتين وعشرين بيتا، وأثنى عليه كثيرا، على الرغم من أنه لم يذكر اسمه، كما تحدث عن مناقبه ومكانته بين معاصريه،

---

[1]- أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص: 86.

[2]- يشير العياشي والمجاجي إلى أن هذه الصداقة كانت قوية لدرجة أن أصحاب هذه الزاوية كانوا يكرمون الركب الجزائري إكراما كبيرا، بل أن الشيخ عبد الحفيظ كان أحيانا يرافق الركب الجزائري من زاويته في سيره مسيرة شهر، ثم يعود إلى بلده.

[3]- "رحلة المجاجي" هي لناظمها عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي، ومسارها طريق العودة من الحج، إذ دخلت قافلة الحج إلى مجاجة سنة 1063هـ/ 1652م، وبذلك انتهت الرحلة.

[4]- ينف أبو القاسم سعد الله أن يكون والد عبد الكريم الفكون وجده قد توليا إمارة ركب الحج. ينظر الصفحات الموالية من هذا المبحث: بيت الفكون.

متغنيا بحسن تدبيره في تسيير الركب[1]، وفيما يلي بعض الأبيات التي ذكرها فيها[2]:

خليفتك في الركب أي خليفة ... له في تلك الطريق دين وعفة

أقام فيها بالرفق للخلق كلهم ... وأخذ لهم بخاطر ثم رأفة

...جمعت وجوه الخير جودا ونجدة ... **وعلما** وحلما وحزت كل جليلة

لك في طريق ذي الإمارة معدن ... أبوك وثم الجد حسَنُ طليعة

أقاموا فيها دهرا وما قصدوا بها ... سوى وجه رب العالمين كفاية

وفي **أمر كالة** قد أقمنا نهارنا ... وبتنا بها نرتاح من كل تعبة

أقمنا بها يومين عند أميرنا ... وابذل بالمجهود من كل نعمة

كما وصف المجاجي أملاك أمير الركب في بسكرة[3] في هذه الأبيات[4]:

ولأميرنا فيها دارٌ ومُلكَه ... هناك وما قد يحتويه وغلة

من النخل والأشجار تينا وغيرها ... مع ما انضم إليها مثل الزراعة

سوى ما له في غيرها من الحوائط[5] ... من أرض ومال عند كل قبيلة

وفيها من الزيتون والنخل ما لا قد ... يحيط به في العدِّ صاحب فطنة

ومن بسكرة ارتحل الركب ونزل بدار أميره في أمر كالة (مدوكال) [6]:

ومن هناك ارتحلنا صبحا وقصدنا ... نزولا بدار ذاك الأمير أمر كالة

... فأهلا بدار للأمير ومنصبا ... وسهلا بنعم الدار دار الإمارة

---

[1]- مبديا العلاقة الطيبة التي جمعت بينهما:" وحبينا والله أي حبينا* ولا لنا ثم غيره من أخوة".

[2]- عبد الرحمن المجاجي، رحلة المجاجي، ضمن رسالة ماجستير بعنوان رحلة المجاجي (دراسة وتحقيق) لآل سيد الشيخ سعاد، ص، ص: 178، 179.

[3]- وفي حديثه عن أمير الركب في بسكرة إشارات تدل على مكانته في المنطقة :" وقائدها بالجيش لاقا أميرنا * وأدخله وسط البلاد بفرحة"، ولما وصل الركب مدينة بسكرة أتى الأمير وأقاربه وأضافوا الوافدين أحسن ضيافة. ينظر: رحلة المجاجي، ص، ص: 166، 173.

[4]- المجاجي، المصدر السابق، ص: 172.

[5]- الحوائط أي البساتين.

[6]- المجاجي، المصدر السابق، ص، ص: 172، 173.

ودار مقر لليـــتـــيم وغـــيـــره ولكل يتيم محتاج عديم كفاية

كما خصص المجاجي للشيخ عبد الحفيظ صاحب الزاوية بطرابلس أربعة عشر بيتا، تحدث فيها عن الصلة جمعته بأمير الركب الجزائري، وإعانته للركب بالمؤن والغذاء، ومرافقته للركب من طرابلس إلى قرية وذرف، ومن هذه الأبيات[1]:

طرابلس المعـــلوم بالجـــود أهلها وفيها رجل مشهور بالولاية

يسمى الشيخ عبد الحفيظ مفضل تلقى جميع ركبنا بالضـــيافة

خصوصا أمير الركب إذ كان بينه وبين أبـــيه صحبة وشيوخه

- الشيخ الموهوب بن محمد الحاج:

كان الشيخ الموهوب أميرا للركب في النصف الأول من القرن 18م، إذ خرج على رأس ركب الحج عام 1119هـــ/1707م[2]، وعام 1125هـــ/1713م[3]. ويصفه أبير دوفو (Albert Devoulx) بالشيخ الموهوب بن محمد الحاج صاحب مدوكال، وفيه إشارة إلى أن هذه الأسرة كانت تتزعم هذه القرية فعليا كما كان أصحاب الخنقة، أو أنها تزعمتها معنويا لاشتهارها بالولاية والصلاح.

– السيد محمد المسعود بن الشيخ الموهوب:

هو السيد محمد المسعود بن الشيخ الموهوب بن السيد محمد الحاج الدكالي الصحراوي، كان أميرا للركب خلال النصف الثاني من القرن 12هـــ/18م، وهو من رجال العلم، إذ يصفه الورثلاني الذي حج معه حجته الأخيرة سنة1179هـــ/1765م بالفقيه، ويصف والده بالشيخ البركة، مع العلم أن الورثيلاني ذكره في موضع باسم محمد المسعودي، وذكره في مواضع أخرى باسم محمد المسعود.

---

[1]- المجاجي، رحلة المجاجي، ص: 173.

[2]- يؤكد ما ذهب ذكره ألبير دوفو، إحدى وثائق أوقاف الحرمين الشريفين المؤرخة بتلك السنة نقلا عن عائشة غطاس، " أوقاف الحرمين الشريفين"، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص: 251.

[3]- Albert Devoulx, Notice sur les Corporations religieuses d'Alger. p : 39.

ويذكره الورثيلاني أن أصحابه اجتمعوا "وكلهم ذوو الفضل والعلم والصلاح" وتحدثوا " على الحج سنة إذ مع أننا سمعنا أن الشيخ الفاضل الكامل شيخ الركب سيدي محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدي الموهوب نجل الشيخ الولي الصالح والبدر الواضح سيدي محمد الحاج قد ضرب طنبله في المدينة المحروسة الجزائر "[1]، ولما مر الركب بمدوكال قال:" قرية مدوكال التي أمير الركب منها وهو الفقيه المحب الفاضل الكامل سيدي محمد المسعود نجل الشيخ سيدي الموهوب أسعده الله وجعل البركة في أولاده[2].

(4)- بيت الفكون:

وإن غلب التصوف والجانب الروحي الديني على الأسر السابقة، وإن لم تخل من رجال العلم فإن أسرة الفكون أسرة علمية بامتياز، لإنجابها لعلماء كبار، وهي تتمتع بنفوذ روحي كبير في المنطقة إلى جانب ثراءها وعلاقتها الجيدة مع السلطة، وكل هذه المميزات أهلتها لتتولى إمارة ركب الحجيج منذ القرن الحادي عشر الهجري (17م)، وتحتفظ به وبلقب شيخ الإسلام إلى الاحتلال، وبالضبط إلى سنة 1838م حين ألغت السلطات الفرنسية ذلك[3].

ويذهب مرسيه (Mercier) إلى أن أول أمير لركب الحج من هذا البيت هو عبد الكريم الفكون الجد، ويرجع ذلك إلى سنة 1572م/980هـ، على إثر الثورة الكبيرة التي أدت إلى مقتل الشيخ عبد المؤمن[4]، ولكن عبد الكريم الفكون الجد -حسب أبو القاسم سعد الله- قد لا يكون حج أصلا، لعدم إشارة حفيده إلى ذلك في كتابه "منشور الهداية" لحرص علماء تلك الفترة على إبراز أداء أسلافهم لفريضة الحج.

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 14.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 114.

[3]- أبو القاسم سعد الله، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون، ص: 394.

[4]- Mercier, Constantine au 17eme siècle «élévation de la famille el fagoun »; p-p:10 -12.

ويستدرك مرسيه على نفسه فيقول أن لقب أمير ركب الحج وشيخ الإسلام قد منحا ضمنيا لا تصريحا، لأن إمام الجامع الكبير كان بالضرورة شيخا للإسلام وأميرا لركب الحج، وهو أيضا استدراك غير صحيح حسب -أبو القاسم سعد الله- لأن إمارة الركب بقيت في أسرة عبد المؤمن مدة طويلة بعد وفاة الفكون الجد وابنه محمد وحتى إلى عهد الفكون الحفيد[1].

أول من تول إمارة ركب الحج من هذه الأسرة هو الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد، إذ لم تمنح لا لأجداده ولا لأبيه من قبل، وهو أشهر من تولى إمارة ركب الحجيج الجزائري خلال العهد العثماني، وقد أسندت إليه الإمامة والخطابة بجامعها الأعظم عام 1045هـ/1635م، ثم عُهد إليه بقيادة ركب الحج، فخرج لأول مرة بالركب بين سنتي 1047- 1048ه، وظل يتولاه إلى وفاته التي كانت سنة 1073هـ[2]، أي أنه ظل أميرا للركب حوالي ربع قرن.

ولدينا مرسوم تعيينه أميرا للركب مؤرخ بأوائل رمضان سنة 1048هـ/ 1638م[3]، وبموجبه تم تجديد الإمارة له لموسم آخر، ومعنى ذلك أن الفكون خرج على رأس الركب في سنة 1047ه، بحيث كان التجديد يكتب لأمير الركب بعد أن يعود بالركب إلى مدينة الجزائر.

- وإذا عرفنا أن قافلة الحج تستغرق في الحالات العادية سنة وبضعة أشهر، أدركنا أن خروج نفس الأمير على رأس قافلة الحج كل سنة مستحيل، لأنه في الوقت الذي تكون فيه القافلة الأولى راجعة من الحج تكون قافلة الموسم الموالي ذاهبة، وكثيرا ما تلتقي القافلتان في تونس أو طرابلس. من ذلك التقاء الركبان الجزائريان في تونس سنة 1074ه/1663م أحدهما راجع وكان السيد أبوزيان حفيد المليانى أميرا عليه، في حين كان الشيخ محمد بن

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون، ص: 393.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 391.

[3]- Mercier, Constantine au 17eme siècle «élévation de la famille el fagoun»; p,p:17, 18.

عبد الكريم الفكون أميرا للركب الذاهب، وهذا يؤدي إلى أن إمارة الركب كان يتم تداولها بين عدد من الأمراء في وقت واحد في كل سنة يخرج أحدهم بالركب، وذلك لصعوبة الرحلة واستغراقها لمدة طويلة.

وهذا يعني أيضا أن إمارة الركب تكون في عدد من البيوتات في وقت واحد، فقد كانت في بيت محمد الحاج وبيت الفكون في الوقت نفسه، فبين سنتي 1062هـ-1063هـ خرج محمد بن محمد بن مسعود أميرا للركب، وبين سنتي: 1064-1065هـ خرج عبد الكريم الفكون على رأس الركب[1]، وقد لقيه العياشي خلال هذه الرحلة، وقد ذكره في هذا النص بقوله:" وكانت لنا به -رضي الله عنه- وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح، لما حججت معه في سنة أربع وستين (1064هـ) ". وكان عبد الكريم الفكون يخرج أميرا حتى عندما تقدم به السن فلما انقطع عن الدنيا كان مما لازمه " التردد إلى الحرمين الشريفين مع كبر السن"[2].

ويخبرنا من عرفوا عبد الكريم الفكون أميرا لركب الحج أنه لم يكن يبالي بامتيازات هذه المهمة رغم تقدير الناس له، وإظهارهم الاحترام الواجب له، من ذلك ما أشار إليه تلميذه عيسى الثعالبي بأن شيخه كان لا يهتم بما يُهدى إليه، وأنه كان متجنبا أهل الولايات الدنيوية، وأن المدح والذم استويا عنده، ولعل أهم من ذلك أنّ الفكون لم يهتم بوالي مصر ولا بأعيانها ولا بهداياهم حين خرجوا له لتعظيمه ومهاداته، وهذا هو نص الثعالبي:" ولقد سيقت إليه بمصر أموال ضخام، وهدايا نفيسة حين قفوله من الحج، وأقبل عليه أهلها على اختلاف طبقاتهم... ونزل إليه الباشا فمن دونه، فما استفزه شيء من ذلك ولا اكترث به، و لم يقبل منه دينارا ولا درهما"[3].

كانت إمارة الركب مهمة شاقة، ولهذا شغلت الفكون عن التأليف والتدريس، فلم يعد

---

[1]- العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص: 521.

[2]- العياشي، المصدر نفسه، ج2، ص: 498.

[3]- سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص، ص:84، 85.

يجد وقتا للتدريس على الخصوص، ولعل هذا ما يؤكد كلام الثعالبي من أن شيخه الفكون قد تخلى عن التدريس، ولكن الفكون لا يرجع ذلك إلى العبادة والزهد "وعدم إخلاص النية" كما قال الثعالبي، وإنما يرجعه إلى الانشغال بالحج الذي يقتضي التغيب شهورا طويلة، فلم يعد وقته يسمح له بالتدريس واستقبال الطلبة[1].

أما انشغاله عن التأليف فلا خلاف فيه أيضا، بحيث ألف سنة 1048هـ/1638م كتابه "فتح اللطيف"، وهو آخر تاريخ وجد على مؤلفاته، إذ لا يعرف أنه ألف عملا آخر بعد هذا التاريخ، وكان آنذاك قد بلغ الستين من عمره، وقد اعتذر في مقدمته بأنه كان منشغلا بالحج وضروراته:" بحال تشتت بال، ومنابذة القراءة والإقراء خصوصا على كل حال، جامعا همتي لأخذ أسباب السفر والارتحال، إلى العودة لزيارة حرم الله وأفضل من تشد إلى زيارته الرحال"[2]. وبعد وفاة عبد الكريم الفكون عهد بإمارة الركب إلى ابنه محمد.

- الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون:

خرج الشيخ محمد الفكون أميرا للركب لأول مرة في سنة 1074هـ/1663م، وقد لقيه العياشي، وأكد أنه " لم يطلع أميرا إلا في هذه السنة"، والنص هو:" وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسمطيني - رضي الله عنه ونفعنا به- قدمها حاجا، وهو أمير ركب الجزائر وقسمطينة، وتلك النواحي على نهج أبيه، وعادته في ذلك محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة والحلم والوقار، فأحبته

[1]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص:182.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص:182.

القلوب، ومالت إليه النفوس، ولم يطلع أميرا إلا في هذه السنة، وقبل ذلك إنما كان يطلع بالركب والده –ﷺ– فلما توفي قام ولده هذا مقامه في ذلك" [1].

ولدينا مرسوم تعينه أميرا للركب وهو مؤرخ بسنة 1075ه/ 1664م، أي أنه حرر بعد أن عاد الركب الذي خرج على رأسه في سنة 1074ه. ومما ورد فيه:" الحمد لله، ليعلم من يقف على كتابنا هذا بمقتضى أمر مولانا الباشا نصره الله، من القواد إلخ ببلد قسنطينة إلخ، فإن حامله المعظم الفقيه إلخ أمير ركب المسلمين ورقاس رسول رب العالمين ...الحاج المبرور البركة الشيخ محمد بن المرحوم السيد الحاج عبد الكريم الفكون إلخ، جددنـــا له بأن يكون أميرا مرضيا، وثقة محضيا، وأمينا زكيا، على ركب المسلمين ورقاس رسول رب العالمين... "[2].

– الشيخ محمد الفكون:

وممن تولى إمارة الركب من بيت الفكون في أواخر العهد العثماني الشيخ محمد الفكون، ومما ورد في مرسوم تعيينه :" هذا ظهير كريم إلى إلخ أظهر على المستظهر به ... ليعلم من يقف عليه من الباي لار والعلماء والأعلام ... أنّا أنعمنا على العالم الأجل إلخ الشيخ الفاضل أبي عبد الله السيد محمد الشيخ نجل الفقيه إلخ المرحوم المنعم السيد عبد الكريم الفكون وجددنا على مقتضى ما بيده من أوامر ساداتنا الباشار وإخوتنا الباي لار السالفين المتضمن كونه أمير ركب الحجاج ورقاس صاحب المعراج سيدنا محمد–ﷺ– ... من الفقير لربه عبده أحمد باي... أواخر مرحم الحرام فاتح الشهور سنة 1242ه/1826م"[3].

– أمراء منفـــردون:

– **سيدي قاسم** من طولقة، كان أميرا لركب الحج خلال القرن الحادي عشر الهجري، يورد الورثيلاني نصا نقلا على العياشي بأنه من الشخصيات التي زارها في طولقة بقوله:"

[1]– العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص: 498.

[2]–Mercier, Constantine au 17eme siècle «élévation de la famille el fagoun»; p, p:26- 29.

[3]–Mercier, Op.cit; p- p:32- 35.

وزرنا أيضا سيدي قاسم... أن هذا السيد كان رجلا صالحا، وكان أمير ركب في زمانه"[1]، إلا أننا لم نتمكن من معرفة الأسرة التي ينتمي إليها.

– **الشيخ يحي الشاوي:** وردت في رحلة العياشي إشارات مهمة حول تولي الشيخ يحي الشاوي إمارة ركب الحج، إلا أن نص العياشي فيه غموض، وهو يذكر أن الشاوي أدى فريضة الحج وكان عائدا مع الركب الجزائري، وعند ارتحال الركب من الإسكندرية في 22 ربيع الثاني 1074هـ "تخلف عنهم هناك فقيههم سيدي يحي الشاوي"، ثم قرر هذا الأخير الرجوع إلى القاهرة، فأخذ يدرس بالأزهر، وطار له صيت عند المغاربة إلى أن توصل لأرباب الدولة فتولى قضاء المالكية، "وترقت به الحال إلى أن تولى إقامة الحاج المغربي، وحج بالركب مرتين"[2].

(رابعا)- زعماء قوافل الحج الفرعية المُكونة للركب الجزائري:

يتشكل الركب من تجمع العديد من القوافل القادمة من مختلف مناطق الجزائر، ولا شك أن القوافل الفرعية كانت تتجمع حول زعماء محليين يتمتعون بنفوذ روحي كبير، قد يكونوا من كبار العلماء، أو من المرابطين أو من أعيان الشرفاء. وفي رحلة الورثيلاني ما يدل على أن حج العلماء والفضلاء يزيد من عدد الحجاج:" وبالجملة فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء ونخبة العلماء حركهم ذلك إلى شد الرحال إلى بيت الله الحرام من كل بلد ووقع الضجيج من عامة المسلمين ومن خاصتهم، وذلك من الحاضرة والبادية حتى ذهب جميعهم بنسائهم وأولادهم"[3]، والذي لا شك فيه أن هؤلاء الزعماء المحليين كانوا يلعبون دورا مهما في تسيير ركب الحج مع الأمير، وبين أيدينا ثلاثة نماذج عن زعماء محليين رافقوا ركب الحج:

(1)- تجمع الحجاج حول علي أبو حسون علي المجاجي:

---

[1]-الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 120.

[2]- العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص، ص: 472، 473.

[3]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 17.

ينعت عبد الرحمن المجاجي في رحلته أمير الركب ب" أميرنا"، ولما وصل الركب إلى مدينة الجزائر حيث انتهت مهمة الأمير، وواصلت القافلة التي كان فيها طريقها إلى مجاجة، نجده يتحدث عن شخص آخر ويصفه ب" شيخنا"[1]، وهذا الزعيم وهو علي أبو الحسون الذي ينعته أيضا بكبيرنا، وهو أحد أبناء أسرة محمد بن علي المجاجي، التي تتمتع بمكانة روحية كبيرة لدى العامة والخاصة.

والمتصفح لرحلة المجاجي يجد ناظمها يركز على دور أفراد أسرة المجاجي في مساعدة الحجاج، ولما ذكر العلماء في الركب ركز على العلماء في القافلة الفرعية (قافلة مجاجة) لا الركب ككل، رغم من أنه قدم لهذه الجزئية بقوله:" وفي ركبنا من الأفاضيل جملة من العلماء العاملين".

(2)- تجمع الحجاج حول الورثيلاني:

كانت أسرة الورثيلاني تتمتع بمكانة روحية كبيرة ببلاد زواوة، وقد تجسد ذلك في مكانة علمائها نخص بالذكر منهم الحسين الورثيلاني صاحب الرحلة، ويبرز في رحلته بوضوح مساهمته في تسيير الركب إلى جانب الأمير، كطوافه بجماعة كبيرة من أهل الركب:" قصدنا المطاف لطواف القدوم... ومعي جماعة كثيرة تكاد لا تحصى، أطوف بهم علمتهم كيفية الطواف"[2].

كما كان الورثيلاني يتخلف رفقة بعض الحجاج آخر الركب صونا للذي يتأخر من ضعفاء الحجاج :" تخلفنا آخر الركب حسبما عادتي أنا وسيدي أحمد الطيب وسيدي محمد الشريف الطرابلسي صونا للذي يتأخر من ضعفاء الحجاج ممن ليس له مركوب كالدراوشة، فربما يقع لهم الضعف فيكون جميعنا في عونه فسرنا آخر الركب رويدا رويدا" [3].

---

[1]- المجاجي، رحلة المجاجي، ص: 183.

[2]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص: 454

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 619.

كما كان يتدخل في رد حقوق أهل الركب في مكة وفي مصر، حتى اعتقد بعض الناس أنه "هو الحاكم في الركب"[1]، من ذلك تدخله في حل الفتنة التي وقعت بين الركب المغربي والبدو بمصر، إذ سجن المصريون بعض الحجاج وبعضهم من العلماء والصلحاء والطلبة، وقد ذكر الورثيلاني بعضهم ثم قال:" وغيرهم ممن لا يحصى عددا غير أن والي بولاق يأخذ منهم شيئا قليلا ويسرحهم رحمة منه أهلكه الله ما أبعده من شقي، ومع ذلك لا يرد شفاعتي قط" [2]، "وقد دخلت عليه مرارا للشفاعة في المكروبين مما كان في السجن إلا وسرحه بسرعة من غير مهلة ولا تراخ وكان اعتقاده فينا حسنا" [3].

وقد حدث أن انقسم الركب الجزائري بعد خروجه من مصر، في طريق الذهاب إلى مكة إلى قسمين، قسم يتزعمهم أمير الركب والقسم الثاني يتزعمه الورثيلاني، وذلك ما أكده الورثيلاني بقوله:" فاجتمع أهل وطننا أعني من الجزائر إلى قسنطينة معنا، وما بقي إلا أهل عامر وقصر الطير وأولاد عبد النور وأولاد سعيد بن سلامة، ومن تعلق بجميعهم وكذا أهل بسكرة، وأهل مدُكال وأهل مسيلة وأهل الصحراء وأهل الزاب وغيرهم الكل مع الشيخ سيدي محمد المسعود، وقد رفع منهم ما رفعت أرض من أعباء الثقلين"[4].

وتجدر الملاحظة إلى أنّ الأمير إذا ابتعد كثيرا عن الركب، قد يواصل الركب المسير بدونه، وهذا يؤكد على وجود شخصيات أخرى مهمة تتخذ قرارات المسير والتوقف وغيره[5].

(3) – تجمع الحجاج حول الشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار:

---

[1]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 643.

[2]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص: 641.

[3]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 104.

[4]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 337، 338.

[5]– من ذلك ما ذكره الورثيلاني في رحلته حيث تاه عن الطريق هو وجماعة وكان معهم أمير الركب إذ تخلفوا للصلاة فغاب عنهم الركب بين الجبال، وتاهوا عنه تيها عظيما، ولم يلحقوا بالركب إلا بعد أن نزل واستقر في مبيته، فلما تمكنوا من اللحاق به إلا بعد مدة.

كانت أسرة مصطفى بن المختار الممثل الرئيسي للطريقة القادرية بالغرب الجزائري، ولهذا كانت تتمتع بمكانة روحية كبيرة في المنطقة، وبالرغم من أن محي الدين لم يكن أميرا للركب، إلا أن الكثير من الناس أرادوا مرافقته قافلة الحج التي خرج فيها، وليس ثمة أدنى شك في كونه كان أميرا للركب، إذ لو كان كذلك لما منعه باي وهران من السفر، بل أن عفوية الانضمام إليه هي التي جعلت الباي يقدم على وضعه تحت الإقامة الجبرية.

فلما غادر محي الدين القيطنة رفقه ابنه عبد القادر في أكتوبر 1823م، وشاعت بسرعة أخبار حركته في إقليم وهران، بدأ الناس ينضمون إليه حتى بلغ عددهم بالآلاف، "ولم ينفع في صدهم لا العتاب اللطيف ولا الرفض الشديد، ذلك أن محي الدين كان مرابطهم، ورئيسهم وقديسهم"، " وفي عشية اليوم السادس تجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في سهل شلف"[1].

إلا أن هذه الرحلة لم تتم، فقد استدعي الشيخ محي الدين من طرف الباي حسن آخر بايات إقليم الغرب، واستقبله بوهران استقبالا وديا، مدعيا أنه استدعاه لخوفه عليه. أما السبب الحقيقي في منعه من الحج حسب هنري تشرشل فهو :" تجمهر العرب الغريب وغير العادي حول محي الدين قد أنذره بالخطر، لقد كان (الباي) يعلم ويكره الشعبية التي يتمتع بها المرابط... وكان متأكدا أن أي حركة علنية معادية للرجل ستكون خطرا "[2].

خضع محي الدين وابنه عبد القادر للإقامة الجبرية مدة سنتين، وأخيرا عرف الباي حماقة مخاوفه فأذن لمحي الدين باستئناف حجه، فغادر وهران في سرعة كبيرة عام 1825م، حتى دون وداع الأسرة في القيطنة لكيلا يؤدي ذلك إلى تجمهرات مماثلة كما حدث سابقا[3]، ومما لا شك فيه أن محي الدين كان على رأس قافلة الحج الفرعية التي انطلقت من

---

[1]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص، ص: 65، 66.

[2]- تشرشل، المصدر نفسه، ص: 67.

[3]- تشرشل، المصدر نفسه، ص: 70.

وهران، والتي رافقه فيها بعض رجال الدولة " وكبار دولتها"، وكان الخروج في " ركب مرونق اللباس"[1].

وصل محي الدين ومرافقيه إلى تونس مارين بالمدية وقسنطينة، وهناك انضموا إلى وفد من الحجاج تعداده ألفي (2000) حاج كانوا ينتظرون ليقلعوا بالبحر إلى الإسكندرية[2]. ويجدر التنبيه إلى أنه لم يشار إلى ركب الحج الجزائري، ولا إلى أميره لا في مذكرات الأمير أو في حياة الأمير عبد القادر لتشرشل، ولهذا نتساءل إن انضمت هذه القافلة إلى الركب الجزائري أو سافرت بمفرها؟

حظي محي الدين ومرافقيه بتعظيم كبير بالمدن التي نزلوا بها، وهم في طريقه للحج لكونه أكبر ممثل للطريقة القادرية في الجزائر، فلما حلوا بتونس لقيهم أهلها بالتعظيم والتبجيل خصوصا علمائها المدرسين وأرباب دولتها[3]، وعندما اقتربوا من القاهرة وجدوا ولي الله السيد محمد سعيد الفندي خارجها ينتظر محي الدين منذ سمع بخبره، فنزلوا بداره هو وجميع الرفاق طعامهم من داره غداء وعشاء، " ورأينا بداره... من اجتماع العلماء ورؤساء الدولة في كل وقت"، وقد عبر الأمير عبد القادر عن التقدير الذي لقيه والده بالقاهرة بقوله:" وشاهدت من برهم بالوالد وأدبهم معه، وإعظامه والتنويه به ما يزهي الناظر" [4].

– وبالنسبة للزعماء والشخصيات النافذة المرافقة لركب الحج، فقد تكون ذات تأثير إيجابي أو سلبي على الركب، فقد رافق عدد من الزعماء الركب المراكشي الذي حج فيه العياشي وهم الذين نعتهم ب"شيوخ الركب"، وكان أحد هؤلاء ذا نفوذ على فئة كبيرة من الحجاج إلا أن تأثيره كان سلبيا، حتى اضطر أمير الركب إلى التعامل معه بلين تفاديا للفتنة، وجمع له الحجاج مالا قدره:" خمسة عشر (ريـــال) أعطوها لشيخ من شيوخ الركب كان

---

[1]– مذكرات الأمير، ص:111– 136.

[2]– هنري تشرشل، المصدر السابق، ص: 70.

[3]– مذكرات الأمير، ص:106، 107.

[4]– مذكرات الأمير، ص:108– 109.

قليل ذات اليد شكس الأخلاق، ومعه طائفة من أهل بلدته يرون رأيه، فكان الناس يدارون منه بعض الحد خشية افتراق الكلمة، ويعرف بابن مؤمن من أندلس مراكش، والشيخ في الحقيقة الذي لا ينبغي أن يعدل عنه عند وجوده الحاج محمد بن الحاج عمران المراكشي، فقد كانت له سراوة نفس وطيب أخلاق... وآتاه الله مع ذلك سعة من المال إلا أنه ليس معه عصبية، وقسيمه الآخر في الرئاسة قد اعتضد بعصبة من أجلاف الأندلس وشياطينهم..." [1].

إنَّ وظيفة أمير ركب وظيفة دينية سياسية في آن واحد، وهي تجلب لصاحبها أموالا طائلة، بالإضافة إلى الجاه العريض[2]. ونلاحظ نزوح السلطة إلى حصر هذه الوظيفة في أسر معينة، حتى أنها ظلت في جل تلك الأسر طيلة العهد العثماني، فورثتها السلطة للأبناء ثم للأحفاد.

- يتبين من خلال هذا الفصل الدور الكبير الذي لعبته البيوتات العلمية في تنشيط الحياة الثقافية في الجزائر من خلال زواياها ومدراسها، ومن خلال إدارتها للجوامع الكبرى التي كانت مقرا لأداء الصلاة وللتعليم، ورأينا أيضا كيف اجتهدت هذه البيوتات في التمسك بخصوصيتها الثقافية، ثم تتبعنا كيف ساهمت السلطة في بروز هذه البيوتات من خلال حصر وظائف دينية مهمة فيها، وتوريثها لها عبر الأجيال، وما تلعبه هذه الوظائف من التمكين لأصحابها ماديا ومعنويا.

ولا شك في أن أهم الأدوار التي قامت بها البيوتات في المجال الثقافي هي من خـــلال تصدي أبناءه للتدريس والتأليف، غير أننا لم نتطرق لهذه المسألة في هذا الفصل لأننا تناولناها في الباب الأول لما ترجمنا لعلماء كل بيت، ونلاحظ في بعض الأحيان غلبة فن من الفنـــون في أسرة معينة تأليفا وتدريسا، كاشتهار المشارف بالتأليف في التاريخ والتراجم والردود.

---

[1]- العياشي، رحلة العياشي، ج2، ص: 477.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية للفكون، ص: 12.

ولا تكتمل الصورة حول الحياة الثقافية بدون الحديث عن التصوف، فقد كانت كل البيوتات تهتم بالتصوف ولكن بدرجات متفاوتة، بحيث كان لبعض البيوتات العلمية حضور صوفي قوي، وهي البيوتات التي خدمت التصوف بشكل مباشر، ورعت طرق صوفية معينة كبيت عبد القادر بن المختار زعماء الطريقة القادرية بالجزائر، وبيت علي بوشنتوف الذين رعوا الطريقة الطيبية ونشروها في الجزائر، أو البيوتات التي اشتهر علماءه بتلقين أوراد طريقة معينة وغيرها.

الفصل الثاني

الدور السياسي للبيوتات العلمية بالجزائر

خلال العهد العثماني

المبحث الأول: علاقة العلماء والبيوتات العلمية بالسلطة الحاكمة

المبحث الثاني: عـــلاقـــة بيـــت ابن القاضي وآل المقراني ببـــلاد زواوة بالسلطة

المبحث الثالث: الدور السياسي لبيت الفكون بقسنطينة

المبحث الرابع: الدور السياسي لبيوتات علمية مختلفة

كانت الدولتان الزيانية والحفصية تعتمد في أجهزتها على العلماء فمنهم الحجاب والكتاب وحتى الوزراء، إذ تولى عدد منهم نظارة الأشغال وهي بمثابة وزارة المالية، ولهذا ساهمت عدد من البيوتات العلمية في السياسية بشكل مباشر، كبيت ابن خلدون الذي كان من أبناءه الحجاب والكتاب في الدولتين الحفصية والزيانية، وبيت الكماد القسنطيني الذي عين عدد من فقهائه كُتابا لدى ولاة قسنطينة الحفصيين، وبيت ابن سيد الناس الذين تولى بعض أبناءه الحجابة ببجاية... إلخ.

أما خلال العهد العثماني فلا يمكن الحديث عن دور سياسي من هذا النوع، لاحتكار العثمانيين للمناصب السياسية والعسكرية، إلا أن الجاه والنفوذ اللذان تمتعت بهما بعض بيوتات العلماء والمرابطين جعل السلطة تلجأ إليهم كوسطاء سياسيين، وكان عليها أولا أن تكسب ولاء تلك البيوتات، وتذخرها لوقت الحاجة، فما هي الوسائل التي لجأت إليها السلطة من أجل تحقيق تلك الغاية، وهل نجحت في ذلك، ثم ماهي الأدوار السياسية التي قامت بها هذه البيوتات.

– المبحث الأول: علاقة العلماء والبيوتات العلمية بالسلطة الحاكمة:

حتى نقف على خصوصية العلاقة بين البيوتات العلمية والسلطة العثمانية الحاكمة بالجزائر علينا أن نتناول علاقة العلماء والمرابطين عموما بالسلطة، لنعرف ما إذا كان للعلماء الذين ينحدرون من بيوتات علمية ودينية نفس موقف غيرهم من العلماء، أم كانت لهم مواقفهم الخاصة النابعة من خصوصياتهم ومصالحهم التي تربطهم بالسلطة.

إنَّ المتتبع لمسار علاقة العلماء بالسلطة الحاكمة يلاحظ أنها مرت بمرحلتين لكل منها خصوصيتها. تمتد المرحلة الأولى منذ بداية الوجود العثماني بالجزائر إلى نهاية القرن الثامن عشر ميلادي (12هـ)، بحيث قرب العثمانيون إليهم رجال الدين من علماء ومرابطين منذ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وجعلوهم واسطة بينهم وبين السكان، واستمرت العلاقة بينهما حسنة حتى نهاية القرن18م.

أما المرحلة الثانية فتشمل الفترة الأخيرة من العهد العثماني، فبعد أن آلت البلاد إلى وضعية اقتصادية حرجة، وأخفق العثمانيون في السيطرة على الوضع، قاموا بتدابير في المجال الاقتصادي والسياسي، وغيروا سياستهم مع العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق الصوفية.

(أولا)– أسباب التقارب بين العلماء والعثمانيين:

تمتد مرحلة التقارب بين العلماء والعثمانيين منذ وجودهم بالجزائر إلى أواخر القرن 18م، وقد مرت المرحلة الأولى هي الأخرى بفترتين ميزهما الخضوع للسلطة، بحيث كانت علاقة العلماء بالعثمانيين قوية خلال القرن السادس عشر، لارتباط الوجود العثماني بالجزائر بالجهاد ضد الغزوات الصليبية الأوربية على السواحل الجزائرية، ولهذا كان جل العلماء ورجال الدين المرابطين يؤيدون العثمانيين.

أما الفترة الممتدة منذ مطلع القرن 17م إلى أواخر القرن 18م[1]، فكانت علاقة السلطة بالعلماء تمر بنفس الوتيرة لاستمرار العثمانيين في السياسة التي انتهجوها منذ بداية تواجدهم بالجزائر، وما يميز هذه المرحلة تنديد بعض رجال العلم ببعض السلوكيات الصادرة عن رجال الدولة، إلا أن تلك المعارضة لم تكن كبيرة، لأن الجهاد ضد النصارى بوهران كثيرا ما كان يزيد من شعبية العثمانيين أمام الرأي العام الجزائري وخاصة العلماء.

لقد أعطى العثمانيون لسيادتهم على العالم الإسلامي صبغة دينية، ولهذا دخلت تحت نفوذهم عدد من البلدان الإسلامية طواعية ومنها الجزائر، ولكن عملية بسط نفوذهم على كافة أرجاءها وتوحيدها تحت سلطة مركزية واحدة لم يكن بالأمر الهين، ولهذا احتاجوا إلى أطراف فاعلة في المجتمع تعاضدهم في هذه المهمة، وقد نجحوا في ذلك، فقد مر معنا كيف ساعد الشيخ الفكون العثمانيون في ضم قسنطينة إلى السلطة المركزية، كما كان الشيخ أحمد بن يوسف الملياني (ت991هـ/1583م) أحد كبار رجال الطريقة الشاذلية في وقته اليد

[1] – والتي تشمل جزء من مرحلة البشوات، ومرحلة الأغوات، وجزء كبير من مرحلة الدايات التي بدأت منذ سنة 1671م.

الطولى في بسط العثمانيون نفوذهم على غرب الجزائر، وساهم في ذلك بما يتمتع به من نفوذ وسطوة كبيرة بين الأهالي، الذين كان لهم فيه اعتقاد كبير، إذ اتصل به الإخوة بربروس، وأظهروا لهم الاحترام[1].

أدرك العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر، قدرة العلماء والمرابطين الهائلة في التأثير على العامة، ولهذا عمدوا إلى التقرب منهم، الرفع من شأنهم باحترامهم واستشارتهم[2] والأخذ برأيهم[3]. ولم ينته دور هؤلاء العلماء والمرابطون ببسط العثمانيون نفوذهم على البلاد، فالسلطة لا تزال بحاجة إليهم لإحكام سيطرتها على البلاد، لأن السكان كانوا يثقون في رجال الدين من الفقهاء والمرابطين أكثر مما كانوا يثقون في رجال السياسة والحرب، ولهذا كان العثمانيون يقدرون العلماء ويخشونهم ويتقربون منهم[4]، ويخصونهم بالامتيازات المادية والمعنوية المختلفة، ثم تورث تلك الامتيازات لأعقابهم، وهكذا ظهرت بيوتات علمية ودينة موالية للسلطة، وهي إن صح التعبير بيوتات مخزنية، ارتبطت برابطة المصلحة مع السلطة.

والسبب الرئيسي في التقارب والتحالف بين رجال الدين سواء العلماء أو المرابطون والعثمانيين، هو الجهاد في سبيل الله. ويعد الاحتلال الإسباني لبعض المدن الجزائرية، وخطره الدائم على البلاد عاملا رئيسيا في تدعيم فكرة التحالف بين العثمانيين والعلماء، وذلك لحاجة كل طرف للآخر. ففي الوقت الذي كان فيه العثمانيون بحاجة إلى حلفاء لهم ضمن

---

[1]- ابن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير وهران، لحساني مختار، ص: 234؛ المزاري، طلوع سعد السعود، ج، ص، ص: 74، 75.

[2]- مثال ذلك استفتاء عروج وخير الدين العلماء في إعدام أمير تنس المتعاون مع الإسبان. ينظر: مذكرات خير الدين بربروس، ص: 83.

[3]- كمثال على ذلك رفض خير الدين سنة 1519م الفدية التي قدمها دييغو دي فيرا وهوقو منكادا بعد أسرهما احتراما لرأي علماء الجزائر. ينظر: رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات (1671-1830م). رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر: (2005-2006). ص: 15.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، 409.

فئات المجتمع، يؤمنون بفكرتهم الجهادية، وجدوا رجال الدين والعلماء[1]، الذين كانوا بدورهم يرون في العثمانيين المنقذ للبلاد مما هي عليه من فوضى واضطراب.

وقد كان العلماء يؤدون دورا مهما في الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، وتعبئة الناس، وإثارة الحماسة فيهم، في الوقت الذي لم يكن فيه العثمانيين قادرين على رد الهجمات المسيحية دون السكان المحليين، الذين كانوا يشكلون النسبة الكبرى في الجيش أثناء الحملات الأوربية[2]. كما شارك العلماء في الجهاد وخاضوا المعارك، وقد حُفظت لنا الكثير من أخبار العلماء الذين شاركوا في الفتح الأول والثاني لوهران[3]. وعمد الشعراء إلى نظم الأشعار لإلهاب الحماس في صفوف المجاهدين، وكان الأدباء ورجال القلم عموما من أكثر من يحث الحكام سواء البشوات أو البايات على الجهاد[4]، لاسترجاع الأرض المغتصبة سيما مدينة وهران التي ظلت مدة طويلة تحت الاحتلال، ويعرف هذا النوع من الشعر شعر الاستصراخ.

وظل الجهاد طيلة القرون الثلاثة الأولى تقريبا عاملا مهما في توثيق العلاقة بين الحكام والسكان، ولهذا كانت شعبية كل داي أو باي تتحدد باهتمامه بالجهاد، وبما أن وهران ظلت تحت الاحتلال الإسباني، فقد كان تحريرها بمثابة الورقة الرابحة للحكام لكسب الرعية وتأييد العلماء، وظلت العلاقة حسنة بين العلماء والحكام إلى أن أصابها التدهور بعد الفتح الثاني لمدينة وهران، وطرد الإسبان منها بشكل نهائي سنة 1792م.

وهناك عوامل أخرى ساهمت في توثيق الصلة بين الطرفين، منها المعتقدات الدينية للعثمانيين، التي تعد عاملا مهما في إحداث التقارب بينهم وبين علماء الجزائر، بحيث كانوا

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص، ص: 190، 191.

[2]- مذكرات خير الدين بربروس، ص:70.

[3]- ينظر كتاب الرحلة القمرية لابن زرفة، والثغر الجماني لابن سحنون.

[4]- من الشعراء الذي نظموا قصائد يحثون فيها العثمانيين على تحرير وهران العالم الشاعر محمد أقوجيل الجزائري الذي خاطب بإحداها الداي أحمد باشا (1695- 1698م). كما ترك ابن سحنون هو الآخر قصائد يستحث بها العثمانيين على الجهاد. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص- ص: 256- 259.

وهم في بلادهم يبجلون العلماء والمرابطين، كما كانوا مرتبطين ببعض الطرق الصوفية[1]، فحملوا معهم سلوكهم هذا إلى الجزائر، فكانوا يجلون المرابطين ويتبركون بهم[2]، وأحيانا يستشيرونهم حتى في الأمور السياسية[3].

وهناك عامل آخر مهم في توثيق الصلة بين العلماء والسلطة، هو حاجة العلماء كغيرهم من الرعايا إلى البشوات والبايات، من أجل الحصول على الوظائف المختلفة، أو الحصول على تدعيم السلطة عموما ماديا أو معنويا.

(ثانيا)– وسائل السلطة في التقرب من البيوتات العلمية والدينية:

أدرك العثمانيون أن العلماء والمرابطن هم الفئة الأكثر تأثيرا في المجتمع، وبالتالي فهم القوة الأساسية التي يلجؤون إليها لإخضاع الرعية، ولهذا عملوا على كسب العلماء والمرابطين الذين يحظون بنفوذ كبير سيما أولئك المنحدرين من بيوتات دينية وعلمية عريقة[4]، ومن الأساليب التي اعتمدت عليها السلطة لكسب هؤلاء إلى جانبها:

(1)– المبالغة في إظهار الاحترام للعلماء والمرابطين:

أظهر العثمانيون احتراما مبالغا فيه للعلماء والمرابطين الأحياء، وبالغوا أيضا في تقديس أضرحة الأموات منهم، وتفيض الرسائل التي كان يوجهها إليهم الحكام بعبارات التقدير والاحترام، والتعظيم المبالغ فيه، منها ما نجده في الظهائر التي وجهتها السلطة لعلماء بيت الكتروسي، إذ وصف أحمد بن خدة في أحد الظهائر ب:" الولي الصالح القطب الناصح شريف النسب والحسب... سيدي أحمد بن خدة ابن الولي الصالح المعظم الشهير سيدي

---

[1]– كان الأتراك من أتباع الطريقة البكداشية، ثم تعددت الطرق الصوفية وتأثيرها على الأتراك فانتشرت بينهم طرق أخرى كالطريقة النقشبندية، والقادرية والمولوية. ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص، ص: 459، 460.

[2]– بالغ العثمانيون في تعظيمهم للمرابطين فلم يكونوا يخرجون للغزوات البرية أو البحرية حتى يتبركون بولي صالح حيا كان أو ميتا، كالولي الصالح عبد الرحمن الثعالبي والولي الصالح علي العباسي. ينظر: أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 61.

[3]– كما حدث مع الباي محمد الكبير، إذ اطمأن لفتح وهران بعدما بشره بعض العلماء بفتحها، وقصوا عليه مرائيهم. ينظر: ابن سحنون، الثغر الجماني، ص: 207.

[4]– كان يوسف باشا من الحكام الذين يتقربون من العلماء والمرابطين والأشراف سيما أهل البيوتات ويعفونهم من دفع الضرائب ويهادونهم ويكرمونهم. ومن العلماء الذين تقرب منهم يوسف باشا: سعيد قدورة، عبد الكريم الفكون، ومحمد ساسي البوني. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. الجزائر: الشركة الوطنية للكتاب. 1983. ص، ص: 46، 47.

علي الكتروسي"، ووصف ابنه في ظهير آخر:" المكرم الوجيه المحترم العلامة الحبر الفهامة السيد محمد الصغير [كذا] نجل البركة السيد أحمد بن خدة"[1].

والظهائر التي وجهها الدايات والبايات لرجال الدين من بيت الفكون وبيت المقراني مثلا خير دليل على المبالغة في إظهار الاحترام، من ذلك ما نقرأه في الظهير الذي أصدره أول دايات الجزائر الحاج محمد (1671- 1682م) لصالح أحد فقهاء آل المقراني سنة 1093ه/ 1682م، ووصف فيه ب:" المعظم الفقيه الأجل السيد المولى الأعلى البركة السيد عبد القادر ابن المرحوم الولي الصالح القطب الناصح الشيخ البركة سيدي محمد أمقران -نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا ... "[2].

وبالغ العثمانيون في تعظميهم للمرابطين فلم يكونوا يخرجون للغزوات البرية أو البحرية حتى يتبركون بولي صالح حيا كان أو ميتا، كضريح الولي الصالح عبد الرحمن الثعالبي والولي الصالح علي العباسي[3]، وبنوا على قبور الأولياء مشاهد أو جدودها كما فعل محمد باي الذي جدد ضريح أحمد بن يوسف الملياني، وإذا لجأ أحد المُلاحقين إلى قبة أو ضريح ولي فلا يُقبض عليه فيه احترما لذلك الضريح[4].

(2)- منح الامتيازات:

منحت السلطة امتيازات مادية ومعنوية كثيرة لرجال الدين العلماء والمرابطين الذين يتمتعون بنفوذ واسع، وقد كانت هذه الامتيازات تتناسب مع نفوذ صاحبها، بحيث كلما كان صاحب نفوذ قوي كلما كانت امتيازاته أكثر أهمية. وقد كان جُل المستفيدين من

---

[1] - وثائق ملك لعائلة الكتروسي بمازونة.

[2]- Charles Féraud, Exploitation des forêts de La Krasta dans la Kabilie orientale sous la domination Turque, in **R.A**. Volume :12. Année : 1868. P, p: 384, 385.

[3]- أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 61.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 469.

امتيازات منحدرين من بيوتات علمية ودينية بارزة، ومن هذه الامتيازات منح الإقطاعات، والإعفاء من الضرائب، توريثهم للوظائف دينية العليا... إلخ[1].

(3)- مصاهرة رجال الدولة للبيوتات العلمية والدينية البارزة:

تعد المصاهرة إحدى أساليب الحكام في التقرب من البيوتات العلمية والدينية التي لها وزنها وتأثير على المجتمع، من أجل تقوية الصلة بينها، ولهذا ذكر ذكر حمدان خوجة أنّ من خصال القبائل الجزائرية هو :" أنهم يولون الأجنبي الذي ينضم إليهم برابطة الزواج تأييدا وحماية لا رجعة فيهما"[2].

وبالمقابل كانت البيوتات العلمية والدينية تسعى لتعزيز مكانتها بمصاهرة رجال الدولة، ويذهب المنور مروش إلى أنَّ الحضر بمدينة الجزائر والمشكلين من السكان القدامى للمدينة، ومن انضاف إليهم من الأندلسيين، والأعلاج، والأتراك، كانوا جميعا يتزاوجون فيما بينهم فيما، عدا الأسر العلمية الكبرى والشرفاء الذين كانوا يشكلون فئة مغلقة، لكن أبوابها تنفتح للحكام وقادة الجيش والضباط الأتراك. ومن الأسر التي صاهرت الحكام وكبار رجال الدولة: أسرة عبد الرحمن الثعالبي، وأسرة محمد الشريف الزهار، وأسرة علي بن مبارك القلعي، وأسرة الفهري، وأسرة ابن الصخري، وأسرة بن واضح، وأسرة ابن قرواش... إلخ[3].

وبالنسبة للمصاهرة بين الأسر العلمية والدينية المتنفذة بمدينة الجزائر والفئة الحاكمة نذكر زواج الحاج حسين باشا ميزمورتو (1683- 1688م) بأمينة بنت السيد أحمد الشريف[4]، وزواج الداي علي باشا (1232-1233ه) بابنة الحاج مصطفى بن الشيخ بن

---

[1]- سنتطرق بشكل مفصل للامتيازات في الفصل الموالي.

[2]- حمدان خوجة، المرآة، تر وتح: محمد العربي الزبيري. الجزائر: منشورات ANEP، 2005. ص: 18.

[3]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص- ص: 288- 290.

[4]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 350.

مالك[1]،كما كان الداي حسين باشا متزوجا من احدى حفيدات سيدي أحمد بن يوسف الملياني[2].

وتعد بلاد زواوة من أكثر المناطق المناوئة للسلطة طيلة العهد العثماني، ولهذا لجأ حكام الجزائر إلى الزواج السياسي لضمان طاعة قبائلها، التي كانت خاضعة لنفوذ أسر دينية قوية، وخير الدين بربروس هو أول حاكم صاهر أسرة ابن القاضي، وقام ابنه حسن باشا هو الآخر بمصاهرة الأسرة نفسها بعد سنة 1560م[3] ليشد بها أزره، كما تزوج علي بتشين الرايس الشهير الذي كان في منزلة الحاكم إحدى بنات إمارة كوكو[4]، وتزوج حسن باشا من إحدى بنات أسرة ابن القاضي[5].

وصاهر عدد من بايات قسنطينة أسرا علمية ودينية متنفذة كآل المقراني، التي اكتسبت نفوذا دينيا وحربيا كبيرا جعل السلطة تتحالف معها، ويذهب مارسيي إلى أنَّ الباي علي (1710- 1713م) زوج بناته الثلاثة لشيوخ قبيلة آل مقران[6]،كما صاهر الباي حسين بوحنك (1746- 1753م) آل المقراني[7].

(4)- التغاضي عن تجاوزات بعض المرابطين:

المرابطون صنفان، صنف مارس بالتصوف الصحيح، وأغلب هؤلاء من حملة العلم، وصنف آخر من المبتدعة، وأغلب هؤلاء لم يكونوا من حملة العلم، وقد كانت السلطة تتقرب ممن اشتهر وتنفذ من الصنفين، وبالنسبة لأولئك الذين اشتهروا بالبدع والخرافات فإنها كانت تتغاضي عن الكثير من تصرفاتهم، ولو كانت مضرة بالأخلاق العامة،

---

[1]- أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 138، ص: 141.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 465.

[3]-Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger. Alger : Edition Grand – Alger Livre (G.A.L), 2004. P: 129 .

[4]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص، ص: 349، 350.

[5]- Laugier de Tassy, Histoire de royaume d'Alger, Amsterdam : chez Henri du sauzet M.DCC. 1725. p : 147.

[6] -Ernest Mercier, Histoire de Constantine. P : 243.

[7]- شذري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات، ص:122.

وحتى بالدين. كما كان رجال الدولة يسكتون عن ابتزازهم لأموال الناس، والتعدي على الحرمات والأعراض[1]، وقد ذكر الفكون الكثير من تجاوزات مدعي التصوف ممن اشتهروا كمرابطين في الفصل الثالث من كتابه "منشور الهداية" والمعنون ب:" فيمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين والمتشدقة والمبتدعة الضالين المضلين"[2].

- إنَّ استعمال العثمانيين للبيوتات العلمية والدينية الكبرى من أجل بسط نفوذهم على الأهالي ساهم في إخضاع الرعية للسلطة، إذ وقف هؤلاء العلماء والمرابطون في الغالب إلى جانب السلطة، ممّا مكنها من إخماد العديد من الحركات المعادية لها، وهذا ما جعل هذه البيوتات وسيلة فعالة في فرض نفوذ البايليك في مناطق بعيدة، إلا أن هذا لا يعني أن تلك الأساليب سليمة، إذ كان هذا الأسلوب عائقا أمام قيام وحدة وطنية، لسياسة التفرقة بين السكان. ولهذا أخفق العثمانيون في خلق إطار طبيعي للاتصال بالرعية[3]، فسرعان ما شكلت بيوتات العلماء والمرابطين وشيوخ الزوايا أرستقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على مصالحها الخاصة. ونتج عن اعتماد السلطة على البيوتات الكبرى ظهور إقطاع ديني، وعلمي متوارث، فمن خلال الامتيازات تركز قسم من الثروات بأيديهم، وبهذا أصبحت البيوتات العلمية والدينية الكبرى سيما أصحاب الزوايا الصوفية قوة مالية، وفكرية واجتماعية بإمكانها زعزعة السلطة.

(ثالثا)- أسباب القطيعة بين السلطة والعلماء في أواخر العهد العثماني:

ظلت السلطة تستعمل جل الأساليب التي أشرنا إليها من قبل، إلا أن ظروفا استجدت في أواخر العهد العثماني، حالت دون استمرار الاعتماد على كل تلك الأساليب مع كل العلماء والمرابطين، مما كدر صفو العلاقة بين العلماء والمرابطين، وفتحت باب التمردات على مصراعيه، وقد كان للعلماء آراء ومواقف مختلفة من السلطة في هذه الفترة.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 470، 471.

[2]- الفكون، منشور الهداية، ص: 117 وما بعدها.

[3]- شذري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات، ص: 147.

وتشهد آراء العديد من العلماء على السياسة الخاطئة التي انتهجها العثمانيون في آخر عهدهم بالجزائر، كمسلم بن عبد القادر في قوله:" إنَّ العثمانيين لم يكونوا أهلا للحكم في أواخر حكمهم... وحكموا البلاد ثلاثين سنة لم تكن سياستهم فيها رشيدة، ولا كان حكمهم فيها عادلا على العموم، فكان من الطبيعي أن يكثر الناقمون والثائرون عليهم..."[1]. ومن الأسباب التي أدت إلى تدهور العلاقة بين السلطة والعلماء:

(1)– تصفية الاحتلال الإسباني من الجزائر:

كان الجهاد ضد الأوربيين عموما، وضد الإسبان خصوصا عاملا رئيسيا في توطيد العلاقة بين السلطة والعلماء، ومنذ الاسترجاع النهائي لوهران سنة 1205ه/1790م، لم يعد هناك كبير حاجة إلى الجهاد، وبذلك ارتفعت في أواخر العهد العثماني أهم الأسباب الداعية للتحالف بين رجال الدين والعثمانيين. سيما مع إهمال العثمانيين لأغلب مجالات الحياة، والتركيز على الجوانب السياسية والعسكري، وحفظ الأمن داخليا وخارجيا.

(2)– السياسة الضريبية المجحفة:

أهم أسباب القطيعة بين العلماء والسلطة هو لجوئها إلى سياسة ضريبية أقل ما يقال عنها أنها مجحفة أنهكت السكان، وقد تزامن تغير سياسة الحكام المالية، مع تخلص الجزائر من الإسبان. بحيث كان مردود الغزو البحري يمثل نصف مداخيل الخزينة الجزائرية، من غنائم ورسوم مفروضة على الدول الأوربية من أجل حق ممارسة الملاحة في البحر الأبيض المتوسط. ولما بدأ مردود البحرية في التقلص نتيجة تقهقر البحرية نفسها في أواخر القرن 18م[2]، تناقصت مداخيل الخزينة، فتوجه الحكام نحو الداخل لتوفير احتياجاتهم المالية، وضاعفوا الضرائب، وأخضعوا القبائل الخارجة عن سلطة الدولة بالقوة[3].

---

[1]– مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، تح: رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص: 55.

[2]– ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، ص، ص: 66،67.

[3]– إن القارئ لرحلة ابن هطال ليدرك حجم الدمار الذي كانت تخلفه المحلات التي تخرج للقبائل وراءها.

أدت السياسة الجبائية التعسفية إلى إرهاق كاهل السكان[1]، مما أحدث سخط فئات عريضة من السكان. وقد عبر أحمد الشريف الزَّهار في مذكراته عن هذا الوضع بقوله :" وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي، والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين، وما صار هذا حتى أصبح الناس فجارا، والأمراء ظالمين"[2].

(3)– التقليل من امتيازات بعض العلماء والمرابطين:

ومما زاد في متاعب السلطة هو تراجعها عن سياستها التي طالما كسبت بها رجال الدين، بحيث قللت من الامتيازات المادية لبعض العلماء ورجال الطرق الصوفية، وأهمها هو إقدام بعض الحكام إلى سحب الامتيازات من بعضهم، خاصة الأراضي التي أقطعتها لهم [3]، مما أحدث قطيعة بينهم وبين السلطة، وحرضوا الرعية وتزعموا حركات التمرد والثورات.

(4)– إخفاق السياسة العامة للعثمانيين بالجزائر:

كثر تذمر الرعية من العثمانيين لإخفاقهم في مجالات عدة، وانتشار الفساد والظلم، حتى بلغ بهم الأمر إلى الاستيلاء على الأوقاف، وذلك ما شاهده الورثيلاني– وهو أحد أبناء البيوتات العلمية– في بسكرة مثلا :" أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما، وما كان من المدارس والأحباس التي توجد في الأمصار هي في أيديهم، يأكلون منها وينتفعون بها أتم انتفاع كالأملاك الحقيقة المباحة، بل هي ليست لهم ولا أنهم من أهلها بل لما تمردوا وطغوا، وجعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا...وقد سمعت أن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم وارتشاء لديهم، وكذلك في غيرها من عمالة الجزائر"[4]. وبعض هذه الظواهر أشار إليها الفكون بقسنطينة.

---

[1]– ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: 60.

[2]– أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 35.

[3]– يعد صالح باي أكثر الحكام اعتمادا على هذا الإجراء، فطالب الزوايا بالتراجع عن بعض امتيازاتها، لكنها رفضت الأمر الذي جعله يشن حملات ضدها. ينظر: شذري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 147، وما بعدها.

[4]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 142.

(5)– ممارسة الضغوطات على رجال العلم والدين:

إنَّ من مظاهر القطيعة بين العلماء والسلطة في الفترة الأخيرة من العهد المدروس، تنكيل بعض الحكام بالكثير من رجال الدين علماء ومرابطين خاصة خلال ثورات الطرق الصوفية وبعدها، ومنهم شاكر باي (1813-1817م)، الذي لم يسلم من بطشه حتى على الموالين للسلطة كأسرة المقراني حيث قرر سنة 1814م غزو ناحية مجانة التي تسكنها أسرة المقراني، ولما وصل إلى سطيف استدعى آل المقراني للحضور إلى معسكره، وقتل ثمانية منهم. هذا ما أدى إلى تمرد هذه الأسرة سنة 1815م، ولم يتم القضاء على التمرد إلا بتعزيز قوات البايليك بقوات إضافية[1].

واشتهر أيضا عدد من بايات الغرب بالتنكيل بالعلماء ورجال الدين[2] وأشهرهم الباي حسن آخر بايات وهران الذي نكل بأتباع الدرقاوي، وبكل من يشك في ولائه له. وفي ذلك يقول المزاري بأن هذا الباي :" اجترأ على العلماء والأولياء والشرفاء والرعية، فبَانَ منه الجور والظلم والتعدي "، وعلى الرغم من انتهاء ثورة الدرقاوي إلا أنه استمر في قتل أجلاء العلماء كالسيد ابن عبد الله بن حواء التيجني الدرقاوي سنة 1239ه/ 1824م[3].

(رابعا)– علاقة السلطة بالبيوتات العلمية في المدن والأرياف:

إن هذا التحول الذي طرأ على العلاقة بين رجال الدين من العلماء ومرابطين لم يمس العلاقة بين السلطة والبيوتات العلمية والدينية البارزة إلا بشكل طفيف، بحيث ظلت أغلب البيوتات موالية للسلطة، لاستمرار هذه الأخيرة في سياستها معها، وهي التقرب من البيوتات الأكثر نفوذا، ومنحها امتيازات مختلفة وغيرها، وهكذا كانت العلاقة بين البيوتات العلمية والسلطة حسنة طيلة العهد العثماني، وإذا حدث أن قامت السلطة بإجراء ضد أي عالم من أبناء تلك البيوتات، فإن ذلك لا يشمل كل بيته، فمثلا أعدم الداي بكداش المفتي

---

[1]– صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 214؛ عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص: 316.

[2]– منهم الباي خليل (1185هـ/1772م) الذي كان يكره العلماء، وقد قتل بعضهم. ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 287.

[3]– المزاري، المصدر نفسه،ج1، ص: 351.

المالكي أحمد قدورة وعين في منصبه ابن أخته عبد الرحمن المرتضى[1]، وحتى إذا حدث نفور من أحد الطرفين فذلك يعود إلى تصرف الأفراد في فترة معينة وليس إلى العلاقة في حد ذاتها[2].

ويمكن أن نلاحظ أن العلاقة بين العلماء والسلطة تختلف من منطقة لأخرى، كما أن الأدوار السياسية لتلك البيوتات تتغير من منطقة لأخرى، فالأدوار السياسية لبيوتات مدينة الجزائر تختلف عن أدوار غيرها، ولأنها عاصمة البلاد فقد كانت قبضة السلطة عليها قوية جدا، ولهذا اقتصر الدور السياسي لبيوتاتها على البعثات الدبلوماسية وغيره، أما منطقة الغرب فلم تكن القبائل بها قوية ومتمردة ولها لم تلعب بيوتاتها أدوارا سياسية كبيرة، في حين كانت أدوار بيوتات الشرق فعالة جدا لحاجة الدولة للتحالف مع هذه البيوتات واستعمالها كأداة فعالة لإحكام سيطرتها على البايليك.

(1)- علاقة السلطة بالبيوتات العلمية بالمدن:

هناك أيضا فرق في تعامل السلطة مع البيوتات العلمية في المدن والأرياف، فقد تمتعت البيوتات العلمية بالمدن بوضع مريح مقابل حيادها في الأمور السياسية، وبعدم تدخلها إلا لإرضاء السلطة، فمعارضتهم للسلطة كانت أقل مما كانت عليه بالريف. كما أن الاطار الذي وجد به العلماء في المدن -خاصة بحاضرة البلاد مدينة الجزائر- بقربهم من السلطة بأجهزتها القمعية المختلفة لم يسمح لهم بالقيام بتجاوزات على حسابها، على غرار ما كان يحدث بالأرياف من تمردات تزعمها شيوخ الزوايا والمرابطين، والأدوار السياسية لبيوتات المدن كانت لحساب الدولة، وذلك ما سنقف عليه في الصفحات الموالية.

ومن مظاهر حسن العلاقة بين السلطة والبيوتات هو تعيين علماءها في المناصب الدينية والعلمية الرفيعة كالفتيا والقضاء والخطابة بالجوامع الكبرى، وحرصها على استمرار تلك

---

[1]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 409.

المناصب في البيوتات النافذة الموالية لها، وهكذا كانت علاقة جل بيوتات العلماء والمرابطين بدار السلطان مثلا حسنة، كبيت قدورة وبيت ابن العنابي وبيت ابن علي وغيرها.

والشيء نفسه نجده في قسنطينة، بحيث كان بعض البايات على علاقة طيبة ببعض العلماء، فقد كانت أسرة ابن جلول وأسرة البوني وأسرة الفكون وابن باديس في الغالب محل ثقة واحترام البايات. كما كان العلماء يشاركون البايات في السراء والضراء فهم يهنؤون الفائز ويعزون المحزون ونحو ذلك من المواقف التي تحافظ على العلاقات الودية بين الطرفين. ومن ذلك تعزية أحمد الزروق البوني سنة 1158ه/1745م للباي بوحنك في وفاة ولده[1].

كما كانت علاقة السلطة حسنة بالبيوتات العلمية بباياليك الغرب، ببيت الكتروسي وبيت ابن الشارف بمازونة، وفي إقليم الراشدية مثلا كانت علاقة أسرة المشارف بالسلطة حسنة، وبما أنَّ بيوتات المشارف لم تكن لها نفس المكانة العلمية والدينية، فلم تحظ أيضا بنفس المكانة لدى السلطة، وذلك ما يؤكده صاحب " القول الأعم" بقوله:" ولم تتعد الرياسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك، وكانت لهم ولاية في خطط الشريعة أيام الأتراك وأيام ابن عمنا الأمير وغيرهم من أبناء عمهم... بهم لا ظهور لهم معهم"[2].

ورغم ما عرف عليه الباي حسن آخر بايات وهران من تنكيله برجال الدين من علماء ومرابطين فإنه كان يظهر الود للشيخ الطاهر بن عبد القادر المشرفي، حينما كان يُدرِّس بوهران عام 1240هـ/ 1824م، وذلك ما لاحظه أبا حامد المشرفي:" دولة الأتراك فيها محبة العلم حسبما شاهدنا ذلك من قراءتنا بوهران، وقد أدركنا منهم الباي حسن رحمه الله في حدود الأربعين من هذا القرن يحب علماء وقته، وخصوصا حبر المشارف في العلوم ... ابن الشيخ المشرفي سيدي الطاهر"[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 422، 423.

[2]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص، ص: 332، 333.

[3]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 4.

إنَّ الاحترام الذي تظهره السلطة لأبناء البيوتات العلمية سرعان ما كان يختفي عندما يقترب هذا العالم أو ذاك المرابط من أمور الدولة، وقد يدفع العالم حياته ثمنا لذلك كغيره من الناس ولو لمجرد الشك، وذلك ما لاحظه لوجي دوتاسي الذي زار الجزائر في الربع الأول من القرن 18م، وعبر عنه بقوله :" أن الأتراك لم يكن لهم مراعاة لتصنعهم، وكانوا يقتلون المرابطين مثل البقية، عند تدخلهم في أمور الدولة"[1].

ولا يُستثنى من ذلك حتى الموالين لهم من أبناء كبار البيوتات العلمية والدينية، ففي حال تدخلهم في أبسط شؤون الدولة يتعرضون للعقاب كغيرهم، فلا يراع لهم العثمانيين حرمة، ولا يحفظون لهم أبسط الخدمات التي قدموها لهم، فقد رأينا كيف أقدم الداي محمد بكداش على إعدام الأخوين العالمين أحمد بن سعيد قدورة وأخاه علال[2] لتهمة واهية، وفي أوجه شهرة بيتهما. ومن ذلك أيضا ما تعرض له الفقيه ابن عم الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون الذي طلب من الداي شعبان[3] إطلاق سراح بعض المساجين بقسنطينة، وقدم له خمسمائة ريـــال مقابل ذلك، إلا أنّ الداي رفض طلبه، وبعد فترة سجنه هو الآخر، ولم يقبل شفاعة ابن عمه الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون الذي توسط له، وهذا بالرغم من المكانة التي يتمتع بها هذا الأخير [4].

ورغم العلاقة الحسنة التي تربط بيت ابن ساسي البوني بالسلطة، إلا أنَّ الشيخ أحمـــد بن ساسي البوني تعرض في إحدى المرات للإهانة بسبب وشاية بعض معاصريه، وذلك هـــو موضوع مقامته التي تحمل عنوان: "إعلام الأحبار وبعجائب الوقائع والأخبار"، والتي بعـــث بها لصديقه الشيخ مصطفى العنابي بمدينة الجزائر، يستنجد به مما ألم به، وفي هذه المقامة شكا البوني من أزمة حلت به وبصديقه المفتي نتيجة وشاية بعض الخصوم بهمـــا إلى الباشـــا،

---

[1]- Laugier, de Tassy, Histoire de royaume d'Alger, p : 92.

[2]- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص: 70.

[3]- تولى الداي شعبان خوجة في سنة 1100ه/1689م وعزل في السنة نفسها، ثم ولي مرة أخرى سنة 1105ه/1694م، فظل في الحكم حوالي سنة، وتشير إحدى وثائق المحاكم الشرعية إلى أن الداي شعبان كان متزوجا من نفيسة بنت العلامة محمد بن عبد المؤمن. ينظر: م ش علبة 4، وثيقة 17 ؛ De Gonzalez, Essai chronologique, p, p :47,48.

[4]- شذري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات، ص، ص: 108، 174.

فصدّقهم الباشا وعزل المفتي وأساء لابن البوني، وذلك في شهر شعبان من سنة 1106هـ/1694م. ومما ورد في تلك المقامة قوله:" ... فلم نشعر إلا ومكاتب ورادة علينا من جانب الأمير، بعزل صديقنا الشهير من خطة الفتوى مع أنه ذو علم وتقوى، توالت علينا من يومئذ الكروب، وانتهك جنابنا، وضاقت رحابنا، وطالت يد الصائلين علينا، ووصلت شكوتهم إلينا، ومزقوا منا الأعراض[1]".

فهذه البيوتات الثلاث من أكبر بيوتات الجزائر، وقد حظيت بنفوذ واسع، وبمكانة مرموقة في المجتمع، والخاصية المشتركة بين هذه البيوتات أنها كلها تقيم بالمدن، وهذا يعني أن السلطة لم تكن تخش من ردة فعل البيوتات التي تقيم بالمدن، لسهولة السيطرة عليها في حال أن حدث وثارت ضدها. فقد رأينا كيف قضت على ثورة أولاد عبد المؤمن بقسنطينة سنة 1052ه/ أكتوبر 1642م في مهدها رغم أنه من البيوتات العريقة بالمدينة[2].

(2)- علاقة السلطة بالبيوتات العلمية في القرى والأرياف:

كانت علاقة السلطة بالبيوتات التي تقيم في الريف أو في المناطق النائية أكثر تعقيدا مما هي عليه في المدن، و لم يكن للمرابطين وشيوخ الزوايا موقفا موحدا تجاه السلطة، فمنهم من تحالف مع السلطة وساعدها كوسيط فعال، بينما اتخذ بعضهم الآخر موقفا غامضا أو مترددا، وفي حين لم يعترف بعضهم بشرعية سلطة البايليك، سيما الزوايا التي تمركزت في المناطق الجبلية، والبعيدة عن السلطة لأسباب مختلفة يتصدرها العامل الاقتصادي.

فقد كانت علاقة السلطة بالبيوتات البارزة التي تقيم خارج مدينة الجزائر حسنة كبيت ابن مبارك، وكبيت أبهلول المجاجي، وقد توفرت في بيت أبهلول مثلا كل الشروط التي تجعله يظفر بالجاه والرياسة، فالشرف، والعلم، والزهد، ثم خدمة زاويتهم للعلم والتصوف والجهاد، كل هذه العوامل ما اجتمعت في بيت إلا رفعته ومكنته من تبوأ مكانة

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة. ص- ص: 91- 93.

[2] - Mercier Ernest, Histoire de Constantine. P, p :228, 229.

مرموقة لدى الخاصة والعامة، فأما مكانة بيت أبهلول لدى السلطة الحاكمة فيؤكدها المشرفي بقوله:" ولهم حرمة وتعظيم عند ملوك الأتراك "[1].

وكانت علاقة السلطة ببيت أولاد سيد الشيخ حسنة، ومؤسس هذا البيت هو عبد القادر بن بوسماحة المعروف ب" سيد الشيخ" [2]، وهو أيضا مؤسس الطريقة الشيخية[3]، وقد اكتسب سيد الشيخ نفوذا واسعا، وتبعته معظم القبائل في الجنوب الغربي الجزائري وجنوب شرقي المغرب، إنّ جمع سيد الشيخ بين نسبه لأبي بكر الصديق-رضي الله عنه- وبين العلم والصلاح، وتزعمه للطريقة الصوفية، أكسبه مكانة بارزة بين سكان المنطقة، فأصبح ملجأ للمظلوم، ومستشارا وهاديا إلى الخير والوئام لمختلف المتخاصمين[4]، وارتفع بذلك شأن هذه الأسرة فأصبح لها نفوذ واسع[5]، وأسس سيد الشيخ وخلفه من بعده عدَّة زوايا[6].

وبعد وفاة سيد الشيخ توارث زعامة الطريقة أبناؤه وأحفاده، وقد كان لهم مكانة هامة عند سكان المنطقة الجنوبية باعتبارهم مرابطين، ويوكد الرحالة العياشي تلك المكانة بقوله:" ونزلنا بالقُلَيعة، وهي من طاعة سلطان وركلان وبها عامله... وبهذه القرية كان يترل الشيخ الحاج الأبر سيدي أبو حفص بن الولي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة"، مخ. ص: 31.

[2]- أخذ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة (ت1025ه)، يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق، تعلم مبادئ العلوم على يد فقهاء من بني عمومته مثل عمه أبي بكر، وابن عم أبيه سليمان بن أحمد، وأخذ التصوف على عدة مشايخ منهم الشيخ عبد الجبار بفقيك. واستقر بفقيك، ثم انتقل إلى بلدة مغرار، وقام بأسفار كثيرة داخل الجزائر والمغرب. من مؤلفاته :" الياقوتة "، وهي قصيدة يبرز فيها تجربته الصوفية. ينظر: عبد القادر خليفي، الطريقة الشيخية. الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010. ص- ص: 25-29؛ عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 207.

[3]- الطريقة الشيخية هي فرع من فروع الشاذلية، وقد كان سيد الشيخ قادري الطريقة، ثم تحول إلى الطريقة الشاذلية. ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 207.

[4]- كان أتباعها يزورون مقام الشيخ، ويقدمون له الهدايا و" الزيارات". وما يدعى ب"الغفار" سنويا للزاوية الشيخية، فهي تتسلم مختلف التبرعات لتنفقها بدورها في وجوه البر والإحسان. ينظر: عبد القادر خليفي، المرجع السابق، ص، ص: 53، 103.

[5]- عبد القادر خليفي، المرجع نفسه، ص، ص: 29، 30.

[6]- تعد زاوية العُباد بفقيك أول الزوايا التي أسسها سيد الشيخ، إلا أنه اتهم من طرف فقهاء فقيك بالبدعة والزندقة، كما ناصبه ابن أبي محلي الفيلالي العداء وألف عدة كتب حول خلافه معه منها " منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور وراس الفجور" ، ثم أنشأ سيد الشيخ زاوية ببلدة مغرار التحتاني، بالجنوب من مدينة عين الصفراء ب60كلم. ومن أشهر زوايا الطريقة الزاوية التي أسسها أبناؤه بالحاسي الأبيض بعد أن دفن به، والمعلوم أن هذه البلدة حملت اسم " الأبيض سيد الشيخ". ينظر: عبد القادر خليفي، الطريقة الشيخية، المرجع السابق، ص- ص: 25- 29.

بوسماحة... وله حرمة وصيت في هذه النواحي كلها يمّها وصحرائها خصوصا ولده هذا سيدي أبو حفص، فله هدي وسمت حسن وتنسك، مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج... توفي سنة إحدى وسبعين وألف (1660م) "[1].

وقد كان أولاد سيدي الشيخ هم الأسياد في المنطقة الجنوبية خلال العهد العثماني، يمتد نفوذهم من مدينة ورقلة شرقا إلى فقيك غربا، ومن جنوبي سعيدة شمالا إلى شمال الهوقار جنوبا، و لم تكن هذه المنطقة خاضعة فعليا للعثمانيين، إذ كانت شبه مستقلة عن نفوذهم، و لم يتحكموا فيها باستثناء بعض الحملات التي كان يقوم بها بعض البايات من حين لآخر كالباي محمد الكبير فاتح وهران. وقد حظي أولاد سيد الشيخ باعتبارهم أصحاب طريقة دينية وذوي نسب معروف مرتبط بأول الخلفاء الراشدين بكل احترام وتقدير لدى السلطة الحاكمة، كما أعفتهم من دفع الضرائب[2].

– ويمكن أن نورد نموذجا آخر عن علاقة السلطة بالبيوتات الدينية العلمية البارزة بالريف ببيت عبد القادر مصطفى بن مختار زعماء الطريقة القادرية[3]، التي كانت تعاليمها منتشرة بالجزائر، ولكننا لا نعرف أي زاوية خاصة بها، إلى أن أسس الحاج مصطفى الغريسي جد الأمير عبد القادر في سنة 1200ه زاوية القيطنة[4]، وبما أنها اهتمت بالجوانب الدينية فلم يعاديها العثمانيون، بل منحوها الامتيازات، وأعفوها من الضرائب. وقد كان السلطان العثماني حاميا لهذه الطريقة بالمشرق، ولهذا اتصل خير الدين بأتباعها في الجزائر[5].

---

[1]– العياشي، رحلة العياشي، ج1، ص: 67.

[2]– عبد القادر خليفي، الطريقة الشيخية، ص: 67.

[3]– هي أكثر الطرق انتشارا في العالم الإسلامي، تنسب إلى مؤسسها الشيخ محي الدين أبي محمد بن عبد القادر الجيلاني(471–561هـ/ 1078– 1166م)، وهو مولود بجبل أوجلان قرب بغداد. ويعد الشيخ أبو مدين الغوث هو أبرز من نشرها في بلاد المغرب، وهي أيضا أول طريقة صوفية بالجزائر.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 514.

[5]– أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص، ص: 190، 191؛ محمود علي عامر، المرجع في أوضاع المغرب العربي في ظل العثمانيين، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 2005. ص: 106.

وقد كان بايات الغرب يحترمون زعماء القادرية، بحيث ورد في ترجمة صاحب "القول الأعم" للشيخ عبد القادر بن المختار، المعروف بسيدي قادة :" وأجلسته الملوك من آل عثمان على فرشها "[1]، ويروى أن الباي محمد بن عثمان الكبير وهو أشهر بايات الغرب قد أخذ الطريقة القادرية عن الشيخ مصطفى بن المختار، وكان من مريديه[2].

كما أن الباي محمد المقلش ورغم إساءته للكثير من العلماء أثناء حرب درقاوة إلا أنه عفى عن أهل الثائر الشريف الدرقاوي[3] لما لجأوا إلى الشيخ محي الدين بالقيطنة مستجيرين به، وكان العفو عنهم مراعاة لكرامة الشيخ وحفظا لذمته[4]. وقد ساهم بعض رجال الدولة بوهران في بناء مساجد زاوية القيطنة وفي أوقافها، وكانوا يتنافسون بالمزايدة في إنفاق أموالهم على الزاوية[5].

وبعد ثورات الطرق الصوفية في أواخر العهد العثماني، استاءت السلطة من كل رجال التصوف، وشملت نقمتها حتى علماء بيت مصطفى بن مختار زعماء الطريقة القادرية، والذين لم تشر مصادر تلك الفترة إلى ما يدل على تورطهم في تلك الثورات.

فبعد تقارب طويل بين البايليك وبيت مصطفى بن مختار، تغيرت الأمور بينهما، ونلمس هذا التغيير من خلال تجرأ الباي حسن على الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، رغم كونه رئيسا لأكبر زاوية تابعة للطريقة القادرية، فقد كان الباي يتحين الفرصة للإطاحة به وبأسرته، ورغم الاحترام الذي كان الحكام يظهرونه له إلا أنهم كانوا يخشونه، فبعد قضاء الباي على ثورة ابن الشريف الدرقاوي ذهب محي الدين إلى وهران ليهنئه بانتصاره فأكرم نزله وأعظم وفادته، ولما خرج من عنده قال لجلسائه:" نحن لا نخشى من ابن الشريف

---

[1]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 336.

[2]- الطيب بن المختار، المصدر نفسه، ص: 338؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[3]- بعد فشل ثورة ابن الشريف الدرقاوي ظل ينتقل بأهله في النواحي النائية بالجزائر، ثم لجأ إلى جبال بني برناس بالمغرب وأقام هناك إلى وفاته، حينئذ عاد أهله إلى الجزائر. ينظر: عبد القادر الجيلاني، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص: 292.

[4]- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر. ج1، ص: 76.

[5]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 48.

وأمثاله، وإنما نخشى من صولة هذا" مشيرا إلى الشيخ محي الدين[1]. إذ لم يكن الدرقاوي من بيت علمي بارز، وسوف تتأكد هواجس السلطة من مكانة محي الدين من خلال فرضها الإقامة الجبرية عليه، وهو في طريقه لأداء فريضة الحج.

غادر محي الدين وابنه عبد القادر القيطنة في أكتوبر 1823م، وسرعان ما شاعت أخبار حركة محي الدين في إقليم وهران، وبدأ الناس ينضمون إليه حتى بلغ عددهم بالآلاف، "ولم ينفع في صدهم لا العتاب اللطيف ولا الرفض الشديد، ذلك أن محي الدين كان مرابطهم، ورئيسهم وقديسهم" حسب تعبير هنري تشرشل، وفي اليوم السادس من خروجهم من بلدتهم "تجمع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في سهل شلف"، وهناك استدعي محي الدين من طرف الباي حسن بن موسى آخر بايات وهران، ورغم سعي رفاقه لثنيه عن إجابة الدعوة لخوفهم عليه، إلا أنه أجابهم بأن عليه أن يذهب ولو كلفه ذلك حياته[2]، وهذا يدل على مدى طاعة هذا العالم للسلطة الحاكمة.

استقبل الباي حسن الشيخ محي الدين استقبالا وديا، وأخضعه رفقة ابنه عبد القادر لإقامة جبرية بوهران، كان الباي "متأكدا أن أي حركة علنية معادية للرجل ستكون خطرا"[3]، لأنه يعرف جيدا المكانة التي يتمتع بها محي الدين وأسرته في المنطقة، فلجأ إلى أسلوب المراوغة، والتزم محي الدين الطاعة وآثر الانتظار، ولم يقم بأي احتجاج لا هو ولا مريديه وطلابه .

ونظرا للمكانة التي يتمتع بها محي الدين لدى العام والخاص " أسكنه (الباي) بوهران بمنزلة المثقف"[4]، وبعد سنتين من الإقامة الجبرية[5] عرف الباي حماقة مخاوفه فأذن لمحي الدين

---

[1]- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر. ج1، ص: 76، 77.

[2]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص، ص: 65، 66.

[3]- هنري تشرشل، المصدر نفسه، ص: 67.

[4]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 362.

[5]- استغل هو وابنه هذه العزلة المفروضة وكرسا وقتيهما لدراستهما المفضلة. هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 70.

باستئناف حجه، فغادر محي الدين وابنه عبد القادر وهران في سرعة كبيرة عام 1825م، حتى دون وداع الأسرة في القيطنة لكيلا يؤدي ذلك إلى تجمهرات مماثلة لما حدث سابقا[1].

أما تاريخ رحلة محي الدين وابنه للحج ففيه عدة روايات[2]، إذ يذهب يحي بوعزيز إلى أن الإقامة الجبرية امتدت من سنة 1821م إلى سنة 1825م (1236هـ-1241هـ)[3]، وفي حين يذهب هنري تشرشل أنها امتدت من سنة 1823م إلى سنة 1825م[4] .

ويبدو أن إقدام الباي على فرض الإقامة الجبرية على محي الدين وابنه يعود في الأساس إلى الهواجس التي خلفتها ثورات الطرق الصوفية في نفوس العثمانيين. ويشير يحي بوعزيز إلى أن فرض الإقامة الجبرية عليه كان لوشاية من طرف خصومه لما عرف عنه " بمقاومته لسياسة الظلم والقسوة" ولهذا نقله إلى وهران ليكون تحت رقابته الفعلية[5]، إلا أنه لم يوضح كيف كان يقاوم سياسة الظلم.

ويذكر أبا حامد المشرفي رواية مفادها أن :" الأتراك (كانوا) يتلمحون فيه المهدوية المنتظرة، شد -رضي الله عنه- الرحلة للحجاز يغنم حجة التطوع فتبعته الحواضر والبوادي، وبنت فساطيطها في محلته، وجندت عليه الجنود في حلته ورحلته ففزعوا من ذلك، وخافوا منه فردوه عن وفاء مراده، ولما انصرف الناس عنه جاءوا به من زاويته وعقلوه بوهران"[6].

---

[1]- هنري تشرشل، المصدر نفسه، ص: 70.

[2]- ورد في مذكرات الأمير (ص:106، 107) أنّ انتهاء الإقامة الجبرية وانطلاقة رحلة الحج من وهران كان في شهر شعبان من عام 1230ه/ 1814م.

[3]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 245.

[4]- هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر. ص، ص: 65، ص: 70.

[5]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج2، ص: 245.

[6]- أبو حامد المشرفي، "ذخيرة الأواخر"، مخ؛ نقلا عن: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص: 388.

والأسباب التي يشير إليها هنري تشرشل هي الأقرب إلى الصواب بقوله:" إنَّ تجمهر العرب الغريب وغير العادي حول محي الدين قد أنذره بالخطر، لقد كان يعلم ويكره الشعبية التي يتمتع بها المرابط... وكان متأكدا أن أي حركة علنية معادية للرجل ستكون خطرا [1].

ويشير السيد السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي الدحاوي في أحد أبيات قصيدته النونية التي نظمها في محي الدين، أن ذلك لم يكن نتيجة خطأ اقترفه محي الدين[2]:

لم يشتكوك أمحي الدين عن زلة رأوا ولكن أشقى القوم شيطان

إنَّ فرض الإقامة الجبرية على محي الدين وابنه عبد القادر على قساوتها، تعد أخف ضررا من التصفية الجسدية التي تعرض لها العديد من رجال الدين الفقهاء والمرابطون، وهنا يكمن الفرق في طريقة تعامل السلطة مع البيوتات البارزة في المدن والأرياف، فقد نكل حسن باي بالعديد من العلماء، وقتل عدد منهم لمجرد الشك، وكان بإمكانه أن يلفق تهمة من أي نوع للشيخ محي الدين كما فعل بعلماء آخرين في المدن وحتى في الأرياف، ولكن نفوذ محي الدين وسطوته يجعلاه يتريث قبل أن يقدم على أية خطوة قد تكون عواقبها وخيمة، فقد تندلع ثورة كرد فعل لو أقدم الباي على أذية الشيخ وابنه.

لقد كان سفر محي الدين وابنه من وهران مع "كبار دولتها" في ركب مرونق اللباس حسبما ورد في "مذكرات الأمير"، وقد حظوا في رحلتهم هذه بتقدير كبير من طرف رجال الدولة في البلدان التي دخلوا وحلوا بها، وهذا يدل على مدى شهرة ومكانة محي الدين وأسرته، كيف لا وهو الممثل الأول للطريقة القادرية بالجزائر، من ذلك التعظيم والتبجيل الذي أحاطهم به أهالي تونس والقاهرة وعلمائهما وأرباب دولتهما، وعبر الأمير عبد القادر عمَّا شاهده من تقدير العلماء ورؤساء الدولة بالقاهرة لوالده بقوله:" وشاهدت من برهم بالوالد وأدبهم معه، وإعظامه والتنويه به ما يزهي الناظر"[3].

---

[1]- هنري تشرشل، المصدر السابق، ص: 67.

[2]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 362.

[3]- مذكرات الأمير عبد القادر، مواضع متفرقة: ص، ص: 106، 107، 108- 109، 111.

استغرقت رحلة الحج أكثر من عامين[1]، بحيث عاد محي الدين ومرافقيه إلى القيطنة أوائل عام 1243هـ/ 1828م[2]، فعمت الأفراح المنطقة، وحضر الضيوف من كل الطبقات والدرجات[3]. وفي مذكرات الأمير عبد القادر:" وجاء الناس والتلاميذ والإخوان وخدام الزاوية

القادرية من كل ناحية تحية لنا وسلاما، وتبركا بذلك، وإعظاما "[4].

وهكذا فرغم المكانة التي تمتع بها هذا البيت إلا أننا لم نشهد له أي دور سياسي بالمعنى الحقيقي، ولكن اختلف الأمر بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، إذ قام بدور جليل في مدافعة المحتل الفرنسي.

– المبحث الثاني: علاقة بيت ابن القاضي وآل المقراني ببلاد زواوة بالسلطة

بالتحاق الجزائر بالدولة العثمانية عمل حكام الجزائر الجدد، وفي مقدمتهم خير الدين بربروس على الجهتين الخارجية والداخلية، فأما الجبهة الخارجية فتمثلت في تكثيف الجهود لرد العداون الأوربي على الجزائر، أما الجبهة الداخلية فتمثلت في السعي لتوحيد السلطة السياسية بالجزائر[5]، وذلك ما أشار إليه خير الدين في مذكراته بقوله:" لم يكن ثمة شك في أن أكبر أعدائنا هم كفار إسبانيا... إلا أننا منذ استقرارنا بالجزائر كنا مضطرين إلى الانشغال بالأمراء المحليين وأشباههم في الجزائر وتونس والمغرب..." [6].

---

[1]– وفي مذكرات الأمير:" كان وصولنا في العام الثالث من ابتداء السفر"، وفي الصيفية التي أعقبت ارتياحا ظهر الكلام بين باشا الجزائر والفرنسيين في قضية المروحة. ينظر: مذكرات الأمير، ص:137.

[2]– هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 69 ؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 246.

[3]– شارل هنري تشرشل، المصدر نفسه، ص، ص: 71، 72.

[4]– الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، ص:137.

[5]– عرف المغرب الأوسط في مطلع القرن 10ه (ق16م) تفككا سياسيا كبيرا، وهو ما عبر عنه بعض المؤرخين" بالفسيفساء السياسية"، وقد آلت المنطقة لهذا الوضع نتيجة لضعف الزيانيين والحفصيين، فقد أدت الحروب التي كان المغرب الأوسط مسرحا إلى انفصال العديد من القبائل وظهور إمارات ترفض الخضوع لأية سلطة مركزية، تغذيها قوة الروابط القبلية التي كانت لا تزال تطبع المجتمع المغربي. ينظر: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 9.

[6]– خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ص: 98.

وعلى الرغم مما ذكره خير الدين في مذكراته :" استطعنا أن نوحد إمارات وقبائل هذا البلد الكبير..."[1]، إلا أنَّ العثمانيين فشلوا في إخضاع بعض الإمارات التي كانت قائمة من قبل[2]، كما شهد عهدهم بروز زعامات محلية جديدة تتزعمها بيوتات متنفذة، وأقواها إمارتي -أو كما كانتا تعرفان بمملكتي-كوكو وبني عباس ببلاد زواوة.

استطاع بيت ابن القاضي وبيت العباس تكوين إمارتين محليتين مستقلتين عن السلطة الجديدة المتمركزة بمدينة الجزائر، وقد كانتا تتشكلان من اتحادات قبلية. وقد ظلتا مستقلتين خلال القرنين 16 والقرن17م، وقد قام العثمانيون بإذكاء المنازعات بينهما لإضعافهما، وذلك ما تحقق بالفعل مع نهاية القرن17م، فعوضت بتحالفات قبلية ذات نفوذ مرابطي كما سنرى[3].

وتعبر هاتين الإمارتين عن قوة ونفوذ بعض البيوتات العلمية والدينية التي استطاعت أن تلعب دورا سياسيا مهما من خلال تكوينها أسرا محلية حاكمة، وذلك ما يؤكده منور مروش بقوله :" إن هذه الأسر الحاكمة محليا كان كثير منها مثل أحفاد بن القاضي والمقراني تنتمي إلى بيوت العلم[4]".

نشأت إمارتي كوكو وبني عباس بعد الاحتلال الإسباني لبجاية عام 915ه/1510م[5]، على يدي شخصيتين مهمتين كل منهما سليل بيت عريق، هاتان

---

[1]- مذكرات خير الدين بربروس، ص: 101.

[2]- نجح العثمانيون في القضاء على بعض المشيخات كإمارة الثعالبة بمدينة الجزائر، في حين فشلوا في القضاء على أخرى كإمارة بنو جلاب في تقرت، التي نشأت في القرن 9ه (14م)، وأول سلاطينهم هو الحاج سليمان المريني الجلابي، وكانت المناطق المحيطة بها على مسيرة 3 أيام أو 4 كلها تابعة لها، وتؤدي لأميرها الجباية خلال القرن 16م. وقد حاول العثمانيون إخضاعها للسلطة المركزية، وقاد صالح رايس حملة باتجاه الجنوب، وذلك في أكتوبر 1552م، " أرغم قادة توقرت وورقلة على أداء الجزية"، ولكن إمارة بني جلاب عاشت ردحا من الزمن بعد التحاق الجزائر بالعثمانيين. ينظر: يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس، ص: 153؛ صالح عباد، الجزائر تحت الحكم التركي، ص، ص: 9، 10.

[3]- حول نفوذ المرابط لدى سكان القبائل الجزائرية ينظر: حمدان خوجة، المرآة، ص، ص: 18، 19.

[4]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة، الأسعار والمداخيل)، ج1، ص: 330.

[5]-رغم انزال الإسبان لقواتهم ببجاية في جانفي 1510م بقيادة الكونت بطرس النفاري، إلا أن المقاومة التي تلقوها من طرف أهالي المنطقة بزعامة أفراد الأسرة الحفصية الحاكمة ببجاية، أخرت استيلاءهم عليها إلى 05 صفر 915ه/ ماي 1510م. ينظر:
C .Féraud, Conquête de Bougie , In **R. A**, N° : 12, Année : 1868. P :255 .

الشخصيتان هما: الشيخ أحمد بن القاضي، والعباس بن السلطان عبد العزيز. فالأول هو سليل بيت ذا صيت في القضاء اشتغل لدى سلاطين بجاية، والثاني بصفته ابنا لآخر سلاطين بجاية، فمعرفتهما بتسيير شؤون الرعية ساهمت كثيرا في قيام المملكتين[1].

فأمَّا إمارة كوكو فمنشأها بيت علمي محض، وأما إمارة بني عباس فمنشأها بيت سياسي، وقد ظلت قائمة لمدة طويلة، ولما ضعف هذا البيت وأوشك على فقد زعامته السياسية، برز مرة أخرى في صيغة جديدة، وذلك منذ اشتهر أحد أبناءه بالفقه والصلاح، وحمل البيت اسم مؤسسه الجديد المقراني، وهكذا يظهر آل المقراني، وهو بيت من المرابطين يتمتع بنفوذ وقوة حربية كبيرة، وذلك ما أهله للقيام بدور سياسي مهم في بايليك الشرق عموما وببلاد زواوة خصوصا.

(أولا)- علاقة بيت ابن القاضي أصحاب إمارة كوكو بالسلطة:

استغل الشيخ أحمد بن القاضي الفراغ السياسي في جبال جرجرة إثر سقوط بجاية بيد الإسبان عام 915ه/ 1510م[2]، وأنشأ الإمارة التي عرفت باسم مملكة أولاد القاضي، أو باسم مملكة كوكو نسبة لعاصمتها[3]. معتمدا في ذلك على قوة شخصيته، وعلى وجاهته المستمدة من عراقة أسرته، فهو من أعيان بيوتات الجزائر الساكنة ببلاد زواوة [4]. وبيت أولاد القاضي ذا صيت في القضاء، حظي لأجيال عديدة بمنزلة رفيعة في المملكة الحفصية ببجاية[5].

لم يحد أحمد بن القاضي مؤسس مملكة كوكو على طريق أسلافه، فاشتغل قاضيا لدى السلطان عبد العزيز آخر سلاطين بجاية[6]، ولَّما استولى الإسبان على بجاية، لعب دورا مهما

---

[1]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص: 145.

[2]-Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger. P :101.

[3]- يبدو أن المحرك الأساسي في جمع السكان حول مؤسسها هو رفع لواء مقاومة الإسبان، وقد عاشت هذه الإمارة عشرات السنين في صراع مع الإسبان. ينظر: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 34.

[4]- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص: 47.

[5]- ينظر بيت ابن القاضي في المبحث الخاص ببيوتات بلاد زواوة ضمن الفصل الثاني من الباب الأول.

[6]- كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر. ص: 26، 27.

في الأحداث التي عرفتها المنطقة، فانحاز إلى جانب الأمير العباس – بعد وفاة والده السلطان عبد العزيز– في صراعه مع عمه أبا بكر صاحب قسنطينة، وقام بدور المفاوض مع رفادينا، وهي المفاوضات التي أسفرت عن إبرام معاهدة 1511م بين العباس وملك اسبانيا[1].

وخلال هذه الفترة تمكن أحمد بن القاضي[2] من تأسيس إمارة بجبل كوكو[3]، وكانت سلطته تمتد على الأراضي الواقعة بين عنابة والقالة، ثم وسع نفوذه غربا، بضم الأراضي الممتدة من جيجل إلى جرجرة (وسط القبائل الكبرى حاليا)، لكن نفوذها لم يتجاوز منطقة بلاد زواوة الجبلية[4]. ومنذ تأسيس هذه الإمارة انقسمت هذه البلاد إلى إمارتين متزاحمتين مفصولتين بواد ساحل أو بجاية (واد الصومام)، وتقع إمارة كوكو شمال هذه المجاري المائية، في حين تقع إمارة بني العباس جنوبها [5].

توطدت العلاقة بين الشيخ أحمد بن القاضي وبين عروج بربروس[6]، خلال المعارك التي خاضها السكان المحليين والإخوة بربروس لطرد الإسبان من بجاية[7]، ولما بعث سكان مدينة الجزائر سنة 1516م إلى الإخوة بربروس يلتمسون منهم تخليصهم من صخرة البانيون التي شيدها الإسبان على جزر صغيرة في واجهة مدينتهم، أجاب عروج هذه دعوتهم فاتجه نحو الجزائر مع رجاله، بالإضافة إلى جيش يتكون من عدد كبير من رجال البربر يتزعمهم

---

[1]– يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص– ص: 110– 115.

[2]– كان ذلك خلال الفترة الممتدة من917ه– 920ه /1511م إلى 1514م. .

[3]– استمد جبل كوكو اسمه من قرية كوكو إحدى قرى بني يعلى، وهو من الجبال المتصلة بالأطلس الكبير، وهو جبل عال، شديد الوعورة، يبعد عن بجاية ب15 فرسخا من جهة الشرق. ينظر: مارمول كاربخال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون. الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع. 1989. ج2، ص: 374. ويحدد عبد الرحمن الجيلالي (تاريخ الجزائر العام.ج3، ص: 48) موقعه كالتالي: يقع جبل كوكو عند منابع واد سبأ، وبالسفوح الشرقية لجبال جرجرة، أي على نحو ثمان كيلو مترات شرقي عين الحمام.

[4]– صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 34.

[5]– يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص: 111.

[6]– حسب المريني فإن الذي استدعى الإخوة بربروس هو الأمير أبو بكر ليمدا له يد العون في مسعاه في استعادة بجاية، بعد أن استخدم كل طاقاته دون جدوى في طرد الإسبان. ينظر: Féraud, Conquête de Bougie , P :253.

[7]– بدأت العلاقة بين أحمد بن القاضي وعروج منذ حصارهم الأول لبجاية سنة 1512م، فتكونت بينهما صداقة متينة، واشتركا في المحاولة الثانية لفتح بجاية عام 1514م، ولما رفعا الحصار عن بجاية التجآ إلى جيجل وعاشا بها معا. ينظر: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 45.

أحمد بن القاضي[1]، وفي هذا الوقت كان خير الدين قد منح أحمد بن القاضي لقب الخليفة أو "قائدا على عمالة الشرق[2]".

ونسجل سنة 1520م حدثا قلب موازين الأمور، وهو تحالف ابن القاضي مع سلطان تونس ضد خير الدين[3]. وعلى الرغم من إجماع الروايات التاريخية [4] على انقلاب أحمد بن القاضي على خير الدين ومناصبته العداء، إلا أن خير الدين ينفرد برواية مفادها أن الذي انقلب عليه هو ولد أحمد بن القاضي وليس هو، وهذه عباراته:" كان ابن القاضي أحد عظماء العرب بالجزائر، كما كان يُكِّنُ لي قدرا كبيرا من الصدق والمودة... الآن توفي هذا الرجل العاقل، وحل محله ولد طائش يدعى ابن القاضي أيضا، فكان أول ما فعله أن اتفق مع سلطان تونس على أن يكونا يدا واحدة ضدي "[5].

وسواء كان الذي انقلب على خير الدين هو ابن القاضي أو ابنه، فقد اجتمع حوله عدد كبير من الناس، هذا في الوقت الذي " كانت حركات العصيان تتوالد في الجزائر" [6]. وبعد معارك عديدة تمكن أحمد بن القاضي من إلحاق هزيمة منكرة بخير الدين في معركة قرب يسر سنة 1520م، واضطره إلى الانسحاب من مدينة الجزائر، واللجوء إلى جيجل التي سيحررها من الجنويين لاحقا[7]. وبعد ثلاث سنوات أقام خلالها خير الدين بجيجل، عاد إلى مدينة الجزائر بعد قضاءه على ابن القاضي في احدى المعارك[8]، واصل الحسين شقيق أحمد بن

---

[1]- يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص: 113، 114.

[2]- لا شك في أنه منحه هذا المنصب مكافأة له لمناصرته لهم خلال المعارك التي وقعت حول السيادة على البلاد الداخلية، وتحدثنا كورين شوفاليه في هذا الصدد قائلة:" تمت ترقيته (أحمد بن القاضي) إلى رتبة خليفة في المنطقة الممتدة من الصحراء إلى جيجل". ينظر: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر. ص، ص: 26، 27.

[3]- لا تزال أسباب انقلاب ابن القاضي على خير الدين غامضة، وقد حاول العديد من الباحثين الوقوف عليها ومناقشتها ومنها: اتهام خير الدين لابن القاضي بقتل أخيه عروج، وجشع جيوش العثمانيين، والتصفيات الجسدية. ينظر: بنوجيت، قلعة بني عبـــاس، ص: 122؛ كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 36، 37.

[4]- من هذه المصادر: ابن عسكر، دوحة الناشر، ص: 114.

[5]- خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ص: 109.

[6]- خير الدين بربروس، المصدر نفسه، ص: 111.

[7]- يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص: 133.

[8]- خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص- ص: 125- 127.

القاضي وخليفته الحرب مع خير الدين لمدة سنتين، وانتهى هذا القتال باعتراف الحسين بالهزيمة، وإجباره على دفع ضريبة سنوية مقدارها ثلاثين كيسا من الفضة[1].

وبعد مضي حوالي ثلاثة أشهر على النصر الذي أحرزه خير الدين على الإسبان واستيلاءه على حصن البانيون في 27 ماي 1529م أبرم معاهدة في سبتمبر 1529م مع زعماء بني عباس وكوكو[2]. فهل كانت مشاركة هاتين الشخصيتين إلى جانبه هي التي أدت إلى إبرام هذه المعاهدة، أم أنَّ النصر الذي أحرزه على المسيحيين هو الذي دفع الزعيمين لتسوية علاقتهما بالعثمانيين، وتقبل الأمر الواقع، وهو قيام مملكة خير الدين خارج حدودهما؟ وتم بموجب هذه المعاهدة الاعتراف لهما بالسيادة على أراضيهما. ويبدو أن هذه المعاهدة لم تلزمهما بدفع الجزية[3].

وتشهد بداية ولاية صالح رايس أيالة الجزائر عام 1552م، تغير في العلاقات، فتتحسن علاقة السلطة بأصحاب كوكو وتسوء علاقتها مع بني عباس فيتحالف صالح رايس مع هؤلاء ضد أولئك، لم يتمكن صالح رايس من إخضاع بني عباس في بلاد زواوة، إذ ثاروا ضده بعدما آزروه في غزو الجنوب، وكسب خصومهم في كوكو، وشكل منهم خيالته أثناء حملته على المغرب الأقصى[4].

أصبحت قوة عبد العزيز صاحب قلعة بني عباس هاجسا يقلق صالح رايس فوجه له عدة حملات شارك في الثانية منها أمير كوكو بجيشه، وهي التي وقعت سنة 1553م، وقد أسفرت عن هزيمة شنيعة للعثمانيين، ولهذا قرر صالح رايس مهاجمة الحامية الإسبانية القابعة

---

[1]- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص: 45.

[2]-Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger. P :46

[3]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص، ص: 138، 139، 143.

[4]- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 75.

ببجاية، وتوصل بمساعدة جنود إمارة كوكو إلى دفع قائدها دون لويس دي بيرالطا (Don louis de beralta) إلى الاستسلام في جوان 1555م [1].

ظلت العلاقة حسنة بين السلطة وأمير كوكو، ولذلك أبرم حسن باشا بن خير الدين معاهدة مع أحمد أمقران بعد 1559م لم يفرض عليه بموجبها أية الجزية[2]، وتوثقت العلاقة أكثر بمصاهرة حسن باشا لأسرة ابن القاضي أصحاب كوكو [3].

وستشهد فترة حكم علج علي – التي تبتدئ في مارس 1568م وتستمر لستة أعوام– نهاية الدولة الحفصية، إذ توجه سكان تونس إلى علج علي مبدين رغبتهم في التخلص من ملكهم، فتوجه إليهم سنة 1572م[4] على رأس جيش يتكون من عثمانيين وجزائريين، يذكر هايدو في هذا السياق:" سيشارك ستة آلاف مغربي تابعين لكل من ملك كوكو والعباس، وكذا زعماء آخرين"، وتمكن من الاستيلاء عليها في مدة قصيرة من الزمن [5].

وقد عرفت هذه الإمارة تطورات مهمة منذ الربع الثاني من القرن السابع عشر، بحيث نقلت عاصمتها من كوكو إلى أورير في بني غبري، وقد أخذت في ضعف مستمر، لا سيما بعد انقسامها إلى صفين دخلا في صراع بينهما، فلم تعد هذه الإمارة تسيطر إلا على أعالي سيباو وقبائل الساحل البحري[6]. وفي سنة 1624م غزى العثمانيون سلطنة كوكو بقيادة خسرو باشا فهزموها، ثم انسحبوا منها لقبول صاحبها بدفع إتاوة ثقيلة[7]. واعتمد العثمانيون في المنطقة على شيخ قبيلة غشتولة الشيخ محمد قاسم في أقصى غرب جرجرة[8].

---

[1]– (هايدو، تاريخ ملوك الجزائر، ص– ص: 99– 101)؛ عقيل لطف الله نمير، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق: منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 2008.ص: 83.

[2]– يوسف بنوجيت، المرجع السابق، ص: 169

[3]–Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger. P: 129 .

[4]– بعد عام استولى عليها الدوق خوان النمساوي لحساب العرش الإسباني، ثم سيشن علج علي حملة ثانية، ليصبح حاكما عليها في 13 سبتمبر 1574م.

[5]–Diego de Haedo, Op.cit. P–p:155 –157.

[6]– صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 113.

[7]– يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص: 198.

[8]– صالح عباد، المرجع السابق، ص: 113.

ظلت إمارة أو مملكة كوكو حتى في عصر ازدهارها مجرد قرية ريفية يقطنها 1600 نسمة، إلا أن عوامل مختلفة مكنتها من الصمود أمام قوة العثمانيين أهمها: حصانة موقعها، فهي تجثم على سفوح الصخور التي سهلت عملية الدفاع عنها، وهي أيضا مجهزة بجيش مهم، وبحوزتها سلاح معتبر يكفي لتثبيت النظام في الداخل، وشن الحملات في الخارج[1].

لقد ضعفت إمارة كوكو بانقسام بيت ابن القاضي، وفقدت أهميتها منذ نهاية القرن 17م، إلا أن أبناءه ظلوا يتمتعون ببعض النفوذ في المنطقة، من ذلك ما ذكره الورثيلاني عن أحد زعماء هذه الأسرة :" ونزل عندنا المعظم سيدي محمد بن القاضي الشريف سلطان زواوة، وعاهدنا على الحج ومشى معنا ثم مات رحمة الله عليه بعد خروجنا من المدينة المشرفة... شهر محرم سنة ثمانين ومائة وألف (1766م)"[2].

كانت أولية أسرة ابن القاضي وبدايتها علمية، واستمر العلم فيها لقرون عدة، وحتى مؤسسي هذه الإمارة هم من رجال العلم، إلا أنهم تحولوا إلى زعماء عسكريين وسياسيين، ولكن ليس لدينا أخبار عن فقهاء وعلماء من هذا البيت خلال العهد الذي ندرسه. وقد حدث العكس في إمارة أو بيت بني عباس، إذ تحولوا من زعماء سياسيين إلى زعماء دينيين، فسمحت لهم السلطة العثمانية بالبروز من جديد، وتمتعوا بنفوذ كبير في المنطقة كما سنرى.

(ثانيا)– علاقة آل المقراني بالسلطة:

(أ)– إمارة بني عباس:

شُيِّدت قلعة بني عباس إثر الاحتلال الإسباني لبجاية في عام 1510م، إذ أجبر الأميران عبد الرحمن والعباس ابنا السلطان أبي العباس عبد العزيز– آخر الأمراء الحفصيين ببجاية– على الانسحاب من مدينتهم، والتوجه نحو الموقع الذي سيغدو فيما بعد قلعة بني عباس، والتي آوت السكان الفارين من بجاية بعد نكبتها[3].

---

[1]– كورين شوفالييه، الثلاثين سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 37.

[2]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص:28.

[3]– يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص، ص: 16، 22، 62، 65.

كانت قلعة بني عباس[1] تعرف بقلعة وانوغة[2]، ثم أخذت اسمها الجديد من الأمير العباس بن السلطان عبد العزيز، وأما اختيار الأميران لقلعة وانوغة مقرا جديدا لهم فليس اعتباطيا، إذ نصبت القلعة في موقع وعر، في أعالي سلسلة جبال وانوغة المعروفة بالبيبان، ويشكل هذا الموقع مقرا دفاعيا حقيقيا، لوقوعه في قمة صخرة يصعب الاهتداء إليها، إذ ليس لها إلا مدخل واحد، مما يسهل على جيش قليل العدد حراستها[3].

لقد حمل القسم الشمالي من جبال وانوغة اسم جبال البيبان خلال القرن العاشر الهجري (القرن16م)، نسبة إلى مضيق باب الحديد الذي يحرسه بنو عباس، وذلك للحماية المشددة لبني عباس لهذه الجهة، مما جعلها ممرا صعبا للعثمانيين الذين يرفضون دفع حق العبور المفروض عليهم[4].

وللمنطقة التي تقع فيها القلعة مزايا أخرى إلى جانب كونها محصنة، فهي نقطة التقاء طرق المواصلات الأساسية قديما، لقربها من منطقة العبور: مدخل البيبان الذي يهيمن على طريق المواصلات (شرق- غرب) و(شمال-جنوب) المؤدية إلى بجاية[5]. ومما كان له الأثر الكبير في قوة بني عباس بالإضافة إلى ما ذكر صناعتهم الأسلحة النارية (بنادق الفتيلة)، وقد اشتهروا بها لأمد طويل وإلى غاية الاحتلال الفرنسي.

لقد امتد نفوذ إمارة بني عباس من جنوب جرجرة إلى الحضنة، كما أنَّ سكان البويرة ومسيلة كانوا يؤازرون العباس باعتباره الوريث الشرعي لعرش أبيه[6]. أما بدايتها فكانت

---

[1]- عرفت بقلعة وانوغة نسبة جبال وانوغة حيث تقع، ورغم اشتهار هذه السلسلة الجبلية بالبيبان منذ القرن 16م، إلا أنها ظلت وإلى غاية الاحتلال الفرنسي تعرف أيضا بجبال وانوغة. ينظر: بنوجيت، المرجع السابق، ص، ص:52، 53.

[2]- ظلت القلعة عاصمة هذه الإمارة قائمة إلى غاية بداية القرن 17م حين نقلت العاصمة إلى مجانة، ورغم ضغوط العثمانيون فإن الإمارة ظلت قائمة إلى أن انتقض المقراني على الفرنسيين سنة 1871م. ينظر: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص،ص: 33، 34.

[3]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص:52.

[4]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص:63.

[5]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص، ص: 22، 158.

[6]- بنوجيت، المرجع نفسه، ص:128؛ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص، ص: 33، 34.

بعد وفاة السلطان عبد العزيز صاحب بجاية، إذ بايع الشيوخ الحفصيون[1] العباس أصغر أبناءه، الذي بدأت علاقته مع العثمانيين منذ حوالي 1520م، وهي السنة التي توترت فيها العلاقة بين ابن القاضي وخير الدين، مما اضطر هذا الأخير إلى الانسحاب من مدينة الجزائر[2]، و لم

يعد إليها إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وذلك بفضل مساعدة بني عباس له [3]. ولما عزم خير الدين على طرد الحامية الإسبانية القابعة على صخرة البانيون وقف إلى جانبه ملكي كل من بني عباس وكوكو، وفعلا افتكها من الإسبان في 27 ماي 1529م، وفي شهر سبتمبر من السنة نفسها أبرم معاهدة معهما[4].

لقد أثرت هذه المعاهدة على العلاقات بين السلطة وبني عباس خلال ثلاثة قرون من التواجد العثماني بالجزائر، سيما في السنوات الأولى لإبرامها بحيث كانت العلاقة التي جمعت بني عباس بالحكومة المركزية الجديدة تبدو علاقة تعاون، تجسد ذلك في عدم حدوث خلاف بينهما خلال الفترة التي تفصل بين عودة خير الدين إلى جيجل عام 1520م، وبين قدوم صالح رايس 1552م.

ورغم ظهور قلعة بني عباس خلال هذه الفترة كمملكة إلا أن عبد العزيز بن العباس هو الذي سيحمل لقب السلطان، أما والده العباس الذي كان المؤسس الفعلي للقلعة، فلم يكن له نصيب من ذلك، والأمر نفسه بالنسبة لأعقابه. ويبدو أن عبد العزيز نال لقب السلطان بسبب إنجازاته وانتصاراته في تلك الفترة، وكذا بالنسبة لأحمد أمقران الذي خلف أخاه السلطان عبد العزيز سنة 1559م، إذ لم يُعرف سوى بأمقران، فالقلعة تخلت إذن عن

---

[1]- قتل السلطان عبد العزيز في المعركة التي خاضها ضد أخيه أبي بكر صاحب قسنطينة، وخلفه ابنه الأصغر العباس، إذ بايعه مشايخ العرب بدلا من عمه قاتل أخاه. ويعطينا بنوجيت (قلعة بني عباس) تاريخان مختلفان تماما لوفاته الأول في نهاية ماي ومطلع جوان 1510م (ص: 75)، والثاني أوت 1512م. (ص: 107).

[2]- صالح عباد، المرجع السابق، ص: 50؛ كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 43.

[3]- انسحب خير الدين إلى جيجل، وأخذ يعيد بناء قوته من جديد. وقد مكث ابن القاضي أكثر من ثلاث سنوات بمدينة الجزائر. ينظر: مذكرات خير الدين بربروس، ص- ص: 125- 127؛ ينظر: كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 44.

[4]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص:138.

نعوت الملك بعد خمسين سنة من تأسيسها، وبعد سنة 1624م التي شهدت وفاة سي الناصر طغى نظام الحكم عن طريق الجَمْعَة، ليتقلص نفوذ آل المقراني تحت ضغط بعض بايات قسنطينة [1].

يسجل خلال هذه الفترة وقوف بني عباس إلى جانب السلطة في عدة مناسبات، من ذلك مساعدتهم في الحملة على تلمسان بعدد كبير من الرجال[2]، وهي الحملة التي ستسفر عن نهاية الدولة الزيانية في تلمسان إلى الأبد، وإلحاق أراضيها بممتلكات دولة الجزائر.

ولَّما عين صالح رايس على رأس أيالة الجزائر ابتداء من سنة 1552م واجه تمردا في الجنوب إثر رفض ملكي توقرت وورقلة الاعتراف بسلطته، فقاد ضدهما حملة في أكتوبر 1552م، وبمقتضى المعاهدة التي تربط بني عباس بالعثمانيين شارك السلطان عبد العزيز في هذه الحملة بعدد كبير من رجاله، وحسب مارمول فإن العثمانيين ما كانوا يجرؤون على القيام بتلك الحملة لولا معونة قبائل بني عباس. لكن بعد هذه الحملة تدهورت العلاقات بين صالح رايس وبني العباس[3]، فكان ذلك فاتحة العداء الذي سيستمر طيلة حكم صالح رايس باشا، وهكذا انتقض الميثاق الذي كان بين بني عباس والعثمانيين سنة 1529م. وبالمقابل تمكن صالح رايس من كسب خصومهم أصحاب كوكو[4].

لقد أنفذ صالح رايس ثلاث حملات لبني عباس، هزمت جيوشه فيها كلها، حدثت الحملتان الأولى والثانية في سنة 1553م، في حين حدثت الحملة الثالثة في سنة 1554م[5]. وعلى الرغم من مشاركة أصحاب كوكو في الحملة الثانية ضد بني عباس، إلا أنهما أبرما حلفا بينهما حوالي سنة 1553م. وبعد هذه الهزائم المتوالية التي مني بها صالح رايس أمام بني

---

[1]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس، ص: 139، 140، 146؛ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص:108.

[2]- مارمول كربخال، إفريقيا، ج2، ص:385.

[3]- يرجع البعض أسباب تدهور العلاقة بينهما إلى القسمة غير العادلة للغنائم، وحسب كربخال (إفريقيا، ج2، ص:386) فإن حسان باشا، هو الذي ألب صالح رايس ضد السلطان عبد العزيز، وقد حصلت عداوة بينهما أثناء عملية ضم تلمسان.

[4]- مارمول كربخال، إفريقيا، ج2، ص- ص:386.

[5]- مارمول كربخال، المصدر نفسه، ج2، ص- ص:387- 389؛ يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس، ص- ص: 157- 159.

عباس قرر مهاجمة الحامية الإسبانية القابعة ببجاية، وتوصل بمساعدة جنود مملكة كوكو إلى غزوها، وإلى استسلام دون لويس دي بيرالطا، وذلك في جوان 1555م[1].

كانت مدينة بجاية خلال العهد العثماني تعرف تدهورا كبيرا بدد أمجادها الماضية، فلم تكن في الربع الأخير من القرن 17م حسب شوفاريي دارفيو الذي زارها سنة 1674م سوى قرية بائسة، يقطنها ما بين 500 إلى 600 ساكن، وتتكون حاميتها من 150 جندي، بعثوا من الجزائر، ولا يغادرها هؤلاء خشية أن يقضي عليهم البربر[2].

وبعد وفاة صالح رايس وابتداء من عام 1556م، وفي السنوات الأولى للعهدة الثانية لحسن بن خير الدين الذي وصل إلى الجزائر في جوان 1557م، هدأت الأحوال بالقلعة إذ سويت العلاقة بين حسن بن خير الدين وبني عباس في غضون سنة، وتجددت عرى الصداقة التي جمعته بهم لذكرى كفاحهما واحتراما لميثاق 1529م. وكان عبد العزيز هو المبادر لذلك إذ بعث بهدية نفسية لحسن بن خير الدين[3].

ولما اشتد ساعد حسن الباشا بفضل الانتصارات التي حققها في الغرب الجزائري[4]، أخذ يسعى إلى التخلص من أي سلطة منافسة للسلطة المركزية، ولهذا استأنفت العداوة مع بني عباس، وستكون مسألة الحدود سببا في هذه العداوة، إذ يصر حفيد سلطان بجاية على استعادة الأراضي التي كانت تشكل جزءا من مملكة بجاية، فخرج بجيشه لجمع الضرائب من القبائل المجاورة في المسيلة والتابعة مباشرة للسلطة المركزية، استنكر الباشا لمثل هذا الادعاء فخرج في جيش لمقارعته[5].

---

[1]-Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger. P-p: 99-101 .

[2]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس. ص: 161.

[3]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص- ص: 163- 166.

[4]- من هذه الانتصارات: التوجه إلى تلمسان وهرب مولاي الشريف من أمامه، وقام بملاحقته عقب انسحابه إلى فاس في أوت 1557م، هزيمة الإسبان في مستغانم التي كانوا عازمين على احتلالها أوت 1558م. ينظر: عقيل نمير، تاريخ الجزائر الحديث، ص:80.

[5]- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص: 91.

لم يقف طموح عبد العزيز زعيم بني عباس عند هذا الحد، بل كان يطمح إلى تخليص بجاية عاصمة أجداده من أيدي العثمانيين فجهز جيشا قويا، تمكن بفضله من افتكاكها منهم لفترة من الزمن في سنة 1559م، فخرج إليه حسن باشا على رأس حملة السنة نفسها وحقق انتصارات مهمة ضده، ثم عاد بجيوشه إلى مدينة الجزائر، تاركا فرقا عسكرية بالمنطقة ليدعم بهم العرب، وفور ذهابه نزل عبد العزيز من الجبل، وسحق عددا كبيرا من هؤلاء الجنود، فعاد الباشا مرة أخرى وقام بتدمير أراضي بني عباس[1].

وخلال هذه المعارك التي خاضها بنو عباس في مواجهة الباشا لقي السلطان عبد العزيز حتفه في سبتمبر 1559م[2]، لكن ذلك لم يثبط عزيمة بني عباس فانتخبوا أخاه أحمد أمقران، وبعد أن أبرم حسن باشا معاهدة مع أحمد أمقران انسحب إلى مدينة الجزائر، وهذه المعاهدة تعفي بني عباس من الجزية، وفي هذا الوقت كان حسن باشا قد تحالف مع ملك كوكو وتزوج من ابنته [3].

وخلال العهدة الثالثة لحسن بن خير الدين والتي ستستمر خمسة أعوام (منذ سبتمبر 1562م إلى سنة 1567م)، كان الهدوء يطبع العلاقات بين السلطة وبني عباس، والتزم الطرفان بمعاهدة 1559م التي أبرمها حسان باشا مع أحمد أمقران، ومن مظاهر حسن العلاقات مشاركة بنو عباس في الحملة التي قادها حسان باشا في فيفري 1563م ضد الإسبان بوهران، حتى وإن تم ذلك دون المشاركة الشخصية لأحمد أمقران[4].

وبتعيين علج علي على رأس أيالة الجزائر في مارس 1568م سيتغير طابع العلاقات بين بني عباس والسلطة، وسيستمر التوتر طيلة فترة حكم علج علي التي يمتد لستة أعوام[5]،

---

[1]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس، ص، ص: 167، 168.

[2]- قتل السلطان عبد العزيز بعد مقاومة باسلة أسقط فيها الكثير من القتلى في صفوف الخصم، فجلب العثمانيون رأسه وعرضوه في مكان عام ليكون عبرة لمن يقف ضد سلطتهم. ينظر: يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 168.

[3]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص: ص: 168، 169؛ عقيل لطف الله نمير، تاريخ الجزائر الحديث، ص: 85.

[4]- يوسف بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 176.

[5]- عين محمد بن صالح رايس على رأس أيالة الجزائر بعد رحيل حسن باشا سنة 1567م، وقد استغرقت فترة حكمه أربعة أشهر تقريبا. ينظر: (Haedo, Histoire des rois d'Alger. P-p:143-145.).

وستشهد فترة حكمه نهاية الدولة الحفصية، إذ توجه إليه سكان تونس مبدين رغبتهم في التخلص من ملكهم، فتوجه إلى تونس 1572م بحملة من الجزائر[1]، يتألف جيشه من عثمانيين وجزائريين. يقول هايدو في هذا السياق:" سيشارك ستة آلاف مغربي تابعين لك من ملك كوكو والعباس، وكذا زعماء آخرين"[2].

في شهر سبتمبر 1580م سيقبل أحد أبناء أحمد أمقران على جعفر باشا – ثاني النواب الذين خلفوا علج علي على رأس الأيالة الجزائرية[3]، ليرحب به بمنحه هدية نفيسة، وخلال هذه الفترة كان كلما عين حاكم جديد بالجزائر، يمنحه صاحب قلعة بني عباس هدية مقابل أن يسلمه سيفا ثمينا، ولباسا تركيا [4].

ظلت معاهدة 1559م بين السلطة وبني عباس سارية المفعول طيلة ثلاثين عاما، قبل أن تبدأ العداوة من جديد. وقد كان لها جيش كبير، وخلال هذه الفترة عرفت رخاء ملحوظا، وخلال مرحلة البشوات قام الباشا الخضر عام 1590 بشن حملة ضد بني عباس اثر تمردهم، فترصد له زعيمهم أحمد أمقران على رأس جيشه، وقد حاصر جيش العثمانيين القلعة وخربوا الأراضي المحيطة بها، ثم تم الصلح بتدخل أحد المرابطين شريطة أن يدفع بني عباس 30 ألف قطعة ذهبية. وفي عهد شعبان باشا (1592- 1595م) ثار بني عباس من جديد وقطعوا الطريق بين الجزائر وقسنطينة، ومنعوا جباة الضرائب من اجتياز الطريق، وقد تغلب بنو عباس هذه المرة على الأتراك[5].

---

[1]- نجح علج علي في حملته لكن مدة بقاءه بتونس لم تدم سوى لأمد قصير، فبعد عام استولى عليها الدوق خوان النمساوي لحساب العرش الإسباني، إلا أن علج علي شن عليها حملة ثانية ليصبح حاكما عليها في 13 سبتمبر 1574م، وهكذا يسدل الستار على ثلاثة قرون من الحكم الحفصي. ينظر: عقيل نمير، تاريخ الجزائر الحديث، ص، ص: 94، 95.

[2]-Diego de Haedo, Histoire des rois d'Alger. P-p: 157-159 .

[3]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس. ص: 178، 179.

[4]- شارك علج علي في ليبانتو ثم عين منصب القائد العام للأسطول العثماني، وسيحتفظ بلقب بيلرباي الجزائر، وتسند إليه مهمة انتقاء النواب الخلفاء الذين يأتمرون بأمره، وظل الأمر كذلك إلى أن توفي سنة 1587م، التاريخ الذي سيشهد نهاية عهد بيلربايات. ينظر: (Haedo, Histoire des rois d'Alger. P-p:146-153.).

[5]- بنوجيت، المرجع السابق، ص- ص: 180- 185.

عرفت مدينة الجزائر اضطرابات نتيجة التعيين والعزل المستمر للبشوات، مما شجع أمقران على القيام بحملة عليها سنة 1598م، فوصل إلى مشارفها واستطاع بمساعدة بعض سكانها اقتحام أسوار باب عزون وولوجها، وتنصيب معسكره في البساتين المحاذية لباب عزون. وظل محاصرا للمدينة مدة أحد عشر يوما. ومع مطلع القرن 17م خطط سليمان باشا[1] خطط لإخضاع بني عباس الذين دخلت مقاومتهم حقل الأسطورة، فخرج إليهم في الحملتين: الأولى سنة 1600م، والثانية في سنة 1601م، ورغم النصر المبين الذين حققه بنو عباس ضد الجيش العثماني إلا أن زعيمهم أحمد أمقران قضى نحبه في نهاية المعركة، وهو الابن الثالث للعباس بعد الفضل، وعبد العزيز، وقد استشهدوا جميعا من أجل الوقوف ضد الزحف العثماني. وقد اختار بنو عباس مع وفاة أحمد أمقران تنصيب ابنه ناصر ليكون زعيما عليهم[2].

بينما حظي عبد العزيز بلقب السلطان، وحظي أخوه أحمد بلقب أمقران بني عباس، لم يحظ الناصر إلا بعلامة احترام إذ قضى فترة حكمه وهو يعرف بسي الناصر، واتبع هذا الأخير سياسة الخصومة مع السلطة، إلا أن قتل سنة 1624م في قتال مع العثمانيين، فخلفه أخوه أو ابنه باتكة- الذي أصبح رأس ذرية المقراني – فأظهر العداوة نفسها مع السلطة[3]. وبوفاة سي ناصر تنتهي حياة هذه الإمارة، ويتحول آل المقراني من زعماء سياسيين إلى زعماء روحيين ودينيين. وذلك ببروز شخصية دينية تمثلت في الفقيه المرابط محمد أمقران أحد أبناء سي ناصر، وتدريجيا تتحول شهرتهم من بني عباس إلى آل المقراني.

(ب)- آل المقراني وعلاقتهم بالسلطة:

---

[1]- استلم سليمان باشا أو سليمان فزيانو الحكم مع بداية القرن 17م، (1600م)، وبقي في الحكم لمدة ثلاث سنوات. ينظر: عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص: 116.

[2]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس. ص- ص: 191- 195؛ عبد الرحمن الجيلالي، المرجع نفسه، ج 3، ص: 116.

[3]- بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 197.

ما كاد صيت بيت بني عباس يختفي حتى ظهر في حلة جديدة، وتحت اسم جديد استمده من زعيم المرحلة الثانية، وهو المرابط سيدي محمد أمقران بن سي ناصر آخر أمراء بني عباس، فكان هو مؤسس البيت من جديد، الذي حمل اسمه.

ترعرع محمد أمقران في واد بجاية (أمادان) على الضفة الغربية لواد الصومام، و لم يطل به الأمد حتى تزعم سكان المنطقة، لما يتمتع به من مزايا أهمها أصله المشهور، والفضائل الدينية التي يتحلى بها، وأمام مضايقات زعيم الحامية التركية ببجاية قام سي محمد أمقران بترك زاوية أمادان التي شيدها لدى بني مسعود، وأقام في بجاية [1]، وبقي آخر أبناءه وهو سي عبد القادر في زاوية أمادان التي حظيت سنة 1624م بالامتيازات.

لقد دأبت السلطة العثمانية على منح إقطاعات للمرابطين الأكثر تأثيرا ونفوذا بواسطة فرمانات يصدرها البشوات أو البايات، وتعتبر بمثابة حبوس للأسرة، وهذا كسبا لهم لنفوذهم الكبير، وفي هذا الاطار مُنح المرابط سيدي محمد بن عبد القادر المقراني ملكية بقبيلة برباشة، وذلك من طرف الداي الحاج محمد (1671- 1682م)، وهو أول من دشن عهد الدايات، وظهير مؤرخ بجمادى الثانية من عام 1093ه/ 1682م، ومما جاء فيه:" أما بعد فإنّ حامله المعظم الفقيه الأجل السيد المولى الأعلى البركة السيد عبد القادر ابن المرحوم الولي الصالح القطب الناصح الشيخ البركة سيدي محمد أمقران –نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا – أنعمنا عليه بكافة عرش برباشة ... يكون الجميع كلهم زاوية له من جميع زواياه، ويكون كلهم حبسا عليه، وعلى أعقاب أعقابه يَتَنَّفع بمقرهم وزكاتهم، ورفعنا عليه يد باي الار المحال هذه الناحية الشرقية وعمالهم..."[2]، ثم جُدد هذه الامتيازات سنة1107ه /1695م من طرف الحاج أحمد باي، ومن طرف حسين داي في 1109ه/ 1697م[3].

1- Charles Féraud, Exploitation des forêts de La Krasta dans la Kabilie orientale sous la domination Turque, in **R.A**, Volume :12, Année : 1868..p, p: 383, 384.

2- Ch .Féraud, , Ibid. p, p: 384, 385.

3- Ch. Féraud, Ibid. P, p: 386, 387.

وقد حصل المقراني على امتيازات أخرى بموجب عدد من الفرمانات الصادرة عن الدايات كالفرمان الذي أصدره الداي مصطفى (1700- 1705م) عام 1114ه/ 1702م، فوض بموجبه أمر إدارة الأمور ببجاية للمرابط محمد الشريف بن سيدي عبد القادر مع حق الإشراف على الكراستة، وهي مكان صناعة السفن، ذلك أن السلطة عجزت عن استغلال غابات بلاد زواوة بطريقة مباشرة فمنحوا لبيت أمقران امتيازا يتمثل في حماية مقر صناعة السفن. ومما ورد فيه:" أما بعد فإن حامله المكرم الوجيه البركة السيد محمد الشريف ابن المرحوم ... المقدس المنغمس الشيخ سيدي عبد القادر بن سيدي محمد امقران أنعمنا عليه وقدمناه على كافة زواياه، وأقمناه في مقام والده المذكور، وأنزلناه بمنزلته ينظر في أمور الزوايا المذكورين، ويكونوا كلهم عند نظره، وسمعه وطاعته، وأطلقنا يده فيهن بحيث ينتفع بخراجهم جريا في ذلك على سبيل العادة المعلومة وعادة السادات المرابطين أسلافه المتقدمين قبله... كما أنعمنا عليه بزاوية بني بو مسعود وحبسناها عليه وعلى عاقبه، وعاقب أعقابه ... لإطعامه للفقراء والمساكين، وعلى كافة أهل الزاوية المذكورين خصوصا زاوية بني مسعود أن يكون كلهم عند نظره وسمعه وطاعته، كما أقمناه في مقام والده المذكور على شغل البايليك الكائن بالبلد المذكورة يجري عليه مثل الكراستة وغيرها..." [1].

وقد تم تجديد نفس الامتيازات للمرابط نفسه سنة 1119ه/1707م من طرف الداي محمد بكداش، وتم تجديده أيضا من طرف الداي علي سنة 1122ه/ 1710م، ومن طرف نفس الداي سنتي: 1123/1711م، 1125ه/1713م، وفي سنة 1131ه/1718م من طرف محمد باشا، وفي سنة 1136ه/ 1723م من طرف الداي محمد أيضا[2].

حظي هذا البيت بهذه الامتيازات لسيطرته على عدة قبائل، وتأثيره الكبير في المنطقة، وقد أسس آل المقراني عدة زوايا، وألحقوا بها العديد من القبائل حتى فرضوا نفوذهم على

1- Féraud, Exploitation des forêts de La Krasta dans la Kabilie orientale .p, p: 387, 388.

2- Féraud, Ibid. p: 390.

خمسة وثلاثين قبيلة، وسبعة وعشرين زاوية، وأصبحوا يشكلون إمارة تقع بين دار السلطان غربا وقسنطينة شرقا، والحضنة جنوبا[1].

يعد بيت أمقران من أكبر البيوتات التي حظيت بدور الوساطة في لدى القبائل البعيدة عن مركز السلطة، بموجب مراسيم كالظهير الذي حرره الداي مصطفى سنة 1702م ومما جاء فيه:" لقد أنبأنا إلى والده أمور الدنيا ببجاية"، ولا شك أن الأمور المعنية هي الوساطة والتفاوض.

كما عين الباشا علي المرابط سي أحمد المكي بفرمان تولية عام 1754م لرعاية مصالح الدولة بجيجل، وأوصى فيه السكان والجند بوجوب احترامه، ومما ورد في هذا الفرمان:" ... أما بعد فإن حامله المعظم الأجل السيد الحاج أحمد المكي نجل القطب سيدي محمد أمقران – نفعنا الله ببركاته آمين– أنعمنا عليه وقدمناه مرابط بجيجل ... ولا يتعدى عليه أحد من أهل النوبة، ولا من يكسر عليه حرمته، ولوقوفه مع النوبة في إتيان الأرزاق ولوجه جده المذكور، ولطعمه للفقراء والمساكين. كتب عن إذن المعظم الأرفع الدولاتلي السيد علي باشا أواسط شوال 1168هـ/ 1754م"[2].

وهناك عدد آخر من الظهائر والرسائل التي وجهتها السلطة لمرابطي بيت المقراني، مؤرخة قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد أوردها شارل فيرو، وكلها تبين الأهمية والمكانة التي حظي بها هذا البيت مما جعل السلطة تخصه بكل تلك الامتيازات[3].

إن تحول بني عباس– آل المقراني من زعماء سياسيين إلى زعماء دينيين، لم يضع حدا لخصومتهم مع العثمانيين، فبعد مرحلة من السكون النسبي ثاروا، فأخضعتهم السلطة سنة 1108ه/1696م، إلا أن هذا الخضوع لم يدم إلا فترة، بحيث أعادوا تشكيل قواهم وتوطيد سلطتهم معلنين تملصهم من الالتزامات المفروضة عليهم، و لم يكتفوا بذلك بل طالبوا

---

[1]– رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات ، ص: 114.

[2]– Charles Féraud, Exploitation des forêts de La Krasta dans la Kabilie orientale sous la domination Turque, in **R.A**. Volume :13, Année : 1869.p: 38,39.

[3]– ينظر تلك الوثائق في دراسة شارل فيرو السابقة العدد، 13، سنة 1869، ص – ص: 151– 160.

العثمانيين بدفع حق العبور كلما مروا من البيبان، وقد ظلت الطريق الشرقية التي تربط الجزائر بقسنطينة[1] تحت رقابتهم طيلة العهد العثماني.

ولم يكن المقرانيون في الربع الأول من القرن 18م مجبرين على دفع الجزية للسلطة، كما كان العثمانيون يحترمونهم أشد الاحترام، وزعيمهم في هذه الفترة هو الشيخ أبا زيد، وقد كان يسكن في الصخرة الحمراء أو ذراع الأحمر، وقد ذكر شاو القبائل التي انضوت تحت حماية بني عباس: أولاد منصور، بني حندون، وقبائل أخرى، ووصفها بأنها تتمتع بقوة تضاهي قوة زواوة، إذ يستطيعون تجهيز ثلاثة آلاف جندي من المشاة وألف خمسمائة جواد، وأنهم يقطنون في المداشر ويصنعون في القلعة مركزهم أسلحة نارية جيدة[2].

وظلت علاقة أولاد مقران متقلبة مع السلطة فتارة يقدمون لها خدمات جليلة وتارة أخرى يثورن عليها حتى أنهم ساعدوها في القضاء على ثورة ابن الأحرش، فجندوا القبائل المجاورة لهم، وتوجهوا للدفاع عن بجاية ضد ابن الأحرش، وأوكلت لهم مهمة إخضاع القبائل التي ثارت عام 1228ه/1813م حسب مارسي[3]. لكنها ما لبثت أن ثارت ضد الباي عمر الذي رفض دفع الرسوم مقابل مروره على أراضيها، واستمرت عداوتهم مع العثمانيين إلى غاية الاحتلال الفرنسي، لنفس السبب وهو مطالبة العثمانيين بدفع حق المكس (رسم أو ضريبة المرور) عند اجتيازهم من البيبان[4].

ولم يفقد بيت أولاد مقران مكانتهم خلال باحتلال الفرنسيين للجزائر، بل احتفظوا بنفوذهم لمدة طويلة، وقد كانت مشيخة أولاد مقران في حوالي سنة 1841م تشغل امتدادا

---

[1] – ابتداء من سنة 1567م، تاريخ تنصيب بايات قسنطينة، أصبح للفيالق العثمانية مسلكان مختلفان يربطان الجزائر بقسنطينة، فكانوا يسلكون هذا الطريق أو ذاك تبعا لوضع الحرب أو السلم: تبدأ الطريق الأولى من الجزائر، وتعبر من واد زيتون وابن هارون وحمزة (بويرة) وأبواب الحديد (البيبان)، ومجانة. وتمر الثانية من تيزي ناث عيشة (الثنية)، وشعبة عامر وثاشنتريت وبن هارون ووانوغة وبويرة وسور الغزلان (1594م). ينظر: بنوجيت، قلعة بني عباس. ص: 201.

[2]– Shaw Thomas, L 'Algérie un siècle avant l'occupation française. Traduit par : J. Mac. Carthy .Paris: Editions Imprimerie de Carthage. 2eédition, 1968.p : 196, 197.

[3] –Mercier Ernest, Histoire de Constantine. Constantine, p : 339.

[4] – بنوجيت، قلعة بني عباس، ص، ص: 201، 202.

معتبرا من البلاد، يشمل القسم الشمالي لجبال وانوغة، وهي مزيتة ودرياط وأولاد خلوف، وأخيرا سهل مجانة الواسع، حيث مقر السلطة وإقامة العائلة الأميرية "[1].

– المبحث الثالث: الدور السياسي لبيت الفكون بقسنطينة:

كانت معظم العائلات الكبيرة بقسنطينة تمارس التجارة وتملك بساتين خارج المدينة، وكانت العائلة لا تعتبر نفسها ثرية أو صاحبة اعتبار اجتماعي إلا إذا كانت تملك مجموعة من البساتين، ولذلك كانت العائلات حريصة كل الحرص على توفر الأمن داخل المدينة وخارج حتى تتمكن من ممارسة نشاطها التجاري، والقيام بعمارة الأرض وزراعتها في أوقاتها، وذلك ما حدا بها إلى تأييد السلطة ضد ما كان يقع من ثورات، كما حدا بها إلى أن تتدخل بالصلح وإصلاح ذات البين والتوسط حتى لدى الباشا من أجل الإبقاء على الأمن والاستقرار[2].

ومن البيوتات التي كان لها دور بارز في تاريخ مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني بيت الفكون، الذين كان لهم دور سياسي مهم منذ بداية التواجد العثماني في قسنطينة، إلى الاحتلال الفرنسي لمدينتهم.

(أولا)– الدور السياسي للشيخ عبد الكريم الفكون الجد:

(1)– دور عبد الكريم الفكون الجد في دخول العثمانيين إلى مدينة قسنطينة:

كان أبو بكر بن سلطان تونس حاكما على قسنطينة، ثم فقدها لفترة من الزمن نتيجة لصراعه مع أخيه صاحب بجاية، وبعد الاحتلال الإسباني لبجاية وقتل أخاه، استعاد أبا بكر قسنطينة، ودخلها في شهر رمضان 922ه/1517م، ولكن ليس هناك أية إشارة إلى الطريقة التي انتهى بها حكم أبا بكر لهذه المدينة[3].

---

[1]– بنوجيت، المرجع نفسه، ص: 66.

[2]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص، ص: 24، 25.

[3]– يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، ص: 130.

وفي رواية هايدو:" أخضع بربروس مغاربة القل عام 1520م، وبعد سنة أخضع قسنطينة التي كان ملك تونس يدافع عنها لسنوات طويلة لأنها كانت تابعة له "[1]. واستنادا إلى هذه الرواية فإن قسنطينة دانت لخير الدين بالاستسلام بين سنتي 1520م و1521م، إلا أنَّ خضوعها لخير الدين لم يدم طويلا، وذلك ما انتهى إليه المؤرخ الفرنسي بربروجر (Berbrugger) بعد المقارنة التي أجراها بين روايتي هايدو ومارمول مع وثيقة قاض قسنطيني في935ه/ 1528م، توصل إلى أنَّ حامية قسنطينة خربت، وهجرها ملاكها سنة 1528م، تبعا لسقوط القوة العثمانية، ما يعني أن خضوع 1520م الذي يتحدث عنه هايدو لم يكن إلا مؤقتا، لتتلوه فتن دامت إلى غاية حكم القايد أبو الحسان علي فراح، الذي عينه سلطان تونس محمد أبو عبد الله ابنه (أبا بكر) حاكما على قسنطينة، وبعد وفاة ابن فراح، استعاد العثمانيون المدينة[2].

وهكذا فإن قسنطينة خضعت لخير الدين لأول مرة بين سنتي 1520م أو 1521م، ثم تملصت من هذه السيطرة سنة 935ه/1528م، واحتمت بسلطان تونس الذي عين علي بن فراح حاكما عليها، ومنذ ذلك الحين لم يظهر أي أثر لأبي بكر[3].

ويذهب أبو القاسم سعد الله إلى أنَّ بداية الوجود العثماني بقسنطينة كان بعد تغلب الإسبان على خير الدين بربروس في تونس سنة 935ه/1528م، بحيث قام هذا الأخير بتعيين القائد حسن آغا على قسنطينة، وذلك لإيجاد نقطة ارتكاز عثمانية بين الجزائر وتونس. ولكن الحكم العثماني في قسنطينة لم يبق حكما مباشرا، وربما كان أهل البلد هم الذين يختارون من بينهم قائدا ترضى عنه السلطة في الجزائر، وكانت هذه السلطة تكتفي في الولاء بوجود قاض يدير الأحكام باسمها، وبوجود حامية صغيرة من الجند، والدعاء للسلطان العثماني في الخطبة. وأقدم وثيقة تتعلق بوظيفة القاضي تعود إلى سنة 948هـ/1541ه،

---

[1]- Haedo, Histoire des rois d'Alger. P:45.

[2]-A. Berbrugger, époque de L'établissement des Turcs à Constantine, in **R. A** , N° : 1, Année : 1856.p,p : 401, 402.

[3]- يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد. ص: 132.

ومن خلال هذه الوثيقة تتبين تبعية قسنطينة للسلطة العثمانية في الجزائر كان خلال هذا التاريخ[1].

هذا فيما يتعلق بالوجود العثماني بقسنطينة، أما فيما يخص دور عبد الكريم الفكون الجد في ذلك، وهو الذي يهمنا فإننا نعتمد على الرواية التي أوردها محمد الصالح بن العنتري – المتوفى في الربع الأخير من القرن 19م– في كتابه" فريدة مَنسية في حال دخول الترك قسنطينة واستيلائهم على أوطانها"، وهو من المصادر المحلية المهمة في تاريخ قسنطينة، إلا أنّ المؤلف اختلط عليه الأمر، والقراءة المتأنيدة لتلك الروايات تجعلنا ندرك بأن العنتري جمع بين شخصيتين وحادثين في شخص واحد وفي حادثة واحدة كما سنبينه.

ومن النصوص التي تبين الاضطراب الذي وقع فيه العنتري قوله:" كان دخول الترك في قسنطينة عام ألف وخمسين (1050هـ/ 1640م) بعد أن مضت من ولاية يوسف باشا عامين ونصف"[2]. ولا شك في أن سبب هذا الاضطراب هو اعتماد المؤلف على الرواية الشفوية، وذلك ما أكده هو بنفسه في قوله:" حكي عن الناس المتقدمين الراسخين في الأعمار المسنين أن الترك لما تملكوا بالجزائر..." [3].

والشخصيتين اللتين نعنيهما هما: عبد الكريم الفكون الجد، وسميه وحفيده عبد الكريم، إلا أن العنتري يدمجهما في شخص واحد ينعته "بسيدي الشيخ بن الفكون"، أما الحادثتين فهما الفتح العثماني لقسنطينة الذي كان لعبد الكريم الفكون الجد دور بارز فيه، والحادثة الثانية هي ثورة الذواودة المعروفة بثورة ابن صخري سنة 1047هـ/1637م، والتي لعب فيها عبد الكريم الفكون الحفيد دور بارز.

ويذهب العنتري أن العثمانيين بعد أن تملكوا الجزائر قدموا قسنطينة للاستيلاء عليها، وكانت في ذلك الوقت تابعة لتونس، وحين وصلوها نزلوا خارجها، و لم يتمكنوا من

[1]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية. ص– ص:13– 15.

[2] – محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، ص:46.

[3] – العنتري، المصدر نفسه، ص: 43.

دخولها فحاصروها ودخلوا في قتال مع أهلها " وطالت تلك المحاصرة، واشتدت من الجانبين المقاتلة، وقع خلاف بين أهل البلد"، بعضهم يريد تسليم المدينة لهم، ويرفض البعض الآخر ذلك، ولما " تفاقم الأمر لديهم قابلهم سيدي الشيخ بن الفكون" وأشار عليهم بتسليم المدينة، فانقادوا لرأيه وفتحوا أبواب المدينة فدخلها العثمانيين، وطمأنوا أهلها بأنهم سوف يحكمونها بالعدل، وقالوا لهم:" ونجعلوا حاكم الذي تختارونه منكم، يكون كبيرا عليكم، ومتولي أمركم، فحينئذ تأنسوا أهل البلاد بكلامهم، واطمأنوا لجانبهم، ورجعوا حاكم (كذا) من البلدية، الذين لهم في ذلك الوظيفة أهلية"[1].

أما يحي بوعزيز فيذهب إلى أن خير الدين غزا قسنطينة في سنة 929هـ/ 1522م، وركز بها حامية من الجند الانكشاري، وتمكن قائدها يوسف من ربط صلات حسنة مع الشيخ الفكون شيخ البلد، الذي كان له دور كبير في تمهيد المدينة للعثمانيين [2].

ويظهر الشيخ الفكون مرة أخرى على مسرح الأحداث السياسية بقسنطينة، فبعد حملة شرلكان على تونس في سنة 941ه/1534م اضطر خير الدين إلى الانسحاب منها برا إلى عنابة، ومن هناك ركب البحر إلى مدينة الجزائر، وكلف حسن آغا سردو بأن يقود القوات المتبقية برا إلى مدينة الجزائر، وعندما وصل حسن آغا إلى قسنطينة أراد الدخول إليها للراحة فمنعه السكان من ذلك، وتدخل الشيخ الفكون والقائد يوسف وأقنعوه بالتمركز خارجها، وتعهدوا بتزويده بكل ما يحتاج إليه من المؤن، وبعض التعويضات نقدا[3].

إنّ غموضا كبيرا يحيط بحاكم قسنطينة قبل تعيين أول باياتها وهو رمضان تشولاق (شولاق) [4]، الذي سبقته ثورة قام بها أهل قسنطينة، إلا ما أشار إليه الفكون من أنّ أهلها

---

[1] – العنتري، فريدة منسية، ص: 45.

[2] – يحي بوعزيز، في مقدمة تحقيقه لكتاب فريدة منيسة للعنتري، ص: 27.

[3] – يحي بوعزيز، في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص، ص: 27، 28.

[4] – قام الباشا حسن بن خير الدين عام 1565؟ بتقسيم الجزائر إلى ثلاثة بايليكات إلى جانب مدينة الجزائر التي عرفت بدار السلطان، ووضع على رأس كل بايليك بايا، وبالنسبة لقسنطينة لم يتم تعيين باي عليها إلا في عام 1567م، وهو رمضان تشولاق الذي ظل في منصبه إلى غاية عام 1574م.

قاموا على "واليها"، في حين يشير فايسات إلى أن أهل قسنطينة لما قاموا بالثورة، هجموا على الحامية التركية وقتلوا الحاكم التركي[1].

(2)- قيام الشيخ عبد الكريم الفكون الجد بمهمات سياسية:

رغم أن الشيخ عبد الكريم الفكون الجد كان يجمع بين العلم والتصوف إلا أنه تعامل مع العثمانيين[2]، وتدخل في حل الفتنة التي حدثت بقسنطينة سنة 975هـ/1567م، والتي سبقت تعيين أول باي على هذه المدينة. فقد قام أهل قسنطينة على واليها إذ ذاك، ووجهوا وفدا إلى الباشا محمد بن صالح رايس (974-976هـ) بمدينة الجزائر، ويبدو أن الشيخ عبد الكريم الفكون الجد كان على رأس هذا الوفد[3]، الذي كان يرمي إلى طمأنة الباشا وتقديم بعض المطالب إليه، ولكن بعد مغادرة الوفد لقسنطينة خلع أهلها بيعة العثمانيين.

وأما الوفد فقد اجتمع بالباشا في مدينة الجزائر " وبعد أن قضوا مآربهم وما بعثوا من أجله، وفرح بهم الأمير فرحا كبيرا، وأحلهم دار الكرامة "، سمعوا بخلع أهل قسنطينة البيعة ففروا إلى زواوة خوفا على أنفسهم، إلا أنّ السلطات قبضت عليهم وسجنتهم برهة، ولما تبين للباشا عدم صلتهم بما حدث أطلق سراحهم[4]، وأعادهم إلى قسنطينة مكرمين. وتوجه الباشا بنفسه إلى قسنطينة، وبعد تمكنه من إعادة الاستقرار بها، عين رمضان تشولاق بايا عليها، هو أول باي يعين على قسنطينة[5].

وهناك من يذهب إلى أن قسنطينة كانت في سنة 975ه/1574م تحت حكم الحفصيين، فأمر الحسن الحفصي الذي استعان بالإسبان، واليه بقسنطينة لمنع العثمانيين من دخول المدينة التي انقسم سكانها بين مؤيد للحفصيين بزعامة الشيخ عبد المؤمن، ومنتصر

---

[1]- يحي بوعزيز، في مقدمة تحقيقه للمصدر السابق، ص: 31.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:520.

[3]- صحبه بعض أهل المدينة ومنهم الشيخ أبو محمد عبد اللطيف المسبح.

[4] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 48؛ أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 16.

[5]- يذكر يحي بوعزيز أن الباشا صحب الفكون ورفيقه معه في حملته على قسنطينة التي فتحت أبوابها دون قتال. ينظر: بوعزيز، في مقدمة تحقيقه لكتاب فريدة منسية، ص: 31.

للعثمانيين بزعامة الفكون. ومنذ هذا التاريخ اعترف العثمانيون بآل الفكون بالفضل والتمكين من حكم هذه المدينة، وخصصوا لهم مشيخة الإسلام ومشيخة إمارة الركب الحجاج للبلاد طيلة العهد العثماني بالجزائر[1].

ورغم اضطراب الروايات المذكورة إلا أنها كلها تؤكد على تحالف آل الفكون مع العثمانيين بدأ منذ بداية وجودهم بقسنطينة، وأصبحت منذئذ في خدمة الدين والدولة، فتمتعت باحترام واسع في قسنطينة، وحظيت نتيجة خدماتها الجليلة لصالح السلطة بامتيازات اقتصادية ومعنوية لا حصر لها.

- وقد كان الشيخ عبد الكريم الفكون الجد يقوم بمهمات سياسية بإيعاز من السلطة، ومن الحوادث التي تؤكد ذلك هو ما تعرض له من اختطاف، فقد " خرج مرة لنواحي البلدة (قسنطينة) بقصد حاجة عرضت لمن كلّف عليه الخروج هو وصاحبه أبو محمد عبد الليف المسبح"، رفقة مزوار الشرفاء- وهو جد الفكون للأم صاحب "منشور الهداية"- وقائد جيش "فمسكهم الأعراب المتغلبة على البلد في بعض ما لهم تحت يد السلطنة..."[2].

ونص الفكون لا يذكر نهاية هذا الاختطاف، وكل ما ذكره أن المسمى العباسي :"فما خرجوا من عندهم إلا واستأصلهم العباسي فلم يترك لهم حافرا ولا بيتا ولا ماشية"[3]. بينما يذكر يحي بوعزيز إلى أن إطلاق سراحهم كان بتدخل أحد الزعماء ذوي الحظوة والمكانة ويدعى الرئيس العباسي بعد أن قدم للمختطفين مجموعة رؤوس أغنام كفدية[4].

(ثانيا)- دور الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد في إنهاء ثورة ابن صخري:

---

[1] - محمد لعباسي، الإفتاء في الجزائر العثمانية (918-1245ه/ 1512- 1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، بإشراف: سلطاني الجيلالي. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية. (2012-2013). ص: 189.

[2] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 49.

[3] - يذكر الفكون أن العبابسة قوم من المتلصصة والحرابة.

[4] - يذهب يحي بوعزيز أن هذا الاختطاف وقع بين سنتي 1570م- 1572م، ولكن هذا يتعارض مع تواريخ أحداث أخرى. ينظر: مقدمة تحقيقه لكتاب فريدة منسية، ص: 31.

إنَّ الأزمات المختلفة التي كانت تتعرض لها المدينة كانت تقود أعيان المدينة ولا سيما العلماء ورجال الدين، إلى تولي المسؤوليات الأخلاقية والقيام بالواجب الشرعي تفاديا للمزيد من الفوضى وحقنا للدماء وصونا للأعراض. ومن أبرزهم عبد الكريم الفكون الذي أصبح زعيما

روحيا في البلاد يهابه الحاكم، ويلتجئ إليه المحكوم[1].

وأبرز المحن التي تعرض لها إقليم قسنطينة في عهد عبد الكريم الفكون هي ثورة الذواودة المعروفة بثورة ابن صخري سنة 1047هـ/1637م، وهي من أعنف الثورات التي وقعت ضد العثمانيين في تلك المنطقة، وقد وقف العلماء ورجال الدين إلى جانب السلطة، وعلى رأسهم عبد الكريم الفكون الحفيد[2].

وفيما يخص رواية العنتري فإن شق منها يخص هذه الثورة، استنادا إلى النص الذي يذكر فيه بأن:" دخول الترك في قسنطينة عام ألف وخمسين (1050هـ/ 1640م) بعد أن مضت من ولاية يوسف باشا عامين ونصف"[3].

وبعد انتهاء ثورة شيخ العرب أحمد بن صخري[4] " كتب (الباشا) جوابين أحدهما إلى السيد الشيخ بن الفكون خصوصا، والآخر إلى ناس قسنطينة عموما"[5]. ومما ورد في الجواب الموجه للفكون:"... إلى مقام العالم المشهور الخير الصبور... سيدي الشيخ بن الفكون... فقد بلغنا أنك سرت إلى ناس قسنطينة بالتدبير المفيد، والرأي الصائب الرشيد، فكان في ذلك حقن دمائهم، وزوال الخلاف والهرج بينهم فجزاك الله بأحسن الجزاء... وما

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 27.

[2] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 18.

[3] – محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، ص:46.

[4] – تبعا للاضطراب الوارد لدى العنتري فهو يذهب إلى أن الباشا لما سمع بفتح قسنطينة بعث جوابين إلى آخر الرواية. وعندما نتمعن في الجواب ندرك أنه موجه لعبد الكريم الفكون الحفيد لأن الباشا يلتمس منه " الدعاء زمان كل **ركب**"، وقد كان الفكون الحفيد أميرا للركب.

[5] – محمد العنتري، المصدر السابق، ص: 45.

أنت إلا حبيبنا وصديقنا من كونك تسعى في الخير والصلاح، وترشد العباد للفلاح والنجاح، ثم نلتمس منكم دعاء الخير في كل خطب، وزمان كل ركب[1]"[2].

ومما ورد في الرسالة الموجهة لأهل قسنطينة:" ... وبعد فإنكم عملتم مليح وتدبيرا لائقا صحيح من كونكم سلمتم بلد قسنطينة إلى الترك من غير ارتياب ولا شك، مراعاة للدولة العثمانية، وطاعة لتلك الحضرة العلية، وآثرتم العافية على الفتنة وحقن الدماء"، إلى أن قال :"وعليكم بإتباع سيدي الشيخ بن الفكون والانقياد إلى رأيه المصون"[3].

ويجدر التنبيه إلى أن ابن العنتري أغفل ذكر اسم الباشا في الرسالتين مكتفيا بالإشارة إليه بهذه العبارة:" كتب بأمر الباشا بالجزائر"، مع أن الرسائل الصادرة عن السلطة تحمل اسم صاحبها سواء باي أو داي أو غيره، فهذا يؤكد أنه لم ينقل الرسالتين من وثائقها.

ويشير العنتري إلى أنه بعد انتهاء ثورة ابن صخري[4] عام 1050ه/1640م، بقي أهل قسنطينة في أشد ما يكون من الجوع لمدة سبع سنوات أي إلى سنة 1057هـ، فاجتمع أهلها وكتبوا كتابا للباشا، وهو بدوره رد عليهم بجواب وطلب منهم اختيار من يصلح لحكمهم فاختاروا سي فرحات (فرحات باي)، وهو الذي امتدت ولايته من عام 1057ه/1647م إلى عام 1064ه/ 1653م.

وهناك من يذهب إلى أن الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد هو من اقترح على السلطة المركزية اسم باي جديد على قسنطينة فقبلت اقتراحه. بدأ فرحات باي ولايته بإعادة الأمور إلى نصابها في البايليك، ووضع حدا للاضطرابات التي عرفتها المنطقة طيلة عشر سنوات

---

[1]- ولا يُستبعد أن يكون تولي عبد الكريم الفكون إمارة الركب نتيجة موقفه الإيجابي من ثورة ابن صخري، ووقوفه مع السلطة.

[2]- محمد العنتري، المصدر السابق، ص: 46.

[3]- العنتري، فريدة منسية، ص: 46.

[4]- تبعا للاضطراب الذي وقع فيه العنتري فإنه يذهب إلى أن المدينة تعرضت لمجاعة بعد الفتح العثماني لها عام 1050ه، والأصح هو ما أثبتناه في المتن.

تقريبا. وعظَّم أسرة ابن الفكون التي وقفت إلى جانبه منذ البداية وحثت الناس على طاعته[1].

وهكذا كانت أسرة الفكون تتدخل في الشؤون السياسية إذا تعلق الأمر بالصالح العام، وهذا مخالف لما ذهب إليه فايسات من أنّ أسرة الفكون في عهد توليها مشيخة الإسلام " لم تستعمل نفوذها في غير الشؤون الدينية، و لم تتدخل على الأقل مباشرة في الشؤون السياسية، بل تركت السياسة للحكام واكتفت هي بحكم الأرواح"[2].

ولكن مشيخة الإسلام وإمارة ركب الحج كلاهما تؤهل صاحبها ليكون شخصية دينية- سياسية مرموقة في الجزائر والعالم الإسلامي أيضا، خصوصا البلدان التي كان ركب الحج يمر بها مثل تونس، طرابلس، مصر، القدس، الحجاز. وقد ترك لنا عيسى الثعالبي وأبو سالم العياشي وصفا حيا لاستقبال بعض مسؤولي البلدان للفكون كأمير لركب الحج، وموقفه هو من ذلك. وقد جلبت إمارة ركب الحج أموالا طائلة للفكون، بالإضافة إلى الجاه العريض[3].

وقبل أن نختم الحديث عن سبب وقوف الفكون إلى جانب السلطة، فبالإضافة إلى أنه من أعيان الحضر الذين كانوا يدافعون عن الاستقرار بالمدينة، لأنهم أكثر من يتضررون إثر الفتن، نشير إلى سبب آخر لا يمكن أغفاله وهو أن الفكون ينتمي إلى الطريقة الزروقية (طريقة الشيخ أحمد زروق)، ومن مبادئها حسبما ورد في كتاب " أصل الطريق" للشيخ زروق:" ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله، فلا يخالف عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم..." [4].

(ثالثا)- مساهمة السيد عبد الرحمن بن بدر الدين الفكون في القضاء على صالح باي:

---

[1]- يحي بوعزيز، في تعليق له في كتاب فريدة منسية، ص: 47، هامش: 1.

[2]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 55.

[3]- أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لكتاب منشور الهداية للفكون، ص: 12.

[4]- أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص: 9.

يكاد الصمت يخيم على نشاط أسرة الفكون في القرن 18م لولا ظهور عبد الرحمن الفكون في عهد صالح باي، وبالضبط سنة 1207هـ/ 1792م، وقد سار على نهج آباءه بتأييد السلطة، بحيث سحب حمايته عن صالح باي بعد أن اتهمته السلطة المركزية بمحاولة التمرد والاستقلال وحكمت عليه بالموت[1].

وفيما يخص تمرد صالح باي فإن الداي بابا حسن أصدر أمرا بعزله وعين مكانه إبراهيم باي الملقب ببوصبع إلا أن صالح باي لم يسلم بهذه النهاية، وعمل على قتل الباي الجديد وعدد من مرافقيه. وقد أعقب هذه العملية صراع بين مناصري صالح باي وأغلبهم من الأتراك، وبين معارضيه الذين انحاز إليهم الأهالي بعد أن تيقنوا العواقب الوخيمة لهذا التمرد، ولهذا راسلوا الداي بالجزائر، فأطلعوه على عصيان صالح باي وأبلغوه تخليهم عنه، الأمر الذي سهل على الباي الجديد حسن بوحنك مهمة وضع حد لتمرد صالح باي، بعد أن ألقى القبض على صالح باي بتواطؤ مع الشيخ البلد ابن الفكون. تم تنفيذ حكم الإعدام فيه خنقا بحصن القصبة شهر محرم سنة 1207هـ/ سبتمبر 1792م[2].

أما عن الأسباب التي قد تكون الدافع الحقيقي للقضاء على صالح باي فمختلفة من أهمها: تحول طائفة الحضر- التي تنتمي إليها أسرة الفكون- عن تأييده. فقد كان للحضر تأثير مباشر على الأوضاع الداخلية بالمدينة، نتيجة الامتيازات الكثيرة التي يحظون بها، ومن جملتها احتكار بعض العائلات للوظائف الإدارية والدينية والتجارية بالمدينة[3]، وقد وجدت هذه العائلات فائدة ملموسة في استقرار الأوضاع بقسنطينة في عهد صالح باي، ولهذا أيدته، لكنها بدأت تتخوف منه عندما تحول في آخر عهده إلى فرض الضرائب الثقيلة والقيام

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 56.

[2] - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص: 250.

[3]-Isabelle Grangaud, La ville imprenable (une histoire sociale de Constantine au 18e siècle). Paris : Edition de l' Ecole des Hautes Etudes en sciences sociale. 2002. .p-p : 248-251.

بمصادرات متعددة، وما زاد في تخوفات أعيان قسنطينة من تصرفاته موقفه المعادي لباي تونس، والذي تسبب في الإضرار بتجارة القوافل المزدهرة مع إقليم تونس[1].

وقد حاول صالح باي أن يسترضي جماعة الحضر علَّه يجد العون لديهم في حركته ضد الباي الجديد، ولكنهم فضلوا التنصل منه خوفا من مضايقاته ومطالبه المالية الثقيلة، وقد عبر الشيخ سيدي عبد الرحمن الفكون شيخ البلد آنذاك عن هذا الموقف المعادي لصالح باي عندما

أجاب صالح باي الذي اتهمه بالغدر لأنه استدرجه ليقبض عليه من طرف آغا محلة الجزائر، بهذه العبارة الصريحة :" الغدر سبق منك وفيك ولا في أهل البلد"[2].

(رابعا)– الدور السياسي للشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون في أواخر العهد العثماني:

برز الشيخ محمد الفكون في العديد من الأحداث التي عرفتها المدينة في أواخر العهد العثماني، وحتى الاحتلال الفرنسي لقسنطينة سنة 1837م.

(1)– موقف بيت الفكون من ثورة ابن الأحرش الدرقاوي بباياليك الشرق:

زعيم الثورة الدرقاوية التي اندلعت بالشرق الجزائري هو الحاج محمد بن عبد الله ابن الأحرش الذي اشتهر لدى العامة بالبودالي، وعُرِف عند الكتاب الرسميين بالشريف المغربي[3]، وعرفه الزياني بأنه:" فتى مغربي مالكي مذهبا درقاوي طريقة درعي نسبا"[4].

استقر ابن الأحرش[5] بضواحي جيجل[1]، واستطاع أن يكسب تأييد عدد من قبائل المنطقة. وكانت شعبيته في تزايد مستمر، ومما زاد في إقبال الناس عليه إعلانه الجهاد ضد

---

[1]– ومما أدى كذلك إلى نفور أعيان قسنطينة منه انتهاجه سياسة تصدير كميات كبيرة من المحاصيل الزراعية عن طريق الشركة الملكية الإفريقية بعنابة والقالة، وقد كانت العائلات المتنفذة تقوم بالمساهمة في تصديرها بعد معالجتها بالأفران العديدة والمطاحن الكثيرة المتوفرة بقسنطينة. ينظر: ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: 250.

[2]– ناصر سعيدوني، ورقات جزائرية، ص، ص: 252، 253.

[3]– لمزيد الاطلاع على ثورة ابن الأحرش ينظر: ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص – ص: 263– 295.

[4] – الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران ص: 207.

[5]– تشير بعض الروايات الفرنسية (إلى تشجيع الإنجليز لابن الأحرش على الثورة، وساعدته بالمال والسلاح من أجل القضاء على المصالح الفرنسية في الجزائر، في حين تشير بعض الروايات المحلية إلى تشجيع حمودة باشا باي تونس لابن الأحرش على الثورة ووعده

النصارى، ولما كثر أتباعه أعلن الثورة سنة 1803م، فانسحبت حامية مدينة جيجل وعنابة، وتمكن من إخضاع مدينة القل، ولما أخضع هذه المناطق اتجه إلى عاصمة البايليك مدينة قسنطينة، مستغلا فرصة غياب الباي عصمان باشا (1803- 1804م)، الذي خرج في حملة لجمع الضرائب بالبايليك[2]. حاصر ابن الأحرش مدينة قسنطينة بعدد كبير من رجال القبائل المساندة له، واستقروا بضواحي قسنطينة في شهر ربيع الثاني من عام 1219هـ/ 1804م وهجموا على المدينة " حتى وصلوا إلى أبواب البلاد... فانضرمت نار الحرب". وكان ابن الأحرش قد أرسل إلى المدينة يطلب تسليمها[3].

وهناك عبارة لها أهميتها، وهي قول العنتري:" وكان سيدي الشيخ بن الفكون هو الواقف في البلاد عند هذه المصيبة"، وتذكر مصادر أخرى أن الفكون كان شيخا للبلد.

خرج مجموعة من الفرسان للتصدي لابن الأحرش يقودهم قائد الدار الحاج أحمد بن الأبيض الذي كان يتولى أمور قسنطينة في غياب الباي، فوقعت مناوشات حادة بين الطرفين ولما ازداد الضغط على المُهَاجَمين تراجعوا داخل الأسوار لتنظيم المقاومة، ومن داخل المدينة بادر السكان، وفي مقدمتهم ابن الأبيض والشيخ محمد الفكون بإطلاق المدافع من فوق الأسوار على جموع القبائل، فتراجع الكثير منهم مما سمح لابن الأبيض أن يخرج لمقاتلتهم مع مجموعة من الفرسان وجمع من السكان، وقد تمكنت هذه القوة من إرغام جموع الثائرين على التراجع عن المدينة[4].

بالمظاهرة بالمال من أجل إشغال العثمانيين عنه. ينظر: مذكرات الزهار، ص: 85؛ محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص: 77؛ (Mercier, Histoire de Constantine, p :309)

[1]- حج ابن الأحرش عام 1804م، وصادف مروره بمصر الحملة الفرنسية عليها بقيادة نابليون فانضم إلى المصريين، وأبدى شجاعة كبيرة في المواجهات مع الفرنسيين فاشتهر أمره، وبعد مدة قدم إلى الشرق الجزائري، وانتصب للتدريس بها، ثم أسس لنفسه معهدا ببني فرقان في المنطقة نفسها. وهكذا بدأ صيته يشتهر. ينظر: (Mercier, Op.cit, p, p :309, 310)

[2] -Mercier, Histoire de Constantine, p, p :309,310.

[3]- العنتري، فريدة منسية، ص: 70.

[4]- سعيدوني، ورقات جزائرية، ص، ص: 270، 271.

كان عصمان باي على رأس المحلة خارج قسنطينة يستخلص مطالب الصيف، فلما وصلته الأخبار توجه لقتال ابن الأحرش، إلا أنه قُتل مع عدد كبير من جنود محلته بوادي الزهور، ومع من اجتمع معه من القبائل حشد كبير، وكان ذلك سنة 1219م/ 1804م[1]. وتخوف أهل قسنطينة من رجوع الشريف ابن الأحرش إلى البلاد فعند ذلك اجتمع" أهل الرأي والمشورة وهم: سيدي الشيخ (الفكون) والعلماء وديوان النوبة، وكتبوا للباشا وخبروه (أخبروه) بموت الباي، وفناء العساكر، وتشتيت الخزائن، والأمحال وخوفهم من رجوع الشريف إلى البلاد في الحال"[2].

لقد كشفت هذه الثورة عن مدى تباين مواقف البدو والحضر من السلطة، بحيث قالت القبائل البدوية المؤيدة لابن الأحرش لحضر مدينة قسنطينة أثناء محاصرة المدينة:" يقولون في ندائهم آه يا البلدية سترون ما نصنع بكم حيث عصيتم سيدي محمد بن عبد الله الشريف"[3].

أوفدت السلطة المركزية بايا جديدا وهو عبد الله بن سماعيل باي (1804-1806م) وحمَّله الباشا "جوابين: أحدهما إلى سيدي الشيخ ابن الفكون، والآخر إلى ناس البلد كافة خاصة وعامة"[4]. ومما ورد في الرسالة الموجهة للشيخ محمد الفكون:" الحمد لله، إلى العالم الأشهر، الخير الأنور، مأوى القليلين، وملجأ الضعفاء والمساكين، العارف بجميع العلوم، سيدي الشيخ بن الفكون... أمّا بعد فرانا (فإننا) نستكثروا خيرك من شأن وقوفك وصيانتك للبلاد، ونصحك وحمايتك للعباد، فإن ذلك منك معروف...إذ خيرك معنا سابق، فبالأحرى أن يكون بالزيادة لاحق، ثم نلتمس منكم الدعاء الصالح ... وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا... كتب بأمر الباشا بالجزائر"[5].

---

[1]- صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974. ص: 32.

[2]- العنتري، المصدر السابق، ص: 71.

[3]- العنتري، مجاعات قسنطينة، ص: 31.

[4]- العنتري، فريدة منسية، ص: 71.

[5]- العنتري، المصدر نفسه، ص: 72.

وافتتح الجواب الموجه لأهالي المدينة :" إلى العلماء الأبرار وناس قسنطينة الأخيار من الخاصة والعامة"، وفيه يشكرهم على حسن صنيعهم في دفع العدو ويطمئنهم ويهدئ من روعهم، إلى أن يقول:" وثم نوصيكم أن تكونوا حالا واحدة مع السيدي الشيخ بن الفكون فإنه عصبتكم في مهامكم ومرشدكم في نوائبكم"[1].

تمكن عبد الله بن إسماعيل من إلحاق هزائم متعددة بابن الأحرش عام 1806م، والقضاء عليه بالقرب من سطيف[2]، وعلى الرغم من التفاف القبائل حول ابن الأحرش زعيم هذه الثورة، إلا أنّ إتباعه للطريقة الدرقاوية حرمه من ولاء الكثير من أهالي الشرق الجزائري، لأن أغلب سكان هذا الإقليم ينتمون إلى الطريقة الرحمانية المهادنة للسلطة[3]، فلم ينضم إليه من شيوخ الزوايا والمرابطين إلا من كان ناقما عن السلطة[4].

لقد نجمت عن ثورة ابن الأحرش فتن عظيمة أدت إلى حدوث مجاعة كبيرة في المنطقة لانعدام الحرث، ودام القحط والغلاء في الحبوب سنة كاملة سنة 1219ه/ 1804م[5]. كما أن الاضطرابات بها أغرت حمودة باشا باي تونس بإرسال جيش عظيم لقسنطينة سنة 1221ه/1806م، وظل محاصرا لها لمدة شهر إلى أن وصلها المدد من مدينة الجزائر [6].

(2)- تدخل محمد الفكون في حسم الفتنة الواقعة اثر مقتل الباي علي باي بن يوسف:

يذهب العنتري إلى أن سبب اغتيال الجند للباي علي باي بن يوسف (1807-1808م) هو امتثاله لأمر الباشا بالتوجه إلى تونس، ذلك أن العساكر دخلهم الوجل ومازجتهم الحيلة والملل، فاتفقوا على قتله وتقديم بايا آخر من كبرائهم، وفعلا قتلوا الباي

---

[1]- العنتري، المصدر نفسه، ص، ص: 72، 73.

[2] - تشير بعض المصادر إلى أن ابن الأحرش ظهر من جديد بالغرب يقاتل في صفوف الثائر الدرقاوي. ينظر: محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ص: 77.

[3]- سعيدوني، ورقات جزائرية، ص: 286.

[4]- مثل المرابط الزبوشي والمرابط بن بعريش والمرابط بن بركات الذي جند القبائل المجاورة لبجاية.

[5]- العنتري، مجاعات قسنطينة، ص، ص: 33، 34.

[6]- العنتري، المصدر نفسه، ص- ص: 37- 40.

علي باي بن يوسف في سنة 1808م/ 1223ه، ونصبوا التركي أحمد شاوش القبائلي بايا جديدا، فاستولى على الخزائن، وأفرط في إنفاق الأموال، وتوزيعها مدة ولايته وهي خمسة عشر يوما[1].

إنَّ تصرفات الباي الجديد لم ترق لأهل قسنطينة فبعثوا كتابا إلى الباشا يطلعوه فيه على ما يحدث في مدينتهم، فرد عليهم بجواب مما ورد فيه بعد التحية:" جوابنا هذا يتصل بيد أحبائنا وأولادنا أولهم سيدي الشيخ بن الفكون، ثم العلماء ثم كبار الديوان ثم ناس البلاد..."، وأكد في هذا الجواب على أنّ:" العساكر حين ظهر فسادهم وانعدمت نتيجتهم فلا خير فيهم"، " وإني قد أهدرت دمهم فبادروهم واقتلوهم واقطعوا أثرهم"[2].

استصعب أهل قسنطينة "الأمر في هذه الكلفة، وعجزوا عن تخليصهم من تلك الورطة فتراهم التجأوا إلى سيدي الشيخ بن الفكون وطلبوا منه التدبير والرأي المصون"، فأشار عليهم بقتل زعيم الفتنة وهو أحمد شاوش الذي شق عصا الطاعة، ونصب نفسه بايا، وباشر بتضييع الخزائن، " وبعد قتله نكتب جوابا نستعطف فيه الباشا ليعفو عن العساكر، ويكون قتل أحمد شاوش فداء لهم". بعث أعيان المدينة إلى كبار العساكر وأخبرهم بأنّ الباشا أهدر دمهم، ثم طمأنهم "سيدي" الشيخ الفكون، وعرض عليهم التدبير الذي اتفق عليه هو وأعيان المدينة، فعمل الجند برأيه وقتلوا أحمد شاوش، " فحينئذ اجتمعوا أكابر البلاد وسيدي الشيخ بن الفكون وعمال الوطن، وكتبوا جوابا إلى الباشا يلتمسون منه العفو على بقية العساكر، فاستحسن الباشا الجواب وعفا عن العساكر، وعين بايا جديدا وهو أحمد طبال باي في آخر تلك السنة[3].

(3)– محمد الفكون وموقفه من الباي محمد شاكر:

---

[1]– العنتري، فريدة منيسة، ص، ص: 76، 77.

[2]– العنتري، المصدر نفسه، ص: 77.

[3]– العنتري، فريدة منيسة، ص: 78.

كان لمحمد الفكون أيضا دور في قضية باي قسنطينة التركي محمد شاكر (أو جاقر) (1814-1818م)، الذي يصفه العنتري بأنه:" رجل صاحب بطش... يسفك الدماء في الحق والباطل، يأخذ أرزاق الناس بالغزو"[1]. أما سبب تمرده عن السلطة المركزية ففيه روايتان الأولى للعنتري والثانية لفايسات (Vayssette).

فأمَّا رواية العنتري فتذهب إلى أنّ الداي حسين آخر دايات الجزائر، كان يكره الأتراك، ولهذا كتب إلى شاكر باي يأمره بقتل كبار الترك بقسنطينة عن آخرهم، إلا أنَّ الباي أخبر الأتراك بذلك، و" جمع العلماء وسيدي الجد الشيخ بن الفكون وأكابر البلاد"، وأخبرهم عن عزم الباشا على" فناء الترك... ويريد العرب من بعدهم"، وأعلمهم برفضه لهذا الأمر، فوافق الحاضرون على رأيه، واقترح عليهم تحصين المدينة "ولكن نحصنوا بلادنا، وإن جاءنا ظلم من قبل ذلك الباشا ندفعوه على أنفسنا، إلا سيدي الشيخ المذكور لن يوافقهم، ولم يرض بصنعهم قائلا: لا تغتروا بهذا الكلام، ولا تأمنوا لما تظهره الأيام، لو أنّ الجزائر انعدمت ودولة انقطعت لكان في ذلك كلام وتدبير، واليوم الجزائر لا زالت موجودة، وأحكام الباشا المذكور جارية منفردة في كل البلدان..." [2]. وهذا الموقف ليس مستغربا من أسرة الفكون التي خدمت العثمانيين لما يربو عن الثلاثة قرون.

وهذه المرة أيضا وصلت رسائل من الباشا إلى قسنطينة، إحداها لديوان النوبة يتضمن الأمر بقتل شاكر باي، والرسالة الثانية لأهل المدينة يوضح لهم فيها بأنه يريد قتل المفسدين من الأتراك حتى يستقيم حالهم، ومما ورد فيه:" إنما قصدي في الترك نقتل منهم أولاد الحرام... حتى يستقيم حالهم، ولا نفنيهم عن آخرهم". أمّا الجواب الثالث فهو موجه "إلى سيد الشيخ بن الفكون يستكثر من خيره، ويتعجب من سياسته وحسن صنيعه، ونصحه".

---

[1]- العنتري، المصدر نفسه، ص: 81.

[2]- العنتري، فريدة منيسة، ص: 83، 84.

وبعد قراءة الجوابين انفض الناس عن شاكر باي فتقدم إليه الديوان وقتلوه في الحين، وكان ذلك سنة 1233هـ/1817م[1].

ويشير فايسات إلى رواية أخرى مفادها أن الباشا عين قارة مصطفى بايا جديدا على قسنطينة بدلا من جاقر باي، ولكن هذا الأخير لم يقبل التخلي عن منصبه، وسعى في مقاومة الباي الجديد، إلا أن هذا الأخير تمكن من دخول المدينة " فاستجار شاكر باي بالشيخ الفكون فأجاره، غير أن قارة مصطفى انتزعه منه انتزاعا وقتله[2].

- وهناك رسالة موجهة من طرف الشيخ محمد الفكون إلى الداي حسين ردا على رسالة لهذا الأخير، ولكن موضوعها غير واضح، ويُستبعد أن تكون بشأن الأحداث السابقة لأن الشيخ الفكون، يؤكد أنه لا علم له بشيء عن الأمر الذي سأله الباشا عنه.

ومما تضمنته تلك الرسالة:"... المقام الذي ارتفع قدره بإضافة العدل على البلاد، وسما فخره بقمع أهل الزيغ والبغي والفساد... مولانا الصدر الهمام... سيدنا حسين باشا... قد بلغنا... كتابكم... وفهمنا ما تضمنه الأشرف خطابكم ممّا شوش العقول، وحيّر الأفكار لما تطرق الشريفة أسماعكم من الأخبار، مُستشرفين لما لدي في الأسرار، فالذي يصل مقام سيدنا... أني لم أطلع من شقة بأذني، ولم يشتَكِ به أحد لي، ولم يتحقق بطريق من طرق العلم لديَّ، ولو علمنا ذلك يقينا لوجب علينا الإعلام، إنَّ كتمان الشهادة من أعظم الآثام، مع أن النصيحة هي الدين كما قال سيد المرسلين صلى الله عليهم أجمعين سيما النصيحة لأئمة المسلمين إذ غشهم يعم جميع الرعايا... على أني مع كبر سني مشغول بخويصة نفسي، وما يعنيني من أحوال يومي وأمسي، لا أخرج من مضربي إلا لصلاة أو مذاكرة علم ... ولست ممن يستنشق الأخبار، ويبحث عن الأسرار... محمد بن عبد الكريم بن الفكون "[3].

---

[1]- العنتري، المصدر نفسه، ص: 84.

[2]- يحي بوعزيز، في تعليق له في كتاب فريدة منيسة، ص: 84. هامش 1.

[3]- جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500- 1830). الجزائر: دار الرائد للكتاب. 2010. ص، ص: 343، 344.

وبما أنَّ هذه الرسالة لا تحمل تاريخا، لا نملك إلا أن نؤكد بأنها تعود إلى الفترة الممتدة بين سنتي 1233هـ/1818م و1246ه/1830م[1]، وهي فترة حكم الباشا حسين داي الذي وجهت إليه الرسالة ردا على رسالته. ويبدو أنَّ هذا الأخير كان قد سأل محمد الفكون عن أمر يحدث بقسنطينة ويقلق السلطة المركزية، والعبارة التي افتتحت بها الرسالة تؤكد ذلك لأن أهل العلم كانوا يحرصون على موافقة الديباجة للمضمون منها:" وسما فخره (حسين باشا) بقمع أهل الزيغ والبغي والفساد ...".

وهذه الرسالة تفيض بالولاء والاحترام للباشا، وتنم عن حنكة صاحبها، بحيث خاطب الباشا بما يحبه الحكام من الإطراء والولاء، مع تأكيده له بأنه لو علم عن الأمر الذي سأله عنه الباشا يقينا لوجب عليه الإعلام، لأن غش أئمة المسلمين يعم جميع الرعايا. وهو بذلك يبين منهج الذي سار عليه أفراد بيته في علاقتهم مع السلطة.

(4)- الدور السياسي لمحمد الفكون بقسنطينة في عهد الحاج أحمد باي:

(أ)- دور محمد الفكون في تنظيم الأمور بقسنطينة إثر احتلال الجزائر سنة 1830م:

الحاج أحمد باي بن محمد الشريف هو آخر بايات قسنطينة، عين على رأس البايليك في سنة 1241هـ/1826م[2]، واحتفظ بمنصبه إلى أن تعرضت الجزائر لمصيبة الاحتلال، فشارك بجيشه في الدفاع عنها، ولما لمس مدى الضعف العسكري والفوضى الإدارية التي كانت تعيشها الأيالة آنذاك، سارع بالرجوع إلى مقره بقسنطينة، وعمل على كسب تأييد الحضر له، فأرضى شيخ البلد محمد بن الفكون لما له من نفوذ على القسنطينين[3]. واستطاع بفضل هذه الخطة أن يبقى على رأس البايليك لسنوات أخرى، وأن يؤخر احتلال قسنطينة إلى عام 1253ه/1837م.

---

[1]- أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص - ص: 141- 176.

[2]- العنتري، فريدة منسية، ص: 90.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2000. ص: 100.

وتمكن الحاج أحمد باي بفضل حنكته وتمرسه على الحكم من مواجهة الحركات التي قادها بعض المنافسين له، من ذلك إحباطه لتآمر الأتراك والكراغلة المعادين له بقسنطينة بزعامة حمود بن شاكر، مستعينا في ذلك بالقوى المحلية بزعامة شيخ الإسلام محمد بن الفكون[1]. وكان هذا الأخير يحضر رفقة أعيان مدينة قسنطينة للاجتماعات التي كان يعقدها أحمد باي للنظر في المستجدات التي كانت تطرأ على المدينة غداة الاحتلال[2].

فبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر اتفق كبار الأتراك بقسنطينة على إنهاء ولاية أحمد باي، وخرجوا بمحلتهم خارج المدينة وأرادوا قتاله ومنعه من دخول المدينة، فاجتمع " ناس البلاد والتجأوا إلى سيدي الشيخ بن الفكون"، واتفقوا بأن يبقى الحاج أحمد بايا عليهم لأن "سيرته حسنة وأحكامه مرضية مستحسنة"، ثم " تقدموا إلى حاج أحمد باي وسيدي الشيخ بن الفكون أمامهم"[3]، وأعلموه برغبتهم في أن يبقى بايا عليهم ووعدوه بالوقوف معه، فاستكثر من خيرهم وسكن روعهم، وعمل على إخضاع الترك الذي خرجوا عن طاعته، واجتهد في ترتيب عساكره وتنظيم صفوفه، وجدد بنيان أسوار المدينة وزودهم بالمدافع[4].

ويورد العنتري في "فريدة منسية" عقدا بين الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة مؤرخ بأواخر جمادى الأولى عام 1246هـ/ نوفمبر 1830م، أي بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومما ورد فيه:" هذا ظهير كريم وخطاب واضح... قد صدر ذلك وانبرم عندما هنالك من جانب أمير البلد المعظم ...السيد الحاج أحمد باي ...والعلم الجليل الخطيب الأصيل أبي عبد الله محمد شيخ البلد (الفكون)"، ثم ذكر ممثلي الهيئة الدينية الذين حضروا العقد وهم على التوالي: مفتي الحنفية، ومفتي المالكية، وقاضي المالكية، وناظر الأوقاف،

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص: 59.

[2]- العنتري، المصدر السابق، ص: 108.

[3]- العنتري، المصدر نفسه، ص، ص: 93، 94.

[4]- العنتري، فريدة منيسة، ص: 94.

وغيرهم من الأعيان، ومما يؤكد على مكانة الشيخ الفكون في المدينة هو إيراد اسمه قبل أسماء أصحاب الوظائف الدينية الكبرى المذكورة.

ومما ورد في هذا العقد:" الأمير المتفق على إمارته... وهو السيد الحاج أحمد باي المذكور... وأنه حرر الرعية من كافة المظالم السابقة، لا يطالبون بمغرم ولا محتمة ولا حلاس ولا جابذة، ولا غير ذلك من التكاليف الفارطة، ولا يأخذ منهم شيئا سوى الزكاة والعشور بوجه ما حكمه قانون الشرع العزيز للاستعانة على جهاد الكفرة دمرهم الله"[1].

ومن الأحداث التي عرفتها قسنطينة بعد الاحتلال هو ظهور الباي إبراهيم الكريتلي، باي قسنطينة السابق[2]، ومقارعته لأحمد باي من أجل استرجاع منصبه بمساعدة بعض القبائل، إلا أنه انهزم أمام أحمد باي المرة تلو الأخرى، وكان هذا الأخير قد تسمى باسم حاج أحمد باشا وضرب السكة في عام 1831م " وتمهد له الوطن، وصارت أحواله مستقيمة، وباقي في سيرة
طيبة وأحوال مرضية "[3].

أمَّا غريمه إبراهيم باي فتوجه إلى عنابة التي كانت بيد الفرنسيين، وطلب منه أهلها بأن يكون حاكما عليهم، لانقطاع السبل بينهم وبين قسنطينة فاستحسن طلبهم، ولكن أحمد باي جهز له جيشا، وحينئذ " تكلم سيدي الشيخ بن الفكون مع حاج أحمد باي، والبعض من أكابر قسنطينة"[4]، " قائلين له يا حاج أحمد باي الحق مع ناس عنابة من كونهم مُوَاليين البحر، وما عندهم قدرة يدفعون بها الضر، وعنابة في يد الفرانسيس فلا

---

[1]- العنتري، المصدر نفسه، ص: 137.

[2]- إبراهيم الكريتلي تركي قديم في قسنطينة، تولى بايا على قسنطينة في الفترة الممتدة من سنة 1237ه/ 1822م إلى سنة 1240ه/ 1824م، وهو حسب العنتري "رجل عاقل ما فعل الشر في زمن ولايته قط". ينظر: العنتري، المصدر نفسه، ص، ص: 88، 89.

[3]- العنتري، فريدة منيسة، ص: 95.

[4]- العنتري، المصدر نفسه، ص: 99.

يمكنك نزعها من يده... وكان الأحسن عليك ...أنك لو تتكلم مع الفرانسيس، وتكاتبه وتطلب مهادنته فبذلك... تنظم إليك عنابة من غير قتال ولا حرب "[1].

صمم الحاج أحمد على رأيه وأوفد الجيش الذي جهزه إلى عنابة، وجعل على رأسه أحد رفقائه المسمى ابن عيسى، وتمكن جيشه من دخول عنابة إلا الفرنسيين أخذوها منه، وعاد الجيش الذي بعثه إلى قسنطينة.

(ب)– تدابير محمد الفكون إثر الحملة الفرنسية على قسنطينة سنة 1836م:

تعرضت قسنطينة لحملة فرنسية بقيادة المدعو يوسف في سنة 1252هـ/1836م، إلا أنّ الحاج أحمد باي تمكن من ردها، وفشلت هذه الحملة فشلا ذريعا. وكان بعض أهل البلد "واتفقوا على أنهم يكتبوا جوابا إلى يوسف بالاعتذار، ومنهم سيدي الشيخ ابن الفكون، وسي محمد البجاوي قائد الدار..."، وسي محمد بن العنتري والد مؤلف "فريدة منيسة"، " وهو الذي كتب الجواب بيده"، وكان غرضهم التفاوض معه، والأرجح أنهم لم يسلموه الرسالة لانسحاب الحملة إلى عنابة. وكان الحاج أحمد خارج المدينة للدفاع عنها، لما أقبل أولئك الأعيان على مكاتبة قائد الحملة، فلما دخل المدينة قتل اثنين من الأعيان الذين حرروا الرسالة المشار إليها زاعما " أنهم مع أصحاب الفساد، وأنهم كانوا اتفقوا وأرادوا يدخلوا الفرانسيس إلى البلاد"[2].

ورغم معرفة الحاج أحمد الباي بضلوع الفكون في ذلك التدبير إلا أنه لم يجرأ على النيل منه، للعلاقة الطيبة التي تجمعه به، ولمكانته الكبيرة في المدينة، والأكثر من ذلك فإن الفكون أخذ يجادله :" قائلا له: يا حاج أحمد أنت أميرنا، والواجب على الأمير يحمي بلاده ... وأنت ما حميتنا ولا نصرتنا ولا دفعت بشيء علينا، فكيف لا نتحيلوا على أنفسنا ولا نسعوا في العافية لنا ولأولادنا"، ثم ذَّكره بدفاع أهل قسنطينة عن مدينتهم من قبل في ثورة ابن الأحرش، في حصار عساكر تونس لها إلى أن قال:" واليوم ما عندنا نصرة ننتظروها، ولا لنا

[1]– العنتري، المصدر نفسه، ص: 100.

[2]– العنتري، فريدة منسية، ص: 104.

قدرة على الفرانسيس ندفعوه بها، وقد كان الفرنسيس أخذ الجزائر الذي هي عمدتنا، وقاعدة وطننا وملكنا، فكيف نحن لا نعتزوا على أنفسنا، ولا نطلبوا المهادنة لتكون العافية لنا ولأولادنا، وكان اتفاقنا معك يا حاج أحمد باي على العدل وعدم الظلم، ونحن الآن لا نرضوا بهذا الحكم". وبعد هذا كف أحمد باي "يده على قتل العباد، وخشي أن تقوم عليه فتنة من بعض ناس البلاد "[1].

(ج)– تدابير محمد الفكون إثر الحملة الفرنسية على قسنطينة سنة 1837م:

تعرضت مدينة قسنطينة لحملة فرنسية أخرى، وتمكنوا هذه المرة من دخولها في شهر رجب عام 1253ه/ أكتوبر1837م، فاتجه أهل المدينة كعادتهم" إلى سيدي الشيخ بن الفكون مستغيثون قائلون كيف يكون خلاصنا... فأشار عليهم بتعليق بنديرة (علم) طلب الأمان، التي هي علامة الدخول في الطاعة... وكتب جوابا في الحال أعطاه للبعض من أعيان البلد وأمرهم يمشون بالفور لأجل مقابلة السلطان والمارشال فيطلبون العفو ويتوثقون منهما بالأمان"[2] فامتثلوا لأمره، وقدم الكومندو بيدو (bedeau) إلى دار الفكون ليطمئن أهل البلد في الأمان، فقال له الفكون:" إن هذه البلد لم تدخل عنوة من قديم الزمان إلا هذه المرة فقد مكنهم الله تعالى منها، فيجب أن تعملوا الخير وتعطوا الأمان إلى ناس البلد، فبذلك يتمهد لكم الأمر وتذعن إليكم الرعية والعباد"[3].

(د)– تعيين حمودة بن الشيخ الفكون حاكما على قسنطينة:

لقد أدرك الفرنسيون مكانة أسرة الفكون في المدينة، ولهذا استندوا إليها في توطئة المدينة كما كان يفعل العثمانيون من قبلهم، فأظهروا الاحترام للشيخ محمد الفكون، وعينوا ابنه حمودة حاكما على المدينة. وفي رواية للعنتري أن الفرنسيون فكروا " في شأن تهنئة البلاد، وتمهيد الوطن، وجلب العباد، فاتفق رأيهم أنهم يجعلوا حاكم في قسنطينة كما كانت العادة

---

[1]– العنتري، المصدر نفسه، ص، ص: 104، 105.

[2]– العنتري، المصدر نفسه، ص: 113.

[3]– العنتري، فريدة منسية، ص: 113.

القديمة حتى يستقيم الحال، وينتظم الأمر... ثم إنهم اتفقوا على سي حمودة ولد سيدي الشيخ واختاروه لذلك الوظيفة يقدموه لكونه ذو أصل قديم، ونسل شائع كريم"[1].

وبعد اليوم السابع من الاستيلاء على قسنطينة اجتمع أكابر الفرنسيين وأعيان البلد والعلماء بالجامع الكبير لمراسيم تعيين حمودة الفكون" فلما سمع أبوه وهو سيدي الشيخ تحير وبكى قائلا: ولدي صغير، ونحن زاوية ملجأ القليلين نطعم الطعام لوجه رب العالمين، وما نحتاجوا من الدولة الفرنصاوية إلا الاحترام مثل ما كانوا دول الأولين، فأجابوه قائلين: لا بد من ولدك يخدم في سربيسنا (notre service)، وما يكون لكم ولزاويتكم إلا الاحترام منا "، فنزل الشيخ الفكون عند رغبتهم و" قدم ابنه بطيب نفسه، فحينئذ لبسوه، ولما شاع خبر ولايته انقادوا مشايخ الوطن، ودخلوا في خدمة الفرانسيس بواسطته، وانعطفوا عليهم ناس البلد"[2].

كان الجنرال تريزيل (Trezel) هو الحاكم الأول في قسنطينة، " وكل الأحكام بأمره وبنظره، ومن بعد ذلك كان سي حمودة ابن الشيخ واقف مع الفرانسيس بخالص نيته، و لم يقصر في خدمته، وكان يكتب إلى شيوخ الوطن ويجلبهم"[3]. يتبين من هذا كله أنَّ الفرنسيين قد أحسنوا استغلال مكانة بيت الفكون لصالحهم، وفي كتاب " فريدة منسية" عبارات كثيرة تفيد بذلك.

– المبحث الرابع: الدور السياسي لبيوتات علمية مختلفة:

كانت السلطة تكلف رجال الدين البارزين من علماء ومرابطين بمهام الوساطة السياسية في المناطق التي يتمتعون فيها بنفوذ واسع، سواء في المدن أو في الأرياف، وبما أن أكثر رجال الدين نفوذا في المجتمع هم منحدرون من بيوتات علمية ودينية بارزة، فإن الأغلبية الساحقة

---

[1]– العنتري، المصدر نفسه، ص، ص: 114، 115.

[2]– العنتري، المصدر نفسه، ص: 115.

[3]– العنتري، فريدة منسية، ص: 115.

ممن قاموا بمهام من هذا النوع كانوا من أبناء تلك البيوتات. كما كانت السلطة تكلف كبار العلماء بمهام سياسية لدى بعض الدول الإسلامية.

وهناك بيوتات قامت بأدوار سياسية بحكم مكانتها لدى أهالي المناطق التي تقيم فيها أو القريبة منها، كالإصلاح بين القبائل، وقد كانت تقوم بذلك بإيعاز من السلطة أو بدونه.

(أولا): دور البيوتات العلمية في المهام السياسية الخارجية:

تُعد البيوتات العلمية بمدينة الجزائر أكثر البيوتات التي قامت بدور الوساطة خارج البلاد، لأنها مقر السلطة المركزية، وللصلة التي تربطهم بالحكام من بشوات أو دايات. ومن الدلائل التي تبين أهمية ومكانة تلك البيوتات وقربها من أصحاب القرار السياسي، استنجاد المظلومين بها من علماء وغيرهم[1]. ومن العلماء الذين كُلفوا بمهام سياسية خارجية الشيخ محمد القوجيلي، الشيخ محمد بن العنابي، والشيخ محمد بن نيغرو، والشيخ محمد بن محمد الطيب الخنقي.

(1)- الشيخ محمد بن علي القوجيلي الحنفي في مهمة سياسية بإستنبول:

تولى يوسف باشا الحكم عدة مرات بالجزائر بين سنتي: 1044- 1064ه، وقد تقرب من العلماء فأحبوه كثيرا، ووقفوا إلى جانبه في أصعب المواقف كثورة ابن صخري، كما وقفوا إلى جانبه بعد عزله من منصبه. ومن أكثر العلماء صلة بيوسف باشا : الشيخ علي الأنصاري، عيسى الثعالبي، يحي الشاوي، عبد الكريم الفكون، محمد البوني، والشيخ محمد بن علي القوجيلي.

ورغم عدم تدخل العلماء آنذاك في تعيين الحكام إلا أن مؤيدي يوسف باشا شكلوا وفدا من العلماء والأعيان سنة 1065ه/1654م وبعثوا به إلى الباب العالي لمقابلة السلطان، من أجل طرح قضية بلادهم والمتمثلة في الأوضاع الداخلية المتأزمة بها في عهد

[1]- هناك مثلا قصيدة للسيد محمد الشياح يستنجد فيها بالشيخ محمد بن علي الحنفي الوالد من أمر ألم به. ينظر: أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص، ص: 107، 108.

يوسف باشا. وقد التمست البعثة من السلطان إعطاء موافقته على تعيين يوسف باشا حاكما على الجزائر[1].

ترأس الوفد المذكور الشيخ محمد بن علي القوجيلي ابن إحدى إلى الأسر العلمية، وقد كان هذا الأخير مُحدثا وشاعرا من أبرز الشعراء الجزائريين خلال القرن الحادي عشر الهجري، كما كان قاضيا للحنفية بمدينة الجزائر، ومن مشاهير العلماء بها. سافر القوجيلي رفقة الوفد إلى مدينة إسطنبول، مُعرضا نفسه للمخاطر، بحيث كان بعض البشوات عندما يعتلي الحكم ينتقم من خصمه، ومن كل من وقف معه.

إنَّ تدخل القوجيلي في أمر كهذا يبين أنه كان مشاركا في الحياة السياسية، وقد كانت هذه الرحلة فرصة اتصل فيها بمفتي الدولة العثمانية وشيخ الإسلام، وصاحب هذه الوظيفة يتقدم حتى على الوزراء، فهي ليست وظيفة دينية فقط، بل صاحبها له يد في السياسة أيضا، وقد مدحه القوجلي بقصيدة هي من بين أروع وأجود قصائده[2]، وتعتبر هذه القصيدة -حسب أبو القاسم سعد الله- وهي أيضا من أقوى الشعر السياسي في العهد العثماني[3].

وقد كلف علماء آخرين بمهام سياسية إلى حاضرة الخلافة، ومنهم مفتي مدينة الجزائر الشيخ أبو الربيع سليمان الأوراري، ولا شك في أنه كان من العلماء البارزين في المدينة، ولكن لا ندر إن كانت أسرته أسرة علمية أم لا. والنص الذي ورد في "محدد السنان"، وورد باختلاف طفيف في "نوازل الفكون" هو :" كتب الفقيه العلم مفتي حضرة الجزائر المحمية أبو الربيع سليمان الأوراري سائلا الشيخ الفقيه العالم الصدر الشهير مفتي الحضرة الحقانية

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص، ص: 204، 205؛ المؤلف نفسه، مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية، ص: 17.

[2]- أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص، ص: 27، 28.

[3]- ينظر هذه القصيدة: أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 125 وما بعدها.

والدار السلطانية المعروفة بالقسطنطينية (أبي محمد بن سعد الدين) ... عند اجتماعه به حين وجهه جيش الجزائر صحبة مفتيها وغيره من الفقهاء للدار العلية" " في قضاء ومآربهم" [1].

(2)- الدور السياسي للشيخ محمد بن العنابي الحنفي:

كان بيت ابن العنابي من البيوتات المحظية بمدينة الجزائر خلال القرن 18م، ونظرا لصلة أبناءه بأصحاب القرار فقد ولوهم الوظائف الدينية العليا كالقضاء والإفتاء الحنفي، وبهذا كان له تأثير أيضا في السياسة، وبحكم ذلك استنجد به المظلومون، من ذلك لجوء الشيخ أحمد بن ساسي البوني إلى الشيخ مصطفى بن العنابي بعد تعرضه لأزمة سنة 1106هـ/ 1694م نتيجة وشاية بعض الخصوم به وبصديقه المفتي إلى الباشا، وقد صدَّقهم الباشا، فعزل المفتي وأساء لأحمد البوني[2]. وكما هو معلوم فإنَّ الاستنجاد لا يكون إلا بذوي الجاه والنفوذ.

وقد ظلت مكانة بيت العنابي في تصاعد مستمر، وولي عدد من علماءها وظائف القضاء والفتيا، ويعد الشيخ محمد بن العنابي أبرز علماء هذا البيت، وقد تمتع بجاه عريض وبمكانة مهمة لدى السلطة. ولا شك في أنَّ مكانته تلك محسوبة على بيته، إلى جانب مؤهلاته الشخصية، إذ وصفه معاصره عبد الحميد بيك بأنه كان:" عالما في باقي المنقول والمعقول، والسياسات العمومية، والخصوصية الخارجية والداخلية "[3].

وقد كان ابن العنابي من العلماء المؤيدين للدولة العثمانية، وذلك ما صرح به في كتابه "السعي المحمود" بقوله:" ولولا ظهور الدولة العثمانية- أعلى الله مقامها ورفع بالتأييد والنصر أعلامها- فجدد القائمون بأعبائها معالم الدين، وأحيوا ما اندرس من شريعة

---

[1]- عبد الكريم الفكون، "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" مخ، ص: 12؛ محمد الفكون، "نوازل الفكون" مخ. ص، ص: 580، 581. وموضوع هذه المكاتبة هو سؤال نظمي حول التدخين، وكان جواب مفتي استانبول أيضا نظمي.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص، ص: 92، 93.

[3]- عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 190.

المرسلين، لاتسع الخرق، وعم الفساد سائر الخلق". ولا غرابة في ذلك فهو منحدر من أسرة تركمانية، خدمت العثمانيين في الجزائر زمنا طويلا "[1].

كان ابن العنابي محل ثقة بالنسبة لبعض دايات الجزائر، إذ تتحدث الأخبار على أنَّ الداي أحمد باشا [2] كلفه بالكتابة إلى حمودة باشا باي تونس، وكان عندئذ يشغل خطة القضاء الحنفي[3]. وهذا يدل على ثقة الداي في كفاءته السياسية، إذ كلفه بهذه المهمة رغم وجود كتاب الرسميين، والمعروف أن مهمة الكتابة ليست من مهام القاضي.

كما كلفه الداي عمر باشا[4] بسفارة إلى المغرب الأقصى في سنة 1232ه/1816م، وكان حينها يشغل أيضا خطة القضاء الحنفي، وهذا من أجل طلب المساعدة العسكرية لتجديد الجيش والأسطول البحري بعد القصف الإنجليزي لمدينة الجزائر، والذي أدى إلى تحطيم معظم الأسطول الجزائري في شهر أوت 1816م/شوال1231ه[5]، والمعروفة بحملة اللورد اكسماوث (Exmouth)، وهذا هو نص الزهار:" كتب الأمير للسلطان مولاي سليمان أيضا، وعين السيد الحاج محمد العنابي قاضي السادات الحنفية رسولا" [6]، وقد أحسن السلطان استقباله، وكانت هذه المهمة ناجحة، بحيث قدم السلطان المولى سليمان مساعدة للجزائر[7]، وهذا يدل على أنه كان عالما دبلوماسيا ناجحا.

وذهب الشيخ محمد بن العنابي لإسطنبول مبعوثا من الداي عمر لنفس الغرض الذي ذهب به إلى المغرب الأقصى[8]، فقد ورد في" كتاب التشريفات" خبر مفاده أنه :"في 24

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص: 75.

[2]- تولى الداي أحمد باشا خلال الفترة الممتدة من 1220- 1223ه/ 1805- 1808م. ينظر: أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص:97.

[3]- أحمد الشريف الزهار، المصدر نفسه، ص: 97.

[4]- تولى الداي عمر باشا خلال الفترة الممتدة من 1230- 1232ه/ 1814- 1816م. ينظر: أحمد الشريف الزهار، المصدر نفسه، ص - ص:117- 130.

[5]- محمد بوشنافي، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني، (أطروحة دكتوراه)، ص:148.

[6]- الزهار، المصدر السابق، ص: 127.

[7]- " أعطاه مركبين من نوع كربيط، وبلاندرة وأعطاه أموالا وأمره بتسليمها للمجاهدين" ينظر: مذكرات الزهار، ص: 127.

[8]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج3، ص: 198.

جمادى 1232ه (1817م) ذهب سيدي محمد بن العنابي القاضي الحنفي في سفارة لدى السلطان "[1] محمود.

(3)- دور الشيخان علي بن النيكرو ومحمد الخنقي في الوساطة بين الجزائر وتونس:

كانت العلاقات بين الأيالتين العثمانيتين المجاورتين الجزائر وتونس متوترة طيلة العهد العثماني، ولهذا أوفدت الجزائر بعض العلماء من أجل التوسط لحل الخلافات بينهما، وبعضهم من أبناء البيوتات العلمية، كالشيخ علي بن النيكرو الذي كان كاتبا بدار الإمارة، كما كان يتمتع بمكانة رفيعة لدى الداي علي باشا (1232ه-1233ه)، ولهذا أرفقه في مهمة سياسية في آخر سنة 1232ه/ 1816م[2].

أراد الداي علي أن يعقد الصلح بينه وبين تونس فبعث إليها "الحاج يوسف من كبراء المماليك، وبعث معه العالم العلامة الشيخ علي بن النيكرو الباش كاتب"[3]، إلا أنَّ الصلح لم يتم إلا عام 1235ه/ 1820م، إذ "بعث مولانا السلطان محمود خان إلى أمير الجزائر وأمير تونس بأن يرسل كل منهما رجلا من الوجاق لكي يحضر عنده لينظر في أمر الجميع" [4]. كانت الأمور بين الأيالتين قد بلغت درجة الانسداد، ولهذا لم يتم الصلح بينهما إلا بتدخل من السلطان العثماني.

ووظيفة الباش كاتب، هي من المناصب الرفيعة في الدولة، وصاحبها هو الكاتب الأول ضمن هيئة الكتاب، ونظرا لمكانته كان يلقب بلقب أفندي، وفي أواخر العهد العثماني كثيرا ما كان يعين في هذا المنصب وجهاء وأعيان الجزائر، من حضر وكراغلة[5].

ونظرا لقرب خنقة سيدي ناجي من تونس، فقد ذاع صيت بعض علماء بيت ابن ناجي بها، كما كان بعضهم على صلة بحكامها، كالشيخ محمد بن محمد الطيب الخنقي،

---

[1]-Devoulx, Tachrifat, p : 78.

[2]- أحمد الزهار، المصدر السابق، ص: 146.

[3]- أحمد الزهار، المصدر نفسه، ص: 138.

[4]- أحمد الزهار، المصدر نفسه، ص: 146.

[5]- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص، ص: 176، 177.

وهو من أبرز علماء بيت ابن ناجي، وتذكر بعض الدراسات أنه كان سياسيا بارعا، تم الاعتماد عليه كوسيط بين بايات قسنطينة وبايات تونس، فساهم بدور كبير في تسوية الخلافات بين الأيالتين الجزائر وتونس[1].

(ثانيا): دور البيوتات العلمية في المهام السياسية الداخلية:

يختلف دور البيوتات في المهمات السياسية الداخلية من منطقة لأخرى حسب علاقة سكانها بالسلطة ومواقفهم منها، فلم تقم بيوتات مدينة الجزائر بأدوار مهمة في هذا المجال، فقد كانت قبضة السلطة فيها قوية جدا، لأنها عاصمة البلاد، فاقتصر الدور السياسي لبيوتاتها على البعثات الدبلوماسية الخارجية وغيرها، أما بايليك الغرب فقد كانت جل قبائله غير معادية للسلطة، ولهذا لم تلعب بيوتاتها دور كبير كوسطاء سياسيين، في حين كانت أدوار بيوتات الشرق فعالة جدا لقوة شكيمة قبائلها وتحديها الدائم للسلطة، ولهذا كانت الدولة بحاجة للتحالف مع البيوتات ذات النفوذ الواسع، واستعمالها كأداة فعالة لإحكام سيطرتها على البايليك. وفيما يلي أمثلة عن وسطات قام بها أبناء بعض البيوتات.

(1)– دور السيد محي الدين بن مبارك القليعي في الوساطة السياسية:

تمتع بيت المرابط "سيدي" علي بن مبارك بالقليعة بنفوذ واسع بدار السلطان، وقد حظي

بامتيازات مهمة من طرف السلطة الحاكمة. وظل يحتفظ بمكانته تلك طيلة العهد العثماني، حتى أنه لما وقع زلزال بمدينة الجزائر وعمالتها في عام 1217هـ/1802م، وتهدمت قرية القليعة، وهلك بها خلق كثير، ذهب إليها مصطفى باشا (1212- 1220هـ) بنفسه، ومن الأمور التي أمر بالبدء بها، هو أمره " بإعادة بناء جامع سيدي علي مبارك حينا، ومنارته، والزاوية "[2].

---

[1]– عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، ص:359 ؛ محمد لعباسي، الإفتاء في الجزائر العثمانية (أطروحة دكتوراه)، ص :192.

[2]– أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص: 83.

وأورد الزهار في مذكراته خبرا مفاده أن قبيلة مُزايـــة تمردت في ولاية أحمد باشا (1220ه- 1223ه)، و"خرجت إليهم المحلة، فقتلوا من العسكر عددا كبيرا، فبعث الآغا إلى سيدي محي الدين بن سيدي علي بن مبارك، فتوسط "[1]. ومحي الدين هذا هو غير محي الدين بن علي المتوفى سنة 1057ه/1647م، ويتعلق الأمر بتشابه الأسماء بين الخلف والسلف في نفس البيت، لبعد الفترة الزمنية بينهما. وتؤكد هذه الرواية على المكانة التي تمتع بها أبناء هذا البيت إلى حد جعل السلطة تستعين بهم في إخماد ثورات القبائل المتمردة.

(2)- دور محمد بن إبراهيم البوني وبيته في الوساطة السياسية بباليك الشرق:

أكثر البيوتات التي قامت بدور الوساطة بالجزائر هو بيت الفكون، الذي شارك في الأحداث الواقعة بباليك الشرق عموما، وبقسنطينة خصوصا منذ ضمها للسلطة المركزية إلى الاحتلال الفرنسي، ولكثرة المهام التي قام بها علماء هذا البيت خصصنا له مبحثا.

كما كان بيت البوني يتمتع بنفوذ كبير بالمنطقة وهذا ما أهل بعض فقهائه للقيام بمهام الوساطة السياسية، كالشيخ محمد ساسي البوني الذي جمع بين العلم والتصوف، ورغم تصديه للتدريس بالجامع الأعظم ببونة، إلا أن شهرته اكتسبها من التصوف لا من العلم، فصار له جاه عريض ببونة وما حولها، فكان "مسموع القول عند الخاصة والعامة"، وقد اتهمه معاصره الشيخ الفكون بخروجه عن التصوف الصحيح، وعدد كثيرا من تجاوزاته الخارجة عن الدين في كتابه "منشور الهداية" [2].

وبلغ به الأمر إلى أخذ أموال الناس بوســـائل باطلة، مستغلا نفوذه من جـــهة وبساطة تفكيرهم من جهة أخرى، وهذا النص الوارد في "منشور الهداية" يوضح ما نحن بصدده :" ومما يؤثر عليه أنه جعل مستحما بداره، ويقال أنه سماه بحمام أهل الصفا، ويذكر أن أهل بلده جعلوا على أولادهم وظيفا (مبلغا من المال)، وذلك أنه من يوم الجمعة إلى الجمعة الأخرى، وأما جبايا البوادي له والوعدات من الصغيرة إلى الكبيرة وزكوات أهل

[1]- أحمد الزهار، المصدر نفسه، ص: 95.

[2]- الفكون، منشور الهداية، ص: 165.

وطنه، وخصوصا أهل الأندلس الساكنين ببلده، فهي أعظم من أن تعد، على ما ذكره لي غير واحد" [1].

وكما هو واضح فإنَّ السلطة لم تسع للحد من تجاوزات هذا الفقيه المرابط، سيما ما يتعلق منها بأخذ الجباية عن الأندلسيين بدون حق، ولكنها عمدت للاستفادة من نفوذه لصالحها، إذ أهلته هذه المكانة ليقوم بدور سياسي لصالح السلطة أثناء ثورة ابن صخري.

وهناك ثلاثة رسائل متبادلة بين الشيخ محمد البوني وبين يوسف باشا، الذي تولى الحكم في الجزائر في منتصف القرن السابع عشر، وقد واجهت الدولة خلال هذه الفترة ثورة ابن صخري، التي كادت أن تقصف بالوجود العثماني كله، وقد كانت هذه الثورة سبب المكاتبة بين يوسف باشا ومحمد ساسي البوني[2].

خلاصة الثورة أن مراد باي، والي قسنطينة قد أحس باستقلال شيخ العرب محمد الصخري بوعكاز شيخ الذواودة فاستدعاه مع كبار عرشه إلى معسكره قرب مدينة قسنطينة، متهما إياه بالتمرد والعصيان، وحاكمه بواسطة الديوان، فحكم على محمد بن الصخري مع ابنه أحمد وستة من أعيان العرب بالإعدام، ونفذ فيهم الحكم، وكان ذلك سنة 1047هـ/ 1637م، فأعلن أخ القتيل أحمد بن الصخري الثورة على السلطة[3]، وتعرض مراد باي أمامه لهزائم ساحقة، ولم يتمكن من السيطرة على الوضع بالرغم من النجدات التي أوفدها له الباشا. شملت هذه الثورة جزءا واسعا جدا من الشرق الجزائري، وتأثرت التجارة وتعطلت الطرق وشاعت الفوضى، وهذا ما جعل يوسف باشا يتوجه بنفسه لمحاربة الثوار في الشرق الجزائري، لتوطيد الأمن، فأقام سنة كاملة في قسنطينة من أجل ذلك.

ولتحقيق هذه الغاية عمد يوسف باشا للاستفادة من نفوذ العلماء ورجال الطرق الصوفية في المدن والأرياف، وتجنيدهم إلى جانب السلطة التي كانت تحارب الثوار، ويوسف

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، ص، ص: 165، 166.

[2]- يذهب حسن دردور أن الذي تدخل في ثورة ابن صخري بطلب من السلطة هو المفتي قاسم بن ساسي البوني، وهذا غير صحيح. ينظر كتابه: (Annaba, t:2 , p : 92).

[3] -Mercier, Histoire de Constantine, p :224.

باشا هذا هو الذي عرف بتقريبه للعلماء في مدينة الجزائر، وفي بقية البايليكات. فمن أساليب الحكم العثماني الاعتماد على العلماء والمرابطين وقت الشدة باعتبارهم كانوا يمثلون الرأي العام، ويؤثرون على العامة بما لهم من نفوذ روحي، إلى جانب الموعظة والنصح[1].

ولدينا رسالتان موجهتان من يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني، وواحدة موجهة من هذا الأخير للباشا. وفي رسالة يوسف باشا الموجهة إلى محمد ساسي الجد أوائل ذي الحجة السنة 1050ه/ 1640م أخبره فيها أنه كان عازما على الجهاد ضد الإسبان بوهران، ولكنه عدل عن ذلك لوقوع ثورة في شرق الجزائر، وأنه قرر التوجه شخصيا إلى قسنطينة وبسكرة ونواحيهما لإخماد نيران الثورة وتفقد أحوال الرعية. وقد ركز الباشا على دور العلماء في مثل الظروف التي كانت تمر بها البلاد، من وجوب طاعة أولي الأمر ونصح الرعية [2].

ومما ورد في هذه الرسالة بعد الحمدلة:"...إلى سيادة الفقيه الصالح الناصح الولي العارف بالله... أبي عبد الله سيدي محمد ساسي قوى الله مدده، وأكثر حزبه وعدده..."، وقوله أيضا :" فلتخولوا رضي الله عنكم الخاصة والعامة بالذكرى والموعظة الحسنة، كدأب العلماء في طريقتهم المثلى، وسيرتهم المستحسنة، فإنَّ الملة الإسلامية لا يستقيم دينها ودنياها... إلا بسنان الولاة ولسان الهداة، فردوا شاردهم إلى الله تعالى بالدعاء والدعوة"[3].

وفي الرسالة التي بعث بها ابن ساسي البوني ليوسف باشا جوابا على رسالته السابقة[4]، وهي بدون تاريخ، ولكن من الواضح أنها كتبت أواخر شهر محرم عام 1051هـ، وقد طلب الشيخ العفو لأهل بونة ونواحيها، وأشار فيها إلى تأثره بما جرى من أحداث،

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص: 47.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 50.

[3]- للاطلاع على هذه الرسالة ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص- ص:54- 56.

[4]- للاطلاع على نص هذه الرسالة ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص- ص:56- 58؛ جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث. ص- ص: 107- 109.

ونَصَح الباشا بالصبر، ووعده بأنه لا ينكث له عهدا، ولا ينسى له ودا، والرسالة مليئة بألفاظ المدح والثناء للباشا[1].

أما الرسالة التي بعث بها يوسف باشا إلى محمد ساسي البوني ردا على رسالته السابقة، فهي مؤرخة بأواخر صفر من عام 1051هـ، وبعد أن خاطبه بألفاظ الإطراء العلمية والصوفية، أشار إلى أن العامة قد تفسر العفو على أنه ضعف، وأنهم قد أساؤوا إلى السلطة بتمردهم فاستحقوا العقاب الشديد إلا أن الباشا سيعفو عنهم تقديرا للشيخ، وعلى الشيخ وأمثاله من العلماء القيام بدورهم نحو الباشا ونحو الأمة الإسلامية، لأن طاعة السلطان من طاعة الله عز وجل ورسوله[2].

وقد ظلت علاقة هذا البيت قوية بحكام الجزائر، رغم أن مصادرنا لا تذكر لهم أدوارا سياسية خلال القرن 18م، وأكثر حكام الجزائر صلة بهذا البيت هو الداي محمد بكداش، وهو من بشوات الجزائر المثقفين، وكان والده من المهتمين بالتصوف. جاء بكداش إلى الجزائر من الأناضول صغير السن والتحق بالجندية، وتدرج في الوظائف إلى أن تولى دايا سنة 1118ه/1707م، وأثناء وجوده في الجندية انضم إلى طريقة قاسم بن محمد البوني في عنابة، وتردد عليه. وكان بكداش يقرأ العلم وينظم الشعر، ويتقرب من العلماء، وقد كان على صلة قوية بأسرة البوني لا سيما أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني الذي تبادل معه الرسائل[3].

ولدينا رسالة بعث بها محمد بكداش لأحمد البوني سنة 1115ه/ 1703م، عندما كان بكداش متوليا لخبز العسكر، ردا على رسالة بعث بها له أحمد البوني، أما موضوع الرسالة فهي من نوع الاخوانيات، ومما ورد فيها إشارته إلى عراقة بيته العلمي بقوله:" وأعجبني حسنكم وأعطافكم، مما حزتموه أصلا عن نهج أسلافكم، العارفين الأولياء الأتقياء العلماء

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص: 50.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص:51.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص:49.

العاملين... فأنتم وايم الله دار العلم والولاية... أخذتم نهج القوم عن أسلافكم، فصار الحسن من بعض أوصافكم"[1].

وقد ظلت صلة بكداش بهذا البيت قوية عندما أصبح دايا، ولهذا أكثر الشيخ أحمد بن قاسم البوني من نظم القصائد في مدحه، كما مدحه عالمين آخرين من أسرة البوني، وهما: مصطفى بن عبد الله، ومحمد بن أحمد[2].

(3)– الدور السياسي لأسرة الورثيلاني ببلاد زواوة:

كانت قبضة السلطة قوية في المدن أما في بعض المناطق الريفية فالأمر يختلف تماما، بحيث كانت سلطة الدولة شبه غائبة في بعض المناطق ومنها بلاد زواوة، وذلك ما ذكره الورثيلاني :"وطننا طيب فيه العلم... غير أنه خال من السلطان وأحكامه، فالوطن سائب عمَّره الله بالأحكام الشرعية، وأزال منه الفتنة، وبدل ذلك بالعافية الدائمة ...فنسأل الله أن يعمره على يد سلطان عدل..." [3].

كثرت الفتن بتلك المنطقة لغياب سلطة الدولة، مما حتم على العلماء والمرابطين وشيوخ الزوايا سيما أبناء العائلات المشهورة وذوي المكانة الروحية المرموقة للمبادرة لدرء الفتن بدل السلطة، وهذا ما يدعوا إليه الورثيلاني صراحة بقوله :" فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة، وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات بين، إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير، والفتنة بينهم قلَّ أن ترتفع والهرج بينهم قوي... وحكم السلطان غير نافذ فيهم إذ لا يقدر عليهم، وإن كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال، فلم يفد فيهم إلّا همة الصالحين وأهل الخير،

فيجب على من يقبل منه أن يذهب إليهم ويصلح حالهم ليرتفع ما فيهم من المعصية ..."[4].

---

[1]– للاطلاع على نص الرسالة ينظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص– ص: 60– 62.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 257.

[3]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 44.

[4]– الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص، ص: 18، 19.

وهناك عدة نصوص في رحلة الورثيلاني تشير إلى تدخله لحل بعض الفتن، ودور كهذا لا يقوم به إلا عالم أو مرابط يتمتع بنفوذ روحي قوي. وقد كان الورثيلاني يقوم بهذا الدور من تلقاء نفسه، وأحيانا بإيعاز من السلطة، كما في هذه النص:" وقد خرجت طائفة باغية من بني إبراهيم وهي وسر وأولاد الخلف، ومن أراد الحرابة والزنى والسرقة فليتحصل بهؤلاء العروش أخلى الله منهم الأرض، وقد أعانني فيهم المجاهد في سبيل الله القامع للمتمردين سيدي أحمد باي إذ نصرني، وأعطى أمر المحلة في يدي، وأحرقت أولاد الخلف وقرية وسر وسكانها وبني عشاش، وفي تلك السنة جعلت عليهم وأمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة وسبعين إلى أن يتوبوا لله ولرسوله ويرجعوا إلى الأحكام الشرعية"[1].

لقد كان القضاء على الفتن من الأولويات بالنسبة للورثيلاني ، حتى أنه لم يعقد نيته على الحج سنة 1179ه/1765م إلا بعد أن قام بأمر مهم جدا وهو إصلاح ذات بين. وكان يرى في ذلك واجبا شرعيا. وفي النص الموالي إشارات تثبت ذلك:" فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات بين، إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير، والفتنة بينهم قلَّ أن ترتفع، والهرج بينهم قوي... وحكم السلطان غير نافذ فيهم، إذ لا يقدر عليهم وإن كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال، فلم يفد فيهم إلاَّ همة الصالحين وأهل الخير... وبالجملة فذهبنا لبعض القرى قد خربت من أجل ذلك وعلها ترجع للعمارة، وكان ذلك في يد متولي أمرهم سلطان مجانة... وهو المعظم الأجل محب الصالحين الشريف المبارك محمد بن أحمد بن القندوز المقراني ثم العباسي متوجهين إلى تلك النواحي"[2].

كما كان الورثيلاني يتدخل لدى ممثلي السلطة لقضاء حوائج السكان، كما في هذا

---

[1]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 101، 102.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 18، 19.

النص:" ذهبنا لقضاء حوائج المسلمين فلما قضيناها من أمير مجانة وغيره من عرفاء بني عباس ذهبنا..." [1].

وفي نص آخر:" فلما وصلنا قرية أولاد الشيخ سيدي بهلول فعلوا ما أمرناهم به من الصلح مع أعدائهم وردهم إلى محلهم لأنهم حرقوهم بالنار، وأخذوهم وقتلوا منهم ثلاثين، وأولاد الشيخ كثيرون غير أن فيهم من يقرأ القرآن، ومن يفهم العلم، وكثير منهم على طبع العامة من تقليدهم سيف الفتنة وأحكام العوائد، نعم غلب عليهم الكرم، ثم بعد زيارتهم وقضاء الحوائج منهم ذهبنا لزواوة"[2].

(4)- دور الشيخ محمد صالح في الإصلاح بين القبائل ببلاد زواوة:

كان للشيخ محمد صالح (القرن 11ه/17م) صيت عال في الأرض، " وكان الناس يعتقدون فيه البركة"، ونظرا لمكانته "أتى لزيارته فرحات باي، وعادة البايات يزارون ولا يزورون، وإن اعتقدوا أحدا بعثوا إليه ليزوروه في محلهم خوف الازدراء والنقص في حقهم "، وأما سبب زيارة الباي فهي تكليفه بالتدخل للإصلاح " بين القبائل الذين بينهم فتنة"[3].

(5)- دور محمد بن سعد اليبدري التلمساني في الوساطة لدى قبائل ولهاصة:

تولى الشيخ محمد بن سعد القضاء بتلمسان للعثمانيين، وتزامن ذلك مع ولاية الباي حسن آخر بايات وهران، وتورط في مجريات الأحداث السياسية في المنطقة، ففي خريف عام 1828م رفضت قبائل ولهاصة في شمال تلمسان رفض الضريبة المفروضة عليهم للسلطة، فأنفذ إليهم الباي حسن محلة لاستخلاصها منهم بالقوة، إلا أن المحلة العثمانية تعرضت لكمين فأبيدت عن آخرها، فخرج القاضي محمد بن سعد لتهدئة الأوضاع، ولا شك في أن ذلك كان بإيعاز من السلطة، التي كلفته بهذه المهمة لمكانته في تلك المنطقة، فهو ينتمي لبيت اليبدري من البيوتات العلمية البارزة في تلمسان، غير أنه اهتم بالتعاطف مع السكان، فخشي

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثلاني، ج1، ص: 23.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 25.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:89.

على نفسه، وعجَّل بالفرار إلى المغرب حيث استقبله السلطان عبد الرحمن بن هشام، وهو ما يؤكد صلته القوية به قبل هذا التاريخ [1].

(رابعا)– الدور السياسي لبيت أولاد سيدي ناجي بالخنقة:

بيت سيدي ناجي هم مؤسسو بلدة الخنقة[2]، وهم مسيريها في مختلف المجالات، ومن بينهم الشيخ محمد بن محمد الطيب الذي كان يهتم بالفلاحة والتعمير، حيث قام بزراعة الكثير من النخيل والأشجار وغيرها[3]، وهذا يعني أنهم قاموا بدور سياسي مهم من هذه الناحية.

ورغم صغر الخنقة وقلة سكانها، وحداثة نشأتها إلا أنها كانت محط أنظار الولاة وأصحاب الحكم آنذاك من بايات كل من تونس وقسنطينة والجزائر، وذلك لمكانة أهلها، ولقربها من الحدود التونسية الجنوبية، حيث لا تبعد إلا بما يزيد قليلا عن مئة كيلو متر فيما يحاذي الجريد: توزر ونفطة.

لقد زار الخنقة خلال القرن 12ه/18م عدد من البايات من تونس والجزائر، إما عابرين أو لاجئين، إذ قدم إليها فرحات باي قسنطينة سنة 1074ه/1663م، وقدم إليها رجب باي عام 1082ه/1671م، وبنى فيها القصر المعروف ببرج الحميل، كما أقام فيها أحمد القلي باي قسنطينة، وكذلك الحاج أحمد باي الذي التقى فيها بالشيخ عبد الحفيظ[4].

ونظرا لموقعها المنعزل، وقربها من تونس فقد كانت ملجأ آمنا لبايات تونس عندما تلم بهم الملمات، فقد قدم إليها محمد باي تونس هاربا عام 1090ه/1679م، وأقام فيها ما يقرب من الشهر، ولقي بها الرعاية الحسنة، وكرم الضيافة، كما قدم إليها خير الدين باي هاربا سنة 1092ه/1681م، وقدم إليها ابن شكر من تونس سنة 1104ه/1692م، بعد أن نازعه محمد باي وهزمه في ناحية القيروان فسكن بها سنين ذات عدد. وفي سنة

---

[1]– عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر. ص: 375، 376.

[2]– خنقة سيدي ناجي مدينة تقع شرقي بسكرة بحوالي 100 كلم.

[3]– محمد موهوب بن أحمد، في مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية، لمحمد بن محمد الطيب الخنقي. ص :ط.

[4]– محمد موهوب بن أحمد في مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص :ح.

1108ه/1696م قدمت إليها أسرة فرحات بن حسن من تونس، بعد أن قتله رمضان باي وشرد أسرته، وقد جاءوا إلى الخنقة فارين بنسائهم وأبنائهم. وقدم إليها سنة 1121ه/1706م علي بن محمود باي معزولا فآووه وبقي بينهم نحو شهر بينهم، في سنة 1150ه/1737م قدم إليها الباي علي هاربا من القيروان[1]، وبناء على إحدى الروايات الشفوية فإن علي باي تونس أقام في الخنقة حوالي ثلاث سنوات[2].

وقد قام محمد بن محمد الطيب بزيارات متعددة للبايات في كل من الجزائر وقسنطينة وتونس وغيرها، منها ما كان للمجاملة والتهنئة، ومنها ما كان للسعي في صلح أو غيره. وقد لاقى عند الجميع حسن الوفادة والترحاب، باستثناء مرة واحدة تسبب فيها الواشون بسجنه لمدة سنتين[3].

وذلك أنه قام بزيارة عادية إلى إبراهيم الشريف أمير تونس سنة 1114ه/1702م، فأكرمه أول الأمر، وعظم جاهه، لكن الواشين ذكروا له بأن بعض خواص رمضان باي المقتول تركوا عنده نحو أربعة آلاف سلطاني وديعة، فطلبها منه، لأنها حسب زعمه مأخوذة من مال الخزنة، فأجابه الشيخ بأن أصحابها استعادوها منه، إلا أن الباي لم يصدقه، وسجنه ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تدخل رؤساء القبائل الموالية لإبراهيم الشريف نفسه، وبعض أقاربه وحاشيته، وجمعوا له المبلغ المطلوب من مالهم الخاص ودفعوه إليه، إحساسا منهم بصدق الشيخ، وتقديرا واحتراما له[4].

ولما حج الشيخ محمد بن محمد الطيب سنة 1126ه/ 1714م مر في ذهابه إلى الباي حسين بتونس الذي قدم له مساعدات كبيرة لإعانته على سفره. وقد سبق أن ذكرنا دور محمد بن محمد الطيب الخنقي كوسيط بين بايات قسنطينة وبايات تونس[5].

---

[1]- محمد موهوب بن أحمد في مقدمة تحقيقه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية لمحمد بن محمد الطيب الخنقي. ص :ح، ها: 1.

[2]- أبو القاسم سعد الله، زيارة لخنقة سيدي ناجي، ص: 119.

[3]- محمد موهوب بن أحمد، في تقديمه للمصدر السابق، ص :ح.

[4]- محمد موهوب بن أحمد بن حسين في تقديمه لكتاب مسائل في الأحكام الشرعية ... لمحمد بن محمد الطيب الخنقي. ص :ط.

[5]- عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:359.

(خامسا)– موقف البيوتات من ثورات الطرق الصوفية في أواخر العهد العثماني:

أشهرت الطريقتان الدرقاوية والتجانية العداء للعثمانيين في آخر عهدهم بالجزائر، وقام أتباعها بعدة ثورات، بحيث قام رجال الدرقاوية[1] بثورتين الأولى في الشرق تزعمها ابن الأحرش، والثانية في الغرب وتزعمها عبد القادر بن شريف الدرقاوي. كانت هاتان الثورتان أخطر الثورات التي واجهت السلطة بالجزائر، وكبدتها خسائر مادية، وبشرية كبيرة. بالإضافة إلى ثورة الطريقة التجانية بالغرب[2].

تعد ثورة ابن الأحرش في بايليك الشرق أولى هذه الثورات، ولكن ليس لدينا وثائق كافية لنرصد موقف كل البيوتات العلمية منها، وقد عرفنا أن بيت الفكون وقف بقوة إلى جانب السلطة، وشارك زعيم هذا البيت بنفسه في صد هجوم ابن الأحرش على مدينة قسنطينة، ولا شك في أن البيوتات العلمية الحضرية بمدينة قسنطينة كلها كانت مناهضة لثورة ابن الأحرش. أما البيوتات الريفية فلا نعرف الكثير عن مواقفها غير أننا عرفنا أن آل المقراني وهو من البيوتات المرابطية أكثر منها علمية – ولكنها لا تخلو من العلم– قد أيدت السلطة، وساهمت بما لها من نفوذ في تعبئة قبائل المنطقة للقضاء عليها.

أما الثورة الثانية التي قامت بها الطريقة الدرقاوية فهي الثورة التي تزعمها السيد عبد القادر بن الشريف، وهو من أولاد سيدي أبي الليل المرابطين من العرب القاطنين بوادي العبد، وكان ابن الشريف " في أول حاله عالما متفننا في سائر العلوم... ورعا زاهدا ... أستاذا يقرئ القرآن... والناس يشيرون إليه بالصلاح" –حسب المزاري– فذهب إلى المغرب الأقصى وأخذ عن الشيخ مولاي محمد العربي بن أحمد شيخ الطريقة الدرقاوية بالمغرب الأقصى، فقدمه لإعطاء الذكر، ثم رجع ابن الشريف إلى الجزائر، وترك ما كان عليه من التعليم، ولبس الخرقة :"وابتدع أمورا يمجها الطبع وينكرها الشرع"، فأخذ عنه كثير من

---

[1]– تنسب الطريقة بالدرقاوية إلى مؤسسها الشيخ محمد العربي الدرقاوي المولود بمراكش عام 1145ه/ 1733م، والذي أسس زاويته في بوبريج بفاس، وانتشرت طريقته بالمغرب الأقصى وغرب الجزائر، ومن تعاليمها مجانبة السلطة. للاطلاع على تعاليم الطريقة الدرقاوية وطقوسها ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص، ص: 302، 303.

[2]– قامت هذه الثورات لأسباب متعددة أشرنا إليها عندما تطرقنا لأسباب القطيعة بين السلطة والعلماء من هذا الفصل.

الناس خصوصا أهل الصحراء، وصار الناس:" يأتون إليه من كل فج بالعطايا، ويشتكون إليه ضرر المخزن، وماهم فيه من أداء المغارم" فيعدهم بالفرج القريب، فلما ذهب إلى شيخه بالمغرب روى عليه معاناة الناس من المخزن، فأجابه شيخه بقوله :" أنصرهم والله ينصرك عليهم"، فحصل له طمع كثير بما سمعه من شيخه مع ما شاهده من كثرة أتباعه[1].

أخذ ابن الشريف يحرض على حرب العثمانيين محللا دمائهم، وأموالهم ولما بلغ عدد كاف من الرجال، عسكر بهم في البطحاء عند منبع وادي مينا معلنا العصيان عن الدولة، وكان ذلك سنة 1220ه/1805ه، فسار إليه الباي مصطفى العجمي باي وهران، الذي أعد جيشا كبيرا لقتاله، والتقى الجيشان بمنطقة فرطاسة نواحي معسكر، وأسفرت المعركة عن انهزام الباي هزيمة منكرة[2].

وبفضل هذا الانتصار انضمت إلى ابن الشريف الدرقاوي الكثير من القبائل، وتمكن من الاستيلاء على مدينة معسكر، ثم قرر الاستيلاء على مدينة وهران، وكان يسلب كل ما يجده في طريقه دون أن يلتزم بالوعود التي قطعها على نفسه، وحاول مرات اقتحام مدينة وهران ولكنه فشل في مسعاه[3].

واضطربت أمور البايليك، وعزل الباي مصطفى وولي الباي المقلش، وعند فشل الدرقاوي في دخول وهران، تراجع إلى معسكر، وفي الطريق هاجمته بعض القبائل التي كان قد هاجمها، وهو في طريقه إلى وهران، وتمكنت من النيل منه، ففر في قلة من جيشه إلى وهران. وبعد هذه الحادثة ظهر ابن الشريف في مناطق مختلفة من الناحية الغربية، وجرت بينه وبين جيوش الدولة عدة معارك[4]. واستمرت ثورة ابن الشريف حوالي عشر سنوات

---

[1]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص، ص: 303، 304.

[2]- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، ص: 202.

[3]- صالح عباد، المرجع نفسه، ص: 204.

[4]- تطرق المزاري بشي من التفصيل للمعارك التي جرت ابن الشريف وجيوش السلطة. ينظر: طلوع سعد السعود، ج1، ص- ص: 305- 331.

وعاصرت عدد من البايات إلى سنة 1232ه/ 1817م قضى عليها الباي حسن بن موسى[1].

أما عن موقف البيوتات العلمية منها، فقد كان بيت عبد القادر بن المختار معارضا لها، وكان ابن الشريف زعيم هذه الثورة قد درس في صغره على الشيخ محي الدين في مدرسة القيطنة، ولما رجع من المغرب الذي أخذ به الطريقة الدرقاوية جاء لزيارة محي الدين و:" تكلم بحضرته ما يوجب تأديبه شرعا فأدبه سيدي الجد (محي الدين) بالسياط وإستتابه"[2].

ولما تمكن الباي حسن من القضاء على هذه الثورة جاه الشيخ محي الدين إلى وهران ليهنئه بالنصر، ويذكر صاحب "تحفة الزائر "محمد بن الأمير عبد القادر أنه سمع والده يقول أن ابن الشريف لم ينجح في أمره لأنه كان ممقوتا عند سيدي الجد (محي الدين) فمقته الناس[3].

أما أبو راس الناصري الذي ينحدر من أسرة علمية غير بارزة، ويتولى وظائف هامة ومنها القضاء، فإن موقفه من هذه الثورة يمثل رأي الفئة التي ترتبط بمصالح مع السلطة، ورغم أنه لا يوجد في كتابه "فتح الإله" ما يدل على رأي صريح في هذه الثورة إلا أن هناك من يؤكد انتصاره للسلطة[4]. وفي كتابه المذكور ما يدل على التزامه الحياد في قوله[5]:" ثم عمتنا فتنة درقاوة، وإنا لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف:" وقد خطبتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة، ولا أقوياء فجرة"[6]. من مؤلفات أبي راس" در الشقاوة في حروب درقاوة ".

---

[1]– عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته وآثاره، ص، ص: 31، 32.

[2]– محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، ص، ص: 75، 76.

[3]– محمد بن الأمير عبد القادر، المصدر نفسه، ج1، ص: 76.

[4] – أبو القاسم سعد الله في تصديره لفتح الإله لأبي راس الناصري، ص: 7.

[5]– قال متحدثا عن هذه الثورة :" أولها آخر صفر من سنة 1220هـ، أجارنا الله من الفتن". أبو راس، فتح الاله، ص: 181.

[6] – أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 24.

وقد كان أبو راس من المقربين من السلطة فبعد هذه الثورة ازدادت حظوته لدى بايات الغرب، وفي "فتح الإله" ما يدل على أنه حج عن الباي محمد، فلما عاد من الحج سنة 1227هـ/1812م أعطاه الباي محمد 100 محبوب، ونص التالي يؤكد حجه له :" وجعل ذلك الحج المبرور في ميزانه... وتقبل الله دعاءنا له"[1]، كما أن البايات عملوا له كرسيا لما كثر عليه الطلبة [2].

ويذهب الشيخ محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي إلى أن أبا راس أيد السلطة، حتى أنه طعن في نسب بعض البيوتات كشكل من أشكال الحرب ضد ابن الشريف، والنص هو :"سبب تعصبه كما قيل أنه لّما قام الولي سيدي محمد بن الشريف على دولة الأتراك بالواسطة (الجزائر) لأمور أحدثوها لا يرضاها الله ورسوله، مال إليه بعض الشرفاء وأرادوا نصره فلم تساعدهم القدرة على ذلك، وتولى الأمر الباي حسن فعلم بذلك، ولما اشتدت شوكته وقوى جيشه وتابعه جَارَ في أحكامه، قف الشريعة وراء ظهره، واشتغل برأيه وعمّت إذايته آل الله وآل نبيه، وكان ظنه ورأيه أن لا يدع شريفا يذكر ببلده لما تقدم، فبذل للفقيه المذكور عشر ماية ريال (1000) على أن يُخرج من النسب من له قوة ورأي وعلم، فيذل بذلك وتخمد ناره، فامتثل لأمره... وقد خرّج الأعيان بقوله كالمشارف وأبناء سيدي عبد الرحمن بن علي المدعو بن زرفة وآل سيدي أحمد بن علي وأضرابهم"[3].

إنَّ ما ذهب إليه ابن مصطفى المشرفي فيه مغالطات كثيرة، إذ لم يكن المشارف مؤيدين لثورة الدرقاوي، فلو كانوا كذلك لما ذكر أبو حامد المشرفي بأن الباي حسن كان يحب الشيخ الطاهر المشرفي، وعينه قاضيا بوهران، ودفع له مبالغ هامة مقابل قيامه بمهمة التدريس.

---

[1] – أبو راس الناصر، فتح الاله، ص: 76.

[2] – أبو راس الناصر، المصدر نفسه، ص: 23.

[3] – محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، " تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص، ص:4، 5.

لا شك في أن المشارف التزموا الحياد كغيرهم من البيوتات العلمية والدينية الكبرى التي خصتها السلطة بالامتيازات، وقد جهر متأخري بيت المشارف بهذه الآراء إنما هو لانتهاء حكم العثمانيين، ولا تخلو هذه الآراء من سعي لاسترضاء للعلويين حكام المغرب الأقصى الذين كانوا معادين للعثمانيين، ونحن نعرف أن الكثير من المشارف انتقلوا إلى المغرب الأقصى بعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر فتقربوا من حكامه. وقد ألف ابن مصطفى المشرفي كتابا في مآثر العلويين عنونه ب:" الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية".

لقد صرح العديد من العلماء الذين عاشوا في أواخر العهد العثماني بظلم العثمانيين، حتى أولئك الذين حظوا بتقدير السلطة، مع أنهم يقرون لهم بفضائلهم عليهم، ولا يخفى علينا أن مثل هذه التصريحات لا يمكن الجهر بها مادامت السلطة قائمة، ولذلك صرح بذلك بعض علماء بيت المشارف بعد نهاية حكم العثمانيين للجزائر، إذ جاء على لسان العربي المشرفي في شأن محبة الأتراك للعلم والعلماء:" كانوا مع جورهم، وشدة ظلمهم يحبون العلماء ويخضعون لهم، ويتذللون بين أيديهم أكثر من تذلل الروم لرهبانهم، واليهود لأساقفتهم"[1].

كانت علاقة أسرة المشارف بالسلطة حسنة، ولهذا فإن رأي المشرفي فيه بعض التناقض، فهو من جهة يقر بظلمهم، ومن جهة أخرى يذكر حبهم للعلماء سيما الباي حسن، الذي تشير المصادر إلى تنكيله بالعلماء. ولا غرابة أن نجد المشرفي – بعد الاحتلال– يجهر بتأييده للثورة الدرقاوية التي كبدت الدولة خسائر فادحة في المال والأرواح، مع أنه لا يوجد ما يشير إلى المساهمة الفعلية لبيت المشارف في تلك الثورة، ولكن وردت العديد من الإشارات في مؤلفات المشرفي مؤكدة على تعاطفه معها، من ذلك ما ورد في كتابه "الذخيرة":" وفي حدود العشرين من قرننا هذا، ثار عليهم درقاوة أهل النظافة والنقاوة..." [2].

---

[1]– أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 4.

[2]– عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر، ص: 33.

وخلال قراءة أبا حامد المشرفي بوهران في حدود عام 1240هـ/ 1824م لا حظ حب الأتراك للعلماء ومنهم الطاهر المشرفي:" دولة الأتراك فيها محبة العلم حسبما شاهدنا ذلك من قراءتنا بوهران، وقد أدركنا منهم الباي حسن رحمه الله في حدود الأربعين من هذا القرن يحب علماء وقته، وخصوصا حبر المشارف في العلوم... ابن الشيخ المشرفي سيدي الطاهر"[1].

ينتمي أبا حامد إلى الطريقة الدرقاوية، وذلك واضح من خلال انتصاره للدرقاوي في كتابه " الحسام المشرفي" الذي قال فيه:" تاريخنا الذي ألفناه في الرد على عالم مراكش الفقيه [كذا] المسمى بالحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن اكنسوس، ألف في الدولة العلوية تأليفا مدح فيه ملوكها، وسب حاشية كل ملك، وارتكب فيه سب مولانا العربي الدرقاوي شيخ وسيلتنا ".

وقد تلقى المشرفي مكافأة على هذا الكتاب من سلطان المغرب:" ولما بلغ كتابنا هذا سلطان الوقت المرحوم اعتكف على مطالعته، وتلقاه بالقبول والحمد لله، وأثابنا عليه ثوابا جزيلا، وبما أثابنا به عملنا وليمة العرس لولدنا السيد محمد... فصيرنا على عرسه أربع عشرة مائة بالمثقال، فكانت هذه الوليمة تضاهي ولائم الملوك [2]".

وفي سياق حديث محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي عن السلطة بالجزائر خلال القرن 11ه/ 17م قال بأن ذلك كان:" وقت استقامتها واتباع الحق والعدل بها، " وكانت الجزائر فذى في عين العدا ... وكم حاول أخذها الإصبانيول... ولم تكترث بهم، ولا بغيرهم من دول المسيحيين إلى أن أورثها الله لدولة فرنسا، بسبب ظلمهم، ودعوة الشيخ المربي سيدي العربي الدقاوي عليهم"[3].

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 4.

[2]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 29.

[3]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية.ج2، ص: 70.

أمَّا ثورة الطريقة التجانية فهي ثالث ثورات الطرق الصوفية بالجزائر، فقد قامت سنة 1242ه/1826م إلا أن الباي حسن لم يجد صعوبة في القضاء عليها، وتمكن من قتل زعيمها في أول معركة بينهما[1]، وهي تتميز عن الثورتين السابقتين بكون زعيمها ينتمي إلى أسرة دينية، ومؤسس الطريقة التجانية هو الشيخ أبو العباس أحمد مختار بن مسلم التجاني، وقد كان من أهل العلم، وإن غلب عليه التصوف، ويذهب بعضهم إلى أنه انتصب للتدريس، وقد وصفه أبو الأعرج السليماني بقوله:" كان أبو العباس أحمد التيجاني عالما مشاركا عابدا"[2]. ووصفه الزهار بأنه قد كان :"رجلا صالحا، وله مريدون كان يلقنهم الذكر"[3].

استقر الشيخ أبو العباس أحمد التجاني بتلمسان فاشتهر أمره بها، ولهذا نفي إلى الأغواط، فازدادت شهرته بالصحراء، وازداد معها تخوف السلطة منه، وكان هذا سببا في ظهور العداء بين الطرفين، إذ مارست عليه السلطة ضغوطات شتى، بالحملات العسكرية حينا وبالضرائب أحيانا أخرى، فانتقل بأهله إلى فاس، وبعد وفاته عام 1815م عاد أبناؤه إلى عين ماضي.

عادت السلطة لسابق عهدها مع أسرة التجاني، فهاجمت عين ماضي مرات عدة، وضاعفوا من ضغوطاتهم عليهم، فأعلن محمد الكبير ابن الشيخ التيجاني الثورة، ودعا الناس إلى بيعته والخروج عن طاعة الدولة، فوافقه الكثير من أهل الصحراء، وقدم إلى الونشريس، وجبل راشد وأظهر له أهلها الطاعة ووعدوه النصرة، وسار إلى وهران، ونزل بغريس، وأظهر له أعيان قبائل الحشم بضواحي غريس الانقياد[4]، واتجه التيجاني بجيشه محاولا الاستيلاء على معسكر، إلا أنه لقي مقاومة عنيفة من طرف سكانها، وتمكن الباي حسن من إلحاق الهزيمة بالتيجاني بعد انسحاب قبيلة الحشم عنه، إلا أنه صمد وظل يقاتل في ثلاثمائة

---

[1]- لمزيد الاطلاع على أحداث ثورة التيجاني. ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود. ج1، ص – ص: 357-361.

[2]- أبو عبد الله الأعرج السليماني، تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر ، ص: 250.

[3]- أحمد الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص:159.

[4]- أبو عبد الله الأعرج السليماني، المصدر السابق، ص: 251.

أو أربعمائة رجل من أصحابه إلى أن دهمتهم جيوش الباي وقتلتهم عن آخرهم[1]. وحمل رأس محمد التجاني إلى الباشا حسن فعلق على أسوار بمدينة الجزائر، وبعثوا للسلطان محمود العثماني يبشرونه بقتله، وبعثوا له بسيفه [2].

لم تستمر ثورة التجانية طويلا ولهذا لم نتمكن من معرفة موقف البيوتات منها، وقد أدرجناها في هذا الفصل لأنها تبين تخوف السلطة من البيوتات الدينية ذات النفوذ الواسع، وكيف ضغطت على أسرة التجاني وذلك ما دفعها لإعلان الثورة ضدها.

(سادسا) – دور البيوتات العلمية في الجهاد:

(1)– مشاركة البيوتات العلمية في الجهاد في ظل العثمانيين:

ساهمت البيوتات العلمية بقوة في الجهاد من خلال تصدي علماءها للتدريس في الرباطات، ومنهم الورثيلاني الذي كان يدرس ببجاية في شهر رمضان، وقد رأينا المشاركة الفعلية للكثير من البيوتات العلمية في فتح وهران الأول والثاني، كابن زرفة، ابن سحنون، وابن الشارف المازوني...إلخ، وكان للمشارف مساهمة فعالة في الجهاد، وأقبل الشيخ عبد القادر المشرفي لاستعمال الدعاية في حرب الإسبان من خلال تأليف الخاص للتشهير بالقبائل المتعاونة مع الإسبان.

وساهمت الزاويا القريبة من الساحل بقوة في الجهاد، كزاوية المحمد بن علي المجاجي المعروف بأبهلول التي كانت مركزا للمجاهدين، وقد أطعم يوما ألف وثلاثمائة مجاهد، وقد استمرت في عملها الجهادي حتى أيام الفرنسيين[3].

(2)– دور البيوتات في مواجهة الاحتلال الفرنسي:

سنكتف بنماذج عن موقف أكبر البيوتات العلمية كبيت ابن العنابي بمدينة الجزائر، بحيث كان للشيخ محمد بن العنابي دور في الدفاع عن الجزائر عن وقوعها في قبضة المحتل

---

[1]– أحمد الزهار، المصدر السابق، ص:160.

[2]– أحمد الزهار، مذكرات الزهار، ص:160؛ أبو عبد الله السليماني، تاريخ الجزائر، ص: 252.

[3]– ينظر التعريف ببيت آبهلول في الباب الأول.

الفرنسي في سنة 1246ه/ 1830م، وقد كان حينها يشغل خطة الإفتاء الحنفي. ويذهب عبد الحميد بك إلى أنه لما ابتدأت الحرب بين الجزائريين والفرنسيين :" ولاه حسين باشا رئيسا على عساكر الجزائر، فغزا في الفرنساوية مدة أيام"، ثم لما استولى الفرنسيون على الجزائر " أقام في منزله مطيعا لهم في الظاهر"، وهو يعمل سرا على دعوة السكان إلى الجهاد، فلما بلغ الفرنسيون ذلك هجموا عليه وفتشوا بيته، إلا أنه تمكن من التخلص من الأوراق التي من شأنها أن تدينه، عندها قرر الرحيل من الجزائر مخافة أن يقوم مبغضيه بالوشاية به [1].

وحسب هذه الرواية فإن ابن العنابي خرج من الجزائر بإرادته، وهي تخالف ما رواه زميله ومعاصره حمدان خوجة ومما رواه الفرنسيين من أنه خرج إلى الإسكندرية منفيا من الجزائر[2].

وبالنسبة لتكليف الباشا له بالحرب فقد لاحظ حمدان خوجة أن تكليف الباشا للمفتي (إذا صح أنه ابن العنابي) بالدعوة إلى الجهاد إبان الحملة الفرنسية بأن المفتي كان رجلا صالحا وعادلا، ولكنه لم يكن محاربا، وعندما تقرر نفي ابن العنابي من الجزائر كتب حمدان خوجة :" كان المفتي سيدي محمد العنابي رجلا نزيها وفاضلا ... كان يكتب دائما إلى كلوزيل يلومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام "[3].

على الرغم من عبد الحميد بيك (ت1280هـ/ 1863م) يؤكد أن المفتي الحنفي بالجزائر عند الاحتلال هو ابن العنابي، ورواية هذا الأخير في غاية الأهمية لمعاصرته لابن العنابي، وربما يكون رواها عن ابن العنابي نفسه[4]. إلا أن ذلك لا ينهي الاضطراب الذي نعرفه بالنسبة لدوره أثناء الاحتلال، لأنَّ منشأ الغموض هو التقلبات التي عرفتها وظيفة المفتي

---

[1] – عبد الحميد بيك، أعيان من المشارقة والمغاربة، ص: 188، 189.

[2] – حمدان خوجة، المرآة، ص: 197 .

[3] – أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص:49.

[4] – يؤكد عبد الحميد بيك (ص: 188) أن المفتي الحنفي عند الاحتلال هو ابن العنابي، إلا أن مصادر أخرى فيها اضطراب (نور الدين عبد القادر، 187، 188؛ قونزاليز، مشاهير مسلمي مدينة الجزائر، ص: 57)، تشير إلى تولى عدد من المفتين في الفترة القصيرة من: 1244ه/ 1828م إلى 1251ه/ 1835م من بينهم ابن العنابي، مع أغفال تواريخ تعيينهم ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:31.

أثناء الفترة الأولى من الاحتلال، مع أغفال المصادر ذكر اسم المفتي المعني بالأمر. فقد جاء في أخبار الحملة الفرنسية على الجزائر أن الداي حسين باشا قد عزل في آخر لحظة قبل دخول الفرنسيين، المفتي الحنفي "التركي" وعين بدله مفتيا عربيا من أهل البلاد آملا أن يكون ذلك سببا في التفاف الجزائريين حوله في مقاومة الجيش الفرنسي. ولا نعرف من هو المفتي المعزول ومن هو المفتي الجديد. فهذه المسألة تظل بدون جواب.

كذلك تتحدث الأخبار عن أن الباشا قد استدعى بعد هزيمة جيشه في واقعة اسطاوالي "المفتي الحنفي، شيخ الإسلام"، وسلمه سيفا وطلب منه أن يدعو الناس إلى الجهاد[1]. ولكن هذه الروايات لا تذكر اسم هذا المفتي.

وفي العهد الأول للجنرال كلوزيل، ظهر اسم ابن العنابي من جديد، فقد كان هذا المفتي موضع شبهة السلطات الفرنسية منذ دخولها، وكانت العلاقات متوترة بينهما، وتأزم الموقف بين الطرفين فحيكت له مؤامرة قرر على إثرها كلوزيل سجن المفتي، ثم نفيه خلال مدة قصيرة.

وحسب أخبار الحملة فإن المفتي ابن العنابي كان شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها الاتفاق الموقع مع الداي، ومن بنوده احترام الديانة الإسلامية ومقدساتها. وكان ابن العنابي يكتب إلى الجنرال كلوزيل ويلومه منتقدا تصرفات الفرنسيين. فضاق كلوزيل ذرعا بجرأة المفتي فقرر وضع حد لها، فسجنه، وتعرضت أسرته إلى الإهانة[2]، وكانت التهمة والموجهة إليه هي تدبير مؤامرة ضد الفرنسيين. سجن ابن العنابي لمدة ثم نفي من الجزائر، ولا شك أن ذلك كان في أواخر سنة 1830م، أو في بداية 1831م، لأن كلوزيل تولى مهمته في الجزائر في سبتمبر سنة 1830م، فتوجه بأسرته إلى مصر وأقام بالإسكندرية [3].

---

[1]- حمدان خوجة، المرآة، ص: 198؛ أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، ص:32.

[2]- حمدان خوجة، المصدر نفسه، ص: 259؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص:33.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 35.

أما بيت الفكون بقسنطينة فقد رأينا في المبحث السابق كيف ساهم الشيخ محمد الفكون إلى جانب أحمد باي في تنظيم شؤون البايليك إثر الاحتلال أي سنة 1830م، ولما ازداد ضغط الفرنسيين على مدينة قسنطينة ودخلوها أحسنوا استغلال مكانة الفكون لصالحهم فاتصلوا به، وأظهروا له الاحترام، وعينوا ابنه حمودة الفكون على المدينة إلى جانب حاكمها الفرنسي.

وأبرز دور لمقاومة البيوتات العلمية للمحتل تمثل في تزعم بيت عبد القادر بن المختار للمقاومة في الغرب الجزائري، ودورهم أشهر من نتحدث عنه في هذا الفصل، نذكر فقط إلى أن وهران عاصمة البايليك وقعت في قبضة المحتل في يوم 4 جانفي 1831م، فالتجاء الناس لمحي الدين ليقودهم في حركة الجهاد، إن اختيار السكان له لهذه المهمة الكبرى لم يكن عشوائيا بل لمكانته العلمية والدينية في منطقة الغرب الجزائري كلها، ومن ثم تزعم محي الدين حركة المقاومة، ورشح ابنه عبد القادر أميرا للجهاد، فبويع أواخر عام 1832م، وتوفي الشيخ محي الدين عام 1249هـ/ 1833م[1].

لقد شاركت الكثير من البيوتات العلمية في المقاومة التي تزعمها الأمير عبد القادر، كالمشارف ومن أشهر أبناءه في تاريخ المقاومة الشيخ ابن عبد الله سقط، وبيت بوشنتوف، وعدد كبير من العلماء، بيت الخروبي، الكتروسي ... إلخ .

وقد كان الأمير عبد القادر يدرك جيدا مكانة بيوتات العلماء والمرابطين ولهذا اعتمد عليها في دولته الناشئة، فيعين عدد منهم في الديوان الأميري المتكون من إحدى عشر عالما من كبار العلماء، وعين جل خلفاءه على المدن من أبناء البيوتات العلمية أو بيوتات المرابطين مثل: أحمد بن سالم من بيت المقراني، محمد بن عيسى البركاني، علال من بيت ابن مبارك، مصطفى بن تهامي من بيت ابن شنتوف...إلخ.

[1]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 50؛ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 246.

- تبين لنا من خلال هذا الفصل أن السلطة اعتمدت على أساليب كثيرة لكسب ولاء البيوتات العلمية والدينية البارزة، كمنحها الإقطاعات وإعفاءها من الضرائب وحصر الوظائف الدينية فيها وتوريثها لأبنائها.

ووجدنا أيضا أن مواقف أغلب البيوتات العلمية من السلطة الحاكمة لم تكن كمواقف غيرهم من العلماء، وهذا يؤكد نجاح السياسة التي انتهجها العثمانيون منذ وجودهم بداية وجودهم بالجزائر، فالامتيازات المعنوية والمادية والمصلحة التي تربط هذه البيوتات بالسلطة جعلتها تقف إلى جانبها، حتى في أواخر العهد العثماني الذي بان فيه جـــور العثمانيين أكثر من قبل.

ونستطيع أن نستشف موقف أبناء البيوتات العلمية من السلطة من خلال مؤلفاتهم، فعبد الكريم الفكون الذي قال بأن كتابه "منشور الهداية" هو للنصح العام، لم يوجه الانتقادات بشكل مباشر للسلطة، وإنما كان يوجهها إلى العلماء والمتعاملين مع السلطة فهم الذين يرشون البايات ويتعدون على الأوقاف...إلخ.

لاحظنا أيضا اعتماد السلطة على أبناء البيوتات العلمية في الوساطة السياسية في المدن والأرياف، لأنهم أكثر العلماء والمرابطين تأثيرا لنفوذهم الواسع، والمكتسب من جاه البيت الذي ينتمي إليه هذا العالم أو ذاك.

الفصل الثالث

المكانة الاجتماعية للبيوتات والأسر العلمية بالجزائر

المبحث الأول: علاقة البيوتات العلمية ببعضها وبالمجتمع

المبحث الثاني: البيوتات العلمية والأنساب العربية الرفيعة

المبحث الثالث: مصاهرات البيوتات والأسر العلمية

المبحث الرابع: امتيازات البيوتات والأسر العلمية

المبحث الخامس: الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية

كانت البيوتات والأسر العلمية في سعي دائم لتعزيز مكانتها الاجتماعية من خلال المحافظة على تراثها العلمي، وتمسكها بأنسابها الرفيعة، ومصاهرة الأسر النافذة في المجتمع ...إلخ فحصلت بعض البيوتات من خلال كل ذلك على جاه عريض، والجاه مفيد للمال حسب تعبير ابن خلدون.

وقد كانت البيوتات العلمية في الجزائر العثمانية تدور في فلك ثلاثية: العلم، النسب العربي سيما الانتساب إلى آل النبي -ﷺ- (الشرف)، والتصوف. فأي البيوتات والأسر تمتعت بجاه أقوى لدى السلطة والمجتمع، الأسر المشهورة بالعلم أم الأسر الصوفية المشهورة بالصلاح؟ أم الأسر التي تجمع بينهما.

- المبـــحـــث الأول: علاقات البيوتات العلمية ببعضها وبالمجتمع:

(أولا)- علاقات الصداقة بين البيوتات العلمية:

تصور مصادر تلك الفترة علاقة البيوتات فيما بينها في مظهرين: علاقة احترام وتآخي، وعلاقة تنافس وتنافر.

(1)- نماذج عن علاقة الصداقة بين البيوتات التي تقيم في المنطقة نفسها:

كانت البيوتات النافذة سواء بيوتات العلم أو بيوتات المرابطين التي تقيم في المنطقة ذاتها تشكل فئة أو مجتمعا خاصا، دون أن تنعزل عن بقية أفراد المجتمع، وقد ارتبطت بعض تلك البيوتات فيما بينها بعلاقة صداقة متينة، وتجلى ذلك في التعاون بينها في مجالات الحياة المختلفة، وفي التواصل بين أبناءها عن طريق تبادل الزيارات، وتعد المصاهرات أيضا شكلا من أشكال العلاقات الودية بين البيوتات، وقد تجاوزناها في هذا المبحث لأننا سنفرد لها مبحثا خاصا.

وهناك أمثلة كثيرة عن علاقة الصداقة والتآخي التي جمعت بين بعض البيوتات، سنكتف ببعضها، فقد كانت مثلا العلاقة بين بيت الفكون وبيت ابن باديس بقسنطينة قوية،

وكثيرا ما ذكرهم الفكون في "منشور الهداية" بأنهم من أحبائه أو أحباء علماء بيته[1]. ولهذا لما تحدث عن أحدهم وهو معاصره حميدة بن يحي بن باديس، وقد كان من أحبابه ثم تغيرت العلاقة بينهما، قال :" وأبتهل إلى الله في خلواتي وجلواتي أن يرده إلى منصب آبائه وأسلافه، يقصد الفكون بالمنصب العلم، وإلا فعائلة ابن باديس قد تقلدت أمور الدولة أيضا في الماضي[2].

ومن الأسر العلمية التي ارتبطت بعلاقات قوية فيما بينها بيت المشارف وبيت عبد القادر بن المختار، وذلك ما أشار إليه أبو حامد المشرفي بقوله:" وهذا القبيل بين المشارف وبينه مواخاة ومصاهرة يطول بنا ذكرها أدناها أن المرأة إذا زفت من بيت أولاد سيدي المصطفى بن المختار والد العلامة سيدي محي الدين لزوجها لا بد من مبيتها في خيم أولاد الشيخ المشرفي أو في ديارهم، وإلا فلا ينجح أمرها تبركا بأبناء الشيخ المشرفي لكونه شيخ السيد مصطفى بن المختار "[3].

(2)- نماذج عن علاقة الصداقة بين البيوتات التي تقيم في مناطق متباعدة:

لم تقتصر علاقة الصداقة بين البيوتات التي تسكن في المنطقة نفسها، بل حتى البيوتات التي تسكن في مناطق بعيدة عن بعضها، كانت تتواصل مع بعضها البعض عن طريق تبادل الزيارات والمراسلات، التي هي شكل من أشكال التواصل الاجتماعي وحتى العلمي، ففي ظل غياب تحفيز السلطة لرجال القلم، كانت هذه الروابط تؤدي دورا كبيرا في دفع العلماء للمضي قدما في الاستزادة من العلم، وأما موضوع تلك المراسلات فهي عبارة عن رسائل إخوانية، وفتاوى، وإجازات وتقاريظ ...إلخ.

بحيث ارتبط بيت أبهلول المجاجي بعلاقات صداقة قوية مع بعض البيوتات العلمية، إذ ارتبط ولدي محمد بن علي المجاجي بعلاقات ودية بالشيخين أحمد المقري وعبد الكريم

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، مواضع متفرقة مثلا: الصفحات: 210، 211.

[2]- الفكون، المصدر نفسه، ص: 210.

[3]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، مخ، ص: 26.

الفكون، وتبادلا معهما المراسلات والزيارات، كما ارتبط بيت أبهلول بعلاقة قوية بالمشارف في معسكر، وذلك ما أشار إليه أبو حامد المشرفي بقوله – والهاء تعود على أحفاد المجاجي– :" كانت لهم أخوة صالحة بينهم وبين المشارف في القديم... صداقة عظيمة"[1].

وارتبط بيت الفكون بعلاقة متينة مع بيوتات كثيرة نذكر منها بيت ساسي البوني، رغم أنَّ الشيخ عبد الكريم الفكون انتقد محمد ساسي البوني نقذا لاذعا في كتابه "منشور الهداية"، إلا أنه زار بيته أثناء الزيارة التي أخذته إلى بونة، كما زارهم ابنه محمد، ولهذا قال البوني :" وقد قلت في الألفية في شأن من ذكر (محمد) ووالده الشيخ العلامة المؤلف البركة المزار سيدي عبد الكريم إذ شكر، لأنهما دخلا بلدنا، ودعوا لنا ولأولادنا..." [2].

وتواصل ابنه محمد الفكون مع العلماء المعاصرين له، ومنهم بيت الساسي البوني، وقد أفرد الشيخ أحمد البوني فصلا من كتابه " الدرة المصونة "[3] ل"بعض من دخل بونة من فضلاء قسنطينة"، وقد خصص ثلاثة عشر بيتا الأولى منها للشيخ عبد الكريم الفكون وابنه محمد منها هذه الأبيات[4]:

بسيدي عبد الكريم العالم الصـــالح الفكون ذي المكارم

...بنجله محمد نور الظلام أبقى الاله مجدهم على الدوام

وبيـــنـــنا وبيـــنه قرابـــه أربى على الأقران في النجابة

---

[1]– أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 35.

[2]– أحمد البوني، الدرة المصونة، ص:147.

[3]– من أبناء أسرة الفكون الذين أشار إليهم البوني في القصيدة المشار إليها السيد لطيف الفكون، وابنه المنور بقوله:

« بســـــــــيدي لطيف الفكون* وصنـــوه المنـــــور المصـــون ».

[4]– أحمد البوني، المصدر السابق، ص، ص: 96، 97.

وقد ارتبط الشيخ أحمد بن ساسي البوني بعلاقة صداقة بالعديد من البيوتات، ومنها بيت العنابي بمدينة الجزائر، وقد جمعته بالشيخ مصطفى العنابي صداقة متينة، ولهذا لجأ إليه عندما تعرض لمحنة نتيجة وشاية بعض معاصريه [1] كما سنرى.

(ثانيا)– التنافس بين البيوتات العلمية:

إنَّ التنافس بين أصحاب المهنة الواحدة أمر طبيعي، بل وربما ضروري، إذ لولا التنافس لما تطورت الكثير من المنتوجات، ولما ترقت العديد الخدمات، وهذا الجانب الإيجابي من التنافس، ولكن التنافس يصبح غير مرغوب فيه، إذا تحول إلى تنافس هدام تستعمل فيه كل الوسائل للإطاحة بالغريم، وهذا النوع، هو الذي اشتهر بين العلماء في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني.

(1)– أسباب التنافس بين العلماء ونتائجه:

تنصب أغلب أسباب التنافس بين رجال القلم على الحظوة والامتيازات، والمحافظة على الثروة، والسعي الحثيث للاستزادة منها، ولهذا فإنّ فئة العلماء أساءت لنفسها كثيرا ببحثها عن الغنى والمتعة. وممَّا زاد من حدة هذا التنافس هو قلة المناصب العلمية والدينية المتاحة، فرغم تعدد المجالات التي فسحت للعلماء من إفتاء، وقضاء، وتعليم، وإمامة وخطابة، فإنها كانت محدودة، فلم تستوعب كل رجال القلم، ولذلك كثر التنافس حولها.

وقد ظهر التنافس في شكلين، فردي وعائلي. وكلاهما كان يفتك في أحيان كثيرة بالخصم سجنا أو تغريما، أو إهانة أو عزلا أو مصادرة وقتلا، غير أنَّ التنافس الفردي كان أقل ضررا من التنافس العائلي، لأن التنافس بين اثنين ينتهي بانتهاء المتنافسين بالعزل أو الوفاة، وأما التنافس العائلي فهو طويل الأمد، وقد يستمر لأجيال، وقد يؤدي إلى التناحر الشديد [2].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص، ص: 92، 93.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:402.

وإذا كان من السهل الوقوف على التنافس الفردي في المصادر، فإنه يصعب التوصل إلى التنافس العائلي، ولهذا لا تكاد الدراسات الحديثة تذكر من التنافس العائلي إلا تنافس بين عائلتي ابن عبد المؤمن والفكون، رغم أنَّ المصادر العائدة إلى العهد العثماني وفي مقدمتها "منشور الهداية" لا تشير إلى وجود أي نوع من التنافس بين هاتين الأسرتين. بل أن الفكون لا يشير إلى أسرة عبد المؤمن أصلا رغم تعدد مؤلفاته.

وعليه فسوف نورد نماذج من التنافس العائلي في شكل تنافس فردي، سيما وأن هناك صلة بين علاقات الفرد وعلاقات عائلته، فمثلا رغم ما اتصف به الفكون من تدين عميق وقوة عارضة في العلم إلا أننا نلمس جليا في كتابه "منشور الهداية" ما يكنه من ود وتقدير للعلماء وللأسر العلمية التي ترتبط بعلاقات حسنة مع عائلته، كأسرة ابن باديس فحتى عندما ينتقدهم ينتقد بطريقة مختلفة عن نقده لغيرهم، بل نجده ينتقد أحد المتصوفة المحبين لأسرته[1]، بشكل لطيف رغم أن هذا المرابط خرج عن جادة الطريق، رغم أيضا ما يورده حوله هذا الرجل من أمور يستغربها العقل.

وأكثر المصادر التي نعتمد عليها في دراسة علاقة البيوتات العلمية فيما بينها "منشور الهداية"، و"تقيدات ابن المفتي"، مع أننا لا نشك في تحيزهما أحيانا في تناولهما للعلماء المعاصرين أو العلماء الذين تنافسوا مع أقاربهما على الوظيف. ومع ذلك فإن كليهما كان مدفوعا برغبة شديدة في رؤية العلماء يقفون على أرضية صحيحة ويتمسكون بأخلاق العلماء[2].

ورغم أن المصادر تشير إلى عدة حالات كان التنافس فيها بين عالمين كلاهما من بيت علمي، فيصعب علينا أن نصنف ذلك أهو تنافس بين فردي أو أنه يمتد ليكون تنافسا عائليا. ولهذا سنورد بعض تلك الأمثلة ممن كان الطرفان ينتميان إلى بيوتات علمية غير جازمين بأنه

---

[1]- الفكون، منشور الهداية، ص: 210.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:408.

تنافس بين أسرتين، كما أننا سنورد نماذج من التنافس من بين أبناء البيوتات العلمية وغيرهم من العلماء ممن لم ينتسبوا إلى أسر علمية.

وقد أشرنا في الفصول السابقة إلى أنه من النتائج الإيجابية للتنافس بين الأسر العلمية، هو إقبال تلك البيوتات خدمة العلم وفي مقدمتها إنشاء الزوايا والمدراس، وبذلك ساهمت بالقسط الأكثر في تنشيط الحياة الثقافية بالجزائر آنذاك. أما النتائج السلبية للتنافس فهي كثيرة، منها أن التنافس كان سببا في إضعاف الدور السياسي للعلماء، لأن البشوات والبايات كانوا يضربون هذا بذاك، ويغلبون فريق على فريق، وعائلة على عائلة[1].

وأسفر التنافس عن نتائج خطيرة منها منح الرشوة للحصول على المناصب، حتى اتهم بذلك بعض أبناء البيوتات العلمية المعروفة، كأسرة مسبح، وأسرة ابن الغربي، إذ ذكر الفكون بأن محمد بن مسبح منح الرشوة للظفر بخطة نيابة القضاء، وبأن أحمد بن حسن الغربي كان يخدم الولاة ويعطيهم الرشاوي، ولذلك ولوه نيابة القضاء[2].

(2)- التنافس حول الوظائف العلمية والدينية:

ورد سؤال حول موضوعنا في "نوازل الفكون" وهو:" هل تجوز شهادة الفقهاء والطلبة والعدول بعضهم على بعض والعكس، خصوصا في التجريح، وما يهم عليه من إظهار مساوئ بعضهم بعضا عند الولاة والحكام أو لا تجوز..." [3].

ومن الأجوبة في المسألة نفسها:" ولما كان حال الانتفاع بالعلماء حبَّب إليهم الدنيا والرئاسة والرغبة في الترفع بالمناصب، نشأ بينهم على ذلك التباغض والتحاسد المنهي عن ذلك شرعا فوجب بذلك بطلان شهادة بعضهم على بعض"[4].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 389.

[2]- الفكون، منشور الهداية، ص- ص: 75- 90.

[3]- محمد الفكون، "نوازل الفكون" مخ، ص: 476.

[4]- محمد الفكون، المصدر نفسه، ص:479.

تبين هذه النصوص أن المناصب كانت السبب الرئيسي للتنافس بين الفقهاء، وقد ذكر الفكون في "منشور الهداية" عدة حالات من تنافس بين العلماء على مناصب علمية مختلفة، من ذلك التنافس حول وظيفة **الفتـــوى**، وهي أهم الوظائف التي يسعى إلى اعتلاها جل علماء تلك الفترة.

ومن أمثلة ذلك صراع أبو عبد الله محمد بن نعمون من أجل هذا المنصب، وكان هذا الأخير قد وُلي الفتوى، وعزل منها عدة مرات، كما تولاها في بعض الفترات أولاده – محمد ومحمد الملقب بالتومي، وترأس فيها بعد موت أبي العباس أحمد الغربي، وشاركه فيها من غير ترأس جماعة منهم أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن أبي زكريا يحي بن باديس، ووقعت بينهما مؤاخاة، إلا أن دواعي الواشين فرقت اجتماعهم، محدثة بينهما منافرة، فعزل ابن نعمون من خطة الفتيا بعد سجنه هنيهة، واستقل أبو العباس وحده، إلا أن ابن نعمون المعزول ظل يسعى لرده ورد أولاده للخطة، حريصا على أخذ الثأر من أبي العباس بن باديس[1]، مستعينا عليه بجماعة من رفقائه الذين وشوا بأبي العباس لدى الباشا عند ذهابهم إلى مدينة الجزائر، وكتبوا سجلات ووصفوه بأمور لا يحل الوصف بها، فأجبر ابن باديس على الذهاب إلى مدينة الجزائر، كما أن والي مدينة قسنطينة أغرمه " مالا أرهقه فيه، وسجنه قليلا"[2].

ورغم أن النصر في البداية كان لابن نعمون وجماعته إلا أن الكفة مالت بعد ذلك لصالح ابن باديس، إذ انتهى الصراع بعودته إلى الإفتاء واستقلاله به، وعزل ابن نعمون، بل إن العثمانيين في قسنطينة قد اتخذوا على إثر ذلك قرارا وهو :" ألاَّ مفتي إلا ابن باديس"[3].

ورغم صلة القرابة التي تجمع الفكون بمحمد بن نعمون إلا أنه خصص لترجمته عشر صفحات ستة منها لذكر مثالبه ومساوئه[1].

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 83.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 84.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:403.

ومن أمثلة التنافس حول **القضـــاء** ما ذكره الفكون في أخبار الشيخ محمد الكماد، من أنه كان قاضيا للجماعة "بقسنطينة في ابتداء أمره، ثم في آخره تنوب عن قضاة العجم"، وقد كان بينه وبين القاضي قاسم الفكون " شنآن عظيم"[2]، فهل للعداوة بينهما علاقة بمنصب القضاء، ذلك ما لم يصرح به الفكون، مع أنه أمر غير مستبعد.

وورد في "منشور الهداية" أيضا أنَّ أبا زكريا يحي بن محمد بن محجوبة حاز الفتوى في عصره وأنه:" تولى القضاء ونازع فيه القاضي الكماد المذكور، وظهر عليه في آخر عمره"[3].

ووظيفة **نيابة القضاء** رغم أنها ليست من الوظائف العليا إلا أنه حصل من أجلها تنافس بين العلماء، من ذلك ما ذكره الفكون بشأن عبد اللطيف بن عبد الكريم بن القاضي بركات بن سعيد (ت1031ه)، الذي كان مضادا لأحمد الغربي" بعد أن كانت بينهما مصادقة صغر وأخوته أعقبها ذلك، بعد الكبر والتـــنافس في ولاية منصب النـــيابة والهجران الفظيع... وكانت بينهما فتن عظيمة، وانحاز كل منهما إلى وال من الولاة يعتضد به على صاحبه، فكلما أقبلت دولة أحدهما أدربت دولة الآخر، وكل منهما له أعوان وأنصار من الخاص والعام". ولم تنتهي الفتنة بينهما إلا بعد أن ترقى أحمد الغربي لخطة الفتوى وطابت لعبد اللطيف بركات خطة النيابة " فوقعت بينهما ألفة في الظاهر وفي الباطن مختلفان"[4].

وقد تعرض الشيخ أحمد بن ساسي البوني رغم مكانته ومكانة بيته للإهانة من طرف الباشا سنة 1106ه/ 1694م لوشاية سببها التنافس حول المناصب، وكانت هذه الأزمـــة موضوع مقامته المعنونة ب:" إعلام الأحبار بعجائب الوقائع والأخبار" الـــتي وجههـــا إلى

---

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص- ص: 84- 89.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص:44.

[3]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 63.

[4]- عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه، ص: 79.

صديقه الشيخ مصطفى العنابي، وهو أحد العلماء البارزين بمدينة الجزائر. يستنجد به في محنته، فقد وُشي به وبصديقه المفتي بعض الخصوم إلى الباشا وصدّقهما، فعزل المفتي وأساء لابن البوني، وهذه المقامة تسلط الضوء على ظاهرة كيد العلماء لبعضهم البعض والغيرة والوشاية، التي ذهب ضحيتها الأبرياء، وارتفع بسببها الأغبياء، وكان الحكام غالبا ما يصدقون كل واش دون تبين.

وممَّا ورد في هذه المقامة:" بينما نحن... في أهنئ لذة بقراءة العلم الشريف... إذ سعى في تشتيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله ولا يتقيه، فرمى كل صالح وفقيه بما هو لاقيه، واغتر في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل... ونسب لبعضنا من الكبائر والفضائح، ما تصم له الآذان، وتجمد له القرائح، ونسبه لأمور عديدة قبيحة، شديدة، وما كفاه بث ذلك في كل ميدان... حتى أوصله لمسامع السلطان، فلم نشعر إلا ومكاتب ورادة علينا من جانب الأمير، بعزل صديقنا الشهير، من خطة الفتوى مع أنه ذو علم وتقوى، وتوالت علينا من يومئذ الكروب، وانتهك جنابنا، وضاقت رحابنا، وطالت يد الصائلين علينا، ووصلت شكوتهم إلينا، ومزقوا منا الأعراض"، إلى أن قال " وتشنصوا (تطلعوا) للمراتب الشرعية العالية، وهم لا يعرفون من الدين الضروريات"[1]، والفقرة الأخيرة تبين أن الدافع لهذه الوشاية هو المناصب.

كما حدثت منافسة شديدة بين أولاد المهدي وعلماء آخرين حول التدريس بمسجد سيدي عبد الحق بمازونة، ولدينا رسالتان تعودان إلى أواخر العهد العثماني[2] صادرتان عن السيد عثمان خليفة الباي، إحدهما موجهة إلى حاكم مازونة، والثانية موجهة إلى القائد، وكلاهما بخصوص حل خلاف بين العلماء حول التدريس بمسجد السيد عبد الحق الذي كان يدرس به أولاد المهدي. ومن خلال هذه الوثائق يتبين أن هذه الأسرة لم تكن تملك مدرسة

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص، ص: 92، 93.

[2]- من وثائق أسرة الكتروسي، وهاتان الوثيقتان لا تحملان ختما ولا تاريخا، ولكن الأسماء الواردة بهما تعودان إلى النصف الثاني من القرن 18م والنصف الأول من القرن 19م.

خاصة بها على الرغم من مكانتها في المدينة، وعلى الرغم مما كان يحدث من خلافات حول التدريس داخل مسجد سيدي عبد الحق الذي كانوا يدرسون به.

كما كان يحدث التنافس بين رجال الدين حول وكالة الأضرحة، إذ كان يقوم على الأضرحة وكلاء ينتمون في الغالب إلى سلالة الولي صاحب الضريح ، ويظل هذا المنصب وراثي في الأسرة المرابطية[1]، وإذا حدث أن انتقلت الوكالة لغيرهم لأي سبب كان، فإنهم يعودون للمطالبة بها حتى ولو بعد مرور فترة طويلة، وبما أنهم كانوا يعتبروها حق من حقوقها فمنهم من كان يلجأ إلى المجلس العلمي لاسترجاعها، إذ نظر المجلس العلمي قضية حول وكالة ضريح سيدي منصور، ادعى أحدهم وهو السيد الحاج سالم، أن أسلافه كانوا بوكالة هذا الضريح، استظهر المدعي بشجرة الشرف، تتضمن أجدادا وأسلافا إلى أن ذكر فيها منصور بن يزيد بن إبراهيم فادعى أنه هو المتنازع فيه[2].

(3)– المنافسة بين البيوتات العلمية بمدينة الجزائر:

(أ)– المنافسة بين بيت قدورة وبعض بيوتات مدينة الجزائر:

لم يسلم أبناء الأسر العلمية كغيرهم من العلماء من المؤامرات، التي كان يحيكها ضدهم منافسيهم من أجل الظفر بالمناصب في أغلب الحالات، إلا أنّ انتماء بعض العلماء لأسر علمية مرموقة ذات مكانة عند العامة والخاصة كان يشفع لهم في بعض الأحيان. وحدث أن تعرض أبناء البيوتات كغيرهم من العلماء للعقاب والانتقام، وبالنسبة لبيت قدورة رغم أنَّ الناس كانوا يُجلون أفراد هذا البيت و" يستبشرون بهذه العائلة، وكانوا يعتقدون بل حتى يتيقنون أنّ البركة تلتصق حتى بالأبناء في سن الحداثة" [3]، إلا أنَّ هذا لم يمنع من تعرض بيت قدورة لمضايقات كثيرة من طرف منافسيه.

---

[1]– مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها، ص: 21.

[2] – س. م. ش، ع: 82، و: 14.

[3]– ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 107.

ورغم الجاه والنفوذ الذي حصل عليها مؤسس بيت قدورة إلا أنه تعرض لبعض المحن كادت أن تعصف به، وهناك قصيدة سياسية أرسلها أحمد المانجلاتي إلى مفتي استانبول أسعد أفندي معرفا فيها بمكانة المفتي سعيد قدورة[1]، حين أرسله حكام الجزائر إلى إسطنبول غاضبين عليه لأسباب نجهلها، أكد أحمد المانجلاتي في قصيدته بأنّ ما اتهم به سعيد قدورة مجرد تلفيق من حاسديه. ونحن لا نعرف من غير هذه القصيدة أن سعيد قدورة كان قد اتهم بأي شيء حتى استحق هذا العقاب والإبعاد. ولا ندر ما حدث له في إسطنبول، وكل ما نعرفه أنه انتصر على خصومه، ورجع إلى الجزائر وبقي بها مفتيا إلى وفاته[2]. ومما جاء فيها قول المنـــــــجلاتي

مخاطبا المفتي أسعد أفندي[3]:

قدام بابـــكم فقيه جزائـــر بانت فضائله لمن لم يحسد

أستاذنا علامة الغرب الذي بعلومه يحكى سراج المسجد

قد كلفوه ركوب بحر غيرة من علمه بإشارة من الحسد

أمَّا الحادثة الثانية التي وقعت لسعيد قدورة فهي مجافاته من طرف معاصره الشيخ محمد القوجيلي، الذي كان منافسا له أشد المنافسة، فقد كان عالما مثله وشاعرا قويا، كما كان متصلا بأهل السياسة، بحيث ذكر ابن علي الشاعر بأنّ جده محمد المهدي كان ذات يوم مع الشيخ القوجيلي فمر بهما سعيد قدورة فتفاداه القوجيلي لمنافسة بينهما، وسلم عليه محمد المهدي، فلما انصرف قدورة أنشد القوجيلي هذان البيتان[4]:

إذا لاقـــيت ذا كبر فلا تعبـــأ بملقـــتـــاه

وقابله بإعـــراض وإياك وإيـــــــــــاه

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية لابن عمار، ص: 18.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 364، 365.

[3]- ينظر هذه القصيدة كاملة في أشعار جزائرية لأحمد بن عمار، ص، ص: 134، 135.

[4]- أحمد بن عمار، أشعار جزائرية، ص: 109.

إلا أنَّ الشيخ محمد المهدي كان له رأي آخر في سعيد قدورة، إذ أنشد قائلا ردا على أبيات القوجيلي:

إذا لا قيت ذا فضل فبدر وأسع في حقه

وقابله بإحـــســـان وراع الله في خلقه

ونشير إلى أن هناك قصيدة للقوجيلي يمدح فيها الشيخ محمد بن قرواش، ويهنئه بتوليه للفتوى[1]، ونحن نعلم أن ابن قرواش كان ينوب عن سعيد قدورة، ثم عين قدورة ابنه محمد نائبا عنه بدل ابن قرواش، فلربما وجدت منافسة بين فريقين، وهي أخطر من المنافسة الفردية بكثير.

وأهم ما كان يستدعي التنافس الشديد بين العلماء على وظائف الجامع الكبير هو الأوقاف الطائلة التي كان يتمتع بها، وقد كان قدورة عارفا بأحوال العصر وأهله. وكانت الإشاعات تدور حول تصرفاته في الأوقاف[2]، وكان من عادة حكام الجزائر عندما يتولى مفتيا جديدا يحاسبوه بأموال الأوقاف التي وجدها في الجامع، وقد فعلوه ذلك مع سعيد قدورة، و"بعد ثمانية أعوام طلبه للمحاسبة أرباب الدولة وأهل البلد... فأطلعهم على الحساب، وعلى ما اشترى من الكتب للجامع... وعرّفهم بإصلاحات وبناء أماكن بليت وتلاشت، والكل عنده عليه وثائق بخط العدول الثقات، فخـــاب سعيهم "[3].

إنَّ عملية مراقبة الأموال في حد ذاتها إجراء عادي لوظيفة كهذه، ولكن إضافة ابن المفتي لخاب سعيهم يدل على نواياهم المبيتة في طلبه للمحاسبة.

وتعرض ابنه محمد بن سعيد قدورة هو الآخر لبعض الوشايات، بحيث ذكر ابن المفتي بأنَّه عزل :" حوالي عام 1090هـ (1679م) بضعة أيام فقط لكن لفترة، ودون أن ينوبه أحد، والسبب في هذا العزل هو رسالة بعثها حساده للأمير الحاكم حينها اتهموه فيها

---

[1]- ابن عمار، المصدر نفسه، ص: 119.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص، ص: 362، 363.

[3]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 97.

بأعمال شائنة وبقلة الوقار، وذلك بعيد عن الحق، فقد كان فاضلا كريما، وهذه التهمة ليست إلا أكاذيب وافتراءات من ذوي النية السيئة، وقد أعيد للخطة قبل الجمعة التالية"[1].

إنّ المؤامرات هذه المرة كانت أقوى، حتى أدت إلى الفتك بعالمين جليلين من هذا البيت الشهير، بحيث قام الداي محمد بكداش (1707- 1710م) بإعدام المفتي المالكي أحمد قدورة وقريبه أو أخاه علال[2] لأسباب واهية، رغم أن الداي محمد نشأ علمية دينية، فكان يدرس العلم وينظم الشعر ويخطب بالعربية، كما كان يتقرب من العلماء، ولهذا وصف بأنه عالم الأمراء وأمير العلماء[3]، وهو مؤسس زاوية الشرفة.

ولا شك في أن المنافسة بين بيت قدورة وغيره من العلماء كانت سببا في النهاية الدموية التي تعرض لها أحمد قدورة وأخاه، من ذلك المنافسة بينه وبين بيت العنابي الحنفي، وقد ظهر هذا التنافس مرتين الأولى عند حدوث اختلاف بينه وبين المفتي الحنفي. ومن المتعارف عليه أنه لما كان يحدث اختلاف بين المفتي الحنفي ونظيره المالكي ترفع القضية للمجلس العلمي لينظر فيها، من ذلك حدوث اختلاف في مسألة فقهية بين المفتي المالكي أحمد بن سعيد قدورة ومحمد نيار المفتي الحنفي عام 1114ه/ 1702م، فرفعت القضية للمجلس العلمي، الذي حضره الباشا أهشي مصطفى وجمع من العلماء، وبعد المناظرة بينهما فانقسم العلماء إلى فريقين كل واحد أيد طرف، فتغلب المفتي الحنفي، الذي انحاز إليه الباشا، وعزل أحمد قدورة[4].

يقول ابن المفتي إنَّ :" سيدي مصطفى العنابي وأخوه الحسين" كانا حاضرين في ذلك المجلس العلمي، "واستقبلهم الأمير، وسألهم فتكفل بالجواب سيدي مصطفى وأخوه فأخذوا الكلمة وقالوا:" إنَّ مفتي الحنفية النيار على صواب"[5].

---

[1]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص، ص: 99، 100.

[2] – محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص:70.

[3] – عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ص:207.

[4]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص:102، 103

[5]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص:102.

وظهر مصطفى العنابي مرة أخرى في قضية مقتل أحمد قدورة عام 1118ه/ 1706م، يقول ابن المفتي:" أما أنا فإني أعلم أنه توجد عداوة بينهم وبين سيدي أحمد، ومن بين هؤلاء المعادين يوجد شيخي مصطفى العنابي وأخوه سيدي حسين، وانشغل شيخي كثيرا به واهتم بمنافعه، وكان من عادته أن يستعلم بدقة عن الوقائع التي يمكنها أن تنال من احترامه، ولما يعهد إليه أحدٌ أمرا على سبيل السر فإنه يفشيه"[1].

(ب)– المنافسة بين المفتي ابن علي الشاعر وبعض عـــلماء مدينة الجزائر:

نَلْمَحُ من خلال " أشعار جزائرية" المنافسة الحادة بين العلماء، من ذلك ما عبر عنه ابن علي في عدة مناسبات في شعره، إذ اشتكى من حساده، وناقدوه الذين طعنوا في فضله ودعوه " سفيه الرأي"، فلجأ إلى الشعر للدفاع عن نفسه، مؤكدا بأنَّه كالنجم لن ينالوه بسوء، واصفا إياهم بأنهم أجلاف لا يفقهون، متهما إياهم بالجهل والحسد والغيرة. وهذه بعض الأبيات الواردة في إحدى القصائد التي رد بها على خصومه [2]:

وإذا نسوا فضلي فكم من فاضل قبلي سقوه السم في كيـــسانه

نصبوا حبائل مكرهم وتعرضوا بســـهامهم للنجـــم في كيوانه

...أجلاف هذا العصر حقا لو حسان ما جنحوا إلى إحسانه

رأوا

إن أنكروا فضلي لخبث طباعهم فالُّرُ ليـــس يعـــز في أوطانه

ومن خصوم ابن علي المعروفين لدينا اثنان أولهما هو محمد بن نيكرو مفتي المالكية في وقته، والذي قيل أن ابن علي قد أطلق فيه لسانه سنة 1150هـــ/1737م، حتى توفي (أي ابن نيكرو) سنة 1152هـــ/1739م[3].

---

[1]– ابن المفتي، المصدر نفسه، ص، ص: 105، 106.

[2]– ابن عمار، أشعار جزائرية، ص، ص: 39، 40؛ أحمد بن عمار، نخلة اللبيب، ص: 44.

[3]– أبو القاسم سعد الله، في مقدمة تحقيقه لأشعار جزائرية لابن عمار، ص: 23.

والثاني وهو الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش الذي تحدث بنفسه عن خصومته مع ابن علي في حوادث ربيع الثاني سنة 1159ه/1746م، في النص الموالي:" ناداني إلى داره كعادته شيخنا سيدي محمد بن ميمون بعد العصر... إذ دخل علينا الرافل في ثوبه، الزاهي بكبره وعجبه، الذي يعد الأشراف أرضا، وأن نعله يطأ صفحات خدودهم فرضا... مفتي الحنفية بالوقت ابن علي المستحق المقت، فغضب إذ لم أنتصب متمثلا بين يديه "[1].

لم يتوقف ابن حمادوش عند هذا الحد بل أورد نظما في مئة وخمس وأربعين (145) بيتا، يذم فيه ابن علي، ويفتخر بنفسه، وفي هذا الشعر يدعي أنه شريف حسني، وأن ابن علي كان يهين الأشراف بغضبه منه، كما ادعى أنه عربي من بين هاشم بينما كان ابن علي من الكراغلة[2]، وهنا نلاحظ توظيف الأنساب للنيل من الخصم.

(ج)– العلاقة بين البيوتات العلمية المالكية والبيوتات العلمية الحنفية:

لقد كان حكام الجزائر أحنافا، ولهذا فرغم احترامهم للمذهب المالكي مذهب غالبية السكان، إلا أنهم ميزوا بين علماء المذهبين في المعاملة أحيانا. ومن مظاهر التمييز بين علماء المذهبين ما نلاحظه من فرق بينهما في الأجر، بحيث كان العلماء الأحناف مفتين وقضاة وغيرهم يتقاضون أجورا أعلى من الأجور التي يتقاضاها نظرائهم المالكية تصل أحيانا إلى أكثر من الضعف[3].

رغم الاختلاف المذهبي إلا أن علماء المذهبين لم يكونوا متباعدين عن بعضهم، إذ كانوا يحضرون نفس حلقات الدروس، كما كان مفتيي وقاضيي المذهبين يلتقون على الأقل مرة في الأسبوع في المجلس العلمي. ونعتقد أن هذا التفريق من شأنه أن يحدث خلافا حتى إذا لم يكن بشكل مباشر، إذ من المالكية من هو ساخط بلا شك على الوضع، في الوقت الذي كان فيه بعض الحنفية يحسون بتفوقهم على نظرائهم المالكية، صحيح أن هذه الصورة لم

---

[1]– ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 256.

[2]– ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص، ص: 256، 257.

[3]– ينظر الصفحات الموالية من هذا الفصل.

تكن هي السائدة، ولكنها موجودة إذ يذكر ابن حمادوش أن سبب غضب المفتي الحنفي ابن علي منه لأنه لم يقم له[1]، وهكذا فتكون السلطة هي التي زرعت بذور هذا الخلاف بين بعض علماء المذهبين.

لقد ظهر ذلك الخلاف الذي كان يحدث في بعض الأحيان بين علماء المذهبين على أنه صراع مذهبي[2]، وهو لم يكن كذلك.

لم يكن الحكام يخفون انحيازهم لجهة الأحناف في الغالب عند الاختلاف في الرأي مع المالكية، فقد رأينا كيف عزل أحمد قدورة بعد اختلافه مع المفتي الحنفي النيار[3]، ونشير هنا إلى أن الحكام لم يكونوا ينحازون دائما للأحناف فقد يلجأ الحاكم إلى عزل الطرفين، كما حدث في سنة1226ه/ 1811م، بحيث عزل الداي كلا من المفتيين الحنفي محمد بن العنابي والمالكي علي بن الأمين بعد نقاش بينهما في المجلس العلمي[4].

إنَّ كون بعض منافسي ابن علي من المالكية لا يعني سبب الاختلاف المذهبي، فقد كان ابن عمار وهو مالكي صديقا حميما لابن علي كما مر معنا في الفصول السابقة.

(4)- المنافسة بين البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة:

لقد كان هناك تنافس بين الأسر الحضرية بقسنطينة من أجل المجد والجاه والثروة، ولكن هذا التنافس لم يبلغ حد التنافر أو التحارب[5]، كما أن علاقة العلماء والبيوتات العلمية ببعضها البعض لم يكن دائما على ما يرام، بحيث كثرت المنافسة غير الشريفة بينهم من أجل المناصب الشرعية، ولذلك أبطل المفتين والقضاة شهادتهم على بعضهم، وقد حظيت هذه المسألة بحيز معتبر في " نوازل الفكون"، للفتوى المتداولة من إبطال شهادة الفقهاء على بعضهم بعضا لظهور التحاسد والمنافسة والعداوة بينهم.

---

[1]- ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 256.

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 404.

[3]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص:102.

[4] -Devoulx, Tachrifat, p : 77.

[5]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 22.

من ذلك ما أفتى به عمر الوزان اعتمادا على فتوى عدد من العلماء المتقدمين، وهي الفتوى التي ظل القضاء يعملون بمقتضاها بعد ذلك، مما ورد في النوازل :" بعد أن وقعت بين فقهاء أهل مدينة قسنطينة المحروسة، وعدولها عداوة دنيوية بسبب عرضها وحطامها والتنافس فيها ورثت بينهم شنآنا، ومقاطعة، وتحاسدا، وبغضاء، وأفضت بينهم إلى أن انقسم جميعهم وصار فريقين بحيث لا تجوز شهادة بعضهم على بعض بتجريح بالعداوة ولا بخصوص الصداقة ولا ما ينسبونه للمشهود عليه بما يعرضوه به لولاة الأمر والسلاطين، ما يستحق بذلك عزله على الوظائف الشرعية، وما ينالون بذلك منه من نصبه للآفات، وما يوجب إذايته في عرضه، وهلاك نفسه، ولا يعلمون لذلك أصلا وإنما أوجبته العداوة. وقد كان بعض من تقدم من القضاة – رحمهم الله تعالى– أشهد في سابق التاريخ في التسجيل عليهم في ذلك بأنهم لا يشهدون على بعضهم بعضا في ذلك ولا تجوز شهادتهم فيه... أشهد الآن الشيخ الفقيه الإمام الخطيب القاضي... محمد بن محمد الخطيب الغربي قاضي الجماعة بالمدينة المشار إليها حين التاريخ... أن سجل على عدول قسنطينة بالمدينة المذكورة ألا يشهد بعضهم على بعض في شيء مما ذكر، ولا تجوز شهادتهم فيه على بعضهم بعضا بوجه"[1]، كان ذلك في سنة 946ه/ 1539م. وقد أوردنا هذا النص على طوله لأهميته لما نحن بصدده.

(أ)– المنافسة بين بيت الفكون وحضر قسنطينة:

يعد بيت الفكون أشهر البيوتات العلمية بقسنطينة في العهد المدروس، ولهذا سنكتف بإيراد علاقتها مع محيطها، فرغم المكانة التي تمتعت بها في مدينة قسنطينة إلا أنها لم تسلم من المنافسة غير الشريفة، ولهذا كرر الفكون تذمره من بعض طباع الحضر في "منشور الهداية" وفي "محدد السنان"، كما نظم الفكون قصيدة في ستة وعشرين بيتا يُعَرِضُ فيها بحضر قسنطينة وأعيانها، وختم القصيدة بالدعاء عليهم، اخترنا منها هذه الأبيات[2]:

---

[1]– محمد الفكون، "نوازل الفكون" مخ، ص، ص:475، 476.

[2]– أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص– ص: 222، 224.

هم القوم الأراذل قد تسموا بجنس في الخليقة لا يشارك

وقالوا نحن إحضار بدار نعم صدقوا ولكن في المهالك

...وقل ربي عليك بم وخذهم ومثواهم يكون بدار مالك

... وخذ ممن أذى وتعدى حقا وأحلل فيه بلوى من سمائك

ويبدي الفكون في كتابه "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" استياء كبيرا من طبائع الحضر رغم أنه من بيت حضري، ومنها تخصيصهم لأنفسهم بصفة الحضري، رغم أن هناك حضر آخرين، وتذمر الفكون كثيرا من نفاق الحضر مع بعضهم[1]، ويتطرق لمعنى الحضر بقوله:" ويلقبون بعضهم بعضا بالحضر، وكثيرا ما داعبهم فإن يعينوا هذه الخصيصة التي أورثتهم هذا الداء العضال على مقتضى أضل طريقهم الفاسدة..."، " لأن الحضري من هو بالحاضرة والبدوي من سكن البادية، فيصدق على بعضكم إذا سكن البادية إنه بدوي وعلى العامة سكناهم الحاضرة إنهم حضريون، وأنتم لا توافقون على ذلك، وإن كان هذا الوصف من حيث القدم في البلد، وطول الأمد، وتوالي القرون على أسلافهم فقد شاركهم في ذلك الكثير من أهل البلد، ممن دخل الإسلام على أسلافه ووجدهم بالمدينة، وأنتم لا تسلمون أن يكونوا من هذا الجنس الذي اختصصتم به، وإن كان من حيث المال والجاه فهذا جمع كثير لا يحصى ماله، ولا يقاوى جاهه لا ينسب إلى هذه النسبة، وإن كان بالاجتماع من هذه الأوصاف كلها فقد استقر لبعضكم أنه لم يثبت له حكم جميعها وأنتم تدخلونه في سمطكم، ثم أقول لهم تنزلا وحرصا على هدايتهم وتوبيخا لهم "[2].

(ثالثا)– مكانة البيوتات العلمية ودورها الاجتماعي:

تمتعت البيوتات العلمية والدينية بمكانة رفيعة في المجتمع، وهذا ما أهَّلها للقيام بأدوار بارزة في مختلف الميادين، وهنا نلاحظ أن بيوتات المرابطين وأصحاب الزوايا الصوفية كانت

[1]– عبد الكريم الفكون، "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" مخ، ص، ص: 58، 59.

[2]– عبد الكريم الفكون، "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" مخ، ص، ص: 56، 57.

تتمتع بنفوذ كبير في الأوساط الشعبية أكثر من البيوتات العلمية التي لم لا تتمتع بنفوذ روحي.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض أعيان البيوتات العلمية تمكنت من تحقيق مكانة روحية كبيرة في المجتمع، بما اكتسبته من ثروة وجاه، وبخدمتها للدين من خلال تولي أبناءها للمناصب الدينية العليا كالفتوى أو الخطابة والإمامة في الجوامع الكبرى، فبيت قدورة مثلا لم يكن من بيوتات المرابطين، ولكن تمتعه بالثروة والجاه، وخدمته للدين لمدة طويلة أكسبه حضورا دينيا كبيرا، حتى اعتقد الأهالي أن مدينتهم قد تتعرض للمصائب إذا لم يتول الفتوى أحد علماء هذا البيت، فالتصوف والشرف ليس السبيل الوحيد الذي يحقق النفوذ الروحي للبيوتات.

ولدينا مثال آخر عن بيت الفكون، صحيح أنه عربي النسب، لكنه لا ينتسب إلى الأشراف، وهم لم يسخروا كل إمكانياتهم المادية والمعنوية لخدمة التصوف، وإن كانوا ينتمون إلى الطريقة الزروقية الشاذلية، إذ اشتهروا بالعلم أكثر من التصوف، وبما أنهم اكتسبوا الثروة والجاه، وأضافوا له النفوذ الروحي لخدمة المجتمع والعلم، لأن الانتصاب لتدريس العلم الشرعي في حد ذاته خدمة للدين، إذ لا فرق بين العلم والدين في تلك الفترة.

وعليه فإن البيوتات العلمية لا تتنفذ وتكتسب مكانة روحية إلا إذا اكتسبت جاها عريضا واكتسبت الثروة، واشتهرت بخدمة الدين، عندها فقط ينظر المجتمع لأبنائها كمرابطين، أما بيوتات المرابطين فبإمكانها أن تحقق النفوذ الروحي وتشتهر حتى إذا لم تنجب علماء كبار، سيما إذا كانت شريفة حتى إذا لم يشتهر رجالها بالعلم، والأمثلة كثيرة خلال العهد العثماني.

فكلا من البيوتات العلمية والدينية خدمت المجتمع، إلا أنهما لم تخدمه بالطريقة نفسها، إذ هناك فرق بين البيوتات العلمية التي ركزت على نشر العلم الشرعي، وأضافت إليه أحيانا

علم التصوف، وبين البيوتات الدينية التي اكتفت بإعطاء الأوراد وتلقين الأذكار دون العلم الشرعي.

واندس بين بيوتات الأولياء والمرابطين العديد من المشعوذين والمبتدعة، فوجدت عدد من البيوتات الدينية التي حظيت بشهرة كبيرة، مع أن رجالها ليسوا علماء وقد كان تأثيرهم سلبي في المجتمع، إذ سخروا زواياهم التي يتوارثها عن أعقابهم لنشر البدع والخرافات، وقد ساهم العثمانيون في التمكين لهم، بتقريبهم لبعض هؤلاء المبتدعة وتعظيمهم، بل ومنحهم امتيازات مختلفة رغبة في استغلال نفوذهم كوسطاء اجتماعيين.

وقد كانت أوامر كل البيوتات التي أشرنا إليها مطاعة، فكان الناس يَلجؤون إليهم لحل النزاعات بين الأفراد، وإنهاء الفتن بين القبائل، والحصول على الرأي السديد. ولكننا سنركز الحديث عن البيوتات العلمية أو البيوتات التي جمعت بين العلم والتصوف دون الحديث عن البيوتات الدينية التي لم يعرف أبناؤها بالعلم.

(1)- الإصلاح الاجتماعي:

كان العلماء يقومون بواجبهم التعليمي المتمثل حلقات الدروس التي تتطرق لمختلف العلوم الشريعة سواء لطلبة العلم، وحتى لعامة الناس في المساجد، كما كانوا يحفزون على جهاد الكفار، ويشاركون في تنشيط الرباطات... إلخ

ومن الأدوار الأساسية للعلماء هو محاربة البدع والخرافات، التي انتشرت خلال العهد العثماني، ومن العلماء الذين استنكروها وقاوموها عبد الرحمن الأخضري خلال القرن 16م، الشيخ عبد الكريم الفكون خلال القرن 17م وغيرهم[1].

يلقي حمدان خوجة على العثمانيين مسؤولية انتشار بعض المبادئ الخاطئة ومنها التعظيم المبالغ فيه لبعض المرابطين الذي وصل إلى حد الشطط قائلا بأن :" السياسة هي التي جعلت

[1]- العيد مسعود،" المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، ع: 10، السنة السادسة، 1988. ص: 22.

الآخرين يبقون هذه المبادئ الغالطة أو يتركونها تستمر ويحترمون الأماكن التي تقدسها القبائل"[1]. وهذا حتى تستفيد السلطة من نفوذ المرابطين.

ومن أبناء البيوتات العلمية الذين مارس الإصلاح الاجتمـــاعي بيت الفكون، إذ سخر الشيخ عبد الكريم الفكون قلمه لمحاربة المبتدعة والضالين، والآفات الاجتماعية، وفي مقدمتها كتابه "منشور الهداية"، وذلك ما أشار إليه في مقدمة كتابه:" فلما رأيت الزمان بأهله تعثر... وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منـــزلة يدعى من أجلها خسيسا... كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم أو يذكروا في معرضهم..."[2]. وركز المؤلف على الذين تولوا المناصب الشرعية من غير المؤهلين بأسمائهم ولم يستثن من ذلك حتى أحد أقاربه ابن عمته أبو عبد الله بن نعمون، وهو الذي أسهب في ذكر المناكر التي قام بها كتغيير الأحباس وبيعها، ثم علل ذلك بقوله :" ولما كان هذا التأليف للنصح العام أتينا بنبذة من مساوئه"[3]. وذكر بعض المبتدعة من مدعي التصوف وسماهم أيضا بأسمائهم.

كما ثار الفكون ضد تعاطي الحشيشة والتدخين، وخصص له تأليفا عنونه ب" محـــدد السنان في نحور إخوان الدخان"، فقد ألفه لما بدأ التدخين ينتشر بين الناس اعتقـــادا منـــهم بإباحته عند ظهور فتاوى بذلك:" فقد دهمت بلية وقعت في البلاد، وسرى سمها في الحاضر والباد، وانتحلت مذهبا في الأقطار، وتوارثته عن سفلتها الأشرار، وتدرع لارتكابها بأكـــابر الأغمار، لما توهموا الإباحة إنها لا تعمى الأبصار، ولم يزل في قلبي منها نكد، وأشهر الإنكار على الأب والولد" [4].

وفيه ذكر أحوال أعيان قسنطينة غاضبا على بعض طبائعهم السلبية في نظره، وما جبلوا عليه من منابذة العلم وأهله، واتكالهم على شرف آبائهم وعلو مرتبتهم، وما هم عليه

---

[1]- حمدان خوجة، المرآة، ص: 21.
[2]- الفكون، منشور الهداية ، ص- ص: 31- 33.
[3]- الفكون، المصدر نفسه، ص: 89.
[4]- عبد الكريم الفكون، "محدد السنان في نحور إخوان الدخان" مخ، ص: 1.

من الرياسة التي شرفوا بها بين إخوانهم. كما انتقدهم لما هم عليه من الحسد والبغضاء وهتك أعراض المسلمين. كما أشار في مؤلفاته إلى الأمراض الاجتماعية التي كانت شائعة في وقته مثل شرب الخمر والاختلاف إلى نوادي العربدة والإنشاد، وحضور الحضرات الصوفية التي يقع فيها الرقص والشطح وغيره، كما أشار إلى مفاسد اجتماعية أخرى منها تردد النساء على رجال التصوف طلبا للولد ونحوه، وادعاء العلم والتهافت على المناصب ومصانعة السلطة، وتعاطي الرشوة... وغيرها[1].

كما استنكر الشيخ حسين الورثيلاني كثيرا من الممارسات في بلده وخارجها، من ذلك خروج النساء سافرات، والاختلاط بين النساء والرجال في الحج، وانتشار ظاهرة الرشوة حتى مست رجال القضاء، والسطو على الأوقاف...إلخ[2]. إلا أن انتماء الورثيلاني لأسرة جمعت بين العلم والتصوف جعله يرفض تنكر بعض معاصريه للأولياء، والقدح فيهم، محذرا من إنكار كرامات الأولياء بقوله:" إياك أن تتعرض لأحد من أهل الله، فيمن ثبتت له الخصوصية من الأولياء في زمانك، فيما فيه الوسع شرط، فتزل قدمك بعد ثبوتها "[3].

حظيت هذه الأسرة بمكانة اجتماعية متميزة عند أهالي بلاد زواوة، حتى أنهم كانوا يعتقدون بهم البركة، فعند خروج الحسين الورثيلاني مع بعض أفراد أسرته متجهين للحج "وقع البكاء والصراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلا الخير والبركة"[4]. ويمكن أن نلحظ تلك المكانة في شخص صاحب الرحلة، الذي تظهر مكانته من خلال عدة مواقف في رحلة الحج منذ بدأ التأهب لها حتى العودة إلى الديار :" أخذنا في التأهب للسفر، والأخذ في أسبابه، واشتهر أمر سفرنا، وبلغ أمره أطراف

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص، ص: 25، 26.

[2]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، مثلا ج1، ص: 142.

[3]- العيد مسعود،" المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، ص: 22.

[4]- الورثيلاني، رحلة الورتلاني، ج1، ص: 104.

نواحي عمالة الجزائر فقامت لذلك فضلاء الخاصة والعامة، ثم وقع النداء في أسواق بلدنا فيمن عزم للسفر" [1].

وقد كان للورثيلاني دور في حل بعض المشاكل الاجتماعية لخروج الناس عن الأحكام الشرعية، وأكلهم أموال اليتامى بالباطل، وقطع الميراث، وهذا هو النص وهو يتحدث عن السيد أحمد الطيب الزواوي نجل ولي الصالح سيدي محمد السعدي :" قدم إلينا زائرا وواقفا علينا وطالع أحوالنا لعل الله يفرج ما بنا من الفتنة مع بعض المخذولين الخارجين عن طاعة الله ورسوله في الأحكام الشرعية بعد إعطاء البيعة والإذعان في الأحكام الشرعية، ونبذ العوائد الردية، والبدع الشنيعة كقطع الميراث وأكل أموال الناس بالباطل وأموال اليتامى ولين الجانب كالأرامل فلما وصل إلينا فرج الله عنا ذلك... فيوقع الصلح بين الفريقين وأظهروا التوبة والذل والمسكنة والندم بعد أن كانوا ممتنعين منها ظاهرا وباطنا"[2].

إن تدخل الورثيلاني في إنهاء الفتن ومحاربة الضلالة، اضطره أحيانا لمواجهة بعض المبتدعة وذلك ما أشار في هذا النص:" إن أشر الشرور في وطننا الفتنة... نعم الشيطان استولى عليهم، و لم يترك لهم حقا إلا بدّلوه وغيروه بأن جعل لهم رسوما وحدودا لا يتعدونها، فلما جئت إليهم ففسخت لهم أحكامه... بأن رددتهم إلى الشريعة المحمدية والأحكام النبوية، فلم يملك نفسه الملعون أن يصبر وتغير ونادى بالويل والثبور على أصحابه والحسرة في ناديه المنكر..." إلى أن قال :" قال لهم عندكم طلبة وعلماء تمسكوا بهم، وكونوا على رأيهم وعظموا علمائكم كما عظمه أهل وطنه لينشئ العداوة ... "[3].

كما أن الدور الذي أداه حسين الورثيلاني في تسيير ركب الحج إلى جانب أميره يدل على مكانته، وكثرة المهنئين له عند العودة من الحج وحده كاف لتبيين مكانة أسرة

---

[1]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 30.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص، ص: 13، 14.

[3]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص، ص: 812، 813.

الورثيلاني في المنطقة[1]:" ثم أنه بعد ذلك تأتي إلينا الوفود من كل وطن تارة ألفا وتارة أكثر من ذلك نحو الألف وأربعمئة ثم كذلك حسب القلة والكثرة إلى أن اقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين"[2].

(2)- الدور الاجتماعي لزوايا البيوتات العلمية:

وقد كانت جل الزوايا التي تملكها البيوتات العلمية تؤدي دورا اجتماعيا إلى جانب دورها الثقافي، فتستقبل الضيوف من الفقراء والغرباء، وتصلح بين المتخاصمين وغيرها، نقتصر على بعضها منها زاوية أسرة الفكون، ولذلك قال أحمد باي بشأن محمد الفكون في المرسوم الذي أصدره في أواخر العهد العثماني بأنه :" يطعم الطعام ويصلح بين الأنام"[3]. وفي الحوار الذي دار الشيخ محمد الفكون وقائد الحملة الفرنسية على قسنطينة، ما يؤكد الدور الاجتماعي لزاويتهم التي كانت ملجأ «القليلين » أي الفقراء، وعبارته كما وردت في "فريدة منسية":" نحن زاوية ملجأ القليلين، نطعم الطعام لوجه رب العالمين، وما نحتاجوا من الدولة الفرنصاوية إلا الاحترام مثل ما كانوا دول الأولين"[4].

كما كانت زاوية القيطنة التابعة لبيت مصطفى بن المختار تؤدي دورا اجتماعيا مهما بالمنطقة بالإضافة إلى دورها الثقافي، بحيث كثر زوارها، فكانت تخرج الكثير من الطعام للضيوف في كل ليلة، كما كانت هذه الزاوية ملجأ للعياذ، الذين يحتمون بها، "ومن اجتاز الوادي قاصدا القرية يأمن ولا سبيل عليه"[5]، ولا شك أن هذا أحد الامتيازات التي منحت لها من طرف السلطة. ونظرا للمكانة التي تمتع بها الشيخ محي الدين كان :" يسعى في مصالح

---

[1]- على الرغم من أنه لم يبين إن كان المهنئين يقصدون زاوية أسرته أم أنهم يأتون لتهنئة كل قرية بني ورثيلان.

[2]- الورثيلاني، المصدر السابق ، ج2، ص: 813.

[3]- Ernest mercier, Constantine au 17e siècle, (élévation de la famille el fagoun), p:33.

[4] - العنتري، فريدة منسية، ص: 115.

[5]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 49.

المسلمين بالشفعة لهم عند الملوك، تارة بنفسه وتارة ببعث أحد أولاده، وتارة بالكتابة فيقضونها طائعين أو كارهين قهرا من الله"[1].

وكانت زاوية آل آبهلول المجـــــاجـــي بثغر تنس تؤدي دورا اجتماعيا بالغ الأهمية باستقبال عابري السبيل، وتقديم المساعدة للفقراء والمعوزين، وذلك ما أشار إليه المشرفي بقوله في سياق ترجمته لمحمد بن علي:" فهو -رضي الله عنه- من بيوت الملك ولا زالت ذريته تمتد لها الأعناق في النجدة، والسماحة، والجود، ويحتمي الجاني بساحتهم"[2]. ثم ذكر الزاوية بقوله:" قال في "كمال البغية" :" كانت زاوية الشيخ سيدي محمد بن علي معدة لإقراء الضيفان" [3].

كما قامت زاوية خنقة سيدي ناجي بوظائف اجتماعية إلى جانب وظيفتها العلمية؛ حيث كانت تطعم الطعام، ويأوي إليها الفقراء والمساكين في تلك الأماكن الخالية [4].

- المبحث الثاني: البيـــوتات العلـــمية والأنساب العربية (النسب الشريف):

كانت البيوتات العلمية كغيرها من الأسر حريصة على إظهار أنسابها الرفيعة، سيما الانتساب إلى آل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد كان في الجزائر عدد كبير من العائلات التي تعتبر من الشرفاء[5]، وقد كان لها نقيب يشرف على شؤونها ويمثلها.

كان الأشراف من الفئات المتميزة في المجتمع الجزائري، وقد حظوا خلال العهد المدروس باحترام كبير من طرف السلطة والمجتمع، حتى أن ابن مصطفى المشرفي استدل على شهرة شرف المشارف باحترام الحكام والعوام لهم، وأن ذلك كاف لإثبات نسبهم:" ولو كان إلا ما هم عليه من التعظيم والتوقير ببلدهم، وخضوع العوام بل الملوك والجبابرة لهم،

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 49.

[2] - أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 31.

[3] - أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 32.

[4] - حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، ص: 253.

[5] - الأشراف أو الشرفاء هم كل من ينتسب إلى السيدة فاطمة الزهراء وسيدنا علي رضي الله عنهما.

وتقبيل أيديهم وطاعتهم لهم كما هو شأن الأشراف بغريس وغيره من يوم نشئوا إلى الآن، لكان ذلك كاف في نسبهم وأقوى من الإشهاد "[1].

كما أعفتهم السلطة العثمانية الحاكمة من التكاليف المخزنية المختلفة[2]، ولهذا اجتهد الأشراف في تحصيل الوثائق التي تثبت انتسابهم للجناب النبوي، في الوقت الذي ادعى الشرف الكثير ممن لا ينتسبون إليه، طلبا للمكانة والاحترام، وتهربا من المغارم والتكاليف المخزنية الكثيرة التي اجتهدت السلطة في ابتداعها وفرضها على الرعية.

فما هو نصيب البيوتات العلمية من هذا الجدل القائم حول هذه المسألة، أو بمعنى آخر كيف تعاملت البيوتات العلمية مع قضية الانتساب للأشراف. أيهما تمتع بحظوة أكبر العائلات الشريفة أم العائلات العلمية؟ وأي الأمرين كان يرفع من مكانة صاحبه فهل كان الانتساب للأشراف كاف لرفع العالم، أم أنّ العلم وحده كاف لذلك؟

(أولا)- كيفية إثبات النسب الشريف:

يذهب الورثيلاني - وهو من الأشراف- إلى أنَّ الشرف يثبت بالشهرة، معتمدا في ذلك على رأي عدد من العلماء كالشيخ عبد الباقي، والأجهوري الذي يرى أن:" الناس على ما حازوا من أنسابهم كحيازة الأموال، يصدق الإنسان شرعا في نسبه كما يصدق بأن ما بيده ماله، إلا إذا كان مشهورا بالعداء والظلم"[3].

وقد ردَّ ابن مهنا القسنطيني[4] على ما ذهب إليه الورثيلاني من" أن الإنسان يصدق شرعا في نسبه" بأن هذا في غير الشرف، وأما الشرف فلا يصدق فيه لأنه نسب ولا يثبت

---

[1] - محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 3.

[2] - غطاس عائشة، الحرف الحرفيون بمدينة الجزائر. ص: 88.

[3] - الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، تعليق: ابن مهنا القسنطيني. الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011.ج1، ص: 52، 53.

[4] - صالح بن محمد بن مهنا القلي القسنطيني (ت 1328ه/1910م) درس بمسقط رأسه بضواحي القل وبقسنطينة ثم التحق بجامع الزيتونة ثم بالأزهر وتخرج منه بشهادة العالمية، عاد إلى قسنطينة واشتغل بالتدريس وتولى الإمامة بالجامع الكبير، كان من أوائل الداعين إلى الإصلاح، وحارب البدع والخرافات، وبسبب آرائه الجريئة حصلت له متاعب من طرف الاستعمار الفرنسي. له مؤلفات. ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر. ص:175؛ نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 323.

إلا بالدعوى، كما نص عليه بعض العلماء، وأشار ابن مهنا إلى جماعات ادعت النسب الشريف زورا[1].

وكان بإمكان الراغب في الحصول على ظهائر يثبت بها نسبه الشريف أن يتوجه إلى القاضي فيكتب له بذلك[2]، ولأهمية هذه الرسوم كان أصحابها يحرصون على كتابتها بخط حسن، إذ ذكر الفكون أن أبا عبد الله بن العطار كان من أهل الخطة التوثيقية، ونطرا لحسن خطه، فقد كان:" منتهى العام والخاص في الوثائق، وملجأ الخاص في عقـــــود الأنكحة، وكتب رسوم الأشـــــراف لحســـن خـــطه، وصناعة تـــــزويقه"[3].

كما كان العلماء يكتبون شهاداتهم للأشراف بالنسب الشريف، ولما أسس الداي محمد بكداش زاوية الأشراف وضع لها نظاما لتسييرها، يرتكز على تسع تعليمات: أحدها هو أن إثبات أو خلع صفة " النسب الشريف" لا يتم إلا بموافقة مجلس الشرفاء البارزين بعد التدقيق في نسب الشخص[4].

ويبدو أنه لم تكن كل العائلات الشريفة تهتم بهذه الوثائق، بحيث ذكر لوجي دو تاسي من أن الشريف في مدينة الجزائر لم يكن يحمل أية وثيقة تثبت نسبه الشريف، وإنما ورث تقليدا بنقل نسبه أبا عن جد[5]. غير أننا نلاحظ سعيا حثيثا لبعض الأسر العلمية لإثبات انتسابها لآل النبي -ﷺ- وفي "فتح الإله" لأبي راس الناصري بأنه قد شهد له" بالشرف السني والمنتمى الحسني... الشيخان الشامخان" المصطفى بن المختار، وسيدي عبد القادر بن

---

[1]- ذكر ما أورده الجبرتي في تاريخه من أن جماعة من القبط كانوا مسجلين في دفتر الأشراف ليأخذوا المرتب، ومما يقدح في الشهرة ويطعن فيها - حسب ابن مهنا - ما اشتهر من أن العبيديين ملوك إفريقية ومصر شرفاء وسموا أنفسهم بالفواطم مع أن أصلهم من اليهود. ينظر: ابن مهنا القسنطيني. تعليقه على رحلة الورثيلاني ج1، هامش: 1، ص: 53.

[2] - ابن مهنا القسنطيني. تعليقه على رحلة الورثيلاني ج1، هامش: 1، ص: 53.

[3]- الفكون، منشور الهداية، ص: 91.

[4]-Devoulx, Les édifices religieux, in **R.A**, N :12, année : 1868. p- p :103- 107.

[5]- Laugier DE Tassy, Histoire de royaume d'Alger, p :93.

السنوسي، وأضاف قائلا:" فقد قالا ذلك باللسان وكتبا – رضي الله عنهما- شهادتهما بالبنان"[1].

وتمتلك أسرة المشارف عدة شهادات بنسبها الشريف كتبتها لها عدد من العلماء المشهورين ومنها: شهادة السيد عبد الرحمن بن زرفة، التي قيدها في شهر رمضان سنة 998هـ/ 1590م، ومما ورد فيها قوله :"وبعد: فقد سألني بعض الإخوان أن أضع له نسبه بسند صحيح إلى النبي العدنان من عقب الشيخ الصوفي... السيد يوسف بن عيسى الشريف الحسني مختط زاوية الكرط"، ثم أشهد على ما كتبه أربعة من الشهود قيدوا أسماءهم، ووصفهم بقوله:"وهؤلاء من أكابر الصالحين، كل واحد له مناقب سديدة، وفضائل عديدة" [2].

وللشيخ مصطفى الرماصي " رسالة لطيفة في ذكر نسب المشارف"[3]، شهد لهم فيها "بأنهم شرفاء ووضع خطه على نسبتهم الشريفة في بعض الوثائق التي هي بيد الأسلاف، وناهيك به علما وديانة"[4]. قيد مصطفى الرماصي شهادته في شهر جمادى سنة 1131هـ/ 1718م، ومما ورد فيها:" الحمد لله وجدت بخط فقهاء الراشدية المشهورين بالصلاح والعدالة والتبريز أن المشارف كسيدي محمد المشرف... من ذرية الولي الصالح... سيدي يوسف بن عيسى مختط زاوية الكرط... وسمعت ممن عاصرناه ذلك كشيخنا العالم العلامة... سيدي عمر التراري وغيره، ووجدت بخط جده سيدي امحمد بن المشرف عرفته كعينه أنه من ذرية سيدي يوسف المذكور، وهم صالحون مبرزون في العدالة لا يتهمون في شيء من الأشياء لا في النسب ولا في غيره... والشيخ المذكور سيدي يوسف بن عيسى البوخليلي شريف النسب "[5] .

---

[1]- أبو راس الناصر، فتح الاله، ص، ص: 29، 30.

[2]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، " تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص- ص: 6- 8.

[3]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس»، مخ، ص: 19.

[4]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 16.

[5]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، المصدر السابق، ص: 17.

وللشيخ محمد بن الحاج اليبدري المدعو ابن عبد الرحمن – صاحب حاشية الخرشي– في نسب المشارف رسالة مسماها :" تنوير قلوب أهل التقى والمعارف بذكر نسب سادات غريس الموسومين بالمشارف" [1].

أما الشيخ أبو راس الناصري فقد قيد شهادته للمشارف بالنسب الشريف في سنة 1237هـ/1821م، أي حوالي سنة قبل وفاته، ووصف فيها البيت المشرفي بأوصاف كثيرة منها:" خير بيت طلعت عليه الشمس... وشهد بفخره اليوم والأمس... والبيت الذي تعرفه أهل النحل والملل". ووصف جدهم السيد:" يوسف بن عيسى الشريف، فخر أشراف الراشدية ولباب لبابهم... جد الفضلاء النبلاء... المشهورين بالمشارف، ذوو القدر المنيف، والحسب الغني عن الرسم والحد والتعريف... فيا حبّذا بالشريف الغريسي، المنتخب من صهوة البيت الإدريسي "[2]، كما ذكر أبو راس في هذه الشهادة بعض علماء المشارف، غير أنه تراجع عن شهادته وطعن في نسب المشارف، كما سنبينه في الصفحات الموالية.

ومن أشكال الشهادات القصيدة التي نظمها الشيخ السنوسي بن عبد القادر بن دح، وهو من أسرة شريفة في نسب المشارف، ومنها هذه الأبيات[3]:

عليه مني صـــلاة غـــير مفـــردة عن التحية أحيانا فأحيانا

تـــعمـــه وتعم الآل قاطبة إلى المشارف شيبا وشبانا

قوم به اتصلت كالشمس نسبتهم وامتد فروعهم إليه عيانا

(ثانيا)– ظاهرة ادعاء النسب الشريف:

لقد شاع في المجتمع الجزائري في العصر الحديث الذي ساد فيه الانحطاط ظاهرة ادعاء الانتماء إلى النسب الشريف، وأكد ذلك صاحب " القول الأعم" بقوله:" كثرت دعوى الشرف في أهل هذا الوطن حتى ادعاها النسب الذي ما ذهب أبوه في الإسلام ولا جاء"[4].

---

[1]– محمد بن محمـــد بن مصـــطفى المشـــرفي، " تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص، ص: 15، 16.

[2]– ابن مصـــطفى المشـــرفي، المصدر نفسه، ص– ص:18– 20.

[3]– ابن مصطفى المشرفي، " تقييد في نسب المشارف" مخ، ص– ص:21– 22.

[4]– الطيب بن المختار الغريسي المختاري، القول الأعم، ص: 329.

ويعد المغرب الأقصى مصدر ظاهرة الأشراف، ومنها انتقل إلى الجزائر، وانتشر في كل أرجائها، ولهذا كان بعض شرفاء الجزائر يدعي أنه من شرفاء مكناس، أو فاس أو من شرفاء الساقية الحمراء. ويستوقف الدارس العدد هائل من الأشخاص الذين فعلوا ذلك من جميع المستويات، ومنهم رؤساء الطرق الصوفية ورجالها الذين دعموا مراكزهم بادعاء النسب الشريف، فأصبحوا أشرافا في أعين الجماهير، الشيء الذي لم يفعله صوفية القرون السابقة للقرن الرابع عشر[1]، واقترن وصف " الشريف " أو" الحسني" أو "سيدي"، أو " سي" بأسماء نسبة كبيرة من رجال الذين اشتهر أمرهم بين الناس خلال الفترة الحديثة، وفي مقدمتهم العلماء والمرابطون.

ولم يتوقف الأمر عند الادعاء الشفوي بل أنَّ من المدعين من استصدر وثائق من القضاة، وذلك ما أشار إليه ابن مهنا القسنطيني بقوله": ذكر لي من أثق به: أن بعض قضاة الجزائر في الدولة التركية كان يأخذ خمسين دينارا سلطانيا، ويكتب الشجرة لمن أرادها من واحد أو جماعة أو عائلة أو قبيلة، ليتخلصوا بذلك من الظلم، وذكر لي بعض مشيخة قسنطينة الطاعنين في السن أن مزوار الشرفاء وُجِدَ في دفتره من ليسوا بشرفاء"[2].

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار هذه الظاهرة، هي الامتيازات المادية والمعنوية المختلفة التي حصل عليها الأشراف، وهكذا أصبحت الشريفية مصدر تبجيل وثراء لصاحبها[3].

ومن أسبابها بالإضافة إلى الامتيازات اشتهار الأشراف وأهل الصلاح على حد سواء بالمرابطين مع أنه " أنه ليس كل مرابط شريف، بل قد يكون المرابط بربري النسب أو من مطلق العرب"[4]، حسب صاحب " القول الأعم في بيان أنساب الحشم ".

اختلط عند الاستعمال لفظ المرابط وبلفظ الشريف، أما أسباب هذا الاختلاط حسب

---

[1]- صالح عباد، الجزائر تحت الحكم التركي، ص:24.

[2]- ابن مهنا القسنطيني، في تعليقه على رحلة الورثيلاني ج1، هامش: 1، ص: 53.

[3]- صالح عباد، المرجع السابق، ص:24.

[4]- الطيب بن المختار الغريسي، كتاب القول الأعم في بيان أنساب الحشم، ص: 329.

محمد الأعرج الغريسي هو أن أعيان الأشراف كانوا يعتنون بالدين ويؤسسون زوايا لطلب العلم، وينفقون عليها من مالهم الخاص، ويوظفون بها أجلة المدرسين، وقد اقتفى أثرهم في ذلك من عرب وبربر زناتة، وصار يطلق على الجميع اسم المرابطين، " وحيث أطلق على الكل اسم المرابط كثر ادعاء النسب الفاطمي كل مرابط"[1].

ويعرف أبا حامد المشرفي المرابطين بقوله:" المرابطون هم الذين تقدم في أسلافهم صلاح وتوارث أبناؤهم ذلك الصلاح" [2]، مضيفا :" أن سبب اشتهار الأشراف بالمرابطين ملازمتهم سابقا للرباط على العدو زمن الجهاد، فنسخت لفظة المرابط لفظة الشريف بهذا الاعتبار "، ومما استدل به أبي حامد المشرفي على صحة انتساب المشارف للأشراف هو أنهم عرفوا بالمرابطين بقوله:" وهم من يومئذ مشتهرون عند أهل الوطن الراشدي بالمرابطين ". وخلص إلى أنه " لا يقال للزناتي مرابطا بل هو العامي في اصطلاح قومنا ومعاشر أرضنا، فبان لك من هاذين الوجهين أن المرابط هو الشريف" [3].

وراح أبا حامد يبرهن على أن لفظة المرابط يقصد به الشريف ف" الزناتي أي البربري أو العامي من سائر الناس إذا قرأ العلم بين زناتة أو العامة واشتهر بالصلاح من دون قومه، لا تنسحب عليه نسبة المرابط، ولا على ذريته وحفدته وحفدة حفدته ورثوا علمه وصلاحه أم لا، بل لا يزالون ينتسبون إلى الأمة الأمية التي ينتسبون إليها أسلافهم زناتة، ولا يخرجون عما انعقد عليه إجماع هذه الأمة، وإذا قرأ منهم أحد قراءنا وعلما يقولون له طالب زناتة، وزناتة في عرف أهل الواسطة هم العامة مطلقا سواء كانوا من الأمة البربرية أم لا"[4].

(ثالثا)– اهتمام العلماء المنتسبين للأشراف بالنسب الشريف:

يلفت انتباه المتصفح لمؤلفات العلماء المنتسبين للبيوتات العلمية الشريفة اهتمامهم بقضية

---

[1]– محمد الأعرج الغريسي، شرح منظومة بغية الطالب لعيسى التيجيني، ص: 371.

[2]– أبو حامد المشرفي، " رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 28.

[3]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص:34.

[4]– أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص:27.

النسب الشريف، فالورثيلاني وبعض علماء المشارف خير مثال على ذلك، وكلهم حث على ضرورة حب الأشراف، وحذر من بغضهم، فأمَّا الورثيلاني فقد تطرق في عدة مناسبات في رحلته لهذه المسألة، وأود ما جاء في "المواهب اللدنية" من أن المعاصي التي لا بد أن يعذب الله عليها بغض الأشراف[1].

ونفس الرأي ذهب إليه أبو حامد المشرفي، وابن عمه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي في ردهما على من طعن في نسبهم، يقول أبا حامد أن:" لحوم أولاد الأنبياء والعلماء مسمومة [2]"، ويقصد بأولاد الأنبياء آل البيت وهم الأشراف، كما تطرق إلى حكم من سب آل النبي -ﷺ- مستدلا على ذلك بعدد من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة [3].

وتطرق ابن مصطفى المشـــرفي في عدة مواضع من رسالته التي رد بها على الطاعن في نسب المشارف إلى خطورة الطعن في الأنساب مستدلا على ذلك بما قاله الشيخ الإمام السبكي:" المؤرخون على شفا جرف هار فانهار لتسلطهم على الأعراض بالأغراض، فربما وضعوا بين الناس تعصبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به أو غيرها فعلى المؤرخ بتقوى الله"[4].

وقد ألف علماء المشارف في النسب منهم الشيخ أبا حامد المشرفي الذي ألف كتابه «ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة»، وذكر في مقدمته أنّ حبه لآل البيت هو الذي دعاه لتأليف كتابه [5]. ومما لا شك فيه أن انتماء المؤلف للأشراف كان دافعا قويا له للتأليف في موضوع النسب الشريف، لأننا نجده حريصا على إيراد نسب أسرة المشارف أكثر من حرصه على أية أسرة أخرى في الراشدية.

---

[1] – الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، تعليق: ابن مهنا القسنطيني. ج1، ص، ص: 168، 169.

[2] – أبو حامد المشرفي، " رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 16.

[3] – أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص – ص:34– 36.

[4] – محمد بن محمـــد بن مصـــطفى المشـــرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 4.

[5] – أبو حـــامد العربي المشرفي، « ياقوتة النسب الوهاجة » مخ، ص: 3.

ثم إنَّ المتصفح لرحلة الورثيـــــــلاني يلاحظ جليا اعتزازه بنـــــــسبه الشريـــــــــف فهو يذكره

في مناسبات عدة، حتى وإن لم يكن المقام يستدعي ذلك، وكثيرا ما يفسر حب بعض الناس من الخاصة أو العامة له أو لأسرته بنسبه الشريف، من ذلك ما ذكره بشأن الشيخ الوفق من أولاد الشيخ أم رزق:" وكان محبا لوالدنا وجدنا، نعم يحب الجانب العلي أعني الأشراف بحيث لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا معهم، بل أنه مملوك لهم"[1].

كما يفسر الورثيلاني المعاملة الحسنة التي لقيها من بعض الشخصيات بنسبه الشريف من ذلك معاملة الشيخ سالم النفزاوي المصري حين كان يحضر مجالسه:" لا يسأله أحد في المجلس لأن جميع ما يخطر ببالك إلا ألقاه في الدرس... وأما أنا فأسأله دائما، وهو يجيبني من غير غضب، ولا عنف لكوني غريبا من آل المصطفى-ﷺ-"[2].

(رابعا)- الطعن في الأنساب:

حدث أن تعرضت بيوتات علمية ودينية مرموقة للطعن في أنسابها، ولدينا حادثتان أحدثتا ضجة كبيرة الأولى ببايليك الشرق، والثانية ببايليك الغرب، وفي الحالتين كان الطاعن من كبار العلماء، الذين تولوا الإفتاء والقضاء: عبد القادر الراشدي، وأبو راس الناصري.

(1)- طعن عبد القادر الراشدي في أنساب بعض البيوتات العلمية بقسنطينة:

يعد عبد القادر الراشدي من كبار علماء قسنطينة في القرن الثاني عشر الهجري(18م) من مؤلفاته كتاب " عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس"، وهو يقع في خمس وخمسين صفحة، ولعل هذا الكتاب هو الذي أشار إليه الحفناوي ووصفه بأنه كتاب صغير الحجم، تعرض فيه الراشدي[3] " لكثير من عائلات قسنطينة وقبائلها وبيان الشريف منهم والعربي والبربري"[4].

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 51.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 351.

[3]- عبد الله الحمادي، في تقديمه لكتاب " تحفة الإخوان في تحريم الدخان" لعبد القادر الراشدي، ص: 35.

[4]- الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص: 220.

وقد ذكر الراشدي في الكتاب المذكور أنساب بعض العائلات القسنطينة الشهيرة من ذلك قوله:" وأولاد نعمون من توابع الحفاصة من هنتانة، وأولاد المسبح من بني مرداس بن عوف السلمي، وأولاد خيتمي من خيتمة قرية بأوراس، وأولاد الفكون من فكونة قرية بأوراس أيضا، و لم يتحر لي نسبهم كمن قبلهم "[1].

ويعتبر عبد الله حمادي أن إقدام الراشدي على التشكيك في نسب تلك البيوتات هو من قبيل " التجرؤ على نبش القبور، والمساس بأقدس مقدسات عرفية... خاصة إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار مدى خطورة إثارة موضوع كأنساب عائلات اجتهدت في إيصال نفسها إلى أرومات عربية عريقة النسب والجاه، ويكتشف في آخر المطاف أنها من بطون بربرية!!".

ويعتبر عبد الله حمادي أن ذلك هو السبب الرئيسي في المحنة التي تعرض لها الراشدي بقوله:" لا تخامرنا أي دهشة... فيما يمكن أن ينتظر هذا العالم الجريء من امتحان كالطعن في شرفه، وبما نسب إليه، وهو قاضي مدينة قسنطينة ككثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسب سمعته"[2].

فتهمة التجسيم وغيرها من التهم تعتبر كلها من تحصيل ما حصل، الأمر الذي جعل بعض أعيان المدينة، يحرض عليه طلابها، وفي رحلة معاصره الورثيلاني :" وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة، ومنازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم، بل بعضهم كفره". واشتدت إذايتهم له حتى أنهم تسببوا في عزله من منصب القضاء، وقد عبر الورثيلاني عن ذلك بقوله:" بالغوا في تضليله إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان (الباي) فسلم والحمد لله، ونجا من شرهم غير أنهم أخرجوه من الموضع المعد له من القضاء، وصيروه لأنفسهم بالتعلق ممن كان متمكنا من السلطان "[3].

---

[1]- عبد الله الحمادي، في تقديمه لكتاب " تحفة الإخوان في تحريم الدخان" لعبد القادر الراشدي، ص: 35.

[2]- عبد الله الحمادي، في تحقيقه للمصدر نفسه، ص: 38.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج 2، ص، ص: 804، 805.

ويبدو أن الراشدي اعتزل مدينة قسنطينة وأصبح يقيم بضواحيها، وبالتحديد بمكان يدعى عين ابن الحاج بابا، وهو مكان الذي مر به الورثيلاني، عند مغادرته المدينة حسبما يفهم من كلامه [1].

أما سبب حنق منافسي الراشدي عليه فهو حسب الورثيلاني:" تحامل عليه سببه الحسد والبغض والتنافس، وإنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم، بل وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسبه، بل سمعت من بعضهم أنه قال صرح بالتجسيم غير مرة ". والورثيلاني يحاول إبطال التهم الموجهة إلى الراشدي، وفي مقدمتها اتهامه بالتجسيم، مؤكدا على أنه أطلعه على رسالته الموضوعة لهذا الكلام، فيقول الورثيلاني:" رأيتها منقحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم"[2]. وآراء الورثيلاني وهو من كبار العلماء أنَّ تجرأ الراشدي على الطعن في أنساب تلك البيوتات العريقة هو السبب الحقيقة لمحنته.

(2)– طعن أبو راس الناصري في نسب بعض البيوتات العلمية بإقليم الراشدية:

يوجز أبو حامد المشرفي القضية بقوله:" أما علمتم أنَّ الشيخ أبا راس – رحمه الله وسامحه– كان إماما عاقلا تفاعا مطاعا... ثم إن النفس لأمارة بالسوء حملته على أن تكلم في المشارف، وفي أولاد سيدي دح بن زرفة، وفي كل من له شرف ديني أو طيني من أهل غريس، ونفا نسبتهم للجناب النبوي"[3]. ويعد بيت السيد أحمد بن علي بوشنتوف، من البيوتات التي مسها طعن أبو راس[4].

لقد نفى أبو راس نسبة تلك البيوتات للجناب النبوي من خلال مؤلفه الموسوم ب:"مروج الذهب في نبذة النسب، ومن انتمي إلى الشرف وذهب"[5]، وكل الأسر التي

---

[1]– الورثيلاني، الرحلة. ج2، ص: 804.

[2]– الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 805؛ عبد الله الحمادي، في تحقيقه لكتاب " تحفة الإخوان" للراشدي. ص: 40.

[3]– أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس » مخ، ص: 12.

[4]– ابن مصـــطفى المشـــرفي، « تقييد في النسب المشرفي » مخ، ص: 5.

[5]– أبو راس الناصري، فتح الاله، ص: 181؛ بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، ج2، ص: 241.

طعن في نسبها هي أسر علمية كانت تحظى بمكانة مرموقة بغريس، وإن كنا لا نعرف موقف بقية البيوتات مما صدر عن أبي راس، فإننا عرفنا أن بعض علماء المشارف كانوا له بالمرصاد، وقد حصلنا على رسالتين كلاهما في الرد عليه.

وهكذا فإن امتلاك المشارف وثائق وشهادات تثبت نسبهم الشريف لم يمنع الشيخ أبو راس الناصري من الخوض في نسبهم، مع أنه هو نفسه كان قد قيد شهادته لهم بالنسب الشريف في سنة 1237هـ/1821م [1]. وقد أكد ابن مصطفى المشرفي على " أنه لم يسبق أن طعن في نسبهم إلا الشيخ أبي راس".

لقد رد كل من أبي حامد وابن مصطفى المشرفيين على أبي راس واختتما رسالتيهما في شهر ذي القعدة من عام 1292ه/1875م[2]، أي بعد أكثر من نصف قرن من وفاة أبي راس التي كانت سنة 1238هـ/1822م. والرسالتان غير معنونتان[3].

إنّ كتابتهم في نفس التاريخ يدل على أن نسب المشارف طرح مرة أخرى وبقوة، وقد استند المنكر في إنكاره بما أورده أبو راس، وذلك ما صرح به ابن مصطفى المشرفي، كما أشار إلى سبب التأليف:" فقد بلغنا عمن يجب عنه الإعراض من الجهال أنه سب ابن عمنا الشريف سيدي محمد بن مصطفى المشرفي بوهران"، وأنكر عليه النسب الشريف :" نعم بلغنا أيضا أن الناس اختلفوا بسببه، منهم من أنصفوا وما نُصفوا، ومنهم من أبو ذلك فخلفوا "[4].

---

[1]- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، تقييد في النسب المشرفي، ص:18- 20.

[2]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 23؛ أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس"، مخطوط، ص: 38.

[3]- أطلق بعضهم على رسالة أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس"، وأما رسالة ابن مصطفى المشرفي فهي مسجلة في فهرس مخطوطات المكتبة الحسنية بالرباط تحت عنوان " تقييد في النسب المشرفي".

[4]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر السابق، ص، ص: 2، 3.

أمَّا أبا حامد المشرفي فلم يذكر سبب تأليف لتلك الرسالة، إلا أنه قال في خاتمتها:" هذه مبيضة عجالة ألفها كاتبها مسئولة منه لسائلها سطرتها أيدي الأقلام معتذرا فيما سطرت لخاصة الأعلام"[1].

فقضية نسب المشارف أثيرت في الجزائر وبالتحديد بوهران لا في المغرب، حيث كانا يقيمان، فالدافع نفسه هو الذي جعل الرجلان يكتبان في نسب المشارف:" وقد بيّنَا نسبتنا ليحذر المؤمنون وأهل المحبة في الجناب النبوي من الوقوع في أعراض أبناء عمنا هناك (أي في الجزائر)، وأما هنا فنسبتنا شهيرة عند الملوك ورعاياهم" [2].

أما سبب الذي دفع أبو راس للطعن في نسب تلك الأسر فهو:" الحسد لا غير " حسب أبو حامد الذي ذهب إلى أن الشيخ أبو راس قد نظر " في المشارف وأولاد سيدي دح وقت نفيه النسبة عنهم بعين السخط، ونظر فيهم بعين الرضى يوم كتب عن شجرتهم الزكية، وقال أنهم من دوحة الشرف"[3].

في حين ذهب ابن مصطفى المشرفي إلى أبعد ما يمكن تصوره قائلا بأنّ طعن الشيخ أبي راس في نسب أهل غريس هو من التعصب، أما " سبب تعصبه كما قيل أنه لّما قام الولي سيدي محمد بن الشريف على دولة الأتراك بالواسطة لأمور أحدثوها لا يرضاها الله ورسوله مال إليه بعض الشرفاء وأرادوا نصره"[4]. ولما علم الباي حسن بتأييد الأشراف للثائر الدرقاوي:" عمّت إذايته آل الله وآل نبيه، وكان ظنه ورأيه أن لا يدع شريفا يذكر ببلده لما تقدم، فبذل للفقيه المذكور عشر مائة ريـــال على أن يُخرج من النسب من له قوة ورأي وعلم فيذل بذلك وتخمد ناره، فامتثل لأمره... "[5]. وهذا بعيد عن الواقع كما بيناه في الفصل السابق.

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 37.

[2]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 14.

[3]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 13.

[4]- ابن مصـــطفى المشـــرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 4.

[5]- ابن مصـــطفى المشـــرفي، المصدر نفسه، ص: 5.

يبدو أن تأليف أبي راس المذكور لم يلق انتشارا واسعا، أو أخفي عمدا، ولهذا يذهب ابن مصطفى المشرفي إلى أن الله قد خيب سعيه و"مزق تأليفه"[1]. وابن مصطفى نفسه لم يطلع عليه، وذلك ما يؤكده بقوله:" وما نسب إليه من أنه أطعن فيهم مع أهل غريس إن ثبت ذلك"[2].

وقد اعتبر أبو الحامد المشرفي أن طعن أبوراس في نسب المشارف كانت له نتائج وخيمة عليه بقوله:" ومن أجل طعنه في نسبتهم صرصرت الريح العقيم على ذريته فأحييت، فصار كأنه لم يعقب عقبا من ذكر يذكر أو أنثى تحمد عاقبتها وتشكر"[3]، ونفس الأمر ذهب إليه ابن مصطفى المشرفي بقوله:" ولم يطعن في نسبهم أحد إلا من أضلّه الله والعياذ بالله كالشيخ المذكور... فقد اندرست وانكتمت علومه... وأعلا سوق علمه وفوائده وتآليفه الكساد، وتبين أنّه كان مضيعا للقرطاس والمداد" [4]. وفي الرأي الأخير مبالغة لاشتهار تآليف أبي راس.

بل يذهب أبو حامد إلى أبعد ما يمكن تصوره حتى أنه اعتبر سبب تعرض الجزائر للاحتلال هو عدم احترام أهلها للشرفاء بقوله:" وما خرب الله ذلك الوطن الذي لا وطن يضاهيه ويدانيه... إلا عدم توقيرهم لأولاد الصالحين وأولاد العلماء وأهل النسبة المحمدية"[5].

وقد أورد ابن مصطفى المشرفي في تأليفه بعض الشهادات التي قيدها عدد من العلماء في نسب المشارف، وأكثر من اقتباس النصوص الخاصة بنسب المشارف من مصادر معروفة: كالتبيان في نسب آل عدنان" لابن جُزي الكلبي، "عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس" لعبد الرحمن بن عبد الله، وشرحه لمحمد الجوزي الراشدي المزيلي وغيرهم.

---

[1]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص: 5.

[2]- ابن مصطفى المشرفي، المصدر نفسه، ص:21.

[3]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص: 12.

[4]- ابن مصطفى المشرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص:3.

[5]- أبو حامد المشرفي، المصدر السابق، ص: 14.

(خامسا)– دور الأشراف:

كان الأشراف من الفئات البارزة في المجتمع، وإن لم يكن لهم وزن سياسي ملفت للانتباه، فهم لم يشكلوا قوة ضاغطة، وهذا هو حالهم في مختلف المدن العربية[1]، وذلك ملاحظ حتى في المدن الكبرى كمدينة الجزائر، ومدينة قسنطينة التي لم يكن لبيوتاتها العلمية والدينية دور في السياسة بشكل مباشر، وتؤكد فاطمة قشي أنها لم تعثر على " نقيب الأشراف"[2] في الساحة السياسية ولا في مجالات أخرى مثل عقود الأوقاف أو الملكية[3].

وقد كان دورهم ملفت للانتباه في الحياة الاجتماعية والدينية وحتى الثقافية من خلال زاوية الأشراف[4] التي أسسها الداي محمد بكداش سنة 1121ه/1709م، وورد في وثيقة التأسيس أن سبب تأسيس هذه الزاوية هي المكانة التي يحتلها آل الرسول –ﷺ– خاصة أنّ الله امتدحهم في القرآن " إنَّما يرُيدُ الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"[5]، وقد قام الداي محمد بكداش بتعين الوكيل على الزاوية، وهو السيد أبو عبد الله سيدي محمد بن سيدي الحاج محمد بن علي بن سعيد البونصي الشريف الحسني، واشترط أن تبقى الوكالة في ذريّته[6].

وقد وضع بكداش للزاوية تسعة التعليمات تتضمن كيفية استعمال وارداتها، ومن له الحق فيها، منها أنه يتم تعيين المستخدمون للزاوية من فئة الشرفاء: وهم الإمام، والمعلم، والمؤذن، والشاوش، وإذا لم يوجد معلم من الشرفاء، يعين أحد العلماء الأتقياء، عطاء ما يتبقى من نفقات الزاوية لفقراء الأشراف المولودين بالجزائر ولا يأخذ الوكلاء شيئا من الأموال إلا إذا كان في حاجة ماسة إليه[7].

---

[1]– غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، ص: 88.

[2]– ينظر نقابة الأشراف في الفصل الخاص بالدور الثقافي للبيوتات.

[3]– فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 153.

[4]– كما عرفت بزاوية الشرفة، وهي تقع في المكان المسمى سوق الجمعة، وفي العهد الفرنسي عرف بشارع الجنينة.

[5]– سورة الأحزاب، الآية (33).

[6]– Devoulx, Les édifices religieux …in **R**. **A**, Année : 1868. P, p : 104, 105.

[7]– مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها، ص: 68.

– إن حرص البيوتات على إظهار نسبها الشريف يرجع إلى ما تكسبه من ذلك، بحيث كان الانتساب إلى الأشراف يرفع من مكانة صاحبه في مجتمعه، ويمكنه من تحيق مكاسب معنوية ومادية، ويجدر التنبيه إلى أن هناك عدد من البيوتات العلمية التي استطاعت أن ترتفع بدون انتسابها للأشراف، وتصبح في مصف العائلات الكبرى وتحظى بمكانة متميزة لمدة طويلة من الزمن، وقد عاشت أغلب هذه البيوتات في المدن قرب من السلطة، فتحالفها مع السلطة وحصولها على امتيازات مخلفة ومنها المناصب عوضها عن النسب العريق، ومنها البيوتات التركية والكرغلية كبيت ابن العنابي وبيت ابن علي... وغيرهما.

– المبـــــحث الـــالث: مصاهرات البيوتات والأسر العلمية:

عند افتقاد الدارس للمادة المصدرية الأولى كسجلات المحاكم الشرعية أو عقود الحالة المدنية بمفهوم هذا العصر وهي عقود الزواج والطلاق، والحضانة والنفقة... إلخ تصعب مهمة دراسة شبكة المصاهرات، ومع ذلك سنحاول الخوض فيه لما له من أهمية بالنسبة لموضعنا، من خلال تجميع شتات الأخبار المتناثرة في بطون المصادر المتوفرة على قلتها، وسنحاول رسم صورة ولو جزئية عن شبكة المصاهرات لهذه الشريحة الاجتماعية، في وقت اعتمد فيه الزواج على الأسرة، و لم يكن هناك أي زواج خارج إطارها إلا في حالات نادرة.

كانت البيوتات بمختلف أصنافها حريصة على أن تكون وشائجها وعلاقاتها منصبة في المحافظة على تفوقها وعلى عراقتها بالمصاهرة في البيوتات العريقة مثلها، ففي وصية غيلان بن سلمة (القرن الأول الهجري) لابنه يوصيه بمصاهرة أهل البيوتات قائلا له:" يا بني قد أحْسَنتُ خدمة أموالكم وأمجدتُ أمهاتكم، فلن تزالوا بخير ما غدوتم من كريم وغدا منكم، فعليكم ببيوتات العرب فإنها معارج الكرم"[1].

ومن أجل أن تبقى دائرة الوجاهة والسؤدد في نطاق ضيق تحتكره بيوتات محدودة، حتى لا تنافسها العامة ومن في حكمهم، ومن أجل ألا تفقد الوجاهة والسلطة معناها

[1]– رفيق خليفي، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط، ص، ص: 18، 19.

حين تصبح مشاعا للجميع، عملت أغلب البيوتات على تجنب مصاهرة الأسر أقل شأنا منها، ولذا طرحت مسألة تكافؤ النسب في الفقه الإسلامي.

فما هي الصلات التي كانت تسعى إليها البيوتات العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، فهل تصاهرت فيما بينها؟ أم أنها اختارت دوائر أخرى؟

للمصاهرة أهمية كبيرة في توثيق العلاقة بين مختلف فئات المجتمع، وقد أدرك حكام الجزائر أهميتها، فكانت المصاهرة إحدى سياساتهم في التقرب من الفئات التي لها وزنها، وتأثير في المجتمع ومنها البيوتات العريقة العلمية والدينية.

(أولا)– مصاهرات البيوتات العلمية بدار السلطان:

إنَّ دراسة شبكة المصاهرات تسمح بقياس ومعرفة مكانة العلاقات العائلية بالنسبة إلى مجمل شبكة العلاقات الاجتماعية[1]، فيما يخص مصاهرات بيوتات مدينة الجزائر. نجد أن أسرة ابن مبارك – وهي إحدى الأسر التي تولت الإفتاء المالكي– تصاهرت مع أسرة المانجلاتي، وكانت هي الأخرى متولية للقضاء والإفتاء المالكي، بحيث كان السيد أحمد بن العلامة محمد بن مبارك مفتي المالكية زوجا للسيدة نفوسة بنت العالم سيدي محمد المانجلاتي[2].

كما صاهرت أسرة ابن مبارك أسرة الزهار، كما في هذا العقد:" ... الشاب الأجل الخير الأكمل أبي الحسن السيد علي بن الشيخ... الحاج محمد نجل الولي الصالح القطب الناصح سيدي علي بن مبارك ... مخطوبته وكريمته السيدة فاطمة بنت السيد الحاج محمد الشريف الزهار..." [3].

---

[1]– لم تكن البيوتات العلمية معزولة عن محيطها الاجتماعي، إذ كانوا يرتبطون بكل عناصره ومكوناته، ولهذا يصعب تكوين صورة واضحة عن شبكة المصاهرات دون دراسة مصاهرات مختلف الفئات حتى يتبين الاتجاه العام للفئة موضوع الدراسة، وبما أن هذا غير ممكن في بحثنا هذا نحيل إلى دراسة للمصاهرات بمدينة الجزائر بشكل عام لعائشة غطاس في كتابها " الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر"، ص:347-379.

[2]– غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 353.

[3]– غطاس، المرجع نفسه، ص: 353.

وتصاهرت أسرة قدورة مع أسرة المرتضى وهي أسرة دينية وعلمية شريفة تولت نقابة الأشراف، بحيث كانت ابنة سعيد قدورة زوجة لنقيب الأشراف، وهي والدة الشيخ عبد الرحمن المرتضى، وقد "شغل المرتضى خطة نقيب الأشراف التي تولاها والده قبله"[1].

وفي " تقييدات ابن المفتي" أن المرتضى تولى منصب الفتوى بعد:" ابن خالته الحاج سعيد زوج عزيزة بنت سيدي محمد بن سيدي سعيد، وكانت زوجة لمفتي الحنفية حسين أفندي"[2]. أي أن الحاج سعيد هو حفيد سعيد قدورة ابن ابنته، وزوجته هي عزيزة ابنة خاله محمد قدورة مفتي المالكية، أي زواج ضمن الأسرة، وفيه أيضا أن عزيزة بنت محمد قدروة كانت زوجة لمفتي الحنفية حسين أفندي، أي مصاهرة مع أسرة من العثمانيين.

كما صاهرت أسرة المرتضى أسرة المقري، إذ تزوج عبد الرحمن المرتضى في سنة 1087هـ/ 1676م برقية بنت الشيخ أبو عبد الله محمد المقري، ومما ورد في عقد الزواج:" فانتدب لهذا الداعي (الزواج)... الفقيه النبيه، الفاضل النزيه، أبو زيد السيد عبد الرحمن ابن المرحوم المنغمس في رحمة القيوم أبي العباس السيد أحمد الشريف المرتضى، فخطب في بيت مروءة لا تنكر، وحضرة حسب ونسب، وهي من نار على علم أظهر... الكريمة المصونة، الدرة المكنونة، رقية بنت الشيخ الإمام العلامة الهمام سليل العلماء الأعلام أبي عبد الله السيد محمد المقري البكر في حجر والدها "[3].

وقد حضر عقد الزواج خاله الشيخ محمد قدورة مفتي المالكية في التاريخ، وقد أشير إليه بهذه العبارة :" وذلك كله بحضرة خال الزوج المذكور، وحاجره قبل"[4]، وبما أن خاله محمد قدورة كان وصيا عليه فلا يستبعد أنَّ قيام هذه المصاهرة كانت بمبادرة من بيت قدورة.

---

[1]- ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 106.

[2]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 107.

[3]- ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 239.

[4]- ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص: 240.

إنّ قيمة الصداق الواردة في هذا العقد مرتفعة جدا، وهي تبين مدى الثروة التي كانت تتمتع بها أسرة المرتضى، لأن صداق كهذا لا يمكن أن يقدمه إلا صاحب ثروة. ويبين في الوقت ذاته مدى ثروة وجاه أسرة المقري لأن الصداق المرتفع كان من نصيب بنات العائلات الأرستقراطية دون سواهم.

كما صاهرت أسرة المرتضى أسرة الشريف الزهار، فقد ورد في عقد بيع مؤرخ بأواخر رجب 1153هـ/1740م ما يلي:" بعد أن تقرر الاشتراك بين... المعظم الأجل... العالم الأشمل السيد أحمد الشريف ابن السيد محمد الشريف الزهار – نفعنا الله ببركاته آمين– وشقيقاته... فاطمة ونفوسة، وهم... والشاب محمد المدعو جلابي بن علال، وشقيقتيه فاطمة، وقمورة، ووالدهم الولية الحرة الزكية رقية بنت السيد عبد الرحمن الشريف المرتضى..."[1].

واتسعت دائرة مصاهرة الأسر العلمية والدينية لتشمل العائلات المدينية التي كانت بدروها تسعى للارتكاز على العائلات الدينية عن طريق المصاهرات، من ذلك زواج أحمد بن شيخ البلد[2] بسيدة تنحدر من أسرة "سيدي" محمد الشريف الزهار[3]. ومن ذلك أيضا مصاهرة أمين الجيارين[4] لأسرة المرتضى إذ تزوج إبراهيم بن مصطفى أمين الجيارين بخدوجة بنت سي عبد الرحمن نقيب الأشراف، وصاهر أحد الخياطين عائلة ابن التفاحي التي تولت الإفتاء المالكي[5].

---

[1]– باعوا " البحيرة الكاينة ببير الزرجونة خارج باب عزون أحد أبواب محروسة الجزائر حسبما ذلك مبين ومفسر في رسوم بأيديهم ورثوها عن أسلافهم"، في أواخر رجب 1153هـ. ينظر: س. م. ش. ع: 55، و: 20.

[2]– شيخ البلد: يتمتع بصلاحيات واسع في المدينة ويعرفه البعض بأنه المشرف الأعلى للمدينة، والمسؤول عن كل ما يحدث فيها، وتشمل اختصاصاته الجانب الاقتصادي، والاجتماعي، والأخلاقي. ينظر: غطاس، النظم الإدارية المركزية، ضمن كتاب: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. ص– ص:123– 125.

[3]– غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 352.

[4]– كانت السلطة تعين أمينا على رأس كل جماعة حرفية، فيقوم بدور الرقيب على الصنعة وجودتها، وتمتد عملية المراقبة منذ استخدام المواد الأولية إلى إنجاز البضاعة، كما تهدف مهمته إلى حماية المستهلك. ينظر: غطاس، المرجع السابق، ص: 150.

[5]– غطاس، المرجع نفسه، ص: 354.

ويلاحظ بوجه عام إقبال الأرستقراطية الدينية على مصاهرة العائلات الحرفية التي مارست الحرف والصنائع التي كانت محل اعتبار من جهة كصنعة الجير- التي مارستها الأسر الدينية نفسها- والصنائع المعتبرة والمربحة كالحرارة والخياطة من جهة أخرى[1].

هناك مثال عن أسرة الزهار التي ارتبطت بصلات المصاهرة مع عدد من الحرفيين، كما ارتبطت وبالأرستقراطية الدينية -حسب تعبير غطاس- وواضح أن دوائر المصاهرات خرجت عن إطار النسب الشريف، وتوجهت إلى إقامة علاقات مع أصحاب الجاه والثروة، ولا سيما الحرارين. ويترجم مثال المصاهرة ضمن عائلة شريف الزهار حقيقة استراتيجية المصاهرات التي كانت تبحث عنها الأسر الشريفة، والتي لم تخرج عن دائرتي الحسب والنسب، إذ أن الثروة

ارتكزت على الشرف، وكل منهما ارتكز على الآخر.

وأقامت الأسر التركية الدينية هي الأخرى مصاهرات في الاتجاه نفسه، فإمام جامع صفر السيد بكير الشريف الحسني كان صهرا للحاج مصطفى مفتي الحنفية، وكان مصطفى أفندي إمام جامع صفر، صهرا للحاج محمد بن عمر به شهر، أحد أبناء أسرة ابن عمر الأندلسية من الأسر التي تولت النظارة على أوقاف الحرمين الشريفين[2].

وانفتح العلماء على شرائح أخرى من المجتمع كالجيش وأصحاب الحرف، إذ صاهرت أسرة ابن العنابي التي توارثت الإفتاء الحنفي، إحدى العائلات التركية فقد كانت زوجة حسين بن محمد العنابي تنتمي إلى عائلة تركية ذات منزلة مثلما تُوحي بذلك الصفات التي نعتت بها، حيث جاء في وثيقة ما نصه:"... آمنة بنت بيرم الولية الحرة الزكية الحسيبة الأصيلة الكريمة الجليلة بعلها الشيخ الفقيه العالم العلامة النبيه مفتي الإسلام السيد حسين "[3].

---

[1]- غطاس، المرجع نفسه، ص، ص: 354، 355.

[2]- س. م. ش، ع 88، و: 28 نقلا: عن غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 353.

[3]- س. م. ش. ع: 89/ 88 نقلا غطاس، المرجع نفسه، ص: 354.

ويذهب المنور مروش إلى أن الحضر بمدينة الجزائر والمشكلين من السكان القدامى للمدينة، ومن انضاف إليهم من الأندلسيين، والأعلاج، والأتراك، كانوا جميعا يتزاوجون فيما بينهم فيما عدا الأسر العلمية الكبرى والشرفاء الذين كانوا يشكلون فئة مغلقة، لكن أبوابها تنفتح للحكام وقادة الجيش والضباط الأتراك. فبعض الرسوم مثلا تخص ضباطا من أصل تركي لكنهم عن طريق أمهاتهم ينتسبون إلى عبد الرحمن الثعالبي، ومحمد الشريف الزهار، وسيدي علي بن مبارك، والشيخ محمد بن علي بن الطرابلسي الخروبي... إلخ[1].

ويذهب في موضع آخر إلى القول:" كانت في الجزائر فئة توثقت الصلات بين أعضائها من الأندلسيين والبلدية، وهي فئة عائلات العلماء والأشراف ذوي المكانة العالية في المجتمع. وكانت المصاهرات بينهم جعلت منهم طائفة مغلقة تمارس زواج الأقارب، وتكاد تحتكر المناصب الدينية والحضرية العليا على مدى القرون. لكن زواج الأقارب بين هؤلاء العلماء والأشراف كان له استثناء قد يكون عن طريق الإكراه، هو تزويج بعض بناتهم للحكام وكبار رجال السلطة[2]. وهكذا كانت العائلات الكبرى، عائلات الفهري، وابن الصخري، وبن واضح، وقرواش، وغيرها من أحفاد الثعالبي، والزهار الشريف إلخ تضم بين أقاربها أبناء العلوج والأتراك، وإن احتفظت رغم ذلك بطابعها العلمي، وباحتكار المناصب الدينية وتملك عقارات غنية حبست عليها وتزايدت من جيل إلى جيل"[3].

وتشير الوثائق إلى عدة حالات للمصاهرة بين الأسر العلمية والدينية المتنفذة بمدينة الجزائر والفئة الحاكمة سيما البشوات والدايات[4]. كما أقامت بعض البيوتات العلمية والدينية علاقات مصاهرة مع بعض رياس البحر، فأحمد رئيس قايد المرسى بن محمد التريكي كان زوجا لإحدى بنات أسرة ابن الأمين التي تولت الإفتاء، وصاهرت أسرة سفينجة، وهي أسرة تولت القضاء الحنفي، أسرة الرئيس حميدو، حيث كانت أخت هذا الأخير زوجا

---

[1]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص: 290.

[2]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج1، ص: 287.

[3]- المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص: 288.

[4]- ذكرنا أمثلة عن ذلك في الفصل السابق، ص: 447.

لأحد أفراد أسرة سفينجة[1]. وقد شكلت طائفة الرياس إحدى الشرائح ذات المنزلة الاجتماعية المتميزة، إذ تمتعت بالثراء المذهل وبالجاه العريض سيما في العهد الأول، والمصاهرات التي أقامها رياس البحر تبرز ذلك بجلاء، إذ صاهروا الفئة الحاكمة، إلى جانب مصاهرتهم للأسر النافذة المختلفة.

ومما سبق نجد أن مصاهرات الطبقة الأرستقراطية بشقيها الديني والمدني بمجتمع مدينة الجزائر، تميزت بخاصية بارزة، وهي ندرة الزواج داخل الأسرة الواحدة[2].

(ثانيا)– مصاهرات البيوتات والأسر العلمية ببايليك الشرق:

(1)- مصاهرات البيوتات والأسر العلمية بقسنطينة:

وبمجتمع مدينة قسنطينة كانت نفس الممارسات السائدة بمدينة الجزائر، حيث صاهرت بعض البيوتات العلمية رجال الدولة، من ذلك مصاهرة أسرة ابن جلول لصالح باي، وقد توارثت أبناء هذه الأسرة خطة القضاء الحنفي وكتابة العدل بقسنطينة في عهد صالح باي وبعده[3].

وتكثر بمدينة قسنطينة المصاهرة بين الأنداد من أعيان الحضر، وتتصاهر العائلات المعروفة بالوجاهة مثل الفكون وابن باديس وابن نعمون وابن مسبح فيما بينها، إذ صاهرت أسرة الفكون أسرا علمية ودينية بارزة، من ذلك مصاهرة " مزوار الشرفاء الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد الشريف الحسني"، وهو جد الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد لأمه، وقد أشار إليه عدة مرات في " منشور الهداية" كقوله:" وجدي للأم مزوار الشرفا إذ ذاك" [4]. وكان جده هذا عالما أيضا[5]. ونجد بعض فتاويه في "نوازل الفكون"[6]. كما ارتبطت أسرة الفكون بمصاهرة مع الشيخ المفتي يحي بن محمد بن محجوبة، وهو ممن حاز في

---

[1]– غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 351.

[2]– غطاس، المرجع نفسه، ص، ص: 355، 356.

[3]– فاطمة قشي، الزواج في قسنطينة خلال القرن 18م، ص: 151.

[4] – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص، ص: 49، 68.

[5]– محمد لعباسي، الإفتاء في الجزائر العثمانية، (أطروحة دكتوراه)، ص: 241.

[6]– محمد الفكون، "نوازل الفكون" مخ، ص: 60.

زمنه رئاسة الفتوى، وكان له صيت في بلده، إذ كانت عنده أخت الجد عبد الكريم الفكون[1].

وصاهرت أسرة الفكون أسرة علمية أخرى وهي أسرة ابن الغربي، التي تولت الإفتاء بقسنطينة[2]، حيث كان الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد متزوجا من ابنة الشيخ أبو العباس أحمد المدعو أحميدة بن حسن الغربي، وقد أورد ذلك في "منشور الهداية " بقوله :"صاهرني بابنته وبقيت عندي ما يقرب من الثلاث سنين، إلى أن وقع منها أمور لا يمكن إبقاؤها مع ذلك" [3].

كما صاهرت أسرة الفكون أسرة علمية معروفة، وهي أسرة ابن نعمون، ف" أبو عبد الله المدعو بكنيته ابن نعمون، هو ابن أخت عبد الكريم الفكون الجد. وقد كان في تربيته "من جملة أولاده لكونه في حضانة جدته والدة الجد لموت والدته ووالده وهو بحال صغر "[4].

وهناك إشارة أخرى إلى علاقة المصاهرة بين هاتين الأسرتين في أواخر العهد العثماني، وردت في سجلات المحاكم الشرعية المحفوظة بقسنطينة، إذ نجد عقودا خاصة بأبناء السيد حسين الفكون العدل بالمحكمة، حيث زوَّج ولدين وبنتا، فأما البنت فهي فطوم التي زوجها سنة 1202هـ/1787م من الحاج إبراهيم بن نعمون[5].

أما الولدين فقد تزوج أحدهما وهو محمد بن السيد حسين الفكون راضية بنت السيد محمد بن محجوبة، وذلك في سنة 1202هـ/1787م [6]. وقد كان والدها السيد محمد

---

[1] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 63.

[2] – غطاس، الحرف والحرفيون، ص:354.

[3] – عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص، ص: 40، 76 .

[4] – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، ص: 82.

[5] – فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18. ص، ص: 115، 116.

[6] – فاطمة الزهراء قشي، المرجع نفسه، ص، ص: 51، 52.

بن محجوبة هو الآخر عدل بالمحكمة المالكية، أما ولده الثاني فقد زوجه من فاطمة بنت الأموي[1].

ومن الأسر العلمية المعروفة بالوجاهة بقسنطينة أسرة ابن باديس، وقد صاهرت مزوار الشرفا، وهو جد عبد الكريم الفكون الحفيد لأمه، بحيث كان ولد أبو العباس حميدة بن باديس متزوجا من خالة عبد الكريم الفكون الحفيد، والنص كما ورد في "منشور الهداية" – والهاء تعود على أبي العباس حميدة بن باديس–:"... بموت زوج ابنه، وكانت أخت والدتي، وتركها وإخوتها جدي إلى نظري، ولم تزل والدتهم في كنفي أَدُبُّ عليها بما أقدر عليه، فصاهرته الأم بالابنة المذكورة وأخرجت لها جهازا شاطّا[2] على ما نابها في إرثها في والدها ومن ورثته من إخوتها"[3]. وهذا النص يؤكد أنها أسرة مزوار الشرفاء ميسورة الحال للجهاز الذي جهزت به ابنتهم.

وأسرة ابن باديس ممثلة في سجلات المحاكم الشرعية خلال القرن 18م في شخص "العدل الرضي السيد علي النوري بن السيد محمد بن باديس"، وقد تزوج من "راضية بنت سليمان الانجشاري" وطلقها، كما تزوج من " زينب بنت الزموري". ويعد السيد علي النوري الممثل الوحيد لأسرة ابن باديس في قائمة المتزوجين في الفترة المدروسة، صدفة تعززها الحجم الصغير لأفراد لأسرة في كل جيل[4].

وتعد أسرة ابن الكماد من الأسر العلمية العريقة بقسنطينة، ولدينا مثال واحد عن مصاهراتها من خلال مصاهرة الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان لأسرة غنية بقسنطينة وهي أسرة ابن آفانوس، فأضاف الوزان الثروة المادية إلى العلم والتصوف، بزواجه بابنة الشيخ أبو عبد الله محمد بن آفانوس، وقد كان هذا الأخير فقيها

---

[1] – فاطمة الزهراء قشي، المرجع نفسه، ص، ص: 115، 116.

[2] – شاطا: أي زيادة فاحشة لما عندها.

[3] – الفكون، المصدر السابق، ص: 212.

[4] – فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 115.

عالما، اشتهر بالولاية والعلم، وكان ذا مال ورباع، وقد كانت له وجاهة عند الأمراء، كما كانت له مدرسة خاصة [1] شأن الأسر الكبيرة في تلك الفترة[2].

ومن بين أثرياء وأعيان قسنطينة، والذين ترد بعض عقود زواجهم في سجلات المحاكم الشرعية مزوار الشرفاء الذين تزاوجوا فيما بينهم؛ ولا ندر ما إذا كان المزوار في هذه الحالة لقبا عائليا أم وظيفة. والأرجح أنه أصبح لقبا أو نسبة عائلية، والدليل أنه يشمل الزوجين لأن المزوار وهو الممثل لفئة من ينتمون إلى النسب الشريف، وعليه فقد عممت لأفراد الأسرة. وهذا ما يفسر النسبة التالية في زواج محمد بن السيد علي بن مزوار الشرفا مع جلبية بنت السيد عباس بن مزوار الشرفا، أما الصداق فيتكون من: 100 ريـــال، وقفطان، وملحفة، وحزام كلها حالة. وإذا كان الجد هو المزوار حرفة يكون الزوج ابن عم الزوجة. ولكنها حالات منفردة لقلة تواتر هذه العائلات[3].

ومن الأسر العلمية المعروفة بالوجاهة، والتي تصاهرت فيما بينها أسرة ابن نعمون وأسرة ابن مسبح، ونجد إشارة إلى ذلك في منشور الهداية :"وتولى (محمد بن نعمون) خطة الفرائض ومفاصلات التركات، والإشراف على صاحب المواريث بعد موت صهره أبي محمد عبد اللطيف المسبح"[4].

وفي سجلات المحاكم الشرعية ثلاثة زيجات لأسرة ابن نعمون لثلاث شباب بفتيات من بنات الأتراك أو الكراغلة، بحيث تزوج حسن بن الحاج أحمد بن نعمون يمونة بنت بن يمامي بن بابا في عام 1202ه/1787م، وتزوج محمد بن السيد حسين بن نعمون قرمية بنت عصمان في عام 1203ه/1788م، وتزوج أحمد بن المرحوم السيد محمد بن نعمون جلبية بنت خليل بن قارة علي الانجشاري في عام 1206ه/1791م[5].

---

[1] – دفن الثلاثة في تلك المدرسة، أي أبن آفانوس، وابنته، والوزان. ينظر: الفكون، منشور الهداية، ص: 38.

[2] – الفكون، المصدر السابق، ص: 38؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 382.

[3] – فاطمة قشي، المرجع السابق، ص: 143.

[4] – الفكون، منشور الهداية، ص: 81.

[5] – فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 54.

وقد أشارت فاطمة قشي في كتابها " الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18" إلى وجود أسرة الغربي ضمن سبع عقود زواج التي اشترط ضمن صداقها " الجرية"، بحيث تزوج أحد أفراد عائلة عبد الله بن سليمان بفاطمة بنت محمد الغربي سنة 1203هـ/1788م بصداق قدره ستون ريالا، إلا أن قشي لم تملك من أدلة ما يؤكد لها أنها من الأسرة العلمية المعروفة خلال العهد المدروس، ولذلك حاولت أن تستفسر عن سبب تعامل الحالات السبع بالجرية :" كانت عائلة الغربي على سبيل المثال عريقة بقسنطينة، ولكن في نفس الوقت للاسم رواج كبير، وقد يجمع أفرادا لا ينتمون كلهم إلى نفس العائلة ولا إلى نفس القبيلة"[1].

ومن مصاهرات أسرة المسبح في الفترة الأخيرة من العهد العثماني، نجد أنها زوجت شريفة بنت المسبح من السيد محمد بن منمامي في صفر 1202هـ/1787م، لكنها صاهرت أيضا عائلة " الشريف"، وتزوجت عيشوش من بلقاسم المسبح سنة 1205هـ/1790م، أي زواج الأقارب. أما أولاد المسبح فقد صاهروا " الصنهاجي"[2]، و" المسيلي"، و" الفوغالي"[3]. يعني أنَّ مصاهراتهم لم تبق محصورة في العائلات الحضرية العريقة بل صاهروا أسرا أخرى.

ونلاحظ تقارب البيوتات القسنطينية الحضرية العريقة مثل ابن نعمون وابن باديس وابن المسبح من عائلات الانكشارية بالتزوج منها رغم ما قيل عن تأفف أعيان الحضر من الاحتكاك بأفراد الجيش العثماني[4]. ومن خلال سجلات قسنطينة تُرصد بعض الزيجات التي جمعت بين أبناء أسر علمية وبنات " الانجشاير"، من ذلك ارتباط " العدل الرضي السيد علي النوري بن باديس" "براضية بنت سليمان الانجشاير"، وكان قد أقدم على الزواج منها بعد أن طلق "زينب بنت الزموري"، وللعلم فإن السيد علي بن باديس كان عدلا بالمحكمة،

---

[1]- فاطمة الزهراء قشي، المرجع نفسه، ص- ص: 51- 53.

[2]- عقد زواج خص بكر مجبرة وهي آمنة بنت الصنهاجي في صفر من عام 1203هـ. فاطمة قشي، المرجع نفسه، ص: 117.

[3]- الفكون، منشور الهداية، ص: 81.

[4]- فاطمة قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 116.

وهو الوحيد من أسرة ابن باديس ذكورا وإناثا الذي ورد اسمه في السجل، وهذا يدل على انحصار عدد أفراد العائلة أو نفوذها. وهذا "محمد بن سي عباس بن مزوار الشرفا" طلق " تركية بنت سي الحسين الانجشاير"، وقد طلق "علي بن السيد محمد نقيب الأشراف" زوجه "حسنى بنت إبراهيم الانجشاير". إنها نماذج قليلة لا تكفي للدراسة الوافية إنما تزيل بعض الشكوك حول مصاهرة أعيان المدينة وأشرافها ليس لموظفي البايليك فحسب وإنما مع عسكر الانكشارية[1].

(2)- مصاهرات البيوتات والأسر العلمية ببلاد زواوة:

تعد بلاد زواوة من أكثر المناطق المناوئة للسلطة طيلة العهد العثماني، ولهذا لجأ حكام الجزائر إلى مصاهرة البيوتات الدينية القوية بها كبيت ابن القاضي وآل المقراني التي كانت تتزعم قبائل المنطقة[2]. أما عن مصاهرة بيوتات المنطقة بشكل عام فليس لدينا حولها مادة علمية كافية.

وبالنسبة لأسرة الورثيلاني فرغم أنها أسرة جمعت بين الصلاح والعلم إلا أنها لم تتمتع بنفس مكانة لأسرتي ابن القاضي، والمقراني، ولهذا لا نعتقد إقبال كبار رجال الدولة على مصاهرتها، ويمكن أن نفق على بعض مصاهرات هذه الأسرة من خلال الإشارات الواردة عرضا في "رحلة الورثيلاني". ويبدو أن أسرة الورثيلاني اتجهت إلى مصاهرة أسر الأشراف والأسر المشهورة بالعلم أو الصلاح.

وقد تصاهرت أسرة الورثيلاني مع آل المقراني، إذ يذهب صاحب الرحلة إلى أنَّ جده جاء إلى بني يعلى بضواحي بجاية، وصاهر أسرة محمد أمقران حاكم منطقة قترات، وأصبح شيخ علم معترفا له وأسس نفوذ الأسرة الروحي في المنطقة، ولما توفي أقيمت له قبة باعتباره من كبار المرابطين[3]. والنص كما في رحلته :" الولي الصالح سيدي محمد بن علي، إذ كان

---

[1]- فاطمة قشي، المرجع نفسه، ص: 152.

[2]- ينظر مصاهرة أعيان بيوتات زواوة لرجال الدولة، الفصل الخاص بالدور السياسي للبيوتات، ص: 447.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 394.

هو المتصرف في الأوطان بإذن من له الحكم من بجاية، وهو الذي مسك جدي في هذه البلدة وزوج بنته له، وهو الذي أمر الناس بأن يبنوا له وهم بنو يعلى" [1].

وخلال القرن 18م أيضا كانت الأسرتان مرتبطتان بمصاهرة، وذلك ما أشار إليه الورثيلاني في رحلته، فلما حل بجاية كان عليه أن يزور:" أولاد الشيخ سيدي محمد أمقران في محلهم إذ هم أنسابي" [2].

وقد أشار الورثيلاني إلى صلة المصاهرة التي جمعت أسرته بالأسر الشريفة، بحيث كانت جدته ووالدته تنحدران من أسرتين شريفتين بقوله:" وكانت والدة أبي من الصالحات شريفة كوالدتي أيضا" [3]. ويمكن أن نتوصل إلى مصاهرات بيت الورثيلاني أيضا من خلال أخوال صاحب الرحلة، ورغم أن النص الذي بين أيدينا غير واضح، بحيث كان ابن خال حسين الورثيلاني السيد عبد العزيز بن محمد ممن حج معه عام 1179هـ/1765م:" ولد خالي الفاضل الكامل نجل ابن عمنا سيدي عبد العزيز ابن سيدي محمد جدي من قبل أمي عم لأبي سيدي الحاج أحمد زروق هذا قد حج في زمان الشيخ عبد الباقي والخرشي، وكان فقيها يحفظ العقائد الثلاث متنا وشرحا، وكان يتعلم عليه ولد الشيخ عبد الباقي حين كان صغيرا وهو الشيخ محمد الزرقاني شارح الموطأ، وشارح المواهب اللدنية، وكان من أكبر المحدثين"[4]، أي أن محمد بن الشيخ عبد الباقي كان يتعلم على جده، وفي موضع آخر يقول أنه كان معه في الرحلة:" وعمنا سيدي عبد العزيز" [5]. وهذا يوضح صلة القرابة التي جمعت بين والدته ووالده، فهو زواج في نفس الأسرة.

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 103.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 31.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص:89.

[4]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص، ص:632، 633.

[5]- الورثلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 785.

كما يمكن أن نقف على مصاهرات هذا البيت من خلال النساء اللائي أشار إليهن حسين الورثيلاني في رحلته، وهن ثلاثة زوجات له، والرابعة زوجة لابنه محمد. وقد كن من أسر شريفة، أو من أسر عرفت بالفضل والعلم والصلاح.

صهره الأول هو: السيد الفقيه عبد الله بن رحاب، وهو من الأشراف، وقد كان الورثيلاني متزوجا من ابنته عويشة، وابنه محمد متزوجا من أختها فاطمة، وقد رافق السيد عبد الله بن رحاب الورثيلاني في حجته سنة 1179هـ مع ابنتيه المذكورتين، وقد وصفه الورثيلاني بصفات تدل على مكانته، وتدل في الوقت ذاته على ذلك الاحترام التي كان الأصهار يكنونه لبعضهم البعض، فقد وصفه ب:" الفاضل الكامل صهري سيدي عبد الله بن رحاب"[1].

وصف الورثيلاني زوجته عويشة ب:" الحرة الجليلة الكريمة الطيبة النخبة الشريفة المتطلبة... بنت الشيخ الفقيه التريه الفاضل الكامل صاحب الفضائل والفواضل الشريف تحقيقا سيدي عبد الله بن رحاب من أولاد الشيخ سيدي رحاب المتوطن في أولاد دراج، ومحلهم الوجلة فوق قمر تحت جبل بوطالب مشهور عند الناس من غير التباس" [2].

وقد أشار إلى صهره وبناته في موضع آخر من رحلته بقوله:" ومن أولاد سيدي رحاب الفاضل الفقيه المتوجه إلى الله، وقد تزوجت ابنته الفاضلة الحرة الجليلة الشريفة الطالبة عويشة، وتزوج ابني محمد أختها الفاضلة الجليلة العابدة الطالبة فاطمة "[3]. فهل أولاد سيدي رحاب الشرفاء من أسرة علمية؟

كما صاهر الورثيلاني أولاد ابن قري، وهي أسرة عرفت بالصلاح، وهي تنتمي ل" الشيخ العارف بالله تعالى الزاهد... سيدي محمد بن قري"، " وأولاده ذكور وإناث ظهرت

---

[1]- الورثلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 283.

[2]- الورثلاني، المصدر نفسه، ج2، ص، ص: 610، 611.

[3]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج1، ص: 695.

عليهم آثار الأسرار وشوارق الأنوار سيما الولي كأبيه ذو الصدق والوفاء والحلم...سيدي بركات"[1].

وقد أشار الورثيلاني إلى مصاهرته للسيد بركات ابن الولي الصالح سيدي محمد بن قري، بقوله:" وقد زوجني سيدي بركات بنته، كما زوج أبو بكر -رضي الله عنه- بنته النبي -ﷺ- عائشة - رضي الله عنها- من غير كلفة ولا مشقة "[2]، ولعله يقصد بالعبارة الأخيرة أن الوالد لم يغال عليه في صداق ابنته.

كان الورثيلاني يزور بيت "سيدي" بركات بقرية بني يعلى حتى بعد وفاة صاحبه[3]، وأشار إلى ذلك بقوله:" فمررنا على دار الولي الصالح المحقق الورع المدقق سيدي بركات، وزرت الصالحة الطيبة الحرة الفاضلة صهرتي زوج سيدي بركات - نفعنا الله به آمين-"[4].

أمَّا الأسرة الثالثة التي صاهرها الورثيلاني فهي أسرة أولاد محمد صالح التي جمعت بين العلم والصلاح. وقد تزوج الورثيلاني من امرأتين من هذه الأسرة، إحداهما هي عائشة " بنت سيدي السعد نجل الشيخ سيدي المسعود بن عبد الرحمن"[5]. والتي رافقته في حجته الثالثة عام 1179هـ. وقد أشار الورثيلاني إليها وإلى أسرتها في عدة مواضع من رحلته من ذلك قوله:" زوجتي بنت الشيخ الفاضل المحقق المتكلم العالم الصالح، خطيب وقته، وفريد عصره، لا سيما في أصول الكلام سيدي مسعود بن عبد الرحمن جدها من قبل أبيها، وهو منسوب للشيخ أبي محمد صالح الدكالي المعلوم في الكتب الذي أخذ عن الشيخ أبي مدين، وعن الشيخ سيدي عبد القادر في القرن السادس، ومحله بنو عيدل بلد الشيخ القطب سيدي يحي " [6].

---

[1]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 67.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 63.

[3]- كان السيد بركات متوفيا في سنة 1179هـ، ومع ذلك زار الورثيلاني بيته ببني يعلى لما كان متجها للحج. وقد أشار إلى ذلك بقوله:" دار طب الزمان وقمر الأوان على الإطلاق... سيدي بركات ". رحلة الورتلاني، ج1، ص: 108.

[4]- الورثيلاني، المصدر السابق، ج2، ص: 811.

[5]- الورثيلاني، المصدر السابق، ج1، ص: 113، 114.

[6]- الورثيلاني، رحلة الورثيلاني، ج2، ص: 611.

وقد وصفها ب:" الفاضلة الحرة عائشة بنت الفاضل الكامل سيدي السعيد نجل الشيخ المحقق لا سيما في علم الكلام"[1]. نجل سيدي مسعود الذي كان حجة في علم الكلام في عصره، و" الشيخ الخطيب سيدي المسعود بن عبد الرحمن نجل الشيخ سيدي محمد صالح نجل الشيخ المعلوم غربا وشرقا سيدي أبي محمد الدكالي تلميذ أبي مدين الغوث مع الشيخ عبد القادر الجيلاني"[2].

تزوج الورثيلاني من امرأتين من هذه الأسرة العلمية، والنص كما في الرحلة:" العالم الفاضل سيدي مسعود بن عبد الرحمن آية من آيات الله تعالى، وقد تزوجت بنتين من ولده سيدي السعدي، وسيدي علي ولده محقق في علم الكلام غير أنه لا يصل مرتبة أبيه"[3].

(3)- مصاهرات بيوتات عنابة وخنقة سيدي ناجي:

ليس لدينا معلومات كافية عن مصاهرات أسرة البوني بعنابة، وكل ما عرفناه أنها صاهرت أسرة شريفة، بحيث ذكر أحمد البوني في "الدرة المصونة" خاله الشريف نور الدين محمد بن عيسى بن محمد، وقد كان مفتيا وقاضيا ونقيب الأشراف. ويشير أحمد البوني إلى وجود تنافس بين جديه جده لأبيه، وجده لأمه، إلا أن هذا التنافس لم يكن كبيرا، ولعل ذلك ما يعنيه البوني بقوله بغير جحد، ومما ورد في " الدرة المصونة "[4].

بخالنا الشـــريف نور الدين محمد ذي الجود واليقـــــين
قد كان مفتيا وكان قاضيا نقيب أشراف وحبرا ماضيا
وذا دها وكان في الفرائض يفـــوق غيره كنهر فايـــض
وبأبيه جـــدنا عيسى التقي وجده محـــمد الشـــهم النقي
قد كان بيـــنه وبـــين الجد بعض تنافـــس بغير جحد

[1]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 696.
[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 697.
[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 90.
[4] - أحمد البوني، الدرة المصونة، ص: 78.

ونفس الشيء بالنسبة لبيوتات إقليم الزيبان إذ لم نتوصل إلى معلومات كافية حول مصاهراتها، وقد عرفنا أن بيت ابن ناجي ارتبط بعلاقة قرابة بأسرة أخرى ذات مكانة كبيرة في منطقة بسكرة، ونعني بذلك أولاد محمد الحاج إحدى الأسر التي تولت إمارة ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني، بحيث ذكر عبد الرحمن بن محمد المجاجي في رحلته الحجازية سنة 1063هـ/1652م، أن من الذين حجوا معهم أبو الحسن بن ناجي صاحب الخنقة، الذي كانت له قرابة مع أمير ركب الحجاج الجزائريين [1]. ولا شك في أن المصاهرة هي منشأ تلك القرابة.

(ثالثا)- مصاهرات البيوتات والأسر العلمية بالغرب الجزائري:

إنَّ المادة العلمية التي توفرها المصادر لا تسمح لنا بالتطرق إلى مصاهرات كل البيوتات والأسر العلمية والدينية بالغرب الجزائري، وعليه سنتطرق إلى بعضها.

(1)- مصاهرات البيوتات والأسر العلمية بإقليم الراشدية:

تعد أسرة عبد القادر بن المختار من أبرز البيوتات العلمية الصوفية بإقليم الراشدية، وقد تصاهرت مع عدد من الأسر العلمية منها أسرة المشارف، وهي من البيوتات العلمية الشريفة، وذلك ما أشار إليه أبو حامد المشرفي في سياق حديثه عن الأسرة بقوله:" وهذا القبيل بين المشارف وبينه مواخاة ومصاهرة يطول بنا ذكرها... "[2]. كما تصاهرت مع أسرة علمية ودينية بارزة وهي أسرة أولاد سيدي أحمد بن علي البوعمراني، من ذلك زواج العلامة الشريف السيد أحمد بن التهامي بابنة مصطفى بن المختار عمة الأمير عبد القادر[3].

وتصاهر أولاد عبد القادر بن المختار مع أسرة علمية أخرى وهي أسرة الشيخ عمرو بن دوبة دفين غريس، فالشيخ محمد ابن آمنة ابن دوبة الأزهري خال الأمير عبد القادر[4]. كما كانت المصاهرة داخل الأسرة نفسها، فقد تزوج الأمير عبد القادر ابنة عمه لالا

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص: 388.
[2]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 26.
[3]- المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص: 100.
[4]- أبو القاسم سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، ص- ص: 43- 47.

خيرة[1]، وتزوج الطيب بن المختار من عائلة أبو طالب وهي تمثل فرعا آخر من الأسرة[2]، وزوج الأمير خليفته وابن عمته مصطفى بن تهامي بأخته الصغرى خديجة.

وجمعت المصاهرة بين أولاد السيد اعمر بن دوبة وأولاد "سيدي" دحو، وها هو النص الوارد في "القول الأعم" :" أولاد السيد اعمر بن دوبة من أشراف غريس وأعيان مرابطيه، ولهذه القبيلة التشابه بأولاد سيدي دحو في العلم والرياسة والاشتهار، بينهما مخالطة وصهر قديم"[3].

كما صاهر بيت المشارف بيوتات وأسر علمية وشريفة بارزة، وقد أشرنا إلى مصاهرته لبيت عبد القادر بن المختار، ولا يَسْتَبعد أبو حامد المشرفي مصاهرة المشارف لأسرة محمد بن علي المجاجي كما في النص الموالي:" كانت لهم (أحفاد آبهلول) أخوة صالحة بينهم وبين المشارف في القديم، وصداقة عظيمة، وربما كانت تلك الصداقة والأخوة أصلها المصاهرة إذ هي التي ينتج وينشأ عنها الأخوة الدائمة التي لا تنكشف "[4].

كما تزاوج بيت المشارف فيما بينهم، فهذا "نحرير الأدباء" الشاعر السيد مصطفى بن عب بن البقرة[5]، أحد فروع المشارف، وهو ابن عم زوجة أبا حامد المشرفي. مما يعني أن زوجة المشرفي من أسرة ابن البقرة. وظل الزواج من داخل الأسرة سائدا في بيت المشارف، إذ تزوج أبا حامد العربي المشرفي وهو في المغرب[6] حفيدة ابن عمه وشيخه ابن عبد الله سقاط بعد أن بلغ من الكبر عتيا، حيث جاء في ديوانه ما يلي:" تزوجتها بعد التفات الفتن عني والسيئات...الهرم معي في الثياب ... الحرة الجليلة ... حفيدة ابن عمنا وشيخنا عالم الدنيا سيدي عبد الله سقاط "[7]. وإن كان هذا الزواج خارج الاطار الزماني

---

[1]- هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر. ص: 65.

[2]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر. ص: 193.

[3]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 330.

[4]- أبو حامد المشرفي، " ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 35.

[5]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 22.

[6]- هاجر أبا حامد العربي المشرفي إلى المغرب عام 1260هـ/ 1844م. ينظر: عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر، ص: 82.

[7]- أبو حامد المشرفي، « ديوان نظم »، ورقة: 60 و، نقلا عن: عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر، ص: 83، ها: 1.

لبحثنا المخصص للعهد العثماني إلا أنه يمكن الاستدلال به على صلات المصاهرة خلال العهد المدروس، لأن الفترة الزمنية ليست بعيدة حتى تتغير مثل هذه العلاقات.

ورغم أننا نتردد كثيرا في إدراج أسرة أبي راس ضمن الأسر العلمية خلال العهد العثماني، إلا أننا نشير إلى بعض مصاهراتها التي ربطتها مع أسر بارزة، بحيث ذكر أبي راس أنّ زوجة جده عبد القادر هي السيدة زينب بنت الشيخ السيد عبد الجليل، والتي وصفها بالصالحة الولية القانتة الزكية، كما وصف جده عبد القادر بأنه " كان أعجوبة الزمان في الولاية والصلاح... كاد أن يكون كابن عياض الفضيل "[1].

وتزوج الشيخ أبو راس هو الآخر من امرأة من أسرة علمية، هي أسرة أولاد الشيخ محمد بن يحي مقري الجن، فجعل والدها الأمر في يد أكبر ذرية الشيخ وحفدته، سيد أهل غريس في وقته، العالم واسطة عقدهم الشيخ محمد بن افريحة بن النجادي فزوجها له[2].

(2) – مصاهرات البيوتات العلمية بتلمسان:

اتجه بيت المقري منذ العهد الزياني إلى مصاهرة البيوتات العلمية العريقة، من ذلك المصاهرة التي جمعته ببيت ابن مرزوق، ويذكر المقري في "نفح الطيب" متحدثا عن نفسه أنّ الإمام العالم العلامة محمد بن مرزوق الكفيف (ت901ه/1495م) :" والد أمي جدي أحمد، لأني أحمد بن محمد بن أحمد فوالدة الجد أحمد بنت الكفيف"[3].

وتشير النصوص التاريخية إلى أنّ أحمد المقري بنى بعدة نساء، إحداهن تلمسانية، وهي بنت المفتي محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني، والنص كما ورد في رحلته:" ولما تزوجت بنت القدياري بعد بنت ابن جلال التلمساني[4] مفتيها ومفتي فاس، وكان ذلك بفاس المحروسة"[5]. وفي النص السابق يشير المقري إلى ارتباطه بامرأة المغربية، وهي التي بنا

---

[1]– أبو راس الناصر، فتح الاله، ص: 25.

[2]– عندما عقد هذا الزواج كان أبو راس قد عين في القضاء، ثم انتقل من البادية إلى مدينة أم عسكر. ينظر: فتح الاله، ص: 22.

[3]– المقري، نفح الطيب، ج5، ص: 419.

[4]– وهو محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني ت 981ه، خطيب جامع القرويين بفاس ومفتيها.

[5]– أحمد المقري، رحلة المقري، ص: 48.

بها بفاس وأنجبت له بنتا سنة 1026هـ/1617م، وحين رحل إلى المشرق ترك المرأة وابنتها و لم يعد إليهما[1].

أما زوجته الثالثة فهي مصرية من بيت السادات الوفائيين، وقد بنى بها عندما استقر بالقاهرة:" و لم يلبث بمصر إلى أن حصلت له بها شهرة تامة، وتزوج من السادات الوفائيين أعظم بيوتات مصر بعد البكريين، وذلك نهاية الشرف عندهم"[2]، وقد كانت مصاهرة البيوتات العلمية العريقة مستحبة لدى العلماء، وذلك ما يفهم من الرسالة بعث بها عبد الرحمن بن المرشد للمقري في شوال سنة 1034ه/1624م مهنئا له بالزواج، ومما ورد فيها :" لقد تخيرت المغارس فوقعت على أطيبها أصلا وأزكاها، وليهنك الفارس الذي سينتج من هاتين المقدمتين الصادقة قضاياها، فيا له من فرع نتج من أطيب جرثومة، وأكرم خؤولة وعمومه، وهذا من باب التفاؤل المطلوب، والعلم عند علام الغيوب"[3].

ويعد بيت ابن الحاج اليبدري التلمساني من أبرز البيوتات العلمية بتلمسان خلال العهد العثماني، وقد تصاهر مع بيت أولاد أبي بكر، وهو البيت الذي ينتمي إليه شعيب بن علي الجليلي[4] قاضي تلمسان الشهير، وتذهب بعض الدراسات إلى أن القاضي أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني، هو عم أو خال القاضي شعيب[5].

ويعرف عبد الحفيظ الفاسي بيت أولاد أبي بكر بقوله:" أولاد أبي بكر، وهم بيت علم وفضل وصلاح"، وبأن "بيتهم من أفضل بيوتات تلمسان"[6]، وهم " ينتسبون للشرف

---

[1]- أحمد المقري، المصدر نفسه، ص: 10.

[2]- الإفراني، صفوة من انتشر، ص: 144. ولما طلق المقري هذه الزوجة " غضب لذلك أهلها، وامتعض لهم أهل مصر، وصرموا حباله، فكتب صاحب الترجمة لطلبة فاس يخبرهم بذلك، وهو يقول ولما طلقتها لم يبق في مصر أحد يسلم عليّ إلا رجل حداد".

[3]- المقري، المصدر السابق، ص: 230.

[4]- هو شعيب بن علي بن محمد (ت1347ه/ 1928م)، تدرج في وظائف إلى أن عين قاضيا بتلمسان سنة 1877م وطال في منصب القضاء. ينظر: عبد المجيد بن نعمية وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر 1830- 1954. ص:158، 159.

[5]- عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع نفسه، ص: 375؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص: 503.

[6]- عبد الحفيظ الفاسي، معجم الشيوخ، ص، ص: 236، 237.

النبوي"[1] . وقد كان جد القاضي شعيب " خليفة بن مشيش من الأولياء المشاهير، وحفيده فضل الله كان من أهل العلم، وتولى القضاء"[2]، أما والد القاضي شعيب الحاج بن علي (ت1259ه/ 1813م) فكان " من أهل العلم والفضل والدين المتين" [3]"، وكان أيضا من أثرياء تلمسان، ترك عند وفاته أراضي ومنازل وبساتين كثيرة[4].

ومن بيوتات المرابطين الشهيرة بالجنوب الغربي أولاد سيد الشيخ، وقد كانوا لا يتصاهرون إلا فيما بينهم، أو مع مرابطين، أو شرفاء معروفين[5].

– وقبل أن نطوي الحديث عن المصاهرات نشير إلى أن العلماء الجزائريين كانوا يحترمون المرأة عموما، سيما إذا كانت من بيت علمي، ونلمس ذلك جليا من خلال حديث الشيخ الورثيلاني في رحلته عن زوجاته، وتسميتهن بأسمائهن، والثناء عليهن، وعلى آبائهن وأحيانا على أمهاتهن. ومدح الورثيلاني لأصهاره يدل على افتخاره بتلك المصاهرة.

وبما أن مكانة المرأة من مكانة البيت الذي تنتمي إليه، فإن صداق بنات العائلات الأرستقراطية ومنها العلمية كان مرتفع جدا، ومثال ذلك صداق رقية بنت الشيخ أبي عبد الله محمد المقري التي عقد قرانها مع السيد عبد الرحمن المرتضى، ومن الشروط التي تضمنها هذا العقد، بالإضافة إلى الصداق المرتفع وجود شرط جعلي وهو:" أن لا يتزوج عليها، ولا يتسرى معها، ولا يتخذ أم ولد إلا بإذنها ورضاها، فمتى خالف ذلك فالداخلة عليها بنكاح طالق طلاقا بتاً بنفس العقد عليها، والسرية وأم الولد حرتان أوامرها بيدها في ذلك بطلقة

---

[1]– يتساءل صاحب معجم الشيوخ (ص: 237) عن كيفية اتصال نسب ابن عبد الجليل بالمولى إدريس" ، ممن يذهب إلى نسبهم الشريف: عبد بن محمد بن الشارف بن علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، ص: 54.

[2]– عبد الحفيظ الفاسي، المصدر السابق، ص: 237.

[3]– ذكر في (معجم الشيوخ ص: 237) أنه توفي سنة 1259ه، وفي (موسوعة أعلام الجزائر، ص: 158) أنه توفي في سنة 1262ه/ 1846م. وفي كلاهما يذكر أنه توفي في السنة التي ولد فيها ابنه القاضي شعيب.

[4] – عبد المجيد بن نعمية وآخرون، المرجع السابق، ص: 158.

[5]– عبد القادر خليفي، الطريقة الشيخية، ص: 84.

بائنة تملك بها أمر نفسها إن شاءت، لا يقطع الأخذ بشرطها أبعد غاية، ولا أقصى نهاية "[1].

إنَّ المادة العلمية المتوفرة لا تسعفنا لنقدم أحكاما نهائيا فيما يخص مصاهرات البيوتات العلمية والدينية، إلا أن النماذج المتوفرة تدل على اتجاه البيوتات والأسر العلمية الكبرى نحو مصاهرة الأسر المتنفذة ومصاهرة العلماء والأسر المشهورة بالعلم والصلاح، وهذا لا يمنع من مصاهرتهم من فئات أخرى، إلا أن مصاهرة أهل العلم والدين والشرف مما تحبذه تلك البيوتات.

– المبـــحث الرابع: امتيازات البيوتات والأسر العلمية:

ومن النظريات التي يطرحها عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته قوله بأنَّ « الجاه مفيد للمال... ذلك أنّ صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يُتَقرَّبُ بها إليه في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه »، ثم يواصل قائلا :« ومما يشهد لذلك أنَّا نجد كثيرا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حَسُنَ الظَّن بهم، واعتقد الجمهور معاملةَ الله في إرفادِهِم، فأخلصَ الناسُ في إعانتهم »[2]، هذا بالنسبة للمجتمع، ولا يختلف الأمر كثيرا عند الدول، بحيث لجأت العديد من الكيانات السياسية عبر التاريخ –ومنها السلطة العثمانية في الجزائر – إلى التقرب من الفئات النافذة في المجتمع، وفي مقدمتها البيوتات والأسر العلمية والدينية لحاجتها لأصحاب النفوذ، وذلك تحسبا للظروف التي يشتد فيها الكرب وتواجه السلطة تمردات وثورات، فيقف أولئك العلماء والمتصوفة وأصحاب النفوذ الروحي عادة إلى جانب السلطة حماية لها وحماية لمصالحهم في الوقت نفسه.

وقد اعتمدت السلطة العثمانية بالجزائر على وسائل مختلفة لكسب ولاء البيوتات العلمية والدينة، وأهم تلك الوسائل هي تخصيصهم بامتيازات مهمة. ويبدو أن الامتيازات

---

[1]– ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 240.

[2]– ابن خلدون، المقدمة ابن خلدون، ص: 370، 371.

التي كانت السلطة تمنحها للبيوتات النافذة في بايليك الشرق كانت أهم بكثير من تلك التي تخص بها بيوتات مدينة الجزائر، لأن قبضة الدولة قوية في مركز السلطة، وهي لذلك ليست بحاجة كبيرة لخدمات البيوتات الكبرى، ونفس الشي في بايليك الغرب الذي لم تكن قبائله صعبة المراس.

والامتيازات الممنوحة للبيوتات نوعين: امتيازات مادية وأخرى معنوية، ومن أشهر الامتيازات التي منحها العثمانيون للبيوتات العلمية كانت لبيت الفكون، كما حصل آل أمقران وهو من بيوتات المرابطين على امتيازات مهمة.

(أولا)– الامتيازات المادية: ويمكن أن نوجز هذه الامتيازات في النقاط التالية:

(1)– منح الإقطاعات:

لجأت السلطة إلى وسيلة من أهم الوسائل في جلب ولاء بيوتات العلماء والمرابطين، وهي منحهم الإقطاعات بواسطة فرمانات تصدر عن أعلى سلطة في البلاد البشوات، أو عن ممثليهم في البايليكات البايات. ويتحدد نوع الإقطاع حسب عبارة الأمير إن كان إقطاع تمليك، أو إقطاع انتفاع[1]، وقد يعتبر هذا الإقطاع بمثابة حبوس للأسرة، ويجدر التنبيه إلى أن هذا الامتياز لم يكن يمنح إلا للبيوتات الأكثر نفوذا في المنطقة حتى يسهل على السلطة تسيير أمورها بها، أو بدافع الخوف من تأليب الأهالي عليها.

ورغم أن أسرة آل المقراني تعتبر أسرة مرابطية أكثر منها علمية، إلا أننا سنورد كمثال الامتيازات التي حصلت عليها، والتي استحقتها لسيطرتها على عدة قبائل، وتأثيرها الكبير ببلاد زواوة، بحيث أصدر الداي الحاج محمد (1671- 1682م) مرسوما يمنح بموجبه إقطاعا بقبيلة برباشة للمرابط سيدي محمد بن عبد القادر من آل المقراني، ومما ورد في المرسوم:" أمَّا بعد فإنَّ حامله المعظم الأجل السيد المولى الأعلى البركة السيد عبد القادر ابن المرحوم الولي القطب الناصح الشيخ البركة سيدي محمد أمقران – نفعنا الله ببركاته وأفاض

[1]– الفكون، "نوازل الفكون " مخ. ص، ص: 148، 149.

علينا- أنعمنا عليه بكافة عرش برباشة... يكون الجميع زاوية من جميع زواياه، ويكون كلهم حبسا عليه، وعلى أعقاب أعقابه، ينتفع بمقرهم وزكاتهم له، ورفعنا عليه يد باي المحال هذه الناحية الشرقية وعمالهم. أصدره المعظم الأرفع مولانا الدولاتلي الحاج محمد باشا، أواسط جمادى الثانية من عام 1093هجري- جوان 1682م" [1]. وإقطاعات أخرى مهمة تخص هذا البيت[2].

كما منحت السلطة لشيوخ القادرية كذلك أراضي، نظرا لانتشارها وكثرة أتباعها.

(2)- حق جباية الضرائب:

استعملت السلطة العلماء والمرابطين كوسطاء لجمع الضرائب من المناطق الغير خاضعة بصفة مطلقة للسلطة، وحتى من المناطق الخاضعة في بعض الأحيان، ومثال ذلك اكتساب أسرة الفكون الحق في جباية الضرائب من سوق الفواكه والخضر بقسنطينة[3]، وقد كانت المراسيم التي تمنحها لهم تتجدد باستمرار.

ومنها أيضا منح السلطة لأولاد سيدي محمد بلحاج بإمدوكان ترخيص يسمح لهم بجمع الضرائب سنة 1123ه/1711م بطلب منهم، وكانوا عملوا على استقطاب عدد من القبائل لصفهم، ثم أوكلت لهم سنة 1161ه/1748م مهمة جمع ضرائب أولاد زيان والصحاري [4]. وقد كانت البيوتات التي تكلف بجمع الضرائب تستفيد ماديا منها.

(3)- الإعفاء من الضرائب:

فرضت الدولة الضرائب والغرامات المختلفة على مختلف فئات المجتمع، وأعفت منها كبار العلماء والمرابطين ورجال الدين المنحدرين في الغالب الأعم من بيوتات علمية ودينية،

---

[1]- Charles Féraud, Exploitation des forêts de La Krasta dans la Kabilie orientale sous la domination Turque, in **R.A**, Volume :12, Année : 1868..p, p: 384, 385.

[2]- ينظر امتيازات آل المقراني في الفصل الخاص بالدور السياسي للبيوتات، ص: 478.

[3] - Mercier, " Constantine au 17e siècle, (élévation de la famille el fagoun ",p ,p: 24,25.

[4]- رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة، (رسالة ماجستير)، ص: 112.

وهذا الإعفاء قد يكون كليا أو جزئيا، وكثيرا ما لجأ الحكام إلى هذه الطريقة لضمان السير الحسن لعملية جباية الضرائب أو لأغراض أخرى.

ويكون « الإعفاء من التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية» عن طريق الفرمانات أو ظهائر تصدرها أعلى سلطة في البلاد الباشا، ويمكن للبايات عن يفعلون ذلك، وعندما يتعلق الأمر بتثبيت امتيازات كالإعفاء من الضريبة مثلا يمكن لخلفاء البايات أن يكتبوا ظهائر بها. وهناك أمثلة كثيرة على الإعفاء من الضريبة[1]، ومن الأسر التي أعفيت من الضريبة أسرة الفكون، وأسرة الكتروسي، وأسرة ابن حواء وغيرها من الأسر.

وبالنسبة لأسرة ابن حوا فإن الباي عثمان بن الحاج إبراهيم[2]:" أمر بتحرير العلامة السيد محمد بن حواء وإخوانه، وبني عمه التجاجنة من جميع التكاليف المخزنية، وكتب لهم بذلك رسما"، وكان ذلك في عام 1167ه/1753م[3]. ويكف حصول أسرة ابن حواء على امتيازات من هذا النوع، وتوسيع الامتيازات لتشمل كل الأسرة بل لبني عمه التجاجنة، لتؤكد على مكانة هذه الأسرة، إذ لولا مكانتها لما حظيت بتقدير السلطة وحَبَتها بالامتيازات.

(ثانيا)– الامتيازات المعنوية:

سعت السلطة للزيادة من النفوذ المعنوي للبيوتات العلماء والمرابطين في المجتمع لجاجتها الماسة إليهم كوسطاء، والامتيازات المعنوية كثيرة نذكر منها:

– تنص كثير من الظهائر التي أصدرتها السلطة لصالح لبيوتات العلمية والدينية على التوصية ب«حرمهم واحترامهم»، وهذه العبارة تتردد في أغلب ظهائر التعيين في الوظيفة وغيرها.

– ومن الامتيازات المعنوية التي خصت بها السلطة البيوتات العلمية والدينية ذات النفوذ الواسع، هي جعل حرمة لبيوتهم، فلا يعاقب الجاني إن لجأ إليها، ذلك ما تنص عليه بعض

---

[1]– أعفيت الكثير من الأسر من دفع الضرائب كأسرة سيدي عيسى بن عبد المؤمن، ومرابطي أولادي سيدي علي بن محمد الشريف وغيرهم. ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:470.

[2]– الباي عصمان بن إبراهيم:(1160ه/1747م–1170ه/1756م). ينظر: المزاري، طلوع سعد السعود، ج1، ص:284.

[3]– ابن عودة المزاري، المصدر نفسه، ج1، ص: 285.

الرسوم التي تخص أعيان البيوتات كبيت الفكون، كما كانت زاوية القيطنة التابعة لبيت مصطفى بن المختار ملجأ للعياذ، الذين يحتمون بها، "ومن اجتاز الوادي قاصدا القرية يأمن ولا سبيل عليه"[1]، ولا شك أن هذا أحد الامتيازات التي مُنحت لها من طرف السلطة.

- الاستجابة لوساطتهم: كان الناس يلجؤون إلى العلماء والمرابطين للتدخل لهم لدى رجال الدولة، ومن الامتيازات التي حابتهم بها السلطة هي تقبل وساطاتهم في غالب الأحيان، من ذلك ما ورد في "مذكرات الأمير عبد القادر" أن الشيخ محي الدين كان :" يسعى في مصالح المسلمين بالشفعة لهم عند الملوك، تارة بنفسه وتارة ببعث أحد أولاده، وتارة بالكتابة فيقضونها طائعين أو كارهين قهرا من الله"[2].

- كما أن إقدام السلطة على حصر مناصب دينية رفيعة كالفتيا والقضاء وإمارة ركب الحج في بيوتات معينة يعد في حد ذاته امتيازا ماديا ومعنويا لهذه البيوتات، وما تستفيده هذه البيوتات من هذه الوظائف من مال وجاه.

(ثالثا)- نماذج عن الامتيازات الممنوحة لبعض البيوتات العلمية:

سنكتف بنموذجين عن الامتيازات التي منحتها السلطة لأسرتين علميتين، إحداهما في بايليك الشرق والأخرى في بايليك الغرب:

(1)- امتيازات أسرة الفكون بقسنطينة:

يعد بيت الفكون أكثر البيوتات العلمية استفادة من الامتيازات، وظل ذلك طيلة العهد العثماني، وفي الظهير الذي كتبه أحمد باي للشيخ محمد الفكون سنة 1242ه/1826م الذي جدد له بموجبه إمارة ركب الحج، وفيها تعليمات للبايات ورجال الدولة والعلماء:" فيجب أن يحرس بعين العناية... ويواجه بالقبول والبشرى عند الخاص والعام، كل ذلك منا

[1]- مذكرات الأمير عبد القادر، ص: 49.

[2]- المصدر نفسه، ص: 49.

لاتصافه بما ذكر، وكونه من سلالة النجباء الأبرار الفقهاء الأخيار العارفين بالله... إذ مراعاة العلماء والأولياء وإكرامهم واجب على كل الأنام..." [1].

ويبدو أن أسرة الفكون حصلت على أغلب الامتيازات المادية في عهد عبد الكريم الفكون الحفيد، ومن أهم الوثائق التي تشير إلى تلك الامتيازات مرسوم تثبيت الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون في وظائف أبيه عام 1074ه/ 1663م من طرف إسماعيل بن خليل باشا، والوظائف هي: الإمامة، والخطابة بالجامع الأعظم يصلي فيه بالناس الصلوات الخمس، ويخطب فيه الجمع والأعياد، ومنحه الإشراف على أوقاف الجامع الأعظم، وما بقي من أموال الأوقاف بعد أن يقضي كل حاجات الجامع ينتفع بها كما كان والده من قبله.

ومما ورد في المرسوم المشار إليه:" يكون جميع تصرف أحباس الجامع المذكور من على داخل البلد المذكور وخارجها على يديه يصرفها في ضروريات الجامع المذكور في زيت واستصباح وحصر ومؤذنين وحزابين وكناسين وشعالين ومستخلف، وجميع ما يحتاج إليه من بناء وترقيع وهدم، وما بقي ينتفع به كما هي عادته السابقة المعلومة، وكما هي عادة والده المذكور وعادة الأئمة المتقدمين قبله، وكما هي عادة أئمة الجزائر المحمية بالله، مع حرمه واحترامه إلخ، ولا يقاس بما يقاس به غيره..." [2].

وفي مرسوم الصادر عن مصطفى بن خليل آغا الجيش، بأمر من الباشا، والخاص بالتجديد لمحمد بن عبد الكريم الفكون بأن يكون أميرا للركب في سنة 1075هـ/1664م [3]: يشير إلى الامتيازات المادية والمعنوية التي يحظى بها الأمير، ومما ورد فيها:"... ويجري في ذلك على عادة والده المرحوم المذكور، وعادة من تقدم من المعظمين السادات الأبرار الأجلة الأطهار أمراء أركاب المسلمين المتقدمين قبله في أخذ عوائده وفوائده كما هي العادة المعلومة والطريقة السابقة المعتادة" إلى أن ذكر الامتيازات المعنوية والأدبية للأمير:"... مع

---

[1]- Ernest mercier, " Constantine au 17e siècle, élévation de la famille el fagoun ", p :33.

[2]-Ernest mercier, Ibid, p, p:21, 22.

[3]-أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص- ص:228- 230.

حرمه واحترامه ورعيه وإكرامه وحفظ أجنابه، بحيث لا تهتك له حرمة، ولا يهضم له جناب إلخ، وكما يحترمون جميع خدامه وأصحابه وخماميسه وشركائه بالحرم الوافر، كما أن جميع ما يدخله من باب البلد المذكور أو يخرجه مُسَرَّحًا من قايد الباب، ولا تهتك له حرمة ولا يصله أحد بإذاية ولا بمكروه "[1]. وفي هذا المرسوم نجد إعفائه من دفع الرسوم على السلع التي يدخلها إلى مدينة قسنطينة أو يخرجها منها.

ومن الامتيازات المادية الكثيرة التي حصلت عليها أسرة الفكون بالإضافة إلى الامتيازات الواردة في الوثائق السابقة:

- الاستفادة من حق المكس على أسواق الخضر والفواكه، ولدينا مرسوم مؤرخ بسنة 1060هـ/1650م صادر عن مراد باشا، يمنح فيه لعبد الكريم الفكون الحفيد فوائد سوق الفواكه والخضر وفائض أوقاف الجامع الكبير وحقوقا كثيرة، ومما ورد فيها:" أما بعد فإن الفقيه الأجل إلخ أمير ركب المسلمين... سيدي عبد الكريم الفكون، لّما أن قدم إلينا بمكتوب المعظمين المرضيين فرحات باي ورجب باي، على أنهم وهبوا له سوق الفواكي والخضر، وجميع داخله يكون بيد السيد المذكور يصرفه في ضروريات الجامع... زيت واستصباح وحصر وغير ذلك..." [2].

- قدم الباي فرحات لبيت الفكون كل الصلاحيات فحظي أفراده بإدارة المدينة مع شيخ البلد عند خروج البايات في الحملات التأديبية أو حملات جباية الضرائب، وتولى أفراده إدارة حبوس مكة والمدينة بقسنطينة.

-كما كان بيت الفكون يتصرف في الأراضي التي تقيم عليها قبيلة أولاد جبارة، ومنحها البايات كذلك أراضي عرفت متاع عزل الجبل" لها ولبعض شيوخ الزوايا. والمرابطين المقيمين بقسنطينة كأولاد بن تشيكو وأولاد بشتارزي الذي كانوا في أول أمرهم ذوي نفوذ أدبي ومكانة

[1]-Ernest mercier, Constantine au 17e siècle, p, p: 27, 28

[2]-Ernest mercier, Constantine au 17e siècle, (élévation de la famille el fagoun),p ,p:24, 25.

علمية[1].

- إعفاء جميع أملاك الأسرة من الضرائب والغرامات سواء كانت في المدينة أو في الريف.
- إعفاء الأسرة من السخرة، ومن ضريبة حق دخول المدينة والخروج منها، وحق توفير الطعام والسكن للجنود والموظفين العثمانيين.
- إعفاء الخدم الذين يعملون عند الأسرة، وكذلك رعاتها ومساعدوها من الغرامة.
- إمكانها الحصول على الهدايا والعطايا العقارية وغيرها دون التعرض لها.
- يمكنها الحصول على حق العشر ما يدخل إلى مدينة قسنطينة من البضائع كالزرابي والخشب المجلوب من نواحي الأوراس[2].

ولعل **الامتـــيازات المعنـــوية** التي حصلت عليها أسرة الفكون أهم من امتيازاتها المادية، ما دام أنها كانت غنية قبل العثمانيين، وقد بلغت أسرة الفكون أوج قوتها المادية وجاهها في عهد الشيخ عبد الكريم الفكون، فكانت هذه الامتيازات وهي:

- منح الفكون لقب شيخ الإسلام، ويبدو أن اللقب ظل متوارثا في كبار علماء الأسرة، حتى وجد أن آخر كبار هذا البيت وهو الشيخ محمد الفكون كان يعرف بسيدي الشيخ، ولا يشير إليه العنتري إلا بسيدي الشيخ.
- كل من احتمى بشيخ الإسلام (الفكون) لا يجوز التعرض له، سواء كان كبيرا أو صغيرا.
- وأصبحت تتمتع بنفوذ روحي كبير بلغ درجة قصوى عندما كان الهارب إليها والملتجأ إليها في مترلها أو في غيره، ولو خارج قسنطينة، فهو مصون ولا تسلط عليه عقوبة، ولو كان مرتكبا لأعظم الأخطاء، ولو كان من أكابر الناس والحكام لا تلحقه إذاية بل يجد الحماية والملجأ الأمين، وكل من مد شيخ الإسلام يده لحمايته لا يمكن التعرض[3].

وظلت تتمتع بالامتياز الأخير إلى أواخر العهد العثماني، بحيث ذكر في الظهير موجه

---

[1]- رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة، (رسالة ماجستير)، ص: 119.

[2]- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص، ص: 53، 54؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 521.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 521.

من أحمد باي للشيخ محمد الفكون في مستهل عام 1242ه/1826م :" مع الإيصاء عليه بالحرمة والاحترام والمبرة والإكرام، واحترام داره بالحرمة الكاملة، وحفظ من استجار بها، كعادتها من سالف الزمان، وهي منجا للهاربين، ومنقذ للخائفين، ومأمنا للمستأمنين، ومأوى للفقراء وللمساكين غريبا وابن سبيل. وأن جميع الهاربين لها والحالِّين بساحتها لهم الأمان والعافية والإحسان، ولو أذنب الكبير من الذنب لا يُخرجه أحد منها ويهتك حرمتها كما جرت بذلك العادة القديمة" [1].

- وتنص المراسيم صراحة على توريث المناصب للأبناء، ففي مرسوم تثبيت محمد بن عبد الكريم الفكون في مناصب الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم بقسنطينة :" جددنا له حكم الأوامر التي بيده لإخواننا الباشوات المتقدمين قبلنا بأن يكون في موضع والده المرحوم المذكور إماما مرضيا وثقة محضيا وخطيبا بالجامع الأعظم " [2].

إن هذه الامتيازات جعلت أسرة الفكون الأسرة الأولى في البلد من حيث النفوذ الروحي، الذي كان في الحقيقة يعادل النفوذ السياسي، أما الثروة فربما وجد في قسنطينة من كان أكثر منها ثراء ومالا[3].

ورغم كثرة الامتيازات التي حصلت عليها أسرة الفكون، فإن هذه الامتيازات ليست استثناء خاصا بها، بل هي جزء من برنامج السلطة في كسب ولاء الفئات الأكثر نفوذا في المجتمع، وقد أثبتت هذه الوسيلة نجاعتها في كسب تلك البيوتات، فقد ظل بيت الفكون مثلا مواليا للسلطة ووقف إلى جانبها في أصعب المحن، كما رأينا ذلك في الدور السياسي لبيت الفكون.

(2)- امتيازات أسرة الكتروسي بمازونة:

---

[1]-Mercier, Constantine au 17e siècle, (élévation de la famille el fagoun), p, p:34, 35

[2]- Mercier, Ibid, p:21.

[3] - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 75.

تعد أسرة الكتروسي إحدى الأسر التي حظيت بامتيازات مهمة بمازونة، وقد جمعت هذه

الأسرة بين العلم والنسب الشريف، ولهذا يحق لنا أن نتساءل عن سبب تقريب السلطة لها، ومنحها الامتيازات المختلفة، فهل يعود ذلك إلى أنها أسرة علمية أم لانتمائها للأشراف، أم لمكانتها في المدينة أم لكل هذه الأسباب مجتمعة.

ولو توفرت لنا المصادر لقارنا بين بيت الكتروسي وبيت الفكون فيما يخص علاقة هذا الأخير بالسلطة، إذ لا يستبعد أن يكون بيت الكتروسي من البيوتات التي تحالفت مع السلطة، إذ تعد مدينة مازونة أول عاصمة لبيايليك الغرب.

ولحسن الحظ فإن لدينا مجموعة من الوثائق خاصة بامتيازات أسرة الكتروسي، بعضها عبارة عن ظهائر موضوعها هو منح امتيازات مختلفة لأسرة الكتروسي، بعضها خاصة بالمفتي وهو من تلك الأسرة، وبعضها له ولشخصيات أخرى من أسرته. ومن هذه الوثائق ما هي عبارة عن مراسيم تعيين لبعض أفراد الأسرة في مناصب دينية، وفيها تمنح امتيازات للأسرة أو تبقي امتيازاتهم بأيديهم.

صدرت تلك الظهائر عن عدة جهات، بعضها صادرة عن البشوات، وبعضها صادر عن البايات، وبعضها صادر عن خلفاء البايات، وواحدة صادرة عن العسكر وعلى رأسهم آغا النوبة.

ولا شك في أن أسرة الكتروسي مدينة بقسط كبير من هذه الحظوة لانتسابها للأشراف، إلى جانب إنجابها للعديد من العلماء، بحيث تشير بعض هذه المراسيم إلى انتساب أسرة الكتروسي إلى الأشراف، من ذلك مرسوم تعيين الشيخ أحمد بن خدة مفتيا بمازونة، المؤرخ بسنة 1080هـ/1669م بحيث يصفه ب:" الولي الصالح القطب الناصح شريف النسب والحسب... سيدي أحمد بن خدة ابن الولي الصالح المعظم الشهير سيدي علي

الكتروسي"[1]. وفي المرسوم المؤرخ ب1238هـ/1822م :" أما بعد فإننا أنعمنا على الحسباء النسباء الفضلاء الأدباء...الأشراف ...السيد محمد المهدي... وإخوانه وأولاده ومن انضم إليه".

ومن المراسيم التي تجمع بين التعيين والامتيازات: مرسوم الصادر من طرف الداي علي باشا 1121ه/1709م، لتثبيت السيد المهدي في منصبه:" أما بعد فإن حامله المعظم الفقيه... السيد المهدي جددنا له وأبقيناه على حاله بأن يكون إماما... ويكون أحباسه داخل البلد المذكور وخارجها كلها على يديه يصرفها في ضرورية المسجد المذكور ... وما يبقى ينتفع به هو في نفـــسه كما هي العادة القديمة... وكما هي عادة أئمة بلدنا الجزائر المحمية بالله تعالى، مع ما أوصينا له بحرمه واحترامه ورعيه وإكرامه وحفظ جنابه بحيث لا تهتك له حرمة ... "[2].

وهذا المرسوم يمنح لإمام المسجد حق الانتفاع بما يبقى من أحباس المسجد، مع لتأكيد على أن العادة جرت بأن ينتفع الأئمة في كل الأيالة، وليس في مازونة لوحدها بما بقي من أوقاف المسجد، وهذا يؤكد على أن التعيين في هذه المناصب يعد امتيازا معنويا وماديا.

وفي الظهير الذي عين بموجبه السيد محمد الصغير بن أحمد بن خدة إماما بجامع سيدي عيسى وسيدي عزوز بسنة 1124ه/1712م تأكيد على حق الإمام الاستفادة من أوقاف الجامع :" ولتكن أحباس الجامع المذكور تصرف على يديه فمنها ما يصرفه في البناء وزيتا وحصيرا إلى غير ذلك ... والباقي يدفعه في مـــونة عيـــالـــه كما جرت به العادة، والطريق السابقة المعتادة، مع حرمه واحترامه ورعيه وإكرامه... وأن لا يقاس بما يقاس به الغير وحرمة خدامه وخماميسه ومن انضاف إليه من خاصته...". بأمر مصطفى باي صاحب الولاية الغربية. فهذا المرسوم يشمل على عدة امتيازات مادية ومعنوية

[1] – وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة.

[2] – وثيقة ملك لأسرة الكتروسي.

والمرسوم المؤرخ بسنة 1173ه/ 1759م، والصادر من طرف خليل آغا نوبة مازونة، والسيد محمد بن حم باش بولكباشي، وكافة العسكر موضوعه منح امتيازات للمفتي السيد المهدي الكتروسي، وامتيازات لبعض أفراد أسرة المهدي من إخوته وأعمامه ذكروا بأسمائهم وهم: أخاه الفقيه أحمد، والسيد مصطفى، والسيد محي الدين، وعمهم السيد محمد المهدي، أما الامتياز الممنوح فهو تحرير ما بأيديهم من نوبة الماء التي على بحايرهم أي بساتينهم، ولا يقاسون بما يقاس به الغير تعظيما لحرمة العالم الشريف تحريرا مؤبدا.

وفي الظهير المؤرخ بسنة 1212هـ/1797م، والصادر عن عثمان باي، وموضوعه تعيين السيد محمد ولد السيد المهدي مفتيا وخطيبا في مسجد أبي ذلول يصلي فيه الصلوات الخمس، كما أنعم على إخوته أولاد الشيخ البركة السيد المهدي، بإعفائهم من جميع المطالب المخزنية والوظائف السلطانية، وأبقى حبوسهم بأيديهم، والوصية بحرمهم واحترامهم.

ومن ذلك المرسوم الصادر من طرف السيد الحاج أحمد الخليفة، والمؤرخ بسنة 1215ه/ 1800م موضوعه تعيين السيد محمد بن المهدي ابن المرحوم محمد بن المهدي مفتيا بمازونة وخطيبا وإماما يصلي الصلوات الخمس في جامع أبي ذلول، وجدد له على ما بيده من تحرير الذي قبلنا وأوصى بحرمه واحترامه، والإعفاء من التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية. وتشمل هذه الامتيازات كافة إخوانه: السيد علي والسيد أحمد، والسيد علي الصغير، وأولادهم وأولاد أولادهم وعقبهم وعقب عقبهم حيثما تناسلوا وامتدت فروعهم في الإسلام.

– وهناك ظهائر خاصة فقط بالامتيازات منها هذا الظهير:" ليعلم الواقف على هذا الأمر الكريم ... أننا أنعمنا على ماسكه السيد محمد بن المهدي وجددنا له على ما بيده من أوامر قادتنا البايلار وإخواننا الخلفوات رحمهم الله وأوصينا بحرمه واحترامه، وبروره وإنعامه، بحيث لا تهتك له حرمة ولا يهضم له جناب ولا يقاس بما يقاس به غيره من المطالب المخزنية

والوظائف السلطانية، وكما حررنا إخوانه من جميع العشور والعشرات والسخرة وغير ذلك ..." كتب بأمر السيد محمد الخليفة مؤرخ ب1213ه/1798م.

وهكذا يتبين أن الامتيازات التي حصلت عليها أسرة الكتروسي تنقسم إلى شقين: امتيازات معنوية وأخرى مادية، فأما المعنوية فتتمثل في الوصية " بحرمهم واحترامهم"، وهذه العبارة تتكرر في كثير من الظهائر.

أما الجانب المادي فهي إعفائهم من الضرائب، ومن العبارات التي تتكرر في جل الظهائر هي التأكيد على عدم مطالبتهم "بالمطالب المخزنية والوظائف السلطانية قلت أو جلت". ومن الامتيازات المادية الوارد الإشارة إليها هي: تحرير ما بأيديهم من نوبة الماء التي على بحايرهم أي بساتينهم، وإبقاء حبوسهم بأيديهم.

(رابعا)– حصر بعض الوظائف في بيوتات معينة امتياز مادي ومعنوي:

تبين الوثائق التي أوردناها من قبل نزوح السلطات الحاكمة إلى توريث الوظائف الدينية في الأسرة الواحدة، وحصر وظائف رفيعة في أسرة واحدة يعد في حد ذاته امتيازا ماديا ومعنويا، سيما ما كانت تجلبه هذه الوظائف لصاحبها من مكانة مرموقة لدى الخاصة والعامة، وما كان يستفيده من راتب وامتيازات مادية مختلفة.

كان الموظفون القائمون على الخدمات القضائية والدينة يكسبون معاشهم من الأوقاف، ومن المرتبات الشهرية التي تصرفها لهم خزينة الدولة، بالإضافة إلى المكافآت الموسمية، حسب درجات السلم الإداري المعمول به آنذاك، باعتبار أن الراتب الشهري هو في الواقع مقياس عملي لترتيب هؤلاء الموظفين، من حيث النفوذ والمكانة الأدبية، وسعة العيش[1].

ولم يكن الأجر ثابتا وهو يخضع لظروف المؤسسة الوقفية، وتختلف أجور الموظفين حسب المكانة العلمية والاجتماعية، وحسب المذهب أيضا، بحيث كانت أجور العلماء

[1]– ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792– 1830م). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، (ط2)، 1985. ص: 136.

الأحناف أعلى من أجور العلماء المالكية، وتحدد بعض الوثائق المؤرخة بين سنتي: 1811-1813م الأجور الشهرية للمفتيين والقاضيين المالكية والأحناف، وفيها أن راتب المفتي الحنفي كان يتراوح بين: 32 ريـــال، 34 ريـــال، أما المفتي المالكي فيتراوح راتبه بين: 15 ريـــال و20 ريالا، وفي حين بلغ راتب القاضي الحنفي 25 ريـــال، لم يتعد راتب نظيره القاضي المالكي 10 ريالات[1].

وفي "دفتر التشريفات" تحديد لرواتب بعض الموظفين كالمفتي الحنفي الذي كان يتقاضى شهريا ثمانون صائمة، والمفتي والقاضي المالكيين يتقاضى كل منهما خمسون صائمة، بينما ينال

نقيب الأشراف ثلاثين صائمة[2].

أما العدول الذين كانوا يعملون في تحرير الوثائق وتقديمها للقاضيين المالكي والحنفي لختمها والمصادقة عليها، فلا تتعدى أجرة كل واحد منهم سكة جزائرية واحدة. وقد كان القضاة يأخذون رسوما إضافية على أعمالهم القضائية، فالقاضي كان ينال مقابل مصادقته على كل حيثية موزونة واحدة، والعدل يتقاضى مقابل تحريره لها بدقة شيك أو نصفها[3].

وتفيد تقاييد سجلات البايليك بأن المرتبات الشهرية للقائمين بالخدمات الدينية كانت متفاوتة، فالخطيب له 15.5 ريـــالا، والمدرس يتسلم 7.25 ريـــالا، والإمام يتقاضى 1.5 ريالا، والحزاب لا يتعدى أجره نصف ريـــال[4].

أما المدرسين والمعلمين فقد كانت أجورهم تختلف كثيرا عن زملائهم السابقين فهم يتقاضون هدايا بمناسبة الأعياد، ومنحا من أولياء الطلبة تكفل لهم عيشا محترما، لا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء المدرسين غالبا ما كانوا يشتغلون في أعمال أخرى في المساجد والزوايا[1].

---

[1]- سجلات البايليك: ع: 36: س 34، س331، س332، ع: 30: س248، ع33 : س328. نقلا عن رشيدة شذري معمر، العلماء والسلطة، (رسالة ماجستير)، ص: 82.

[2] - Devoulx, Tachrifat, p : 51.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، ص، ص: 136، 137.

[4]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص: 136.

وقد كانت الدولة تخص العلماء من أبناء البيوتات الكبرى بمرتبات معتبرة كالشيخ الطاهر بن عبد القادر المشرفي، إذ نقله الباي حسن للتدريس بمدينة وهران، فكان يدرس بها في حدود 1240ه/ 1824م، وخصص له مرتبا شهريا معتبرا " فقد كان مرتبه الشهري عنده على تدريس علم المعاني والبيان ستون دينارا من الذهب يأخذها على مختصر السعد فقط، ومرتبه على تدريس النحو والتصريف والفروع الفقهية لا أدري كمية عدده"[2]. ولا شك في أن مرتب كهذا هو استثناء للعلماء من أبناء البيوتات البارزة.

وبالاستناد على دراسة المنور مروش لا توجد تركة قاض أو مفتي في مدينة الجزائر تقل عن (4.000 رد)، لكن يجب التذكير بأن هذه المناصب العليا كانت دائما بيد بيوت العلم الوراثية التي لها أيضا ممتلكات متوارثة.

إذ كان هناك تباين كبير بين متولي الوظائف الدينية العليا القضاء، الفتيا وكبار العلماء المدرسين، وبين أصحاب الوظائف الدينية والعلمية الأخرى، فالنخبة في هذه الأوساط هي أقلية صغيرة. وكان القضاء والأحباس لهما طابع « مؤسسة وطنية » أي أن لها فروعا في كل أنحاء القطر تابعة للسلطة المركزية، وفي كل هذه المؤسسات كانت أقلية ميسورة تحتل أعلى المناصب وأغلبية فقيرة أو متوسطة الحال. وكان خدام المحاكم والمساجد والمدارس والزوايا والأحباس يعدون بالآلاف، وبينهم من يعيش في حالة فقر[3].

ويبدو من المستحيل تقريبا التحديد المضبوط للدخل السنوي لأصحاب المناصب العليا، فالمفتي كان له راتب شهري، وكان يتقاضى علاوات كخطيب بالجامع الأعظم، وله مكافآت شهرية لحضوره بقصد الإشراف في اجتماعات وكالات الأحباس. كذلك كان يتقاضى مكافآت كمدرس في الجامع الأعظم، وله عوايد بمناسبة الأعياد الدينية تقدم له نقدا وعينا.

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص: 137.

[2]- أبو حامد المشرفي، « رسالة في الرد على أبي راس » مخ، ص: 4.

[3]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص: 333.

أمَّا القاضي فكان عموما يأخذ عُشر قيمة المخلفات وغيرها من العقود التي يشرف عليها، ولكن كان يشاركه في هذا العشر غيره من العدول والكتاب والخدام إلخ. وكان له رواتب وعلاوات شهرية مرتبطة بحضوره الضروري في الإشراف على بعض المهام الإدارية ذات الطابع البلدي.

وقبيل الاحتلال الفرنسي، كان مجمل ما يتقاضاه هؤلاء الموظفين الكبار يقدر بحوالي: (200 إلى 250 رد) في الشهر، أي ما يوازي عشر مرات الأجر الشهري للعامل اليدوي. لكن إذا كان هذا هو كل ما يكسبه شخص له أهمية مفتي. فيحق إذن أن نقول مع ابن خلدون إن خدمة الدين لا تُثري صاحبها.

وهناك مثلا مخلفات قيمتها بين (100 و300 رد) تخص المعلمين في الكتاتيب وخدام الزوايا. وفيما بين (300 و1.000 رد)، نجد تركات العدول، ووكلاء بعض الأضرحة والزوايا وبعض الشيوخ. وفيما بين (1.000 و2.000 رد) تخص مخلفات بعض الشيوخ والأئمة في المساجد الجامعة الكبرى، وكذلك بعض من لهم صفة الخوجة، وربما لهم أيضا دكان وحرفة معينة. كذلك كان بعض أهل العلم يفضلون الحرف التي توفر مداخيل كبيرة مثل تاجر حرير أو رايس أو مداخيل متوسطة مثل حرف تسفير الكتب، والدباغة وصناعة السروج وقهوجية وصباغة ... إلخ[1].

وهكذا نلاحظ أنه من أعلى إلى أدنى السلم الاجتماعي، كانت الحدود غير مغلقة تماما بل هي أحيانا ممرات بين مختلف النشاطات[2]، و" تُطرح مشكلة الملكيات غير المقدرة ... وهي تشمل بالأخص الممتلكات المحبسة، وأحيانا كانت الممتلكات مشاعا باتفاق بين الورثة "[3].

ومن النتائج التي توصل إليها مروش في دراسته للتركات :" أنه داخل أكبر العائلات الحضرية المتوارثة للعلم والمناصب السامية والتجارة الخارجية ومصاهرات البشوات

---

[1]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص: 334.

[2]- المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص: 335.

[3]- المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص: 273.

والبايات... إلخ كانت توجد فروع فقيرة نسبيا تمارس وظائف صغيرة أو مهنا متوسطة، ودون المتوسطة "[1].

لقد أوردنا الأجور المرتبطة بالوظائف حتى نوضح الصورة أكثر فيما يخص الامتيازات المادية من جهة، والمستوى المادي للعلماء الموظفين في القضاء والفتيا والتعليم وغيرها.

– المبحث الخامس: الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية

تنصب مجمل نظريات علماء الاجتماع على أنَّ الحالة المادية للعلماء ورجال القلم تكون متدهورة بالمقارنة مع رفاهية أهل السيف، وأبرزهم ابن خلدون الذي ينظر إلى العلماء بنظرة المؤرخ الاجتماعي حين يقول بأنَّ:" القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والآذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب"[2]، وبالنسبة للعهد الذي ندرسه يؤكد المنور مروش على أننا إذا أخذنا متوسط كل تركات علماء الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نصل إلى نفس النتيجة التي وصل إليها ابن خلدون[3].

إنّ فئة أصحاب القلم لم تكن على العموم حائزة على ثروة مادية كبيرة، ومستوى الثروة العام لدى أصحاب القلم يصنفهم في الفئة الدنيا من الشرائح المتوسطة إذا وسّعنا مفهوم هذه الفئة إلى كل من يحترفون القلم، ابتداء بمن يعلم القرآن في الكتاتيب، وانتهاء بكبريات الأسر العلمية المتوارثة في أعلى المناصب منذ قرن[4].

ولكن هناك فوارق شاسعة بين ثروة "بيوت العلم" أمثال قدورة، وكرواش، وآقوجيل في الجزائر، وبن الفكون وبن باديس وبن جلول في قسنطينة الذين ينتمون أبا عن جد

---

[1]– المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص: 340.

[2]– مقدمة ابن خلدون، ص: 374.

[3]– المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج1، ص: 328.

[4]– المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص، ص: 327، 328.

إلى النخبة الحاكمة، وبين معلمي الكتاتيب القرآنية[1]، ذلك أن البيوتات التي ينحدر منها هؤلاء حائزة للجاه و« الجاه مفيد للمال »[2]، كما هو في الفكر الخلدوني.

لاستكمال الصورة التي قدمها ابن خلدون وتطبيقها على الواقع في العهد العثماني، يمكن القول أن القائمين على الدين لا تعظم ثروتهم، لكن علاقتهم بالحكام والجاه والتجارة والمناصب العليا، تعلي ثروة رجال الدين، كما أنَّ كبار مؤسسي بيوت العلم في الجزائر جمعوا ثروات طائلة[3].

وإذا أردنا استجلاء حقيقة الحالة المادية للبيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني في ظل هاتين نظريتين، علينا ابتداء أن نفرق بين العلماء الذين افتقدوا إلى الجاه، وبين العلماء الذي تمتعوا بجاه عريض، والذين ينحدر جلهم من بيوتات علمية، وربما كانوا هم من أسسوا لبيوتات علمية بفضل ذلك الجاه. وفيما يلي سنعرض للحالة المادية لبعض البيوتات والأسر العلمية التي مكنتنا مصادر من الاطلاع على أوضاعها.

(أولا)– الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية بدار السلطان:

(1)– الوضع المادي لأسر علمية مختلفة:

كانت البيوتات العلمية الكبرى ثرية، فقد كانت مثلا ثروة المفتي سعيد بن إبراهيم قدورة واسعة جدا جمعها بالتجارة والمشاركة في امتلاك سفن الغزو البحري (القرصنة)، وعمليات تصدير السلع التي تأتي بها الغنائم البحرية[4]، ويؤكد ابن المفتي ذلك بقوله:" كان قدورة صاحب ثروة، وكانت له أرض حراثة ... وكان جماعة من أهل البلد يشاركونه في معاملاتهم التجارية"[5]. و لم يكتف ابن المفتي بذلك بل يقدم سببا مهما لتعاظم ثروة قدورة الذي عاش في القرن الحادي عشر (17م)، وهو القرن الذهبي للتجارة، ووفرة غنائم

[1]– المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص: 328.

[2]– مقدمة ابن خلدون، ص: 370.

[3]– المنور مروش، المرجع السابق، ج1، ص: 329.

[4]– المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص:330؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 362.

[5]– ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص، ص: 97، 98.

البحر بالجزائر بقوله :" وكانت في ذلك الزمان البضائع رائجة، والدراهم كثيرة، والغنائم البحرية تباع في البادستان"[1].

ويمكن أن نلاحظ تأثير الجاه في ثروة سعيد قدورة، فلا شك في أن إقدام التجار على مشاركته، هو لجاهه ومكانته الروحية في المدينة، سيما وأنه لم يكن سليل أسرة ثرية، بحيث " عمل والده إبراهيم بن عبد الرحمن التونسي أصلا خبازا قرب زاوية سيدي الأكحل قرب باب عزون"[2]. وعليه فإنّ الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة هو مؤسس هذا البيت وصانع مجده العلمي، وقد رسخ مكانته منذ توليه منصب الإفتاء المالكي بالجامع الأعظم أهم الجوامع المالكية بالجزائر، وبقائه به مدة طويلة جدا قل أن يمكثها عالم في منصب كهذا، وهي تتجاوز الثلاثة عقود. وهكذا حصل سعيد قدورة جاها ونفوذا كبيرين، وجمع بين كونه من أكابر العلماء، وفي الوقت نفسه من كبار التجار الأثرياء.

ومن الأسر العلمية المعروفة بمدينة الجزائر أسرة المنجلاتي، التي تولى عدد من أبناءها مناصب علمية رفيعة، ولكننا لا نملك أي معلومات عن مستواهم المادي، عدا إشارة واردة عرضا في إحدى الوثائق سجلات المحاكم الشرعية تشير إلى امتلاك القاضي عمر المنجلاتي بستانا بفحص مدينة الجزائر[3].

أما البيوتات العلمية التي تسكن خارج مدينة الجزائر منها بيت آبهلول المجاجي، وقد كانت زاويتهم من الزوايا الثرية[4]، إلا أننا لا نملك نصوص تاريخية مهمة عن المستوى المادي لبيت المجاجي خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، أما خلال القرن الثالث عشر فتؤكد الكتابات على امتلاكهم " ثروة عريضة وجاه ورياسة "، ولا شك أنهم مدينون بالقسط الأكبر من مكانتهم لدى السلطة وتحصيلهم للجاه والثروة من انتسابهم للأشراف، ولأهل العلم، ولخدمة التصوف.

---

[1]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 98.

[2]- ابن المفتي، المصدر نفسه، ص: 95.

[3] - س. م. ش. ع: 82، و: 26.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص: 243.

(2)- الوضع المادي لبعض بيوتات وأسر مدينة الجزائر من خلال التركات:

تذهب المصادر التي ترجمت للشيخ سعيد دورة له إلى أنه توفي في سنة 1066ه/ 1655م[1]، إلا أن رسوم المحكمة الشرعية التي تخص مخلفاته مؤرخة في سنة 1077ه/ 1666م[2]. وقد بلغت قيمة تركته:89.196 دينار خميسي (دخ)، وهي تقابل: 18.576 قرش إشبيلي (ق أ) [3].

وفي سنة 1121ه/ 1709م ترك العالم محمد آقوجيل دارا، وجنانين، وكثيرا من الكتب، وكانت قيمة المخلفات: 6.822,50 رد [4]. كذلك الأمر بالنسبة لزوجة ابن البرادعي التي تركت مخلفات تبلغ عشرات الآلاف من الريالات، فأسرة البرادعي كانت من "بيوت العلم توارث أبناؤها مناصب عليا في الإفتاء والقضاء... إلخ لعدة قرون"[5].

وعلى منوال سعيد قدورة كان العلماء الأثرياء[6] في القرن السابع عشر يستثمرون أموالهم في التجارة الخارجية وفي المشاركة في امتلاك سفن القرصنة. وهذا ما يفسر مستوى الثروة العالي الذي لا مثيل له في القرون اللاحقة، والذي تعبر عنه الوثائق المتوفرة، واستنادا على دراسة المنور مروش فإن من جملة أعلى الثروات في تلك الفترة، كانت ثروات العلماء أربعة (4) من مجموع إحدى عشر (11) من أعلى الثروات. ومتوسط مخلفات هؤلاء العلماء الأثرياء الكبار يتجاوز (68.000 دخ)، أي أنهم كانوا يشكلون أكثر من ثلث أعلى الثروات في ذلك الوقت. وخمسة عشر (15) من هذه التركات كانت تزيد عن (10.000دخ) دون اعتبار العقارات وغيرها من الأملاك المحبسة.

---

[1] -ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي، ص: 98.

[2]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج1، ص:330.

[3]- المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص:272.

[4]- المنور مروش، المرجع نفسه،ج1، ص: 332.

[5]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج1، ص: 347.

[6]- مثال: كان العلامة حمدان بن عثمان خوجة، عالم كبير، وشخصية سياسية من طراز عال، وتاجر عالمي واسع الثروة. كان مليونير وقته. ينظر: المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص:331.

إنَّ البيوتات العلمية والدينية التي احتفظت بمستوى كبير من الثروة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هي التي حافظت على مركزها في تولي المناصب العليا والجاه الكبير المتخلف من قيمة مؤسسيها قدورة، آقوجيل، الثعالبي، أحمد بن يوسف، محمد الشريف الزهار... إلخ[1].

وبما أنَّ المنهج الذي اعتمدنا عليه منذ بداية البحث يقضي بالتفريق بين البيوتات العلمية والدينية، فإن اثنان فقط من الأسر السابقة نعتبرها علمية محضة، وهي قدورة وآقوجيل، في حين نعتبر بيوت: الثعالبي، المليانى، الزهار أسرا دينية خدمت الجانب الروحي لا العلم بالمعنى الدقيق لكلمة العلم، وعليه فإننا مجبرين على النظر مرة أخرى في النتائج التي توصل إليها مروش، وتكييفها مع بحثنا والوصول بنتائج تخدم بحثنا بهذا المعنى. فنجد أن مستوى ثروات بيوتات العلم كان يشكل نسبة تقرب من ربع الثروات ذلك العصر.

وقد كان العلماء المنحدرين من بيوتات وأسر علمية يتوارثون مناصب الإفتاء والقضاء والخطابة والإمامة بالجوامع الكبرى، وإلى جانب التمتع بريع العقارات المحبسة عليهم، وعلى المؤسسات التي تحمل اسم أجدادهم، وهذا كله ساهم في تزايد ثرواتهم. ومما ساهم أيضا في احتفاظهم بمكانتهم صلات مصاهرة التي جمعتهم بالدايات والبايات والخزنجية وغيرهم من كبار رجال الدولة، وكذلك مع التجار الأثرياء.

ورغم كل هذه العوامل المساعدة لثروة العلماء لم تبق في المستوى الذي كانت عليه في القرن 17م إلا نادرا، بل صارت في مستوى متوسط لائق أكثر، وفيما عدا حالة واحدة في بداية القرن 18م فإن العلماء الذين تتجاوز تركاتهم (5.000در) هم إما من بيوت العلم الوراثية أو يحتلون مناصب عليا الإفتاء، القضاء، وكالة الأحباس... إلخ[2].

(ثانيا)– الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية ببايليك الشرق:

---

[1]– المنور مروش، المرجع نفسه، ج1، ص، ص:331، 332.

[2]– المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص: 333.

كانت بعض الأسر تتميز بالثراء الغزير، ومن المعروف أن أسرة الفكون، وأسرة ابن آفانوس، وأسرة ابن باديس كانت من العائلات الغنية. وقيل أن عمر الوزان في قسنطينة كان صاحب ثروة[1]، ولكننا نعرف من خلال "منشور الهداية" أن والده كان قمرقا عن أحد أبواب قسنطينة، ومن يتولى هذا العمل ليس من الأثرياء، ونعلم رفض الوزان تولي وظائف لدى السلطة العثمانية ومنها القضاء، وعليه يمكن أن تكون مصاهرته لأسرة ابن آفانوس العلمية الثرية في قسنطينة ساهم في الرفع من ثروته، إلى جانب الجاه العريض الذي حصل عليه بالمدينة لجمعه بين التفوق في العلم، واشتهاره بالصلاح.

(1)- الوضع المادي لأسرة الفكون:

كانت أسرة الفكون تتمتع بنفوذ روحي (الدين والصلاح والعلم) قبل توليها وظائف الجامع الكبير ومشيخة الإسلام وإمارة ركب الحج، كما كانت من البيوتات الثرية، بحيث كانت لها أملاك كثيرة من العقارات في قسنطينة والأراضي في الأرياف، و لم يكن ذلك الغنى يعود إلى العهد العثماني بل يعود إلى عهود سابقة غير محددة[2].

إنَّ النفوذ الروحي والمادي قديمان في بيت الفكون، والجديد الذي طرأ عليه فجعله يصعد إلى القمة، هو تحالفه مع العثمانيين منذ القرن العاشر الهجري، وبما أنّ بيت الفكون كان غنيا قبل دخول العثمانيين، وقبل إشرافه على أملاك الجامع الأعظم، هذا يعني أنها لم يحظ بالثروة لخدمته العثمانيين، وإنما زادت ثروته، وازداد جاهها علوا في نظر الناس، نتيجة مباشرتها للوظائف الجديدة، وذلك أنها بالإضافة إلى أوقاف الجامع الكبير كانت تحكم بما تراه صالحا في الأمور العامة ولا أحد يعترض عليها بما في ذلك موظفو الجامع والقضاة،

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 390.

[2] - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام. ص: 46.

ولا شخص مهما علا قدره. وكان التمتع بهذه الامتيازات يصدر من بشوات الجزائر ومن بايات قسنطينة معا [1].

بلغت عائلة الفكون أوج قوتها المادية والمعنوية في عهد عبد الكريم الفكون الحفيد، إذ أصبحت تتمتع بأموال طائلة، وأملاك واسعة ومداخيل رسمية ودينية[2]. وقد جلبت إليه وظيفة أمير ركب الحج أموالا طائلة أيضا في بلاده، بالإضافة إلى الجاه العريض[3].

تعد رعاية أوقاف الجامع الأعظم مهمة كبيرة ودقيقة، فهي مصدر للرضى والقلق في آن واحد، فمتوليها يتمتع بثروة كبيرة ويحصل من الجاه والنفوذ ما يجعله مرمى السهام، وذلك أن الجامع به موظفين كثر، فعلى راعي الأوقاف أن يضبطهم ويمنح لكل منهم ما يستحقه من المال، وإذا غفل عنهم استغلوها، وإذا سنحت لهم الفرصة يشنعوا عليه، على الرغم من أن الأوامر الصادرة إليه من الباشا تعطيه ثقة مطلقة في التصرف ولا يعترض أحد على حكمه، ولا موظفو الجامع، ولا القضاة ولا السلطة المحلية[4].

وأهم مصدر لثروة عائلة الفكون أوقاف الجامع الكبير، الذي كانوا يتولون فيه الإمامة والخطابة منذ القرن العاشر الهجري، وكانت للجامع الأعظم أملاك كثيرة عقارا وغير عقار داخل قسنطينة وخارجها، وكانت الزكوات تدفع إلى الجامع أيضا، وتنص النصوص على أن المتولي هذه الأملاك، يتصرف فيها بما يراه صالحا، فيصرف منها على مصالح الجامع احتياجاته من بناء وزيت، ودفع أجور القائمين عليه كالمؤذنين والمنظفين والمدرسين والطلبة وغيرهم، وإذا بقيت بقية فهي له يتصرف فيها كما يشاء[5].

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص، ص: 53، 54.

[2] – أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه لمنشور الهداية لعبد الكريم الفكون، ص: 7.

[3] – أبو القاسم سعد الله، مقدمة تحقيقه للمصدر نفسه، ص: 12.

[4] – أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 72.

[5] – أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام، ص: 73.

ويجب أن نفرق في الامتيازات المادية بين ما تحصل عليه العائلة بصفتها قائمة بأملاك الجامع، وما تحصل عليه بصفتها الخاصة، من المعروف مثلا أن الوقف معفى من المغرم، ولكن إذا صدر أمر بإعفاء أملاك العائلة من المغرم فهذا امتياز لها.

كما يجب أن نفرق بين أوقاف الجامع وأوقاف العائلة، ذلك أن الناس كانوا يدفعون الزكاة للجامع لا للعائلة، وكانوا يوجهون أوقافهم للجامع، وعلى الرغم من أن استفادة العائلة من فائض أوقاف الجامع بعد أداء ما عليها للمستحقين، ولكن الأوقاف كانت تظل خارج أملاك العائلة، وهي من أملاك الجامع ولا يجوز اعتبارها ملكا للعائلة بأية حال.

وتشير وثائق القرن العاشر (16م) إلى ثروة بيت الفكون[1]، وفي « نوازل الفكون» نازلة[2] كتبت من طرف الشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون (ت 1045ه) تثبت امتلاك بيت الفكون لقطعة أرض، ويبين كيفية حصولهم عليها، كتبت هذه النازلة اثر منازعة حول هذه الأرض نقتطف منها هذه الأسطر:" أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن الفقيه أبي العباس قام عليَّ (محمد الفكون) في أرض بيدي مخلفة عن والدي عبد الكريم المذكور، وكان والدي المذكور هو المتصرف فيها مدة حياته بالحرث والتحريث، وحائزا لها، ومنسوبة إليه، وقاسم فيها من له معه بها شركة، وابتاع منه بعد المقاسمة ما خلص له منه بالقسمة من غير نكير عليه من أحد مدة حياته في ذلك، وتوفي والدي – رحمة الله عليه– وقسمت تركته في الأراضي المذكورة وتصرف أولاده بعده كتصرفه، الذين من جملتهم كاتبه محمد المذكور..." [3] إلخ السؤال، وقد أكد محمد الفكون على حيازته هو ووالده للأرض لأزيد من أربع وعشرين عاما.

(2)– الوضع المادي لأسرة الورثيلاني:

---

[1]– يذكر فايسات أنه وجد وثيقة تعود إلى سنة 929هـ (1520م) تثبت أن عائلة الفكون كانت لها أملاك طائلة في قسنطينة نفسها وفي الريف. أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص: 46، هامش 1.

[2]– هذه النازلة طويلة. ينظر: محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ، ص– ص : 128– 137.

[3]– محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخ، ص، ص: 128، 129.

ليس لدينا وثائق حول المستوى المادي لهذه الأسرة إلا إشارات واردة في "رحلة الورثيلاني"، ومنها أن جده الحسن لم يكن يقبل الهدايا، ومنها أن أسرة الورثيلاني كانت تمتهن الزراعة كما هو الحال في مجتمع الريف، وقد أشار الورثيلاني إلى امتلاك جده حسين للزيتون[1].

وقد كان لهذه الأسرة زاوية[2]، والمعلوم أن الزوايا في الريف كانت محلا لدراسة العلم، ولإقامة الطلبة طيلة مدة دراستهم، وعلى أصحاب الزاوية إعالة هؤلاء الطلبة، ولدينا نص للورثيلاني يؤكد فيه أن نشر العلم في وطنه يستدعي التكفل بالطالب، ولهذا قرر في فترة من الفترات الاستقرار بتونس لنشر العلم:" تركت أهلي هناك... ناويا الرجوع إليها والتوطن فيها رغبة في نشر العلم وبثه، لكثرة الآخذين فيها مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين، بخلاف وطننا فإنه لا بد من كلفة الطلبة والإقامة بمؤنهم، وإلا انقطع مادة العلم" [3]. وقد كان للزوايا أوقافا تعتمد عليها للنفقة على الطلبة والمدرسين بها، وقد كان مستوى المادي لأي أسرة مرتبط بأوقاف زاويتها.

وفي رحلة الورثيلاني عدة إشارات تبين أن أسرة الورثيلاني لم يكن من الأسر الثرية، فلما قيل لصاحب الرحلة عن الحج قال:" مع ذلك أني فقير والركب في البر" [4]، وهناك إشارة أخرى وردت في سياقه حديث الورثيلاني عن حجه رفقه بعض نساء بيته في قوله :" لأني بعيالي ثلاث نسوة زوجة لابني وزوجتان لي، مع كثرة الجماعة وقلة ذات اليد، وكثرة البغال إذ كان معي خمسة "[5]. وفي نص آخر:" ونحن والحمد لله ذهبنا بأهلنا، و لم نر ما يُخل بديننا، ومع ذلك قد علم قلة زادنا، وضعف حالنا..." [6].

---

[1]- الورثيلاني، رحلة الورتلاني، ج1، ص:89.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 53؛ ج2، ص: 718.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 781.

[4]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج1، ص: 348.

[5]- الورثيلاني، الرحلة، ج1، ص: 275.

[6]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 523.

بل وصل الأمر بالورثيلاني إلى أنه عزم على المجاورة لقلة ما بيده، فقال أهل الركب:" إنْ خصّه ما يوصله جمعنا له ما يبلغه إلى وطنه بل ما يغنيه علما منهم بأن الذي حملني على الإقامة قلة الزاد... فقلت والله لا لأقبل درهما من أحد إذ لا أحمل المنة، وغاية أمري أقبل السلف لأني ملي في بلدي" [1].

وقال الورثيلاني متحدثا عن عبد الرحمن المجدوب بأنه كان :" يحبني في صغري، ويتوسم في الخير العظيم، ولم يمت حتى رأى النبي -ﷺ- مرارا فقال لي أن الله أورثك سر هذا السيد، فقلت له: وكذا مالـــه، فقال: لا، ففهمت أن كل من كان من آله -ﷺ- يرزق كفافا لا وسعا، ومال هذا السيد يكاد يكون مال عبد الرحمن بن عوف لأنه من الفيض، وليس بكسبي أصلا"[2].

رغم أن بعض النصوص تُشير إلى قلة ذات اليد في الرحلة فلا يمكن وصف أسرة الورثيلاني بأنها أسرة معدمة، بل من الأليق وصفها بأسرة متوسطة الحال، لما ورد في الرحلة قوله:" لأني ملي في بلدي" [3]، كما أن إقباله على الحج ثلاث مرات بعضها بأهل بيته يدل على أنه كان له ما يكفيه في حله وترحاله، علما أن رحلة الحج في الحالات العادية تستغرق أكثر من سنة، مما يعني أن الحاج عليه أن يأخذ معه مؤونة له ولدوابه التي يحمل عليها، ومالا يكفيه لأكثر من سنة، وعليه أن يترك لأسرته ما يغنيها عن الطلب في غيابه لتلك المدة.

ومن أكثر بيوتات بلاد زواوة ثراء بيت ابن القاضي وآل المقراني، وذلك ما أشار إليه المنور مروش في النص الموالي:" إن هذه الأسر الحاكمة محليا كان كثير منها مثل أحفاد بن القاضي والمقراني تنتمي إلى بيوت العلم، وتؤسس حكمها على هذه السلطة المعنوية،

---

[1]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 611.

[2]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 720.

[3]- الورثيلاني، المصدر نفسه، ج2، ص: 611.

وعلى تملكها لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية. وقد كان لها دور كبير في تثبيت ودوام الحكم العثماني في الجزائر بما لها من سلطة معنوية وجاه، وثروة وقوة عسكرية محلية"[1].

(ثالثا)– الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية بباياليك الغرب:

قبل التطرق للوضع المادي للمشارف، نشير إلى أن بيت المشارف لم يكن بيتا واحدا بل عدة بيوت، ولهذا فليس هناك شك من أن الوضع المادي اختلف من بيت إلى آخر، ويبدو أن أغلب بيوتاتهم كانت ميسورة الحال، سيما إذا علمنا أن إحدى الاعتبارات التي ترفع من المستوى المادي لأي أسرة علاقتها مع السلطة الحاكمة، وقد كان للمشارف علاقات وطيدة مع بايات الغرب الذين قربوهم وولوهم الوظائف الدينية المختلفة كالفتوى والقضاء والتدريس.

ويشير أبو حامد المشرفي إلى الوضع المادي للمشارف بقوله:" حازوا الرياسة... الدينية والدنيوية، فرياسة الدين حازوها من بيت سيدي عمرو التراري... ورياسة الدنيا حازوها بالثروة والطول والجاه والنجدة ومقابلة الملوك، ومجادلتهم إياهم يعرفها الخاص والعام" [2]. أما أسرة أبو حامد المشرفي فكانت ميسورة الحال، ولهذا نجده يقابل أوضاعه الجديدة بالمغرب بكثير من التذمر، وذلك ما عبر عليه في احدى قصائده قائلا[3]:

وكنا أهل ثروة في القوم ولنا شأنا عاليا في السَوْم

لنا أصـــول وعـــقـــار ولنا جمـــال زانه وقار

وهجرنا العقار والوقارا وتركنـــا الحائط والجدار

وفي ترجمة أبو حامد المشرفي لأبي النظافة السيد الطاهر بن عبد القادر المشرفي قال:" وقد جبره ملك الأتراك على القضاء بعد إباية منه وامتناع" [4]، وإجباره على القضاء دليل على مكانة أسرة لمشارف، وعلاقتها القوية بباياات الغرب، ثم قال :" رتب له إمام الوقت

---

[1]– المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني. ج1، ص: 330.

[2]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب الوهاجة" مخ، ص: 24.

[3]– عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر، ص:94.

[4]– أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب" مخ، ص: 19.

ستين (60د) دينارا ذهبا شهرية على قراءة التلخيص فقط، وله ما للعلماء في تدريس الفقهيات والرقايق النحوية" [1]. وهذه المرتبات المرتفعة تخص بها السلطة كبار العلماء دون غيرهم، وهذا يساهم بلا شك في الرفع من مستواها المادي.

تشير أحد النصوص إلى أن مصطفى بن عب بن البقرة " كان من أهل الترفه في مأكله ومشربه وملبسه..."، ثم " سلك مسلك الناسكين العارفين... وأعرض عن الدنيا وعن أهلها وعن والده ووالدته وزوجته مع ما أعطى الله لوالده من المال والكسب والخيل المسومة والأنعام والحرث" [2]. وفي هذا النص يؤكد ممارسة هذا البيت للفلاحة وتربية المواشي.

وقد كانت بعض بيوتات المشارف تمتلك زوايا، وفي هذا دليل على أنها ميسورة الحال، لأنهم كانوا ينفقون على طلبة الزاوية وزوارها من مالهم الخاص. وقد أورد أبو حامد خبرا يدل على عدم قبول عبد القادر المشرفي أعطية الحكام :" حكي لنا أن الباي محمد المذكور كان يبعث له صرة من الذهب ذات عدد كثير إعانة له على رزق الطلبة فيردها عليه... "[3]. ويؤكد تلميذه أبو راس مجانبته لرجال الدولة بقوله:" قليل التردد إلى الأمراء، فضلا عمن دونهم من القواد والوزراء، ناهيك من نزاهة ابتدعها، حتى أنهم طرحوا عليه خلعة سنية طرحها..." [4]، ومما قاله فيه تلميذه أبي راس في شهادته للمشارف:" لم تزل الملوك تستدعيه إلى صدور المجالس وتعرض عليه نفائس المأكل والمراكب والملابس، فيعرض عن ذلك"[5].

ويذكر أبو حامد المشرفي أنّ :" من البيوت الشهيرة في المشارف بيت أولاد سيدي ابن عبد الحاج، فهم في هذه القبيل أعلى الناس قدرا، وإذا كان القبيل ذاتا فهم الرأس له، بيتهم بيت عز وشرف، يتنافسون في الجود والكرم من عهد أسلافهم الكرام، وزاويتهم

---

[1]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 20.

[2]- أبو حامد المشرفي، المصدر نفسه، ص: 18.

[3]- أبو حامد المشرفي، "رسالة في الرد على أبي راس" مخ، ص، ص: 11، 12.

[4]- أبو راس الناصري، فتح الإله، ص: 53.

[5]- ابن مصطفى المشرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص، ص: 19، 20.

مشهورة للضيوف يرد عليهم الملك والمملوك والغني والصعلوك... لا يتجرأ متجرأ عليهم ولو جاوزت مرتبته الثريا من شدة العصبية فهم أولوا قوة وأولوا بأس شديد ... ولا يخلو بيتهم من علم"[1].

أما الوضع المادي لبيت السيد عبد القادر بن المختار، فرغم أن دينيزن يذهب إلى أن أسرة الأمير "لم تكن أسرته غنية"[2]، ولكننا نشك في الأمر لعدة إشارات منها أن محي الدين تبرع بكيس مليء بالذهب لضريح عبد القادر الجيلاني عند زيارته له [3]، وقد ذبح بمناسبة عودته من الحج خمسة عشرة بقرة، وثمانون شاة[4]، وهذا الرقم له دلالته إذ لا يمكن لأسرة ذات مستوى مادي متواضع أن تنفق كل هذا الإنفاق في ولائمها، بغض النظر عما تتمتع به من كرم الضيافة.

وعرف عن أحد أعيان هذا البيت، وهو الإمام السيد محمد بن عبد القادر بن المختار، المعروف بشايب ذراع " سعة المال وعظم الجلال وكثرة العقار، واتساع الحرث والحيوان، وبعد الصيت والجمع بين رياسة الدنيا ورياسة الآخرة، بشيد القصور وقصر المشيد المشيدات بالبادية"[5].

ويبدو أن أسرة الكتروسي أولاد المهدي فيما بعد فقد كانت ميسورة الحال، إذ كانت تملك بساتين كما كان لها أحباس خاصة بها، وقد حصرت السلطة فيها وظائف دينية مهمة، وأعفيت من دفع الضرائب التي كانت ترهق كاهل الجزائري لا سيما في الفترة المتأخرة من الوجود العثماني.

---

[1]- أبو حامد المشرفي، "ياقوتة النسب"، مخ، ص: 24.
[2]- ا.ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر. ص: 20.
[3]- هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر. ص: 69.
[4]- هنري تشرشل، المصدر نفسه، ص، ص: 71، 72.
[5]- الطيب بن المختار، القول الأعم، ص: 336.

أما بيت ابن الشارف المازوني، فقد كانت من البيوتات الثرية، إذ تمتع أحد أبرز رجال هذا البيت وهو الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني بوجاهة كبيرة عند الناس والحكام، وكان له أملاك من بساتين، وأرض حراثة نحو 800 هكتار، وديار[1].

وفيما يخص الوضع المادي لبيوتات تلمسان، فقد قيل أن سعيد المقري كان صاحب ثروة[2] ، ويرجح أن يكون محمد المقري بمدينة الجزائر صاحب مال، وقد أوردنا عقد زواج ابنته رقية بعبد الرحمن المرتضى، وحصولها على صداق مرتفع جدا يؤكد انتماءها إلى أسرة ثرية.

ومن البيوتات البارزة في تلمسان بيت اليبدري، الذي حمل في أواخر العهد العثماني اسم أحد أبرز علمائه وهو محمد بن سعد، فعرف ببيت أولاد ابن سعد، وقد كان هذا البيت من البيوتات الثرية، وقد ذكرهم الشيخ عبد الحفيظ الفاسي في النص الموالي:" بيت أولاد ابن سعد كان بتلمسان بيتا عظيما علما، ومجدا، وثـــــــــروة، تعدد فيهم العلماء والفضلاء آخرهم ... العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن سعد الشهير" [3].

(رابعا)– أوقاف البيوتات العلمية:

نظرا لأهمية الوقف في استقرار الوضع المادي للبيت، أقبل أهل البيوتات كغيرهم في وقف أراضهم أو بساتينهم، أو منازلهم لصالح أعقابهم، كما أوقفوا أوقافا أخرى لجهات خيرية مختلفة. وأشهر تلك الأوقاف أوقاف بيت الفكون.

(1)– أوقـــاف بيت الفكون:

يتوفر سجل صالح باي للأوقاف على عدد من العقود، كان أبناء الفكون طرفا فيهـــا، من ذلـــك عقـــد المعاوضـــة[4] الـــذي يعـــود إلى أواخـــر جمـــادى الأولى مـــن عـــام

[1]– وثيقة مؤرخة ب: 9 فيفري 1910.

[2]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 390.

[3]– عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي، معجم الشيوخ، ج1، ص: 52.

[4]– المعاوضة هو تبادل وقف بوقف آخر.

1196هـ/1781م[1]. والوقف المقصود هنا يتعلق بوقف ذري أو أهلي خاص بأبناء بيت الفكون، وفي هذا العقد إشارة إلى عدد من أفرادها :" وثبت أنه خلص للفقهاء بني الفكون: وهم الأصيل الأبر الحاج الناسك المعتمر السيد عبد الرحمن المذكور، وابن أخيه الأفضل المرحوم السيد عبد الكريم، وهو الفاضل السيد محمد، وقريباهما وهما سي حسن بن المرحوم السيد عبد الحليم الفكون، وسي أحمد بن المرحوم السيد الحاج محمد...".

كان صالح باي يمتلك ثلاثة أثمان (8/3) من الوطن المعروف بذراع شنيتي، كما كان لأبناء الفكون المذكورة أسماؤهم وغيرهم يمتلكون خمس قطع أراضي على سبيل الوقف، فتبادل معهم صالح باي، وبقيت ثلاثة أثمان من الأرض التي تبادلوها مع صالح باي الواقعة ضمن الوطن المعروف بذراع شنيتي وقفا عليهم.

ثم بين الأراضي التي أصبحت ملكا لهم بموجب هذه المعاوضة كقوله:" وخلص لهم جميع الأراضي المعروفة بأبي وجهين من أراضي سيدي محمد الغراب الخلوص التام... وخلص لهم جميع الأرض المعروفة بمشوار مسعود قديما، والآن تعرف بأم الطرق الخلوص التام".

إلى أن قال:" ثم بعد أن كان ذلك كذلك أراد سيدنا صالح باي أبقى الله وجوده، وبني الفكون المذكورون عقد المعاوضة فيما بينهم فيما ذكر من الأراضي، لما حصل للموقوف عليهم من الغبطة في المعاوضة والمصلحة في ذلك، واستشاروا من له الحكم الشرعي وفقه الله على ذلك، وذكروا أنّ قيمة حظ الوطن المذكور تزيد على أراضيهم بكثير، وبعد ثبوت ذلك لديه أذنهم في المعاوضة، فحينئذ أشهد سيدنا صالح باي أعزه الله، وأشهد السيد عبد الرحمن وأقاربه المذكورون أنهم عقدوا المعاوضة المذكورة فيما بينهم، بأن اقتصر سيدنا صالح باي أيده الله لنفسه بالخمسة أراضي المذكورة التي هي لبني الفكون، واقتصر السيد عبد الرحمن وأقاربه بثلاثة أرباع الوطن المذكور، وحاز كل واحد منهم ما عين له عوضا عما

[1] – بداية هذا العقد ناقصة.

خرج من يده، وصارت الأراضي الخمسة المحدودة ملكا من أملاك سيدنا صالح باي أيده الله، وصار ثلاثة

أرباع (4/3) الوطن المعروف بذراع شنيتي وقفا من أوقاف بني الفكون المذكورين..." [1].

أمَّا السيد عبد الرحمن بن بدر الدين الفكون الذي أمضى تلك العقود مع صالح باي، فهو رأس أسرة الفكون في أواخر القرن 12ه ومطلع القرن 13ه. وقد كان " الناظر على جانب الضعفاء والفقراء"، أي أوقاف الفقراء، وذلك ما يؤكده العقد المؤرخ بعام 1202ه/1787م [2]، ووكيلا لأوقاف الجامع الأعظم بقسنطينة كما يبينه العقد المؤرخ بعام 1196ه/ 1781م [3].

(2)- أوقاف بيوتات علمية مختلفة:

ساهمت جل البيوتات العلمية في الأوقاف لأنها ميسورة الحال، ولإدراكها أهمية الوقف في الحياة الثقافية وحتى الاجتماعية، من ذلك وقف الشيخ مصطفى الحنفي العنابي، وهذا بعض ما ورد عقده:" الحمد لله بعد أن كان المكرم مصطفى الحنفي العنابي المذكور في الرسم أعلاه حبس ووقف لله تعالى جميع بناء البيوت المذكورات معه الكاينات براس تافورة ابتداء على نفسه وبعده على تلميذه المكرم عثمان التكري المقفولجي ابن عبد الله ينتفع بما ذكر مدة حياته، وبعد وفاته يرجع الحبس المذكور على فقراء الحرمين الشريفين"[4].

أمَّا أسرة بن نيغرو فهي من الأسر الميسورة الحال بمدينة الجزائر، ولدينا وثيقة موضوعها قضية تتعلق ببعض أوقافها، وقد رفعت إلى المجلس العلمي لينظر فيها، نورد جزءا مهما منها لأهميتها :"ادعى... الحاج محمد التاجر ابن الفقيه السيد علي كاتب دار الإمارة العلية كان ابن السيد ... بن نيكرو به شهر في حق والده المذكور، وبحق باقي شركائه بحكم التوكيل منهم له على ذلك. " ادعى أنّ الدارين الكائنتين قرب الجامع الأعظم "لهم ذلك

---

[1]- سجل صالح باي للأوقاف (1185- 1207هـ/ 1771- 1792م). ص، ص: 50، 51.

[2]- المصدر نفسه، ص، ص: 61، 62.

[3]- المصدر نفسه، ص:50.

[4]- س. م. ش، ع: 55، و: 49.

بالتحبيس من أسلافهم، وهم في حوزهم واستقلالهم منذ أعوام عديدة، وسنين مديدة تنف على الثمانية وستين سنة... وقد كانت بأيديهم رسوما تتضمن ما ذُكِر وضاعت من أيديهم وراموا تجديدهم للتوثق بهم " فرفعوا أمرهم إلى العلماء المجلس العلمي، فطلبوا منه الإتيان ببينة كأن يبحث عن تسجيله بسجلات الأوقاف فامتنع ..." [1] إلى أخر القضية.

وقد طرحت هذه القضية على المجلس العلمي، وكان الشيخ علي المانجلاتي مفتيا للمالكية آنذاك، أي خلال سنوات: 1241ه إلى 1243ه.

وبالنسبة للمشارف فقد كان لجدهم الحاج يوسف بن عيسى البوخليلي الشريف، مختط زاوية الكرط. ودفين قرية الكرط أحباسا، وها هو النص الوارد في "تقييد في النسب المشرفي" :" وله أرض محبسة على بنيه الذكور دون الإناث، تقسم عليهم قسم ترتب بشرط من الواقف، فاستولى عليها ظلمة الحشم، فاستخلص بعضها بالفداء، ورجعت للأصل الأول حبسا، وأشار إلى وقفيتها وحدودها الشيخ الكامل السيد عبد الله بن أحمد، وبيد أولاده وثائق على ذلك، وقد حضر الكرايشي بن أحمد أمزيان، ونازع الماسك في أرض تدعى أرض الخيل مدعيا ملكيتها، فثبت أنها من حبس الشيخ المذكور، واصطلح هو والماسك السيد علي بن المشرف"[2].

(خامسا)– الصداق كمظهر من مظاهر الجاه والثراء:

(1)– الصداق بمدينة الجزائر:

يمكن أن نتوصل إلى معرفة المستوى المادي لأسرة ما من خلال مقدار الصداق المقدم لبناتها، ومن خلال مقدار الصداق الذي يقدمه أبناؤها، ويتكون الصداق من مبلغ نقدي، بالإضافة إلى مكونات أخرى عينية كالصوف، القفطان، الحايك، الحزام، الأمة... إلخ[3].

---

[1]– س. م. ش. ع: 119– 120، و: 20.

[2]– أبو حامد المشرفي، "تقييد في النسب المشرفي" مخ، ص: 7.

[3]– غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر، ص: 363.

وقد ورد ذكر المبلغ النقدي في جل العقود بالعملة المعروفة بالدينار الخميسي، وقد قامت عائشة غطاس بإجراء دراسة اعتمادا على عقود الزواج بمدينة الجزائر فوجدت أن قيمة المبلغ النقدي الذي يشمله الصداق يتراوح ما بين أربعة دنانير (4د)، ومائتين وألف دينار (1200د)، وتمثل حالات الحد الأدنى والأقصى نسبة ضئيلة، أما متوسط الصداق فهو أربعمائة دينار (400د) حسب الحالات المرصودة في الوثائق [1].

واشترطت العائلات الحضرية في صداق بناتهن توفير الإماء، بل أن تكون الأمة " من رقيق السودان صالحة للخدمة "، لتشرف على راحة بناتهن، ولتقوم مقامهن في الأشغال المنزلية. وجاء شرط الإماء في أربع عشرة حالة، واللواتي حظين بذلك كن من أسر ذات حسب ونسب. فأربعة منهن كن ينتمين إلى أسرتين دينيتين أسرة الزهار، وأسرة ابن واضح، وواحدة من أسرة علم وجاه، وهي أسرة المقري[2].

وحرصت الأسر ذات الجاه والمكانة على التميز عن غيرهن من الشرائح الاجتماعية، والظهور بمظهر الأبهة والرخاء والرفاهية فاشترطت في صداق بناتهن المصاغ لاسيما الجوهر[3]، تسع نساء كان من نصيبهن الجوهر، أربعة منهن ينتمين إلى أسرتين دينيتين بارزتين، واحدة إلى أسرة الزهار، واثنتين إلى أسرة ابن واضح، وواحدة إلى أسرة المقري، وهكذا نرى أن الجوهر كأحد مكونات الصداق انحصر في الأسر ذات الحسب والنسب، كما أنّ الأزواج الذين قدموا الجوهر هم أيضا كانوا ينتمون إلى عائلات ذات نفوذ وسلطة [4].

الصداق الضخم نالته بنات الطبقة الأرستقراطية، وأهم صداق نالته بنت إحدى البيوتات العلمية سنة 1087هـ/1676م، وهي رقية بنت الشيخ أبي عبد الله محمد المقري، وقد

---

[1]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص، ص:362، 363.

[2]- غطاس، المرجع نفسه، ص: 364.

[3]- تراوحت كمية الجوهر بين نصف أوقية وأربع أواق. ومع أواخر القرن 18م اختفى الجوهر من مكونات الصداق. ينظر: غطاس، المرجع نفسه، ص: 365.

[4]- غطاس، المرجع نفسه، ص: 365.

بلغت قيمته (1200دخ)، وقد ورد في عقد الزواج :" على صداق مبارك ميمون قدره بين نقد محضر، وحال منظر، وكال مؤخر ألف دينار واحد، ومائتا دينار اثنان كلها جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ، وقفطانان اثنان أحدهما موبر، والآخر أطلس، وأربع أواق جواهرا وأربعة أفراد (سوار) ستيني، وأمتان اثنتان من رقيق السودان، وأربعو قناطير صوف..." [1].

إنّ قيمة هذا الصداق مرتفعة جدا، وهو أعلى صداق بمقارنته مع غيره من الأصدقة المقدمة في تلك الفترة، إن صداق كهذا لا يمكن أن يقدمه إلا صاحب ثروة. ويجدر التنبيه إلى أنه خلال دراسة الأصدقة نجد أن الصداق المرتفع كان من نصيب بنات العائلات الأرستقراطية.

وهذا العقد نستدل به على مستوى ثروة أهل الزوجة وهو بيت المقري بمدينة الجزائر، وبيت الزوج وهو عبد الرحمن المرتضى حفيد سعيد قدورة، والذي كان في كفالة خاله المفتي المالكي محمد قدورة حسبما ورد في العقد :" وذلك كله بحضرة خال الزوج المذكور، وحاجره قبل" محمد قدورة مفتي المالكية في التاريخ "[2].

ومن خلال دراسة عائشة غطاس كان صداق الألف دينار (1000د) من نصيب أربعة سيدات اثنتان كانتا تنتميان إلى عائلة الشريف الزهار، الأولى فاطمة بنت الحاج محمد عام 1726م، والثانية الزهراء بنت السيد المهدي عام 1773م، والثالثة والرابعة من أسر ذات حسب ونسب[3].

أما الفئة الغنية فقد تراوح الصداق بين 600 و800 دينار، ويعد صداق 400 دينار أكثرها تداولا، يمكن تسميتهم ب" الفئة الميسورة الحال"[4].

(2)- الصـــداق في قسنطينة:

---

[1]- ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش، ص: 239.

[2]- ابن حمادوش، المصدر نفسه، ص: 240.

[3]- غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 367.

[4]- غطاس، المرجع نفسه، ص: 367، 368

الصداق هو من بين الأمور التي يستدل بها على المستوى المادي، سيما مع ما عرف به الحضر من مغالاة في المهور، وذلك ما أشير إليه في "نوازل الفكون":" في عصرنا هذا جرى عرف بلدنا برفع الصداق والتفاخر بكثرة الشوار، ومن لم يفعل ذلك فتلحقه وتلحق ابنته المعرة وعدم الحظوة عند الزوج " [1].

والمبلغ النقدي الذي كان يشتمل عليه الصداق في مجتمع مدينة قسنطينة في العقدين الأخيرين من القرن 18م، يتراوح ما بين ريالين (2ر) وأربعة آلاف ريال (4000ر)، فالتفاوت بين الحد الأدنى والأقصى صارخ[2]. واشتمل الصداق على مكونات أخرى عينية كالصوف، القفطان، الحايك، الحزام، الأمة، إلخ... [3].

ومن مكونات الصداق في قسنطينة الجرية وهي الحفل الذي يكون بعد الخطبة، ويتم فيه التعارف بين العائلتين، ويقدم الجهاز للعروسة مسبقا، والصداق النقدي بالمناسبة حتى تتمكن العروسة من تجهيز ما ينقصها من لوازم. وقد وردت الجرية ضمن قائمة المطالب الملحقة بالصداق، وقد جاء ذكرها في نص العقود مع قائمة الألبسة والحلي التي تشكل الصداق[4]. وتظهر الجرية كأنها تجديد في الطقوس عند القليل من العائلات ذات المكانة الاجتماعية المرموقة. ويبدو أنها كانت في بداية ظهورها، وقد تكررت الجرية سبع مرات فقط من بين (3287 عقد) زواج في العينة، وتغطي عقود الزواج التي وردت فيها الجرية الفترة الزمنية من 1202هـ إلى 1206هـ. وقد مست الجرية المهور المتوسطة والتي تراوحت بين 60 و120 ريالا[5].

ومن العائلات التي أقدمت على الجرية عائلة الفكون، حيث وردت ضمن صداق راضية بنت السيد محمد بن محجوبة العدل المحكمة المالكية، التي تزوجها محمد بن السيد

---

[1] – محمد الفكون، « نوازل الفكون » مخطوط، ص: 49.

[2] – غطاس، الحرف والحرفيون، ص: 363.

[3] – غطاس، المرجع السابق، ص: 363.

[4] – فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص، ص: 49، 50.

[5] – فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص، ص: 50، 51.

حسين الفكون سنة 1202هـ/1787م، وهي أول عقد وجدت به الجرية. وهي أيضا أعلى مهر من المهور التي وردت فيها الجرية، بحيث وصل مهرها إلى مائة ريال[1].

أما المبلغ المخصص للجرية فقد تراوح بين عشرة وعشرين ريالا للجميع باستثناء بنت بن محجوبة التي منحت أربعين ريالا، كما انفردت بشرط الحزام وكان من حرير، أما الملحفة فكانت من نوع الموبر، وقد يعني السكوت عن مقصد هذا المبلغ أنه مخصص لحلي من الفضة أو الذهب أو للوازم الحنة أو تبعات أخرى متفرقة لم تعدد و لم تحدد في عقود المدونة أمام القاضي.

وتميزت راضية بنت بن محجوبة التي تزوجها محمد بن السيد حسين الفكون على الأخريات، ليس بمبلغي النقد والجرية ونوع الملحفة فحسب، وإنما بورود شروط الحزام والأمة وأوقيتين من الجوهر ضمن الصداق، ولكن لم تنجز لها كل المطالب، حيث أنقدها الشطر والجرية فقط، كما تميزت عنهن بأن زوَّجها القاضي "علي الونيسي" بحضور أبيها وهي البكر المجبرة، ويعد هذا الأمر من باب التكريم للعائلة أن يوكل أبوها القاضي لينوب عنه[2].

– يتبين من خلال هذا الفصل أن البيوتات والأسر العلمية البارزة حظيت بمكانة اجتماعية مرموقة، سيما تلك التي جمعت بين العلم والنسب الشريف، أو بين العلم والتصوف، أو تلك التي جمعت كل هذا.

وقد وجدنا أيضا أن أغلب البيوتات العلمية كانت إما ثرية أو ميسورة الحال، لمكانتها الاجتماعية إذ الثراء مفيد للمال، ثم للامتيازات التي منحتها لها السلطة مقابل خدماتها.

ولا شك في أن المستوى المادي الجيد لأغلب البيوتات العلمية ساهم في استمرار العلم في أبناءها، بحيث وفرت لهم أسرهم الظروف لطلب العلم، ففي الوقت الذين كان ينقطع فيه

[1] – فاطمة الزهراء قشي، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18، ص: 51.

[2] – فاطمة الزهراء قشي، المرجع نفسه، ص: 52.

نسبة كبيرة من الطلبة عن طلب العلم وينشغلون بطلب الرزق، كان أبناء البيوتات العلمية يواصلون تعليمهم لأن أوضاعهم المادية تسمح بذلك.

الخاتمة

يتضح مما سبق أنَّ البيوتات العلمية هي أسر متنفذة أنجبت العديد من العلماء المدرسين والمؤلفين...إلخ، إلى جانب تمتعها بالنفوذ والجاه والثروة، أما الأسر العلمية فهي الأخرى أنجبت العديد من العلماء، إلا أنها لم تكتسب الجاه والنفوذ كالبيوتات.

وتشير المصادر إلى وجود العديد من البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني، منها ما كانت موجودة قبل العثمانيين واستمرت في أيامهم، ومنها ما نشأت خلال عهدهم. ويُلاحظ جليا أن عدد البيوتات يكثر حيث تنشط الحركة العلمية، فتأثر هذه البيوتات فيها بنشاط أبناءها، وتتأثر بها، كما تكثر بالمناطق التي تتركز بها السلطة، وفي المدن حيث تكثر المؤسسات التعليمية وتتوفر المناصب العلمية والدينية.

أما المناطق التي برزت بها النسبة الأكبر من البيوتات فهي مدينة الجزائر مقر السلطة المركزية، ومدينة قسنطينة عاصمة بايليك الشرق، وإقليم الراشدية الذي تقع ضمنه مدينة معسكر عاصمة بايليك الغرب لفترة طويلة من الزمن، بالإضافة إلى بلاد زواوة.

وبالنسبة لمدينة الجزائر فقد وجد بها عدد من البيوتات والأسر العلمية خلال العهد العثماني، أما قبله فلا نعرف أيا من بيوتاتها، وعليه فإن بيوتات هذه المدينة تشترك كلها في كونها نشأت في ظل العثمانيين، وذلك للاهتمام الذي حظيت به المدينة بعد اتخاذها عاصمة للبلاد، وتوفرها على عدد من المؤسسات التعليمية العليا، بالإضافة إلى الوظائف الدينية الرفيعة كالقضاء والإفتاء، وهذا ما جعلها محط أنظار الطلبة والعلماء من مختلف أنحاء الأيالة، فتحولت من مجرد مدينة ساحلية في العهود السابقة إلى عاصمة سياسية وحاضرة ثقافية.

وتعود بيوتاتها إلى أصول مختلفة، فبعضها ينتمي إلى السكان المحليين من عرب وبربر، وبعضها أندلسية الأصل، وبعضها الآخر تركية الأصل، وبعضها من الأعلاج...إلخ، وكل هؤلاء ساهموا في تنشيط الحركة الثقافية بها خلال العهد المدروس.

وأبرز البيوتات العلمية بمدينة الجزائر آنذاك هي: بيـــت قدورة، بيت ابن العنابي، وبيت بن علي، ويتبين أنَّ ما رسَّخ مكانة هذه البيوتات هو: اشتهار عدد من علمائها يفوق أربعة علماء في كل بيت، وقد اتصف بعضهم بالعلم الغزير، فكان منهم العلماء الأعلام، كالشيخ سعيد قدورة وابنه محمد، والشيخ محمد بن علي الشاعر المشهور، ومحمد بن العنابي نزيل الإسكندرية وغيرهم.

- احتكار هذه البيوتات للوظائف الدينية العليا سيما القضاء والإفتاء لمدة طويلة من الزمن، فقد احتكر بيت قدورة الإفتاء المالكي لأزيد من قرن من الزمن، وقد كان المفتي المالكي يقوم بمهام أخرى إلى جانب الإفتاء، إذ يقوم بالخطابة بالجامع الأعظم، وإمامة بعض الصلوات، ويدرس في الجامع نفسه، ويشرف على كل نشاطات الجامع الأعظم ومدرسيه، وهو المسؤول الأول عن أوقافه، وهذا ما جعل علماء بيت قدورة مرابطين في نظر السكان، وليسوا علماء عاديين، وهذا كله ساهم في ترسيخ مكانة هذا البيت في المدينة.

والشيء نفسه بالنسبة للبيتين الآخرين، بحيث تولى عدد من علماء بيت العنابي وبيت ابن علي الإفتاء والقضاء بمدينة الجزائر، وقد كان المفتي الحنفي يحمل لقب شيخ الإسلام، وكان يتمتع بمكانة هامة في الدولة، فالمنصب لم يكن وظيفة دينية بل كان أيضا وظيفة سياسية كبيرة، ولهذا كان المفتي الحنفي يتردد على الباشا في قصره، ويحضر جلسات الديوان، وله الكلمة العليا في المجلس الشرعي الأعلى، المعروف بالمجلس العلمي، كما كان المفتي الحنفي يقوم بمهمة التدريس بالجامع الجديد الحنفي، بل هو أكبر مُدرسيه، إلى جانب وظيفة الإفتاء والخطابة، وكل هذا ساهم في اتساع نفوذ هاذين البيتين بمدينة الجزائر.

ونشير في هذا الصدد إلى أنَّ البيوتات الثلاثة المذكورة لم تعتمد على النسب الشريف في بلوغ ما بلغته، وإنما اعتمدت على نباهة أبناءها من جهة، وعلى علاقتها الحسنة مع السلطة، بما أن التعيين في الوظائف العليا كان يتم من طرف أعلى سلطة في البلاد وهو الباشا.

ويجدر التنبيه إلى أن بيوتات مدينة الجزائر لم تقبل على تأسيس زوايا ومدارس تعليمية خاصة بها، لتركيزها على المناصب، ولأن النشاط الديني والتعليمي للجامع الأعظم، وبعض الجوامع الكبرى كان يغطي على نشاط أية مؤسسة أخرى.

ويعد بيت أبهلول المجاجي أشهر البيوتات العلمية خارج مدينة الجزائر، وقد اصطبغ بالصبغة الدينية، وأنجب العديد من العلماء ورجال العلم، إلا أنه يختلف عن بيوتات مدينة الجزائر، إذ لم يشتهر أبناؤه لمباشرتهم المناصب الدينية والعلمية التي لا تتوفر بالريف أصلا، ولكنهم برزوا بالمنطقة لقيامهم بأدوار ثقافية واجتماعية مهمة للغاية من خلال زاويتهم، التي حملت راية التعليم حتى كانت وجهة للطلاب من مناطق مختلفة خاصة في حياة الشيخ محمد بن علي المجاجي، وهو أبرز علماء هذا البيت.

هذا؛ ولم يكن لبيوتات مدينة الجزائر على أهميتها دور كبير في السياسة، إذ أنَّ قبضة السلطة كانت قوية في هذه المنطقة أكثر من أي منطقة أخرى، ولهذا لم تكن بحاجة إلى وسطاء إلا في حالات نادرة، وقد كلف بعض أبناء البيوتات من العلماء البارزين بمهام سياسية إلى خارج الجزائر خاصة إلى تونس والمغرب الأقصى.

وبرز عدد آخر من البيوتات والأسر العلمية بمدينة قسنطينة عاصمة بايليك الشرق، التي تميزت عن غيرها من المدن الجزائرية، بأن عددا مهما من بيوتاتها وجدت منذ العهد الحفصي واستمرت خلال العهد العثماني، وأنجبت العديد من العلماء في العهدين، والجديد الذي طرأ عليها خلال هذا العهد هو تغير مكانة تلك البيوتات، إذ تبوأ بيت الفكون الصدارة في العهد العثماني، في حين تراجعت قليلا مكانة بيوتات أخرى مثل: ابن باديس، وبيت الكماد، وبيت الغربي، وهذا يؤكد أهمية العلاقة بالسلطة الزمنية في الرفع من مكانة البيوتات العلمية بالحواضر.

وقد ظل بيت الفكون يحتفظ بمكانته كأهم البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة، بل بالجزائر كلها خلال العهد العثماني لطول عهده بالجاه والمجد والعلم، وهي الميزة التي انفرد بها

هذا البيت عن غيره من بيوتات الجزائر، إذ قلما نجد بيتا حظي بهذا المجد كل هذه المدة الطويلة.

ومما ساهم في بروز بيت الفكون هو تصدى عدد من علماءه للتدريس والفتوى، وقد حصرت السلطة في هذا البيت الخطابة بالجامع الأعظم جامع البطحا، كما أوكلت له إمارة ركب الحج الجزائري منذ عهد الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد، وهو أبرز علماء هذا البيت.

ومن أشهر بيوتات بايليك الشرق خارج مدينة قسنيطينة: بيت ابن ساسي البوني بعنابة، وبيت الورثيلاني ببلاد زواوة، وبيت ابن ناجي بخنقة سيدي ناجي. وقد أنجبت هذه البيوتات عدد من العلماء الذين تصدوا للتدريس، واشتهر بعضهم بالتأليف، وهي لم تشتهر لتوليها المناصب كبيوتات قسنطينة، وقد كانت لها زوايا تقوم بنشر العلم إلى جانب مهام اجتماعية ودينية أخرى.

حظيت بلاد زواوة بعدد كبير من البيوتات والأسر العلمية، ولهذا كانت الحركة العلمية بها نشيطة، أما منطقة الزيبان وبالتحديد خنقة سيدي ناجي فقد ازدهرت الحركة العلمية منذ القرن 12ه/ 18م تزامنا مع ازدياد عدد البيوتات والأسر العلمية بها، أما مدينة عنابة فرغم أنها مركز حضاري بالمقارنة مع المناطق المذكورة إلا أن عدد البيوتات العلمية بها كان قليل جدا، فلم نستطع أن نحصي أكثر من بيت واحد، وهذا ما أثر وتأثر بالحركة العلمية بها، إذ لم تكن في مصاف الحواضر العلمية في ذلك العهد.

أما بايليك الغرب فيعد إقليم الراشدية أكثر المناطق من حيث عدد البيوتات والأسر العلمية، وأشهر بيوتاته: بيت المشارف، بيت عبد القادر بن المختار، وبيت ابن زرفة.

وبالنسبة لبيت المشارف، لم تنحصر بيوت هذه الأسرة في بيت واحد وإنما "هم جموع كثيرة من المشارف"، وقد أنجبت عدد من بيوتاتها علماء استطاع بعضهم أن ينال شهرة واسعة. وأهم بيوتات المشارف هو بيت عبد القادر المشرفي، ومؤسسه هو شيخ الجماعة

السيد عبد القادر بن عبد الله المعروف بالشيخ المشرفي. وقد ساهم علماء المشارف في التدريس، وفي التأليف في مواضيع مختلفة، أهمها التاريخ والردود والأنساب، وتولى عدد من أبناءه وظائف مهمة كالقضاء.

لم تبلغ كل أسر المشارف نفس المكانة العلمية، ولم تحظ أيضا بنفس المكانة لدى السلطة،

وذلك ما يؤكده صاحب " القول الأعم" بقوله:" ولم تتعد الرياسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده فإنهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك... ".

كما يعد بيت عبد القادر بن المختار هو الآخر من أبرز البيوتات بغريس، وقد كان له حضور صوفي قوي، إذ هو الممثل الرئيسي للطريقة القادرية بالجزائر، وهذا ما ساهم في التمكين له، واكتسابه ثروة مهمة إلى جانب الجاه العريض. وإن كان بيت المشارف أهم منه في الجانب العلمي، فهو أكثر جاها منه، ولهذا لجأ إليه الجزائريين ليقودهم في حركة الجهاد ضد الفرنسيين.

ورغم غلبة التصوف على أبناءه، إلا أنهم كانوا أيضا من العلماء حسب معايير ذلك العصر، وهم وإن لم يتركوا تآليف مهمة، إلا أن عدد منهم تصدى للتدريس كالشيخ مصطفى بن المختار وابنه محي الدين، وترسخت صفة العلم في هذا البيت أكثر منذ أسسوا زاوية القيطنة، التي ساهمت بقوة في نشر العلم إلى جانب الاهتمام بالطريقة القادرية.

وبرز عدد آخر من البيوتات والأسر العلمية بمناطق أخرى من بايليك الغرب أهمها: بيت المقري وبيت ابن الحاج اليبدري بتلمسان، وبيت الكتروسي، وبيت ابن الشارف بمازونة، وأسرة ابن حواء بمستغانم، وأسرة الخروبي بقلعة بني راشد.

لقد ساهمت البيوتات والأسر العلمية على اختلاف أصولها ومذاهبها بالقسط الأكبر في دفع الحركة الثقافية إلى الأمام من خلال تصدي أبناءها للتدريس والتأليف، وأبرز أدوارها في هذا المجال هو تأسيسها لمدراس وزوايا خرجت الأجيال من المتعلمين، وقد كان أصحاب

الزاوية ينفقون عليها من مالهم الخاص ومن أوقافها. وقد ازدادت أهمية هذه المؤسسات أمام تراجع دور السلطة في مجال التعليم.

وقد كان للزوايا التي أقامتها البيوتات العلمية خارج المدن أهمية كبيرة بالمقارنة مع الزوايا التي أقيمت داخلها، لأن الجوامع الكبرى كانت تتكفل بالتعليم بشكل كبير، وقد ساهمت تلك الزوايا في نشر العلم حتى في المناطق النائية كزاوية خنقة سيدي ناجي التي استقطبت طلبة منطقة الزيبان والمناطق المجاورة لها، وقصدها الطلبة حتى من تونس.

ويلاحظ الدارس للبيوتات سعيها الحثيث للمحافظة على خصوصيتها الثقافية من خلال حرصها على تعليم أبناءها وبناتها على حد سواء- إلا أنه لم يكن يسمح للفتيات بالخروج للتعليم بعد سن البلوغ- ومن خلال إشادة الأبناء بمآثر آبائهم وأسلافهم، والعناية بكل ما خلفوه في المجال الثقافي من مؤلفات ومدراس ومكتبات...إلخ، لأن هذا ما يمنح البيت تفوقا على غيره من البيوتات. كما كان الآباء في سعي دائم لإبراز كفاءة أبناءهم ومستواهم العلمي من خلال منحهم الإجازات، وتقديمهم للمناظرة، والأهم من كل ذلك الحرص على توريثهم وظائفهم الدينة والعلمية، حتى إذا كانوا في سن صغير، ووجد من هو أحق بها منهم من كبار العلماء.

وقد ارتبط تاريخ عدد من البيوتات التي تقيم بالمدن بالوظائف الدينية سيما الوظائف العليا كالإفتاء والقضاء، وقد كان احتكار بعض البيوتات لوظائف عليا لفترة طويلة سببا في تألقها، واكتسابها جاها ونفوذا عريضين. وأبرز البيوتات العلمية هي التي حصرت فيها وظيفة الإفتاء لمدة طويلة، حتى تجاوزت قرن من الزمن كبيت قدورة بمدينة الجزائر، وبيت الكتروسي بمدينة مازونة. كما حصرت الخطابة بالجوامع الكبرى في بعض البيوتات، من ذلك حصر الخطابة بالجامع الأعظم بالبطحاء في بيت الفكون، والخطابة بجامع القصبة ببيت ابن باديس والأمثلة كثيرة.

ولم يقتصر حصر الوظائف في بيوتات معينة على الوظائف التنفيذية، بل مس حتى الوظائف التشريفية كنقابة الأشراف التي كان يتولاها أبناء أعيان البيوتات الشريفة. لم يكن التحلي بقسط كبير من العلم شرط فيمن يتولى نقابة الأشراف، ومع ذلك احتكرتها بعض البيوتات العلمية لفترة من الزمن. ونظرا لمكانة الأشراف في المجتمع فقد كانت السلطة العثمانية تبدي احتراما كبيرا لنقيب الأشراف، حتى أن حضوره في المناسبات الرسمية للدولة كان ضروري سيما عند تولية الحاكم، وأشهر من تولاها بمدينة الجزائر بيت الشريف الزهار، وهو بيت من المرابطين.

ومن أكثر الوظائف التي كانت تكسب صاحبها وبيته الثروة والجاه والنفوذ إمارة ركب الحج الجزائري، التي حصرت في أعيان البيوتات الدينية والعلمية، والشرط الأساسي فيمن يتولاها المكانة الاجتماعية المرموقة والجاه والنفوذ، أما العلم فلا يشترط أن يكون أمير الركب أن يكون من كبار العلماء. ومع ذلك تولاها بعض كبار العلماء كالشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد، وعلماء آخرين من بيت الفكون.

ورغم الاستحسان كبير للعارفين بشؤون السياسة والحكم عبر التاريخ الإسلامي لاستعمال أبناء البيوتات في جهاز الدولة، إلا أن الأمر مختلف في الجزائر العثمانية لإقصاء العثمانيين للسكان المحليين من كل ما من شأنه أن يقربهم من الحكم، فلم يسمحوا لهم بتولي المناصب الحساسة في جهاز الدولة كالوزارة وغيرها، ولهذا لا يمكن الحديث عن دور سياسي من هذا النوع، إلا أن الجاه والنفوذ والمكانة التي تمتعت بها بعض البيوتات جعلت الدولة تلجأ إليهم لتستفيد من نفوذهم في إخضاع الرعية، ولتكسب ولاءهم خصتهم بامتيازات مادية ومعنوية كثيرة جدا، وقد نجحت السلطة في هذه السياسة نجاحا كبيرا، وتجلى ذلك في وقوف جل البيوتات العلمية إلى جانبها في أصعب المواقف، حتى في أواخر العهد العثماني الذي بان فيه جـــور العثمانيين أكثـــــر من قبل. وأهم البيوتات التي قامت بهذا الدور

بيت الفكون، الذي وقف إلى جانب العثمانيين منذ الوجود العثماني بقسنطينة إلى وقوعها في قبضة الاحتلال الفرنسي.

ولا تكمل الصورة حول البيوتات دون التطرق لمكانتها الاجتماعية، بحيث اعتمدت البيوتات على عدد من الأساليب لتحافظ على تفوقها الاجتماعي، فقد اعتمدت على النسب الشريف، وذلك لحب المسلمين عموما لآل البيت، كما عملت على مصاهرة البيوتات والشخصيات النافذة في المجتمع، لتعزيز مكانتها الاجتماعية. ورغم أنَّ المادة العلمية المتوفرة لا تسعفنا لنقدم أحكاما نهائيا في هذا الموضوع إلا أن النماذج المتوفرة تدل على اتجاه البيوتات والأسر العلمية الكبرى نحو مصاهرة الأسر المتنفذة ومصاهرة العلماء والأسر المشهورة بالعلم والصلاح، وهذا لا يمنع من مصاهرتهم من فئات أخرى، إلا أن مصاهرة أهل العلم والدين والشرف مما تحبذه هاته البيوتات.

وقد ارتكزت البيوتات على علاقتها مع السلطة من أجل أن تحقق تفوقها المادي والمعنوي، لأنها هي الأخرى بحاجة إلى دعم السلطة التي تعين في المناصب، والتي بيدها منحهم الامتيازات ومنعها عنهم. وقد اعتمدت السلطة على أساليب كثيرة لكسب ولاء البيوتات العلمية والدينية البارزة، كمنحها الإقطاعات وإعفاءها من الضرائب وحصر الوظائف الدينية فيها وتوريثها لأبنائها. أما الامتيازات المعنوية فهي إظهار الاحترام لهم، والتوصية بحرمهم واحترامهم، وقد بالغ العثمانيون في ذلك حتى جعلوا بيوت أعيان البيوتات ملاذا للفارين من السلطة، إذ لا يسمح بالقبض عليهم ما داموا بها.

وهكذا فإنّ العلاقة الحسنة مع السلطة تكسب البيوتات على اختلاف مجالاتها حظوة، كما أن ما يتمتع به البيت من جاه ونفوذ يجعل السلطة تتقرب إليه سعيا لكسبه إلى جانبها، وتعد الثروة والجاه والنفوذ من أهم المكتسبات التي تتحقق للبيوتات بعلاقتها مع السلطة.

وهكذا فإن ما تمتعت به البيوتات العلمية من إمكانيات مادية ومؤهلات معنوية أهلها لتؤدي دورا مهما في مختلف مناح الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية، وحتى الاقتصادية.

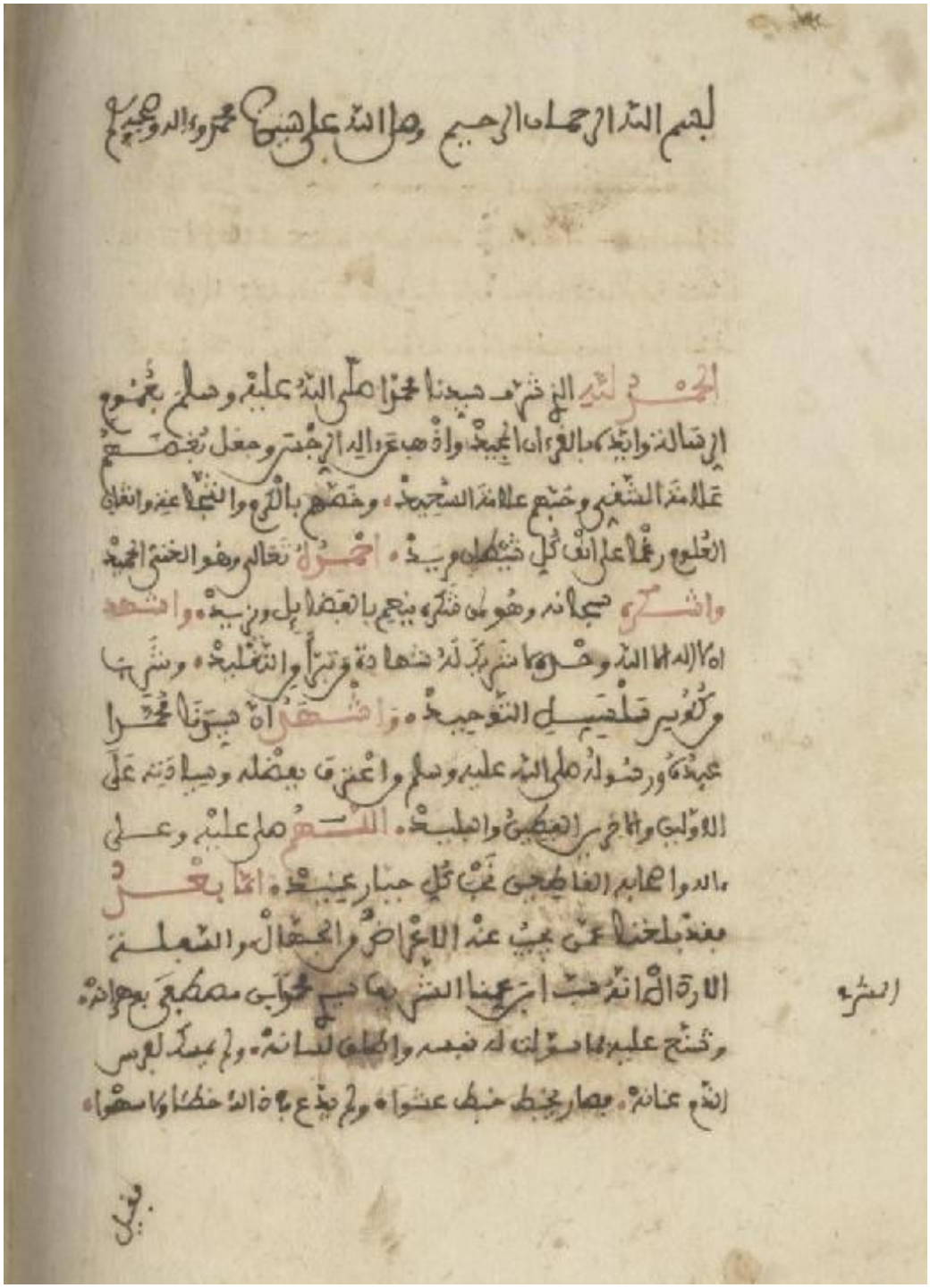
الملاحق

الملحق رقم: (1)



الصفحة الأولى من مـخطوط « ثبت أحمد بن ساسي البوني»

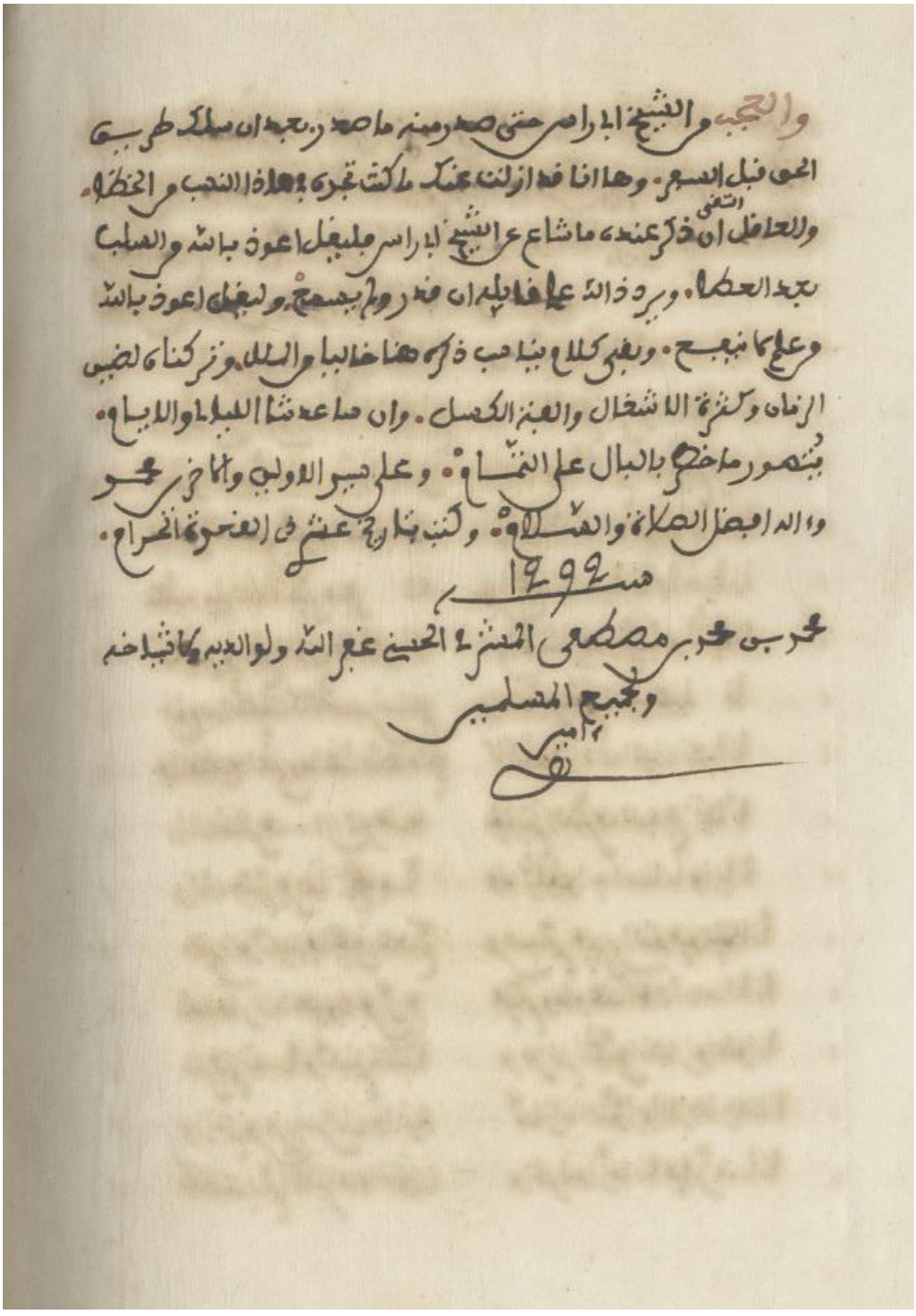
الملحق رقم: (2)



الصفحة الأولى من مـخطوط « تقييد في النسب المشرفي »

لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي

الملحق رقم: (3)



والتعجب من الشيخ ابا راس حتى صدر منه ما صدر بعد ان سلك طريق
الحق قبل السير. وها انا قد انزلت عنك ما كتبته في هذا النسب من الخطاء
والعاقل ان ذكر عنده ما شاع عن الشيخ ابا راس فليقل اعوذ بالله من السلب
بعد العطاء. ويرد ذالك على قائله ان قدر وهو بعيد. وليقل اعوذ بالله
من علم لا ينفع. ويقضي كلامي بما هو ذكره هنا خالبا من السلام وتركنا لتضيق
الزمان وكثرة الاشغال والعجز الكسل. وان ساعدنا الليالي والايام.
بتحرير ما خص بالبال على التمام. وعلى سبيل الاولى والاخرى نحمد
والد افضل الصلاة والسلام. وكتب بتاريخ عشر في العشرة الغراء.
سنة 1299
محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي الحسني عفى الله ولوالديه كما قبل منه
ولجميع المسلمين
آمين

الصفحة الأخيرة من مخطوط « تقييد في النسب المشرفي »

لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي

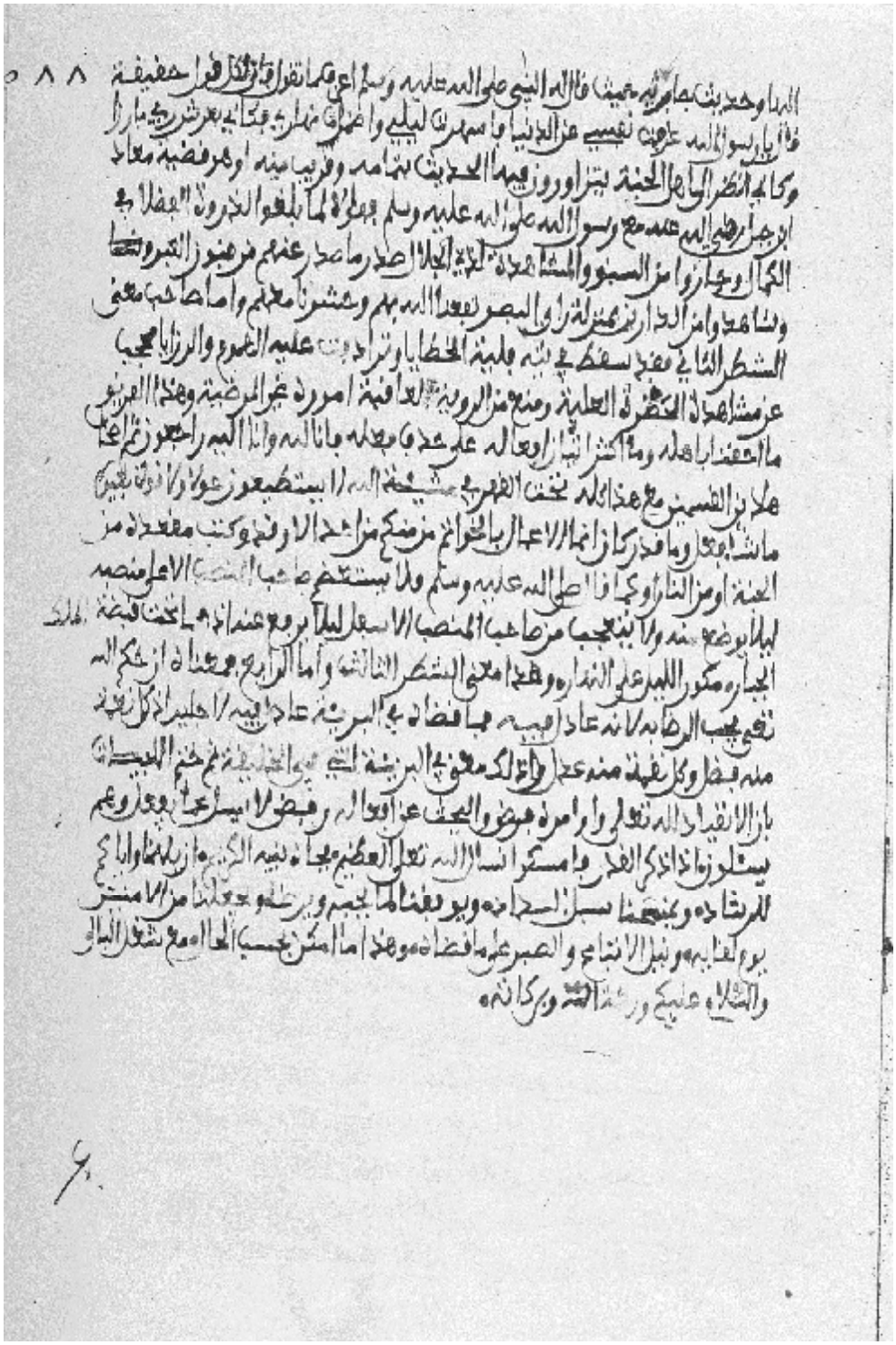
الملحق رقم: (4)



الصفحة الأولى من مـخطوط «نوازل الفكون»

لمحمد بن عبد الكريم الفكون

الملحق رقم : (5)



الصفحة الأخيرة من مـخطوط « نوازل الفكون »

لمحمد بن عبد الكريم لفكون

الملحق رقم: (6)



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

يقول الفقير إلى الله تعالى أحمد بن قاسم بن
محمد ساسي البوني التميمي المسيتي
وفقه الله تعالى وغفر له بمنه وأمين
ربي وفقني بل أغدق عني من العاصين وخير عني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الهادي
الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين والعلماء وسائر الحاكمين والحاضرين
وبعد يقع ورد على الفقير سؤال من بلد فصكينة من بعض الأخيار
يسأل فيه أن يعرفه أمثاله الجلباب وقد طرق في الكمال وجب
على كل رجل
من لم يكن من الرجال ولو احتاج أصحابه وخوفا الوعيد الشديد من أحمد
خوف هذا الحمى أسأل الله الصبر وكيفا للمقاصد الغابر أن يتقبل عنا له ذاكرا
بالله تعالى يعتنا ويعامل الجميع بالحلم والإحسان ويوجعنا للصواب في الجواب
وبيدونا أعلى وأبي الجنان بمحض البصر والكرم والامتنان وهذا
خ السؤال وما اشتمل عليه من حسن المقال البعاهد كالدرر ومعانيه كالغرر
الحمد لله حامدا لنا رضي الله عنكم وجعل البهجة فيكم وعنكم جوابكم عن
مسألة بعد تأملكم الفقيه وفي جمعي جميع إلقاء إياه العلة عن كثيب
يقف على معرفته صاحبه ما فيه من أمين الله وما لقاه أمثاله وأراه
العبيد

الصفحة الأولى من مخطوط «رسالة في الحضانة »

لأحمد بن ساسي البوني

الملحق رقم : (7)



الصفحة الأخيرة من مـخطوط « رسالة في الحضانة»

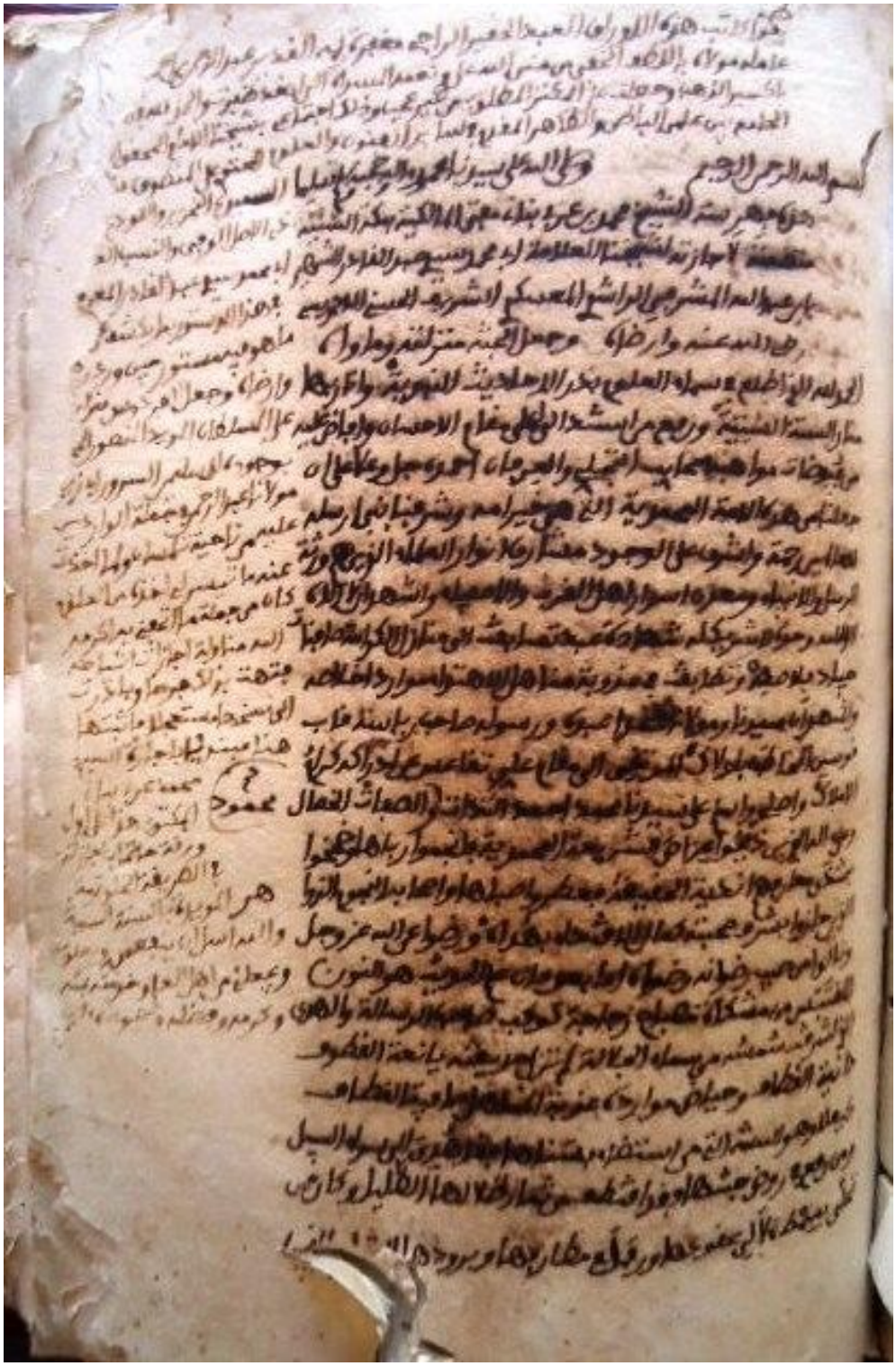
لأحمد بن ساسي البوني

الملحق: (8)



الصفحة الأولى من مـخطوط « ثبت مصطفى بن رمضان العنابي»

الملحق: (9)



الصفحة الأولى مـخطوط « مجموع إجازات ابن عبد الله سقط المشرفي »

الملحق رقم: (10)



الصفحة الأولى من مـخطوط «محدد السنان في نحور إخوان الدخان»

لعبد الكريم بن محمد الفكون

الملحق رقم: (11)



وثيقة تعيين السيد أحمد بن خدة الكتروسي مفتيا بمازونة

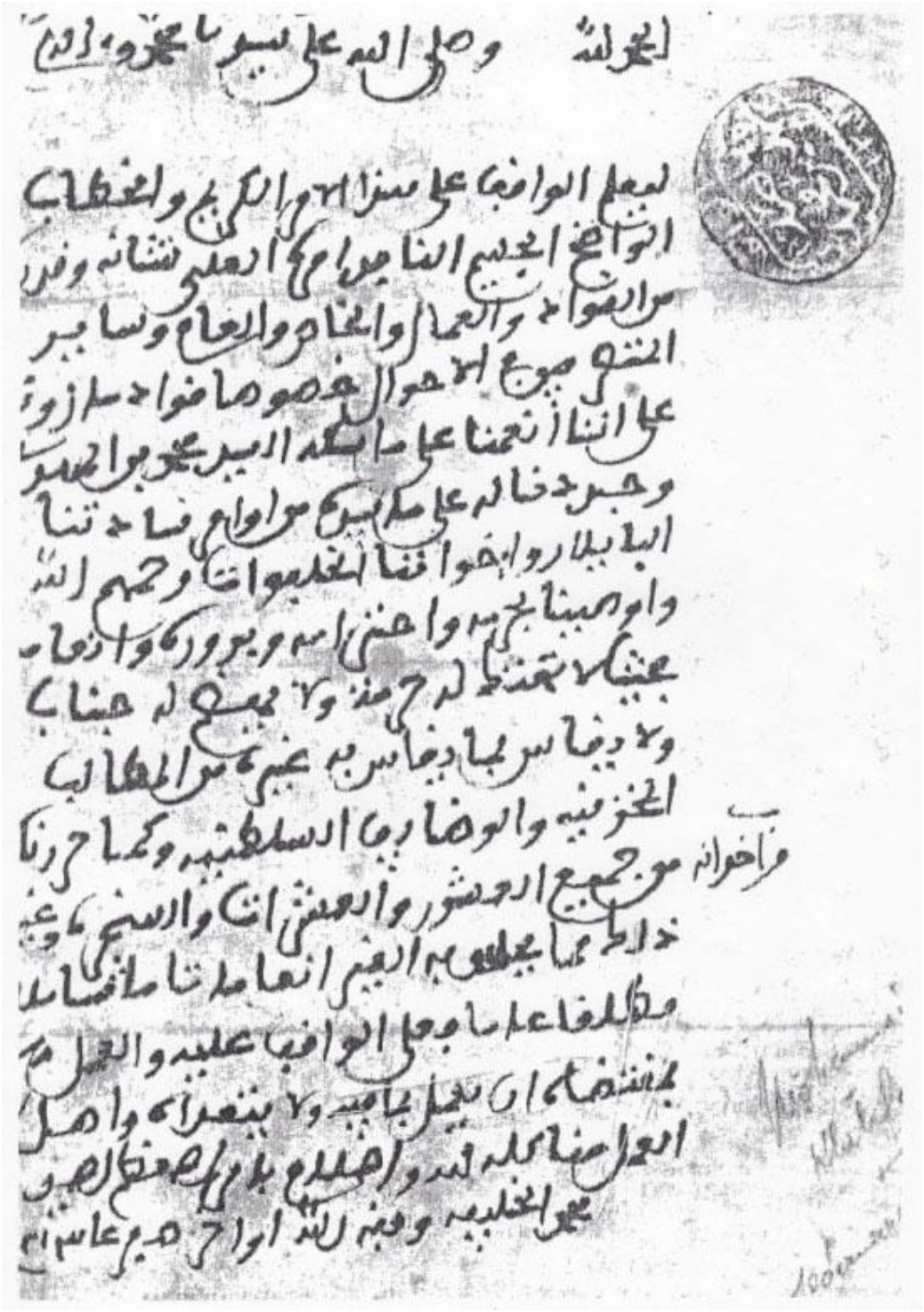
الملحق رقم : (12)



ظهير صادر عن السيد الحاج أحمد خليفة الباي موضوعه منح امتيازات

مـختلفة للسيد محمد بن المهدي الكتروسي، وتعيينه مفتيا وخطيبا بمازونة

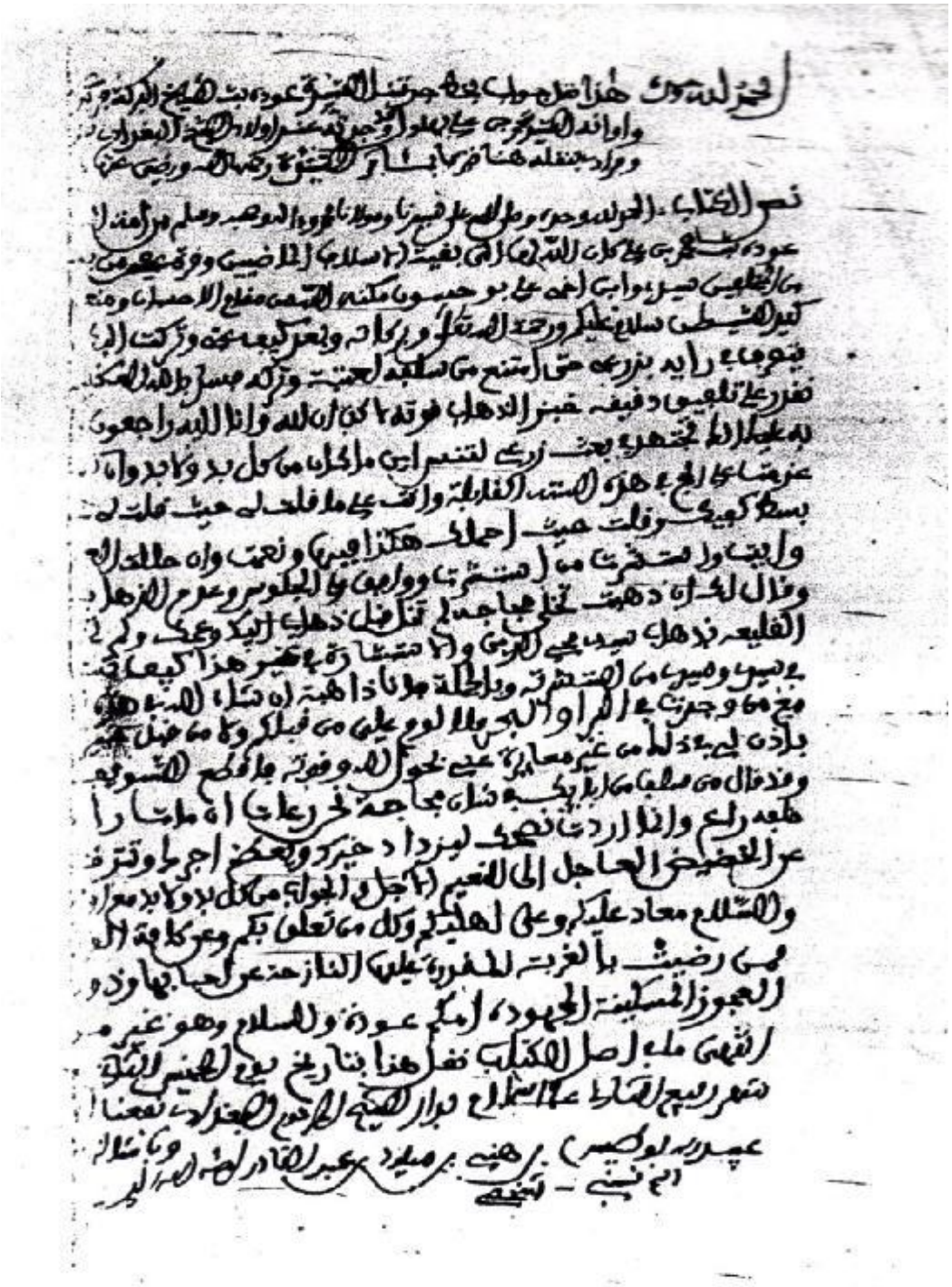
الملحق رقم: (13)



ظهير صادر عن السيد محمد خليفة الباي موضوعه تثبيت الامتيازات

الممنوحة سابقا للسيد محمد بن المهدي الكتروسي بمازونة

الملحق رقم: (14):



رسالة من السيدة عودة بنت محمد بن علي المجاجي

إلى أبي حسون علي المجاجي

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

(أولا)- المصـــادر والمـــراجـــع باللـــغـة العـــربـــية:

(أ)- المصادر غير المطبوعة:

(1)- الوثائق:

1- **سجلات المحاكم الشرعية** (س. م. ش) بمركز الأرشيف الوطني الجزائري- ببير خادم. الجزائر العاصمة.

- علبة: 4، وثيقة: 17.
- علبة: 9، وثيقة: 41.
- علبة: 48/ 1- وثيقة: 51.
- علبة: 50، وثيقة: 04، وثيقة: 58.
- علبة: 55، وثيقة: 10، وثيقة: 20، وثيقة: 23، وثيقة: 28، وثيقة: 29، وثيقة: 31، وثيقة: 34، وثيقة: 40، وثيقة: 63.
- علبة:82، وثيقة:1.
- علبة: 83، وثيقة: 1.
- علبة:89، وثيقة: 45، وثيقة: 33.
- علبة: 119- 120، وثيقة: 20.
- علبة: 134- 135. وثيقة: 52.

2- **وثائق تخص أسرة الكتروسي بمكتبة جمعية الظهرة – مازونة:**

وعددها: 14 وثيقة، وهي غير مرقمة.

3- وثيقة « رسالة من السيدة عودة بنت محمد بن علي المجاجي إلى أبي حسون علي المجاجي ». وثيقة ملك أسرة المجاجي بمجاجة – ولاية شلف.

(2)- *المخـــطـــوطـــات:*

4- الإفراني محـــمد بن الحـــاج، « صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر». مخطوط

بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1741.

5- البوني أحمد بن قاسم، « ثبت أحمد البوني»، مخطوط بمكتبة العائلة العثمانية- زاوية طولقة.

6- البوني أحمد بن قاسم، « رسالة في الحضانة » مخطوط، بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2160.

7- الثعالبي أبو مهدي عيسى، « إجازة عيسى الثعالبي لإبراهيم بن سعيد بن إبراهيم قدورة»، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بالرباط، ضمن مجموع رقم: 390، رقم الميكرو فيلم: 003.

8- العنابي مصطفى بن رمضان، " الروض البهيج بالنظر في أمور العزوبة والتزويج"، مخطوط مجلد:8- رقمه بالوزارة: 642.

9- العنابي مصطفى بن رمضان، « ثبت مصطفى العنابي »، مخطوط بالخزانة الحسنية الربـــاط- المملكة المغربية، تحت رقم: 11447.

10- الفكون عبد الكريم بن محمد، « محدد السنان في نحور إخوان الدخان » مخطوط. الجزائـــر: مكتبة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. تحت رقم: 707.

11- الفكون محمد بن عبد الكريم، « نوازل الفكون » مخطوط، نسخة مصورة مـــأخوذة مـــن الأستاذ بوخلوة حسين.

12- قدورة محمد بن سعيد، « جليس الزائر وأنيس السائر». مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائريـــة تحت رقم: 2600.

13- اللقاني إبراهيم بن إبراهيم بن حسن، « إتحاف ذرية سيدي علي البهلول بأسانيد جوامـــع أحاديث الرسول ». مخطوط بالأزهر الشريف بمصر، مصطلح الحديث – رقم: 330612.

14- المجاجي عبد الرحمن بن محمد، « رحلة المجاجي ». مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1564.

15- « مجموع إجازات ابن عبد الله سقط المشرفي »، مخطوط بالخزانة الحسنية، ضمن مجمـــوع، تحت رقم: .14134

16- « مجموع إجازات ابن عبد الله سقط المشرفي »، مخطوط بمكتبة آل سعود بالدار البيضـــاء بالمملكة المغربية.

17- المشرفي أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر، « ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها
التعريف بسيدي محمد بن علي مولى بجاجة». مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم:3326.

18- المشرفي أبو حامد العربي بن علي، « رسالة في الرد على أبي راس »، مخطوط بمكتبة الشيخ بلقرد – مدينة معسكر.

19- المشرفي أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى، « تقييد في النسب المشرفي »، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم: 13959.

20- مؤلف مجهول، « الخبر عن قدوم عروج رائس إلى الجزائر وقدوم أخيه خير الدين بعده وأخبارهما وغزوهما البحرية ». مخطوط تحت رقم:1622، المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر.

(ب) – *المصادر المطبوعة:*

21- ابن الأثير أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، راجعه: محمد يوسف الدقاق. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 1987.

22- الأصفهاني، الأغاني، تح: سمير جابر . بيروت: دار الفكر، (ط2).

23- الإفراني محمد بن الحاج بن محمد، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تح: عبد المجيد الخيالي. الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي. (ط1)، 2004.

24- البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المختصر، تح: مصطفى البغا. بيروت: دار ابن كثير، 1987.

25- بربروس خير الدين، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج. الجزائر: شركة الأصالة للنشر والتوزيع، (ط1)، 2010.

26- البطوئي عيسى بن محمد، مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح، تح: حسن الفكيكي. الرباط: مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث. سنة: 2000.

27- البوني أحمد بن قاسم، الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تح: سعد بوفلاقة. عنابة: منشورات مؤسسة بونة للبحوث والدراسات، (ط1)، 2007.

28- بيك عبد الحميد، أعيان من المشارقة والمغاربة، تق وتع: أبو القاسم سعد الله. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2000.

29- تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، تر وتق: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: ديوان
المطبوعات الجامعية، .2004

30- التليلي محمد الطاهر، إتحاف القاري، بحياة خليفة بن حسن القماري، تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، .2010

31- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية. طرابلس (ليبيا): منشورات كلية الدعوة الإسلامية، (ط1)، 1989.

32- التوجيني أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله، عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس. المسيلة (الجزائر): دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع.(ط1)، 2005.

33- الجامعي عبد الرحمن الفاسي، فتح مدينة وهران، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوطين، لحساني مختار، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003.

34- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسنطيني، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

35- حشلاف عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي، كتاب سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول. تونس: المطبعة التونسية، 1929.

36- ابن حمادوش عبد الرزاق، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال أو رحلة ابن حمادوش، تح: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للفنون المطبعية، 1983.

37- أبو حيان التوحيدي، الذخائر والبصائر، تح: وداد القاضي. بيروت: دار صادر، (ط1)، 1984.

38- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، .2003

39- ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون (1352- 1401)، تع: محمد بن تاويت الطنيجي. أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، (ط1)، 2003.

40- ابن خلدون عبد الرحمن، رحلة ابن خلدون، تح: محمد بن تاويت الطنجي. بيروت: دار
الكتب العلمية، (ط1)، 2004.

41- ابن خلدون أبو زكريا يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: ألفرد بل. الجزائر: مطبعة بيير فونتانا الشرقية، 1902.

42- ابن خلكان أبو العباس أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1977.

43- الحنقي محمد بن محمد الطيب، مسائل في الأحكام الشرعية على المذهب المالكي أو عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام، تق وتع: محمد موهوب بن أحمد بن حسين، عين ميلة (الجزائر): دار الهدى، 2002.

44- خوجة حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح: الطاهر المعموري. ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب، 1975.

45- خوجة حمدان بن عثمان، المرآة، تر وتح: محمد العربي الزبيري. الجزائر: منشورات ANEP، 2005.

46- دينيزن ا.ف، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، تر: أبو العيد دودو. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.

47- أبو راس محمد الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته أو حياة أبي راس الذاتية، تح: محمد بن عبد الكريم. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، .1990

48- الراشدي عبد القادر، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تح: عبد الله الحمادي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1997.

49- الروداني محمد بن سليمان، صلة الخلف بموصول السلف، تح: محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988.

50- ابن زاكور محمد، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، تق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، .1967

51- ابن زرفة مصطفى، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوطين، لحساني مختار، جامعة

الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003.

52- الزركشي أبو عبد الله محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تح: محمد ماضور. المكتبة العتيقة تونس. (ط2)، 1966 .

53- الزَّهار أحمد، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (1754- 1830م)، تح: أحمد توفيق المدني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط2)، .1980

54- الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح: عبد الله الفيلالي. الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، 1991.

55- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق وتع: المهدي البوعبدلي. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.

56- ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي. قسنطينة: مطبعة البعث- منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، 1973.

57- سجل صالح باي للأوقاف (1185هـ-1207هـ/1771م-1792م)، تح: فاطمة الزهراء قشي. قسنطينة: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، 2009.

58- السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط9)، 1998م.

59- السليماني محمد الأعرج الغريسي، تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر (عن كتاب الشماريخ القسم الثاني وجزء من القسم الثالث)، تح: حساني مختار. الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية.

60- السليماني محمد الأعرج الغريسي، شرح المنظومة المسماة بغية الطالب للعلامة سيدي عيسى بن موسى التيجيني الغريسي، ضمن كتاب مجموع النسب للهاشمي بن بكار. تلمســـان: المطبعـــة الخلدونية، (ط1)، 1961م.

61- الشقراني أحمد بن عبد الرحمن الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تح: ناصر الدين سعيدوني. بيروت: دار الغرب الاسلامي، (ط1)، 1991.

62- الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الطاهر بن محمد المعموري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1984.

63- الشويهد عبد الله بن محمد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117ه/1695-1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2006.

64- العبدري أبو عبد الله محمد، الرحلة المغربية. تق: سعد بوفلاقة. عناية: منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007.

65- ابن عسكر محمد الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان من بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي. الدار البيضاء (المغرب): منشورات مركز التراث المغربي، (ط3)، 2003.

66- العطافي الجيلاني بن عبد الحكم، كتاب المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدي يحي بن صفية وفي التعريف بمشاهير العلماء ورجال المعاهد الصوفية، (ط1)، 1953.

67- ابن عمَّار أحمد، أشعار جزائرية، تح: أبو القـــاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

68- ابن عمار أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. الجزائر: مطبعة فونتانا، 1902.

69- ابن العنتري محمد الصالح، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلاءهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة، تق وتع: يحي بوعزيز. الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009.

70- ابن العنتري محمد الصالح، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.

71- العياشي عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية للبقاع الحجازية أو ماء الموائد، تح: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 2011.

72- الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، (ط2)، 1979.

73- الفاسي عبد الحفيظ بن محمد الطاهر، معجم الشيوخ، المسمى "رياض الجنة أو المُدهش المطرب"، تع: عبد المجيد الخيالي. بيروت: دار الكتب العلمية- منشورات محمد علي بيضون،
(ط1)، 2003. 2ج.

74- ابن فرحون إبراهيم بن علي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محي الدين الجنان. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 1996.

75- الفكون عبد الكريم بن محمد، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1987.

76- القادري محمد بن محمد الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح: محمد حجي- أحمد توفيق، الرباط. (سلسلة التراجم 3). 4 ج.
ج1: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977./ ج2: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (ط1)، 1982./ج3: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (ط1)، 1986.

77- ابن القاضي أحمد المكناسي، جدوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1974.

78- ابن قنفد أبو العباس أحمد بن حسن الخطيب، الوفيات، تح: عادل نويهض. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، (ط4)، 1983.

79- ابن قنفد أبو العباس أحمد بن حسن الخطيب، أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، وأدولف فور. الرباط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، منشورات: المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965.

80- ابن قنفد أبو العباس أحمد الخطيب، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي النيفر، وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968.

81- كربخال مرمول ، إفريقيا. تر: محمد حجي وآخرون. الرباط: دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، 1989.

82- المحبي محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د- ت).

83- المختاري الطيب بن المختار، كتاب القول الأعم في بيان أنساب الحشم، ضمن كتاب مجموع

النسب والحسب والتاريخ والأدب في أربعة كتب للهاشمي بن بكار. تلمسان: المطبعة الخلدونية، (ط1)، 1961م.

84- المختاري عبد القادر بن محي الدين (الأمير)، مذكرات الأمير عبد القادر (سيرة ذاتية)، تح: محمد الصغير بناني وآخرون. الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2008.

85- المختاري محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. الإسكندرية: المطبعة التجارية عرزوزي وجاويش، 1903.

86- ابن مرزوق أبو عبد الله محمد، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة - منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (ط1)، 2008.

87- ابن مريم محمد بن محمد المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية. سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع. (ط1)، 2011.

88- المزاري الآغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحي بوعزيز. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1990.

89- مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، تح: رابح بونار. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص: 55.

90- المشرفي محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، تح: إدريس بوهليلة. الرباط: دار أبي الرقراق للطباعة والنشر- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (ط1)، 2005.

91- ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها. تح: فارس كعوان. العلمة (الجزائر): بيت الحكمة للنشر والتوزيع، (ط1)، 2009.

92- مقديش محمود (ت 1228هـ/ 1813م)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواوي- محمد محفوظ. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988.

93- المقري أحمد، روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، (ط2)، 1983.

94- المقري أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1988.

95- المقري أحمد، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر. سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع- منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا- جامعة وهران- (ط1)، 2004.

96- المنجور أحمد، فهرست أحمد المنجور، تح: محمد حجي. الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.

97- ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط1)، 1972.

98- الناصري أحمد بن خالد، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء (المغرب): دار الكتاب، 1955.ج5، تح: أحمد الناصري و محمد الناصري، ج6، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري.

99- الورثيلاني الحسين بن محمد السعيد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار أو الرحلة الورتلانية. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (ط1)، 2008.

100- الورثيلاني الحسين بن محمد السعيد، رحلة الورثيلاني، تعليق: ابن مهنا القسنطيني. الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011.

101- الوزان الحسن " ليون الإفريقي"، وصف إفريقيا، تح: محمد حجي- محمد لخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي- منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (ط1)، 1983. 2ج.

(ج) – المـــــــــراجـــــــــع:

102- الأسر العلمية في سوس، إنجاز مجموعة البحث في الأدب العربي السوسي، تنسيق: المهدي السعيدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، أعمال ندوة، (ط1)، 2003.

103- إليوت. ت. س، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، تر: شكري محمد عياد. الهيئة المصرية العامة للكتاب ابن خلدون، 2001.

104- برنشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م)، تر: حمادي الساحلي. بيروت : دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1988.

105- بشير ضيف بن أبي بكر، فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، تقديم: عثمان بدري. مدينة الجزائر: منشورات ثالة، (ط1)، 2002.

106- البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. طهران (خيابان بوذر جمهوري): مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي. .1947

107- بلحمليسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.

108- بلهاشمي ابن بكار، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب. تلمسان: مطبعة ابن خلدون، .1961

109- بنوجيت يوسف، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، تر: سامية سعيد عمار، تق: محفوظ قداش. الجزائر: دار النشر دحلب. طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. 2009.

110- بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.

111- بو عزيز يحي، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1995.

112- التميمي عبد الجليل، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر. تونس: منشورات المجلة التاريخية المغربية، 1980.

113- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994.

114- حاج صادوق محمد، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. 1989.

115- حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1996.

116- حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. المغرب: مطبعة فضالة - منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1979.

117- حجي محمد، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، (ط2)، 1988.

118- الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، تح: خير الدين شترة. بوسعادة: دار كردادة للنشر والتوزيع، (ط1)، 2012.

119- بن حموش مصطفى أحمد، المدينة والسلطة في الإسلام (نموذج الجزائر في العهد العثماني). دبي: قسم الدراسات والنشر، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دمشق: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع. (ط1)، 1999.

120- بن حموش مصطفى أحمد، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية. شركة دار الأمة، للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. طبعة 2010.

121- خليفي عبد القادر، الطريقة الشيخية. الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010.

122- بن الذيب عيسى وآخرون، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007.

123- ريموند أندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، تر: لطيف فرج. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (ط1)، 1991.

124- الزركلي خير الدين ، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين). بيروت: دار العلم للملايين، (ط 15)،2002.

125- الزمخشري، أســـــــــــاس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. - الزمخشري، أســـــــــــاس البلاغة، تح: عبد الرحيم محمود. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

126- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي. بيـــروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1998.

127- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1990.

128- سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.

129- سعد الله أبـــــــو القاسم، شيخ الإسلام: عبد الكـــــــريم الفكون- داعية السلفية. بيروت: دار

الغرب الإسلامي، (ط1)، .1986

130- سعد الله أبو القاسم، الطبيب الرحالة ابن حمادوش حياته وآثاره. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

131- سعد الله أبو القاسم، المفتي الجزائري ابن العنابي: رائد التجديد الإسلام (1775 - 1850). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977.

132- سعد الله أبو القاسم، قضايا شائكة (أحاديث في شؤون الفكر والأدب والتاريخ). بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

133- سعد الله أبو القاسم، رسائل في التراث والثقافة (مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي 1902- 1992م). الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، (ط2)، 2010.

134- سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

135- سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792- 1830م). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، (ط2)، 1984.

136- سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1999.

137- سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية. (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني). بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2000.

138- سعيدوني ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 2000.

139- شرف عبد الحق، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفي سنة 1895هـ (حياته وآثاره). الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، (ط1)، 2011.

140- شوفالييه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510- 1541م)، تر: جمال حمادنة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.

141- عامر محمود علي، المرجع في أوضاع المغرب العربي في ظل العثمانيين، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 2005.

142- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي (1514- 1830). الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط3)، 2011.

143- عبد الغني حسن محمد، المقري صاحب نفح الطيب. القاهرة: مطبعة الدار القومية للطباعة والنشر، 1966.

144- عبد الكريم محمد، المقري وكتابه نفح الطيب.بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، (د- ت).

145- ابن عزوز محمد، كرسي الحديث بظهر حصة العين بجـــامع القرويين بمـــدينة فاس. الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي- بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 2003.

146- عنان محمد عبد الله، لســـــــان الدين بن الخطيب. حياته وتراثه الفكـــــري. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1968.

147- غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830) مقاربة اجتماعية اقتصادية. الجزائر: منشورات ANEP، 2007.

148- غطاس عائشة وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م. 2007.

149- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر: 1977.

150- فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية). الجزائر: موفم للنشر والتوزيع، 2002.

151- فيلالي مختار بن الطاهر، رحلة الورتلاني عرض ودراسة. باتنة (الجزائر): دار الشهاب للطباعة والنشر، 1979.

152- القاسمي عبد المنعم الحسني، أعلام التصوف في الجزائر. بوسعادة (ولاية المسيلة، الجزائر): دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، (ط1)، .2006

153- قشي فاطمة الزهراء، الزواج والأسرة في قسنطينة في القرن 18. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2007.

154- قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريـــخ الجزائـــــر الحديث (1500- 1830). الجزائر: دار

الرائد للكتاب، 2010.

155- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، نشر باعتناء: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط2)، .1982

156- الكتاني عبد الحي، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود. الرباط: المكتبة الحسنية. (ط2)، 2005.

157- الكتاني عبد الكبير بن هاشم، زهرة الآس في بيوتات أهل فاس، ويليه تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس فيما غفل عنه صاحب زهرة الآس في بيوتات أهل فاس، لمحمد بن عبد الكبير الكتاني، تح: علي بن المنتصر الكتاني. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، (ط1)، 2002.

158- الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلمـــاء والصلحاء بفاس، تح: محمد حمزة بن علي الكتاني، 2005.

159- كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية). بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 1993.

160- لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية. الجزائر: دار سنجاق الدين. 2011.

161- المجاجي علي بن أحمد بنعشيط، الأحرف الوهاجة في ذكر شرفاء مجاجة. بومرداس (الجزائر): مطبعة ميهوبي- ولاد موسى، .2004

162- محفوظ محمد، تراجم المؤلفين التونسيين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط2)، 1994.

163- مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. دار الطباعة والنشر والتوزيع، (د- ت).

164- المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر. القاهرة: طبع دار المعارف- البليدة: نشر دار الكتاب، (ط2)، 1963.

165- المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر:(1766-1791م). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

166- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492م- 1792م). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (ط2)، 1976.

167- مروش المنور، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (العملة، الأسعار والمداخيل). الجزائر: دار القصبة للنشر. 2009.

168- بن نعمية عبد المجيد وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر (1830- 1954)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007.

169- نمير عقيل لطف الله، تاريخ الجزائر الحديث، دمشق: منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. 2008.

170- نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي. قسنطينة: مطبعة البعث- كلية الآداب الجزائرية، 1965.

171- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر. بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 1971.

172- هلال عمَّار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية، فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3- 14هـ). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

(د)- الـــــــدوريات:

173- بحري أحمد، ضرائب الجزائر العثمانية من خلال بعض الظهائر المازونية، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات الصادرة عن مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران. ع:10، جوان 2013.

174- البكري بكري، " تمنطيط رمز تاريخ وعنوان حضارة "، في مجلة الحضارة الإسلامية، الصادرة عن معهد الحضارة الإسلامية – جامعة وهران. السنة الأولى، ع:1، سنة: 1993.

175- بوركبة محمد، جوانب من مخطوط " قلعة بني راشد" للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات. ع: 1، جوان 2003.

176- العيد مسعود، " حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، ضمن مجلة سيرتا، السنة الثانية، ع: 03- ماي: 1980.

177- العيد مسعود، العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق في العهد العثماني، ضمن مجلة سيرتا، السنة الأولى، ع: 01- ماي1979.

178- العيد مسعود، " المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، ضمن مجلة سيرتا، السنة السادسة، ع: 10، أفريل 1988.

179- المشرفي الزاوي الجيلالي بن محمد والمشرفي عبد الكريم، نافذة على بعض علماء معسكر رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 2 وع: 3. 2004- 2005.

180- بلحميسي مولاي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية (من القرن 15 إلى منتصف القرن 20م)، على الشبكة العنكبوتية "منتدى جمعية الظهرة مازونة". تاريخ دخول الموقع: 09- 10- 2011.

181- بن قادة صادق، الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان (مكانتها في إنتاج المناقب الجهوية)، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 2-3، 2004- 2005.

182- سعد الله أبو القاسم، " زيارة لخنقة سيدي ناجي"، ضمن مجلة سيرتا، الصادرة عن معهد العلوم الاجتماعية- قسنطينة، مطبعة البعث. السنة الثانية، ع: 03، ماي- 1980.

183- سعد الله أبو القاسم، " إجازة ابن عمار لمحمد خليل المرادي "، ضمن مجلة الثقافة. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. السنة الثامنة، ع: 45، يـــونيو- يوليو 1978.

184- سعد الله أبو القاسم، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون (القرن 11هـــــ/ 17م). ضمن أعمال ملتقى: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثمـــاني، جمـــع وتقديم: عبد الجليل التميمي. زغوان (تونس): منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانيـــة والموريسكية والتوثيق والمعلومات. 1988. ص: 389.

185- سي يوسف محمد، " نظام التعليم ببلاد زواوة بأيالة الجزائر خلال العهد العثماني ". أعمال مؤتمر الدراسات العثمانية:" الحياة الفكرية في الولايات العربية"، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي. زغوان (تونس): منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، (ط1)، 1990.

186- شرف عبد الحق، صورة الأسرة المشرفية بمنطقة معسكر في كتابات يحي بوعزيز، ضمن مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، ع: 1، جوان .2011

187- طيبي مهدية، نموذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17- 18م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية ووثائق الأرشيف الوطني الجزائري. ضمن مجلة الدراسات التاريخية، ع: 14، سنة: 1433- 2012م، دورية محكمة يصدرها قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر (2).

188- فكرات عابد، الموسوعية العلمية لعلماء الجزائر مخطوط "إمعان البيان في مسألة الإجارة على القرآن" لابن العنابي الجزائري الحنفي نموذجا. ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 09، سنة 2012.

189- فكرات عابد، قراءة في مخطوطات " ثبت ابن العنابي الجزائري". ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 7، سنة .2010

190- قشي فاطمة الزهراء، معالم قسنطينة وأعلامها، ضمن مجلة إنسانيات، الصادرة عن مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (crask) بوهران. ع: 19- 20، جانفي-جوان: 2003.

191- لزغم فوزية، قـراءة في مخطـوط " ياقـوتة النـسب الوهـاجـة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة " لأبي حامد محمد العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 7، سنة 2010.

192- لزغم فوزية، التعريف بوثائق عائلة الكتروسي المازونية (الوثائق الخاصة بالعهد العثماني)، ضمن المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع: 10، سنة 2013.

(ه)- المعاجـــم والقوامـــيس:

193- الفيروز أبادي، القـــــــــاموس المحيط، ضبط: يوسف البقاعي. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، .2005

194- المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية. مصر: مكتبة الشروق العربية، (ط4)، 2004. ص: 78.

195- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لســـــــــان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون. القاهرة: دار المعارف.

196- مرتضى الزبيدي، شرح القاموس " تاج العروس من جوهر القاموس". مصر: المطبعة الخيرية بجمالية مصر، (ط1)، 1888، 10 ج.

(و)- الأطـــــروحـــات:

197- آل سيد الشيخ سعاد، رحلة المجاجي (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، بإشراف: أ.د عبد المجيد بن نعمية، جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. قسم: الحضارة الإسلامية. (2007- 2008).

198- بحري أحمد، حاضرة مازونة دراسة حضارية في العصر الحديث (1500-1900م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في: التاريخ والحضارة الإسلامية، بإشراف: محمد بن معمر. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. قسم: الحضارة الإسلامية. (2012-2013).

199- بن جبور محمد، صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين 17 و18م. رسالة ماجستير في: تاريخ العلاقات الدولية، بإشراف: غازي جاسم. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم: التاريخ وعلم الآثار. (2002- 2003).

200- بن داود نصر الدين، بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ- 13م إلى القرن 10هـ- 16م. أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، بإشراف: أ. د: محمد بن معمر. جامعة أبو بكر بن قايد- تلمسان. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. قسم التاريخ وعلم الآثار. (2010- 2011).

201- بوشريط أمحمد، ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي (300-460هـ/912-1067م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، بإشراف: محمد بن معمر. جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، (2012-2013).

202- بودريعة ياسين، أوقاف الزوايا والأضرحة بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني من خلال سجلات المحاكم الشرعية وسجلات بيت المال والبايليك، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، (2006-2007).

203- بوشنافي محمد، القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني(10-13ه/ 16-19م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في: التاريخ الحديث والمعاصر. بإشراف: بوعلام بلقاسمي. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ. (2007- 2008).

204- بوكفة يوسف، مدرسة مازونة الفقهية، رسالة ماجستير، في: علم الاجتماع التربوي، بإشراف: بن عمر يزلي. جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم: علم الاجتماع. (2003- 2004).

205- حمدادو بن عمر، " المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب خلال القرنين (11- 12هـ/ 17- 18م)". أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الحضارة الإسلامية. بإشراف: بن نعمية عبد المجيد. جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. (2012-2013).

206- خليفي رفيق، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3هـ إلى نهاية القرن 9هـ. رسالة ماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، بإشراف: نجيب بن خيرة. جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. قسم التاريخ، (2007- 2008).

207- شذري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات (1671-1830م). رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر: (2005-2006).

208- شرف عبد الحق، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس للعربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895م، دراسة وتحقيق إلى نهاية الترجمة الرابعة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة، بإشراف: عبد المجيد بن نعمية. جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، (2011-2012).

209- لعباسي محمد، الإفتاء في الجزائر العثمانية (918-1245ه/ 1512- 1830م). أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية. إشراف: سلطاني الجيلالي. جامعة وهران: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية. (2012-2013).

ثانيا- المصـــادر والمـــراجـــع باللـــغة الفـــرنســـية:

(أ)- المصادر والمراجـــع:

210- Belhamissi Moulay, Mazouna (une petite ville, une long histoire). . Alger : société nationale d'Edition et de Diffusion, 1981.

211-De Gonzalez Joachim, Essai chronologique sur les Musulmans célèbres de la ville d'Alger. Alger : Imprimerie Victor Pezé. 1887.

212 -De Haedo Diego, Histoire des rois d'Alger. Alger : Edition Grand – Alger Livre (G.A.L) ,2004.

213- Derdour H' sen, Annaba 25 siècles de la vie quotidienne et de la lutte. Alger : Imprime sur les presses du Complexe Graphique de

Reghaia, 1983. (Menue Appendices sur l'histoire général du grand Maghreb).

214 -DE Tassy Laugier, Histoire de royaume d'Alger, avec l'état présent et son gouvernement, de ses forces de terre et de mer, de ses revenus, police, justice politique et commerce. Amsterdam : chez Henri du sauzet M.DCC, 1725.

215-Devoulx Albert, Notices sur les corporations religieuses d'Alger. Alger : typographie Adolphe Jourdan ,1912.

216-Devoulx Albert, -Tachrifat, (Recueil de notes historiques sur L'administration de l'ancienne régence d'Alger). Alger : Imprimerie du gouvernement, 1852.

217-Gaffaral Paul, L'Algérie, Histoire, Conquête et colonisation. Paris : Imp de l'institut, 1883.

218 -Grangaud Isabelle, La ville imprenable (une histoire sociale de Constantine au 18e siècle). Paris : Edition de l' Ecole des Hautes Etudes en sciences sociale. 2002.

219- Marcel Emerit, L'Algérie à l'époque d abd – El- Kader. Paris : Editions la rousse, 1951.

220 - Mercier Ernest, Histoire de Constantine. Constantine : J. Marle et F. Biron, Imprimeurs –Editeurs, 1903.

221- Shaw Thomas, L 'Algérie un siècle avant l'occupation française (Au 18 e siècle), témoignage de Shaw. Traduit de l'Anglais par : J. Mac. Carthy .Paris: Editions Imprimerie de Carthage. 2eédition, 1968.

222- Venture de paradis, Alger au 18e siècle. Alger : Imprimeur-libraire, 1898.

(ب)- المـــجـــــــلات:

223- Berbrugger. A, Epoque de L'établissement des Turcs à Constantine, in **R A**, N° : 1, Année : 1856.

224- Cour A, L'occupation Marocaine de Tlemcen (septembre 1830- janvier 1836), Revue Africaine.(in **R**. **A**). Année : 1908, N° : 52.

225- Devoulx Albert, " Les Edifices Religieux de l'ancien Alger ". Alger : Office des publications Universitaires, in **R**. **A**,

- N° : 10, Année : 1866.

-N° : 11, Année : 1867.

-N° : 12, Année : 1868.

-N° : 14, Année : 1970.

226 - Féraud Charles, Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit Arabe. In **R**. **A**. Alger : O P U. N° : 12, Année : 1868.

227- Féraud. L, Les anciens établissements religieux musulmans de Constantine, in **R**. **A**, N° :12, 12 Année : 1868.

228 -Féraud, Exploitation des forêts de La Krasta dans la Kabylie orientale sous la domination Turque, in **R**.**A**.

-Volume :12. Année : 1868.

- Volume :13. Année : 1869.

229 - G.Faure- biguet," Notice sur le Cheikh Mohammed Abou Ras". Journal Asiatique, (Septembre- Octobre), 1899, Journal Asiatique, Série 9, Tome14. Paris : Imprimerie national.

230- Mercier Ernest, " Constantine au 17e siècle, (élévation de la famille el fagoun " , Extrait du recueil des notice et Mémoire de la société archéologique de Constantine . volume : XIX, Année : 1878. Constantine : Typographie L. Arnolet AD. Braham .1879.

231-Laloé Francis, A propos de l'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie par les Arabe. in **R**. **A**. N° : 66. Année : 1925.

فهرس

الموضوعات

المـــــوضـــــوع:.....الصفحة

مـــــقـــــدمـــــة.....أ

المـــدخـــــــل: البيـــوتـــات: دلالاتها وخصـــائصها

(أولا): البيوتات دلالاتها وخصائصها في تراث العصور الإسلامية الأولى..... 2

(1)- مفهوم البيوتات..... 2

(2)- عدد أعلام البيت..... 5

(3)- البيوتات والسلطة الحاكمة..... 7

(4)- البيوتات، الرياسة والجاه (جدلية التأثير والتأثر).....8

(ثانيا): مصطلح البيوتات ودلالته في تراث الجـــزائر العثمانـــية .....
10

(1)- مصطلح البيوتات في مصنفات علماء الجزائر العثمانية..... 10

(2)- دلالات مصطلحي البيوتات والأسر العلمية في الدراسات الحديثة 13

(3)- دلالات مصطلحي البيوتات العلمية والدينية في الدراسات الحديثة 14

الباب الأول:

التعريف بالبيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني

الفصل الأول: البيـــوتات والأسر العـــلمـــية بدار السلطان

المبـــــحث الأول: بيـــــــت قـــــــــدورة 22

(أولا)- علماء بيت قدورة 23

(1)- الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن..... 23

(2)- الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد قدورة.....27

(3)- أبو العباس أحمد بن سعيد قدورة 29

(4)- علال بن سعيد بن إبراهيم قدورة 32

(5)- إبراهيم بن سعيد بن إبراهيم قدورة 33
(6)- الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد 34
(7)- الحاج أحمد بن سعيد بن سعيد 35
(8)- عبد الرحمن بن أحمد المرتضى..... 35
(ثانيا)- بيت قدورة وإدارة الجامع الكبير بمدينة الجزائر 40
المبـحث الثاني: بيـــــــت ابـن العـــــنابـــــي الحنفي..... 42
(1)- مصطفى بن رمضان العنابي 44
(2)- حسين بن محمد العنابي..... 47
(3)- الشيخ محمد بن حسين بن محمد 49
(4)- الشيخ محمود بن محمد بن حسين بن محمد 49
(5)- محمد بن محمود نزيل الإسكندرية 50
المبحـث الثالث: بيـــــت ابـــن عـــلـــــــي 58
(1)- رمضان بن يوسف العلج 60
(2)- الشيخ محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العلج 60
(3)- محمد بن محمد المهدي 62
(4)- أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد المهدي 63
المبحـث الرابع: بيـــت أبهلول المجاجي بالقرب من تنس 70
(أولا)- نسبه ومكانته 70
(ثانيا) - علماء بيت أبهلول 74
(1)- علي بن أحمد آبهلول 75
(2)- أبو عبد الله محمد بن علي أبهلول 76
(3)- الشيخ أبو علي بن السيد علي أبهلول 81
(4)- أبو الحسن علي بن الشيخ محمد بن علي أبهلول 83
(5)- أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن علي آبهلول 84
(6)- أبو الحسن علي بن عبد الرحمن 86
(7)- عبد القادر الجيلاني بن عبد الرحمن بن محمد بن علي 87

(ثالثا)– متأخرو بيت أبهلول المجاجي 88
المبـــحث الخامس: بيوتات وأسر علمية متفرقة ذات أصول أندلسية 89
(أولا)– أسرة ابن عبد اللطيف 90
(1)– أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف 91
(2)– الشيخ أحمد زروق بن السيد محي الدين بن عبد اللطيف 93
(3)– عبد الرحمن بن عبد اللطيف 94
(4)– محمد بن عبد اللطيف 95
(5)– محمود بن عبد اللطيف 95
(ثانيا)– أسرة ابن نيكرو 96
(1)– إبراهيم بن نيكرو 96
(2)– محمد بن إبراهيم بن أحمد بن موسى النيقرو 97
(3)– أحمد بن محمد بن إبراهيم 98
(4)– مـــحـــمـــد بن محمد بن إبراهيم 98
(5)– محمد بن إبراهيم بن علي النيكرو 98
(6)– الشيخ علي بن النيكرو 99
(ثالثا)– أسرة ابن عمار 100
(1)– الشيخ عمار بن عبد الرحمن 101
(2)– أحمد بن عمَّار 101
(رابعا)– بيت ابن مبارك القلعي 102
(1)– الشيخ علي بن مبارك القلعي 102
(2)– مـــحـــي الـــديـــن بن "سيدي" علي بن مبارك 103
(3)– محمد بن أحمد بن سيدي مبارك 103
المبحث السادس: بيوتات وأسر علمية متفرقة ذات أصول المحلية والعثمانية 104
(أولا)– أسرة المانجلاتي 104
(1)– أحمد المانجلاتي 104

(2)- الشيـــخ أبـــو حـــــفص عمر المانجلاتي 106
(3)- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر المنجلاتي 108
(4)- الشيخ أحمد المنجلاتي 110
(5)- الشيخ علي بن محمد المانجلاتي..... 111
(6)- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر المانجلاتي..... 112
(7)- شخصيات علمية أخرى من أسرة المنجلاتي 112
(ثانيا)- بيت الشريف الزهار 113
(1)- محمد الشريف الزهّار 113
(2)- السيد أحمد بن محمد الشريف الزهار 114
(3)- الحاج أحمد بن الحاج علي الزهار 114
(ثالثا)- أسرة القوجيلي أو ابن أقوجيل 115
(1)- الشيخ محمد بن علي القوجيلي 115
(رابعا)- أسرة ابن قرواش 116
(خامسا)- عائلة البرادعي 117

الفصل الثاني: البيـــوتات والأسر العـــلمـــية ببايليك الشرق

المبـــــحث الأول: بيـــــت الفـــــكـــــون بقسنطينة 123
(أولا)- نسبه ومكانته 123
(ثانيا)- علماء بيت الفكون خلال العهد الحفصي 125
(ثالثا)- علمـــاء بيت الفـــكون خلال العهد العثماني 126
(1)- الشيخ أبو زكريا يحي بن محمد الفكون.....126
(2)- الشيخ قاسم بن يحي بن محمد الفكون..... 127
(3)- الشيخ أبو محمد عبد الكريم الفكون (الجد) 128
(4)- الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفكون 130
(5)- أبو محمد عبد الكريم بن محمد الفكون (الحفيد)..... 130
(6)- محمد بن عبد الكريم الفكون 135

(7)– بدر الدين بن محمد الفكون..... 138
(8)– السيد عبد الرحمن بن بدر الدين الفكون 138
(9)– الشيخ محمد الفكون..... 139
(10)– السيد حسين الفكون..... 141
المبـــحث الثاني: بيوتات علمية عريقة بقسنطينة منذ العهد الحفصي.....141
(أولا)– بيت ابن باديس 142
(أ)– علماء بيت ابن باديس خلال العهد الحفصي 142
(ب)– علماء بيت ابن باديس خلال العهد العثماني 144
(1)– بركات بن أحمد بن باديس..... 144
(2)– أبو العباس أحمد حميدة بن باديس..... 145
(3)– أبو زكريا يحي بن حميدة باديس..... 145
(4)– أبو عبد الله محمد بن يحي بن باديس..... 145
(5)– أبو العباس حميدة بن يحي بن باديس..... 146
(6)– بركات بن عبد الرحمن بن باديس..... 147
(8)– السيد علي النوري بن السيد محمد بن باديس..... 148
(ثانيا)– بيت ابـــــن الغـــــربـــي.....148
(أ)– نسب بيت ابن الغربي ابن قنفد فيما بعد.....148
(ب)– علماء بيت ابن قنفد في ظل الحفصيين 149
(ج)– علماء بيت ابن الغربي– ابن قنفد سابقا– خلال العهد العثماني.....151
(1)– محمد بن محمد الخطيب الغربي..... 151
(2)– أبو الفضل بن محمد الغربي..... 152
(3)– أبو الحسن بن أبي الفضل الغربي..... 153
(4)– أبو عبد الله محمد القسنطيني الشهير بابن قنفد.....153
(5)– حميدة بن حسن الغربي..... 153

(6)- عمار الغربي..... 154
(ثـالـــثـــا)- بيت الكمـــاد 155
(أ)- علماء بيت الكماد في ظل الحفصيين 155
(ب)- علماء بيت الكماد خلال العهد العثماني 157
(1)- الشيخ عمر بن محمد الكماد المعروف بالوزان..... 157
(2)- الشيخ محمد الكماد (الأب)..... 159
(3)- أبو عبد الله محمد الكماد بن محمد الكماد..... 160
(4)- أبو عبد الله محمد بن محمد الكماد..... 160
(5)- الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القسنطيني..... 161
(6)- علماء آخرين من بيت الكماد..... 163
المبـــحث الثالث: بيوتات وأسر علمية متفرقة بقسنطينة 163
(أولا) - بيت ابـــــــن نعـــــمون 163
(1)- أبو محمد بركات بن نعمون..... 164
(2)- أبو عبد الله محمد بن نعمون..... 164
(3)- محمد ومحمد التومي ولدا محمد بن نعمون..... 167
(ثانيا)- بيت المســـــبح 167
(1)- أبو محمد عبد اللطيف المسبح..... 168
(2)- أبو العباس أحمد المدعو حميدة المسبح..... 168
(3)- أبو محمد بركات المسبح..... 169
(4)- أبو عبد الله محمد المسبح..... 169
(5)- محمد بن المسبح القسنطيني..... 169
(ثالثا)- أسرة العـــــــطار 170
(1)- أبو عبد الله محمد العطار 170
(2)- أبو القاسم العطار 170

(3)- أبو عبد الله بن العطار..... 171
(رابعا)- أسرة ابن جلول 171
(1)- الشيخ شعبان بن جلول..... 171
(2)- أحمد بن جلول..... 172
(خامسا)- بيت ابن عبد المؤمن..... 172
المبحـــث الرابع: بيت ابن ساسي البوني بمدينة عنابة 174
(أولا)- نسبه ومكانته 174
(ثانيا)- علماء بيت ابن ساسي البوني..... 177
(1)- الشيخ إبراهيم بن محمد 177
(2)- الشيخ محمد بن إبراهيم ساسي البوني..... 177
(3)- الشيخ قاسم بن محمد الساسي 179
(4)- الشيخ أبو العباس أحمد بن قاسم البوني..... 182
(5)- الشيخ محمد بن أحمد بن قاسم البوني..... 185
(6)- الشيخ أحمد الزروق بن أحمد البوني 187
(7)- بعض أفراد الأسرة من أهل العلم..... 190
المبحـــث الخامس: البيوتات والأسر العلمية ببلاد زواوة.....
190
(أولا)- البيوتات العلمية ببجاية منذ تبعيتها إلى الحفصيين إلى مطلع القرن 16م... 190
(أ)- بيت المشذالي 191
(ب)- بيت بنو خلدون..... 191
(ج) - بيت بنو سيد الناس اليعمري ببجاية 194
(1)- علماء بيت ابن سيد الناس في العهد الحفصي 194
(2)- أبو يوسف بن الحسين بن علي بن سيد الناس..... 198
(د)- بيت ابن القاضي الغُبريني 199
(1)- علماء بيت ابن القاضي في العهد الحفصي..... 199

(2)- أبو محمد بن أحمد بن القاضي الغربيني 200
(ثانيا): بيت الورثيلاني ببلاد زواوة..... 203
(أ)- نسبه ومكانته..... 203
(ب)- علماء بيت الورثيلاني 205
(1)- الشيخ أحمد الشريف بن علي البكاء (البكاي) البجائي..... 205
(2)- يحي بن أحمد الشريف..... 205
(3)- الحسين بن يحي بن أحمد الشريف..... 206
(4)- محمد بن الحسين بن يحي الورثيلاني..... 206
(5)- محمد الصغير بن رقية..... 207
(6)- الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني..... 208
(7)- علماء آخرين من بيت الورثيلاني..... 211
(ثالثا)- أسر علمية متفرقة ببلاد زواوة 211
(أ)- أسرة ابن مصباح 211
(1)- محمد بن مصباح 211
(2)- الحسن بن أحمد زروق بن مصباح 211
(ب)- أولاد "سيدي" محمد صالح 212
(1)- الشيخ محمد صالح 213
(2)- حسين بن محمد صالح 213
(3)- علماء آخرين من أولاد "سيدي" محمد صالح..... 214
(ج)- أسرة ابن علي الشريف..... 215
(1)- محمد بن علي الشلاطي 215
(د)- أسرة ابن أبي داود..... 216
(1)- السعيد بن عبد الرحمن بن أبي داود..... 216

(2)- أبو القاسم بن السعيد بن أبي داود..... 217
(ه)- **أولاد سيدي الصادق**..... 217
(و)- **أولاد سيدي علي بن سليمان البرباشي** 218
(ز)- **أولاد الشيخ سيدي الموهوب**..... 218
المبحـــث السادس: البيوتات والأسر العلمية بإقليم الزيبان..... 219
(أولا)- **بيت سيدي المبارك بن ناجي بالحنقة بضواحي بسكرة** 219
(أ)- **نسبه ومكانته** 219
(ب)- **علماء بيت مبارك بن ناجي** 221
(1)- المبارك بن قاسم بن ناجي..... 221
(2) - محمد التواتي بن المبارك الحنقي..... 222
(3)- محمد بن محمد الطيب الحنقي..... 222
(4)- أحمد بناصر بن محمد بن محمد الطيب..... 226
(ثانيا)- **بيوتات وأسر علمية متفرقة بإقليم الزيبان بسكرة** 227
(أ)- **أسرة ابن رمضان** 227
(ب)- **الأسرة الحافظية** 227
(1)- أحمد بن محمد الهجرسي..... 228
(2)- عبد الحفيظ بن محمد الحنقي..... 229
(ج)- **بيت ابن عزوز** 230
(1)- أحمد بن عزوز..... 230
(2)- محمد بن أحمد بن عزوز البرجي..... 231

الفصل الثالث: البيـــوتات والأسر العلمية ببايليك الغرب

المبـــحث الأول: بيت المشـــــــــارف بإقليم الراشدية..... 237
(أولا)– نسب المشارف..... 237
(ثانيا)– الأجداد الأوائل للمشارف 238
(ثالثا)– علماء المشارف الأوائل بغريس..... 240
(1)– الشيخ أبو العباس أحمد أبو جلال المشرفي..... 240
(2)– الشيخ اعمر التـــــراري بن أحمد أبي جلال المشرفي.....
241
(رابعا)– بيـــــــــوتات المشـــــــارف..... 242
(أ)– بيت الشيخ عبد القادر المشرفي..... 243
(1)– الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي..... 243
(2)– الشيخ الطاهر بن عبد القادر المشرفي 245
(3)– الشيخ أحمد بن الطاهر المشرفي..... 247
(4)– محمد بن عبد الله سقط..... 247
(ب)– بيت أولاد السيـــــد بـــوجـــــلال.....251
(1)– الشيخ ابن عبد الله السنوسي بن المهدي..... 251
(2)– الشيخ علي بن عبد القادر المشرفي..... 251
(3)– أبو حامد محمد العربي بن عبد القادر المشرفي..... 251
(ج)– بيـــــت الحـــــمـــــر 253
(1)– الشيخ عبد القادر بن المصطفى الأحمر..... 253
(2)– محمد بن المصطفى الأحمر..... 254
(د)– بيت أولاد السيد عبد القادر بن امحمد..... 254
(1)– الشيخ الحاج بن عب بن المصطفى..... 254
(2)– علماء آخرين من بيت أولاد السيد عبد القادر بن امحمد..... 255
(ه)– أولاد البقـــــــرة..... 255

(و)- بيت أولاد السيد ابن عبد الحاج..... 256
المبـــحث الثاني: بيت أولاد عبد القادر بن المختار بإقليم الراشدية..... 257
(أولا)- نسبه 257
(ثـــانـــيا) - علمـــــــــــاء بيت السيد عبد القادر بن المختار..... 258
(1)- أحمد بن محمد الراشدي 258
(2)- أبو محمد عبد القادر بن أحمد المختار (الجد)..... 259
(3)- السيد أحمد المختار بن عبد القادر بن خدة..... 260
(4)- الشيخ عبد القادر بن أحمد المختار (الحفيد)..... 261
(5)- السيد محمد بن عبد القادر بن المختار (المعروف بشايب ذراع) 261
(6)- الشيخ مصطفى بن المختار .....262.
(7)- الشيخ محي الدين بن مصطفى بن المختار..... 263
(8)- علي بن أبي طالب بن مصطفى بن المختار..... 265
(9)- السيد محمد السعيد بن محي الدين..... 266
(10)- عبد القادر بن محي الدين عالـــمًا..... 267
(11)- السيد المختار بن الطاهر بن البشير..... 269
(12)- الشيخ الطيب بن المختار بن الطاهر..... 270
المبحث الثالث: بيـــــوتات وأسر علمية متفرقة بمدينة معسكر وضواحيها....
270
(أولا)- بيـــــــــت دح بـــــن زرفـــــــــة 270
(أ)- نســـــــــبه ومكانته 270
(ب)- علـــــــمـــاء بيـــت دحـــو بـــــن زرفـــــة..... 273
(1)- الشيخ عثمان بن عيسى..... 273
(2)- عبد الرحمن بن علي المعروف بدحـــو بن زرفـــة..... 273
(3)- أبو عبد الله محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة..... 274
(4)- السيد عبد القادر بن السنوسي (الوالد)..... 276
(5)- السيد السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي..... 277

(6)- الشيخ السنوسي بن السنوسي..... 278
(ثانيا)- بيـــت أولاد أحمد بن علي بشنتوف 278
(1)- الهـــاشمـــي بن علي بن بوشنتوف..... 279
(2)- السيد محمد بن الهاشمي بن علي..... 279
(3)- السيد أحمد بن التهامي..... 280
(4)- مصطفى بن أحمد بن التهامي..... 280
(ثالثا)- أسرة ابن سحنون الراشدي..... 282
(1)- الشيخ محمد بن علي بن سحنون.....282
(2)- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون..... 283
(رابعا)- أسرة أولاد السيد اعمر بن دوبـــة..... 285
(1)- الشيخ محمد ابن آمنة..... 285
(خامسا)- أســـــرة أبو راس الناصـــري.....
286
(1) - المآثر العلمية لأسرة الناصري كما ذكرها أبو راس في "فـــتح الإلـــه".....
286
(2)- الشيخ محمد أبو رأس الناصري..... 288
- المبحث الرابع: البيوتات العلمية بمدينة تلمسان... 289
(أولا): البيـــــت المقَّـــــري بتلمسان 291
(أ)- نسبه ومكانته في ظل الزيانيين.....291
(ب)- علماء بيت المقري في ظل الزيانيين..... 292
(ج)- علماء بيت المقري في ظل العثمانيين..... 293
(1)- سعيد بن أحمد المقري..... 293
(2)- الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المقري..... 296
(3)- الشيخ محمد بن محمد شقرون المقري..... 299
(ثانيا)- بيـــــت العقـــــباني 302

(أ)– **علماء بيت العقباني في ظل الزيانيين** 303
(ب)– **علماء البيـــت العقـــباني منذ القرن 10ه/ 16م** 304
(1)– الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن قاسم بن سعيد العقباني..... 304
(2)– محمد بن أبي يحي بن قاسم بن سعيد العقباني..... 305
(3)– أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي يحي العقباني..... 305
(4)– أبو العباس أحمد الخطيب أبا عبد الله محمد بن ابراهيم العقباني..... 305
(5)– السيد أبو العباس أحمد بن أبي يحي العقباني..... 306
(6)– السيد محمد العقباني..... 306
(7)– الفقيه سعيد بن أحمد بن محمد العقباني..... 306
(8)– السيد محمد خوجة..... 306
(9)– سعيد بن محمد العقباني..... 307
(**ثالثا**)– **بيت ابـــن زاغـــو** (زاغُ)..... 307
(أ)– **علماء بيت ابن زاغو في ظل الزيانيين**.....307
(ب)– **علماء بيت ابن زاغو في ظل العثمانيين**..... 308
(1)– أحمد بن زاغو..... 308
(**رابعا**)– **بيت بن الحاج المناوي اليبدري**..... 308
(أ)– **علماء بيت بن الحاج المناوي اليبدري في ظل الزيانيين**..... 308
(ب)– **علماء بيت بن الحاج المناوي اليبدري في ظل العثمانيين**..... 309
(1)– محمد بن محمد بن سعيد المناوي..... 309
(2)– حدو بن الحاج بن سعيد المناوي..... 310
(3)– حدادة بن محمد بن الحاج اليبدري..... 310
(4)– محمد بن أبي عبد الله بن الحاج..... 310
(5)– الشيخ محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمساني..... 311
(6)– "سيدي" حامد محمد بن عبد الرحمن التلمساني..... 312
(7)– أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني..... 312

– المبحث الخامس: البيوتات والأسر العلمية بمازونة..... 315
(أولا)– بيت الكتروسي..... 316
(1)– السيد أحمد بن خدة..... 317
(2)– السيد المهدي بن أحمد بن خدة..... 318
(3)– السيد المهدي..... 318
(4)– الشيخ أبو عبد الله محمد بن المهدي الكتروسي..... 319
(5)– السيد علي بن "سيدي" المهدي بن محمد بن المهدي..... 320
(ثانيا)– بيت ابن الشارف المازوني..... 320
(1)– الشيخ محمد بن الشارف المازوني..... 320
(2)– الشيخ علي بن محمد..... 322
(3)– عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني..... 322
(4)– الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني..... 322
(5)– السيد هني بن الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني..... 324
(6)– الشيخ أبو العباس أحمد بن هني..... 325
(ثالثا)– أسرى علمية متفرقة بمازونة..... 325
المبحث السادس: البيوتات والأسر العلمية بمستغانم وقلعة بني راشد..... 326
(أولا)– أســـرة ابن حواء المستغانمية..... 326
(1)– محمد بن حواء (الوالد)..... 327
(2)– محمد بن محمد بن حواء (الابن)..... 328
(3)– السيد عبد الله بن حواء..... 329
(4)– الشيخ الطاهر بن حواء..... 329
(5)– السيد أبو محمد عبد الله بن الطيب بن حواء..... 330
(6)– السيد محمود بن حواء التجيني..... 331
(7)– محمد بن حواء بن يخلف..... 331
(8)– الطاهر بن حواء (الثاني)..... 332
(ثانيا)– أسرة ابن خوجة المستغانمية..... 332

(1)- حسن خوجة..... 332
(2)- السيد محمد بن حسن..... 334
(3)- السيد أحمد بن خوجة المستغانمي..... 334
(ثالثا)- أسرة الخروبي بقلعة بني راشد..... 335
(1)- الشيخ محمد بن علي بن الخروبي القلعي.....335
(2)- السيد محمد بن الجيلاني الخروبي..... 335
(3)- السيد مصطفى بن جلول..... 337
(4)- السيد الحاج محمد بن الخروبي..... 337
(5)- المكي الخروبي..... 338

البـــــــاب الـــثـــــــــاني:

الدور الثقافي والسياسي للبيوتات والأسر العلمية ومكانتها الاجتماعية

الفصل الأول: الدور الثقافي للبيـــوتات والأسر العلمية

المبحث الأول: زوايـــــا ومـــــدارس البيوتـــات العلمـــية 342
(أولا)- زوايا ومدارس البيوتات العلمية بدار السلطان..... 344
(1)- زاوية آل آبهلول المجاجي بثغر تنس.....345
(ثانيا)- زوايا ومدارس البيوتات العلمية بباياليك الشرق.....347
(1)- مدرســة-زاوية بيت الفكون
.....348
(2)- زاوية أسرة ابن ساسي ببونة..... 350
(3)- زوايا الأسر العلمية والدينية ببلاد زواوة..... 351
(4)- زاوية - مدرسة خنقة سيدي ناجي..... 353
(ثالثا) - زوايا ومدارس البيوتات العلمية بباياليك الغرب..... 356
(1)- زاوية بيت عبد القادر بن المختار القيطنة..... 356

(2)- زاوية الشيخ عبد القادر المشرفي بالكرط..... 360
(3)- مدرسة بيت ابن الشارف بمازونة..... 361
المبحث الثاني: محافظة البيـــوتات العلمية على خصوصيتها الثقافية..... 362
(أولا)- الحرص البيوت العلمية على تعليم الأبناء.....363
(1)- أمثلة عن حرص البيوتات على تعليم الأبناء.....363
(2)- تعليم المرأة في البيوتات والأسر العلمية.....363
(ثانيا)- العلاقة بين حملة العلم من أبناء البيت الواحد في المجال الفكري..... 365
(1)- الدراسة على الأقارب..... 365
(2)- تبادل الإجازات العلمية بين أبناء البيت الواحد.....366
(3)- تقديم الأبناء للمناظرة في مجالس الفقهاء.....367
(4)- تبادل الألغاز.....368
(ثالثا)- إشادة أبناء البيوتات العلمية بأسلافهم..... 369
(1)- الافتخار بالانتماء إلى البيوتات العلمية..... 369
(2)- الاعتناء بتآليف السلف نظما وشرحا..... 369
(3)- الإشادة بمآثر السلف في مصنفاتهم..... 369
(رابعا)- توارث الوظائف في البيوتات والأسر العلمية.....371
(1)- تقديم الأقارب سيما الأبناء للوظائف الدينية والعلمية..... 371
(2)- سلبيات توريث الوظائف..... 376
(خامسا)- مكتبات البيوتات العلمية.....378
المبحث الثالث: البيوتات والأسر العلمية والوظائف 381
(أولا)- الإفتاء والقضاء..... 382
(ثانيا)- الوظائف المرتبطة بالقضاء: العدول والموثقون.....391
(ثالثا)- جدول يبين توارث بعض البيوتات للقضاء والوظائف المتصلة به 397
(رابعا)- تحفظ بعض البيوتات من القضاء والوظائف المتصلة به 399
(خامسا)- الخطابة والإمامة..... 402
(سادسا)- نقابة الأشراف..... 403

المبحث الرابع: البيوتات العلمية وإمارة ركب الحج الجزائري.....
410

(أولا)– تعيين أميـــر ركـــب الحج الجزائري..... 410

(ثانيا)– الشروط التي يجب توفرها في أمير الركب..... 415

(ثالثا)– البيوتات التي تداولت على إمارة ركب الحج الجزائري..... 418

(رابعا)– زعماء قوافل الحج الفرعية المكونة للركب الجزائري.....
434

الفصل الثاني: الدور السياسي للبيوتات العلمية

المبحـــث الأول: علاقة العلماء والبيوتات العلمية بالسلطة الحاكمة..... 441

(أولا)– أسباب التقارب بين العلماء والعثمانيين..... 442

(ثانيا)– وسائل السلطة في التقرب من البيوتات العلمية والدينية..... 445

(ثالثا)– أسباب القطيعة بين السلطة والعلماء في أواخر العهد العثماني..... 449

(رابعا)– علاقة السلطة بالبيوتات العلمية في المدن والأرياف..... 452

المبحث الثاني: علاقة بيت ابن القاضي وآل المقراني ببلاد زواوة بالسلطة...463

(أولا)– علاقة بيت ابن القاضي أصحاب إمارة كوكو بالسلطة..... 465

(ثانيا)– علاقة آل المقراني بالسلطة.....470

المبحث الثالث: الدور السياسي لبيت الفكون بقسنطينة..... 482

(أولا)– الدور السياسي للشيخ عبد الكريم الفكون الجد..... 482

(1)– دور عبد الكريم الفكون الجد في دخول العثمانيين إلى مدينة قسنطينة..... 482

(2)– قيام الشيخ عبد الكريم الفكون الجد بمهمات سياسية..... 485

(ثانيا)– دور الشيخ عبد الكريم الفكون الحفيد في إنهاء ثورة ابن صخري..... 487

(ثالثا)– مساهمة السيد عبد الرحمن بن بدر الدين الفكون في القضاء على صالح باي 490

(رابعا)– الدور السياسي للشيخ محمد بن عبد الكريم الفكون في أواخر العهد العثماني492

(1)– موقف بيت الفكون من ثورة ابن الأحرش الدرقاوي بباياليك الشرق..... 492

(2)– تدخل محمد الفكون في حسم الفتنة الواقعة اثر مقتل الباي علي باي بن يوسف. 495

(3)- محمد الفكون وموقفه من الباي محمد شاكر..... 496
(4)- الدور السياسي لمحمد الفكون بقسنطينة في عهد الحاج أحمد باي..... 498
المبحث الرابع: الدور السياسي لبيوتات علمية مختلفة..... 504
(أولا): دور البيوتات العلمية في المهام السياسية الخارجية..... 504
(1)- الشيخ محمد بن علي القوجيلي الحنفي في مهمة سياسية بإستنبول..... 504
(2)- الدور السياسي للشيخ محمد بن العنابي الحنفي..... 506
(3)- دور الشيخان علي بن النيكرو ومحمد الخنقي في الوساطة بين الجزائر وتونس..... 508
(ثانيا)- دور البيوتات العلمية في المهام السياسية الداخلية..... 509
(1)- دور السيد محي الدين بن مبارك القليعي في الوساطة السياسية..... 509
(2)- دور محمد بن إبراهيم البوني وبيته في الوساطة السياسية بباياليك الشرق..... 510
(3)- الدور السياسي لأسرة الورثيلاني ببلاد زواوة..... 514
(4)- دور الشيخ محمد صالح في الإصلاح بين القبائل ببلاد زواوة..... 516
(5)- دور محمد بن سعد اليبدري التلمساني في الوساطة لدى قبائل ولهاصة..... 516
(رابعا)- الدور السياسي لبيت أولاد سيدي ناجي بالخنقة..... 517
(خامسا)- موقف البيوتات من ثورات الطرق الصوفية في أواخر العهد العثماني..... 519
(سادسا) - دور البيوتات العلمية في الجهاد..... 526
(1)- مشاركة البيوتات العلمية في الجهاد في ظل العثمانيين..... 526
(2)- دور البيوتات في مواجهة الاحتلال الفرنسي..... 526
الفصل الثالث: المكانة الاجتماعية للبيوتات والأسر العلمية
المبحث الأول: علاقات البيوتات العلمية ببعضها وبالمجتمع..... 532
(أولا)- عـــلاقة الصداقة بين بيوتات العلمية..... 532
(ثانيا)- التنافس بين البيوتات العلمية..... 535
(1)- أسباب التنافس بين العلماء ونتائجه..... 535
(2)- التنافس حول الوظائف العلمية والدينية..... 537
(3)- المنافسة بين البيوتات العلمية بمدينة الجزائر..... 541
(4)- المنافسة بين البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة..... 547

(ثالثا)– مكانة البيوتات العلمية ودورها الاجتماعي..... 549
المبحث الثاني: البيوتات العلـــمية والأنساب العربية (النسب الشريف)...555
(أولا)– كيفية إثبات النسب الشريف..... 556
(ثانيا)– ظاهرة ادعاء النسب الشريف..... 559
(ثالثا)– اهتمام العلماء المنتسبين للأشراف بالنسب الشريف..... 561
(رابعا)– الطعن في الأنساب..... 563
(خامسا) – دور الأشراف..... 568
المبـــــــحث الـــــــثالث: مصاهرات البيوتات والأسر العلمية..... 570
(أولا)– مصاهرات البيوتات العلمية بدار السلطان..... 571
(ثانيا)– مصاهرات البيوتات والأسر العلمية ببايليك الشرق..... 575
(ثالثا)– مصاهرات البيوتات والأسر العلمية بالغرب الجزائري..... 585
المبـــــحث الرابع: امتيازات البيوتات والأسر العلمية..... 590
(أولا)– الامتيازات المادية..... 591
(ثانيا)– الامتيازات المعنوية..... 593
(ثالثا)– نماذج عن الامتيازات الممنوحة لبعض البيوتات العلمية..... 594
(خامسا)– حصر بعض الوظائف في بيوتات معينة امتياز مادي ومعنوي..... 602
المبحث الخامس: الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية..... 605
(أولا)– الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية بدار السلطان..... 607
(ثانيا)– الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية ببايليك الشرق..... 610
(ثالثا)– الوضع المادي للبيوتات والأسر العلمية ببايليك الغرب..... 615
(رابعا)– أوقاف البيوتات العلمية 618
(خامسا)– الصداق كمظهر من مظاهر الجاه والثراء..... 621
الخـــــــاتمـــــــة 626
المـــــــلاحـــــق.....631
فهرس المصادر والمراجع.....647

فهرس الموضوعات 671

ملخص

يحتوي البحث على مدخل وبابيـن،المـدخـــل بعنوان: «البيـوتـات: دلالاتها وخصـائصها»،الباب الأولبعنوان ب:**" التعريف بالبيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني"**، ويضم ثلاثة فصول. **الفصل الأول** الخاص ب**البيـوتات والأسر العلمـية بدار السلطان** يضم ستة مباحث، أما **الفصل الثاني** فهو مخصصللتعريف ب**البيـوتات والأسر العلمـية ببايليك الشرق،** ويضم هو الآخر ستة مباحث، و**الفصل الثالث** مخصص **للبيـوتات والأسر العلمية ببايليك الغرب،** وهو يضم ستة مباحث. أما الباب الثاني فهو بعنوان ب:**" الدور الثقافي والسياسي للبيوتات والأسر العلمية ومكانتها الاجتماعية"**، وهو الآخر يضم ثلاثة فصول. **الفصل الأول** بعنوان:**" الدور الثقافي للبيـوتات والأسر العلمية"**، وهو يضم أربعة مباحث، تناولنا في المبحث الأول. أما **الفصل الثاني** من هذا الباب فخصصناه **للدور السياسي للبيوتات والأسر العلمية،** وهو يضم أربعة مباحث، وختمنا هذا الباب ب**المكانة الاجتماعية للبيوتات والأسر العلمية،** وهو يضم خمسة مباحث.

الكلمات المفتاحية:
أسر متنفذة؛ العهد العثماني؛ بايليك الشرق؛ بايليك الغرب؛ دار السلطان؛ بيت قدورة؛ بيت الفكون؛ الحياة الثقافية ؛ الزوايا؛ المدارس؛ المناصب الدينية.

نوقشت يوم 26 جوان 2014